

الجمهورية العراقية - وزارة الاعلام

القرآن الكريم للكتاب في كنز الأيوب

المجلد الاول

القصص

ذو النون أيوب



الأهـدأ

- الى من حملوا على عاتقهم اعظم مهمة
- الى من حرموا من كل ما يسمى سلطه او سطوة
- الى رفيقائي ورفاقي في المهنة

ذو النون ايوب

المجموعة الأولى

رُسُلُ الثَّقَافَةِ

الطبعة الأولى.	١٩٣٧
الطبعة الثانية.	١٩٤٢
الطبعة الثالثة.	١٩٥٨
الطبعة الرابعة.	١٩٧٧

مقدمة

في يقيني ان اعظم مهمة يجب على الادباء، والقصاصين منهم على الاخص، ان يضطلعوا بها ، هي اعطاء صور فنية صادقة لما يقع تحت ابصارهم من حوادث عجيبة ، وشخصيات غريبة ، وانظمة وقوانين حكومية او شعبية ، يدخل ضمن ذلك تلك القوانين غير المكتوبة ، التي يخضع تحت تأثيرها المجتمع ، وينفذها غير خائف عقابا او راجيا ثوابا تلك الانظمة المتعارفة ، والتقاليد المرعية التي تشرب احترامها في دمه ، والتي يتعصب لها فيعمى عما فيها من حسن او قبح . وتزداد هذه الصور قيمة كلما اختلطت بشيء من التحليل يجمع بين نواحيها المتباعدة ، ومظاهرها المربكة ، فيفسر ما غمض من اسبابها وعللها .

وقد اعتاد بعض الكتاب ان يكتروا من الكتابة عن حاضرمهم ، واختار آخرون الكتابة عن الماضي ، وسأكون من النوع الاخير في كتابة هذه المجموعة ، لاني اعتقد ان صورة الماضي لا تقل اهمية عن صورة الحاضر ، فهي ابدأ ذات علاقة بالحاضر وتأثير فيه ، فاذا كان الحاضر عظيما والماضي حقيراً كانت المقارنة بين الاثنين اعظم منفر من الماضي ، واكبر مرغ في الحاضر ، وان شابت الحاضر بعض الشوائب وجدت جذورها في الماضي ، مما يساعد على اقتلاع الفاسد من اساسه ، وان كان القبح في الثاني اطلعتك المقارنة على موطن الداء وفعل الجرائم العالقة بالفرع ، فيسهل ذلك استئصالها لانقاذ الاصل الصالح .

وفي الكلام عن الماضي ، عدا ما مر ، ميزات لا تقدر بثمن ، فالماضي لانصير له ، ولا مدافع عنه ، هذا اذا سلم من القادح الذام الذي يرجو بقدره تقربا من ابطال الحاضر . ففي الماضي كنز من الحرية التي يحتاجها الاديب ، والتي لا يعيش بدونها اكثر مما تعيش السمكة خارج الماء . ويزيدني تعلقا بهذا

الماضي ، والكتابة عنه شيوع الاغلاط الفاضحة فيه ، وضرورة التحامل عليه بصورة لا تتوفر للكاتب عن الحاضر ، لان الكتابة عن الحاضر تعني عند البعض التدخل في السياسة . والكاتب ، أو المتكلم عن السياسة الحاضرة يوصم بما يشين ، اذا توخى الصدق فيسمى شيوعياً أو كافراً أو ملحداً زنديقاً أو عدواً للعروبة ولست من هؤلاء . ولست اعني بالماضي ما يرجع تاريخه الى عشرات اسنين، فالسنة الماضية تعتبر ماضياً ، وما حدث قبل سبعة اشهر يعتبر ماضياً مظلماً حقيراً بقدر ما يعد الحاضر مقدساً مجيداً . وان كنت في شك من صحة قولي فسا عليك الا ان تطالع كل الجرائد اليومية . فليس فيها واحدة تخالف ما ذكرت . وهل هنالك من هو اصدق من صاحبة الجلالة (الصحافة) ١١٩

فبعد الاطلاع على كل ما مر اعتقد ان القاريء سيبرء ساحتى من تهمة الشعب والتكلم عن السياسة ، وليس في استطاعة احفاد الماضي ان يحاسبوني على ما تبرأوا منه علنا امام العالم ، وان كان في بعض صوري الوان تصدق على الحاضر فليس معنى ذلك ان كل الصورة مقتبسة من الحاضر ، كما انه ليس في استطاعة من يلبس ثوبا من الحرير ان يدعى ان مثلاً هازلاً قد اهانه عندما لبس ثوباً كثوبه . فانا البس ابطال قصصى ملابس مألوفة ، واضع على لسانهم كلاماً دارجاً ، واختار لهم من الصفات ما اراه ملائماً وشائعاً ، ولكن ذلك لا يعنى انهم يعيشون حقيقة ، فهم لا يعيشون خارج كتيبي هذا ، وفي ذلك مايسكت كل مغتاظ . الا اولئك المتأبطين غنوزاً^(١) أو جمالاً ، فهؤلاء لايسكن ان يسكتوا . واخشى ان يصنعوا بي ما صنع المعلمون (بجارلس دكنز) عندما كتب قصته الخالدة « اوليفر تويست »^(٢) .

١ - اشارة الى المثل العامي - الذي تحت ابطه عنز ينفج
٢ - تدور حوادث الرواية المذكورة حول مربى الایتام فقصد وصفهم الكاتب وصفاً دقيقاً اثار ضجة آنذاك ، فقاضاه هؤلاء المربون بتهمة التشهير

السيف المصف

احسب القارئ سيتردد في اعتبار هذه القصة من صنع الخيال ، واحسبه سيقول بأنها تقع كل يوم ، ولكنى لا اريد منه ان يقول ذلك ، فمجرد قوله هذا سيحملني مسؤولية لا طاقة لى بها ، اذ سيثير علي حينذاك عدداً كبيراً من موظفي وزارة المعارف ، ورؤساء دوائنها ، من اولئك الذين لايسرهم ان ترقص الحقائق امام ابصارهم الزائفة

رن جرس التلفون ، فانتبه البيك من غفوته ، وتناول الساعة ، وكان امراً من الوزير بترشيح اربعة مدرسين اكفاء لاربعة وظائف ادارية مهمة ، واعاد الساعة ، ثم رجع الى التهويم ، اذ ان الوقت لديه فيصح ، واعمال وظيفته قليلة ، وما عليه الا أن يلقي ببعض الأوامر والاياعازات الى رؤوسيه حتى يتم كل شيء وفق ما يريد ويتغني •

يحتل هذا (البيك) مركزاً عظيماً ومهما في وزارة المعارف ، وصل اليه بعد جهاد عنيف ، وسعي متواصل • وقد استغرق في جهاده هذا وقتاً طويلاً على الرغم من شدة ذكائه وحيازته شهادة عالية • وقد اسف كثيراً على الوقت الذى اضاعه في التحصيل عندما وجد ما تلقنه لا يفيد مثقال ذرة في هذا العمل الغريب ، ذى الاساليب العجيبة ، واللاظمة الكثيرة الاشكال ، ذات التفسير المتعددة ، والصيغ المطاطة •

وبعد مدة لا تتجاوز ربع الساعة مديده بكسل في جيبه ، واخرج مذكرة صغيرة تحوي بعض الاشارات والاسماء ، ثم تناول قصاصة من الورق ، وسجل فوقها ثلاثة اسماء تحت هذا العنوان (المرشحون للوظائف الشاغرة) • وقد يعجب القارئ من ذاكرة هذا الرئيس التي تعي اسماء كل الموظفين القديرين وتحكم على مقدار كفاءتهم بهذه السرعة العجيبة ، ولكن نظرة بسيطة مختلسة يلقياها على هذه المذكرة تطلعه على سر مهم من اسرار الدولة ، اذ سيجد بجانب

كل اسم اسما اخر لموظف كبير او شخصية بارزة او رجل شهير • وكان سند الاول وزير خبير ، وسند الثاني رئيس تحرير جريدة سياسية مهمة ، وسند الثالث هو نفسه ، فقد كان من اقاربه • وبقي عليه ان يختار الرابع •• عليه ان يجد الرابع ••• وفي تلك اللحظة سمع نقرا خفيفا على الباب ، وما كاد يأذن للطارق بالدخول . حتى رأى امامه شابا نحيف البنية ، رزين الخلق طلق الحيا . سلم بأدب وجلس بعد ان استأذن باحترام ووقار • واقبل عليه (البيك) بالحديث والسؤال عن عمله وصحته وقد ظهرت عليه كل امارات السرور والانبساط ، فقد كان الزائر من انشط المدرسين في منطقته ، واكثرهم غيرة على عمله ، واتقانا له ، فلم ترد شكاية عنه طيلة مدة خدمته ، وحتى من اولئك المدرء اللؤماء الذين يغيبهم كثيراً ان يروا بين مدرسيهم انسانا دمث الخلق لين الجانب يارز الشخصية •

وما كان البيك يجب ناظم افندي (زائره) لطية اخلاقه وغيرته على عمله فحسب ، بل لعدم قيامه ايضا بما يوجب سخط الحكومة من تدخل في امور سياسية ، واتناء الى احزاب او جمعيات وطنية ذات صبغة سياسية ؛ ولعدم اقلاق راحة موظفي هذه الوزارة بانتقاد سياستها واعلان اغلاطها لا قولاً ولا كتابة •

وبعد سكوت قصير تطلع البيك في وجه زائره ، ثم قال والابتسامة ترقص على شفثيه •

— انك محظوظ ، فتنح بحاجة الى موظف مخلص جدي لاشغال منصب مهم شاغر في هذه الوزارة ، وسأرشحك له جزء غيرتك على عملك واخلاصك • فاجاب الضاب وقد احمر وجهه سرورا ، وازدحمت عبارات الشكر على لسانه •

— هذا فضل عظيم منكم وسوف لا انسى لكم هذه المنة ولنسوف تؤيد الحوادث شدة اخلاصى لشخصكم ولعلي •

— هذا واجب.. انك تستحق هذا التقدم بفضل سيرتك الطيبة ،
واخلاصك للوظيفة .

وما كاد الشاب يترك الدائرة حتى رن جرس التلفون مرة اخرى ، وكان
الوزير هو المتكلم ايضا وسمعه يقول

— ضع اسم اسماعيل افندي المدرس في (٠٠٠) في احدى الشواغر
الاربعة .

فاجابه بغيظ ظهرت آثاره على وجهه ولم تبد في كلامه لان اسلاك
التلفون لا تنقل غير الصوت .

— ولكنى ملأت الشواغر ، واعتقد ان الاوامر الادارية قد صدرت
بها ، وقد اشغلتها بمستحقها ، ومعاليكم اعرف الناس بسيرة اسماعيل ، وعدم
كفائه فقد اطلعتم البارحة على التقارير السيئة المقدمة ضده ، حتى انكم
اقترحتم ادخال اسمه في قائمة اسماء المفضولين بقانون الذيل .

— انت محق . ولكن وزيراً مهما يسند هذا الموظف ، وقد

علمنا انه كان يعمل لحسابه ، ومعظم ما قدم عنه من التقارير يرجع
الى هذا السبب ، فليس في استطاعتنا فصله في هذه الحالة ، ولا مناص من
اعطائه منصبا مهما لاسكانه وارضاء الوزير ، وسنحاول تحويله الى وزارة
اخرى اذا تمكنا فيما بعد .

— امر معاليكم مطاع .

وتناول القلم وشطب على اسم الشخص الوحيد الذي يستحق هذا المنصب
عن جدارة بين هؤلاء الاربعة

ولم يخف اسفه الشديد ، ولم يستطع ان يمسك لسانه عن استئزال
لغات الحق والسخط ، بعد ان تأكد من اقبال خط التلفون ، ولكنه مع كل

ذلك لم يتردد لحظة في تنفيذ الامر ، ولم يجد ميلا للدفاع بصورة جدية عن هذا الشاب المسكين ، الذي ترك دائرته قبل برهة ، يعمر قلبه الايمان بعدل الدائرة ، ووجوب الاخلاص للعمل . اجل لم يتردد . وكيف يتردد ؟ لقد اجتاز تلك المرحلة ، التي يقف فيها الموظف مترددا بين الواجب والمصلحة ، منذ خمس سنين ، ودخل في زمرة الموظفين الكبار المجريين المحنكين المشهود لهم بالكفاءة والمقدرة .

ولكنه تألم ، ولم يستطع ان يفعل اكثر من الشعور بالالام ، ولو كان في استطاعته خنق هذا الشعور لفعل . فقد علمته التجربة ان امثال هذا التحرق على الحق من اكبر العوائق في سلم النجاح والتقدم . وقد شرع فعلا يحدث نفسه بما يخفف عنها ضغط الضمير ، ويهون من وقع تأنيبه ، ويبرر عمله .

لماذا يأسف ؟ وهل من واجبه أن يدافع عن أمثال هذا الابله الذي قضى في عمله عدة سنين دون ان يدرس ظروفه او طرق التقدم فيه ؟ وهل تقع مسؤولية كونه مغفلا الى هذا الحد على عاتقه ؟ وما ادراه ان هذه الضربة ستفتح عينه الى رؤية الواقع ، وتجعله يتلافى ما مضى ، ويلج (باب الخيانة) كما يسميه الأغبياء ، و « باب التقدم » كما يسميه الاذكياء ؟

جالت امثال هذه الخواطر في نفسه ، ولكنها لم تقنعه تماما بل بقيت صورة الشاب تراءى له ، وتصوره كالطفل الصغير الذي لا تستطيع اعظم قوى العالم ان تنتزع من نفسه ايمانه باخلاص ابويه وغيرتهم على صالحه ، وتصور نفسه يبيع احد اولاده بسبب الاملاق ، فاقشعر بدنه . ولكنه يبيع هذا المسكين الذي ائتمنه على مستقبله لسبب تافه ولا يقشعر بدنه ، ويحرم المصلحة العامة من انسان مفيد ، وينكبها باخر سيسحقها بقدمه ، دون ان يقشعر بدنه . ولماذا ؟ لقد اجتاز مرحلة السذاجة ، يوم كان يؤمن بكل هذه السفاسف والخزعات ، واصبح انسانا مجربا محنكا مدبرا .

ولكن علام هذا الالاحاح من ضميره ؟ وما ادراه ان تأثير الشاب في نفسه يرجع الى بعض الانطباعات الشخصية التي لا علاقة لها بالعمل ؟

الا يحتمل ان تكون اعماله واقواله وسمعته غير حقيقية ؟ ولكن من اين له معرفة بذلك ؟ . . . وعند ذلك فقط تذكر ان لكل موظف ملفه شخصية تحوي كل ما يتعلق به . اذن فليلق نظرة عليها وعلى ملفات كل المدرسين المتساوين معه في مدة الخدمة ، فلعله يجد عذرا يقنع ضميره ، ويحتج به لاختلافه وعده ، وتسرعه في اسناد المنصب الشاغر له ، فيما لو اتى يطالب بحقوقه التي اعترف بها هو نفسه قبل لحظة .

ودق الجرس ، ودخل الخادم ، فاعطاه ورقة كتب عليها بضعة اسطر ، وطلب منه ان يوصلها لمدير الامور الذاتية ويأتيه بالملفات حالا .

وبعد ساعة من الزمن كانت امامه عشر ملفات تقريبا ، وفوقها ملفه ناظم افندي . فتناولها وشرع يقلبها . . . تقارير مدهشة . . . سمعة طيبة واخلاق فاضلة . . . حياة عسيلة جدية . . . درجات متازة عند التخرج . . . نجاح في الفروع التي قام بتدريسها . . . ثناء عظيم من المدراء والمفتشين . . . شخصية قوية محترمة . . . عدم تدخل في كل ما يمس السياسة ، وهنا وقف وابتمس لان هذا السبب وحده كاف لتفسير اهمال الدائرة لامره حتى الان . لان هذه الدائرة تتذكر المسئ قبل المحسن لتتقي اذاه ، ولها من طيبة قلب المخلصين ما يقيها اذاهم . هكذا اصبح كل عملها محصورا في الدفاع عما ترتكبه من اغلاط ، ولم يبق لديها فرصة تنتهزها للقيام باصلاح .

وتناول الملفات الاخرى واخذ يقلبها الواحدة بعد الاخرى ، فوجد معظم الباقيين في مراكز اهم واخطر ، ولكنه وجد نصف اوراق هذه الملفات شكايات اهمال ، واوراق تحقيق طويلة عريضة ، وعقوبات متفاوتة اصغرها الانذار واكبرها الطرد . ووجد لشدة دهشته في احدها حكما عسكريا بتهمة

خيانة عظمى . وعلى الرغم من طول مدة اشعائه هذا المركز وطول تجاربه ، وكثرة ما مر امامه ، لم يجد اشد من هذه الصورة وضوحا واصدقها تمثيلا لسياسة الوزارة التي يخدم فيها . لا ينكر انه مر بتجارب اقصى من هذه . ولا ينكر انه احتل من امثاله ما ترك في نفسه اثارا واضحة كتلك التي يتركها السوط على جسم المحكوم عليه بالجلد ، ولكنها لم تكن كهذه من حيب الوضوح والقسوة .

سيصل الخبر الى هذا الشاب وسيأتيه لیسأله عن سبب هذا التغير ، وعن سبب اخلافه بوعد ، فيماذا سيحييه ؟ ليته لم يتسرع فيطيع اتجاه قلبه وضميره . ولكن الذنب ليس ذنبه فقط ، بل كان من الواجب على هذا الوزير ان يخبره بظاليه عندما اوعز اليه بماء الشواغر .

واربكته المشكلة وشعر للمرة الاولى في حياته ، بعد ان ارتاح فوق هذا الكرسي عدة سنين ، بالخط على هذه الانظمة التي لا تتفق مع قانون او منطق ، وشعر بالغيظ يكاد يخنقه ، وما كان يخشى بأس الشاب وقوته ولكنه كان يخاف من تلك النظرات الوديعة الصادقة ، ويخشى حلمه وهدوءه ، فقد علمته التجارب ان امثاله لا يتورعون عن القيام ببعض الاعمال الجنونية او ينسون الحذر عندما يحسون بالظلم والغدر ، وقديما قالت الامثال (اتق غضب الحليم) .

وفي هذه الازمة النفسية والثورة الوجدانية تذكر البيك ايام التلمذة ، حين كان مشهورا بين اقرانه بوطنيته واخلاصه ، وحملاته على الرجعيين ، واصحاب الطرق المعوجة وتذكر اوائل ايام حياته العملية ، والنكبات التي كملت له ترى حتى افقدته موازته ، ورمت به الى الهوة التي كان يحذرهما ويندد بالساقطين فيها . تذكر كل ذلك كما يتذكر الرجل العجوز ايام شبابه ، وكما تتذكر المرأة المسنة ايام عرسها الاولى .

ومن بين جميع اقوان معلميه واساتذته ، ومن بين جميع الدروس والنصائح اسي تلقاها عنهم ؛ لم يذكر سوى خطبة رئيس الجامعة التي ودعهم بها . فقد انضعت في اعناق ذاكرته ، مع صورة ذلك البروفسور • ذي الهيئة انجليه والشمور البيضاء • وكانت واضحة في ذهنه عند مستهل حياته العسليه فكانت له نبراساً يهديه سواء السبيل ، وتذكرها يوم صدمته الحياة للمرة الاولى . فساعدته الذكرى على المقاومة والكفاح مدة غير قصيرة ، ثم تذكرها يوم دحر في المعركة وتغلبت عليه العناصر المتفسخة ، فأرسلت دموع الاسف مدراراً الى مآقيه . وما هو لا يزال يتذكرها كلما وجه ضربة من الورا ، كهذه . للابرياء الآمنين ، فترتجف يده ، ويشور ضميره مؤنباً محقراً • سيتذكرها في المستقبل ايضا ، وفي ظروف كهذه ، وسيل تأثيرها في نفسه شيئاً فشيئاً حتى يتلاشى . ولربما انقلب هذا الندم الى سخرية واستهزاء • بل ولربما تحوّل الى لعنة يصبها على رأس هذا الاستاذ الاشيب وعلى نصائحه التي عادت حجر عثرة في سبيل تقدمه •

« لقد انتهت حياتكم المدرسية ، وابتدأت حياتكم العلمية ، اما حياتكم العلمية فأمل الا تنتهي الا بانهاء آجالكم ... لقد جهزكم المدرسه بأسس العلوم ، ولم تعطكم هذه الشهادة لتزينوا بها جدران منازلكم ، او لتختالوا بها على غيركم ، او لتخذوها واسطة لابتزاز المال ونيل المناصب وخدمة الاوغاد • انكم مدينون بهذه الشهادة ، وبكل ما تلقتموه ، لابطال العلم الذين ضحوا بحياتهم في سبيل اعلان الحقائق ، وطرد ظلمات الجهل ومقاومة الطغيان والاستبداد ، فقوموا بنصيبكم في نشرها والانتصار لها ، وادوا ما عليكم من واجب مقدس تمام الاداء •

اما اذا حدثكم انفسكم باستغلال شهادتكم ، والتوسل بها لاغراضكم الشخصية ، وشهواتكم الدنيوية المادية ، فالويل للعلم منكم ، والويل للحقيقة من شعوذتكم ، والويل لابطال العلم من خيانتكم ونكرانكم • ستكون

شهادتكم حينئذ اكبر مساعد لكم على خداع السذج ، ومضاغة الاغلال في اعناقهم . حينذاك سيلعنكم العلم الذي رضعتم لبنه ، وتلعنكم رفات من احرقوا وقطعت اوصالهم ، وشردوا في الفيافي والقفار في سبيل جمع هذه الحقائق ، وتقديسها لكم لتناولوها دون خسارة مال او صرف مجهود ، ستخرجون الى عالم غريب عنكم ، فالعالم الحقيقي غير عالم المدرسة او العلم ، والفرق بينهما كالفرق بين الحقيقة والواقع . وسيدهشكم ان تجدوا الناس والمجتمعات تسير على انظمة تخالف ما يفرضه العلم ، فلا يأخذتكم العجب ، لان السلطان لا يزال بايدى المشعوذين والدجالين . ويوم سيطر العلماء المتخصصون على القوى التي تدير العالم ستحل مشاكل كثيرة . ستجدون اناسا يسمون الابيض اسود والليل نهراً والشمس قمراً ، ستجدون اناسا يسجدون الجبروت والطغيان ، ويحترقون من تملأ قلوبهم عواطف الرحمة ، ويمتنونهم بالخيالين والسخفاء . ستجدون لصوصا ينحني الناس امامهم عن خوف لا احترام . وستبهر النخفخة بعضكم وتجعلهم يقدمون ما لديهم من شهادات ومعلومات لتداس بالاقدام ، وسيكون هؤلاء نكبة على الباقيين . المخلصين للعلم . اذ سيقف المشعوذون ويصيحون باعلى اصواتهم ، هؤلاء هم حملة مشعل العلم الحقيقيين فانصتوا لهم فأراؤهم صدى لاقوالنا ومبادئنا .

ومثل هؤلاء كمثل الجندي الذي يتسلم السلاح والعتاد للدفاع عن وطنه ، فاذا ما وجد كفة العدو هي الراجحة ، انضم الى المتصرين ، وسدد نار بنديته الى قلوب رفاقه وابناء جلدته .

ولكننا سنكسب من ملا رؤوسهم الذكاء الطاهر المبارك؛ وطقحت قلوبهم بنور الايمان بالمصلحة العامة والرحمة . سيسير هؤلاء في المقدمة ، وقد يسقط بعضهم مضرباً بدمه ، وسط قهقهة الساخرين والشامتين من رفاقهم ، ولكن اناتهم سوف لا تضع ، وستغذي دماؤهم دوحة العلم فتزيدها قوة على قوة ، حتى ياتي اليوم الذي يبصر الناس فيه الحقائق باعينهم لا بأعين

غيرهم ، وهو يوم ليس بالبعيد في تاريخ البشرية • فسيروا على بركة الله وقللوا ما استعظمت من عدد اللغات التي ستصب على المعهد الذي سلحكم بما يساعدكم على الحق والباطل • »

ماذا سيكون رأي هذا الاستاذ العجوز ذي الشعر الابيض ، لو اطلع على كنية تطبيقه النصائح التي تلقنها عنه ؟ سيحتقره بدون شك ، ويعدده من زمرة الخونة ، ولكن هل من حقه ان يفعل ذلك ؟ لو كان هنالك مسؤولون عن هذه النتيجة فهو احدهم •

لقد غشه كما غشه اولئك الاساتذة السخفاء ، واعموا عينه عن رؤية الحقائق والاطلاع على الواقع القطيع • لقد اكتفى مع غيره يذكر امور عامة في خطبته النهائية لم يفهم منها شيئا اول الامر ، ولكنه اخذ يفهمها الان تدريجيا ، وبعد فوات الفرصة • لقد جهزهم بمعلومات لا مساس لها بالمحيط او الحياة العملية ، ولم يتطرقوا الى هذه الاخيرة بتاتا ، ولو فعلوا لكان كلامهم بعيدا عن الحقيقة او معاكسا لها تماما ، فلا عجب ان يخرجوا الى الحياة عيا عن مجرى الامور واثقين مطمئنين ، حتى اذا ما فاجأتهم الصفعات الشديدة ، ورأوا الحقائق تحت انوفهم تماما أمام أبصارهم الكليية ، ركبهم الروع والفرع ، فتشل قواهم ، فاذا هم فرائس سهلة لاتدافع ولا تقاوم •

وكان اكثر رفاقه غرورا ، واعظمهم تمسكا بالمبادي العلمية ، واكثرهم تجاهلا للوضع الراهن في اول حياته العملية • وكان معتزا بدرجة العلمية الممتازة فخورا بالتقرير الذي قدمته الجامعة عنه ، وقد كان له من بين اقرائه خال محترم ، ذو مركز سياسي رفيع ، يرأس حزبا قويا قبض على زمام الحكم عدة مرات ، وقد نصحته امه عند قدومه من الجامعة بالاكتثار من زياراته ، والتملق اليه ، حتى يكون سنده في الملمات ، وعونه على خطوب الزمان فاجابها ساخرا

— وهل قضيت ست عشرة سنة في تحصيل العلم لأتملق هذا الشيخ
الخرف ، الذى يؤمن بأن الارض واقعة على قرن ثور ، وان المطربول
الملائكة ؟

فاجابته امه تؤنه وتباهى بمركز اخيها

— عيب عليك يا بني ، انه خالك وفى استطاعته ان يهز الحكومة
ويفعل بها الافاعيل •

— الا تمسا للحكومة التي يهزها امثال هذا الشيخ الخرف •

فقلبت شفتيها احتقارا واجابت بئأس •

— اصلحك الله يا بني

وبدأ عمله بحرارة وغيرة لا تقل عن غيرة هذا الابله وحيته ، وكان يجد
لذة في العمل ويفرح بالتأنيج الباهرة التي كان يحصل عليها ، وكان يسخر بكل
رفاقة المدرسين ، ويتفقد اهمالهم وكسلهم واحتقارهم لعملهم ، وعدم رضائهم
به ، وترفعهم عليه • ومرت أربع سنين ثم صارت ستاً فثمانى وأخيراً وصلت
الى العشر ، وكان يرى رفاقه المهملين يرتقون ويحتلون المناصب الواحد بعد
الآخر ، ويبضون في سلم التقدم ركضاً ، فشعر بالمذلة والانكسار ، وزاد المله
عندما صار يرى اكسل رفاقه يمر به متجاهلاً • وقد وجد مرة ان مديراً اعياء
امر احد المدرسين فقدم تقريراً ضافيا عنه يكفى لطرده ، فقد كان المدرس
يصرف نصف السنة في الاجازات المرضية الكاذبة، والنصف الآخر في الجلوس
في الصف واشغال التلاميذ بالتوافه ، وكم كانت دهشته عظيمة حينما وجد
وزارة المعارف تجيب على تقرير المدير بتحويل المدرس المذكور الى التفتيش مع
زيادة راتبه • ولم ينس ان يقدم عدة عرائض يسترحم بها النظر الى اخلاصه
بعين الانصاف ، ولكنه لم يجد مجيباً • وعند ذلك فقط رأى الباب الذى كان
بأبى ان يطرقة ينفتح له على مصراعيه ، فاهمل واجبه ووجه همه نحو خاله

يترضيه ويتملقه ، وقصده يوما شاكيا باكيا شارحا حاله بعبارات توقظ الحمية
وتثير الكرامة وتستجلب العطف والرحمة ، وروى له معاملة الدائرة
السيئة وتقديهم الخونة وغير المخلصين عليه وانهى كلامه بقوله •

— كلهم لديهم من يدافع عنهم الا انا

فاجابه خاله بصوت يتحشرج اضغالا وتأثراً

— الذنب ذنبك ، فقد شئت كبريأؤك عند تخرجك ان تتجاهلني ، فلم
يعرف أحد صلتك بي ، ولكن الوقت لما يفت ، وسأريك الآن كيف أجعلهم
يتداركون هذا الخطأ ، ويردون لك كل حقك المهضوم •

ولم تنقض خمس دقائق حتى كانا بحضرة الوزير ، وقد شعر بالزهو
ببلا نفسه عندما رأى مقدار الحفاوة التي استقبل خاله بها •

وافتح الخال الحديث بعد ان انتهى الثلاثة من احتساء القهوة •

— جئت ابسط لمعاليكم قضية حيف لحق اقرب الناس إليّ ، من دائرتكم •

فاجاب صاحب المعالي مرتاعا

— استغفر الله ماذا حدث ؟

— اسأل ابن اختي فهو ادرى بما يشكو •

والتفت اليه صاحب المعالي وقال بلطف

— تفضل

وانفجر شاكياً يتحدث • ولم يبق صغيرة ولا كبيرة • وكان لون صاحب
المعالي يأخذ اشكالا مختلفة • ويصطبغ بألوان شتى • اما الخال فكان
يبتسم •

وما كاد يفرغ من شكايته حتى كانت ملفته الشخصية بين يدي الوزير
يقلب فيها ، ويقرأ بين آن وآخر نبذاً تؤيد ما سمعه قبل لحظة • وبعد ان فرغ

اما هو فقد كان ينظر الى هذه المهزلة بعين مبخلقة تتجلى فيها الغباوة ،
• وبفهم مفتوح •

وترك الدائرة مزوداً بأمر إداري بتبوء كرسي كبير ومركز عظيم في
وزارة المعارف ، وعندما احتواه وخاله منزل الأخير ، لم يسهه إلا أن يقبل يده
وعيناه مغرورتان بدموع الشكر ، ثم جلس إليه يسمع نصائحه الثمينة ،
وحكمة الغالية ويومي برأسه عند كل سخافة يفوه بها ، أيماءه المعجب
المندھش • فأوصاه بمعرفة قدر الناس ، ومعاملة كل منهم حسب مركزه •
وتقديم الوجوه وأهل الفضل والمتنفذين على غيرهم ، وعدم الغرور ، واحترام
من هم فوقه مرتبة أو منزلة دون نظر إلى علم أو شهادة • ثم ودعه قائلاً

— وفقك الله يا بني آمل أن أراك وزيراً في المستقبل •

— سيتم ذلك إن شاء الله بفضل حمايتكم إبقاكم الله ذخراً للعائلة •

وخرج قاصداً منزله وهو يتصور ما نطق به خاله من أمور ، كان يعدها
سابقاً سخافات تضحك الأطفال ، حقائق خالدة • ودخل على أمه ضاحكاً
جذلاً ، ونشر الأمر الإداري أمام عينيها الكليلتين ، وشرع يقرأه على مسمع
منها ، ولما وجدها لم تفهم صرخ في وجهها •

— لقد أصبحت (بيك) هل فهمت ؟ كل ذلك بفضل أخيك •

فأفترت شفتها عن فم خال من الأسنان واجابت •

— ألم أقل لك ؟ سوف لا تمنع الآن في الزواج بابتته •

— أمانع ؟ هل أنت مجنونة ؟

وتسلم مهام وظيفته وقلبه يخفق جذلاً وسعادة ، وكانت كلمة (بيك)
ذات وقع موسيقي في أذنه • وود لو أنه قبل أول رجل نطق بها لفرط
سعادته • ومن تلك الساعة شعر بأنه أخذ يتحرر شيئاً فشيئاً من قيود العمل
المرهق والواجبات الثقيلة والمسؤوليات المتراكمة • وبدأت قضايا الضير

والواجب والاخلاص للعمل تختفي من مخيلته تدريجيا ، فقد خيل اليه بانه
اصبح فوق هذه الاعتبارات والتوافه .

واصبح كل عمله منحصرا في استقبال المراجعين والمستدعين . فأما
بفجان القهوة وبالتلطف ، او بالطرد الشنيع ، اى كل حسب مركزه الاجتماعي .
ثم يهتم بشؤونهم كل حسب رتبته ومركز عائلته . وكان يضع نصب عينيه
القاعدة لآتية (ان من يستحق الاهتمام والخدمة هم اولئك الذين لا ملفه
شخصية باسمهم في دائرته . اولئك . الذين يرفعون اسنانا ويضعون آخر
بضحكة او بكلمة صغيرة او بنكتة) .

وها هو يقضى في البيكوية عدة سنين ، ازداد خلالها شحما ولحما ، اذ قل
عمله وتفكيره ، واهمل العلم واصحابه . ولكن تأثير هذه الروعة التى تصحب
الجديد قد بدأ يزول من نفسه ، واكبر دليل على ذلك تذكره تلك المواقف
القديمة وخطبة ذي الشعر الاشيب ، وتأثره لما اصاب هذا الشاب المسكين .

هل انتكس يا ترى وعاد لسيرته الاولى ؟ هل يمكن ان يكون من اولئك
الذين تكمن العواطف الشريفة فى قوسهم كمون النار تحت الرماد ، حتى
اذا ما هبت فوقها ريح ورفعت عنها الرماد ، والقي فيها بعض الوقود تأججت
وعلا لهيها ؟ يا للطبيعة الانانية ما اكثر عقدها ، وما اشد غموضها ؟
ايمكن ان تكون هيئة الشاب واخلاقه وسلوكه وطبيعته التى تشابه كل
المشابهة اطواره واخلاقه وطبيعته فى عمله ، يوم كان فى مثل وضعه ، هى التى
اثرت فيه ؟ ومهما كان الامر فقد شعر بشئ كثير من الحزن والالام والندم
والاحتقار لنفسه بصورة لم يسبق لها مثيل . وبعد تفكير عميق صمم على
امر جليل .

وبعد ثلاثة ايام اى بعد ان اعلنت اسماء من اشغلوا المناصب الادارية
الشاغرة المهمة فى الجرائد ، قصد ناظم افندي المدرس فى مدرسة (٠٠٠)

التأنيء دائرة ابىك رئىس الدائرة (٠٠٠) فى حالة نفسىة حرجة • وتلقاه البىك بعىن الطرىقة وبعىن الحفاوة ولكن وجه الشاب وطرىقته فى السلام والكلام لم تكن عىنها ، ولم يخف الامر على البىك ، فنادى الحاجب وامره بعدم السماح لاحد بالدخول • ثم دار حدىء عتاب قصىر بىن الاثنىن اعقبه اعتراف غرىب من قبل البىك سمعه الشاب بدهشة هائلة ، وما كان ىنتهى حتى لمع فى اعىن الاثنىن برىق التفاهم والود ورقصت على شفاهما ابتسامات ذات شكل واحد •



جلس التلاميذ جميعا وراء مقاعدهم ، ووقف مراقب الصف قرب الباب يحاول عبثا اسكاتهم او تخفيف الضوضاء الناتجة عن اصواتهم وضحكاتهم الصاخبة وقرقعة اغطية رحلاتهم ، ومزاحهم • وكانوا خمسة وخمسين ، قد جلسوا جنباً الى جنب وراء مناظدهم التي ملأت الغرفة الضيقة الا بقعة صغيرة امام لوح الكتابة ، حيث يجلس المدرس على الكرسي الموضوع في نهايتها مقابل الباب حين يكون متبلداً ، او يذرعه جيئة وذهابا ان كان نشطا •

وانقطع الضحك والضجيج فجأة ، ووقف التلاميذ مرة واحدة احتراما عند دخول المدرس •

ودخل الاخير تقدمه بطنه التي لا تكاد تجد متسعا في هذه الساحة الضيقة ، وادار عينه المدورتين الناتنتين ، واستعرض التلاميذ بنظرة فاحصة فيها معنى الغطرسة والسطوة ، كيف لا وهو يحكم هذه الكتلة الكبيرة من هؤلاء الملاحين الذين لا يعلم احد من شرهم ومكرهم ، هذه الكتلة الكبيرة التي يكفي اربعة من افرادها لحمله ورميه في الخارج • وهو لا يحكمهم فقط ، ولكنه يخيفهم الى حد بعيد • هاهم ساكتون جامدون لا تبدو منهم بادرة ولا نأمة ، ولا يجسر احدهم حتى على تحريك رأسه ، او الالتفات الى جهة من الجهات قد غلقوا ابصارهم بوجهه ورأسه الاصلع • والذي يزيده فخرا انهم تلاميذ كبار من غفارت المدارس المتوسطة ، لا اطفال صغار من اطفال المدارس ، الابتدائية او الاولى •

وللتلاميذ خططهم والاعيههم ، ولهم طرقهم واحابيلهم ، وليس في درس الجغرافيا ما يلد ، وليس في امكانهم ادراك فائدة حفظ هذه الالفاظ الغريبة والاساك المعقدة (بوبوكاتاييتل) (نيجني نيفكورد) •••• الخ

وللمدرس ولع غريب بروسيا والبطيخ ، ومصدر ولعه بروسيا هو بقاؤه

فيها ما يقارب العشر سنين ، اذ سقط اسيرا في يد الجيش الروسي اثناء الحرب العظمى^(١) ، ولا نعلم مصدر ولعه بالبتيخ ، ولكن الامر الذي لا يجهله تلميذ في المدرسة هو ان صادرات اية مملكة يجب الا تخلو من البتيخ ، وكذا وارداتها ؟؟؟ والويل لكل من لا يذكر البتيخ في كلامه عن المحصولات ، فالبتيخ في المقدمة دائما فترى التلميذ يلفظ الكلمة بلهجة واضحة وبشيء من التأكيد ، وهو يحلم بال عشرة •

ونهض من آخر الصف تلميذ ما كاد الباقون يسمعون صوته حتى استبشروا ، فقد كان هذا ماهرا فى سوق المدرس الى الخروج عن الموضوع فقال

— سيدي اننا ندرس روسيا اليوم ، وقد قضيت عشر سنين فيها فأتم اعلم الناس بها ، وسنستيد من اطلاعكم هذا فائدة حقيقية لان كتاب الجغرافية لا يذكر عنها غير ما يملأ بضع صفحات فاجاب المدرس باسم •

— طيب يا بني وماذا تريدون ان تعرفوا عن روسيا ؟

فرجع شقي اصبعه وسأل المدرس

— مثلا استاذ هل يأكل الروس كما نأكل ، هل يأكلون البقلاوة مثلا ؟
واصاب الشقي الهدف اذ سال لعاب المدرس ، وتحركت يده فطبطبت على البطن البارز عدة مرات ثم قال :

— بقلاوة ؟ • • بقلاوة ؟ وهل في العالم ما هو اجمل واطيب طعما من بقلاوة روسيا • سأحدثكم عن كيفية صنعها •

ان الحلواتى الروسى يفرش الصينية برغيف خفيف من العجين ، ويضع فوق هذا الرغيف طبقة كثيفة من الجوز والسكر ، ويضع فوق هذا طبقة من ارغفة العجين الرقيقة ، ثم طبقة من اللوز اللذيذ الطعم •

(١) اي الحرب العالمية الاولى فالاقصوة قد سبقت الثانية

وحدث ان مر ياب غرفة الصف في هذه اللحظة مدير المعارف العام ، وكان هذا المدير العام قد عين حديثا لاصلاح المعارف ، وانقاذها من الفوضى والخلول ، فاستعارته الحكومة من الجيش ، واتدبته لاصلاح هذه المؤسسة التي اقضت مضجعها ولم تترك لها غير المشاكل ، وكان هذا حازما يعشق النظام الى حد الجنون • يزور المدارس فجأة وبدون علم احد • ويفاجيء المعلمين اللاهين فيفرض عليهم القصاص لكي يعتبر الباقون • وقد وصل المدينة خفية ، وفاجأ المدرسة بعد ربع ساعة من وصوله • ورآه البواب فطير الخبر الى المدير وخرج هذا الاخير مسرعا ، ونظر الى المدرسة نظرة عجبى فرأى فيها ما يدل على الفوضى ، ولمح في نواحيها بعض الاقذار ، ولعله رأى كل ذلك بعين مخيلته وهو تحت تأثير الرعب ؟ ومن يدري !

وبدأ مناورته صارخا بالخدم ، وشرع يحاسبهم على اهمالهم حسابا عسيرا ، ولما دخل المدير سلم عليه واخذ يبين له مقدار تعبه مع الخدم ، وشكا من عدم تدرييهم ، وطلب السماح له بابدال بعضهم •

وشرع المدير العام بزيارة الصفوف رأسا عند وصوله غير تارك للمدير مجالا ليخبر المعلمين بوصوله ، ووصل صف صاحبا في اللحظة التي انتهى بها من وضع طبقة اللوز اللذيذة ، مما جعله يكمل عبارته على هذه الصورة •

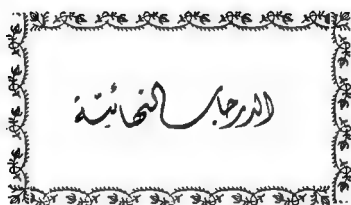
— وتلى هذه الطبقة طبقة من الصخور البركانية ، تعلوها اخرى من الصلصال والرمل ، وفوق الجميع تأتي طبقة كثيفة من صخور الكرانيت •

ولاحظ المدير الخطير ازدحام الصف واعجبه سكون التلاميذ وشدة انتباههم ، كما اعجبه وقار المدرس واهتمامه العظيم بالشرح ، فلم يرد ان يزاحم بطن المدرس الضخم ، ومضى في طريقه الى صف آخر • وعندها اتم المدرس كلامه •

— ثم طبقة من العجين اكثف من سابقتها قليلا ، وبعدها طبقة من

القشدة ، ويعطي الجميع رغيف خفيف من العجين يصب فوقه السمن • ولاحظ على وجوه جميع التلاميذ ابتسامة خفيفة كانوا يحاولون اخفاءها عبثاً ، وعج البعض بالضحك ، وكم كانت دهشتهم شديدة عندما رأوا شفتى المدرس السمينتين تنفرجان عن ابتسامة عريضة اخذت تزداد تدريجياً حتى تحولت الى ضحك ضج به الصف مع المدرس • ونظر صاحبنا في هذه اللحظة الى الخارج فرأى المدير المرعب يترك المدرسة ، فشعر بسرور عظيم لحسن تخلصه من هذا المركز الحرج ، ولم يجد رغبة فى عقاب التلاميذ الضاحكين •





الدرج حبيب النخلة

تناول المدير سجل الدرجات من يدي ، وشرع يصعد اظفاره في عمود
الدرجات النهائية ذات الحكم الفصل في امر ترقية التلميذ او ابقائه في صفه •
وبدأ يكيل المديح جزافا ، ويتمتع عبارات الشكر لاسراعي في تقديم
النتائج • ويظهر ان مدهاشته لم تعجب حسان افندي ، احد مدرسي المدرسة ،
اذ رأته يقطب ما بين عينيه ، ويتمتع استهزاء ، وما لبث ان قال

— هكذا كنا في اول سنى عملنا نلتهم نشاطا ، ونقبل على العمل اقبال
الظمان على الماء • وما نحن الان ننظر اليه كما ينظر الجائع الى الخبز الجاف
الذى لا يجد غيره لانتقاء الموت جوعا •

ولم اعره اهتماما لاني لم افهم قصده تماما، بل بقيت اراقب المدير لاستطلع
رأيه في تلك النتائج الباهرة ، فقد كان عندي اربعة تلاميذ راسين من خمسين •
ورأيته يقف عند بعض الاسماء ، ثم يرفع عينيه نحوي وقد بدت فيهما امارات
القلق ، ثم قال :

— مدحت حسن ؟ هل رسب ؟

— اجل هو وثلاثة اخرون ، ولست استغرب هذه النتيجة ، فهو اكمل
التلاميذ في كل الفصل ، واقلهم دواما واهتماما بالدرس •
فعاد الى النظر في القائمة بهيئة من لم يقتنع ومضى يتمتع •

— ومن هم الاخرون ؟... يا الهي .. كنعان عمر ؟ ، ورأفت عزت
هل تراك قد تعمدت ان ترسب كل اولاد الذوات ؟ مستوقني في ورطة لا نجاة
لي منها ... ومن ؟ وهذا حسون ايضا ؟ .. ومع انه ليس من اولاد الذوات
ولكني تلقت توصية بخصوصه من ثلاثة نواب ... لاشك اني من الهالكين ...
لقد رسبت الاربعة الذين سيثير امر رسوبهم مشكلة ، ولو رسب عشرون
غيرهم لما اهمني الامر ... من فضلك يا عزيزي اعد النظر في اوراقهم

واعمل جهدك في دفعهم ، ودفع ما وراءهم من شر وبلاء • سجل لهم درجات النجاح مهما كان الامر ، ولتكن المسؤولية في عنقهم •

وشعرت بكثير من الامتعاض والغيض لهذه النتيجة التي لم اكن انتظرها ، وشرعت ابحث عن اوراقهم بين مجموعة اوراق الامتحانات وانا اقول بعناد •

— لقد دقت اوراقهم جيداً ، ومع ذلك سأعيد الكرة ارضاء لخطارك ، ولكنني اشك في امكان تغير النتيجة ، وان كنت لا تثق بي فارجو ان تنتخب لجنة لفحص الاوراق معي •

واصفر وجه المدير ، ونظر في وجه المدرسين يطلب المعونة ، ولمحت حكمت افندي ، وكان يكره المدير لانه منافسه في ادارة المدرسة ، يتسم بخبث وتشف ، اما حسان افندي فقد عاد يقول بلهجة الكريهة •

— رفقا بهؤلاء المساكين يا عزيزي ، وتذكر ما كنت تقاسيه في تحصيل الدرجات ، وما كنت تتحمله في سبيل النجاح من صف الى آخر •

فأجبه بعنف

— لم استجد درجة من احد طيلة حياتي الدراسية ، ولم احاسب معلما على درجة •

— ولكن الرحمة غير مكروهة ، وليس من الانصاف ان تجبرهم على قضاء سنة اخرى في الصف نفسه •

فأجبه حانقاً

— وهل من الانصاف تشجيعهم على الكسل ؟ وهل من الرحمة عدم التفريق بين الاذكياء والاغبياء من التلاميذ ؟ واذا كان مقياس النجاح قضاء السنة الدراسية فلم وجدت الامتحانات ؟ وما رأى وزارة المعارف في رأيك هذا الذي يقوض اعظمها من الاساس •

وفي تلك اللحظة لمحت احمد افندي ، وكنت احبه لرزاقته وسمو اخلاقه .
ونضوجه ، يتسم ابتسامة تشجيع يخالطه الاسف ويتدخل بقوله •

— لك الحق يا عزيزي في عدم التفريق بين النظام والواقع ، لانها اول.
سنى حياتك العملية ، ولكنك ستزداد خبرة وتجربة ، وستعلم ان هذا النظام
الذى تتكلم عنه ليس الاحيرا على ورق ، وان الامور تسير حسب اقلمة اخرى
متعارفة ومتفق عليها عند الجميع ، وهذه والنظام الاصلي على طرفي نقيض • .
لقد اعتمدت على وزارة المعارف مع بضعة معلمين ، في احدى السنين ، في تبديل
ارقام المتقدمين باخرى سرية ، ولا يخفى عليك ان الغاية من ذلك هي عدم
افساح المجال للتأثير على هيئة المدققين •

وما كان اشد استغرابي حينما وجدت نفسى ، وانا احد الثلاثة المؤتمنين .
على هذا السر ، اجهل الناس به • اما الالتماسات فقد انهالت على المصلحين .
فكان البعض يرفضها ويشتكى من ذبوع السر ، ويقبل البعض الالتماس اذا
كان صادراً من احد المدققين على شرط ان يقبل الملتمس التماسا مثله مقابل
ذلك ، اى واحدة بواحدة ، ولما اخبرت رفاقي المؤتمنين مثلي على هذه الارقام
سخر احدهم وادعى استحاله ذلك وقال لي الآخر سرا •

— يظهر انك قليل الخبرة ، فامور كهذه تجرى دائما وقد طلب مني احد
كبار موظفي الوزارة بعض الارقام بنفسه •

ورأيت من واجبي ان اخبر رئيس اللجنة المسؤول ، ولما اطلع على ذلك
اظهر اهتماما ، ولكنني ما لبثت ان رأيت يستفسر عن نتائج بعض التلاميذ ،
فقهمت ، وخرجت وانا اكثر الناس احتقارا لهذه الواجبات •

ولكن لماذا اقدم لك مثالا بعيدا قد يصعب عليك تصديقه ، مع ان امامك
الان شواهد لا تقبل الشك تثبت قلبي • طالع التقرير الذى قدمته للجنة
الاميركية التي علقت الحكومة عليها كل املها في اصلاح المعارف ، ترى اهم

فقرة فيه تشدد في امر تثبيت المعلمين في محلاتهم • والقضاء على التنقلات والتحويلات ، ثم قارن عدد التنقلات التي حصلت في تلك السنة بالتنقلات التي حدثت في السنين الخوالي ، ترى عجباً ، ومن يطلع على تلك المناقضات يشك ، لأول وهلة ، في ان وزارة المعارف تعتمد ان ثبت ما قلته قبل لحظة لكل الناس •

ورفع فالح أفندي رأسه وكان يدون بعض الدرجات في سجل بين يديه وقال بلهجة المرحه واسلوبه الساخر •

— ان اخلاصك للنظام في وسط هذه الفوضى يعد غيباً على بعض الاشخاص • فاذا راعينا سهولة الامتحانات الوزارية ، وعدم ضبط نتائجها ، والتلاعب في درجات المتقدمين ، والتوسل بالحجج الواهية لزيادة الدرجات وجدنا دقتك هذه امراً لا مبرر له ، وقد بلغني ان احد كبار رجال التربية في وزارة المعارف اقترح حذف الامتحانات الوزارية ، لما رآها مهزلة صورية تصرف عليها المبالغ الجسيمة والجهود العظيمة ، ويذهب كل ذلك دون ما فائدة فما كان مني ان الفيتها انا ايضا واعطيت درجات فجاح لكل التلاميذ بدون تفريق ، فارضيتهم وارضيت الناس وارضيت المدير ، وارجت نفسي من اتعاب عيني بتدقيق الاوراق القذرة وقراءة خطوطها السنسكريتية والصينية •

وضح الجميع بالضحك ونظرت الى المدير فوجدته يقهقه طرباً وشعرت بروح العناد تستولي علي ولذ لي ان اخالف كل هؤلاء ، واصر على ما اراه حقاً ، ولكنني شعرت بنفس الوقت بشيء من التخاذل ، ومع ذلك اجبت مصرأ — قد يكون كل ما ذكرتموه صحيحاً ، ولكنني غير مسؤول عن غير واجبي الذي اتقاضى راتبى لقاء القيام به واني لأستهين بكل الاخطار في سبيل ادائه اداء صحيحاً •

فقاطعني المدير

— ولكن يجب ان تدخل فى الحساب غيرك ممن سيلحقهم اذى من جراء عنادك ، وانا من جملتهم •

— ولكنك غير مسؤول عن نجاح التلاميذ او رسوبهم واذا حدث مكروه من جراء ذلك فانا الذى سأتحمله لا أنت •

— ولكنك يا عزيزي لا تفهم ، ان اولياء امور التلاميذ لا يعرفون ذلك وحتى رجال المعارف الذين سنوا انظمتها لا يحبون ان يعرفوا ذلك • لقد عزل مدير من ادارة مدرسة فى السنة الماضية ، وشرذ وانذر ، بسبب رسوب تلميذ واحد • وان كنت فى شك مما اقول فاسأل احمد افندي فقد كانت له يد فى هذه الحادثة •

وعاد احمد افندي يقول :

— اجل يا عزيزي ان ذلك صحيح • وقد حدثت الحادثة فى لواء (•••) الذى كنت مدرسا فى متوسطته فى العام الماضى ، وكان مدير المدرسة رجلا مثقفا كريم الاخلاق فاضلا غفيفا ، ورغم وجودي فى خدمة المعارف ما يقارب العشرين سنين لم اجد مديرا انشط منه واكثر غيرة على عمله واخلاصا له • وكان يتمتع بنشاط مدهش ، وذكاء فادر ، وقابلية للقيام بكل عمل يعهد اليه مهما كان بعيدا عن دائرة اختصاصه ، فكان رساما حاذقا ونجارا مدهشا وشاعرا وكاتباً ايضا • وقد قام بتدريس عدة فروع قبل ان تسند له ادارة المدرسة فنجح بالقيام بها نجاحا باهرا ، وما كان نجاحه فى ادارة المدرسة باقل من نجاحه فى الشؤون الاخرى • وكان محترما من اهل البلد على الرغم من كونه فى وسط يعتبر فيه المسيحي نجسا • وما كان اعتماد وزارة المعارف عليه واحترامهم له باقل من احترام الالهين واهتمامهم به •

وحلت الكارثة فى نهاية السنة الدراسية • وكان سبب هذه الكارثة تلميذ من عائلة بارزة • اما هذا التلميذ فكان من اوقح التلاميذ واكثرهم صلافة واقلهم حياء واعظمهم استهتارا بانظمة المدرسة ، وبحقوق رفاقه وبقية المدرسين •

وقد رأيته مرة يمزق دفتر اختبار شهري ويسخر بالصفر الذي سجل له عليه ويدوسه بقدمه ، ويصرح على ملأ من رفاقه بأنه سينجح رغم انف كل المدرسين •

واضرتها له في نفسي ولم افعل في نهاية السنة اكثر من اعطائه الدرجة التي يستحقها في الامتحان ، وكانت خمسة درجات من مائة ، واصررت على عدم زيادتها. على خلاف عادتي في مثل هذه الامور • وما كنت بحاجة الى اثبات تقصيره وفقره من المعلومات • فهو لا يستطيع ان يؤدي حتى امتحان الصف الالادنى من صفه •

وتركت المدينة في العطلة الصيفية بعد ان سددت اذني عن سماع الرجاءات والتوسلات والتوصيات التي انهالت علي من كل مكان ، ولم يبق احد لم يحاول ان يرجعني عن عزمي الا المدير ، فقد اعلن سروره بوجود مدرس امين على النظام مثلى فى مدرسته • ونزلت النكبة على رأس هذا المدير المسكين بعد ذلك بشهر • فقد تلقى رسالة خصوصية من مدير المنطقة يطلب فيها تعديل درجة التلميذ • ولما اجاب بان النظام لا يساعده على ذلك ، او لا يخوله هذه الصلاحية ، ارسلت المنطقة مفتشا قليل الانصاف لتفتيش مدرسته بصورة خاصة نكاية به ، فقام بتفتيش اثاث المدرسة اثناء غلقها ووجد بالطبع بعض الغبار على لوازمها فاتخذها حجة لانهذار المدير رسميا • ولما اعترض المسكين على ذلك ، حرض والد التلميذ على كتابة عريضة يتهم المدير بها بالتبشير بالدين المسيحى بين التلاميذ معتبرا ورعه وتقواه حجة عليه في هذا المدعى ، فحول الى التدريس وحرّم من الترفيع عدة سنين • ولا يزال هذا المسكين يحتفظ بتحرير التوصية الخصوصية ، والانذار ، وملحقات هذه القضية كبرهان قاطع على ما لحقه من ظلم صارخ ، وقد تستغرب عدم محاولة وزارة المعارف ابدائي مع كوني المسبب لكل ذلك ، فأجيبك بأن لي من يسندني في مثل هذه الامور ويدافع عنى والا لكان نصيبي كنصيب هذا المسكين • واقسم لك يا صديقي

بانى ما كنت اقصد ايذاء المدير وما كنت انتظر حدوث مثل هذه النكبة .

— وهل نجح تلميذك فيما بعد ؟

— وهل تريد مني ان اقر عينيه بتلك العملية النكراء ؟ لقد زادتني تلك الحادثة صلابة فاصرت على النتيجة حتى النهاية ، واثبت له ان المدرسة ليست لعبة في يده .

— هكذا سأفعل انا ايضا . وخوفا من ان يحدث شيء من هذا القبيل سأعطي اعترافا بخط يدي للمدير ابين فيه اني كنت السبب فى رسوب هؤلاء التلاميذ ، اما ان افعل خلاف ما يفرضه الضمير والوجدان فامر دونه خسر القتاد ... سأعيد النظر فى الاوراق امامكم واظهر لكم سخافة اجوبتهم وابرهن لكم على انهم لا يتحققون البقاء حتى في الصف الادنى . واعتقد انهم نجحوا في السنة الماضية بمثل هذه الطريقة المعوجة . ولو اهتمناهم الى النهاية لخرجوا الى المجتمع وهم لا يحسنون غير اللهو والاهمال فيكونون ضريبة باهضة على عاتق الامة .

وما اتيت من كلامي حتى صاح المدير بلهجة باكية .

— ولماذا العجلة ؟ ... خذها معك الى البيت ارجوك . افعل هذا فقط لاجلي .

ولم أر من حسن الأدب واللياقة أن أخيب أمله حتى في هذا ، فأخذتها وخرجت .

وتلقاني حسين عند الباب ، وحسين هذا اصغر تلميذ في صفه ، واقبح رفاقه صورة ، وارثهم ثيابا ، ولكنه ، كان اكبرهم عقلا ، واحدهم ذكاءاً ، ولا يخطر في بالي اني سألت سؤالا دون ان اجد اصبعه تعلو فوق اصابع الجميع ، ولا اتذكر مشكلة أعجزت رفاقه دون أن ينبري لحلها .
وانبسطت نفسي عند رؤيته بعد ذلك الانقباض . وسألته ملاطفا .

— ماذا تريد يا حسن ؟

— كم درجتي في درسك استاذ ؟

— وهل تريد اكثر من الدرجة الكاملة ايها الخبيث ؟

— اشكرك يا استاذ ..

ثم هرول مسرورا وهو يخب في سترته الواسعة التي لا اشك في انها
سترة آيه (الحاجب في المحكمة) ، أو أخيه الاكبر (موزع البريد) •

ورأيت احمد افندى بجانبى يسألني :

— ماذا يريد حسين ؟

انه يسألني عن درجته في درسه

— ان هذا الشيطان لم يحصل حتى الان على غير الدرجات الكاملة •
لقد درست سبع سنين ، ولم ار طيلة مدة خدمتي تلميذا يفوقه ذكاء ونشاطا...••
انني معجب بهذا الرأس الذي يحمل دماغا كبيرا ووجها قبيحا •• وما اعظم
الفرق بينه وبين هؤلاء الذين سيسبب رسوبهم مشكلة بينك وبين ادارة
المدرسة ؟ اترى في ترف هؤلاء وغناهم ، وسهولة العيش عندهم اثرا في عدم
اقبالهم على العلم واهتمامهم بالتحصيل والدرس ؟

— لا شك في ذلك • ولا يبعد ان يكون مقدار ما تحمله رؤوسهم من
الذكاء لا يقل عما يحمله رأس هذا • ولكن الحاجة الملحة تدفع الثاني الى
السعي المتواصل ، بينما يقف الترف والدلال واتباع امثال هذه الطرق في النجاح
حجر عثرة دون تلقيهم العلم • فحسبن يعلم انه اذا رسب لا يجد من يسأل
عن رسوبه ، واذا فشل في حياته المدرسية ، فنهايتها التشرذ وسوق الحمير •

اما الآخرون فالمستقبل امامهم باسم ، والثروة في انتظارهم ، ودرجات
النجاح ينالونها دون تعب او عناء ، فما حاجتهم الى اتعاب رؤوسهم في الدرس ،

وترك ملاهيهم والعابهم ؟... واني موقن بأنه لا يخطر في بالهم وجود من يتصلب في امر امتحاناتهم هذا التصلب .

ومرت اربعة ايام مليئة بما يضايق الانسان ويخرج به عن طوره .. وقد علمت خلالها السبب في طلب المدير تأجيل النظر في اوراق الامتحانات . فقد كان غير يائس من اقناعي ، وارجاعي عن عنادي . وزارني في اليوم الاول شيخ عشيرة من العشائر ، وهو عضو في المجلس النيابي . وقد استغرقت زيارته اذ لم يكن لي سابق معرفة به .

وفاتحني في سبب الزيارة رأسا فقال

— لقد اتيت للمداولة معك في قضية خادمك حسون . فهو ينتمي الى عشيرتي . . ووالده فقير الحال جدا . وستكلفه السنة الدراسية مبلغا باهضاً فاصنع معروفاً ، واعطه درجة النجاح . . . لقد قصدت المدير فقال ان المسألة كلها في يدك .

وحاولت عبثاً ان افهمه معنى النظام وضرر هذا النجاح للتلميذ نفسه اذ سد اذنيه واجابني في النهاية بقوله :

— لا استطيع ان افهم شيئاً مما تذكر . ولكنني اعلم ان الامر كله بيدك ، وهو لا يكلفك اكثر من جرة قلم .

ولم ار مناصاً ، للتخلص منه ، الا بأن اعدّه خيراً ولما خرج سمعته يقول لخادمه

— لعن الله الوقت الذي أصبحنا فيه تحت حكم المعلمين .

وفي اليوم الثاني تلقيت من احد اقاربي رسالة ينبتني فيها بأن بعض معارفه من الوجهاء غير راضين عن طريقة معاملة وجهاء البلد الذي اعلم فيه . وان اخبارا لا تسر قد وصلتهم عنى ، ويوصيني بأن افهم مركزي ولا اتعده . وفي مساء ذلك اليوم قصدني والد أحد التلاميذ الراسيين ، وبعد ان

يس من اقناعي عرض علي رشوة بلهجة اعتيادية وبدون خجل • ولما أنبته
خرج متذمراً لاعنا •

وفي نهاية اليوم الرابع قدم المدير لزيارتي في المنزل حاملاً نبأ غريباً وقف
له شعر رأسي رعباً • وملخص هذا الخبر ان بعض وجهاء البلدة ، ومعظمهم
من اقرباء التلاميذ الراسيين ، شرعوا ينشرون اشاعة تشير الى اتهامي بالشيوعية
وقد برهنوا على مدعاهم بمساعدتي لآبناء الفقراء في المدرسة ، ومعاكسة الاغنياء
واولاد الذوات • وان الاشاعة قد وصلت متصرف اللواء ، فأعد تقريراً ضافياً
عني سيقدمه الى المراجع المختصة ، ثم اضاف قائلاً بلهجة باكية

— متضجع ، واضيع انا معك ايضاً ، وكل ذلك بسبب عنادك وتصلبك
في هذا الامر التافه • فلتتدارك الامر ونصلح هذه الدرجات اللعينة وننتهي من
هذه المشاكل الكريهة ، واني اعدك وعداً قاطعاً بأن هذه التهم ستلاشي بعد
ذلك • هيا يا فتى يجب الا تنكب وانت في متهل حياتك المهيلة • اين
الدفاتر ... ها هي • انظر ما اقل الجهد الذي تصرفه في تصليحها ؟

واخذ القلم وحول العشرين الى خمسين وجعل العشرة ستيناً بوضع خط
صغير في رأس الواحد وجعل الخمسة عشر خمسيناً وذلك باضافة صفر الى
الرقم وشطب الواحد بمهارة غريبة • ووضع صفراً امام السبعة فأصبحت
سبعيناً ثم قال ضاحكاً

— انظر ما اسهل الامر • قل انك سوف لا تعترض وينتهي الامر • لقد
غيرتها بنفسى فأقذتكَ من المسؤولية الوجدانية •

فأجبتة وقد شعرت برغبة حقيقية في التخلص من كل تلك المضايقات •
— افعل ما شئت ولست مسؤولاً عن هذا التلاعب واعدك بأنني
لا اعترض •

فخرج راكضا كأنه يخشى ان اغير نيتي وهو يشكرني أحر الشكر ،
ولولا الحياء لقلبني من شدة فرحه •

واغلقت وراءه الباب وأنا ألن تلك الاوضاع التي تجبر الانسان اجبارا
على خيانة واجبه ، وترغمه على عدم الاعتداد بعمله واحتقاره ، وشعرت بالكراهة
لاول مرة لعملبي ولهذا المجتمع الذي يحرضك جميع افراده كبيرهم وصغيرهم ،
عالمهم وجاهلهم ، غنيهم وفقيرهم ، اعظم مسيطر فيهم واحقر صلوك ، على
خيانة الواجب •



مضى على هذه الحادثة خمسة اعوام اصبحت بعد انقضائها معلما مجربا
ذا خبرة ومران ، وبكلمة ثانية دخلت في زمرة التدمرين المتمرمين والمتشائمين ،
املا الدنيا ضجيجا وعجيجا ، وألن العمل في كل ساعة وفي نهاية السنة
الدراسية لتلك السنة طلبت في مديرية المعارف العامة حيث بلغت بوجوب
اشتراكى في لجنة تدقيق اوراق امتحانات الدراسة المتوسطة لتلك السنة •

وبينما كنت خارجا اشق طريقي بصعوبة من بين جمهور المراجعين من
طلاب تحويل وتوظيف ، وطلاب بعثات وغير ذلك ، لمحت وجها غريبا اعرفه ،
ثم رأيت صاحب الوجه يتقدم نحوي ، وتذكرته لقد كان حسينا ، وشدد
على يدى مسلما ووجهه يطفح سرورا •

— كيف حالكم استاذ ؟

— اوه ... حسين ؟ كيف حالك انت !... وماذا تعمل هنا ؟

— لقد تخرجت في السنة السابقة بشوق ، ورشحت للبعثة ، ولكني
حرمت منها في السنة الماضية فقد سلبتها مني كنعان احد رفاقنا في الصف ، وقد
اتيت للمراجعة مبكرا هذه السنة لعلني اظفر بها ، ولكني رأيت رأقت يدخل
الديوان صحبة شخصية بارزة ، ولعله جاء لنفس الغاية .. ان المراجعين هنا

قسمان ، قسم يأتي بصحبة الذوات والشخصيات البارزة ، فتفتح الابواب امامهم بصورة سحرية ويخرجون مبيضى الوجوه ، وقسم لا نصير له ولا سند ، ويستحيل على هؤلاء تخطي عتبة الدوائر واذا تمكنوا من الدخول خرجوا مسودي الوجوه . ان العدل الذى كنا تمتع به ايام الدراسة لا وجود له هنا .

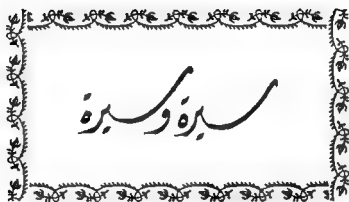
وكانت عبارته الاخيرة صفقة مؤلمة بوغت بها ، فلم احر جوابا ، ولم اجسر حتى على النظر في وجهه ، فودعته مسرعا ومضيت مستخديا .

وتوجهت رأسا الى المحل المخصص لفحص اوراق الامتحانات ، ودخلت الغرفة المعدة للجنة التي انا احد اعضائها فوجدت عددا من المدرسين المشتركين في اللجنة منكبين على عملهم بكل همة وجد ، ودخل الخادم ويده ورقتان سلم احدهما لي علنا . وكانت منشورا وزاريا لحض المصححين على على النزهة وعدم نسيان قدسية واجبهم ، والاخرى ورقة صغيرة سلمها لي بصورة سرية ، وكانت من رئيس اللجان ، يطلب منى بصورة سرية مساعدة اصحاب الدفاتر ذات الارقام القلانية والفلاية ، وتذكرت حالا تلك الحادثة التي مرت عليها خمسة اعوام ، وكانت علائم اليأس التي انطبعت على وجه حسين ، والتي تجلت في عبارته ، والتأنيب غير المتقصد الذي تضمنته عبارته ، ما يزال يدور بخلدني ، فدعكت الورقتين ، ورميتهما في وجه الخادم ، وصحت به .

— احملها الى المرسل .. هل فهمت ؟

واخذها مندهشا ، وخرج متعجا ولم يفهم . وهل فى استطاعته ان يفهم ؟

ورفعت رأسى فرأيت ابتسامة ترفرف على وجوه كل اعضاء اللجنة . ابتسامة تدل على اقصى درجات الفهم ، وكيف لا يفهمون !!!



يتعاقب الليل والنهار ، وتكرر السنون ، وينصرم الوقت ، وتدخل حوادث الماضي في طي النسيان ، اذ تتراكم فوقها الحداثات كل واحدة تمحو سابقتها وتشغل عما عداها ، ولكن قد يعرض للانسان ما يوقفه عن سيره السريع ، ويلجئه الى نبش الذاكرة لاستعادة مشهد قديم . وقد يعرض له ما يقرب صحائف الماضي في ذهنه فيريه بعضها جليا واضحا كأن لم يمض عليها غير ليلة واحدة ، وكأنها ليست من حوادث الماضي السحيق .

كنا جالسين حول منضدة من تلك المناضد الصغيرة ذات الاغطيه الالوان البيضاء ، وكنت اهرج جسمي فوق الكرسي مثبتا قدمي فوق قاعدة المنضدة السفلى ، دافعا جسمي الى الوراء . عاقدا يدي حول رقبتني كعادتي كلما اتخذت مجلسا كهذا . وكنت ادير اظفاري في الشارع الواسع العريض المائج بالناس يخب بعضهم السير ، وقد وقف قسم منهم فوق الرصيف المحيط بقاعدة تمثال الملك الراحل^(١)

وادرت رأسي ببطء بعد ان مللت المشهد الاول ، فسقط نظري على وجه رفيقي مرة واحدة . كان ماجد منبسط الاسارير قليلا قد لوي شفتيه بابتسامة تحوي شيئا كثيرا من التهكم والسخرية ، تبرق عيناه ببريق الخبث والدهاء وقد فتحهما الى اقصى حد ، وتقوس حاجباه فوقهما فكان للقسم الاعلى من وجهه منظر غريب فوق ذلك الانف المدبب الطويل ، الذي يشابه انف ثعلب ماكر . اما سالم فقد بدت على وجهه صورة من يحلم حلما جميلا . فقد افرجت شفتاه قليلا ، وسهمت عيناه في شبه تأمل فلسفي واستغراق غير مجهد . ولا ادري كيف اوحى لي صورة الاول الحذر والنفور ، ولماذا ولدت صورة ثاني من نفسي شيئا من الهدوء والطمئنان والسلام ، واظن ذلك يرجع الى ان صورة ماجد كانت تدل على حب صاحبها في الهجوم بدون

(١) تمثال الملك فيصل الاول الذي ازاحته ثورة ١٤ تموز

هوادة اذا قورنت بصورة سالم التي كانت تشبه صورة فيلسوف يحلم ، تكاد تنطق بطيبة عنصر صاحبها ، وتخبرك بوجود ملجأ امين في نفسه تلجأ اليه عند الحاجة .

الا ان منظر رفيقي لم يقف تأثيره عند هذا الحد بل تعداه الى استشارة الذاكرة ، واستعادة مشهد قديم . فقد خيل إلي ان كل المناظر والمحسوسات حولي قد اختفت وحل محلها منظر غرفة قد نضدت فيها الرحلات ، ومدرس قد اجهد نفسه في محاولة افهام تلاميذه حل مسألة رياضية عويصة ، وتلميذين جلس احدهما عن يميني والاخر عن يساري ، فوق مصطبة محطمة تبدو على وجهيها نفس هاتين الصورتين بدون زيادة او نقصان . ما اجلى المنظر وما اوضحه . ها هو المدرس يقف عند نقطة عويصة ، ويلقي سلسلة من الاسئلة القصيرة ليشركننا في التفكير معه ، وها هو سالم قد استغرق في التفكير ناظرا الى الارقام ، وها هو ماجد لا ينظر الى غير المدرس وحركاته ، ويرفع سالم اصبعه بعد فترة وجيزة ويحل المشكلة بمهارة تثير الاعجاب ، فينال استحسان المدرس ويلتفت المدرس باسمه الى ماجد ، ويطلب منه اعادة الحل ، فيقف مرتبكا ثم يخطط خطط عشواء ، ويلذ للمدرس ان يداعبه فيستدرجه ويتقل به من غلطة الى اخرى حتى يقذف به الى جواب مضحك . ويضح التلاميذ بالضحك ، فيتنبه ماجد الى الشرك ، ويجلس خجلا .

وضحكت عندما تذكرت هذه النكتة التي مر عليها ما يقارب الخمسة عشر عاما ، فقطلع إلي ماجد مستغربا وسالني :

— ماذا حدث ؟ . ها انت تعود فتضحك مع نفسك كعادتك . الا تخشى ان يرميك البعض بالجنون .

فاجاب سالم عني

— قد يتذكر الانسان حادثة مضحكة فلا يتمالك ان يتسم او يضحك .
وليس في الامر ما يوجب الاستغراب .

واضفت متشفيا •

— يمينا لقد كنت اضحك منك •

— ولكن لم يبد مني ما يوجب الضحك •

— لقد فعلتها قبل خمسة عشر عاما •

• رقيقه سالم طريا ثم هتف

— ما أجمل نكتك يا ماجد يوم ذاك ، وما اكثر اغلاطك المضحكة ؟

واحمر وجه ماجد الممتليء فقد شعر بما يحط من مقامه ومركزه الرفيع

فأجاب متحديا

عليك بالتناجح يا سيدي • ان الزمن كميل باظهار ذكاء الانسان ومقدرته ،
وقد علمت بعد هذه بالتجارب الطويلة ان المدرسين ورجال العلم قاطبة
اسخف مخلوقات الله • لقد كنت محترما لذكائك ، متقدما علينا دائما وكنت
اضحوكه الصف كما تدعي ، ولكن ما هي النتيجة ؟ ها انذا افوقك بمراحل
في الراتب والمركز والنفوذ ، بالرغم من عدم اتقاني هندسة اقليدس والمثلثات
وقواعد اللغة وتاريخ نابليون وغير ذلك من السفاسف • لقد اصبحت موظفا
في وزارة (•••) بهذا الراتب الضخم على الرغم من كوني لا املك غير شهادة
الحقوق • اما انت فما زلت مدرسا بنصف راتبي تقريبا بالرغم عن كونك
حائزا على ثلاث شهادات عدا شهادة الحقوق • افلا يحق لي ان اضحك منك
ومن كل رفاقك الآن ؟

فأجبتة مغتاظا

— ولكنك لا تقوّه ذكاء وثقافة على الرغم من مركزك وضخامة

راتبك •

فأجابني ساخرا

— وبم تقيس الذكاء اذن يا سيدي ؟

وعندها تدخل سالم وكان يتسم طول الوقت ابتسامة رزينة .

— انكما تتجادلان في موضوع تافه . فليس كوني اذكى من غيري
امرا يستحق هذا النزاع الذي يكاد يدفع بكليكما الى الغضب . كما انى
ارى روح التحزب تسود منطقكما ، وليس من المؤمل ان تخرج حقيقة من
مثل هذا الجدل .

يقول ماجد ان الحياة قد علمته احتقار كل المبادئ العلمية التي
درسناها . اذ يدعى انها لا تفيد مثقال ذرة في التقدم والنجاح في الحياة
(كما يفهمه هو) وانا معه فى هذا اذ ان مثل هذه الامور لا تفيد مطلقا من
يريد ان ينال مركزا رفيعا ، او ثروة طائلة ، او راتباً ضخماً ، والا لكان جميع
اصحاب الثروة علماء فطاحل ، لا جهلة يكاد ان يكون بعضهم اميين . ولكن
ماجدا قد اخطأ حين قاس الذكاء بالثروة والمركز . اذ ان مركز الانسان في
الحياة يكونه عاملان الذكاء والمطمح الذي يضعه الانسان نصب عينيه ،
فمن الناس من يعبد الثروة ، وفيهم من يحب السلطان والقوة والنفوذ ،
ويكون رائد البعض الثقافة وتحصيل العلم ، وقد يتولع البعض بتحقيق مبدأ
او نشر مذهب ، وكل يصل الى مبتغاه بقدر ما يساعده ذكاؤه ، هذا بغض
النظر عن العوامل الاخرى كالصدف التي لا يحسب لها حساب . فليس
من حقه ان يعزى اذكى من ماجد لاني كنت مولعا بالدرس اكثر
منه ، وليس من حقه ان يعدني اغبى منه لان راتبه ضعف راتبي ، وكل ما في
الامر أن ماجدا اولع بالثروة والمركز الرفيع فركض وراءهما ، واولعت بالعلم
والثقافة فسعيت اليهما ، وها قد وصل كل منا الى درجة لا بأس بها في سبيل
تحقيق مطمحه من الحياة . وسترى الآن ان هذا الذي كنا نسخر منه في
في الصف ذو ذكاء مدهش لم يخطر على بالك وعلى بال مدرسينا ، حتى ولا على
باله هو . وما عليك الآن يا عزيزي ماجد الا ان تشرح لنا كيف توصلت الى

هذا المركز المحترم ، وهذا الراتب الضخم ، لكى تبرهن لهذا الملحد بقوة
ذكائك وتوقد ذهنك ، بأنه في ضلال مبین .

وكان ماجد ينظر اليه طول الوقت بشئ من الاستغراب فقدظنه سيهاجمه
وينال منه لانه تطاول عليه وسخر منه ومن ذكائه ، ولم تلبث امارات الشك
ان لاحت فى عينيه الحذرتين فأجاب محتدا

— حذار ان تكون ساخرا مني ايها الفتى ؟

— اقسم لك بأني لم اكن جادا فى حياتي اكثر منى الان . انى انسان
مولع بالحقائق ، فموضعك في المدرسة كتمليذ بليد لا ينال درجات النجاح
الا بشق الانفس ، ووجودك الان بهذا المركز الذي يدل على اقصى درجات
النجاح حقيقتان ملموستان ، ولكنني اريد السلسلة التي تربط هاتين الحقيقتين
وذلك بشرح خطتك التي سرت عليها في حياتك .

وكانت امارات الجذ والاخلاص التي بدت في هيئة سالم اكبر مشجع
لما جد فاطمان واستكان ثم تنحنح واستجمع قواه واجاب :

— ما دمت فيلسوفا تركض وراء الحقائق بدون غرض او نية سيئة ،
وما دمت لا تكرهني فسوف لا احاذر مما سلوكر لك ، وسأروي سيرتي
بكل اخلاص وصدق فأصغ الي

لقد كنت متأخرا فى دروسي لاني كنت اكرهها ولكنني كنت اعتقد
بنفس الوقت بضرورتها ، وضرورة التخرج من المدرسة . وقد ادى بي هذا
الوضع الى ايجاد طريقة لتحصيل الدرجات والنجاح ، وذلك بأن التجأت الى
دراسة طبائع المدرسين لمعرفة كيفية التأثير عليهم ، وابتزاز الدرجات منهم ،
واستطيع الان ان اقدم لك تقريرا ضافيا عن طبائعهم واخلاقهم لا يستطيع
ان يعرف رفاقنا في الصف حتى ولا انت شيئا منه ...

فقاطعته قائلا

— طبعا يا سيدى لانه كان يهتم بمادة الدرس لا بالمدرس نفسه •

— ولاني كنت اعتقد تمام الاعتقاد ان هذه الدروس لا تقيديني مثقال

ذرة في المستقبل ، ما دمت ابحت وراء الثروة والمركز الرفيع • لقد كنت ارى
حول الوفا من ذوى الثروات الطائلة ، والجاه العريض ، والمراكز السياسية
لا يتقنون حتى عملية جمع الكسور • ولكني وجدت ان التخرج من المدرسة
ضروري ونيل الشهادة امر لا بد منه لجعله مستندا وواسطة لتمهيد الطريق •
ففتقت لى الحيلة طريقة كنت احصل بها على الدرجات بسهولة كبيرة ، وذلك
بارضاء المدرسين بعد درس طبائهم • ولا اظنكما قد نسيتما مدرس التاريخ
والجغرافية الذى كان حديد الطبع يهدد من يلتفت من التلاميذ بالاصفار
والويل والثبور ، فاصبحت كالتمثال الجامد فى صفه ، وكان مدرس
الرياضيات محبا للنكت ، فلم ابخل عليه بشئ منها حتى ولو كنت موضوعها •
وهكذا قل عن الباقيين ولم يتغلب على منهم الا مدرس الفيزياء فقد كان من
المهارة بدرجة لا تخفى عليه الاعيبى وطرقى فاضطرت الى السعى فى درسه
وهو الوحيد الذى كنت اتال درجتي منه باستحقاق •

وقد تسألني عما كان يشغلني حينذاك ، فلا اخالك نسيت كيف كانت
الاحزاب السياسية تتطاحن ، وكنت ارقب الكفة الراجحة عن كسب ، وقد كانت
هذه الاحزاب تاشد الحاجة الى معونة الطلبة في الحركات الحزبية ، ولم
يصعب علي ان اتصل بزعمائها ، واتال ثقتهم ، اذ كان معظمهم ابسط عقلية من
معلمينا ، ولم اكن محروما من نعمة الاحتيال ، والمنطق فاستطعت ان اجمع
جمهور التلاميذ حولي ، واصبغ اعمال الاحزاب بصبغة وطنية شريفة ،
فاصبحت رئيسهم فى كثير من الاضرابات التي كانت تديرها الاحزاب ،
ولا اظنك قد نسيت ذلك الاضراب الذي لم يتمتع عن الاشتراك به غيركما
من التلاميذ •

فقاطعت •

— والذي ذهب ضحيته عدة تلاميذ مساكين لا يزال بعضهم يتسكع في الطرق ، ويمتنع البعض الآخر منها لا تشرفهم •

— وما ذنبي انا ، عليك ان تذكر القول المأثور (الغاية تبرر الوسطة)
ولكل انسان ان يسعى سعيه ... وتخرجت من المدرسة الثانوية ...
فقاطعه سالم •

— هنيئة من فضلك • لقد عرفنا طريقة نجاحك من صف الى آخر ،
ولكننا لم نعلم كيف نجحت في امتحان الوزارة ؟

— وهل عصي عليك الامر ، وانت الماهر بحل المشاكل ؟ الامر بسيط
جدا لقد كانت مخابرة تلفونية بسيطة بين رئيس حزبي وبين مدير المعارف
العام كافية لاعطائي درجات النجاح ، ووزارة المعارف مملوءة دائما بحملة
الشهادات ، وهم اذكاء يفهمون بسرعة طريقة انتهاز الفرص ، وتقديم
خدمات بسيطة مثل هذه لذوي الشخصيات البارزة فتحسب لهم ، ويرد
لهم الدين مضاعفا في حينه •

ودخلت مدرسة الحقوق فوجدتها اداة حزبية فقد كان المدرسون من
كبار الموظفين ينتمون الى الاحزاب السياسية متشبعين باغراضها ، وعرفت
كيف ألعب دوري واربح المعركة ، وتخرجت من المدرسة بعين الطريقة
المعهودة ، واشتغلت بالمحاماة مدة سنة واحدة لان حزبي كان متحمسا عن
الحكم حينذاك ، ولا اظنك تجهل ان اهم اعمال المحامي هي الاشتغال بالشعب
والصراع الحزبي وقد انتصر الحزب الذي كنت انتمي اليه انتصارا باهرا ،
وكوفئت بتعييني في وظيفة ادارية بسيطة في اول الامر ••

وقاطعه سالم وكان منتبها اليه اشد الانتباه •

— لا تنس انك قد دخلت الآن في وسط جديد فيجب ان تشرح لنا
شيئا عنه •

اصبت • انه وسط جديد ، ولكني درست ظروفه بسهولة ، وتوصلت الى معرفة طريقة التقدم ، اذ كنت اضع التقدم دائما نصب عيني • ولست ممن يرضون بالتافه الزهيد •

لكل موظف يا عزيزي عمل يقوم به ، ويخطيء كثيرا من يظن ان اتقان العمل والقيام بالواجب باخلاص هو واسطة التقدم • ان اهم شرط للتقدم هو معرفة كيفية ارضاء الرؤساء ، وامر ارضائهم سهل جداً • ولكنني وجدت نفسي امام مشكلة عويصة كدت اعثر بها عثرة لاقيام لي بعدها لولا لطف الله • اذ لا يخفى عليكم ان تبدل الوزارات المتتابع يسبب دائما تغيير رؤساء الدوائر ، وكثيراً من الموظفين الكبار • وبعض الصغار ايضاً • والويل للموظف من الرئيس الجديد اذا علم انه محسوب عدوه السلف ، اذ يكون نصيبه التقهقر عدة خطوات الى الوراء ، اذا لم يرفث ، فالامر يتوقف على مقدار علاقة الموظف بالرئيس السابق ونوعها • وفتقت لي الحيلة ان ادرس شخصيات هؤلاء الذين يتناوبون في الجلوس على الكراسي ، ومن حسن الحظ ان عددهم كان محدوداً ، فخالطت البسطاء منهم والعظماء ، والاذكياء والاغبياء ، واتصلت بهم جميعاً بطريقة لا توجب الشبهة ، ولا تثير العداء الحزبي ضدي • وكم كان سرورى عظيماً بالاتصال بهم واقول بصراحة انني لم اجد من هو أبسط منهم نفساً ، وأسلس قياداً ، فيكفي أن تلعن من يكرهون أمامهم أو تمدح من يحبون ، او تزورهم في ايام المرض ، او تهديهم هدايا تافهة في بعض المناسبات ، حتى تقع موقعا طيباً من قوسهم • وقد اصبحت سكرتيراً لاحد الوزراء يوماً فعدوت صاحب الحول والطول في وزارته ، اذ ان الوزير المحترم ما كان يعرف من شؤون عمله غير حضور جلسة الوزارة ، ويعتمد عليّ كل الاعتماد عدا ذلك • فوجدت الفرصة مناسبة لجمع الانصار ، وخلق المحبين • ومساعدة ذوى النفوذ ، وتمشية اشغال المقربين ، وبواسطة هذا المركز كنت اعرف موعد هبوب الزوبعة او سقوط المطر ، فقد كانت تحت

يدي كل المقاييس لمعرفة ذلك ، فكنت اتخذ الحيطة واعد العدة للوضع الجديد .

ولم ارث في حياتي الا لأولئك الذين يظنون ان العمل باخلاص ، والاخلاص للواجب ، هو واسطة التقدم اذ أن هؤلاء هم الوحيدون الذين سيقون في طي النسيان ، لا يصيبهم خير ولا شر ، مخلوقات لا يحسب لها حساب في هذه المعارك الطاحنة لانها عزلاء ، ولا انكر اننى قد استفدت من امثال هؤلاء فائدة عظيمة اذ كنت القي عليهم كل الاعمال المجهدة ، فيقومون بهما حامدين شاكرين باتقان واخلاص ، فأنال بسبهم الشكر والتقدير من الرئيس .
والتفت سالم الي وهو ضاحك مستبشر كمن فاز بمطلب عزيز او ربح رهانا غالياً فقال

— ما رأيك ايها الصديق بهذه العبقرية التي لم تنتجها مدرسة ولا علم ، وهل وجدت بين رفاقنا من له هذا الذكاء الفطرى ، والمهارة العظيمة في دراسة المجتمع وتحليل ظروفه والاستفادة منها بصورة عملية للتوصل الى طوباه .
فأجته ساخطاً

— قل ما شئت ولكنها طريقة لا تلذلى ، ولا تخلق في نفسي الاحترام والعطف على من يتبعها .
فأجابني

— هذا امر آخر ، اني لم اقل لك ان هذه الطريقة توافق من يريد المحبة والعطف ، ولكنها توصل الانسان الى مركز عظيم .
وصوب ماجد نحوي في هذه اللحظة نظرة شررة وصاح في وجهي ساخراً .

— محبة واحترام ؟ اني لا استجدي مثل هذه التوافه . واني لآخر انسان يفكر في السعي وراء شيء من هذا القبيل ، من امثالك ، او من الناس

جميعاً • ان الناس عييد المادة يركضون وراءها كالكلاب الجائعة تستعبدهم
السطوة والجاه ، يلحسون اليد التي تطعمهم ، ويقبلون السوط الذي يلهب
ظهورهم •

ولا ادري لماذا اخذني الحساس وشعرت برغبة حادة في دق عنقه ولم
اتمالك أن صحت في وجهه :

— انك تتعمل اساليب القرون الوسطى ومقاييسها الاخلاقية ،
وتدين بالمباديء الرجعية التي أكل عليها الدهر وشرب ، مع انك تحمل
ثقافة القرن العشرين ، عصر المصالح العامة ، واحترام حقوق الفرد •

فقهقه ضاحكا وأجاب :

— اني لا أستطيع أن القي حقيقة في ذهنك ، لأنك تكرهني ، وربما
كان ذلك لأنك تحسدني ولكني اترك الجواب لسالم ، وانا مطمئن •

فأجاب سالم بلهجة جدية

— ان ما تنشده يا عزيزي طوبى بعيدة التحقيق عندنا • فنحن وبعض
اقسام العالم نسير على نفس الاسس التي كان يسير عليها العالم في القرون
الوسطى ، القديمة في التنظيم السياسي والاجتماعي ؛ فحياة الفلاح لم ترتق
عما كانت عليه في مصر القديمة وبابل^(١) ، وما زال سكان المقاطعات يخضعون
لاسيادهم خضوعاً مطلقاً ، وقد بقي الكهنة والسحرة واضرابهم يقومون بعين
العمل الذي كانوا يقومون به ، وان كان قد تبدل شيء فهو المظاهر والاسماء ،
فقد حل الدكتاتور المطلق محل الملوك المستبدين • اما الحروب فقد تبدلت
أساليبها وأدواتها تبعاً لزيادة سيطرة الانسان على القوى الطبيعية ، ولكن الغاية
من الحروب لم تتبدل ، ومن المؤسف ان يستخدم الانسان ما توصل اليه
من الاكتشافات في سبيل تقوية نظامه القديم السخيف ، فكان مثله في ذلك

(١) يوم كتب هذا الحديث كان الاقطاع في العراق في اشد حالاته سوءاً

كمثل طفل قاده سوء طالع الى غرفة مملوءة بالعناد والبارود وعلب الكيريت .
أما ما يخص حرية الرأي وحرية الفرد ، فقد تستغرب لو قلت لك ان هذه
الحرية مضطهدة في البلاد التي ينظر اليها الشرقي كمثل اعلى أكثر مما كانت
مضطهدة في عهد الاغريق والرومان بمراحل . لقد كان الاقدمون يحاربون
حرية الرأي بالسيف والسم ، فيقتلون بعض الافراد الذين يقدمون أنفسهم
ضحية في سبيل مبادئهم ، ولكن هذه التضحية كانت تستهوي طبقة الدهماء
والمساكين ، فتنتشر بينهم تلك المبادئ انتشار النار في الهشيم . أما الان
فقد أوجد العالم الحديث طرقاً هائلة لمقاومة هذه الحرية ، فقد اصبح علم
النفس والتربية اداة بيد المتفذين يستعملونها في قتل ما يريدون قتله في
نفوس النشء ، وغرس ما يريدون غرسه ، فيجعلون الشعب بأسره كتلة
واحدة تتحرك حسب مشيئتهم ؛ وتطيعهم طاعة عمياء ، وتستخدم كما
تستخدم الآلة الصماء لتحقيق غاية لا يعلم حقيقتها الا الله .

لا أخالك قد نسيت المشهد الذي اضحكنا كثيراً البارحة في فلم (آخر
أيام بومي) . منظر الحداد المصارع عندما كان يشتري معلماً لابنه من
سوق النخاسة ، وقد كان الاجدر بنا الا نستغرب وفي كل يوم نرى امامنا
المئات من هؤلاء المعلمين يبيعون أنفسهم لجبايرة المادة .

ولا أستثني من ذلك بعض كبار العلماء والفلاسفة بضمن لا يزيد
كثيراً على الثمن الذي كان يتقاضاه سيدهم . ولو أردنا الحقيقة لعددنا الاول
أكثر رفاة من خلفه الحديث . فقد كان سيد الاول يشتري التصرفات
والحرية المادية ، ولا يتدخل — أو بكلمة أصح لا يهتم — بالعقل والثقافة
وحرية التفكير ، لانه لا يقيم وزناً لمثل هذه الامور ، لا يفهمها . أما المشتري
الجديد فيريد البضاعة خالصة لا غش فيها ولا قصص ، فهو يشتري العقل
والمعنويات والاعتقادات ، ولا يهتم بهذا الغلاف الذي يسمونه الجسم ، ومع

ذلك تسمع العالم كل يوم يعلن بأن القرن العشرين هو عصر النور وحرية
الاعتقاد والتفكير .

فاعتزضت قائلاً

— لكن في العالم مفكرين احراراً ، وامما تسير على اساس علمي
صحيح . اما بقية العالم فيقبل الطرق القديمة لعلّة ما .

— العلّة هي عبادة العجل الذهبي يا صديقي ؛ ففي الوقت الذي يعلم
البشر ان هذا الصنم شيء سخيف يجب القضاء عليه وعلى عبادته سيراتح
العالم من اوصابه والامه ، ولكني قليل الايمان بسرعة حدوث ذلك .
— ولماذا ؟

— لانه يستحيل ان يصبح كل الناس فلاسفة يحقرون المادة .
— ولكن هل من سبيل الى تقليل شره ؟
— هنالك سبيل واحد وهو قتل الانانية وطموح الفرد الى المادة ،
وتوجيه نشاطه الى ما فيه خير للمجموع ، وقد يتم ذلك بالترية الصحيحة الحرة
والتهذيب العلمي والثقافة .
فاضفت .

— وبتقوية الشعور الديني .
فلاحت على وجهه ابتسامة غريبة واجاب .
— اقول لك بصراحة بانني لا اعتقد بدين ولا اؤمن باله ؛ ولكن لم
يخطر على بالي يوما ما ان اركض وراء الذهب ، او اسيء الى مخلوق .
وكان ماجد غير ملتفت الى حديثنا ولكن لم تكد تصل العبارة الى
مسامعه حتى صرخ في وجهه .

— زنديق . زنديق انت . لك ان تتفلسف ، ولكن ليس لك ان
تجند وتكفر . لقد ادركت الان سر عدم نجاحك بالرغم عن ذكائك المفرط .

ذلك لانك كافر زنديق

فصحت به ساخراً وأنت ؟

فأجاب متباهياً •

— انتي لم اقطع صلاتي — علم الله — ولم ارتكب محرماً ، ولم آت منكراً ، وهذا جزاء المؤمنين •

وللسرة الاولى اجد سالماً يخرج عن وقاره ورزاقته ويضحك حتى يكاد يستلقي على الارض ، وبعد ان هدأ ربت على كتف ماجد ملاطفاً وقال •

— لا تغضب يا صديقي اني لا أهين اعتقادك ، وتأكد بأنني احترم اعتقادات الغير مهما كانت اذ ليس من حقي ، وأنا الذي أعبد حرية الاعتقاد ، ان احقر ما يعتقد به الغير • فلتترك هذا الحديث الذي يثير غضبك ولنرجع إلى حديثنا الاول ، فلا زلنا محتاجين الى معرفة الطرق التي كنت تتبعها حينما تجد من ينافسك في عملك ويزك في صفاتك ، ويحاول ان يزيلك عن طريقه او يتغلب عليك • فاجاب

— لقد وجدت ثلاثة من هذا النوع كان احدهم ملحداً مثلك ، فلا زلت به حتى جعلته يتنوه ببعض سخافات امام رئيسنا المتدين فسقط من نظره مرة واحدة وذهب الى سقر • اما الثاني فقد كان عريداً زير نساء ؛ ولكنه كاد يقتلني بذكائه ونشاطه في العمل • فقد كان ينجز في يوم واحد ما لا يستطيع ان ينجزه اربعة موظفين في مركزه ؛ فما كان مني الا ان ادخلت في ملفه الشخصي تقريراً عن حياته الخصوصية المعيبة ، فرفت وذهب ضحية ضربة من ضربات الذيل المشهورة • اما الثالث فقد كان قرناً عنيداً وخصماً لا يغلب فقد كان حذراً يتبع عين الطريقة التي اتبعها ، وقد تقدم علي لانه كان يفوقي في طرق الترفل • وحدث ان تغير رئيس دائرتنا على اثر تبديل الوزارة ، فرأيت الفرصة مناسبة ، وأبلغت الرئيس الجديد بأن هذا الموظف من اكبر

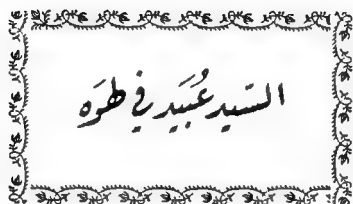
انصار سلفه ؛ واستشهدت بالتقارير المقدمة عنه ، وبالتقدم الذي حازه في وقت السلف ، فحواله الى دائرة اخرى برتبة اقل من رتبته بجرة فلم ، وبقيت صاحب الحول والطول في تلك الدائرة .

ومر في تلك اللحظة شخص مثقل باللحم لا يكاد يتطيع الحركة . وما كاد صاحبنا يلمحه حتى وثب وتأهب للخروج وهو يقول
— انه ذو الشخصية البارزة (٠٠٠) وسيكون وزيراً عن قريب وقد خطبت ابنته ... وداعا .

وانتهز فرصة اقترادنا فحملت على سالم بقولي
— لقد كنت تشجعه على المضي بخطته باطراء ذكائه ومقدرته ، وكان الاولى بك ان تحاول اقناعه بخطئه ، فتخلص العالم من شرير سوف لا يقف شره في سبيل نفسه عند حد .

فابتسم واجاب

— لم يكن قصدي ان اشجعه ، ولكنني اردت الحقيقة بما قلت ، فهو ذكي جداً . اما انايته فطبيعة في نفسه . وقد قويت وثبتت بواسطة ما ناله من النجاح . ويستحيل على اي انسان مهما اوتي من مقدرة ان يغير طبيعته الآن . ان امثاله في العالم كثيرون ، ويجب على العاقل ان لا يفتأظ من وجودهم او يتألم ، بل يجب ان ينظر الى هذا المظهر كما ينظر الى اي حادثة طبيعية اخرى ، وسيقدر لهؤلاء ان يلعبوا ادوارهم على مسرح الحياة . ويجب الا تتوهم فتسند نجاحهم الى ضعف رجال السياسة عندنا ، او الى ضعف ثقافة شعبنا ، اذ لو درست حياة عظماء السياسة المعاصرين في العالم ، لما وجدتهم قد اتبعوا غير امثال هذه الطرق ، مع قليل من الفارق . وقد يسوموا بعضهم فيوجه همه لفائدة مجموعة من الناس ، تزيد وتنقص ، بحسب ما تشتمل عليه قلوبهم من عواطف النحنية وحب الغير .



وضع الاستاذ عبيد القينة العرق على المنضدة ، وقد تعمد ان يضعها في وسط المنضدة بحيث تحيط بها صحن (المزة) الصغيرة المملوءة بالأطعمة والنقل والسلطات وما شاكل ذلك ، وكثيرا ما يغير ترتيب الآنية الصغيرة ويظل يغير في محلاتها ، حتى يرضى ذوقه الهندسي ، ودقته الرياضية • ويعلم الاستاذ العلوم الرياضية في احدى المدارس الابتدائية ، وقد يستغرب القاري ان كلت له لقب الاستاذية جزافاً ، فهو لا يستحق حق لقب مدرس اذا راعينا تعليمات وزارة المعارف الجليلة ، ولكنني لا اريد ان ابخل عليه بلقب يحمله البناء والتجار والحداد والصباغ ••• الخ ، فكلهم يحملون هذا اللقب مع شيء من التحريف (اسطه) ، فليس من الانصاف ان أولم عاطفته الرقيقة الحساسة بهذا الحرمان •

وقد تعود الاستاذ عبيد ان يقوم في مثل هذه الظروف بعدة اعمال يوحىها اليه الحذر الشديد ، وحج التستر ، فيحكم راج الباب ، ويوصي الخادمة ان تخبر كل من يسأل عنه بغيابه عن المنزل ، وبعد ان يطمئن على نفسه من الواشي والريب ، يرسل زوجته الى فراشها ويشرع بالشرب •

وقد ضاعف الحذر هذه السنة ، اذ قد كثر الوشاة والنامون الذين يتبرعون بنقل مثل هذه الاخبار الى مدير المنطقة الجديد الذي يتلقاها بسرور عظيم ، ويجمعها في ذاكرته العجيبة ليستعملها عند الحاجة ، وكلمة (عند الحاجة) هذه تعني وقت ان يعلم ان أحدهم قد (شاغب عليه) اي تكلم عليه بما يمس شخصيته ، ويقلل من هيئته ، فيستدعي المتهم الى دائرته ، وبعد ان يفرك يديه مسروراً ، ويهز رأسه ابتهاجا ، يفتحه وهو يرقص فوق كرسيه الدوار •

— اي • اي ••• استاذ • شافوك تسكر اشدعوه هالسكر الزائد •••

مو صحتك تحرف • ها ها ها •• مو بس هذا ، مو المحيط ما يرضى المعلم
يسكر • اي ، مو النظام ما يوافق ها ها ها •

فيستقط قلب المتهم بين جنبيه ، ويبدأ يعرض آيات الولاء والاخلاص ،
ثم يقدم براهين لا تقبل الشك تثبت ان هؤلاء المنافقين الذين وشوا به هم
من انصار سلفه (المدير السابق) الذي كان يكرهه (ويضيف من عنده)
لاخلاصه العظيم له ، وذكره بالخير في وقت هذا السلف ، وعند ذلك ينتهي
الامر بين الاثنين الى اتفاقية ضمنية مؤداها اسكت لسكت •

ولا يعرف الاستاذ من اين تعلم هذا اللعين هذه الاساليب الجزويتية ،
والسياسة الماكيافيلية التي يكرهها من كل قلبه كما يكره النفاق والتزلف ،
فالاستاذ يجب الصراحة بالقول والعمل ، ولكنه يخاف سوء السمعة التي من
أقل اضرارها ان تكون متمسكا عند الدوائر العليا ضده ، تستعملها في
وقت الزيادات والترفيعات ؛ وخصوصاً عند التنقلات اي في تلك الاوقات
التي تكثر فيها تدخلات الشخصيات البارزة في شؤون التعليم ، فتتظلم قوائم
التحويلات ارضاء لرغباتهم ، فاذا ما سأل المحول الذي لا سند له عن سبب
التحويل ، اخرجت الملفات ، واعلنت النقائص والتهم فيسكت المتهم لسكت
الدائرة •

ويتقن مدير المعارف الجديد ، الذي يخشاه الاستاذ بقدر ما يكرهه ،
هذه الاساليب والطرق لدرجة تؤهله للترقية ، واحتلال مناصب أهم واجدره
والاستاذ المحترم لا يعرف ذلك فقط بل يغالي في الواقع حتى يتوهم ان
دائرة المعارف تسهّد للمدرسين الطرق لارتكاب الاغلاط والمخالفات ، ليكون
تحت يدها مائتكم به افواه المشاغين وتكبل به ايدي المتمردين، فاصبح لا يتكلم
الا بعد تفكير عميق ، ولا يذهب الى محل مشبوه قبل ان يرسل الطلائع
والجواسيس ، ويستقصي ادق الاخبار ، ولا يزور المشاغين واعداء المدير ،
ولا يرد عليهم السلام الا بعد أن يلتفت حواله ليتأكد من خلو الطريق من اتباعه •

وعندما انتهى الاستاذ من ازدراد معظم هذا (الربع) من الخمرة ارتفعت درجة حرارته ، وقدحت عيناه شرراً وضم قبضتيه مهدداً متوعداً ، ثم انهالت عبارات الشتم والسياب من فيه . وذهب به الحماس الى الصياح وضرب المنضدة بقبضة يده ، فقفزت اطباق (المرة) ، ورتت الملاعق ؛ واصطفقت الكؤوس وكأنها تهتف وتصفق له استحساناً لجرأته العجيبة ، وبطولته الخارقة ، ولم ينس الاستاذ في تلك اللحظة ، رغم حماسه الشديد ، ان يتدارك الزجاجاة الصغيرة بكلتا يديه لئلا ينسكب ما تبقى فيها من بضع قطرات من الخمرة .

وعندما افرغ ما في الزجاجاة تماما ، ودب ديبب الخمرة الى رأسه ، وتمشى مفعولها في جسمه ، شرع بالعريضة . وهنا ارجو من القارئ ان يتذكر ان عريضة الاستاذ ليست كعريضة باقي الناس ، فهو لا يرقص ، ولا يغني ، ولا يتغزل ، بل يفكر بصورة جدية ، ويستعرض تاريخ حياته ؛ ويتذكر الفرص الثمينة التي فاتته ، تلك الفرص التي لو انتهزها لكان في مركز غير هذا المركز الحقير . فلو دخل المدرسة الحربية لتخرج ضابطاً ماهياً ، ولأستطاع أن يشرب أكثر من نصف زجاجة من الخمرة دون أن يؤثر ذلك في سمعته ؛ ولا في جيبه ، اذ يتقاضى في تلك الحالة ثمانية عشر ديناراً عند تخرجه لا عشرة دنائير ، هذا بغض النظر عن قصر مدة الدراسة ، وسهولة موادها . ويضاف الى كل ذلك الترفيع المطرد كل اربع سنوات بدل زيادة الدينار الواحد كل أئنتى عشرة سنة ، ثم يتذكر النياشين اللامعة ، والبدلة العسكرية الجميلة التي تلفت ظهر كل الناس ، والنساء منهم على الاخص ، (والكشخة) الحلوة ويتذكر كل ما يتعلق بذلك من امور حرم منها الى الابد . كم يتمنى لو سمح له باكتساء هذه الكسوة مدة يوم واحد اذن لشرب زجاجة من الخمر ، ثم خرج الى الطريق ليمشي مشدود الجسم متفوخ الرأس والصدر ، ويقترب عمداً من بعض رجال الدين الذين يقف شعرهم رعباً عند

رؤية سكير ، وخصوصاً اذا كان معلماً ، ليشموا رائحة الخمر منه ، وليضحك في سره عندما يراهم يتعدون عنه خائفين ، بعد ان يتحنوا له اجلالاً واحتراماً . ولذهب الى دائرة المعارف ، وجلس امام المدير واضعاً رجلاً فوق اخرى ، وتنفخ في وجهه أنفاساً مخمورة ، وكلّمه كلام الند للند . . ولكن هو الحظ الا تفساً للحظ .

ويتنقل بعد ذلك الى استعراض رفاقه في الصف يوم كان تلميذاً ، ففلان اصبح مهندساً ، وهو يربح من التلاعب بقوائم الصرف اكثر مما يربح من راتبه ، وفلان موظف اداري تنهال الهدايا عليه من ارباب المصالح حسب مواسمها ، حتى اصبح لا يصرف فلساً واحداً في شراء ما يلزم لبيته من حبوب وارز وسن الخ . . . ، وفلان مفوض في الشرطة يستقبل في المنازل السرية كامير ، ويتسع بالخمرة الشهية ، والنساء الجميلات مجاناً ، وغيرهم وغيرهم . وكلهم احسن حظاً منه يتنعون بمراكز طيبه ، تأتيهم الدراهم طائعة مختارة . اما هو فليس في استطاعته ان يربح فلساً واحداً فوق راتبه ، هذا اذا لم يذهب عشرة في التبرعات الاجبارية . وكيف يحصل المال وهو مدرس ؟

هل في استطاعته أن يأخذ رشوة عند ترفيع التلاميذ من صف الى اخر ؟ وكيف يستطيع ان يخدع أهلهم الذين يقدمون العرائض ضده عندما يرسل احد اولادهم ؟ ولو كان ذلك حقاً صريحاً ، فيعطون فرصة للمراكز الادارية لتبرهن على غيرتها على الصالح العام والشعب ، بتقديم التقارير الضافية ضده فتعاقبه وزارة المعارف بالتحويل والتشريد ، وقد اولع مدة غير قليلة باليانسيات ، واتعب رأسه بدراسة حساب الاحتمالات كل ذلك لكي يصطاد المال الذي يهرب منه دائماً فجاء ذلك ضعفاً على اباله ، وفقد الثروة الضئيلة التي ادخرها بالتقير الشديد . وعند ذلك يقن ان المال لا يختلف عن بقية الناس في كرهه والنفور منه فاضطر الى تعزية نفسه بدم المال ومدح فضائل الفقر .

ومما زاد في حظه سوءاً عدم وجود شخصية بارزة في كل افراد عائلته . فلم يستطع احد من هؤلاء الاقرباء الكثيرين ان يتسهم كرسياً مهما ، او يحتل منصبا عاليا . لقد كان هو ابرز شخصية بين كل هذا العدد الذي لا خير فيه من الاقرباء ، ولو لم يكن الامر كذلك لكان مدير مدرسة ابتدائية على الاقل ؛ ولحكم بضعة معلمين كما يحكم ذلك (الراقص على الكرسي) اتباعه ومروسيه .

ثم يتذكر عمله اليومي المجهد ، وهو ادارة صف عدد تلاميذه ستون ؛ ومحاولة ادخال القواعد الرياضية ، وغرائب الارقام في رؤوسهم الصغيرة المملوءة بالحيل الغريبة ، والخطط العجيبة ، للإيقاع به والضحك على ذقنه . والاستمرار على ذلك من الصباح الى الماء ، دون فرصة او انقطاع حتى يبع صوته ، وترقص الارقام امام عينيه وتمرق الخطوط الهندسية والزوايا والمثلثات أمامه ، تروح وتغدو وكأنها خناجر حادة تهدده بتمزيق خلايا دماغه ، وقد قرأ في كتاب لا يذكره ان مدرسي الرياضيات هم اكثر الناس ولعاً بالتجريد ، واسهلهم ابتعاداً عن الواقع ، واقرّبهم الى التخلق بالاخلاق الشاذة ، حتى يصل الامر ببعضهم الى درجة الجنون . ويتذكر امثلة كثيرة تثبت ذلك فثامر افندي الذي كان سكيراً في شبابه ، أصبح ناسكاً في نهاية حياته ، ذا لحية طويلة ، وسبحة لا تقل عنها طولاً ، وتكية واسعة يجتمع بها السذج والناسك لذكر الله . وعلى العكس من ذلك انقلب كامل افندي من ناسك ورع الى سكير فاجر في كهولته . اما قاسم افندي المشهور بحدّة ذكائه ومهارته في الرياضيات فقد تولع بقراءة الجلجلوتية ، واستحضار الجان والشيطان ، حتى انه نسي درسه الاصلي وتحول الى استاذ في استحضار الارواح . ويظهر ان التلاميذ الملاعين رأوا العلم الجديد اكثر فائدة واسهل مأخذاً من الرياضيات الجافة فصاروا يشجعونه ويخفون امره عن المدير .

ولو لم يمر الاخير بالصدفة قرب احد النوافذ ويسمع هذه الكلمات (يا هبل يا جبل، يا زعرور يا بعورور، يا عيب بحق الله عليكم وحق... الخ)

تطايير في جو الصف لبقى الأمر مستوراً وتخرج من الصف فاتحو فال
وضاربو رمل من الدرجة الاولى . وهنالك آخر قد اصبح يفتح الدرس
بآي من الذكر الحكيم كما تفعل محطة الاذاعة اللاسلكية ، لتحل البركة في
الصف وتفتح اذهان التلاميذ لدخول المواد العويصة والقواعد الغامضة .
ولا يجهل الاستاذ ان السبب في كل ذلك غير راجع الى احتراق الدماغ من
شدة الذكاء ، كما يقول السذج ، بل يرجع الى اغراقهم في القواعد الرياضية
المجردة ، وعدم اراحة اذهانهم من مفعولها ، وعدم الاهتمام فيما عدا ذلك من
الشؤون الاجتماعية او العالية او الادبية .

واتهى من استعراض الفرص والفائدة والذكريات المؤله ؛ والظروف
الراهنه المؤييه ، فقرر ان ينفض عنه غبار الخمول ؛ ويقوم بعمل يرفع
منزله ، ويقوم شخصيته ، ويجعله مرهوب الجانب عند هذا (الراقص على
كرسيه) ، ففكر وفكر ، ولم يجد أخيراً احسن من الكتابة في الجرائد حول
شؤون التعليم ، وانتقاد سياسة المعارف وغمز بعض الشخصيات . وليس
هنالك ما يخشاه لانه سيستر اسمه باخر مستعار ، على ان يوصل الاسم
الحقيقي بطريقة ما الى مدير المنطقة لتتم الفائدة ، اذ ليس هنالك ما يخاف
هذا منه اكثر من الانتقاد على صفحات احدى الجرائد . اما الجرائد فسترحب
بما يكتب ، لانها قد غيرت سياستها منذ عدة سنين ، فأهملت نقد اعمال
الوزارات المتابعة ، وتناولت رؤساء الدوائر الصغار بالنقد ، بل وبالشم عند
الحاجة ، فهي ترضى غريزة السيطرة في اصحابها بما تيسر ، واذا لم تيسر لها كل
ذلك ، تشامت فيما بينها بعد ان تكل امرها للواحد القهار . وتناول القلم ،
وشرع يكتب وانهاات العبارات القوية ، والكلمات الحماسية وتراكت
الاكاذيب ؛ ولعب الخيال دوره ؛ فاخترع ارقاما واحصائيات تعزز النظرية
الواردة في المقال ؛ وجمع ما في ذاكرته من نظريات تربوية عتيقة ، وراء
فلسفية بالية لاجلحدها لتعزيزه ؛ ثم ذيله بامضاء مستعار . ولم يتركه الى

الغد بل أرسله فوراً بالبريد ، ثم ذهب الى فراشه وهو يحلم بالشهرة والمجد ،
ورأى في نومه عدوه المدير يتوسل اليه ويستعطفه فلا يلين .

وتسلم مدير الجريدة المقال في ساعة حرجة ، من حسن حظ الاستاذ ،
فقد كان هذا حائراً في ايجاد ما يملأ عمودين من أعمدة جريدته ، فعده نعمة
من السماء ، والا لكان مقر مقال الاستاذ سلة المهملات .

وفي اليوم الثاني ارسل الاستاذ خادماً المدرسة لشراء جريدة . وتناول
الخادم الدراهم دهشاً ، لانها اول مرة يرى الاستاذ يجود بشئ جريدة . ولما
رجع الخادم اختطف الجريدة منه وقلبه يخفق انفعالا ، ثم أخذ يقلب صفحاتها
بايد مرتجفة ، وكاد يصاب بالسكتة القلبية عند ما عثر على المقال . فقرأه
مرتين دون وعي ، ثم ناول الجريدة الى زميله ، وأشار باصبعه الى المقال ،
فاخذ الزميل الجريدة ، وبعد ان طالع المقال رماها متأففا وقال

— لقد اصبحت الجرائد ملهامة للاطفال والخفاء .

وود الاستاذ لو كان في استطاعته ان يلطمه على فمه ، ولكنه سكت
على مضض . ومضت بضعة ايام ، ولم ينوه أحد بذكر المقال فاغتاظ . ولم
يجد مفرأ من كتابة مقال آخر لتعزيز المقال الاول ، وكيل المدح للكتاب ،
وذيله باسم مستعار غير الاول ، وكان نصيب المقال الثاني كنصيب الاول من
عدم التفاتة القراء ، وعند ذلك كتب مقالا ثالثا مملوءاً بالنقد والتجريح يرد
به على المقالين الاولين ، وبعد يومين تماما رأى المقال الآخر في نفس
الجريدة المعهودة منشوراً في عين المحل ، ويظهر ان الجريدة ارادت ان تلفت
الانظار ليتسع المجال لعدة مقالات اخرى فعنوت المقال بعنوان ضخم ،
واشارت لهذه المقالات وما تحويه من دفاع عن نظريتين مختلفتين ، فتحقق
لها ما ارادت . وانهالت المقالات على صاحب الجريدة وقام شجار عنيف على
صفحات الجرائد وسرت العدوى الى المدارس ، واشتد الشجار يوما بين

مدرسين ، واستفحل الامر بينهما حتى ادى الى شكايه وصلت الى مديرية المنطقة .

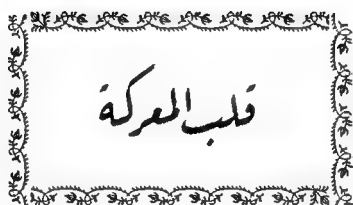
اما مدير المنطقة فقد وصله الخبر بطريقة ما ، فعلم ان الاستاذ كاتب قدير ، وعند ذلك ادرك السبب في ارتفاع رأسه مؤخراً ، وعدم ارتجاف صوته عند مخاطبته . وفي احد الايام دخل الاستاذ على المدير ، وسلم عليه بكل عظمة ووقار ، ولم ينتظر الرخصة بالجلوس بل جلس رأساً ، ولم يكتف بذلك بل وضع رجلا فوق اخرى ، فاغتاظ المدير ولكن امارات الغضب لم تظهر على وجهه ، واراد ان ينفس عن كربه فقال .

— بعض المعلمين يكتبون فى الجرائد باسماء مستعارة وهذا ممنوع رسمياً .

فاجاب الاستاذ بوقاحة

— لا حاجة الى الاسماء المستعارة (بيك) فانا سأترك المعارف العديمة للمستقبل واصدر جريدة . وعند ذلك سأهز دائرة المعارف هزاً .
فاجاب المدير مازحاً ملاطفاً وهو يرقص على كرسيه .

— احنا هم انريد نهتز ... احنا هم انريد نهتز ! هزونا ونهزكم .



كان ، ولا يزال ، هذا القسم من الدولة ، الذي يسمى وزارة المعارف ، يحوى اكبر عدد من رجال العلم والثقافة . والعلم الحديث شيء عظيم لم تقف امامه مشكلة الا حلت ولا سرا إلا ازيح النقاب عنه ، قد تناول القوى الطبيعية فحللها وفهم كيف يستفيد منها ، فسخر لارادته البحار والكهرباء والامواج الخفية والاشعة غير المنظورة ، وتناول جميع المرافق بالتنظيم والتنسيق والتحسين ، واخيراً حاول ان يعمل عمله فى النفس البشرية والنظم الاجتماعية فوقعت التقاليد الموروثة والاعتبارات المتعارفة امامه كالسد المنيع ، فهاجمها بقوة وثبات ، ونشأت بين الاثنين حرب شعواء ترى آثارها في كل الجهات . في المجتمعات الصغيرة والكبيرة . وتسمع صدى اصواتها من انحاء المعمورة . ورب سائل يقول : كيف تستطيع تقاليد وانظمه ولدت في العصور المظلمة ، وترعرعت في جو من الفوضى والهمجية ان تقف في وجه الحقائق العلمية المباركة ؟ ، ولكن هذا السائل سيجد الجواب عن سؤاله . ميسوراً لو تذكر ان الانسان لم يكن يوماً من الايام ، وسوف لا يكون في المستقبل ، مجرد قوى مفكرة عاقلة ، اذ بجانب ذلك تقف العواطف والميول والنظم الاخلاقية الاعتبارية ذات المقاييس التي لا تخضع لسبب او ترتيب منطقي ، وما ذلك الا لاننا لا نكسب الاخلاق بواسطة العلم ، ولا نحب او نكره ونحن خاضعون لقواعد العقل ، وما اشبه العالم بمدينة سطا النظام على شوارعها وميادينها وكل محلاتها العامة ، وحتى على ظاهر مبانيها ومنازلها ، ولكنه لم يستطع ان يخرق حرمة تلك المنازل واستقلالها . فلم يتناول تنظيم داخلها الا بالصدفة وبحالات نادرة ، واجمل ما يلذ للمفكر مراقبته هو المعركة التي تنشب بين العلم والجهل عندما يحاصر العلم الامة الناشئة ويقف امام اسوارها المنيعه ويشدد الضغط عليها حتى يحدث ثغرة في اسوارها وينفذ منها الى الداخل ، وهناك تنشب معركة تشيب لهولها الولدان . ولاتلبث

الاسوار ان تنهار كلها ويختلط الحابل بالنابل ثم تنجلي المعركة عن فوز الفاتح ، ولكن هذه المعركة التي تنتهي في الحرب الحقيقية بمدة ساعات قد تستغرق عندما تنشب بين العلم والجهل عشرات السنين ، وفي وسط هذه المعارك يجد الفاحص المشاهد صوراً مدهشة من كلا الطرفين تستحق التسجيل والتخليد ، والقصة التالية صورة ملتقطة من قلب هذه المعركة

فقد حدث ان امة احتلها الجهل والتأخر قرونا واجيالاً ، وسورتها التقاليد بسور هائل لا يسهل اختراقه ، وحدث ان جيوش العلم والتنظيم اكتسحت كل الشعوب المتأخرة حتى وصلت في طريقها الى هذه الامة وحاصرتها بغية اقتحامها ، وكان ان اقتحم الاسوار بضعة عشر تقرأ من المحاصرين ولم يكن هؤلاء الا رجال الفكر من المثقفين وحمله الشهادات العلمية وغيرهم ممن درسوا في معاهد الغرب ، وكونوا اساس القوة المهاجمة باسم وزارة المعارف .

وقد بدأ هؤلاء كفاحهم بشكل غريب ، وشنوا حرباً بعضها مضحك ، وبعضها مملوء بالمآسي والنكبات ، وكان ان سقط بعض هؤلاء تحت ضربات المدافعين ، وسلم البعض وقبل ذل الاسر وقيده في سبيل العيش ، واستسلم البعض ظاهراً واتخذ وضعاً سليماً مضحكاً ، وهرب البعض وقد ذهب بعقله الرعب ، وانزوى البعض في ركن منعزل لينجو بكرامته .

يا عرف من هؤلاء من صرفت عليه مبالغ طائلة لتثقيفه ، ولكنه لم يكد يرجع من جامعته حتى صار يتعلم لغة الحمقى ، ويقتبس عاداتهم ، ولم يترفع من قضاء اوقات فراغه في لعب النرد وقرقرة النار جيل .

وأعرف آخر اقترح تسمية احدى المدارس المتوسطة الجديدة بالمدرسة الهاشمية في عهد الهاشمي^(١) المرحوم ، وقبل ان تجف القطعة حدث الانقلاب

(١) انه المرحوم ياسين الهاشمي والرحوم للعهد لا للرجل اذ كان على قيد الحياة .

فاجابني حائراً

— لقد سمعتك مرة تدافع عن الفقراء والمساكين ، فظنتك تحمل بعض هذه المبادي •

— وهل تسمى هذه شيوعية ؟ اذن فالمسيح رجل شيوعي ، ومحمد اكثر شيوعية من رفيقه المسيح ، ولا بد في هذه الحانة ان يكون الله جل وعلا شيوعيا ايضا • اقرأ كتب الاديان والكتب المنزلة اذن ، ان أردت دراسة شيء من هذا القبيل • ولكن اؤكد لك ان لا علاقة بين ما ذكرت ، وبين ما يحوي كتابك •

فظهر الاسف على وجهه وأجاب بحسرة

— ما العمل اذن ؟

— ولكن ما حاجتك بكل هذه المتعبات •

— لقد شاع ان ميل الحكومة شيوعي • وأحب ان يعرف ولاية الامور اهتمامي بهذه المبادي لكي يسهل طريقى في التقدم •

— اذن فما عليك يا عزيزي الا ان تضع هذا الكتاب في جيبك على ان تجعل عنوانه يبدو من الجيب بحيث تسهل رؤيته ، وتزور كل هؤلاء المتنفذين • ولست أعرف لك طريقا آخر •

على ان أغرب شخصية تكونت في مثل هذه الظروف هي شخصية مفتش في وزارة المعارف عاش قبل اكثر من خمس سنين ، ولست أدري أهو على قيد الحياة الآن ، أم أصبح من سكان العالم الآخر ، أم دخل في زمرة المتقاعدين • او تسنم منصبا عاليا • لا يحمل هذا المفتش شهادة علمية من كلية عاليه ، ولا عمامة وقورة ذات طيات كثيرة ، والوان تغير حسب المناطق والمواسم ، اما فيما يخص العلوم فيحمل منها ما يأتي

يتقن اللغة الانكليزية (الضرورية لكل مفتش حسبما يقول احد كبار

رجال التربية فى هذه الوزارة) بمقدار يكفى لاسناد مراقبة امتحان هذا
الدرس فى احد المرات ، وقد قام بواجبه أحسن قيام حتى انه سمع المدرس الذى
كان يقرأ الاسئلة يلقي أجوبتها بهذه اللغة وهو يظنه يعيدها مرة ثانية •
اما درجة اطلاعه على العلوم المختلفة فالحادثة الاتية تعطى القاريء
صورة كاملة عنها •

عين فى احدى السنين مدرسا فى مدرسة ثانوية فجمعته المهنة مع بضعة
شياطين وخبثاء يخلقون من لا شيء اموراً تضحك الثكلى •

وعندما قرب موعد الامتحان ادعى مدرس الكيمياء المرض ووضع
نسختين من الاسئلة احدهما معقولة ، والاخرى تحوي خليطاً غريباً مضحكاً
من كل العلوم ، مكتوبة بهذه الصورة (ماذا يحدث من تشاجر حامض
البرمسيوم مع ادروكسيد الاميا ، وما هي خواص الهيوبوتيمس ؟) وهكذا
كانت بقية الاسئلة • والقاريء الذى لا يعرف مبادئ علم الحيوان وعلم
الكيمياء لا يدرك ما فى هذه العبارات من الخط الفظيع ، لان البرمسيوم
اسم حيوان ابتدائي والحامض من السوائل الكيميائية • واعطى هذه النسخة
الى المدرس لينوب عنه فى القاؤها •

ودخل المدرس قاعة الامتحان وبعد ان انب احد التلاميذ لانه التفت ،
ووبخ آخر لأنه (كاعد اعوج) وهدد الجميع بالطرده عند محاولة الغش وبعد
ان اعطاهم امراً عسكرياً بالاستعداد شرع يلقي الاسئلة بكل جد وسط
الكون الرهيب • ونظر التلاميذ بعضهم الى بعض حائرين ، ووقف
اجبرهم • فأدعى بانهم لم يسمعوا بهذه الاسماء • فما كان من المدرس الا
ان سحبه من يده بعنف وهو يقول

— اخرج • كلب مشاغب • سأطردك • وكان المعلمون الخبثاء يراقبون
الحادثة عن كثب وهم يكادون يسقطون على الارض من شدة الضحك ، ولما

اوشك الامر ان يستفحل اسرع احدثهم معذراً واعطى المدرس النسخة الحقيقية مدعياً ان الاولى قد اعطيت له سهواً .

ولهذا المفتش صوت غليظ جهوري وعينان قويتان كبيرتان تحتل قسماً كبيراً من وجهه الصغير . ولا يتفق صوته مع صغر جسمه وضآلة هيكله ويظهر ان الطبيعة لم ترد ان تقسو عليه كل القسوة فوهبه ما يستطيع ان يكمل به نواقصه . ويستعمل هذا المفتش صوته وعينه عندما يهدد ويتوعد . وقد تدفعه جرأته العجيبه الى تهديد رؤسائه عندما يحاولون الاساءة اليه . وقد ادرك ما فيه من نقائص ، فسمى لتكميلها بطرق شتى ، منها انه اتنى الى اقوى الجمعيات ذات النفوذ واكثرها سطوة على الدولة وتأثيراً فيها . ولم يكتف بذلك ، بل شرع يقدم الهدايا ويذل المال في سبيل ارضاء ذوي النفوذ واصحاب الشخصيات البارزة من شعراء وادباء ورجال احزاب ، وقد سقط من جراء ذلك تحت وطأة الديون حتى حجز ثلث راتبه الى أمد غير محدود ، ولكنه حصل على اضعاف هذا الثلث المقطوع من الزيادات والملاوات والمخصصات . فكان حابه دقيقاً جداً .

ومن غريب امره انك لا تجد في ملفته الشخصية شيئاً حتى ولا تقريراً واحداً ضده على الرغم من فظاعة الاغلاط التي ارتكبها . وقد حدث أن حاول كثيرون ممن نكبوا بشره أن يقدموا بعض الشكايات ضده، ولكنه كان يحول هذه الشكايات قبل وصولها الى دوائر البريد الى شهادات مدح وثناء ، يذل المال والكرامة . فهو لا يتردد في ارضاء المعتدي عليه ، اذا احس قوة منه باى مبلغ كان ، ولا يتردد في تقبيل اقدامه اذا رفض المال . وكان يقتلع شهادات حسن السلوك والمقدرة والكفاءة اقتلاعاً من رؤسائه وغيرهم من اولي الشأن . ولا تقل الحكاية التي تروى في كيفية ترقية هذا الموظف الى رتبة التفتيش المهمة غرابة عن بقية الحكايات والنوادر التي تروى عنه .

فيقال ، والعهدة على الراوى ، ان وزارة المعارف قررت في احد الايام

ان تنفض عنها غبار الخمول ، وتقوم باصلاح شامل تتناول فيه كل شؤون التعليم ومرافقه • وتهتم بكل الامور صغيرها وكبيرها بصورة جديدة لا ظاهرية ، كما كان شأنها قبلا • اما سبب هذا العزم الغريب فامر ان اولهما تشكيل وزارة جديدة على انقاض اخرى قديمة ، وفي مثل هذه الظروف تضع الوزارة الجديدة منهاجا اصلاحيا طويلا لا يختلف عما وضعته سابقتها، وتبدأ العمل بنفس الطريقة حتى تنتهي الى نفس النتيجة (اي السقوط بعد ستة اشهر تقريبا) •

وثانيهما قدوم رجل يحمل شهادة عالية من جامعة عظيمة ، وقد بدأ كفاحه بنقد اوضاع وزارة المعارف والبرهنة على فساد انظمتها وعدم ملاءمتها لروح العصر ، ووجوب الاهتمام باصلاحها الامر الذي لا يتم الا على يدي رجل حديث مثله طبعاً ، ولم تجد الحكومة مجالا للرد عليه • ورأت كلامه يوافق خطتها الاصلاحية • فاسندت له اعظم مركز في هذه الوزارة •

واعلنت الجرائد على صفحاتها خبر تعيين هذا الاستاذ القدير ، وكالت للوزارة التي اختارته المديح والثناء ، كما هي العادة ، واجتمع هذا الاستاذ بمن التف حوله من مؤملّي التقدم ، وهم يطمون بالمناصب العظيمة وعقدوا عدة جلسات ، وكان اول قرار اتخذوه هو تصفية موظفي الوزارة بفصل الضعفاء ، واعطاء البقية منهم مناصب تتفق مع كفاءتهم ومقدرتهم • وكان نصيب استاذنا ادارة القسم الداخلي لمدرسة ليلية • فقد علمت اللجنة انه يحسن الكنس والرش والفرش اكثر مما عداه ، ووجدت له محاضرة قيمة في اصول النظافة والكنس • واسندت الى من هم دونه مناصب اهم من هذه •

وبلغ الخبر الى صاحبنا عند انتهاء الجلسة • فعد الامر غبنا واستهانة بمقدرته • فاسرع الى جميع من تلقوا منه الهدايا والمديح ؛ وبعد ان جمعهم كلهم سار امامهم وهو يتأبط مجموعة هائلة من رسائل الشكر الرسمية ،

وشهادات حسن الخدمة والسلوك ، ودخل الجميع دائرة المصلح كما تدخل الجيوش الغازية بلداً ليس له نصير .

وبسطت الدعوى ، وقام الشهود ، ونشرت الاوراق العديدة التي تثبت كفاءة الرجل المغبون ، واصر الكل على وجوب اسناد منصب خطير له . وكان البعض يتكلم بلهجة تهديد ، والبعض بلهجة رجاء ، ولم يزد البعض عن التلميح بأن هذا التصرف قد يكون مسبباً عن التفرقة الطائفية ، فخاف المصلح المسكين سوء العقبى ، فوعدهم خيراً وانصرفوا مطمئنين .

وبعد خروجهم ارسل المصلح في طلب اعوانه وبسط القضية المهمة الخطيرة امامهم . واكثروا من المداولة ، وادلى كل برأيه لحل المشكل الخطير . واستغرقوا في هذه الجلسة وقتاً اكثر مما استغرقوا في الجلسات الاخرى . وفجأة قفز كبيرهم وعيناه تبرقان سروراً فعلم الجميع انه قد توصل الى حل مدهش يختلف كثيراً عن الحل الذي وصل اليه جماعة الغيران عندما فكروا سوية فاكثروا من جريهم والنط يخترعون حيلة للقط ، وبسط اقتراحه فقال

لقد حدثت مثل هذه المشاكل سابقاً في تاريخ وزارة المعارف . وقد حلت باسناد مناصب صورية لا تأثير لها على سير الاعمال الى امثال هذا الشخص ، فما علينا الا ان نعينه مفتشاً للمدارس الاهلية مثلاً .

فانبرى احدهم معترضاً .

— ولكن هذا المنصب قد اعطي الى رجل آخر لا يحسن من الاعمال غير اختيار اللون الملائم لعلماته عندما يقوم بمهمة من المهام . او يرسل الى قرية اهلها سذج .

— اذن فليكن مفتشاً للملاي .

وقفز احد الجالسين ضاحكاً وقال :

— ما دام الامر كذلك ففي استطاعتنا ان نضرب عصافير بحجر واحد ؛ فلدينا آخر يمتاز على هؤلاء بنشاطه وقابليته . ولكنه مكروه لا لكسله ولكن لترفعه وعزة نفسه ، وتسندة شخصيات بارزة ايضا ، ففي استطاعتنا ان نجعله مفتشا لمدارس الامين مثلا .

فاجاب الرئيس

— لا بأس ، وهذا هو الحل الذي لا مناص منه .

وابتسم الجميع اعجابا بمقدرة الرئيس الخارقة ! ولكن ابتساماتهم كانت تشبه ابتسامات السخرية والتهكم ، واطلق بعضهم ضحكات سخيفة مجلجلة لا تحوي معنى .

وانقضت الجلسة وذهب كل الى دائرته ، وكان أول ما وقع عليه نظر الرئيس عريضة مهمة من بعض الطلاب يشكون من ضيق المدارس ، ويسترحمون فتح بعض الصفوف الاضافية لانقاذهم من البطالة والتسكع في الطرقات فكتب عليها حالا .

تهمل لعدم وجود مخصصات كافية .

ختم

هكذا كانت حالة وزارة المعارف العراقية منذ عدة سنوات اما الان فيقال
انها عنوان الكمال والنظام ، وما على غير المصدق الا ان يسأل ويحقق •

المجموعة الثانية

الضحايا

١٩٣٧. الطبعة الاولى
١٩٥٨. الطبعة الثانية
١٩٧٧. الطبعة الثالثة

الأهداء

الى تلك التي تهز المهد يمينها وتنتقي السوط يسارها



وأخيراً ، وبعد انتظار ممل فتح الباب ، دخلت الحسنة تتبختر • وكانت تشي بهيئة تدل على الخمول والكل • ولم يكد أحد صاحبي يلحقها حتى وثب بخفة ، وبعد أن عدل رباط رقبته ، ومسح شعره اللامع بيده تلقاها محتفياً مرحباً • أما ثالثا فقد ابتسم في وجهها ، وبدون أن يتحرك من مجلسه مد يده ، يضافحها وهو يشمخ بأنفه ترفعاً •

واستقر بنا المجلس أخيراً ، وعندها أخذت استعرض المشهد بتفاصيله متفلاً بأنظاري من السيدة ، الى بقية قطع الاثاث فجدران الغرفة وما علق عليها ثم استقر نظري على مائدة الشراب فاطلت التحديق بما يعلوها من قناني وكؤوس ، ولعل البرد القارس ساقني الى التغزل بالشراب ، فكت أتحيله يناب في جوفي فيرسل في جميع أطراف بدني الدفء والنشاط •

وبعد مدة وجيزة امتلأت الكؤوس الاربعة ، ثم أخذت تتناقص تدريجياً ، ولكن بصورة غير متساوية اذ فرغت كاسي الى النصف لأول جرعة ، وفرغت كاس رفيقي الارستقراطي مرة واحدة ، أما ثالثا المتأفق فقد كان يرتشف الكأس بتأن وتكلف • وكانت الحناء هي الوحيدة التي لم تظهر أي ميل أو تحمس للشرب ، أو المنادمة ، اذ كانت تجرع الخمرة بدون رغبة كأنها تشرب ماء صرفاً ، ولكنها كانت تدخن بشراهة •

ولعبت الخمرة بالرؤوس ، وانطلقت الألسن ، وأخذ صاحبنا المتأفق ييدي من ضروب المجاملة و (والاتيكت) ما يقصر عنه المثل البارع ، وبدأ الارستقراطي بدوره يتحدث عن شرفه وعلو حبه ونسبه ورفعة مقام عائلته وثروته وبذخه ، وكان ينتفخ تهاً لدى كل اكدوبة يتفوه بها ، اذ يظن نفسه قد أصبح محط اعجاب الحاضرين •

وكانت السيدة تضحك وتقهقه بصورة ميكانيكية ليس فيها شيء من المرح والحياة ، وتوزع ابتساماتها ومداعباتها بصورة عادلة على الجميع ،

وشعرت بأنني الوحيد الذي كان يشعر بالسأم من هذه المهزلة التي يقوم
بتمثيلها ثلاثة شبان طائشين ، فقد أفسدهم الفراغ والشباب والجدّة ، وامرأة قد
حكّم عليها سوء ظالها بأن تقوم بدور المضيفّة لقاء مبلغ معين من المال •
وجذبت علامات السأم ، التي ظهرت علي ، انظار السيدة فخاطبتني عندما رأّت
استغراقي وعدم مشاركتي الحاضرين بالنكات الفارغة والمجاملات الباردة •

— هل تحلم ؟

فأجبت —

— ان جو الغرفة المشبع بالدخان ، ورائحة الخمرة والدنف وضحكاتك
الناعمة لا تترك مجالا لغير ذلك •

واعترض صاحبنا الارستقراطي يرطن بلهجة فخمة

— يجدر بك يا صديقي أن تترك فلسفتك هذه الى وقت آخر ، وتدعنا
في هذه الساعة نال قسطنا من الانشراح •

وكان يعث بوجنة السيدة بصورة ليس فيها شيء من الاحترام ، كما
يداعب خادمة ، وظلت تحتمل ذلك بصبر وجلد ، ثم نهضت تفتش عن علب
السكر ، وأثنتها فعلت ذلك لتتخلص منه •

وعندها اندفع ثالثنا برشاقة ، وقدم لها سيكارة ، ثم أولعها لها فشكرته
بابتسامة تدل على عدم الاهتمام ، ولا أغالي اذا قلت انها كانت تحوي شيئا
من الاحتقار ، وذلك لا ينتظر من عاهرة محترفة !

وما هي إلا مدة وجيزة حتى ساد المرح والسرور فملأ جو الغرفة بصدى
الضحكات والاغنيات اذ زالت الكلفة تحت تأثير الخمرة التي ألهمت الوجنات ،
وأرخت الاعصاب ، ولما دب دبيبها الى موطن الاسرار ، وبدأ الارستقراطي يهذي
بأحاديث تضحك التكلّي • ثم صرته الخمرة فارتمى على مقعده وما كان
حظ رفيقنا المتأق بأوفر من حظ صاحبه اذ كان يجاري الحساء برشقاتها التي
لا تحصى مجاملة ، حتى غلبته الخمرة فبدت عليه علامات الخمول والسكر •

وكنت أقل الجميع ميلا للشرب ، إذ كان فكري مشغولا طول الوقت بأمر هذه السيدة فأن شيئاً في سلوكها جذب انتباهي لدرجة عظيمة ، فقد كان يبدو عليها شيء من الرزاة ، وكانت ظراتها تحوي أسراراً مربكة ، ولم استطع أن أدخل معها في حديث جدي ، إذ كانت تتملص من ذلك عمداً وتقلب الموضوع قبل أن أصل الى نقطة مهمة • وصمتت أخيراً ثم أغمضت عينيها نصفاً أغماضة فبدت كأبي الهول ، ولم استطع صبراً فوثبت أتجول في الغرفة لاتخلص من نوبة الفضول الملحة التي اتابنتي ، وبقيت سائراً بدون قصد ، حتى وصلت الى نهاية الصالون الطويل ، واقتربت من النافذة فأزحت ستارها ، وألصقت جيني بالزجاج البارد ، فشعرت بقشعريرة منعشة ، وبدأ الليل في الخارج مدلهماً حالكاً ، ثم اسدلت الستار وكدت أعود ، لولا أن سقط نظري على طاولة صغيرة في زاوية الغرفة تكاد لا ترى ، وليس في الطاولة في الحقيقة ما يجذب الانتباه ، ولكن كتاباً صغيراً مجلداً تجليداً أنيقاً هو الذي حرك في دافع الفضول ، فتقدمت الى المنضدة ، والتقطت الكتاب ، وقتحته ، وكـم كانت دهشتي عظيمة حينما ارتسم العنوان أمام نظري (شهرزاد) ، والتفت ناحية الحناء فوجدتها تبسم ابتسامة غريبة ، فسألتهما ساخراً

— « يظهر ان عشاقك ذوو ذوق ممتاز في الأدب ؟! »

— فأجابتنني بمرارة « عشاقني ؟ وهل تظنهم يحتملون أمثال هذه

الكتب ؟ »

— « إذن خبريني بربك كيف وجدت هذه القطعة الفنية الراقية

طريقها الى هنا ؟ »

— « لقد ابتعتها لاقراها • وقد أعجبتني فقراتها عدة مرات »

وتفتحت عيناى دهشة واعدت عبارتها غير مصدق •

— « تقرأنها ! تقرأنها ؟ » فأجابتنني بشيء من الألم •

— « يظهر انك تستكثر على ذلك ؟ »

— « ألا تظنين ذلك من حقي ؟ إنك تقرأين • وصاحبة ذوق ممتاز في الأدب • • • وأنت • • • من بائعات اللذة • • ان هذا الأمر عجاب • • وألمتها لهجتي الساخرة القاسية ، قبدت في عينها امارات الذلة ، وتندت بالدموع ، وبقيت تحدق في وجهي مدة غير وجيزة ، وكان الفضول قد استحوذ عليّ فبادلتها التحديق وكأني أراها للمرة الاولى ، ثم اقتربت منها فسقط نظري على شعرها الجعد ، وجبينها الواسع ، وعينها النجلوين اللتين تشيع فيهما امارات الالم تارة ، والهزء والسخرية تارة أخرى ، أو يظهر فيهما شيء من الجمود يدل على أقصى درجات الغموض •

وقد كانت ملامحها بصورة مجملة حلوة متناسبة ، وليس فيها من عيب غير هذا الشحوب الذي يدل على حياتها المضنة القاسية • وما كان يبدو عليها من علامات السقوط في هاوية الرذيلة غير تلك الاصباغ المنتشرة في أجزاء وجهها • من أسود وأحمر وأبيض •

وبقيت انتظر منها جواباً ، فلم أفر بشيء ، اذ بقيت تفحصني بنظراتها المتأللة ، ثم تنهدت وأدارت رأسها • ودخل في روعي بأني أمام لغز عميق وسر يثير الاعصاب ، وتنبهت كل حواسي وثارت في غزيرة الفضول وحب الاستطلاع •

وأردت أن أخرجها واتحداها ، فاقتربت منها كثيراً ، وحدقت في عينها الشهلأوين، وخاطبتها بلهجة لينة مزوجة بكثير من السخرية وعدم التصديق : — « إذن فأنت أدبية تقضين وقت فراغك القليل بمطالعة أحدث ما يتجده الأدباء ؟ من أي مدرسة تخرجت يا ترى وفي أي وسط نشأت ؟ وما هي العوامل التي أدت بك الى هذا الوضع الشاذ ؟ هل لديك أهل أو أقارب ؟ • • يخيل لي بأنك قد سقطت من السماء لتلقي على أبناء الأرض درساً غريباً • ولكن ما لي ولهذه الظنون ؟ ولماذا لا أقول ان الخبرة قد لعبت بلبك فساقتك الى هذه الكذبة التي استغيتها لما فيها من غرابة » ؟

ولم أكد أتبي من كلامي حتى لمحت عليها امارات انقلاب غريب ، ثم نهضت ، وأشارت الي أن أتبعها •

ورأيت نفسي بعد لحظة في غرفة صغيرة أنيقة فيها من الاثاث سرير صغير ، ومنضدة ودولاب يحوي عدداً من الكتب الأدبية الحديثة والتفتت إلي شارحة

— « هذا خدري الخاص الذي لم يدخله غيرك ، وقد سمحت لك بدخوله لأنك تختلف عنهم كثيراً إذ يبدو عليك صفاء النية وطهارة القلب هل لك أن تجلس ؟ »

وجلست على الكرسي الوحيد الموجود في الغرفة ، وجلست هي على السرير وبعد أن وضعت رأسها بين كفيها ، وانكأت على مرفقيها المستندين الى ركبتيها قالت برقة وعذوبة

— « فلترك رفيقك يغطان في نومهما ، وابدأ باستجوابك ، والحق أسئلتك العديدة بروية وهدوء • لست أدري في الحقيقة مبلغ تأثيرك عليّ ، ولماذا يجب عليّ أن أدافع عن نفسي أمامك ؟ ألاأنك تختلف عن رفيقك ؟ أم لأنك تبدو مفتوح الذهن تقبل الحقائق على علاقتها ، وتحكم عليها بأنصاف وبدون تحيز ؟ يلوح لي انك انسان قد تحررت من كثير من القيود »

— « شكراً لاطرائك الذي لا أستحقه • وما دامت فيك هذه الرغبة لسماعي والتفاهم معي فخيرني إذن بربك كيف تعيشين هذه المعيشة المملوءة بالتناقضات ؟ »

— « ولماذا تسمي هذا تناقضاً ؟ إنني أحترف الحب كما تحترف أنت التعليم ، ويحترف غيرك التجارة أو الزراعة ، ولعل الفرق الوحيد بيني وبينكم ان أغلبكم يحترف الحرفة التي يريدوها • أما أنا فقد احترفت الحرفة التي سقطت اليها رغم أقي ، ولو لم أروض نفسي عليها لأخليت طريق الحياة ظنيري ، على أن ثمة تشابها بين حرفتي وحرف كل الناس ، وهو اني أقوم كما

يقوم غيري بأعمال كثيرة لا تتفق وميولهم حينما لا يجدون منها مناصاً ،
واسمح لي أن أقول بأنني لا أسلب الناس كما تسلبونهم ، وربما كنت الوحيد
التي أقدم أكثر مما أخذ » .

— « دعينا من فلسفة المهن وخبريني أية ضرورة قاسية ساقتك الى هذه
المهنة ؟ » يلوح لي ان في حياتك سرأ عميقاً » .

— « ستحيط بذلك علماً اذا اصعيت الى قصتي باتتبعاه . لقد كنت
وحيدة أبوي ، عزيزة عليهما ، لا يرفض لي طلب ، ولا يعصي لي أمر ، وكنت
معبودتهما ومحط عنايتهما ، بل الشيء الوحيد الذي يعيشان من أجله .

دخلت المدرسة في سن مبكرة ، وتعلمت كل ما تستطيع الفتاة أن
تتعلمه ، وهو شيء ليس بالكثير وكنت ميالة الى الدرس والمطالعة . وشعرت
بعقلي يتحرر تدريجياً اذ استسفت كتب الأدب الراقية ، واندفعت وراء تيارها
حتى أنطبت بطابعها . وكنت في غرفتي الصغيرة أشارك العالم بمشاعره ،
وأتبع أخطر تطوراتها بنفس مسرورة ، وروح متحمسة ، حتى شبعني الكتب
الحديثة بروح الثورة والتمرد .

وأصبحت بعد ذلك فتاة أخرى تماماً ، ولكنني أخذت أفقد صديقاتي
تدريجياً لأنني أصبحت لا آلف ما فطروا عليه من الكذب والنفاق والمداجاة ،
ووجدت نفسي أخيراً وحيدة لا رفيق لي ولا صديق .

وصلت في هذا الوقت الى سن المراهقة ، وشعرت بنار الشهوة
تأكل جسمي » .

ولكي أهرب من سلطانها ازدادت انغماساً في تيار العمل الفكري
والرياضة البدنية ولكنني وصلت الى عكس المطلوب فازداد عقلي انطباعاً بطابع
الحرية والتفكير المجرد .

وزادت حيويتي ولاحظت أبواي بعض الشذوذ في أخلاقي وسلوكي
إذ أخذ يظهر عليّ الانقباض والملل وأصبحت أهر من الاختلاط وأفضل

العزلة والاشفراد ، وأخيراً ساءت صحتي مما دعا والدي الى استشارة طبيب. حاذق ، وبعد أن فحصني هذا الطبيب فحصاً دقيقاً ولم يجد مبرراً لكل هذا بدأ يسألني بعض أسئلة تتعلق بحياتي الخاصة ، وبعد أن شرحت له كل ظروفي أخبرني بأن سبب هذا الضجر هو التباين بين ما أ تلقنه من الآراء بالمطالعة والدرس وبين هذا المحيط الجامد البليد ، وأوصاني بالانغمار في تيار الحياة الاجتماعية والانتطاع عن المطالعة ، ثم تكلم مع أبي على انفراد ، وقد علمت أنه أوصاه بالاسراع في تزويجي •

وفي هذا الوقت تعرفت بشاب وكانت كل ظروفي تدفعني الى الثقة بشرفه والتعلق به ، فارتبطت به برابطة قوية من الحب الجنوبي ، وكانت سذاجتي ورعوتي والحرية التي وهبها لي أبواي تدليلاً من أكبر العوامل التي جعلتني استسلم له ، وأقع في حباله • وقد تركني طبعاً بعد أن نال مني وطراً كما هي عادة أمثاله ، زاعماً بأنني قد سقطت الى الحضيض لاستلامي له ! ••

— « ولكن لماذا لم تكوني حذرة وأنت مثقفة كما أرى ؟ »

— « لقد أدركت من طراز حياتي بأنني فتاة أجهل كل ما في الحياة من الاشراك • كما ان ثقافتني كانت توجي إلي بأن كل شخص متعلم يجب ان تكون له عين آرائي ونفس مقاييسي الاخلاقية ، لذلك اعتقدت بأن هذا الشخص مثلي لا يلقي أهمية كبيرة الى غير الروابط الروحية الحقيقية فوثقت به بعد أن حل تلك المنزلة من قلبي •

وكان علي هنا أن أسلك احدى طريقتين فأما أن أعتمد على الكذب والنفاق وأنكر ما حدث لي وأظهر بمظهر القدسية أمام الناس واعتمد على الاغراء والحيلة لايقاع شاب في حباللي اعتمد عليه كزوج يقيني غرات الزمان ، فأكون واحدة من بنات جنسي الكثريرات ، أو أحافظ على صراحتي وأطبق ما تلقنته وتعلمته ، فأصرح بحقيقتي التي لا أرى فيها الا غلطة بسيطة يمكن تلافيها •

وانتصرت روحي الحقيقة المتمردة في النهاية ، ودفعني جرأتي الأدبية الى اطلاع أبوي على سري ، فكان حزنها وبؤسها عظيما ، واعتبراني ساقطة عديمة الشرف لأنني فقدت بكارتي بطريقة غير شرعية .. »

— « ان لديك آراء جريئة خطيرة ومن حسن الحظ ان أمثالك لا يستطيعون التأثير بالكتابة والكلام ، لأن مركزك يصبغ كل ما تقولينه بصبغة واطئة » .

— « ولكن هذا من حسن حظي أيضا ، إذ لا أضطر الى كتمان ما اعتقد به ، ولا أجد لنفسي أعداء ألداء بنفس الوقت ، وليعتقد في الناس ما يريدون أن يعتقدوا ! .. »

وسكنت عند ذلك ، وكانت تجاهد بكل ما لديها من الكبرياء أن تكتم مظاهر نوبة الألم التي كانت تهزها هزاً .

— « ولكن ماذا حدث بعد ذلك ؟ »

— « حدث أن قضى والداي حزناً بعد أن فشلنا من محاولة قتلي بالسّم ، وعندها وجدت نفسي وحيدة لا معين لي ولا ناصر ، ولم تنفعني ثقافتي ولا توسعي في الأدب مثقال ذرة ، بل بالعكس زادت في الطين بلة إذ دفعتني صراحتي الى نشر أسراي فسقطت مرة واحدة من أعين الجميع .

الا أن المدهش الغريب أن أرى نفسي وأنا منحدرّة نحو قعر الهاوية ، مطمح أنظار أجمل الشباب وأغناهم ، فقد كانوا يترامون تحت أقدامي مقدمين لي العالي والنفيس ، يقضون أجمل أوقاتهم بين ذراعي ، تاركين زوجاتهم المخدرات يلهمن ويمرحن دون رقيب وأؤكد لك أن لكل رجل تقريباً (حياتين) أحدها حياة جديّة مملّة جافة ، وهي حياتهم المنزلية ، وأخرى مليئة بالبهجة والسرور فيها كل السعادة ، وتكون في منازلنا هذه ، وسيقون في هذا الوضع ما داموا يستكرون على زوجاتهم الحرية التي يجدونها عندنا . ولم أجد مناصاً من ترويض نفسي على هذه المهنة الشاقة خوف الهلاك ،

وكل عزائي الوحيد بأنني لست الوحيدة التي أتحمل في سبيل العيش هذه
التعاسة والشقاء ، ولماذا لا أقول أن الكثيرين منكم ، أتم الرجال ، يقومون
بأعمال يكرهونها ولا تشرفهم ، ولكنهم مضطرون إليها في سبيل العيش ،
إذن فما الفرق بيننا وبينكم ؟ وكم من زوجة تتحمل من زوجها الأمرين ،
وتقدم نفسها لزوجها متعة متى أراد بنفس مسمومة ؟ ألا تراها تباع نفسها
أيضاً في سبيل العيش ؟ إذن فلماذا كنا الوحيدات اللواتي يهرب الشرف
منهن ؟ ! •

وها أنذا كما تراني في وضعيتي الجديدة ، استمد السلطة من ذوي
النفوذ فيكم ، والثروة من أغناكم ، واللذة من أجمل شبابكم ، على الرغم من
كوني محتقرة منكم جميعاً •

ولي حياة خاصة؛ هي هذه التي اطلعت عليها صدفه ، حيث أقضي
بعض الوقت في عمل لا أرى فيه عارا فأغرق في المطالعة ، وفي هذه اللحظة
لا يساوي أحدكم عندي قيمة حذاء من أحذيتي العتيقة ! • • »



امتلا الشارع ، على الرغم من سعته ، بالمارين من ذاهبين وآيين وزادت.
في الطين بلة تلك السيارات الانيقة القاهرة ، التي كاتت تمرق بين آونة
واخرى بسرعة ، تحمل اشخاصا قد امتلأت جيوبهم بالمال ، واوانس وسيدات
امنّ فضول المارة فكشفن عن وجوه صبوحة ، وانطلقت اعينهن البراقة تجول
في انحاء الطريق ، ييسمن او يعيسن حسب ما تقع عليه انظارهن من مناظر بهجة
او عابسة .

وفي هذا الجمع الزاخر تجد خليطا من ذوي البزات المختلفة المتنافرة ،
والاشكال المتباينة تلك التي ان دلت على شيء فعلى التباعد العظيم بين اذواق
هؤلاء المتزهين ، فتعذر ذلك الأوربي الذي لم ير الشرق في حياته فلما رأى
بزات اهله ظنهم في عيد المرافع ولما طال عليه الوقت قال متعجبا

— « ما اطول ايام المهرجان (الكرنفال) في هذه البلاد » .

فقد ظن صاحبنا ان الناس يتعمدون ارتداء هذه الملابس المضحكة في
تنافرها لانهم في ايام عيد المرافع ، كما يفعلون في بلادهم .

وتجد ايضا السيدات السافرات والمحجبات ، وقد يعجب الانسان حينما
يجد نفسه ملتفتا رغم انه ناحية هاتيك القامات الرشيقة التي أسبغت فوقها
هذه العباءة الحريرية ، فاكسبتها شكلا مغريا جذابا ، تجعل الناظر متلهفا الى
اكتشاف ما وراءها من سحر واسرار ، ويزداد الانسان شوقا اذا ما سقط نظره
على ذلك البرقع الشفاف فتبين من ورائه شيئا زهيدا من تلك الملامح الدقيقة
والحواجب المزججة ، فتستعر النار بين جوانحه ، ويود أن يهب ما تبقى من
حياته في سبيل استطلاع هذا العالم الكامل من الجمال الفضاح .

بين هذا الجمع اعتاد احسان ان يسير متباها ببيذته الانيقة المنسجمة
فوق قامته الرشيقة ، يسمح شعره الفاحم اللامع كلما شعر بان نسائم المساء
قد عبثت بنظامه ، فنشرت خصلاته منه فوق جيئه الوضاء .

واحسان هذا فتى في الثامنة عشرة من عمره ، جميل الطلعة ذو ملامح دقيقة يحسده بعض النساء ، وقد ادرك طبعاً ما به من جاذبية وسحر فدفعه شبابه الى استغلالها ، لذلك تراه دائماً شارد النظرات يبحث وراء صيد دسم .

ويكره احسان مطاردة ذوات الوجوه السافرة ، اذ ينفره منها تلك الرزانة التي تملوها ، والنظرات الحذرة التي تخشى الانتقاد فتجنب التحديق في وجوه المارة ، فتراهن لا يلتفتن الى شيء ، ولا يصغين الى عبارات الغزل يرميها بعض الطائشين فترتد عنهن ، ولا يصيبهن منها اكثر مما يصيب الكلب الذى ينبج على السحاب .

هذا هو السبب الذى يجعل احساناً يسير دائماً محتكاً بذوات العبااء تجذبه الاشارات الخفية ، والتنهيدات الحارة والضحكات اللطيفة ، والنظرات الغامضة .

ولم تنس سهام ان تخرج عصر ذلك اليوم ايضاً لترويح النفس بالتمشي في هذا الشارع ، فقد اصبحت هذه النزهة العصرية عادة لا تستكمل حياتها بدونها . ولا تتذكر تماماً التاريخ الذي خرجت فيه لأول مرة للتنزه في هذا الشارع ، ولم تعرف السبب الحقيقي الذى كان يدفعها للمحافظة على هذه المواعيد بالضبط ، او انها لم تعترف بهذا السبب . ومهما كان الامر فان سهام لم تكذب ترى هذا الازدحام في وسط الشارع حتى يمت صوب الرصيف ، وعندما اخذت تتطلع بحذر نحو اليمين واليسار حتى لمحتة عن بعد ، وشعرت بالحياة تدب في جسمها ، ورأت نفسها تسير فاحيته بصورة لا شعورية حتى كادت تحاذيه ، ورأته يحرق فيها النظر من الرأس الى القدم وشعرت بالرجفة تمشي في مفاصلها . وعندما ابصرت ظلاله النارية تكاد تخترق هذه العبااء التي تغطي قامتها الهيفاء ضرب قلبها بقوة وعنف .

لقد اعتادت رؤيته كل يوم في مثل هذا الوقت ، وقد كانت تحقق في وجهه كل مرة ببلء حريتها ، حتى حفظت صورته في اعماق مخيلتها ، وقد اصبحت مؤخراً تشعر بخفقان قواها كلما لمحتة ويصنع وجهها بحمرة الخجل ولم تشعر ابداً بما يضايقها او يمنعها من ارواء نظراتها ، لانها تعلم جيداً ان هذا الحجاب يستر وجهها ويستر ما يبدو عليه من آثار العاطفة الطاغية المستبدة .

ولا ندري كيف عرف الشاب ان هذه الفتاة تهتم به ، وهل كان تحرشه بها لاول مرة محاولة اعتيادية من محاولاته التي يصطاد بها فرائسه ؟ ومهما كان الامر فقد تقدم نحوها في ذلك اليوم بجرأة ، واحتك بها ، ثم سلم عليها ورآها تلتفت نحوه بحذر ، وتسير امامه بسرعة ، فعرف حالا انها غير غاضبة فتشجع وسار وراءها حتى رآها تدخل احدى الحدائق العامة . وعرفت انه يتبعها ، فاسرعت وهي ترتجف تحت تأثير العواطف المتضاربة من فرح وخوف وحذر .

وتبعها داخل الحديقة مسافة غير قليلة ، حتى رآها تقف في محل منزول ، وراء شجرة ضخمة ، فاقرب منها وفاتها مبتسماً

— « اسعدت مساء »

فاجابته بصوت متلجلج

— « اسعدت مساء »

ثم رفعت تقابها عن وجهها الاسمر ، وعينها الحالكتي السواد ، فبهت احسان ملياً اذ اسرته هذه الاهداف الطويلة الفاحمة السواد التي كانت تلقى ظلاً على اطرافها .

وكانت تقاطع وجهها الدقيقة توجي الى النفس اقوى عواطف التقديس والعبادة ، وكانت خائفة مبهورة تلتفت حوالها كالظبي النافر ، فقد كانت

تعرف انها قد قامت بامر يعد جريمة لا تغتفر ، ولكن شيئاً واحداً كان يثلج صدرها ، وهو علمها ان هذا الشاب لم يرها فهو لا يعرفها ، وانها تقوم بمغامرة ليس الا ، يسوقها اليها شبابها ، وهذه الدماء النارية التي تجري في عروقها •

ورمى الشاب عبارات الغزل والتملق بعد ان صاغها في ذهنه فاصابت الهدف ، وكانت رمية من غير رام حيث قال

— « لقد رأيتك مرارا ، وقد كنت دائما تمرين في هذا الشارع ، ثم تتشين بين الاشجار • ولم استطع ان اتكلم معك لأنني احترمك فان مظهرك يدل على انك فتاة من اسرة راقية » •
وعندها اجابته بعنف

— « وهل يلذ لك التحرش بهذا النوع من الفتيات ؟ لماذا لا تركض وراء الفتيات الاعتياديات فتروي عليك منهن ؟ » •

— « عفواً يا سيدتي اني لا اقصد الاساءة اليك ، ولكني وحيد كما ترين ، ولم اجد لي رفيقا يشاركني هذه النزعات ، وقد رأيت انك الوحيدة التي تستدوقينها ، فشعرت بما يربطني بك ، وعلى كل فان رأيت وجودي بجانبك امرا معيا فاني انسحب » •

وهم ان يمشي فاستوقفته وسأله

— « هل تعرفني ؟ »

— « ابداً ، ولكن هذا لا يمنعني من الاعتقاد بأنني على صلة روحية بك » •

— « ما دامت فيك هذه الرغبة في الاشتراك معي في هذه النزعات البريئة ، فلا ارى مانعا من مصاحبتك مدة ساعة من الزمن ، في ايام غير معينة تتفق عليها ، ولكن على شرط ان تعدني بشرفك الا تحاول تعقيب ومعرفة هويتي والاتصال بي في غير هذا الوقت » •

— « اني احترم رغبتك واقدسها »

وجلس الاثنان جنباً الى جنب على احدى المصاطب المتناثرة وخيم عليهما سكوت عميق لا يكدره سوى خفقان قلوبهما ، ودام هذا السكوت فترة غير قليلة اذ كان الاثنان قد تملكتهما حيرة عظيمة لهذا الموقف الغريب الشاذ ، ومع ان احسان كان من نوع يعد لديه مثل هذا الموقف امراً مألوفاً ، الا انه ادرك في هذه المرة انه تجاه فتاة نقية طاهرة • فتاة قد ساقها سوء طالعها الى اعتراض مجرى حياته ، وها هي بين يديه تكاد تكون عديمة الحول ، ولكن شيئاً فيها يدل على الصلابة والقوة اربكه ، فواقعه عند حده ، وقد اخذ يستجمع افكاره ويعمل ذهنه لينقذ نفسه من مركز ربما يكون قد تورط فيه بدون روية •

وتكلم اخيراً بلهجة مرتبكة

« ما اسم الانسة الفاضلة ؟ »

— « هل نسيت اني اشترطت عليك الا تحاول معرفة هويتي ؟ » •
« لقد تذكرت فعفواً ان هذا التخفي امر لا مسوغ له بالنسبة الى صداقتنا المقبلة » •

— « امر لا مسوغ له ؟... هل نسيت بأفك في محيط يعد مثل اجتماعنا هذا جريمة لا تغتفر ، وان اهلي لو سمعوا بشيء من هذا القبيل لكان جزائي الموت الزؤام ؟ وما دام المحيط قاسياً الى هذا الحد وقد ضرب علينا هذا الحجاب ، وفرض علينا هذه الوحدة القاسية ، فلنعرف كيف نرد كيده الى نحره ، ونستخدم شدته وسخافته في سبيل تحطيم قيسوده وهو البادي بالظلم » •

— « فكر ثاقب وذكاء مدهش ! »

— « شكراً.. لقد فات الوقت، وحان موعد رجوعي الى البيت وداعا والى
الملتقى بعد يومين »

وحاول عند توديعها ان يمد يده الى خصرها الا انها وقفته بشدة عند
حده ، واخبرته ان مثل هذا السلوك قد ينهي العلاقة بينهما ، واعتذرت له
قائلة

— « اني لا اعرف هويتك اذ لا يبعد ان تكون احد اولئك الانذال الذين
يجدون سرورا في ايقاع الفتيات في أشراكهم لمجرد اللهو والتباهي » •

وعادت الى البيت مرتعشة مهتاجة مضطربة اذ قد حطمت اقوى التقاليد
وأعظمها خطورة مرة واحدة بصورة لم تفهم كيف بدأت وكيف انتهت ، حتى
خيل لها ان كل ما حدث فى ذلك اليوم كان حلما مرعبا •

ورمت عباءتها جانبا ، وشرعت تساعد امها باعمالها المنزلية وتتملقها
وتحجب اليها ، ووجدت لذة في اطاعة اوامرها ومداراتها ، وتلقت أباهها عند
قدومه بوجه باش ، ثم ذاكرت دروسها وذهبت الى فراشها ، وكانت تقوم
بكل اعمالها بصورة ميكانيكية ، وبمزاج عصبي وركبتها الاحلام المزعجة
ليلا •

وتكررت المقابلات ، وزادت مدتها وتنوعت احاديثها ، وتطورت العلاقة
بين الاثنين . واستفحل امرها . ولم تعد ترى فيها غرابة او شذوذا بعد ان اعتادتها ،
ولكنها رغم كل ذلك لم تركب رأسها بل كانت تحكم عقلها القوى الجبار ،
وتستخدم ذهنها وذكائها المفرط في اخفاء كل علاقاتها بهذا الشاب ، وتبعدم
عن محاولة معرفة هويتها والاتصال باهلها •



وحدث يوما ان كانت سهام جالسة مع ابيها بعد العشاء تسامره وكان

الاب يطالع جريدة المساء ، وسقط نظره على مقالة ضافية حول السفور ، واحب ان يعرف رأى ابته في هذا الموضوع ، فرفع صوته وقرأ المقال بصوت جهوري ؛ ولم يكذ يتهي من ذلك حتى اندفعت سهام تلعن هذا الكاتب الذي يحاول الخروج على التقاليد ويتدع البدع . وشعر الأب باحترام زائد لفتاته المهذبة العاقلة التي تعرف قدر التقاليد وتحترمها فتختلف بذلك عن بقية رفيقاتها المستهترات المفضوحات اللواتي لا يكدن يتعلمن القراءة والكتابة حتى يضربن بكل الآداب عرض الحائط بدون حياء ولا خجل ، واندفع متحمسا فقبل رأس ابته وقال

— « فليحفظك الله ويديمك ذخراً لايبك » ولم تتمالك سهام عندما اختلت في مخدعها ان تضحك عاليا ثم تناول برقعها وترقص به طربا ، ثم وقفت وسط الغرفة وبدأت تناجيه قائلة — « ايها الكفن الاسود لقد عرفت كيف اسخر منك واستخدمك لما وضعت للحيلولة بيننا وبينه . اني لا ابالي بك ولا اهتم . اني اتحداك . ولكني احبك . ان هؤلاء المساكين يلتجأون اليك لصون العذارى ، وحفظ الشرف ، وتحسين الاخلاق ، ولو اردوا الانصاف لقالوا انهم يحبونك لانك تستر معائبهم وفضائحهم . اني احبك لانك تساعدني على الاستمتاع بحياتي بتلك الطريقة التي لا يعرف قيمتها غير المحجبات . اني ارثي لهؤلاء السافرات المسكينات واسخر منهن ! » .

طريق الخلاص

في صدر غرفة الاستقبال المفروشة على احدث طرز جلس رب الاسرة ، وهو رجل ضخيم الجسم ، قصير القامة ، يناهز الخمسين من عمره ، وكان يدخل بعد الغداء كمادته ، وينظف أسنانه بشظية من علبة الكبريت ، التي يولع بها لفاقته ، كمادته ايضا ، وجلست امرأته على مسافة غير قليلة منه ، واضعة يديها فوق كرشها العظيم ، تتنفس بصعوبة كلما تحركت ، اذ تجهدها محاولة تحريك جسمها الذي يشبه جسم فيل صغير ، وكنت تسمع اناث نوابض مقعدها الوثير كلما حركت عضوا من أعضائها . وعلى المقعد المقابل ، أمامها مباشرة ، جلس شاب أنيق ، قد لم نفسه وتصنع الهدوء والرزانة ، ولكن منظره يخبرك بوضوح عما يقاسيه في هذا السبيل ، اذ كانت عيناه تجولان في الغرفة بسرعة ، وتتحركان بدون استقرار ، كأنهما كرتا زئبق ، وقد تسكنان عندما تتجهان نحو المقعد القريب من باب الغرفة ، حيث جلست فتاة في سن الثامنة عشرة ، ذات وسامة وان كانت غير بارعة الجمال ، ذات عينين براقتين حادتي النظر ، وفم غير صغير ولكنه رقيق الشفاه مطبق بقوة وعزم في اغلب الاحيان ، وجبين ناتئ وضاء .

ولو هيأت لك المقادير ايها القاريء ان تشارك هذه العائلة المكونة من الاب حامد بيك والام ظاهرة هانم والابن الوحيد كاظم او البيك الصغير كما يسميه الخدم والاتباع ، سمعت ضوضاء اطفال بين حين وآخر تأتي من خارج الغرفة ، حيث تلعب الطفلتان الصغيرتان اللتان لا تتجاوز كبراهما العاشرة ، مع ابن اختهما ، وهو حفيد حامد بك من ابنته البكر .

ورمى البيك الكبير اخيراً الشظية ، وتجدد جبينه ، وتقطب حاجباه ، فجمع الفتى نفسه هية ووقاراً ناظراً الى ابيه بعينين منكسرتي الجفون ، وأن المقعد المقابل ، وتفتحت العينان البراقتان ؛ وظهر فيهما ما يدل على توقع امر لا يسر ، وافتتح رب الاسرة الجلسة فقال :

— « كاذب ، متى تعقل يا كاذب ؟ لقد أصبحت في سن الخامسة والعشرين وانت لا تزال في المدرسة الثانوية ، وكل يوم تقريباً تردني شكايته من ادارة المدرسة حول مخالفاتك الكثيرة . اما تستحي يا كاذب ؟ ألا تخجل حينما ترى ابن خادمتنا عدنان متخرجاً من كلية الحقوق مع انه اصغر منك سناً ؟ وهو اليوم انسان محترم اضطر الى مخاطبته بكلمة افندي ألا تنتهي من سفاسفك وركضك وراء الفتيات واغراقك في السكر والعريضة والميسر ؟ اني لا انكر ان للشباب حقاً ، ولا انكر عليك التمتع واللهو ، ولهذا السبب تركت لك الجبل على الغارب ، فأنت وحيد والمال كثير من فضل الله ، ولكن يجب ان تحافظ على مركزك يا بني . وتنال شهادة ما ، حصل شهادة الدراسة الثانوية على الاقل ، وانا كميل بوضعك في مركز يحسدك عليه كل اقرانك بمالي من النفوذ » فاجاب الشاب شاكياً

— « ولكن الا تعلم يا بابا ان المدرسين يكرهونني لانني لا اتبصبص لهم ، ولانني من عائلة بارزة ، ومن عاداتهم ان يحاولوا الحط من قدر امثالي ليرتفعوا في اعين بقية التلاميذ ، فلو توسطت لي عند معارفك الكثيرين من ذوي الشخصيات البارزة لتمكنت من الحصول على درجات النجاح بكل سهولة ، ولكنك لا تحب مساعدتي فتركني متأخراً » .

وتحننت الام في هذه اللحظة واعتضت بصوتها الغلظ قائلة .

— « ليس هذا عذراً معقولاً ، فهذه اختك التي تصفرك كثيراً قد انتهت دراستها الثانوية هذه السنة بتفوق عظيم ، وكل اعضاء مدرستها السنة تلهج بالثناء عليها ، ولم تتدخل يوماً ما في شيء من شؤونها المدرسية » .

فاجاب الاب متحسراً

— « هذه هي المقادير . نهتم باولادنا ونصرف عليهم المال الكثير فنحصل على هذه النتيجة الوخيمة ، ليت الله خلق سميرة فتى وجعل هذا فتاة .

ان ولدي الوحيد الذي اعتمد عليه ليخلفني في مركزي وثروتي يبقى عاطلا ،
وتقبل هذه الفتاة ، التي ستمضى الى اعطائها لرجل آخر بعد مدة وجيزة ، على
ارتشاف مناهل العلم بكل شفء • «

فلهت الفتاة واجابت ضارعة

— « وهل لابد من تزويجي يا بابا ؟ اني سعيدة ببقائي معكم قانعة
ب حمايتك • وانا مرتاحة جداً بقضاء وقتي بالمطالعة والدرس • «

فأجاب الاب متجهما

— « لم تخلق الفتاة يا ابنتي للعلم • وليس لها ان تقوم بما يقوم به
الرجال • المرأة فراش الرجل ، ولابد لك يوما ما من زوج ثري شريف
يضارعنا في مركزنا وشرف محتدنا • «

واضافت الام ضاحكة

— « سأجعلك فخر بنات جنسك ، سيكون مهرك أكبر المهور ،
وسأجهز دارك بانفس الرياش واثمنها وافخرها ، سأجعله معرضا يؤمه الناس
ليمتنعوا انظارهم بما فيه من نفائس وطرائف ، وسيتمزق قلب اترابك غيرة
وحسدا • «

— « ولكن ليست لي يا ماما رغبة في اثارة الحسد في نفوس الغير ،
ولا اريد تمزيق قلوب الآخرين • اني انشد السعادة ، والزواج عندكم معاملة
شراء وبيع لا أكثر ولا اقل ، فقد يخطبني رجل اشقى معه طول الحياة • • • «
فقاطعها والدها محتداً

— « الان علمت مقدار غلطي بادخالك المدرسة • لقد فسد عقلك
وصرت تضربين على نعمة المستهترات من الفتيات المتعلمات • يجب ان تعلمي
جيداً اننا قوم شرفاء ، وان عائلتنا من العائلات التي يجب عليها المحافظة على
التقاليد • وخير لك ان تتركى هذه الكتب المفسدة التي يكتبها الكفرة ومن

لا حياة لهم • لقد فسد كل نساء العالم واصبحت الدنيا مرسحا للفسق والفجور ، وقد اتقذ الله العراق من هذه الشرور ، فلنحمده ونشكره ، ويجب علينا ان نحافظ على هذا الشرف الذي يميزنا ويجعلنا ارقى من بقية الامم بدرجات » •

واتهز الشاب هذه الفرصة لنيل رضاء ابيه فقال

— « لا ادري لماذا تفتح المدارس للبنات ؟ ان البنت يجب ان تتعلم شؤون المنزل وادارته والقيام بتربية الاطفال والاعتناء بهم » •

وعندئذ وجدت الفتاة مجالا للدفاع فقالت

— « وهل خلق العلم لامثالك الذين لا يعرفون قيمته ؟ » فتدخلت الام وقالت متفلسفة

— « الرجل رجل والمرأة امرأة يا بني ، وليس لك حق في لوم اخيك مهما فعل لانه رجل ، اما نحن النساء فمخلوقات دون الرجل بكثير ، ولو لم نكن كذلك لما حرم علينا كشف وجوهنا ومقابلة الرجال ، نحن عورة ، شيء يجب ان يستر » •

فاجاب الشاب

— « احسنت يا ماما يجب ان تنصحي هذه الفيلسوفة دائما ، وتخرجي من رأسها هذه الخيالات والفسطاط انها تظن ان قراءتها لأكداس الكتب تجعل منها انسانا يشابه الرجل » •

وانبسط اسارير الام ، وأن المقعد عدة أفات ، ولملت عينا الفتى اذ حلم برزمة لا بأس بها من الدفليير يرميها بين يدي الراقصة التي تعرف بها حديثا لينال الحظوة في عينيها ، ويتباهى امام رفاقه وزملائه •

وادارت المسكينة رأسها متنقلة بافطارها من تلك الام التي لا تهتم

في حياتها بغير حفلات العرس وما يصحبها من فخفة وتفاخر بالجاء والمال ، الى ايها الذي تلو وجهه المقطب امارات البلادة والتعصب الاعى ، ثم الى اخيها الذي لا يعرف من دنياه غير السكر والميسر ومعاشره الراقصات ، فشعرت كأنها في جزيرة نائية مقفرة ، وانسلت الى غرفتها تجر أقدامها جراً ، وهناك استلقت على سريرها منهوكة تعباً وقد استولت عليها الافكار السوداء واخذت الآراء تتضارب في رأسها الصغير ، وكلها تدور حول مصيرها وما قد يخبئ لها المستقبل .

لقد اولعت منذ الصغر بالمدرسة والدرس الى حد الجنون ، فلم تعشق غير الكتاب ، ولم تله بغير الكرايس والاقلام ، وقد طالعت وطالعت بقدر ما يسمح لها وقت فراغها الطويل ، والتهمت كل هذه الكتب التي تحويها مكتبتها الصغيرة التهاماً . ولكن ليتها لم تفعل ، وليتها لم تتباعد عن بيتها ومحيطها هذا التبعاد ، ليتها لم تستنسخ هذه الثقافة الراقية ، لقد تغفلت آراء اولئك الذين يتنفسون هواء الحرية الطاهر ، ويمطون للحياة حقها ، في اعماق ذهنها ، وتشربت بدمائها ، فأصبحت غريبة عن هؤلاء الذين تلذ لهم المعيشة تحت الاطباق ، يكرهون نور الحقائق كما يكرهون الموت ، يلذ لهم التستر بالظلام ، وتستهويهم الاماكن العفنة المظلمة . هم عبيد الاموات يسجدون امام هياكلهم العظمية . يستمدون وحي افكارهم من تلك الرؤوس البالية التي نخرها الدود هم اشباح قد ارسلتهم الاجيال الخالية لحجب نور الشمس عن الاحياء وردع كل من تسول له نفسه الخروج من هذه الاقبية المظلمة . ولم يكتفوا بذلك بل اصبحوا يسدون المنافذ كيلا تدخل منها الاشعة لتجفيف رطوبة الموت وقتل جراثيمه ، وتبديد غياهب الظلام ؛ وفصح هذه المناظر المرعبة . وها هم يقومون بواجبهم خير قيام .

ليتها لم تذهب الى المدرسة ولم تتعلم ، ليتها بقيت نجيحة تساق الى الذبح ، وهي تحسب نفسها ذاهبة الى المرعى ، فلا تشعر بكل هذه الآلام ،

ولا بألم السكين الباردة الا لحظة واحدة ، لا انسانة ترى الالوف تذبح امامها حتى يأتي دورها . ان هذا فوق الطاقة البشرية وفوق الاحتمال .

ترى ما الذي حرض اباهما على ترويعها بهذه الصورة ؟ وما الذي جعلهم يتباحثون في قضايا الزواج ؟ لابد ان يكون الامر صلة بزيارة اولئك النسوة الغربيات قبل اسبوع . لقد ارسلت اليها امها تطلبها بعد مجيئهم ببضع دقائق ، وكانت مستغرقة بمطالعة قصة من قصص (ماري كورييلي) الشائقة فهبطت الى غرفة الاستقبال حاتقة مغضبة ، وقد ارغمتها امها على القيام والتمشي امامهم ببعض حيلها فكمن يفحصنها اثناء مشيها فحضا دقيقا ، ينظرن الى قوامها ، ومشيتها وتشيها ، وقد جلست احدها من قبالة وجهها واخذت تفحصه بعينها الكبيرتين اللتين تشبهان عيني بقرة ، وقد كتمت عاطفة الاشمزاز بجهد عندما هبت في وجهها رائحة انفاسها الملوثة . بالتبع ، وقد اطمأنت قليلا عندما علمت بأنهن لم يعجبن بجمالها اذ لم يكن لها جمال دمية ، فليست عبلة الساقين ثقيلة الردين ، ذات صدر ناهد ، وعينين زرقاوين ، وبياض كالجليب ، ثم هي متجهمة لا تعرف كيف تدير الحديث في جلسات القبول ، وتنفر من الاختلاط ، ولكن القلق لم يلبث ان استحوذ عليها حينما سمعت امها تقول

— « سيخطبك حتى ولو كنت زنجية لان المال والجاه قبل كل شيء ، وهل في بغداد من يضارعنا برفعة الاصل ووفرة الذهب ؟ »

وتمنت لو كانت ابنة فحام لا يملك من حطام الدنيا غير ما يسد رمقه . وتمنت لو كانت عاملة تأكل خبزها بعرق جيئها .

وانهكتها الافكار المزعجة فلم تكد تتمدد على سريرها حتى اغمضت . عينيها واستسلمت لسلطان الكرى ، وحلمت حلما غريبا ، فقد رأت نفسها وحيدة في قمر ، وشرذمة كبيرة من الاشرار تطاردها وتحرض وحشا بشع

«الخلقة للهجوم عليها ، ولما اصبح الوحش قيد خطوة واحدة منها وهم بالوثوب جمعت كل قواها ووثبت وثبة هائلة في الفضاء . وشعرت بنفسها طائرة في اعالي السماء ، واخذت اصوات المطاردين تتضاءل شيئا فشيئا حتى اختفت ، واستيقظت في تلك اللحظة فرأت امها توقظها بقبلة وهي تقول

— « لقد تقدموا لخطبتك ومعهم (النيشان) الم اقل لك ؟ ستصبحين عروسا . لقد فاتحوا اباك وهو جالس مع الرجال في غرفة الاستقبال . اسرعي بالنزول فالنساء بانتظارك . مبارك يا بنتي . مبارك ، ستكونين حديث الموسم . »

وشعرت المسكينة شعور من يتلقى نبأ الحكم بالاعدام ، فهرب الدم من وجهها واتابها دوار مزعج ، فتوسلت الى امها ان تركها وتعتذر اليهم . وتمت التداير بسرعة هائلة ، فقد كان الاب يخشى ان يفلت من يده هذا الرجل السري ذو المركز العظيم والثروة الطائلة ، فان مثل هذه الخطبة تعد صفقة رابحة في نظره ، اذا ادخل في الحساب جمال العروس ، وعريس بهذا المركز يستطيع ان يقتني من هن اجمل من ابنته بمراحل ، وكان الطرف الثاني يحاذر ان يفلت العصفور من القفص فالزوج يبلغ الاربعين من عمره قد بدد معظم ثروته على موائد القمار ، وغدا رجلا منهوك القوى ، ويقال انه قد اصيب بعاة .

وعلمت العروس المسكينة تفاصيل الخبر ، فأدركت انها مخطوبة لمركز عائلتها ، وانها ستذهب الى دار هذا الرجل لتسام الخسف والهوان من هذا الزوج الجاهل العريد ، وسيسد ابوها اذنه بزعم ان الامراة يجب ان تطيع الرجل ، وستنظر الام اليه نظرة الحقير الى العظيم ، واخوها جبان ، اذن خالويل لها .

وكانت تلتجئ الى مخدعها الصغير كلما ضيق عليها الخناق ، وكلما

احال الهم الحياة في نظرها جميعا لا يطاق . وفي احد هذه المرات ، حين كانت النوبة في رأسها كالعاصفة الهوجاء التي لا تبقي ولا تذر ، والافكار السوداء قد حاصرتها من كل جانب ، والتعاسة لم تبق في نفسها موطناً للعزاء ، وبينما كانت واقفة امام دولا ب كتبها تستعرض عناوينها بدون قصد اذ سقط نظرها على قصة (آلام فرتر) وجدت نظراتها على العنوان . ترى ما الذي جذبها فيه ؟ لقد قرأت القصة مرة فلم تعجبها اذ كرهت التشاؤم الذي يشيع بين سطورها ، والفطرسه الادبية التي اطبعت في لهجتها ، لكنها لم تنظر اليها بتلك النظرة الآن ، فرتر . فرتر . لقد تخلص فرتر من آلامه التي لا تساوي جزءاً صغيراً من آلامها ، ولكن كم كان الثمن ؟؟ وشعرت بقشعريرة الموت تمشي في مفاصلها وتشيع في انحاء جسمها من الرأس الى اخمص القدم . ولم تلبث هذه القشعريرة ان زالت ، واعقبته رعدة قوية هزت كل جزء من جسدها حتى منابت الشعر هزاً ، ثم استولت عليها موجة من الحرارة دبت في اجزاء جسمها ، فبرقت عيناها على الاثر ببريق مخيف ، واطبق الفم شفافه الرقيقة اطبقة من قد صمم على امر جسيم ، ونزلت الى غرفة الاستقبال على الاثر ، وما كادت امها تلمح وجنتيها الملتهبتين حتى همست في اذن زائرتها

— « وهكذا المرأة تبدي في اول الامر ممانعة وتدللاً ، وهي في الحقيقة توافة الى سيدها الرجل . انظري اليها والى وجنتيها المتوردتين سروراً . »

وسارت المراسيم في طريقها ، واستلم الاهل الثمن ٥٥٠ دينار متقدم (نقداً) و ١٠٠٠ متأخر (ديناً) ، وقامت الاستعدادات للتجهيز على قدم وساق ، وقال كاظم نصيباً من دعوات الانس والسرور على حساب زوج اخته العتيد ، واتى المنزل يوماً وهو يترنح سكرأ ، فدخل غرفة اخته واختطف الكتاب من من يدها واخذ يداعبها مسروراً ، وقال لها وهو يغمز بعينه

— « لقد قضيت مع زوجك سهرة طيبة ، وتمتعنا بخمرة طيبة ونساء

جميلات »

— « لكن الاتخاف الامراض يا كاظم ؟ تلك الامراض الفتاكة التي تحملها اجساد تلکم النسوة ؟ »

— « الفضل لهذه فى عدم خوڤى • »

قال هذا وهو ىخرج من جيبه ورقة ملفوفة فتحتها واخرج لها عدة اقراص ذات لون غامق ، فتناولتها من يده وسأله

— « وما هذه ؟ »

— « حبيبات السليمانى المطهرة ان محلولها يبيد اقوى الجراثيم بلحظة ، وجزءاً قليلاً منها يصرع اقوى الناس بفترة وجيزة • » واعادت الورقة محتفظة بقرصين خلسة • وحان موعد الزفاف وكانت حفلة شائقة ، وسيقت العروس الى عش الغرام فى انتظار امير أحلامها !! وكانت هادئة لا تلوح على مضاياها ادنى علامات الخوف ، جلدة تمشى بقدام ثابتة ، وتبسم لكل من حولها بسرور • وطلبت من الخادمة كوباً من الماء ، واوصتها بالا تأذن لأحد بالدخول عليها لانها متوقعة المزاج ، ووقفت أمام المرأة فرأت صورتها فيها ، وكان لباس الاكالييل المسبغ على قامتها قد اكسبها منظراً غريباً جداً ، ولاح لها كأنه كفن مربع •

ولعلت اصوات الزغاريد من حناجر الوف المدعوات مؤذنة بقدوم العريس ، فاسرعت الى احد الادراج واخرجت القرصين فالتهمتھا بسرعة ، وشربت فوقها نصف كوب من الماء •

وعادت الى التمشى فى وسط الغرفة والنظر الى خيالها فى المرأة ، وراق لها ان تدور على نفسها فالتف لباس الاكالييل الطويل على قدميها ، وشعرت بمغص حاد ، فالقت نفسها على الفراش دون ان تهتم بهذا اللباس الطويل الملفوف حول قدميها وجسمها ، والذي اصبح كفنا حقيقياً • وشعرت بمغص هائل والم يميزق احشاءها ، وشعرت بسائل محرق يرتفع الى فمها فيمزقه ،

فصكت اسنانها وازدردته ثانية بعزم وعناد ، وشعرت بعدها بقواها تخور ،
واخذت الاصوات تتضائل فى سمعها شيئاً فشيئاً ، كأنها تبتعد طائفة بسرعة
الريح ، لم تعد تشعر بها ، ومن ثم لم تعد تشعر بشيء . وضع المنزل بالزغاريد
حين دخول العريس غرفة العرس ، ولم يكده يفلق الباب وراءه وابتلت ناحية
الفراش حتى شعر بشيء من الرهبة والخوف . لقد رأى امرأة مكفنة على
السريـر وتقدم وجلا فسقط نظره على الوجه المقطب القاسي ، ورأى الفكين
المطبقيـن بقوة وعزم ، ولمس يدها ، فسرت برودة الموت الى جسده ووضع
الخادمة صارخا

— « ما بسيدتك » فأجابت مرتاعة

— « لا أدري ! لقد تركتها متوعكة المزاج »

— « نادى اباهـا والطبيب بسرعة »

*) (رأسه على الصدر الناهـد فلم يشعر بضربات الحياة فخرج مذعوراً ونادى)
وبعد فحص دام خمس دقائق قرر الطبيب انها ماتت مسمومة . ورأوا
على منضدة الزينة ورقة صغيرة فيها عبارة مقتضبة تقول فيها انها انتحرت
باختيارها .

وشاع الخبر فى المنزل بسرعة البرق . واطلقت حناجر المدعوات صوتا
لا يختلف كثيراً عما اطلـقته قبل لحظة ، ولكنه كان يدل على اقصى درجات
التفجع فى هذه المرة .

ودخلت الأم تتقدمها اصوات العويل والبكاء ، وشـرعت تقفز وسط
الغرف تقطع شعرها وتضرب وجهها كمن اضاع صوابه ، واخذت تدور فى
انحائها وتنظر بقاء نحو السريـر ، تنتقل باظـرارها فى وجوه الحاضرين ، وكانت
ظراتها تدل على مزيج من الالم المنجع والعباوة المطلقة ، والجنون .
وانهارت كبرياء الاب امام ذلك الوجه القاسى الذى لا يدل على غير

الاصرار والعزيمة الهائلة • وما كان ينتظر قط ان يرى مثل هذه القوة من امرأة • وكان يرجع الى عقله بين الفينة والفينة فيكف عن البكاء ، ثم يحدق بالسريـر ، وينقلب مهدداً متوعداً ويقول مزمجرأ •

— « الويل لنا لقد فعلتها ، دبرونا يا ناس ، ستسبب • هذه الحادثة

فضيحة لنا • »

وعندها يجييه العريس مؤاسيا

— « لا تهتم كثيراً من هذه الناحية يا عمي فسأندارك الامر بما لي من نفوذ عند اولى الشأن »

— اما كاظم فكان يسمح دمة كاذبة في فترات متباعدة ويتمتم

— « الويل للمدارس فهذه احدى نتائجها • »



الشرف والدم ، كلمتان ارتبطتا في ذهني برابطة قوية ، فما طرقت مسمعى كلمة الشرف الا وتصورت الارض قد صبغت بالنجيع الاحمر ، ولم اسمع بجائحة قتل او سفك دم الا وخيل لي ان للشرف اصعبا في الامر ؛ ولو سألني سائل عن سر هذه الرابطة بين كلمة تدل على السمو والرفعة ، واخرى تدل على اقصى درجات الهجية والانحطاط ، لما وجدت جوابا غير بيت المتنبي المأثور ، الذي حفظته يوم ان كنت تلميذا لا افهم اربعة اخماس ما احفظ

« لايسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم »

كنت اقطع ازقة الفضل الضيقة التي تشبه التيه في كثرة منعرجاتها والتواءاتها ، ولست اشك ان من كان غريبا عن هذه الحارة ، لا يستطيع مهما اوتي من ذكاء وفطنة ، ان يسلكها لوحده قبل ان يطرقها ما لا يقل عن خمس مرات بصحبة دليل . بينما انا في حيرة من امري ، اتخط لاجد مخرجا من هذه المصيدة التي سقطت فيها عن غير عمد ، فلا اكاد اظن اني قد افلت منها حتى اجدني بادئا فيها من جديد ، فاذا بي اتذكر البيت السابق ، واستغربت ان اتذكر هذا البيت وانا في هذا المأزق ، وحاولت ان افهم كيف بدأت سلسلة المعاني المترابطة حتى انتهت به ، وقلت في نفسي لعل رجلا من السابلة تلفظ بكلمة (الشرف) بصورة لم اشعر بها ، ولكنها اثرت في سمعي ، وانتقل مفهومها الى وعي بعد ان تخطت (الشعور) ، وولدت في سيرها هذه السلسلة من الافكار . وان هي الا هنيهة حتى علمت ان تخميني كان في محله ، فهذا الشخص عريض الاكتاف الذي يرتدى (الجلابية) القذرة و (الجرابية) الضخمة يهرول وهو يقول لرفيقه « قضية شرف » .

وبعد مرور ما يقارب دقيقة من الزمن رأيت جما غفيرا من الرجال يهرولون ، ووراءهم عدد كبير من الاطفال يركضون وامام الجمع شرطي ،

ورأيت نفسي مندفعاً بهذا التيار ، وبعد نحو اربع دقائق لمحت في نهاية الزقاق زحاما هائلا ، وما ان ادركت آخره حتى كانت كلمات الشرف تمرق حوالى كوابل من السهام ، وتوقعت بعد كل هذا ان ارى الدماء . وها هي الدماء !!

يا لله ما اروعه من مشهد ؟ بل ما افظعه ؟ دماء مسفوحة على الارض ، وقد تطاير رشاشها الى مسافة بعيدة ولطخ الجدران ايضا . ورأيت الشرطي يضع يده الثقيلة على شخص عاري الرأس يتطاير شرر الجريسة من عينيه ، وهو يصرخ باعلى صوته

— « لقد تدنست اصبعي فقطعتها + »

واردت ان اصرخ في وجه هذا الاحق (ولكن لماذا لم تغسلها بدلا من ان تقطعها) ولكني ابتلعت كلماتي ووقف شعري كالشوك رعبا عندما سقط نظرى على اصبعه +

انه يتكلم مجازاً ، فاصبعه هذه فتاة في ريعان الصبا ، وزهرة العمر ، لا تتجاوز الخامسة عشرة ، قد تمرغت في التراب ، وبالرغم عن هذا التراب الذي غفر وجهها ، ورغما عما ارتسم عليه من امارات الفزع والهول ، كان ذلك الوجه الصغير يسيل رقة وحلاوة وانوثة اما فيها الدقيق فقد امتلأ بدم لوث شفاهها الرقيقة وسال على ذقنها وملا قسما من انفها الصغير ، وكانت عيناها النجلوان قد تفتحتا الى اقصى حد ، كعيني طفل مروع ، اما شعرها العزير الفاحم فقد انتشر على منكبيها وتلطح بالدماء ، وتحت ثديها الايسر الناهد المكشوف ابصرت عينين كبيرتين حمراوين تدفقان نجيعا احمر .

وشعرت بان حواسي قد تضعضت ، ومشاعري قد هاجت ، وعواظني قد نهكت وتبلدت تحت تأثير هذا المنظر . ولم استطع ان اتبين اى عنصر من عناصر هذا المشهد المفجع قد اثر في . اهو منظر الدماء القانية ؟ ام مشهد

الفتاة الممرغة بالتراب ؟ ام هذا الجمال القليل ؟ وقد علمت بانى الوحيد الذي كان يشعر بالاسف والرتاء لهذه الفتاة . فقد كان الكل ناقلين شامتين ، ولم يتردد البعض عن البصق على الجثة ، وركلها آخرون ، واختص البعض بتعزية القاتل وتشجيعه ، وكانوا متحمسين لدرجة خشيت معها ان يقوموا بمظاهرة لتخليص المجرم من العدالة ، واثت النقالة لحمل الجثة وسبق المجرم الى المركز وانقض الجمع ، وذهب كل في سبيله ، الا بضعة انفار ممن لم تكفهم تلك المدة الوجيزة لاثباع انظارهم بمنظر الدماء ، او ارضاء فضولهم باستطلاع اخبار الحادثة .

وسألت احد الحاضرين عن الطريق المؤدي الى الشارع العام ، فأشار الي ان اتبعه اذ هو ايضا يقصد هذا الشارع ، وانضم الى هذا آخر ، وطفق الاثنان يبدیان الاراء ، ويكرران تفاصيل الحادثة ، وبدأ اغلظهما صوتا ، فقال بلفته العامية ما معناه

« يا لحمد من بطل ! لقد غسل العار بسرعة . لقد كنت حاضراً عندما تشاجر مع اسماعيل في المقهى ، وقد عبره الاخير بقوله « اذهب الى بيتك وتمع انظارك برؤية اختك تفازل جدوعا الحلو » . وعندما سمع حمد هذه الاهانة ورأى الحاضرين يضحكون ، ركض الى المنزل كالمجنون ، وتبعه بعض الحاضرين ، وكنت احدهم ؛ ورأينا زينب اخت حمد تنشر الغسيل على السطح ، وكان جدوع في سطح منزله ايضا ، وانت تعلم ان الجدار بين المنزلين يمكن تخطيه ، وكانت زينب بجانب جدوع لا يفصلهما الا الجدار الصغير ، وكانا يضحكان بصوت عال ، وما ان رأى حمد المنظر الا وحن جنونه ، فاختطف سكين اللحم من يد أمه وركض صاعدا الدرج ، ولم يمهلها لحظة واحدة بل سحبها من جداولها وطعنها الطعنة الاولى في العنق ، ثم سحبها على السلم وهي تصرخ صراخا مرعبا ، ثم طعنها في صدرها ، فقفزت قفزة هائلة وركضت الى الباب تاركة قسما من شعرها بيده ، فأدركها فى الطريق وقضى عليها هنالك .»

ولم يسعني الا أن أسأل دليلى بعد أن انتهى من سرد الحادثة :
— « ولكن هل يكفي هذا المنظر لاثبات التهمة على المسكينة وقتلها ؟ »
فأجابني عابسا

— « الشرف (نازك) يا افندي ، وما اسعد من لا تعيش في بيته امرأة •
لا ادري لماذا جعلنا الله في حاجة الى النساء اللواتي نهاجم دائما من فاحيتهن • »
وقال رفيقة

— « هذا صحيح يا افندي • لقد رأيت جدوعا وزنبا يتكلمان في كثير
من الاحيان ، كما تفعل نحن العوام كثيرا ، ولم يثرا شبهة في نفسي ، ولكن
لما يصبح الشرف في الوسط يختلف الامر ويهون كل شيء • »

ولم اعلم بأية لغة وبأى منطق اجادل هاذين ، فسكت مضطرا ، وبعد
لحظة برزت من منعطف الطريق طفلة لا تتجاوز الثامنة من عمرها ، تركض مرتاعة
وهي تصرخ بابا • بابا ووقف دليلى صائحا بها « ولج أشبيج ؟ » ، وكان
وراءها طفل يصفرها بستين ويده مبراة صغيرة عتيقة مشهرة ، فقبض عليه
ثالثنا ورفع بين ذراعيه وهو يضحك ، ثم سأله عن سبب ركضه وراء اخته
فأجاب

— « اريد اقتل صفية مثلما قتل حمد اخته »
وضج الرجلان بالضحك ، واختطف الرفيق السكين من يد الصغير ثم
قبله من عينه وهو يقول ضاحكا

— « عفية ابني صير سبع مثل ابوك » •
ورأيت دليلى يتسم زهوا ، ثم تناول اطراف شاربه الغليظ واخذ يفتله ،
وهو متنفخ الاوداج مرتفع الرأس •

وفي اليوم الثاني ، بينما كنت اطالع صحيفة يومية ، وجدت بين قائمة
الاخبار المحلية التافهة التي لا تتعدى قدوم فلان وسفر فلان من المشتركين في

تلك الصحيفة ، خبراً في زاوية الصحيفة يلفت الانظار ، وهاك نص العبارة :

(قتل المدعو حمد اخته دفاعاً عن شرفه والتحقيقات جارية) •

وعلمت بعد ذلك يوم المحاكمة ولما كان المنظر قد استحوذ على مشاعري ، رأيت نفسي مسوقاً الى قاعة المحكمة ، وكأني ذاهب لتأدية واجب مقدس ، ودخلتها مع الداخلين ، واخذت محلي بين المستمعين ، ورأيت الاقسام العليا من اجسام اعضاء هيئة المحكمة وراء مناظرتهم العالية مرتدين الاربدة التقليدية السوداء ، وكان الى جانبي قصاب تنبث من ثيابه رائحة اللحم والدم ، وكان ينظر الى اعضاء المحكمة ! وقد استحوذت على مشاعره هيئتهم الغريبة وتقاليدهم ولهجاتهم الصلفة ، واخيراً التفت الى رفيقه وسأله ناظراً اليه بعينين تتجلى فيهما البلادة

— « لماذا يرتدي الحكام ملابس سوداء ؟ »

فاجابه رفيقه بلهجة من يشعر بسعة اطلاعه

— « لانهم يحكمون بالاعدام والاحكام الشديدة • »

وبدأت المحاكمة ، ولم يكن في شهادة الشهود وغيرها من الاجراءات شيء جديد ، ثم اتى دور الطبيب ، وبعد ان بين كيفية حدوث الوفاة ذكر ان الفحص الطبي دل على ان الفتاة عذراء لم يمسسها بشر

واخيراً نهض محامي الدفاع ، وشرع يلقي بصوت عال مؤثر خطبة عن الشرف لا تختلف كثيراً عن الخطب التي يلقيها تلاميذ المدارس المتوسطة في يوم الاثنين من كل اسبوع فقال

الشرف شيء عظيم يضحي الانسان في سبيله بكل مرتخص وغال ، والعربي من بين خلق الله اكثر الناس غيرة على شرفه ، لا يحتمل ان يدنسه مدنس ، وعندما يعتقد بوجود ما يمس شرفه لا يرى غير الدماء •

« لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم »

ولم يسمع الجزار كلمة الدماء حتى شرع يصفق بحماس، فنهزه الحاجب
ولكزه صديقه «والعرض عند العربي هو الدعامة التي يقوم عليها شرفه والويل لمن
يعيب بعرضه • لقد تخاصم موكلي كما علمت المحكمة من الشهود مع شخص غيره
بوجود علاقة غير شريفة بين اخته وبين جارهم ، ولما اتى المنزل ورأى اخته
تغري صاحبها بالابتسامات عزم على ان يظهر شرفه فقتلها • اما كون القتيلة
عذراء فامر لا ينفي وجود صلة حب بين الجار وجارته ، ولو لم يقتل موكلي
اخته لحدثت بينها وبين صاحبها امور مخجلة مما يعرض موكلي الى مذلة
يفضل عليها الموت • لذا ، فأني اطلب من المحكمة ان ترأف بالقاتل فتضرب
لذلك مثلاً لكل من تحاول انتهاك شرف اهلها وتحمي اعراض الناس ، ولو
استفتت المحكمة كل الحاضرين في امر ادانة المجرم لما وجدت صوتاً واحداً
يطلب ادانته • »

وبعد ان انتهى من ذلك قدم الى المحكمة اوراقاً تثبت ان القاتل متم
الى احدى العشائر ، وطلب تطبيق قانون العشائر بحقه ، وذكر مواداً وارقاماً
لم أفهم مضمونها • وتركت المحكمة وقد بلغت روعي التراق •

الجرمة والمقاب

القيت نظرة عجلت الى ساعتني فرأيت عقاربها تشير الى السادسة والنصف ،
ورفعت رأسي فأندفعت كمية كبيرة من الرياح القارصة في مناخيري ،
وارسلت الدمع مدراراً الى مآقي، وشعرت بلسعها يتعدى وجهي ورأسي ، الذي
تخدرت الاقسام الحساسة منه فلم تعد تنقل وخز البرد ، الى عنقي وصدري
رغم الالبسة الصوفية السمكة ، مما اضطرني الى رفع ياقة معطني واحكام
ازرارہ . ثم ادرت رأسي في الشارع الواسع ، فما وجدت غير سيارات
(الباص) تمرق بسوعة لاقمرار الشارع من المارة ، حتى اذا ما حاذتني تلكاث
قليلا ، فيطل مساعد السائق بوجهه المقطب صائحا

— « تروح عمي ؟ »

فأستمر في طريقي غير ملتفت اليه ، فيدخل رأسه صاحباً لاعنا سوء
الحظ وقلة الريح .

لم تكن لي وجهة معينة ، ولا محلا اقصده ، بل ولم ادبر خطة ، ولم
اضع برنامجا لقضاء تلك الليلة ، وفي مثل هذه الظروف اطلق العنان لرجلي
تقوداني بدون مرشد ، واعتمد على الصدفة في خلق الظروف التي تقتل
الوقت ، وتدفع السأم ، وقل ان خيتني الصدف .

وبعد ان أمنت شر السيارات واذاها ، بتكعب الشارع واحتذاء الرصيف،
اطلقت فكري يجول على هواء ، ويتنقل بي من حقيقة الى خيال ، الى نكتة
ظريفة ، وبقيت سائراً كالنائم او الحالم ، ولم ارجع الى نفسي حتى شعرت
بصدمة قوية كادت تخلع كفتي ، ولم اجد حاجة الى ادارة رأسي اذ كانت
الضربة قد ادارتني نصف دورة ؛ وجعلتني وجها لوجه امام عملاق مجمد
الجبين عابسه ، شاحب الوجه مظلمه ، ذي انف طويل احمر يتألق في وجهه
كمصباح منير في بقعة مقفرة مظلمة ، ونظرت في وجهه محتجبا ، فشغلتنني

عينان حراوان ذات نظرات ، تذكر الانسان بنظرات مجنون او محموم ، عن الاحتجاج ، وانستي ألم الصدمة . اما هو فقد اكتفى بتلك الالتفاتة الخاطفة ، واسرع بفتح باب حانة صغيرة وغاب فيها . ورفعت نظري الى اعلى باب الحانة فقرأت (اوتيل اوليا) على قطعة صغيرة قدرة معلقة فوقه .

ها هي الصدفة قد هيأت ما يشغلني ، وقدمت لي بكل كرم شخصية من ذلك النوع الذي اغرمت بدراسته ، فما علي الا ان استجيب لندائها ، واتقبل الهبة بقلب يطفح بالشكر ، ولم اتردد ، وعندما فتحت الباب الزجاجي استقبلتني رائحة قد ركبت من انفس الحاضرين الذين يملأون الحانة على قلة عددهم ، ورائحة الكحول ، ودخان التبغ المتصاعد الذي يشبه قطعة صغيرة من الغيوم تطوف في جو من الضباب ، ومثل هذا الجو الفاسد لا يشجعني على الدخول ، لولا ان وراء الأكمة ما وراءها . واجلت نظري في انحاء الحانة فوجدت معظم زبائننا من ذوي (الجراوية) تلمع رؤوسهم الحليقة تحت ضوء الكهرباء . يعبون الخمرة عبا ، يلغطون كلاما غير مفهوم ، ويفنون اغنية ليس في امكان السامع ان يميز مقاطعها او نغماتها ، وفي نهاية الحانة ، قرب البار ، وجدت ضالتي وكان متكئا فوق منضدته ، وامامه زجاجة من الخمر وكان في نيتي ان اختار محلا بقربه ، وانتزه فرصة مناسبة للدخول معه في الحديث ، ولكن لم اجد كرسيًا خاليا الا حول المنضدة التي استقل بها ، ولعلمي بطباع هؤلاء السكيرين وسهولة التعرف اليهم ، وكسب مودتهم وصدقتهم ، وخصوصا في الحانة ، لم اتردد في التقدم من المنضدة . وعندما طلبت منه السماح بمشاركته لمعت عيناه المحمرتان وانبسطت اسارير وجهه ، ولم يكتف بالموافقة ، بل الح في طلب شيء لي من حسابه ، ولحاجتي الى ثقته ورضائه قبلت الطلب شاكرًا . وان هي الا هنيهة حتى كان كأس المملوء بالسائل الاسود (ستاوت) يقرع كأسه الطافح بالعرق الصرف ، ولم نرفع كأسينا للمرة الثالثة حتى كنا صديقين حميمين . ووجدت المجال كافيا لاعادة التدقيق فيه ، واستطلاع دفائن طبائعه مما تنم عليه اطواره واساريره .

كانت عيناه الكبيرتان السجائيتان تسددان نحوي نظرات حادة غريبة،
وانبسط فوق عينيه حاجب كثيف ، ولكنه مستقيم حسن الترتيب ، ورأيت
كثيراً من التجاعيد تحت عينيه وحول فيه ، وكان يحرك يديه بسرعة ليتناول
هذه الاداة ، او ليعبث بتلك ، ويدير اظفاره بسرعة تفوق سرعة حركة يديه •
وكان يرفع كأسه بيده المرتجفة بين فترات وجيزة حتى انني لم استطع مجاراته
رغم خفة شرابي • ومما لفت نظري بصورة خاصة قامته المديدة ومنكباه
العريضان والبسته الانيقة المحوكة من اغلى الاقمشة ، وكان شعر رأسه الذي
يشيع الشيب فيه مرتباً بعناية ، واستغربت ان أرى سكيراً أنيقاً بهذه
الدرجة •

ويظهر انه اتبه الى نظراتي الفاحصة ورآني انظر الى شعر رأسه فسألني:

— « كم تظن عمري ؟ »

وقدرته بخمسين سنة ولكنني اردت مجاملته فاجبته باسم

— « ما يقارب الخامسة والاربعين • »

— « اذن ستظنني كاذباً لو قلت لك اني لا اتجاوز الخامسة والثلاثين؟ »

ونلتته كهلاً يتصابى ولكنني اجبته مجاملاً

— « ان حادثات الزمان قد تشيب من كان في المهد صيباً • »

فهتف

— « اصبت • اصبت • »

وبحركة عصبية اختطف كأسه المملوء بالخمير الصرف ، واجترعه مرة
واحدة • ورأيت فكه الاسفل يتهدل ، وعينه تدمعان ، ثم مسح فمه بظاهر
يده ، ووضع ساقاً على ساق ، واخذ يهز العليا منهما بحركة عصبية ثم انكأ
على المنضدة واعطاني منظراً نصفياً لوجهه ، ولاح لي انه الطويل المعقوف
الاحمر يلعب متوهجاً بين سحب الدخان المتصاعد من جمهور الشاربين •

وخيل الي انه يحمل هما دفينا وآلاما جساما ، واملت ان تكون الخمرة
قد الانت مغاليق اسراره ، وكنت على ثقة من انه سيفرغ ما بجعبته بعد حين ،
ولكنني اردت ان اسرع به ، فرفعت كأسي بسائله الاسود وصحت به .
(جيريو) فرقع كأسه وافرغ ما فيها مرة واحدة في جوفه . يا له من سكير !
انه يشرب الخمر كما يشرب الماء الصرف . ثم التفت الي فجأة ، وبدون سابق
انذار قبض على رسغي بيد مرتجفة ، وكانت قبضته قوية رغم ضعف اعصابه ،
وقال

— « اني مجرم ! هل تعلم ذلك ؟ ... مجرم فظيع !! »

وخيل لي ان الرجل هارب من مستشفى المجانين ، واخذ الشك بسلامة
عقله يتطرق الى نفسي ، وكانت نظراته الخاطفة المحسومة تقوي هذا الشك .
واجبته .

— « اتعني انك هارب من يد العدالة ؟ ام ارتكبت جريمة لم يعلم بها
احد ؟ ومهما كان الامر فارجو ان تطمئن يا صاح ، فلست من رجال الشرطة ،
كما اني اكره ان اضع نفسي فيما لا يعنيي مهما كان الامر .. اطمئن » .

— « لم تفهم قصدي ... انني لست خائفا من الشرطة او القضاء ..
ان جريمتي غير قانونية ... ولكن هذا لا يقلل من شناعتها في نظري » .

— « اخشى ان تكون مغاليا ، اذ ما دامت جريمتك غير قانونية فليس
من حقت ان تسميها جريمة » .

— « منطق سخيف ، وهل تظن أن القوانين قد احاطت بكل خطايا
البشر ، وهل في استطاعتها مهما كانت دقيقة ان تفرق بين ما يعد جريمة وما
لا يعد من الجرائم . يتقن يا سيدي بأن القوانين تخطئ في دائرة اختصاصها
خطئ عشواء . ان بين البشر مجرمين خطيرين يرتكبون جرائمهم على ملا من
الناس باسم النظام والقانون ، وهنالك آخرون يشنقون كل يوم علنا مع انهم
اقل خطراً على الانسانية من اولئك واخف شراً » .

— « تلك فلسفة عميقة يا سيدي ، واعتقد انك لو بسطت ظروف
الحادثة التي تعتبرها جريمة ، واحطتتي علما بتفاصيلها لاستطعنا معا تقدير
المسؤولية الوجدانية التي تقع على عاتقك ، ولعل اعتباراتك هذه ناتجة عن
تضخم صدى الحادثة في نفسك ، ولمسها بعض النواحي الحساسة في
وجدانك » .

ورأيت وجهه يصفر ، ولاحت في عينيه امارات رعب خفي ثم اجاب
— « لقد قتلها ، وبكلمة اصح لقد سقتها بالسوط سقوا الى الموت »
— « لم افهم » .

— « اخبرني اولا ما الفرق بين انسان يغمد سكيناً في صدر رفيقه
وآخر يحيط غيره بكل عوامل اليأس والقنوط حتى لا يجد مجالا غير الموت
فينتحرر » .

— « اظن ان الاول مجرم في نظر القانون ، اما الثاني فيغلب ان لا يعد
كذلك ، وتتوقف مقدار مسؤوليته الادبية على درجة تعمدته القيام بما يولد
اليأس في نفس المتعدى عليه » .

— « ولكنني أعتبر كليهما قاتلا وما الفرق الا بالسلاح ... اجل لقد
قتلتها ، ولو عوقبت لخف عني هذا الحمل الذي انوء تحته . واليك تفاصيل
الحادثة

كنت قبل عشرة اعوام شابا رشيقا ذا فتنة وجمال فكنت موفقا في
مغامراتي الغرامية غاية التوفيق ، ووضع كهذا يجعل صاحبه مغرورا بطورا
لدرجة لا تحتمل . ومما زاد في جاذبيتي وغروري كمية من المال لا يستهان
بها خلفها لي والدي ، ولم يكن معي من يشاركني بها فأطلقت يدي فيها ،
واطلقت نفسي وراء اهوائها . وأولعت بالسفر والتنقل ، لا بقصد الاستفادة
والدرس ، بل للاستزادة من الانس واللهو ، اذ رأيت جو العراق لا يسع

اهوائي وميولي • وفي صيف احد الاعوام كنت في القسطنطينية ، وفي هذه لمن يريدان ينفق المال الكثير مجال واسع ، واولعت بقضاء الاواخر من الليالي في تلك البارات التي تفتح في الساعة الثانية عشرة ليلا وتقبل مع الفجر • والتقيت بها في (توران بار) وكانت في معزل عن بقية الراقصات ، وقد استغربت وحدتها وعدم وجود من يشاركها في مجلسها ، واعجبتني رزاتها وهدوءها اللذين قل ان تجدهما في راقصة محترفة ، ونظرت نحوي بدون قصد فأشرت اليها ان تشاركني مجلسي ، ويظهر انها عدت اشارتي تحقيراً فأدارت رأسها عابسة وهي تبتسم تهكماً • وغاظني استهتارها ، واردت الانتقام منها بارغامها على القدوم ، فناديت الساقى وطلبت منه ان يأمرها بمنادمتي ، فدهشت اذ اخبرني بانها ليست من راقصات البار المحترفات بل هي بائعة تذاكر في احدى السينمات وقد قصدت البار للهو كغيرها ، ثم اخبرني بانها مهذبة رقيقة ، واخذ على عاتقه ازالة ما حدث بيننا من سوء التفاهم •

ووجدتها رقيقة لطيفة غير شرهة • فليست هي من ذلك النوع الذي يركض وراء الرجل طمعا في ماله • وتكررت مقابلاتنا وارتبطنا معا بما يشبه الصداقة • وكانت غير مرسفة فوفرت علي دراهمي • وكانت من طبقة العمال لم تل من التعليم الا شيئا بسيطا ، فقد اضطررتها الحاجة الى العمل لكسب قوتها مبكراً ، ولم تسلك الطريق الذي تسلكه مثيلاتها اللواتي يحصلن على المال من اقصر الطرق •

والفتها بسرعة ، ولما وجدت من نوع يختلف عما الفته ، اعجبت بها واظهرت كل ما في من فتنة في السلوك والمعاملة والاخلاق والرجولة ، فتعلقت بي تعلقا شديداً ، واصبحت تخدمني بأمانة واخلاص ، وتحنو علي حنو الأم الرؤم على وحيدها • ووجدت من امانتها واخلاصها ما حيرني ، وكانت تثير الاحترام في نفوس اصدقائي ومعارفي برزاتها وكياستها وحسن ادبها •

وفي يوم رائق قصدنا احد المنتزهات التي تكثر في ضواحي القسطنطينية .
وفي ذلك اليوم شعرت نحوها باقصى ما يمكن ان يشعر به الرجل نحو
امزأة من حب واعزاز ، ويظهر ان جو (بيوك اده) المنعش ، والسواء الصافية
الزرقاء ، التي القت جزءاً منها على الارض باهمال فكان البسفور ، وذلك
المقهى الهادىء البسيط على الشاطئ ، كل ذلك كان ذا اثر قوي في تقوية
تلك العاطفة وصلها . وسألها عن ماضيها فبسطته لي بكل ما فيه من عيوب
وآلام ونكبات ، فلم تترك شاردة ولا واردة . وشعرت بالسلام يغمر روحي
عندما نظرت في عينيها اللتين اشبهتا زمردين تطل من ورائها نفس بسيطة نقية
لا تعرف الاسرار التي ضربت دونها الحجب ، ولا مكر الشرقة ودهاءها ،
فالمرأة التركية يا صديقي قد فقدت ملمس الثعبان الحريري ، وفقدت سمها
ايضا . وسألها تحت تأثير تلك العواطف فيما اذا كانت ترغب ان تشارك
رجلا مثلي حياته فى بلاد يحاسب اهله المرء على عدد انقاسه ، فأجبتني انها
تفعل ذلك بكل سرور اذا كان بجانبها قلب يخفق مع قلبها ، ويغني معه نشيد
الخلود .

لكني كغيري من الثبان الذين يملأ رأسهم الغرور ، فلا يعرفون قيمة
ما بأيديهم حتى يفقدوه تماما ، سئمتها . وسئمتها برعة ، اذ لم يكن لديها
دهاء حواء التي اخرجت آدم من الجنة لكي تغير عليه حياته وتشغله بما
يصرفه عن سئمتها . وعند ذلك اختلقت حجة واهية ، وهربت منها راجعا الى
العراق ، فودعتني بدمعة مهراقة ، وطلبت مني أن اذكرها عندما يقسو الهم على
فؤادي ، اذ سوف اجدها بجانبني بطرفة عين .

وعدت الى بغداد ، وعدت الى حياة اللهو والفجور ، وغرقت فيها الى
الذقن ، وما أسرع ما شعرت بالاشمئزاز مما كنت مولعا به ، وما أسرع
ما تذكرت تلك السويعات التي قضيتها في عاصمة الاتراك ، وخيل الي ان
عينين زرقاوين صافيتين تنظران في عيني ، وقارنت صاحبتهما بما حوالي من

الساقطات اللواتي لا يهمن غير ابتزاز المال ، ذوات النظرات النكراء ،
والنفوس المتسرلة باللاثم ، وسئمت لهجات التملق التي تقطر رياء ولؤما فما
كان مني الا ان طيرت برقية الى القسطنطينية ، ورأيتها بجانبى بعدما لا يزيد
عن اسبوع .

وشعرت مرة اخرى في حياتي بالهدوء والسلام . ولكن المسكينة
كانت لاخلصها وبساطتها تتفانى في خدمتي . ولم تترفع ابداً عن القيام بما
تقوم به احط الخادومات في سبيل راحتى ، ولم تعلم ان مثل هذا الدلال يسرع
السأم الى نفس اى رجل ، فكيف الحال برجل مغرور متقلب . وظهر سامي
في هذه المرة بشكل جديد ، اذ وجدت نفسي غير راغب في العودة الى حياتي
السابقة ، ونافراً من الحاضرة . وخيل الي ان هنالك متعة لم اندوقها هي متعة
الزواج الشريف ، والسكون الى بيت تحكمه امرأة من جنسي ويملؤه الاطفال .
ولم ادرك لشدة سخفي ان رغبتى هذه ما هي الا مظهر من مظاهر حب التنير
التي تبثلي به النفوس المقلبة .

وفي احد الايام صارحتها بكل ما يخالجني ، فرأيت امارات الفزع تلوح
في عينيها ، وعلامات الخيبة والتعاسة منطبعة على وجهها . وعندما
اخبرتها بأن زواجي بها مستحيل لان الناس ينظرون الى من يتزوج خليلته
كما ينظرون الى احط الجرائم واسفلها ، وان مثل هذا الزواج يكون نكبة
ابدية على النسل اسقط في يدها ، وقد كنت بكلامي هذا مغاليا وايم الحق ،
ولم اهلول عليها الامر الا لاسد في وجهها منافذ الامل . واخبرتني باستحالة
الرجوع الى ماضيها وعملها السابق ، وسألتني بذلة وانكسار ان اخصص لها
النزر اليسير لتعيش به هنا ، او اجد لها عملا ، واذا اقتضى الامر فانها لاتردد
عن القيام بالخدمة في منزلي فتخدمني وتخدم زوجتي . وشعرت بقلبي يلين
بين جنبي رغم قساوة طباعي ، وعزمت على تخصيص ما يكفيها ويقيم اودها
حتى تجد لها طريقا آخر .

واوعزت الى عدة خاطبات ان يطرقن مختلف المنازل للبحث عن الزوجة العتيقة فرجعن كلهن بخفي حنين ، ولم تقبل يدي فتاة لا من العائلات الغنية ولا الفقيرة رغم علمهن بثروتي ، ورغم ما بذلت من مال . وقد كان السبب في كل ذلك هذه المسكينة التي تستظل تحت حمايتي ، وعند ذلك تنكرت لها ان شعرت بأنها قد اصبحت عبئا على عاتقي ، ولم اجد في آخر الامر مناصا من مصارحتها ، ووضعت مصيرها امامها بكل ما فيه من قساوة وهول ، واعطيتهما مبلغا من المال تستعين به حتى تجد ملجأ آخر وطلبت منها الانصراف .

كان ذلك قبل خمس سنين وان انس فلست أنسى تلك الساعة التي سلمتها المال حين رفعت نحوي عينيها النجلاوين ، وسالتي ان احتفل بوداعها تلك الليلة . وكانت ليلة عجيبة أردت أن اودع بها حياة العزوبة واللهم فشربت حتى ثملت ولم اع لشدة السكر حتى الصباح ، وعندما اتبعت من سكرتي ، وجدها متمددة على سريرها . وقد اغمدت سكيناً حاداً حتى النصف في قلبها وتركت لي رسالة تودعني بها وتقول انها قد سافرت الى الجهة التي ليس لها غيرها . ولم تنس ان تترك رسالة بخط يدها تعترف بها بانها اقدمت على الانتحار مختارة ، وقد فعلت ذلك لتنقذني من المسؤولية القانونية .

وانهى كلامه بأهة تحمل مقداراً عظيماً من العذاب والتعاسة ، ثم تناول كأسه الطافح وافرغه في جوفه ، ونظرت الى الزجاجه فوجدتها على وشك النفاذ . لقد شرب زجاجة كاملة في مدة ساعة واحدة ، وارتدت ان اخفف من آلامه وأواسيه فقلت

— «ستسى متاعبك وتخفف من ألم هذه الذكريات لو تزوجت ، اذ ستسبك السعادة الزوجية ، والراحة العائلية ماضيك المتعب » .

وما فرغت من كلامي حتى قهقه عاليا ونظرت في وجهي كالمنجون وقال « لقد تزوجت بعد موت خليلتي بسنة واحدة ، وعندها تجلت لي الحقيقة

المرّة • لقد أدركت بأنّي قد ضحيت بالكثير ، بل أجمت وسحقت مسراتي طمعا في أمر ضاهره الرحمة وباطنه العذاب • لقد سقطت أخيرا في المجيم جزاء وفاقا • أي والله انها لعقوبة عادلة وسوف احتملها لانظر • لقد أنت العروس العتيّدة أخيراً واستلمت منزلها كما يستلم الموظف عمله الكريه • ان الفتيات يعددن انفسهن للزواج كعمل يعشن من ورائه ، فكما يكره الموظف عمله ويتلاعب به ، ويخونه عند الحاجة ، كذلك يفعلن • وكما يرتاح الموظف من عمله ويلهو كذلك يرتحن من أعمالهن ويفرقن في اللذة ما بين احضان بعضهن • ان الزواج يا فتاتي غير مبنى على التكافؤ والتعادل بين الزوج وزوجته • ، انه مقالة بين الرجل القوي الأبله والامرأة الضعيفة الداهية ، وما الحياة الا مناورة بين الاثنين لا تنتهي الا بانتهاء حياة احدهما • اما مصيتي فقد فاقت المصائب • لان شريكتي التي اردت ان استعين بها على نسيان آلامي اتخذت من ماضي وما فيه من نكبات وآلام سلاحا تشهره في وجهي كلما وقتت في وجهها • فأنا الفاسق زير النساء ، ان اردت ان احاسبها على غيابها عن المنزل ، وانا الذي لا استحق ان اعاشر الا الساقطات ان اردت أن أوّنبها على اعمالها ، وان شكوت سوء حظي غلبتني في الشكاية ، وأدعت ان سوء حظها هو الذي اوقعها بين مخالفتي ، وهي الحرة بالزواج بالامراء والاشراف ومع ذلك فأني اعتقد بانها اسعد زوجة ، لانها لا تجد شخصا يستطيع ان يحاسبها • انه عذاب مريع وجسيم لا يطاق • انه العقاب العادل • اجل انها زوجة تستطيع اخراج عيني من محجريهما عندما تريد ، لا امرأة مسكينة لا نصير لها ، اسوقها الى الاتحار سوقا • لقد ضقت ذرعا بهذه الحياة التمسّة • خمس سنين يا صديقي وطيف تلك المسكينة يلاحقني وانا اقاسي هذا العذاب الاليم • وكثيراً ما خطر في بالي الاتحار ، ولكني اجبن من ان اقدم على ذلك • »

وسكت ثم تناول بقايا نصف الزجاجاة الثانية وجرعها مرة واحدة ،

وعند ذلك احمرت عيناه ، وتدلّى فكه ، وارتخت أعضاؤه ، ثم دفع الحساب
ونهض مترنحا وودعني بقوله

– « سأذهب الى البيت لآنال نصيبي من العقاب وداعا يا سيدي • »
وتبعته بنظري ، وخيل لي عندما خرج من باب الحانة المضيئة الى
الشارع المظلم ، ان هوة قد فتحت فاتها وابتلعتة •



وقف سليم على شاطئ دجلة ساهما واجما شاردا النظرات غير ملتفت الى تلك المناظر الجميلة التي امتدت على جانبي النهر ، والى منظر الشمس ، وقد بدت في ابهى شكل ، وهي مائلة الى الغروب ، وقد صبغت الافق والغيوم القليلة المنتشرة فيه بلون زاه هو خليط من الارجوان ولون الذهب .

وكان ساكنا كالتمثال قد استحوذت عليه الهواجس والافكار ، ينبئك وجهه الشاحب والهاتان الزرقاوان المحيطتان بعينه بحالة هذا الرجل المريض باصابه .

وسليم هذا يناهز الثلاثين من عمره ، تلوح على محياه امارات الذكاء وتدل تقاطيع وجهه على جمال يوشك ان يذبل .

ولنرجع الآن خمسة عشر سنة الى الوراء ، لندرس العوامل التي اثرت في حياة هذا الشاب حتى خلقت منه هذا الشبح المهدم .

كان سليم وحيد ابويه ، توفي والده بعد ان اهتم بتربيته واعتنى بتعليمه ، فتركه في سن الخامسة عشرة مع ثروة طائلة ، وكان الاب تقياً ورعاً فأورث ابنه بعده عن مفاصد العصر وسفاسفه . وكان الولد يتمتع بنصيب وافر من الصحة الجيدة ، والحيوية والنشاط ، فساعد ذلك على اكمال تحصيله بسرعة مذهشة . هكذا نجده عند وفاة والده ولداً مهذباً منتظماً في حياته ، يفضل قلة الاختلاط والأنزواء في داره لادارة شؤون املاكه ، ويشغل فراغه بالمطالعة والدرس .

وفي احد ايام الربيع ، بعد مضي ثلاث سنين على وفاة والده وقف سليم في شرفة منزله في الكرادة ، الذي ورثه فيما ورث عن ابيه ، يتمتع اظاره بمنظر النهر الفائض ، ويستشوق نسيم الربيع الدافئ المشبع برائحة ازهار الليمون ، ذلك النسيم الذي لا يكاد يختلط بالدم حتى يحيل الجسم اتونا متقدماً ، فيستيقظ القلب من سباته ويخفق بقوة ، كأنه ناقوس الخطر .

واتبه فجأة على حركة في الشرفة المجاورة ، وعندما التفت تفتحت عيناه دهشة ، وابطأ القلب في خفقانه فجأة ثم أسرع اسراعاً خفيفاً ، وامتلا الوجه الجميل بالدم فصبغه بحمرة قانية ، والتهبت العينان بنار العاطفة المتقدة ، ولا عجب ، فقد رأى امامه فتاة ساحرة بقوام رشيق ، وجسم ممتلئ ، توقظ حنياته وثناياه الشهوة الحادة ، وتورث الجنون . وادارت الفتاة رأسها بدافع خفي ، فلحظت هذه النظرات النارية ، فصعقت ، وبقيت باهتة ملياً ثم انقلبت الى غرفتها .

ولاول مرة في حياة سليم وليلى ، لم يعد الاثنان يفكران بالفضيلة او يهتمان بالدين والعفاف . وتولدت في رأسيهما افكار لذيدة ثائرة ليس لها حد بالرغم من كونها مشوشة مضطربة لا تعطي معنى واضحاً . وتكررت هذه المقابلات ، وتطورت بسرعة لانطلاق سليم من القيود ولقرب الفتاة منه . واستجاب الاثنان لنداء العاطفة المجنونة ، وهل في العالم ما يخفف هذا النداء او يقف حائلاً دون الاستجابة له .

واستساغ سليم اللذة المحرمة ، وغرق فيها ، وكان موفقاً في مغامراته الغرامية اذ كان من ذلك النوع الهادئ الذي لا يباهي بنقائضه ، كتوما لا يفضح سراً ، بل قد يذهب الى ابعد من ذلك فيساعد شريكاته في الأثم ، ولا يذهب معهم بعيداً في علاقاته الغرامية ، وكثيراً ما ساعد بعضهن حتى في تسهيل امر زواجهن بصورة مادية او معنوية . وانهمك سليم في فجوره حتى سئم ، وكانت له رجعة ، وظهر رد الفعل في اعماله واثارت تربيته الاولى وروح العفاف والتقوى اللذان تشبعت بهما روحه منذ الصغر ، واخذت تضيق عليه الخنادق ، حتى قرر ان يتوب ويتزوج . وتزوج اخيراً ، وكان في سن الثامنة والعشرين بفتاة ، جميلة من اسرة لا تقل عن اسرته جاهاً وثروة وانهمك في اول سنة من سني زواجه بعلاقته الزوجية انهماكاً مريعاً حتى مل وسئم ، وظهر

عليه البرود والاهمال ، ولم يعد يستسيغ طعم الحياة الزوجية ، فأرتاعت
الزوجة وقصدت امها باكية شارحة حالها شاكية سوء المنقلب •

هزت الام رأسها وقالت

— « ان زوجك فتى جميل ولا بد ان يكون بعض النساء قد علقن به
فأثرن عليه بسحرهن ، ومالنا الا الاستعانة بساحر ماهر لرد كيدهن الى
نحورهن ، وارجاع زوجك الى احضانك » •

وبعد ان سمع الساحر تفاصيل الخبر ، مشط لحيته الكثة باصابعه
وهز رأسه المثلث بالعمامة الخضراء ، وبعد ان تمت وعزم ، وبصق وهمهم ،
سأل الزوجة •

— « وهل تظهر على زوجك علامات النفور ؟ وهل يخشن في القول
ويثور ؟ »

فاجابت

— « نعم لقد اصبح يفضب لاتفه الاسباب • »

وبعد ان ابتز منها الاموال واستشار الجان والشیطان ، اعطاها زجاجة
مملوءة بسائل ، وطلب منها ان تعطي الزوج شيئا منه كلما ظهرت عليه هذه
الاعراض ، ونصحها ان تمزجه بطعامه او شرابه حتى لا تثير روح الشك في
نفسه ، وما كان هذا السائل غير شراب مخدر مسكن بصورة مؤقتة ولكنه
يضعف الاعصاب بل يتلفها •

هكذا نجد سليم وهو في سن الثلاثين بين ثلاثة عوامل يتلاعبن بافكاره
وجسمه واعصابه ، فقد اصبح يتوق الي تلك اللذة الحادة المحرمة التي
استساغها فترة من الزمن ، ولكن ضميره وحرصه على شرف الزوجية وتقواه
كانت تصده عن الغواية وتكبت في نفسه هذه الرغبة ، فتوترت أعصابه كما

يتوتر الجبل المشدود بين قوتين هائلتين متعادلتين ، وجاء هذا الدواء المخدر فكان كالسكين يحز هذا الجبل ، ويعرضه تدريجيا الى الانقطاع • هكذا استحال سليم الى هذا الشبح الواقف على شاطئ النهر •

بقى سليم في وجومه هذا حتى سمع صوتا ينجيه ، ولما التفت رأى احد اصدقائه بجانبه يخاطبه •

— « ما بك يا فتى ؟ اراك غارقا في تيار افكارك ؟ »

— « اني اشعر بشيء من الضيق »

— « فلتمش اذن لعل ذلك يخفف عنك »

وانطلق الاثنان يذرعان الرصيف بخطى متزنة ، ومر بهما رجل وامرأة يتنزهان وعليهما علائم الانسراح والهدوء ، فالتفت قاسم الى سليم وسأله • « يخيل لي اني اعرفهما ولكني لا اتذكرهما تماما •• لقد تذكرت انه زوج ليل وهذه زوجته كيف تراها في حياتها الزوجية ؟ »

— « انهما سعيدان كما ترى بل هما من اسعد الأزواج • »

ثم سكت الاثنان ، وبقي سليم يمشي مع صاحبه ، ودخل منزله فتلقته الزوجة مستبشرة ملاطفة ، وكانت مولعة به ، وسأته عندما رأت كآبته

— « ما بك يا سليم ؟ ألسنت سعيداً ؟ ألسنا من اسعد الأزواج ؟ »

وارتسمت العبارة الاخيرة في ذهنه بحروف من نار ••• أسعد الأزواج ؟••• ان ليلى وزوجها من اسعد الأزواج ، وقد كان ذا علاقة غير شريفة بليلى فهل ترى زوجته على هذه الشاكلة ايضا ، ونظر في وجه زوجته عابسا مستاء فتفتحت عيناها الجميلتان دهشة ورعبا •

وشرعت تمنع النظر في وجه زوجها ، وتذكرت دواء الساحر فسأته •

— « الا تشرب الشاي ؟ »

فأوما لها برأسه موافقا •

وأنته بقدح منه ممزوجا بعقاقيرها الى النصف فشربه دون ان يحس
له طعما ، واحس بالكسل والارتخاء ، فقصده فراشه وغاب في سبات
عميق •

واتبه في منتصف الليل ، فوجد نفسه غارقا في العرق ، ولم يجد
زوجته بجانبه ، ومرت برأسه فكرة جهنمية هائلة • الا يمكن ان تكون
زوجته قد ذهبت لتقابل عشيقاً ؟ كما فعلت احدى رفيقاته مرة عندما وضعت
المخدر لأمها كيما تستمتع به طويلا ؟ ومن غرائب الصدف ان تكون زوجته
في تلك اللحظة خارج مخدعها اذ ازعجها مواء قطة صغيرة ، فرمتها في الخارج
واقفلت الباب ، ورجعت عائدة ، وسمع الزوج صوت الباب ، فكان له برهانا
آخر فتناوم ، حتى اذا تمددت الزوجة في فراشها ، وثب فجأة محدقا بها
وسألها

— « اين كنت ؟ »

فشرحت له الامر بالتفصيل ، الا انه لم يقتنع واستيقظ صباحا بنفسية
مضطربة ، وعقل مشوش ، وافكار غريبة ، وكانت كل حركة من حركاته غير
اعتيادية ، وبعد ان تناول فطوره بشهية قليلة ترك منزلة وهو غارق في مهامه
التفكير ، تقاذفه الافكار والهواجس التي لا مبرر لمعظمها • ورأى شخصا
يقهقه بجانبه فظنه يضحك منه ، واخذ يبحث بعقله المريض عن سبب هذا
الضحك ، فصورت له مخيلته المريضة بأنه يعلم باضطرابه ، ويعلم بسلوك
زوجته السيء فهو يسخر منه لهذا السبب ، واحس بالمرحاض في رأسه
وصداع شديد •

ولم يرجع لداره وقت الغذاء ، بل ذهب الى حانة حيث ارتشف كمية
كبيرة من الخمر ، واحس بعدها بالتعب والكلال ، ورجع ثلثا الى داره •

وعندما وصل حارته رأى عين الرجل الذي خيل له انه يسخر منه صباحا ،
ووجد باب داره مفتوحا ، وعند وصوله رأى زوجته قلقة وقد تبرجت ارضاء
له ، وعادت مخيلته المريضة الى عملها فصورت له حادثة محبوكه مترابطة
الاجزاء .

فصرخ في وجه زوجته

— « ماذا كان يفعل هذا الرجل عندك ؟ »

فدعرت الزوجة المسكينة ، وكادت هذه المباغطة تفقدها صوابها ولم
يمهلها حتى تستجمع افكارها للجواب ، بل اغار عليها واخذ يخانقتها وهو في
اشد حالات الهياج ، وشعر عندها بخور في قواء ، فتركها وجلس وهو على
وشك الاغواء وتذكرت الزوجة دواء الساحرة فأسرعت اليه بكأس من الماء
مزجته بسقندار كبير من المخدر ، وما كاد يجerce حتى هدأ قليلا وكانت تلك
اللحظة خاتمة عقله السليم .

ومن يزور مستشفى المجانين يرى سليما غارقا في حزنه وكآبته ، يروي
لكل الزائرين اخبار خيانة زوجته ، ويندب الفضيلة والعفاف والشرف الذي
لم يعد لها وجود ، ويروي اخباراً معظمها مضحك على الرغم من تلك اللهجة
الجدية التي يروي اخباره بها .

المجموعة الثالثة

صديقتي

الاهراء

الى كل من لا يهر بصره ضياء الشعلة الخالدة •

الى اولئك الذين لا يضعون اكدهم على ابصارهم ليحجزوا اشعتها عن
عيونهم •

الى الذين يعشقون النور ويكرهون الظلام •

الى كل من يحب الحقيقة ويقبلها على علائها مهما تعارضت مع ما تلقنه
أو نشأ عليه من مبادئ فاسدة أو تقاليد يالية •

مقدمة

لقد أسميت هذه القطع الأدبية قصصاً ، ولكني أشك في ملك أيها القاريء الى هذه التسمية ، إذ ستقول أين الابطال الذين يثيرون الاهتمام ؟ أين الحوادث الغريبة ، والنتائج الجميلة ؟ أين الخيال الغريب ، والوصف العجيب ؟ أين وأين ؟

أما الابطال فهاهم بين يديك ، وقد وضعت لبعضهم أسماء خاصة ، واكتفيت بكلمة (صديقي) للدلالة على البعض الآخر ، ولعلي أريد بذلك أن أنبهك الى أن هذه المخلوقات ، التي ابتدعها خيالي ، قريبة من نفسي ، عزيزة علي •

ستستغرب أطوارهم بعد أن تطلع على صفاتهم العقلية والخلقية والبدنية والروحية ، فتجدهم يسرون على نهج لم تألفه ، ولبعضهم آراء وأطوار لم تسع بثلاثها ، ومهما كات عواطفك نحوهم ، فاني موقن بأنك ستحترمهم لأنهم لا ينافقون ولا يصانعون ولا يكذبون •

ان هؤلاء الابطال يا عزيزي القاريء لم يفتحوا مملكة ، ولم يستعبدوا شعباً ، وليسوا هم من اولئك الذين يبنون صروح مجدهم من جماجم الالوف من أبناء وطنهم وأعدائهم على السواء ، ولم يكسروا عن أعناقهم طوقاً من خشب ليستبدلوه بآخر من ذهب ، ولا من اولئك الذين يتججحون بادعائهم التحرر من ربة الاستعباد الفكري ، بينما هم في الحقيقة لم يفعلوا أكثر من الخروج من عبودية ليدخلوا تحت نير عبودية أخرى ، لا تختلف عن الاولى الا في اللون والاسم •

وربما كان أهم ما يعجبني فيهم صراحتهم العجيبة ، واعلانهم عن الحقائق التي يؤمنون بها مهما كانت بعيدة عن أفهام الناس ومألوفهم ؛ فتراهم يقفون أمام المألأ يعددون مساوئه بكل هدوء واطمئنان ، حتى لو

كان هذا الملائكة هائلة مرعبة ، ولعل جرأتهم العجيبة هذه هي التي تشل
الوحش وتقعده عن تحطيمهم أو تمزيقهم ارباً ارباً .

أخشى أن أكون كاذباً أو مغالياً في الواقع اذا قلت أن كل هؤلاء الابطال
من صنع خيالي أو ابتكاره ، إذ اني لم أفعل في الحقيقة أكثر من تكميل ناحية
جميلة من شخصية عثرت عليها صدفة ، أو جمع أجزاء متفرقة من شخصيات
كثيرة لتكوين شخصية جديدة ترضي خيالي . وهنا أخشى أن يصححك
تعبيري ، إذ ربما تتساءل كيف يمكن أن يتعرف الانسان على جزء من شخص
دون الاجزاء الاخرى ؟ أيعني ذلك انه يتعرف على رأسه فحسب ؟ أم يديه
فقط ؟ أم رجليه دون بقية جسمه ؟

ان الامر يكون مضحكاً حقاً لو تصورته بهذا الشكل ، أما تفسير ذلك
فهو أن بعض أخلاق زيد تعجبي ، وطبائع عمرو تسحرني ، وجمال بكر
يروقني ، وجسم فلان بديع التكوين قد صب في قالب الكمال ، ولكني أجد
دائماً في كل شخص بجانب صفاته الجميلة صفات أخرى متناهية في القبح
تطفئ عليها فتفسدها ، وتجعل ، صاحبها نابي المنظر تعس المخبر ، ولما كانت
حكمة الله (التي لا تدركها العقول) قد شاءت أن يكون الانسان كذلك ،
ولما كانت الطبيعة تأبى الكمال ، لم أجد لي طريقاً لارضاء هذه الرغبة الجامحة
في الكمال في غير اطلاق العنان لخيالي الجامح أدعه ينشر ثم يجمع ، يصقل
ويهذب ، ثم يبني على هواه مخلوقات يعدها كاملة وقد لا تعدها أنت كذلك .

وأخيراً أستميحك العذر فقد أنعمتكم وأنعمت نفسي أيضاً في محاولة
اقناعك بأن ذلك نوع من القصص ، وان أشخاصها أبطال حقاً ، فاذا لم يند كل
ذلك معك فسمها وسمهم ما شئت .

کیف عترت علی رحیل !

ازدحمت قاعة الاستقبال الواسعة بالمدعوين ، وأديرت أقذاح الشاي على الحاضرين ، وكان صاحب الدعوة غارقاً في العمل حتى الذقن ، يذهب ويجيء ، يدخل ويخرج ، يلاطف هذا ويمازح ذاك باذلاً جهده في تلافي كل بادرة يشم منها رائحة النقص أو التقصير ، وكان المحتفي به جالساً في صدر القاعة محاطاً بجمع من الاصدقاء والاقرباء ، ويظهر أن صاحب الدعوة لم ينس أهداً من معارفه في هذه الحفلة التي أقامها تكريماً لصديق عزيز عليه. قدم حديثاً من الغرب بعد أن أنهى دراسته هناك وحاز شهادة عالية .

ومع اني كنت اكره أمثال هذه الحفلات ، التي يسودها التكلف والسخف ، لم أجد مناصاً من تلبية الدعوة لما يربطني بعاقدها من صلات ود واءاء ، وتخلصاً من السأم الذي يهاجمني عندما أحثر نفسي في إحدى المقاهي العامة ، فأكون وحدة من تلك الكتل التي لا تهتم في حياتها بغير النرد. واخترع ما يقتل الوقت من أحاديث تافهة ، تسودها الغيبة والنفاق .

وكنت قد لمحت عند دخولي قاعة الاحتفال مراداً يشير لي من بعيد ؛ فيمتت شطره بعد أن سلمت على صاحب الدار ، ولم أكد اتبهي من تحريك يدي مراراً لرد التحيات الكثيرة التي تنهال من الحاضرين الواحد بعد الآخر بعد الجلوس ، حتى لفت نظري شخص قد احتل المقعد الخامس من الصف المقابل ، وكان أول ما جذب انتباهي اليه اغفاله هذه التحية الثانوية التي تعد من جملة المراسيم ، وما كنت اغمره بنظراتي ، حتى شعرت بما يجذبني الى اطالة التمعن في وجهه وهيئته ، وراعني منه قامته الطويلة ، وأطرافه المشدودة، ووجهه الاسمر الباسم ، وفكاه اللذان يشبهان فكي نمر ، ورأيتيه يضحك بعينه دائماً ؛ فأدركت فوراً بأنه رجل بعيد عن الشر والكبرياء ، ولم اتمالك أن سألت مراداً

— « من هو ؟ »

ولا أدري كيف أدرك من هذا السؤال الغامض اني اعنيه فأجاب
— « اسمه فؤاد ، وهو شخصية غريبة بارزة في هذا الوسط ، وأظنه
موظفاً صغيراً ، ومن غريب أمره انه محبوب عند البعض الى درجة التوله ،
ومكروه عند الآخرين الى حد السخيمة والمقت ، وقد سمعت من يروي عنه
أخباراً غريبة ويتهمة بالشذوذ حتى الجنون »

— « أميل الى الاعتقاد بأن هذا الرأي مضحك • وبلوح لي أن هذه
الجمجمة المغطاة بهذا الشعر الاسود المرتب تحوي عقلاً جباراً »

— « انك ترجم بالغيب • »

ولما أن همست بالاجابة سمعت تصنيفاً حاداً ، ورأيت صاحب الدعوة
يقف مرحباً بالحاضرين ، ثم يقدم المحتفى به الى المدعوين ويشكرهم على
تلبيتهم دعوته لتكريم صديقه وصديقهم •

وأعقب صاحب البيت شاعر يحل صحائف كثيرة ، ووفق يلقي كلاماً
منظوماً موزوناً يسيه الناس شعراً ، الا انه لم يكن فيه من الشعر في
الحقيقة غير عبارات رنانة قد حشر فيها كل ما يعرف من الكلمات الغريبة ،
وجمع فيها كل ما سمع من الاوصاف الحسنة ، والمبالغات المضحكة ، ورأيت
فؤاداً يتأفف ويقول لمن يجاوره

— « أي جريمة اقترفنا حتى يحكم علينا بسماع كل هذا الهذيان ...
أنظر الى الشاعر كيف يعبس ويحلق ويرفع عقيرته ويتباطأ عند نهاية كل
بيت • انه يطلب بلا شك تصفيق الاستحسان وهؤلاء السامعون أنظروا الى
أي حد قد استعبدتهم المجاملة ، سأريك أي خراف هم : »

قال هذا وصفق ، وعندها ضجت القاعة وراءه بالتصفيق ، واتبعه
البعض من غفلته على صوت التصفيق صارخاً •

— « أعد • أعد • »

واتنفخ الشاعر ، اتنفخا الغر ، وصار يلقي شعره بحماس لا يقل عن حماس قائد يحاول إيقاد نيران ثورة هائلة ، كل ذلك في موضع مدح شخص لم يكن له من الفضل الا أن حاز شهادة من جامعة •

وأعقب هذا آخر ، وكان متأثراً في لباسه العصري ، فخوراً بعويناته ورباط رقبته الجميل ، وبالمنديل الحريري المثل من جيب سترته ، وأراد صاحبنا أن يبرهن للناس على مقدرته في الخطابة فارتجل خطبة رنانة ذكر فيها كل ما خطر في باله من آراء ، وكلما قذفته ذاكرته من عبارات ؛ فجعل المحتفى به نابغة عصره ، وعبقري زمانه ، وحلم بالمشاريع الهائلة التي سيقوم بها ، وبالمناصب العالية التي سيتسنىها ، وبالفراغ الذي سييسده في هذه البلاد ، ثم جلس بين عاصفة من الهتاف والتصفيق • ولمحت أحد المدعوين يقصد صاحب الدعوة ويسر إليه كلاماً ، ورأيت صاحب الدعوة ينهض فيقول:

— « يقترح بعض الاخوان أن يقول السيد فؤاد كلمة في تكريم صديقنا العزيز ، وأنا أضم صوتي الى هذا الاقتراح ، وأرجو من السيد فؤاد ألا يخيب هذا الامل • »

— « من هذا الخبيث الذي اقترح ذلك ، انه يريد أن يفسد الحفلة دون شك • »

ووثب السيد فؤاد ، ولاح لي عندما وقف كأنه مارد بين أقزام ، وأجاب

— « أرجو من صاحب الدعوة أن يعفني اذ ليس لي ميل الى ذلك ، كما اني لم اعد نفسي لمثل هذه المجاملات ، وأخشى أن يستاء البعض من كلامي ••• »

فقاطعه الجميع

— « لا بأس اخطب • بالله اخطب » فأجاب

— « اني انذركم ، وأضع اللوم على عاتقكم فيما لو سمعتم مايسئركم »

ويظهر أن الجميع حسبوه يمزح فآلحوا في الطلب •

وعندها حدث ما لم يكن في الحسبان ؛ فقد انطلق الشاب وكال للحاضرين من عبارات اللوم والتأنيب والسخرية ما جعل البعض يشك بصحة أذنيه ، أو بعقل الخطيب ، ورأيت البعض يضحك جذلاً • أما أنا فقد شعرت بنشوة من السرور لسماعي من يعلن ما جال بخاطري من آراء كنت أعلم اني لا أستطيع خلال هذه الجلسة ابداءها مراعاة للياقة والمجاملة • وهاك ما قال:

— « أيها السادة لا يسعني الا أن أرثي لكم ولنفسي ولصاحب الدعوة •

أما المحتفى به فقد تحمل من الالهات ما يكفي ، وأظهر من الجلد والتسامح ، سواء أكان ذلك عن غباوة أو عن فهم ، ما يحمد عليه • لقد أهانه صاحب الدعوة بكيل المديح له لانه أنهى دراسته ، وكأنه أراد بذلك أن يبين للناس أن الرجل أصغر من أن يستطيع انهاء مثل هذه الدراسة ، وأن نجاحه في الدراسة أعجوبة تستحق كل هذا المدح والثناء • أما الشاعر فقد ركب فوق ظهره ليظهر للناس مقدرته على ترتيب الكلام الموزون ذي الرنين والطنين ، وقد أظهر الشاعر تواضعاً وقناعة باكتفائه بالتصفيق الذي كان القصد منه تنيه النيام لا اظهار الاستحسان ، وعهدي بالشعراء لا يكتفون ثمتا لقريرضهم بأقل من الف دينار ينالونها من خليفة أو أمير ، وأما الخطيب الثالث فقد أساء الى المسكين اساءة لا تغفر فقد تنبأ له بمستقبل باهر واعمال جبارة مما يجعل كل عمل سيقوم به ، او كل مركز سيحتله تافهاً جداً لو قيس بما هو منظر منه ، وبكلمة أخرى وضع امامه وامام مستقبله اكبر عائق ، ونصيحتي الى المحتفى به أن ينظف عقله مما سمع ، ويتغاضى عما وجه اليه من الالهات ، وان يعمل بهدوء ، ويمشي بقدر ما تطاوعه قدماه ، غير متأثر بهذه المجاملات المضرة التي يقصد بها اصحابها اظهار شعورهم نحوه ، والتي تشبه رفقه الحمار عندما يريد ان يداعب صاحبه • »

وكانت عبارات الاستحسان والاستياء تنطير في جو الغرفة ، ورأيت صاحب الدعوة يكاد يغمى عليه من شدة الخجل والارتباك ووقف احد الحاضرين مكفهر الوجه محمر العينين غيظاً وصاح

— « تالله ما كنت اعلم ان قلة الذوق تصل بالانسان الى هذا الحد ، اذ لم تمض فترة وجيزة على ازدياد زاد صاحب الدعوة حتى يقف احدنا ليوجه له مثل هذه الالهانة ، ورأيت البطل يشب حالاً ويقاطعه

— « على رسلك . ان صاحب الدعوة لم يطعمنا لكي ينطقنا بالسخف ارضاءً له ولمدعويه ، ثم اني غير مسؤول عن اغاظتكم فقد أنذرتكم ، ولست ارى من حقك ان تهينني ، واني لا أعرف جواباً لك غير هذا .

وكان ينزع سترته اثناء كلامه ، ويتقدم نحو المتكلم ، حتى اذا ما حاذاه صفعه صفقة رنت لها القاعة ، ووقف بعدها كالأسد يتحدث من تحدته نفسه بمهاجمته . وقام بعض المدعويين ليحولوا بينه وبين خصمه ، واعتقد ان المصفوع لابد ان يكون شاكراً صنيعهم لانهم منعه من الاقتراب من خصمه ، حينما كان يتظاهر بمحاولة رد الالهانة ، فساعدوه بذلك على ان يظهر بظهور المهتد المتواعد الذي لا حيلة له في التنفيذ ، اما فؤاد فقد ارتدى سترته بكل برود وهذوء ، ثم سلم على صاحب الدعوة ، وقصد الباب .

وادركته في الطريق وعندما لمست ذراعه شمعت كأن قضباناً هائلة من الفولاذ المبروم تتحرك تحت اصابعي ، ورأيتة يلتفت نحوي مستفهماً ففاجأته بقولي

— اسمع ايها السيد فؤاد . اني معجب بك جداً . ويسرني ان تكون صديقي ، فهل تقبل ذلك ؟
فأجاب مقهقها

— « يسرني ان ترى في غير ما يرى هؤلاء الحمقى ، ومن دواعي غبطني ان ارى رجلاً واحداً يفهمني من بين هؤلاء الذين تسيطر بطونهم على

عقولهم ، وتعجبي طريقتك هذه في التحدث الى الذين لا تعرفهم • اذن فنحن متفقان ، وهاك يدي عربوناً لهذه الصداقة • »

وتصافحنا ، واطلقنا نسير سوية نضحك وتحدث ، وقد شعرت اثناء حديثنا كأني قرب انسان ألفتة وعرفته منذ زمن بعيد ، وقد علمت بعد ان مر على تعارفنا بضعة اسابيع ان جميع اصدقائه المعجيين به كانوا قد رأوا فيه ، عند اول التقائهم به ، ما رأيت ، وارتبطت به برابطة تختلف كثيراً عن رابطة الصداقة بمفهومها الاعتيادي ؛ فلم تتبادل قط عبارات المجاملة الكاذبة عند اللقاء ، ولم يحاول ان يخدعني او اخدعه ، ولم يطلب يوماً مني تضحية كذلك التي يطلبها الاصدقاء ؛ فلم يطلب مني مثلاً ان اخون واجبي ارضاء لخطره ، ولم يحتكر اوقاتي ، او يتحكم بصلاتي ، ولم يسمح لي ان افعل ذلك معه ايضاً • وكنت كلما زدت اختلاطاً به زدت تقديراً له ، واعجاباً بزياده النادرة • وقد عشقت منه غرابة اطواره ، وترفعه عن كل امر اعتيادي ، وصراحته المدهشة ، وفكره الذي لا يخضع لتأثير او قيد •

ولو سألني سائل اين اجتمع به ؟ واين اعثر عليه ؟ وكيف تقضي اوقاتنا سوية ؟ لما استطعت ان أجيبه على ذلك ؛ فنحن لا نتفق على موعد ، ولكني اجده في وقت الحاجة اليه في اغلب الاحيان ، في تلك المحلات التي تمتاز ببساطتها وجمالها الطبيعي ، اذ تسهوي المناظر الطبيعية الجميلة صديقي هذا ، وتجذبه اليها فتراه يلقي دائماً نفسه في احضان الطبيعة وكأنها أمه الحنون •

ضقت ذرعاً بالمنزل مرة ، وناداني صوت الليل ، واستهواني ضوء القمر المنسكب على الارض ، وبعث فيّ نسيم المساء العليل تشاطاً لم ادر كيف اصرفه ؛ فلم اشعر بنفسي الا وانا أيمم شطر دجلة نائها في احلام شعرية قد أفضلها على اجمل ما في الحياة ، ولما اقتربت من الشاطيء سقط نظري على شبح قد جلس على حافة قارب قرب من الشاطيء ، يتأرجح فوق سطح الماء قد خفف من ثيابه ودلى قدميه العاريتين في الماء وامامه زجاجة شراب

قد وضعها على حافة القارب ، وتبيته فاذا به صديقي ، ولم يكذب ليمني حتى
هتف بي مرجحاً فقزت الى القارب وشاركته أنسه ومجلسه •

ورأيت على وجهه الاسمر الجميل كل امارات السرور والانسراح
والهدوء ، وكانت ذراعاها القويتان تبرزان من اكمامه القصيرة بعزلاتها
المفتولة ، اما جسده القوي البديع التركيب فكان يزهو في ابهى حلل الصحة
والنشاط ، وتمطى متكاسلاً ، ثم نظر الى وقال :

— « حسنا ايها الفتى يلوح لي بأنك تحمل الدنيا على كتفك » •

— « ولماذا لا • هل تعتقد ان في هذه الحياة المملة البائسة ما يبعث

السرور الى النفس ؟ »

— « رحماك يا ربي • يخيل لمن يسمعك تنفوه بمثل هذه العبارة بأنك

ستنتحر بعد زمن قليل ، وخير لامثالك السوداويين ان يذهبوا الى سقر • »

— « ولكن الا تعذرنى ؟ ان هذه القيود الاجتماعية الثقيلة ترهقني

وتبعث في نفسي النور من الحياة ، والكراهة لها •

« ومن قيئك بها وأمرك باتباعها ؟ »

— « لا احد ، ولكني مضطر الى ملاحظتها كيما استطيع المعيشة بين

الناس • »

— يا له من منطق مفلوج ، فأنت اذن تقيد نفسك بقيد لا تحبه ،

وتضع نفسك في سجن تكرهه ، لتحصل على نتيجة تبغضها ••• واهاً لك

يا فتى ••• انك لفيلسوف فظيع » وانهى كلامه بضحكة رنانة حلوة ردها

الصدى بصورة تجعل السامع يشك بأن الطبيعة تضحك معه • واغاضني

استهتاره بعواظي فأجيبته غاضباً

— « خذ الامر بصورة جدية من فضلك ، فلو كنت مثلك قليل الاهتمام

بكل شيء لاضعت مستقبلي ، ولبقيت في مركز حقير لا أعبط عليه ، ان

المجاعة ، ومدارة الناس وفهم المجتمع ، والانعام في تياره احسن طرق

النجاح والرقى • »

فأجاب ساخراً

— « واحسن طريق للذهاب الى مستشفى المجانين • يا عزيزي خير لك ان تضع نصب عينيك امرين ؛ فاما صحتك وراحتك وسلامة عقلك وصفاء نفسك ، بمعيشة بسيطة متواضعة ، واما مركز كبير ، بنفس مريضة ، وعقل منهوك ، وأفكار سوداوية ، وجسم عليل ؛ فاختر ايهما شئت • ان ضغط الانسان على مشاعره وكبت مواهبه ، واجبار نفسه على سلوك طريق غير تلك التي هيأتها له الطبيعة هو عبارة عن تسميم العواطف والمشاعر • وعلى كل فما هي اهمية هذه المراكز المتفاوتة ؟ انها اجلى مظاهر حب التفوق والرفعة والتغلب ، وليت هذا الانسان الذي ورث هذه الطبيعة الوحشية عن اسلافه استعمل للوصول اليها طرقا سليمة مألوفة او اعتيادية • انه يلجأ في معظم الاحيان الى طرق دنيئة اكسبته اياها المدنية المعقدة • ولو بقي الامر مقتصرأ على الكفاح والصراع البدني الذي كان يلجأ اليه الانسان القديم لكان الامر اولى ، لان هذه الطرق ، مع بساطتها قصيرة ذات نتيجة حاسمة ، لاتتطلب جهدأ نفسيا ولا اساليب منحطة واطئة • وليت شعري لماذا يجب الانسان دائما ان يكون اعلى من غيره مع علمه بأن هذا الحرص والطمع سيقتله يوما • انني لا اجد لذة بأن اكون احسن من غيري وارفع قدراً ، واستسخر هذه العظمة الفارغة التي يعبدها الناس ، انها تقيدني وانا اكره القيود ، كما اني لا احسد من هم ارفع مني مقاما ، ولا احبهم ولا اكرهم ، ولا يستطيع احدهم ان يغير مجرى حياتي الطبيعي لاني لا أحاول ان اسلبهم العا بهم الصبائية • وانا اقوم بعملتي بكل جد لكي آكل واعي ش ، بهذه الطريقة التي تراها ، واذا حاول احد الناس ان يتعدى على حقوقي فاني لا استعمل معه غير قوتي البدنية ، فاضربه هكذا (واتبع كلامه بلكمة قوية وجهها الى القارب فخلخل جزءاً منه) فاذا تغلبت عليه تركته على صفاء ، واذا لم استطع ان اقهره هربت من وجهه • »

وانهى كلامه بضحكة من ضحكاته المرحية التي تبعث السرور الى النفس ... واجبته بعد وجوم

— « يا صديقي انك كتلة شذوذ ، وارى والله ان هذا الشذوذ يحبك الي . »

فربت على كفتي ملاطفا واجاب

— « لان فيك استعداداً لسماع الحق وفهم المنطق المعقول » وحرك النسيم وجه الماء فرقصت اشعة القمر عليه ، وكونت خيالات جميلة تبعث في النفس السلام والهدوء .

وبقينا تسامر حتى انتهت الزجاجة ، وعند ذلك وثب من مجلسه وفاجأني قائلاً :

— « سأفارقك لان لدي موعداً قد كدت انساه » .

فودعته بقولي

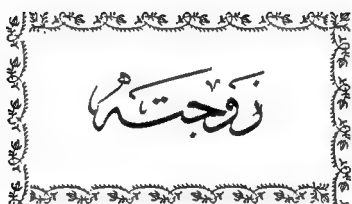
— « وداعاً الى الملتقى . وبما اني عزمت على ان اجعل منك طبييباً لنفسي فأرجو ان تحدد موعداً للقاء . »

فنظر الي باسما واجاب

— « لا اجد حاجة الى ذلك . فستجديني في وقت الحاجة الي » .

فلم أجه بغير الضحك وبقي الصدى يردد صوت قهقهتنا حتى تلاشي مع خياله المتباعد .

وعدت الى المنزل وضحكات صديقي البريئة اللذيذة تتردد في أذني كأنها الموسيقى المهدئة .



يمتاز شارع ابي ثؤاس الممتد على شاطيء دجلة بين « الباب الشرقي » و « الكرادة » بهوائه النقي ، ومناظره الطبيعية البديعة • فاشجار النخيل الباسقات التي ترسم ظلالها على صفحة النهر ، والقصور الجسيلة المتناثرة هنا وهناك ، ترصع خضرة غابات النخيل بالوانها البيضاء النقية ، كل ذلك يعطي هذه المناظر رونقا سحريا رائعا •

كان الوقت قبيل الغروب ، وكنت اتمشى معه (واعني صديقي طبعاً) على هذا الرصيف نملأ رثينا بهواء النهر النقي الليل ، ولم نكد نسير بضع خطوات ، حتى رأيت قد سمر في محله ، واخذ يضغط على ذراعي بقوة حتى كاد يحطمها • فأمضني الالم وصرخت به (ما بالك) فأجابني وهو ساهم

— « الا انظر... انه اجمل منظر شاهدته في حياتي... انظر قرص ذكاء وقد اختفى نصفه وراء النخيل وبرز القسم الثاني مجللاً بالغيوم الخفيفة ! » • وقد كان المنظر ساحراً حقاً ، فقد بدت الغيوم القليلة المنتشرة في الفضاء مصبوغة بلون الدماء القانية • وكانت صفحة النهر الهاديء كالمرآة تعكس هذا المنظر بتفاصيله ، فكان المجموع لوحة فنية رائعة لا يستطيع اي فنان مهما نبغ ان يأتي بمثلها •

وبقي ساهما واجما حتى اختفت الشمس وراء الافق ، وعندها اهاب بي قائلاً

— « لقد انتهيت من تقديم صلاتي الى الكوكب العظيم فهيا بنا تابع المسير • »

ولم نكد نسير بضع خطوات حتى لمحنا عن بعد فتاة ناعسة الطرف ، زرقاء العينين ، حلوة التقاطيع ، قد ارتسمت على وجهها صورة تمثل الرقة والانوثة بأجلى مظاهرها •

واخذت تقترب منا ، وكانت تسدد لحاظها نحو رفيقي بصورة غريبة

تثير الفضول ، ولم يكذب يلصقها حتى خاطبها بدون تحية ، وكنا قد وصلنا اليها .

— « حسنا يا فتاتي هل عثرت على زوج جديد ؟ »
وابتسمت في وجهه قليلا ثم عبست وتجهمت وبدت في عيناها امارات الالم واجابت

— « وما لك ولي ايها السخيف ؟ انك تضايقتني دائما بأستلك الباردة ، ووقاحتك التي ليس لها حد » .

— « الم اكن اذن هذا يؤلمك ، وعلى كل فاني ارجو لك حياة هنيئة » .
وابتعدنا عن الفتاة وانا باهت لاني لا اعلم نوع علاقته بها .
ولم اتمالك ان سألت

— « من هي ؟ »

— « انها زوجتي ! »

وصعقت لاني ما كنت ادري بأن لهذا المخلوق الغريب زوجة ، ولميري ان هذا لم يكن قريبا من ذهني ، ولم استطع ان اتصوره .

وما ان رأى حيرتي حتى فاجأني بأسلوبه الساخر قائلا

— « يخيّل لمن يراك بأنك قد سمعت خبر اندثار العالم فجأة » .

— « زوجتك !... زوجتك !... »

ولم استطع ان امنع نفسي من الضحك .

فأجابني مختدأ

— « انك لا تصدق كلامي ايها البليد . ان احاديثي تظهر لك كلالاحاجي

والمعميات ، وما دام الامر كذلك فاصنع الي لاحدثك بقصة تلذ لك :

التقيت بها لأول مرة في مساء يوم ضاحك وكانت تسير الهونا على هذا الرصيف غارقة في حلم غريب ، ومررت بها فخيّل الي ان عينيها تحدثني

بأسرار الملكوت الاعلى ، وقد كانت كل حركة من حركاتها تدعو الى الحب •
لقد كانت ظمأى ترسل عينها بريقاً يدل على اقصى درجات يقظة العاطفة •

وخطر لي ان أسامرها ملياً ، ولكن كبرياءها اوقفتني عند حدي ، ومع كل ذلك فقد غامرت وحييتها فابتسمت وردت تحيتي خجلة واعقب التحية سلام وكلام • واستلمت منها بعد يومين رسالة تدعوني بها الى منزلها ، وتصرح لي بدون خجل بأنني قد اعجبته ، فأسرعت اليها طائراً •

وكانت ليلة لم احلم بمثلها • لقد وجدتها جالسة في غرفتها الانيقة تدخن وقد بهمت • اما عينها فقد كانتا تبدوان وكأن الفتاة ترى حلماً لذيقاً ، ودعيتني الى الجلوس بجانبها بدون كلفة او تصنع ، فأدركت فوراً بانها فتاة غير اعتيادية ، من ذلك النوع الذي يلبي نداء الطبيعة حينما تهيب بأبنائها غير ملتقاة الى اي اعتبار •

وقد اعجبني ذوقها والله ، فقد لاحظت نفسها بجو مسكر ، وقد كان اثنائها مع بساطته انيقاً مرتباً ، وصورها التي زانت بها جدران الغرفة جميلة تدل على ذوق سليم ، وادارت الحاكي فانبعثت منه انغام هادئة لم تلبث ان ملأت الغرفة سحراً وشعراً ، وتماوجت انغام التانجو في جو الغرفة تبعث في النفس احلاماً ، وترسل الى الاعصاب رعشة الحب • وحدثت بعينيها الحاليتين وهي تنفث الدخان من فيها فتحدث سحراً تدور وتلتف ، فتوج رأسها الصغير ، وتغشي وجهها بنقاب شفاف ساحر • وخاطبتني بلهجة هادئة وقد كانت ترتجف وتلجلج

— « هل انت خائف ؟ »

ولم اكن خائفاً طبعاً • لقد كنت اشعر بجسمها يلتهب بجانبني ورنث في أذني اجراس الحب ، وكانت افروديت المعلقة على الحائط تبسم في اطارها الذهبي مشجعة محرصة •

— « وماذا بعد ذلك ايها الثرثار ؟ »

— « ماذا بعد ذلك ، يا لك من بليد • لقد قدمنا فروض الاجلال الى الهة الحب !! »

— « الى الجحيم انت وفتاتك هذه انها تستحق كل الاحتقار » •
فضحك واجاب :

— « بل تستحق كل اعجاب وتقدير • انها تحب للحب نفسه ولا تشوه جلال العاطفة المتقدة بالاغراض الدنيوية السخيفة • انها تعرف قيمة الحب ، وتضحي في سبيله بأعز شيء لديها » •

وصمت بعد ذلك وقد بدت على وجهه صورة من يحلم بذكريات لذينة
عزيزة •

وسأله

— « ولكن كيف تزوجتها ، وعهدي بك تضحك من الزواج والمتزوجين ؟ » •

فأجابني ساخراً

— « لقد تزوجتها في ساعة مرض ! »

— « وماذا تعني بذلك ؟ »

— « اعني ان حمى الشرف قد اتنابتني حينما رأيته على وشك ان تحطم نفسه • اذ قد ثار عليها الجميع • اهلها واصدقاؤها ومعارفها والاقربون اليها ، فارتبطت بها وفاء ، واعتراها بفضلها لانها كرسَتْ لي من حياتها ساعة ارتني فيها صورة جميلة من صور الحياة » •

— « ولكنني لا أصدق كل هذرك • لقد رأيته فتاة مسكينة خجولة وليست من ذلك النوع الشاذ • انها ليست من نوعك على الاقل » •

فسكت مليا وبعد ان تنهد اجاب

— « ما تقول هو الحقيقة ، ولكنني اطلعت على ذلك بعد فوات الوقت

ويا للأسف • اذ علمت انها قد تلقت ، لاصطيادي ، درسا عن أستاذ ماهر » •

— « لم افهم قصدك تماما ؛ فهل في الامر خدعة ؟ »

— « اجل يا عزيزي ، وقد علمت ذلك منها بعد مرور شهر على زواجنا ، اي في الوقت الذي تذهب السكره وتأتي الفكرة • اذ انطأ العاطفة الملتهبة وخلفت وراءها رمادا باردا يزهق النفس ويقتل الروح ، وانت تعلم اني لا استطيع اخفاء ما اكنه ، وما اشعر به • فلما رأيت برودي غلت مراجل غيظها ، وثارت كبريائها ، واعلنت بكل هزء واحتقار كل آرائها في شخصي وعقلي واخلاقي واطواري ، واعترفت بأنني آخر انسان كان يخطر على بالها ان تميل اليه ، ولولا رهان عقده مع صديقة عزيزة عليها لما رأيت وجهي • وموضوع هذا الرهان ان تدفع صديقتها مبلغا ضخما اذا استطاعت ان تجعلني التفت اليها او أحبها ؛ فأقسمت هي بدورها ان تجعلني اتزوجها ، وهكذا تم •

ويظهر لك من هذا ان الصديقة كانت قد استقصت اخباري واطلعت على كثير من آرائي فتحدثت هذه المسكينة ، وحرضتها على مهاجمتي ، واتخذت من غرورها واعتزازها بجمالها وكثرة محبيها ما يدفعها الى هذه المغامرة حتى اسقطتها في هذا المأزق » •

— « وما كان جوابك لها عند ذلك ؟ »

— « جوابي ؟ لقد صحت فرحا ، واعلنت لها بانها فتاة مدهشة ، واني احمد الله لاني لم اخسر ، ولم اجعلها تخسر شيئا ؛ فقد ربحت هي الرهان ، وربحت انا سويعات جميلة قضيتها بصحبتها ، وبما ان كل شيء قد تم ، فليس لنا الا ان نفترق ، ويذهب كل منا في حال سبيله • ولما رأيت رنه الاصرار في لهجتي انقلبت تبكي وتئن وتضرع ، وتعلن بانها اتت لتصطاد فاصطيدت ، وانها الآن تعبدني ، ولكنني سددت أذني ، اذ لم ار حيلة في البقاء معها ؛ فقد سئمتها • وقد آلمني والله ألا استطيع مساعدتها • وكيف يمكن ان اجعل نفسي عبدا لعاطفة الرئاء والشفقة ، مع علمي بأنني لو فعلت لاضحت شفتي عليها ، بعد ذلك ، نقمة وعذابا •

هكذا ودعتها فمضت في حال سبيلها وكأنها حلم ليلة من ليالي الصيف
الرائقة » •

— « أيها القاسي لابد ان تكون قد حطمت قلبها وأذقتها عذابا أليما
برودك وشذوذك » •

— « ذلك ذنبها • لقد كذبت على آلهة الحب ، وقدمت لها صلاة كاذبة
غير صادرة عن ايمان عميق ، فحققت عليها نقمتهما » •

— « لقد شوقتني الى رؤية هذه المسكينة ، واكون شاكرا صنيعة لو
ساعدتني على ذلك » •

— « اذا كنت راغبا في رؤيتها حقا ففي استطاعتي أن أساعدك ، وذلك
بان أجعلك وكلاء عني لانهاء بعض الامور الشكلية والقضائية التي تتعلق
بالطلاق ، وسأرسلك للاتفاق معها على طريقة حلها ، ولكن حذار منها ومن
فتنتها أيها الفتى ، فهي لمعوب ذات فتنة وسحر ، وأخشى أن تتخذ منك خليفتي •
تالله أن المرء ليحترق في أمر تلكم الفتيات ، ويعجب من اين يتعلمن كل هذه
الاحايل والمصائد ، مع أنهن لا يعرفن غير مثيلاتهن أساتذة يتلقين عليهن
فنون الحب » •

— « كفى بالله قساوة وهات رسالتك » •

وفي اليوم الثاني قصدتها ، ولم أكد آخذ مجلسي عندها حتى وجدتها
محطمة النفس ، مكسورة القلب ، فسألتها عن سبب ارتباطها به فاجابت
بحزن

— « لقد أحببته ولكنه مجنون ... اي نعم انه مجنون لانه يبدو
بمظاهر لا أفهمها • انه يرعيني باطواره الغريبة ، وأفكاره الشاذة • انه
شخص غير عادي ، ولا بد أن يكون مجنونا » •

فاجبتها مشفقا

— « انه شاذ كما تقولين ، ولكنه ليس بمجنون • انه عنصر من عناصر

الطبيعة التي لا يمكن ان يقف حائل بينها وبين ما تريد أن تكون • خبرني هل تستطيعين حبس العاطفة حينما تثور وتزمرجر ؟ وهل تستطيعين إيقاف السيل العرم ، أو تحويل القمر عن فلكه ؟ اذا استطعت كل ذلك تمكنت من تحويل هذا المخلوق الى الصورة التي تحبينها • ان فتاة ضعيفة ساذجة مثلك لتتحطم على هذا الجلمود وتندثر • وعلى كل فليس له ذنب في الامر لانك أنت التي تعرضت له ووضعت نفسك في طريقه » •

وعندها رأيت امارات الحزن تختفي من محياها ، وتحل محلها امارات الكبرياء والغرور ، ثم قالت متبجحة

— « ومن هو ؟ ان هو الا موظف صغير • لقد خطب ودي من هم أعظم منه قدرا ، وأجمل وجها ، وأشرف نسباً ، وتراموا تحت قدمي ، ولكني رفضتهم ، ولا أدري باي سحر ربطني حتى جعلني أترامى تحت قدميه ، وأتولّه به ، وقد عشقني في أول الامر عشقاً مبرحاً ، ولكنه مجنون » •

فاجبتها

— « هكذا المرأة دائماً تحتقر من يعبدها ، وتسقط تحت قدمي القوة والجبروت صريعة والهة • لقد أعجبتك منه قوته ورجولته وصراحته واعتداده بنفسه ، فاجبته ، وأطلقت نفسك وراءه على سجيته فاثرت عليه بطبيعتك المتقدة ، التي ثارت زماً قصيراً ، وكانت غير مكلفة ، أو مربوطة بقيد ، انك لا تستطيعين أن تحافظي عليها • ان تربيتك لا تساعدك على ذلك ، انك لا تستطيعين أن تفهميه ، ولا أنا ، وما هذه المظاهر الغريبة التي تبدو عليه سوى نتائج مخيلته القوية التي لا تقاُ تعمل وتعرض صوراً شتى مرسومة بريشة خياله الواسع • ومن الغريب أنه يتأثر بما يخلقه ، لانه لا يستطيع الظهور بغير مظهره الحقيقي ، وبعد البعض ذلك تقصاً ، وبعد الاخرون كمالاً ، وعلى كل فخير لك أن تنسيه » •

وتركتها مغروقة العين ، ذابلة الوجه ، حزينة كئيبة تذوب وجدا كتمثال من الثلج قد تسلطت عليه أشعة الشمس المحرقة •



نَشِيدُ النِّسَاءِ

— « سيكون هنا بعد نصف ساعة فقط » .

— « اراك متلهفة لرؤيته ، تواقا الى ضماته القوية !

فوضعت وجهها بين راحتيها واسندت مرفقيها الى المنضدة ، وكانت تحمق في وجهي بعينين شاردتين وهي تنفث كمية كبيرة من الدخان غشيني كالسحاب ، ثم نصبت قامتها الرشيقة على الكرسي ، ورفعت قدح الجعة لتفرغ نصف ما فيه في جوفها ثم تقول

— « ما أخطأ من يقول انك تقرأ اسرار القلوب مما يبدو على الوجوه ، او في العيون . ولكن هل في استطاعتك مهما أوتيت من مهارة ان تقدر قيمة ما احمله له بين جوانحي ؟

— « اخشى ان الغيرة تدفعني الى الشك في الواقع او المغالاة فيه !

— « هل اعد ذلك اعترافا منك بحبك لي » ؟

— « لك ذلك على شرط ألا تخلطي بين حبي وحب الآخرين . ان حبي من طراز قد لا يخطر على بالك ! لاني أحبه هو ايضا .! انه صديقي ايها الفتاة . لقد قضينا عهد الشباب معا ، ودرسنا في مدرسة واحدة ، وأنا الذي زينت له ان يكون جنديا . وحببت اليه الانخراط في سلك الطيران . فقد رأيت ولوعا بالمخاطر مقبلا على الرياضة البدنية ، شغوبا بها . وكان البطل فينا بقوته البدنية ، ونشاطه في الالعاب ، وكنا ننظر الى جسمه المتناسب الاجزاء بعين الغيرة والحسد ، وها هو بين الرجاى نموذج لكمال الرجولة وجمال الاجسام » .

— « يدهشني ان ارى رجلا لا يفار ! انك تكيل له المديح بحماس وانت تعلم شدة شغفي به !

— « يفار صفار الاحلام . ولم أغر ، وأنا أعلم انك لست لواحد منا

وليس في مقدور انسان ان يستحوذ عليك ، ويجعل منك ملكا خاصا ،
وعدة مطواعة ؟ ولو قدر وخلق الله من له هذه المقدرة لافقدك نضارتك ،
واذهب عنك هذه الطبيعة التي تجعل منك بهجة الانظار وزينة المجالس • ايتها
الفراشة التي لا تستقر على زهرة عندما تجمع الرحيق ، ممن اغار ؟ • أغار
منه ؟ واهأ لك ! ومن أنبأك بأني لا اعجب به كما اعجب بك ! اني فنان ايتها
السيدة بعجبي ما على وجهك من فتنة وجمال ، كما يعجبي ما يبدو عليه
من امارات الرجولة والعظمة التي تتجسم في احتقار الذات • انني اتمثل
في وجهه الاسمر المشدود ، وشعره الاسود الفاحم ، والواحه العريضة القوية ،
وعضلاته الفولاذية اكبر آيات الفن ، وما اجمل منظرك لو وضعت رأسك
الصغير الاشر فوق صدره العريض اذا لكتما تمثالا حيا للرجولة والانوثة
معا منحوتا بيد الفنان الاعظم ••• »

وسكت عندما طرق أذني صوت همهمة وازيز كان يزداد وضوحا ،
ويملا الجو ، ويكدر صفو السكون • وهتفت متلهفة

— « انها طائرته » !

— « وهل بلغ الوله بك ان تميزي حتى صوت طائرته انني مغرم
بالواقع ايتها الحناء لا تلذني هذه المبالغات ! »

— « فلنتراهن ! »

— « سأعطيك الرهان مقدما اذ ان هذا وقت وصوله » •

ورأيتها عصبية المزاج قلقة في تلك اللحظة ، تثتح عينها دائما لتتظر
للاشيء فألتهها

— « هل تتصورين امرا » ؟

فأجابت

— « اني اتخيله في طيارته جالسا وراء سكرانه وقد عقد ما بين حاجبيه ،

وانكب على المحرك يدفع به ليتصرف بسره العظيم في مهاب الريح كيف
يشاء • ما اجمله في وضعه هذا وما اباه • لا تحدث بعيني انظر معي الى
السما وراقبه وطارته » 1

— « انظري أنت الى السماء • وسأنظر انا الى ظلها في عينيك ، فهما
قطعة صغيرة من السماء ايضا ، وهاك طائرتك تحوم في اطراف هذه المرأة
الجميلة التي تعكس ظل السماء بما يحوم فيها بكل امانة واخلاص » •
— « اعجب ان اراك رائع البيان تلتهب حماسا ان كلامك عنه يلذني
فهاك الجزاء » !

ولت شفتيها العندميتين ، ومدتهما قليلا الى الامام فهفت بها
— « ألا احفظيها له بحق السماء فيكون في أشد الحاجة اليها بعد
قدومه من هذه السفرة الشاقة ، ستعيد له ، هذه الخمرة التي سيثربها بهذا
الكأس البلوري ذي الحافتين العقيقتين البطن بالارجوان ، نشاطه ، وترجع
له قواه المطلوبة » •

ولم اكد انهي عبارتي حتى سمعت بجانبني خفق حذاء ثقيل ، فالتفت
لاراه بجانبنا واقفا وقفة استعداد ، وهو يؤدي التحية العسكرية ووجهه
ضاحك مستبشر ، وعيناه تفيضان جذلا وجورا ، ثم تقدم فأمسك بأذني
وأذنهما كلا بيد ، وحركهما وهو يقهقه ويقول :

— « اذن فقد انتهزتما فرصة غيابي لتسبعا مغازلة ايها الشقيان » ؟
فأجبتة :—

— « لا عليك يا صاحبي لقد كان غزلنا هذا صلاة حارة نرسلها لك
وانت في سماء المعركة ••• ألا اجلس وقص علينا ما شعرت به وانت ترمي
الموت من طائرتك • فرفع كرسيا ضخما بيد واحدة كما يرفع ريشة ، ووضعها
بجانب المنضدة ، وبعد ان نزع سترته الخاكية ، ونشرها على ظهر المقعد القى

بكل جسمه على الكرسي مرة واحدة وقال «

— « اسقياني شيئاً مما تشربان أولاً ... » •

فأسرعت هي بفتح قنينة من الجعة ، وافرغتها في الكأس الضخم الذي كان ينتظر قدومه ، بكل رشاقة ومهارة • ورأيته يلحظها اثناء قيامها بهذه المهمة بعينين تبرقان حماسة وعظفا ، وما فرغت حتى تناولها بيد واحدة ، كما يتناول طفلة صغيرة ، فاجلسها على ركبته ، ولاحظت وجنتي هذه الفتاة ، لأول مرة في حياتي تصطبغان بحجرة الضجل ؟ هذه الفتاة التي تفهم الحب كما تفهم الاكل والشرب ، وتقدره كما تقدر الحلى والجواهر ، وتحتفظ بعاطفتها نحو انسان واحد ، بقدر ما تحتفظ بثوب !

ورأيت الخبيثة تمرغ رأسها على صدره الواسع ، وتتطلع نحوي وهي تبسم بخبث • وشرع هو يحدثنا بصوته القوي :-

— « صدر الامر الينا قبل يومين بالسفر لضرب العدو ، ومعنى ذلك امتطاء الطائرة المحملة بالقنابل لصبها على رؤوس أعداء القانون والنظام ، وما على الجندي الا أن يطيع •

ورفعت الحساء عينيها فسألته

— « أي شعور يختلج في نفسك يا ترى وانت في اعالي الجو تحمل

الموت الزؤام » •

— « لست خطيبا لاستطيع شرح ذلك لك ببلغة ، وكل ما استطيع ان اقله هو اني لا اكاد أصبح في السماء حتى اشعر بعظمة وقوة هائلتين ليس لهما من مثل • اني اشعر في تلك اللحظة بأني اكثر من انسان • وينعدم كل اثر للخوف من نفسي حينما اشعر بأني فوق النسر العظيم الخفيف الحركة الذي لا ييزه طائر في خفته وسرعته • وعندما استنشق هواء السماء النقي الذي لم تلوثه أأنفاس البشر ، أشعر بمائل ناري يجري في عروقي بدل الدماء ، ويضرب

قلبي بقوة وعظمة كأنه يدق طبل الحرب ، وتصفر الرياح حوالي وكأنها تنشد
 أناشيد الظفر والنصر . وليس هذا كل ما اشعر به ، اذ اني اشعر ايضا بمزيج من
 العواطف بعضها ظاهر جلي ، وبعضها قد طمس ؛ فلا اتبين منه غير الاثر ، وقد
 اشعر بأني فوق بساط سليمان ، وقد اصبح كل ما في العالم من جان وشياطين
 طوع اشارتي . فحركة بسيطة يهبط النسر نحو الارض حتى ارى الاعداء
 كالنمل تحت قدمي مارد جبار ، وبضغطة على زر تمطر السماء احوالا على
 الارض ، وتدوي القنابل فوق البسيطة المرتعدة ، وتثير عند مسقطها عاصفة
 هوجاء من الاثربة والاشلاء والشظايا المجنونة التي تمرق في كل جانب فلا
 تبقي ولا تذر ، ثم يرفع النسر رأسه صاعدا في السماء يمطر رصاصا من ذنبه
 على الاعداء . ثم يعيد الكرة فيستفتحهم بمطر من الرصاص من مقدمته يعقبها
 بصواعق مدمرة . ولا اكاد ارى ما بحوزتي من القوى الهائلة حتى يتملكني
 غرور فظيع خطر ، واشعر برغبة حادة بالنزول فوق هؤلاء الاعداء لسحقهم
 بمخالب نسري ، ولا يردني عن ذلك غير الرصاص المتطاير حوالي يصيب
 بعضه جسم طائرتي ، ويذهب الكثير منه عبثا في الفضاء ، وعندها ينتقم النسر
 لكرامته ، فيصب عليهم الرعب والهول » .

وكانت حواء تنظر اليه نظر المخلوق الى إله اذ ليس في العالم ما يأسر
 قلب المرأة اكثر من مظاهر الرجولة والبطولة والعظمة ، وها هي قد وجدت
 أمامها بطولة خارقة في شخص هذا الذي يلعب مع الموت لعبة الند للند .

وسألته انا بدوري :

— « ألا خبرني بحق طائرتك كيف انت والموت ؟ »

فأجابني بعد تفكير

— « يا صديقي ، قد يخاف الموت من كان بعيدا عنه لم يذق طعمه ،
 ولم يلحظه بعينه ، كما يصعق من سمع بأخبار الاسد ولم يره ، حينما يشاهده
 متحنزا للوثوب ، اما نحن فقد ألفنا هذا الوحش الذي تسمونه الموت ، والقنا ،

فنحن معه اصدقاء فلعب ونمزح ، وكثيرا ما تخضعه كما يخضع المدرب .
الاسد ، ويجعله يفرق عند سماع قرعة السوط ، ولكننا رغم ذلك قد نصاب
بأذى من هذا اللعب ، وقد يقتلنا هذا الوحش ، وكل شيء يجري بمقدور » •

وشمر عن ساعده في هذه اللحظة فرأيناه مضمدا ، وقال :

— « هالك اثر رصاصة مستتي مسا ، ولو اخطأت محلها هذا بشبر .

واحد لما قدر لي الرجوع » •

وتناولت الحسناء الذراع الجريحة ، وقبلتها باعزاز وتقديس وقالت .

ضارعة

— « تجنب مواطن الخطر • عدني بأن لا تخاطر بنفسك » !

— « وما فائدة هذا الوعد ما دمت انسى كل شيء حتى نفسي في تلك

الساعة التي يهدر فيها في عروقي ، ويملا رأسي • » وتناول كأسه فأفرغ
ما بقي فيه في جوفه مرة واحدة وقال

— « لم يبق لي غير ربع ساعة للعب الشوط الاخير مع ملاك الموت في

هذا اليوم • »

وانبع كلامه بضحكة عريضة ملأت المقصف الصغير بصخبها •

وعندما مر بطائرته قريبا منا رفع يده مسلما فوقنا معا وأدينا تحية

عسكرية • ولم نعلم انه وداع الى الابد •

✱ ★ ✱

بعد يومين تماما رأيت على وجه أخي الكبير صورة من يحمل نبأ

هاما ، وعندما سألني (هل قرأت الصحف ؟) شعرت برعدة تسري في

مفاصلي • ولكنني أجبت

— « وهل تعرفني مولعا بقراءتها ؟

— « اذا لم يصلك نبأ صديقك ؟ »

وأدركت النبأ قبل أن يخبرني به ، فجمدت ، ووقفت فاظرا في وجهه
مبهوتا وهو يقص علي خبر مصرعه • ولم أحر جوابا ، ولم يفهم هذه الظاهرة
فتركني وهو يقول

— « كنت أحسبك تهتم به كثيرا ! »

وانطلقت مسرعا الى المقصف ، فرأيتها جالسة أمام منضدة بقرب الباب
ولمحت في عينيها اثر احمرار •

ونظرت في وجهها ، ونظرت في وجهي ، ولم أقل لها

— « كنت أحسبك تهتمين به كثيرا ! »

ولم تقل لي :

— « كنت أحسبك تهتم به كثيرا ! »

وبعد نصف ساعة قضيناها في سكوت فظيع قلت

— « سيصبح جثمانه باحتفال مهيب فقد مات ميتة الابطال » •

— « لست بحاجة لان أسالك (وهل ستذهب ؟) »

— « واذا ذهبت فماذا سأرى ؟ • اني لا أحتمل أن أراه محمولا •

اني انكره ولا أعرفه عند ذاك ، اني اكره أن يحيط به هؤلاء المنافقون الذين
سيتصنع اكثرهم الحزن لانه واجب في مثل هذا الموقف • أخشى أن أسلك
سلوكا يفسد الحفلة ويغيظ المشيعين •

— « اشرب شيئا فأنت ترتجف » •

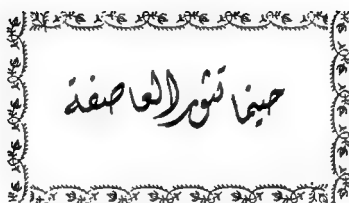
وطلبت الخادم بصوت راعد

— « ثلاث زجاجات من الجعة وكأسين ولا تنس قهقه الكبير ! »

وأنى الخادم ونظرنا اليه ونظر الينا ، ولم نقل بعضنا لبعض

— « كنت أظنك تهتم به كثيرا ؟ »

وصب الجعة في الكؤوس الثلاثة ، ورأيت عينيّه غارقتين بالدموع ،
وأراد أن ينسحب فصحت به (ومن يسقه كأسه) فظل مكانه • ووقفنا نحن
الاثنين ، ورفعنا كؤوسنا وشربناها جرعة واحدة ، بينما كان الساقى يسكب
محتويات كأسه الكبير على الغبراء بكل وقار واحترام • وشربت الارض
كأسه وشربنا نحن الاثنين كأسين ممزوجين ببضع عبرات •



تلبد أفق السياسة بغيوم كثيفة ، واكفهر جو البلاد ، وبدت في الأفق
طلائع عاصفة شديدة من عواصف الجور والضغط والاضطهاد التي أخذت
تكسح هذا القطر المسكين بين آونة وأخرى ، وهو في أول مراحل الحياة .
وتحدث هذه العواصف عادة عندما تسقط وزارة وتشكل أخرى بطريقة
عنيفة ، أي عندما يلجأ عدد من الشخصيات البارزة الى القوة لازاحة أولئك
الذين استمروا الجلوس على الكراسي المريحة ، وأبوا التخلي عنها ، مع أن
مدتهم قد انتهت ، ودورهم قد انقضى ، وأظن ذلك يعود الى ما في هذه
الكراسي من سحر يجبر الانسان على ألا يتركه باختياره ، وتلجأ أمثال هذه
الكتل عادة بعد أن تستلم زمام الحكم ، الى ما تسميه (تنظيف ملاك الدولة ،
واصلاح آلة الحكومة) فتزيل من طريقها كل انصار عدوتها بدون رحمة أو
شفقة ، لتضع في محلهم أعوانها وأنصارها الذين جاهدوا معها فاستحقوا
نصييا من الغنيمة ، حتى أصبح المقصود بتبدل الوزارة ، تبدل كل ملاك
الدولة الاعلى بصورة تقريبية ، وطرد كثير من الموظفين الصغار . وقد ابتكرت
الحكومة العراقية ، وياما اكثر ما ابتكر ، طريقة لم تسبق بها ، أو قل انها
قلدت الحكومات الاوربية العظيمة ، في أعمال العنف والقسوة ، لا في أعمال
الاصلاح والتنظيم ، كما يقلد الغرب الطاووس ، فجارت على القانون الذي
يحمي حقوق الموظف ، بقانون الذيل المعروف ، ترفعه في يدها كسوط النقرة
لتهوي به على من يجسر على رفع رأسه أو صوته ، وفي مثل هذه الظروف
تقدم ضحايا كثيرة على مذبح الاغراض ، وتعذب قفوس حرة آية ، وتسام
الجور والعسف .

ويخاف هذا الذيل كل محسوبي ومنسوبي الوزارة السابقة ، ويخافه
كل موظف وضعته الاقدار الماجنة تحت امرة رئيس لا يدانيه عقلا وثقافة ،
ويخافه كل عزيز النفس حر الضمير ، كما يخافه كل مثقف ذي وجدان تزيه ،
وكل موظف مكروه من رئيس دائرته لاسباب عجيبة غريبة ، يخافه كل .

هؤلاء بقدر ما يخافه بعض الخونة أو المقصرون ، أو غير الأكفاء الذين لا تسندهم شخصية بارزة .

وقد خفت من شر هذا الذيل القادم على صديقي أكثر مما خفت منه على نفسي ، لاني اعلم جيدا شدة ابائه وعزة نفسه وصراحته وقوة ايمانه بالحق والعدل ، وعلمت أن هذه العاصفة ستزعزع ، اذا لم تقتلعه من الجذر اقتلاعاً ، فهو شامخ الانف عالي الرأس قوي الايمان بالانصاف والعدل ، واذا اجتمعت هذه الصفات في موظف صغير ، أصبح مكروها من كل رؤسائه ، ومعظم رفاقه ، محبوباً من كل أولئك الذين لاشعار لهم غير العدل ، ولا نصير لهم في الحياة غير الحق ، وبكلمة أخرى أولئك الذين لا يسمع صوتهم أحد . سألت يوماً مدير الامور الذاتية في دائرته ، وهو أحد معارفي عما تحويه ملفته الشخصية ، فأجابني ضاحكاً

— « انها أغرب ملفة بين كل هذه الملفات ، فهي عبارة عن مجموعة أوراق تحويل وانذار وشكايات من الرؤساء ، والغريب في هذه الشكايات عدم وجود أسباب معقولة تبررها ، فبعضها تافه لا علاقة له بالعمل ، وبعضها مضحك للغاية ، وقد كتب أحد المفتشين مرة تقريراً عنه يقول فيه ، وهو مستغرب ، ان لهذا الموظف نظرية عجيبة في الوظيفة ، فهو يدعي أن الحكومة لم تشتتر من وقته غير بضع ساعات ، يقوم اثناءها بواجبه حق القيام ، وليس لها حق المداخلة في شؤونه الخاصة ، فليس لها حق المداخلة في تصرفاته أو سلوكه الشخصي أو أخلاقه ، وليس من حقها أن تحاسبه على معتقده الديني أو السياسي ، وقد أضاف المفتش رأيه الشخصي في ذلك ، فادعى أن أمثال هذا الموظف خطر على بقية الموظفين لانه ينفخ فيهم روح الاستقلال الشخصي فيعزل بذلك كثيراً من أعمال الحكومة . ولم أستغرب ان يسند له هذا الرأي ، فقد كنت أعرفه شديد الكره للطاعة العسكرية العمياء ، يصرح دائماً بأنه انسان حر ، قائم بذاته ، ليس لكائن في العالم حق السيطرة على حقوقه الطبيعية .

وأظن القاريء قد أدرك معي أن مثل هذا الانسان يدخل حتما في تلك القوائم السوداء التي تحوي أسماء غير المرغوب فيهم ، فيسلب منه راتبه وعمله ، ويطرد من دائرته وسط شماتة الاعداء ، وارتياح المنافسين •

ومر بي حتوش صباحا في دورته على زبائنه ، وكنت انتظر مروره بفارغ الصبر ، في احدى المقاهي المملوءة بالمرتادين من الصباح الى المساء ، كل يوم ، دون شذوذ أو انقطاع ، وحتوش هذا أصغر باعة الجرائد سنا ، وأقدرهم جسما ، وأرثهم ثيابا واقبحهم خلقا ، ولكنه اكثرهم زبائن ، ويرجع الفضل في كثرة زبائنه الى ذكائه الحاد ، ومقدرته الخارقة على صوغ النكت والعبارات المضحكة ، التي يعلن بها عن بضاعته ، فلا تكاد تسمع صوته وهو يلفظ اسم جريدته بصورة مغلوطة ، حتى تستوقفه فيعطيك الجريدة وعيناه تبرقان ، كعيني النسر ، في وجهه القدر ، ويعطيك معها قسما كبيرا من وسخ يديه ثم يقذفك بنكتة ظريفة ، ويمضي على عجل •

وناديته ، فسلمني الجريدة ، ومضى في طريقه ، وهو يصيح بأعلى صوته

— « عيش وشوف • اليوم ضربة ذيل ، وباجر ضربة بالحافر ، ضربة الذيل خفيفة ، الله يسترنا من الحافر » •

واستعرضت قائمة اسماء المفضولين بلهفة ، وكان اسمه الخامس في القائمة ، واسرعت قاصدا الدائرة التي يعمل فيها مؤملا ان اراه هناك ، ووجدت اني قد تأخرت ، واخبرني محاسب دائرته بخروجه توا بعد استلامه أمر الفصل (والاكرامية) ، واضاف ضاحكا

— « لقد اسرع بالهروب من الدائرة وكأنه يهرب من جحيم ، تالله ان صديقك هذا لانسان عجيب ، اذ بينما تجد رفاقه المفضولين يهددون ويتوعدون ويتشكون ، فاذا به لا يفقد من هدوئه ورباطة جأشئه شيئا ، ويصارع رفاقه الحاققين ساخرا ويقول لهم بكل بساطة « ليس اصحاب

هذا القانون اريداء كما تتصورون ، اذ ما دام في استطاعتهم ان يسخروا من القوانين بهذا الشكل ، فلماذا لا يكون باستطاعتهم انكار المبلغ (الاكرامية) ايضا . ان الحوادث تدل على انهم يستطيعون ان يفعلوا كل شيء . ولكنى سأبرهن لهم على انهم قد احسنوا لي لا اساءوا ، كما يظنون . » وهكذا تراه يعد المال الذي اخذه ، هبة غير منتظرة ، ها ها ها . »

وتركت الدائرة ، وما كدت اصل الباب حتى راعني رجل اصفر الوجه قد تجسم الرعب في وجهه يركض بكل قواه وكأن الشياطين تطارده ، وسمعت على الاثر صوت طلقتين ، وساد الهرج واختلط الحابل بالنابل برهة من الزمن ، ثم انجلى المنظر عن رجل قد ألقى القبض عليه وكان يصرخ :

— « لقد قطع اللعين مصدر رزقي ورزق عائلتي ، وحرمني من راتبي الذي كنت اعيل به عشرة انفس ، كل ذلك لكي يهب هذا الراتب لبعض محسوبيه واذنا به . أي عدل هذا ؟ وفي أي عصر نعيش ؟ ألا شلت هذه اليد التي أخطأتها » .

وقامت ضجة أخرى في الطرف الثاني من الشارع ، ورأيت شخصا يقاوم الشرطة ، ووراءه اطفال يبكون ، وبضع نساء يمолن ، حتى تحول الشارع الى مأتم ، وكان الرجل يعترض بقوله

— « انهم يريدون منعي حتى من عرض ظلامي على الملا ، أريد ان أري الناس هذا العدد العديد من الافراد الذين كنت أعيلهم بالراتب الذي حرمت منه ، لا لسبب الا لان الرئيس السابق هو الذي عينني فيه . ليس لدي مسدس ، ولا أريد ان اقتل احدا . اني اوكل امري للواحد القهار ، ولكن دعوا الناس يرون بؤسي وشقائي » .

وكانت تلك المناظر البائسة ، وهذا اليأس القاتل ، ، الذي استولى على هؤلاء المفصولين ، قد ولد في نفسي قلقا واضطرابا عظيمين حتى صرت اظن بحالة صديقي ومصيره الظنون ، ولم يخفف علمي برباطة جأشه وهدوئه ، من

هذا الاضطراب ، ودفعني القلق الى البحث عنه في كل مكان ، فلم اعثر عليه ، ولم اعلم اين اختفى ، وفي جيبه مبلغ من المال لا يقل عن مائة وخمسين دينارا . وعثرت عليه اخيرا بعد المساء ، وانزلت عليه أغرقه بعبارات التشجيع والمؤاساة ، أعزیه وأصبره ، وأوصيه بعدم الاهتمام ، وان الامر لا يستحق ، الحزن ، لان الوزارة ستسقط عما قليل ؛ فتعيد الوزارة الجديدة المفصولين ، وتفصل غيرهم . ولكنه قابل كل عباراتي بالاستخفاف ، واخذ يسخر مني ومن لهفتي وقال

— « كان الاولى بك أن تهنئني بدلا من أن تعزيني ، وهذا يدلني على انك لم تفهمني جيدا ، رغم طول عهدك بصحبتني . انكم تنظرون الى الوظيفة كنجم يدر الذهب ، او نعمة من السماء ، او مورد للرزق لا ينضب معينه ، واظن ان لطبائعكم الاتكالية دخل في الامر ، اذ لا يخطر في بال اي موظف هنا انه لو وجه قواه الى الاعمال الحرة ، وقام بها بنفس الاخلاص ، وانصب عليها بكل مواهبه لحصل اضعاف راتبه . اني افهم ان تكون الوظيفة ضرورة لاولئك الذين لا يحسنون في الحياة غير الجلوس وراء المناضد الفخمة ، على الكرسي الهزاز للتوقيع فقط مقابل راتب هائل ، ولكني لا افهم سبب التصاق هؤلاء المساكين الذين يكدون من الصباح الى المساء بها ، مع تحمل الاهانات ، وتقبل العسف والجور ؛ فبمجهود يساوي نصف هذا . يستطيعون ان يجعلوا حياتهم اكثر رفاهية ، واشرف مقصدا . كم اتمنى على الله ان ارى بعض هؤلاء الموظفين الكبار يتردون من وظائفهم ، ليرى الناس ماذا في استطاعتهم ان يعملوا . اني واثق بأن بعضهم سيموت جوعا ، وان البعض سيحتر ما ادخره او سرقه عندما كان في ايام العز ، وسيصبح البعض الآخر رؤساء عصابات يفرقون البلاد بالقتل والفتن ، او يقومون باصدار صحف للتدجيل والشعوذة ؛ فيصمون اعداءهم بالمنكر والتهمة الباطلة ، ثم تنهال عليهم الثروة من الحكومات الاجنبية في سبيل الدعاية لها ، مهما كانت هذه الدعاية ضد ابناء وطنهم ومصالحه » .

فسألته مازحا :

— « وماذا يفعل الذين هم على شاكلتك ؟ والذين لا يوجد منهم غير واحد فقط ؟ »

فأجاب ضاحكا

— « سترى ذلك بعينيك فلا تعجل • أما ان اخبرك عن ذلك الآن فأمر يجب ألا تحلم به ، لاني اعلم بأنك ستسخر مني ، وتقيم العراقيل في طريقي ، او تخدم من حماسي ، فأنت ما زلت من ذلك النوع الذي يجبر غيره على النظر الى الحياة بمنظاره الخاص » •

— « اخشى ان يوصلك استبدادك برأيك ، الى مثل هذه النتيجة » •
— « ومن اخبرك ان هذه النتيجة لا تروق لي ؟ وما ادراك انها ستكون سببا من اسباب نجاحي ؟ وحافزا لي على استعمال مواهبي ، وشحن قواي للطرفة في الحياة ؟ اني اعلم ان هذا لا يقنعك ، كما اني لا أريد ان اشرح لك ما ازمنت القيام به ، فاترك اللجاجة ، وهيا نودع الماضي المظلم ، ونحتفي بالحياة المقبلة » •

ودخلنا ملهى فخما من تلك الملاهي المعدودة ، ملجأ طلاب الانس ومجبي الاسراف واضاعة المال ، وجلسنا قرب منضدة يحتلها ملاك يحكم الالوف من الفلاحين ، وكان هذا موضع اهتمام مدير الملهى وخدمه لانه يمتاز على غيره بالجهل المطبق ، والثروة الطائلة ، وكانت تناديه راقصة من واردات بودابست ، وبراغ • ومن البديهي ان يجهل الشيخ لغة السيدة فهو لايتنازل حتى الى تعلم القراءة والكتابة بلغته الوطنية ، فلماذا يكلف نفسه تعلم لغة اجبية ، حتى ولو كان ذلك من اجل راقصة ، وجعل النادل يترجم بين الاثنين ، السيدة التي تنظر الى جلسها نظرة اللص الى حمار مثقل بالجواهر ليس له صاحب ، والشيخ الذي ينظر اليها نظرة البطر الذي امتلأت معدته اكلا ، فمضى يتفنن في انتقاء الفواكه ليقضم جانبا منها ثم يرميها ، وهمس صاحبي في أذني: — « مثل هذا يعرف كيف يحرك أولي الامر باشارة ، فهو يملك من

البشر ما يجعله يسخر بكل ما في دولتك من سامة وموظفين كبار ، اولئك الذين يبرزون كل قوتهم في سن قوانين سخيفة لاصلاح ماكنة الدولة ، وتريد مني بعد كل ذلك ان اندم ، لاني اخرجت من وظيفتي ، ندم آدم عندما طرد من الجنة ؟ » •

واتى النادل اخيرا يحمل زجاجة مثلجة من الجعة ، وبعد ان فتح سدادهما بخفة ورشاقة افرغها في كأسينا مناصفة ، ورأينا على وجهه اثر السرور والانشراح ، فسأله صديقي وهو يغمز بعينه ناحية الشيخ ونديته :

— « كم ربحت من هذه الصفقة ؟ »

— « دينارا واحدا أيها السيد • ان الشيخ شحيح في معاملتي ، ولكنه جواد فيما يخص السيدة • لقد أعطاها خمسين دينارا لقاء بقائها في مزرعته مدة اسبوع واحد فقط ، ومع ذلك فان الامر ، بالنسبة اليّ حظ حسن » •

وقرعنا كأسينا ، وشربنا نخب الحياة المقبلة على حد تعبيره ، واستغرقنا في ارتشاف كأسينا مدة لا تزيد على نصف الساعة ، وأعلن اكفائه ورغبته في ترك المشرب ، وأعلنت رغبتي في مجاراته اضطرارا ، اذ كنت أعلم انه غير مولع بالسكر والعريضة أو الاكثار من الشراب ، سواء أكان خفيفا أم ثقيلًا ؛ فهو معربد طول حياته ، كثير الملاحظة ، كثير النقد ، كثير المداخلة ، لا في شؤون الغير الخاصة ، ولكن في شؤون البلاد ومصالحها العامة •

وخرجنا غير مسرعين ، ولم تكن تلك الجرعات الخفيفة من الجعة قد نالت شيئا من قوانا الجسمية ولا العقلية ، بل بالعكس نبهت منا خامد القوى ، وراقد الاحساس ، وصقلت حواسنا التي تراكم عليها من الصدأ خلال اليوم ، ما كاد يذهب بحدتها وفائدتها • وكان الوقت بعد الساعة العاشرة ليلا ، ومن لم يعيش في بغداد لا يعلم كيف تتنفس بغداد عند منتصف الليل ، وكيف يتحول ذلك الأتون الجهنمي فيصبح بردا وسلاما على سكانها أجمعين ، وكان القمر بدرًا قد تربع في قبة السماء الصافية ، فخبأ ضوء النجوم،

وتغير لون السماء فصار أقرب الى البياض فيما جاور البدر ، والى السواد كلما بعد النظر عنه ، وهب نسيم رقيق رطب فداعب الوجوه والرؤوس. ملاطفاً ، كأنه اتامل حسناء تداعب وجه حبيبها لتوقظ في نفسه كل ما يمكن. أن يتيقظ من رقة وحب أو شهوة أو لذة أو سرور .

وابتلع صديقي كمية كبيرة من ذلك الهواء فامتلا به صدره حتى. توترت عضلاته البارزتآن ، وارتفعتا كنهدي الكاعب تحت الثوب الخفيف ، ثم أطلقه يزفير يدل على النشوة والارتياح ، وهتف

— « تبارك وتمجد من خلق كل هذا مهما كان وأينما كان . لست أدري والله كيف لا يعشق هذه المدينة سكانها عشقا مبرحا ، مع كل هذا السحر والفتنة » .

فأجبت مازحا

— « ربما كان ذلك لانهم يسعون النهار بطوله ، وينامون الليل بأكمله. فلا يرون من كل هذا اكثر مما يرى الحمار من عمله ومزوده » . ودخلنا شارع أبي ثواس حيث النسيم اكثر رقة ، والمنظر اكثر جمالا ، والليل أعظم روعة وسحرا ، ومررنا بتلك المقاعد البسيطة المنضدة على الرصيف تحت الاشجار الجميلة ، وكانت تلك المقاعد على وشك ان تخلو الا من سكران. يستعيد قواه ، أو شاعر يستمد الوحي من جمال الليل ، أو فتاة تخفف ما بها من لاعج الشوق الى الحبيب المنتظر بجمال البدر وصفائه ، أو فتى وفتاة. قد ظللهما الحب بجناحيه ، يرتشفان القبلات خلسة ، ويتعاصران بالايدي . أو يتعانقان كلما أمنا شر الرقيب ، وما كان الشارع ليخلو من كهل موتور ، من ذوات الحسن والجمال ؛ يمضي ينتقم لنفسه بصب اللعنات على عبث الصبيان ، وفساد الزمان . وابتعدنا ، وابتعدنا ، حتى قربنا من أقسام الشارع العليا القليلة السرى ، والتي تكاد ان تكون موحشة ، لولا البدر والمصابيح الكهربائية ، والمقاعد الخالية ، والاشجار ذوات الهمس عند مرور النسيم .

وفجأة ، وبدون سابق انذار ، رأيت صاحبي ينزع ما عليه من اللباس بسرعة البرق ، حتى أصبح عاريا كآدم ، وبدا بقامته الجميلة وجسمه القوي العضل وسواعده الممتولة (كأبولو) ، ولم يلتفت لاعتراضي وتقدي • بل رفع يديه نحو القمر وأطلق صيحة ابتهاج ، ثم رمى نفسه في الماء ، وأخذ يسبح كالتمساح • وبقي يمرح في النهر فترة غير قليلة • وبينما كنت أراقبه متعجبا من نزواته وأطواره الغريبة ، سمعت صوت سقوط جسم آخر في الماء • واستغربت أن يكون لصديقي مثل في طبعه وميوله • والتفت ناحية الصوت ، ولكنني رأيت صديقي يسرع نحو السابح الجديد ورأيت على ضوء القصر يقترب من الشبح الذي كان يتشبث بالهواء عبثا ثم يفوص تحت اللجة • وما انقضت خمس دقائق ، حتى رأيته يعتلي الشاطئ يحمل جثة فتاة كما يحمل طفلة صغيرة ، وألقاها على إحدى المناضد ، واسرعت انا الى اسعافها بينما كان يرتدي ملابسه ، ونظرت في وجهها الباهت المنار بضوء البدر ، فلهئت اعجابا ، وشعرت كأن شيئا يغل يدي عن لمسها ، ولم أرجع الى صوابي حتى رأيته بجاني ، ولما رأى حيرتي صاح بي :

— « أيروق لك أن تدعها تموت وأنت تنظر في وجهها معجبا بجمالها هيا ولا تتباله » •

تعاونوا على اسعافها ، وبعد بضع دقائق تنفست وفتحت عينيها ، ولم يمهلها حتى تستعيد قواها وتهديء من روعها بل هاجمها لاثما معنا بقوله

— « كيف تريدان قتل نفسك في هذه الليلة البديعة ؟ تالله انها لحماقة • ما بعدها حماقة • اليس لك عيانان ترين بهما كل هذا الجمال ؟ لا أدري أي حقني هؤلاء الذين وضعوا في رأسك هذه الفكرة ؟ هيا خبرينا لنرى هذه الدوافع السخيفة التي دفعتك الى هذا العمل القطيع » ؟

وظلت الفتاة لا تقوه بينت شفة ، وكان يظهر عليها عدم الاهتمام بكل ما في الحياة بل وبالحياة نفسها ، وأخذنا نلح في استطلاع كنه بأسها ،

وما كانت تبكي أو تتألم أو تشكو ، ولكنها كانت تنظر في وجوهنا عابسة
مغضبة ، ثم تنظر الى البدر باحتقار وملل • وفرغ صبر صديقي وأخذ يهددها
برفع أمرها الى الشرطة ان بقيت مصرة على السكوت ، ويظهر ان تهديده
اثر فيها فالتفت نحوه حاتقة وقالت

— « بالله قل لي من أوكلك بأرواح الناس ؟ لماذا اتقذتي ؟ وما شأنك

انت ونفسي ؟ » •

فأجاب بعناد

— « اني اكره ان يشوه جلال هذا المنظر بمثل هذه الجريمة النكراء •
انها قباحة ما بعدها قباحة ، بل حماقة مطلقة • أتظري الى جمالك وصباك
وصحتك • انك تهين اقدس ما وهبك الله بهذا العمل الطائش ، اني اعلم
انك ستدعين اليأس ، ولكن هذا اليأس لا يبرر هذه الجريمة • هيا تكلمي
لنرى أي عوامل ولدت في نفسك هذا اليأس » •

فأجابت باقتضاب وعنف

— « لاني لا أريد ان اكون عاهرة » •

— « أو ليس في الحياة شيء غير الموت او العهر ؟ » •

— « أجل توجد أشياء كثيرة ، ولكن لا لميلاتي بل لتلكم النوة
المنقلاط بالجواهر والحلى ، واللواتي قد شبعن من كل شيء ، اما الفقيرة
الجميلة فالويل لها • لقد فتحت عيني على الدنيا وانا لا املك غير الصحة
والجمال والشباب مع فقر مدقع ، وأم تخدم في أحد المنازل لتصرف على
تعليمي ، لانها تريد مني ان اكون معلمة في المستقبل ، اعينها في أخريات
حياتها • ولكنها ماتت وانا في بدء دراستي الثانوية ، واطهر ابن البيك الذي
كانت أمتي تخدم في منزله عطا خاصا نحوي ، وكان جميلا وسخيا » •

وسكنت وقد اشرقت بدموعها • فأكمل رفيقي بقسوة :

— « وأودع في أحشائك جنينا فضح علاقتك به ، ونبه أهله اليك ،
وآثار قيامتهم عليك » •

فبغت وقاطعته وقد تفتحت عيناها الجميلتان دهشة
— « وكيف عرفت ذلك ؟ »

فضحكت من سذاجتها وأجبتها

— « هي الحكاية الازلية يا فتاتي ، وفي استطاعتي ان اكملها انا ايضا .
اقتعوك باسقاط الجنين ، واعطوك من الادوية ما قتله في احشائك وربما
قضى على اخصابك ، وبقي ابن اليك يتمتع بمحاسنك حتى قرر الانتقال الى
أخرى » •

فغطت وجهها يديها وقالت (لقد عرفتم كل شيء) •

واضاف صديقي بلهجة من يداعب طفلا ليخفف عنه بعض احزانه :

— « اذن فسندهشك اكثر مما يدهشك فتاح الفال وضارب الرمل •
هاتي يدك لا فحص خطوطها على ضوء القمر فاخبرك بما حدث لك بعد ذلك •
واعطته يدها ، وقد بدأ ظل الابتسامة يعود الى شفيتها ومضى يقول
وهو يقلد فتاح الفال

— « هذا الخط الطويل العريض يشير الى انك حرت في امرك وكدت
تموتين جوعا ، حتى عثرت عليك واحدة من تلكم المتاجرات بالرقيق الابيض ،
في القرن العشرين ، المستمدات سلطتهن من الحكومات التي تقتخر بانها ضد
الاستعباد ، ولا زالت بك تحتال وتمكر ، حتى كبلتك بقيودها ، واثقلتك
بالديون المختلقة حتى تستطيع وضع يدها في عنقك ، وترغمك بقوة القانون
على طاعتها ، وأنى لطفلة مسكينة مثلك أن تدفع عنها شر الذئاب ، ويأتي هذا
القانون الالهي العادل فيضعك في حانوت النساء ، ويعلم بيع غفك بالمزاد ،
فيشد وثاقك ، ويكشف عن نصفك الاسفل ، ويصيح بالفساق والفجار هيا

تمتعوا بهذه المحاسن ، وأدوا الثمن لصاحبة الحق ، ولكن هذا الدين يتضاعف عادة بدلا من ان يقل ، وعلمت ان مآلك ، اذا ساعدك الحظ ، ان تصيري تاجرة محتالة كهذه ؛ فتسددين ما عليك من الدين من التجارة بلحوم غيرك باسم القانون ، باسم القانون . هاهنا خط آخر يدل على ان ما تعلمتيه على ضآلته قد افسد عليك حياتك الجديدة ، واثار فضيلتك ، وقبح هذا الاستعباد في نظرك ، وجعل حياتك شناعة ما بعدها شناعة ، هكذا تنازع القانون والقوادة من جهة ، والعلم والفضيلة من جهة أخرى ، وما زال بك حتى دفعاك الى الموت ، ولو عثر عليك القانون الآن لحاكمك كقاتلة ، وربما حكم عليك بالسجن ، وهنا وجه الغرابة في هذا القانون » .

ثم التفت الي واستمر يقول

« أتدري ان هذا القانون لو تجسم بصورة انسان لكان له وجه ملاك ، ومخالب وحش ، وعقل ابليس ، وتصرفات مجنون . ولكن اعجب مخلوق مشوه اوجدته الطبيعة » وقطع كلامه صوت الفتاة وهي تنتحب بشدة ، وتتلوى وتئن بعنف ، وتتألم كأنها تستفرغ كل آلامها ، وكل ما تجرعه من سموم ، واغرورقت عيناها بالدموع أمام هذا المنظر المفجع ، ونظرت اليه فوجدته جامدا كالتمثال وقد تصلب وجهه واكفهر ، وعادت الفتاة تقول

— « لم أبق في الحانوت الا يوما واحدا ولكنه يكفي لان يجعلني أفر الى الموت كالمجنونة ، أنك لا تستطيع أن تتكهن بما يحدث هناك » فأجابها ضاحكا

— « بل استطيع ، فأني شاب لم يزور هذا الحانوت ، ولكنهم لم يقفوا كلهم هذا الموقف . والآن دعينا نحملك قبل كل شيء من هذا القانون الظالم ؛ فخيريني ما هو مبلغ ما عندك من العلوم ؟ » .

— « اتقن القراءة والكتابة والحساب اتقانا طيبا » .

— « هذا فوق الحاجة ، والآن انظري الي ، وقولي اذا كنت خائفة

منسي » .

فأجابت

— « لعلك الرجل الوحيد الذي لا اشعر بالخوف منه » .
و كنت انظر الى هذه المحاورة باستغراب ، ولم استطع التكهّن بما هو
عازم عليه ، ولم اقدر على كتم فضولي فسألته مازحا
— « لعلك ترفض ان تخبرني بما انت عازم على صنعه بهذه الفتاة
ايضا ؟ » .

— « طبعا ولا لها ايضا ، والآن هيا ايها الفضولي وحاول ان تنام
مستريحا دون ان تقلقك التكهّنات ، واعدك ان امر انتظارك سوف لا يطول ،
وما انت يا فتاتي فهيا الى منزلي ، ولك ان تطمّئي هناك وستنامين في غرفة
مستقلة دون ان يقلقك رجل ، او امرأة اذ ليس في الدار غير خادمي شبوط ،
وهو لا يعرف الفضول ، وكثرة السؤال ، وستكون هذه الليلة فاتحة حياتك
التي لا ترين فيها ظل رجل فاسق شنيع » .

ومضى نحو منزله وبجانبه الفتاة التي التفت بعباءتها فوق ملابسها
المبللة ، ويمت شطر منزلي وانا اضرب اخماسا بأسداس ، كثير اللفهه ،
شديد الشوق الى استطلاع ما عزم عليه هذا الرجل الغامض .

وبت ليلة عجيبة بصبر نافذ ، وانا في اشد الشوق الى فجر اليوم الثاني ،
بل اشوق اليه من الطفل الى ليلة عيد الميلاد ، ذي الشجرة المثقلة بالهدايا
واللعب .

واسرعت صباحا بارتداء ملابسني ، وخرجت الى الشارع ، ووقفت على
الرصيف في انتظار سيارة (باص) تقلّني الى المقهى الذي تعودت ان
التقيه فيه ومر بي بضع منها ولكنها مملوءة بالركاب ، واخيرا وقت احداها
وكانت سيارة نظيفة جديدة ، وفتح الصغير مساعد السائق الباب ، واخذت
مقعدي وراء السائق تماما ، وشغلت مدة من الزمن يدفع الاجرة ، ولما انتهيت
اعدت في جلستي ، ومددت نظري الى الامام فمرت نظراتي بظهر السائق

العريض ورقبته المتينة ، ثم ساعديه القويين القابضين على السكان يديرانه بكل هدوء ، ثم على المرأة الصغيرة المعلقة امام السائق ، واطل من المرأة وجه باسم كان ينظر في وجهي بخبث . يا للشياطين ، تالله انها لمفاجأة ما كنت انتظرها ، واذن فقد اصبح سائق سيارة ، وهذا الحزم والعزم والاصرار كله ، في سبيل ان يكون سائق سيارة ؟ ولم يسعني الا ان اضحك واقول له ساخرا

— « اذن فهذه هي المفاجأة التي كنت تمنيني بها ؟ يا له من عمل عظيم ، اذن فأنت تفضل هذه الحياة على الوظيفة ؟ »

فأجابني بنفس اصراره وعناده

— « ها قد صدق حدسي ، فأنت لا تستطيع ان تقتنع بسهولة ، اذ تؤثر عليك المظاهر كثيراً ، ولكني سأريك في نهاية الشهر ما يسكتك ؛ فدعني الآن اتفرغ لعملي » .

وراق لي ان امعن في السخرية به فقلت

— « وماذا فعلت بالفتاة ؟ كان يجب ان تجعل منها مساعدا في السيارة بدل هذا الصبي فهي تتقن الحساب » .

فأجابني بنفس اللهجة

— « يتقن هذا الصبي من الحساب ما يكفيه ، وقد وضعتها في عمل اهم من هذا واكثر راحة » .

وابطأت السيارة في تلك اللحظة لحمل راكب آخر ، ولم يكن فيها غير محل لواحد ، وكان في الانتظار شخصان احدهما عجوز بائسة والآخر افندي تبدو عليه مخائل النعمة ، وسمعت صديقي السائق يلقي امره للصبي بأن يصعد العجوز ، وسمعت الافندي يجيب محتدا :

— « بل اصعد انا لاني مستعجل » .

فأجابه عابسا

— « انها أولى بالمساعدة منك ، وزيادة على ذلك فالسيارة ملكي اصنع
بها ما اشاء » .

فأجاب الافندي مهددا وقد كهر وجهه وثارث كبرياؤه :

— « اني موظف محترم ، وسأشكوك للشرطة » .

واراد ان يرميه ببيض شتائم مما يقولها امثاله للسواق ، لولا ان رآه
يهم بالنزول وقد توتر كل عضل في جسمه . واثر عمله بثلاثة من الركاب
فظهرت علامات السخط على وجوههم واجابوا عنه مهددين

— « افعل ايها الافندي كل ما تستطيع عمله ، وسنقدم انفسنا كشهود
لنطلع المحكمة على مبلغ دئاءتك ، ومبلغ نبل السائق وشهامته وانصافه . لقد
كان الاولى بك ان تشكره ، ولكن أني لكم مثل هذه الاخلاق » .

وتحركت السيارة ، ويظهر ان الصبي المساعد لم يكتف بكل ما حدث ،
واحب ان ييدي رأيه الخاص في هذه القضية ؛ فأخرج رأسه الصغير بشعره
المنبوش ، واطلق وراء الافندي (زيكاً) ذا نفمة خاصة جعلت كل الركاب
يفرقون في الضحك .

وسمعه يقول وهو مكب على سكاته

— « اجعل هذه الحادثة الصغيرة جزءاً من البراهين الملموسة المنتظرة ،
انها قضية بسيطة ، ولكنها تبدي لك الفارق بين الوظيفة والعمل الحر بصورة
واضحة ، وما عليك الا ان تستبدل السيارة بالدائرة وتضع الركاب في محل
رئيس الدائرة او المصالح التي اخدماها ، واجعل الافندي الارعن شخصية
عظيمة بارزة ، وانظر ماذا يحدث عندما يتقدم الي في الدائرة ليطلب مني
خدمة غير قانونية ، فيها فائدة عظيمة له وغبن كبير لآخر مسكين ، لا ناصر
له ولا معين ، والآن أجب بنفسك لانك منصف وتصور ما يحدث » .

فأجبت باسم

— « ستقول له ان هذا غير ممكن ، لان العدل والقانون يأبياه فيرعد
ويزبد ، ويشكوك الى المراجع العليا ، وعندها يرسل وراءك رئيس دائرتك
الذي يقوم مقام الركاب في هذه المقارنة ، فيزجرك ويعنفك ، هذا اذا لم
يضعك او يطردك . اما هؤلاء الركاب فقد دافعوا عنك ، وتبرعوا بالشهادة
لك رغم عدم معرفتهم بك ومع انهم غير مطالبين بالدفاع عنك . يا لك من
شيطان . تالله ان عندك من وسائل الاقتناع ما يحير العقول . ولكنني لا اکتفي
بذلك ؛ فمتى تريني بقية ما عندك ؟ » •

— « قلت لك انتظر نهاية الشهر عندما أعقد الجلسة الاولى •

فسأله مستغربا :

— « تعقد الجلسة الاولى ؟ ومع من ؟ »

فاجابني بنفس عناده واصرار •

— « انتظر نهاية الشهر ؟ »

وصرت أعد الايام بصبر نافذ ، لارى أي مفاجأة أخرى قد أعدها لي
هذا الشيطان ، فهو يقدر ويرتب ، ثم يرسم الخطط ، ويعزم ، وينفذ بدون
استشارة أحد ، وبعد ذلك يقدم لك النتائج ليبرهن لك على انه غير مخطيء ،
ويدافع عن وجهة نظره بطريقة لاترك للانسان مجالا للاعتراض ، وان حاجته
بالمنطق المفلوج الذي اعتاد الناس أن يسيروا عليه ، كتقديم المظاهر على
الجواهر ، والخضوع للاعتبارات المضحكة ، سد أذنيه ، وإن ألحت وعاندت
فتح لك الباب ، وأمرك بالخروج بكل عزم وعناد أيضا ، وحان الموعد المنتظر ،
واسرعت وانا في لهفة شديدة لاكتشاف ما عنده من اسرار ، وما أعد لي من
مفاجآت ، وكان الوقت عشاء ، وعندما اقتربت من منزله وجدت ثلاث
سيارات عمومية (باص) مصطفة امام بابه ، واسرعت بالدخول فتلقاني
شبوط باشا ، وكان يعد الشاي بصورة جدية ، وقد بدت صورة الوقار
والعظمة في هيئته ، ولو كان يعد هذا الشاي لهيئة دبلوماسية خطيرة ، أو

لمجلس وزارة أمة عظيمة ، لما كان أكثر اهتماما وفخرا ، وأشار لي نحو غرفة
الجلوس قائلا

— « عمي هناك جاعدين الجمعية (بضم الجيم) » •

ودخلت غرفة الجلوس ، وكان في نيتي أن أضحك ، وأستفتحه ببعض
النكات والجميل التي تعبر عن السخرية ، ولكن المنظر أخرسني • لقد كان
جالسا في صدر القاعة ، بدون سترة ، مفتوح الثوب ، ملفوف الاكمام ، وقد
برزت عضلاته الفولاذية التي ازدادت قوة ومثانة خلال هذا الشهر ، واصطبغ
وجهه بلون نحاسي رائع يقيد النظر ويأسره ، وكان في جلسته تلك يمثل بطلا
من أبطال الاساطير ، وبالقرب منه جلست فتاتنا المار ذكرها ، وكانت مرتدية
ثوبا بسيطا أسود ، وعلى وجهها كل علامات الطهر والاطمئنان • وكان هنالك
ثلاثة رجال لا يقلون قوة وضخامة عن الرئيس ، ولكنهم يختلفون عنه فيما
كان باديا على وجوههم من مظاهر السذاجة والبساطة ؛ فقد كانوا كاطفال
صفار في انتظار وليمة عجيبة • ومع هؤلاء ثلاثة صبيان لا يتجاوز اكبرهم
خمس عشرة سنة ، وكان هؤلاء أكثر الجميع حيرة ودهشة ، ورأيت أحدهم
يلمس الكرسي الفخم وكأنه لا يصدق بأنه جالس على كرسي •

واستقبلني صديقي باشا ، وأخذ يقدم لي الحاضرين الواحد بعد
الآخر • السيدة نابهة سكرتيرة الجمعية ، السيد عبود سائق ، السيد جمادي
سائق ، السيد مطلق مساعد سائق ، السيد (قديدو) مساعد سائق ... الخ
(ولاحظت أحد الصغيرين يتصنع الرزاة والوقار عند نفته بالسيد ، بينما
كان رفيقه يحاول بكل قوته أن يكتم قهقهة عالية) • والآن أيها السادة فلنسمع
تقرير الشهر ، وبدأت الفتاة تقرأ بكل هدوء واطمئنان ، حتى ليبدو للملاحظ
انها لا تشعر بفارق يميزها عن هؤلاء الذين يخاف النساء من ظلمهم ، وكان
أحد السائقين وهو اكبرهما جثة ينظر إليها نظرة تدل على الاكبار والتقدير ،
وبدأ التقرير هكذا

« شركة ثقلبات باص صغيرة غير رسمية تتألف من السيد الرئيس ... »
الخ بدأت برأس مال قدره ١٥٠ ديناراً دفعها الرئيس على أن يسترجعها أقساطاً ،
وقد بدأت العمل بشراء ثلاث سيارات لنقل الركاب • اثنتين منها مستعملة
بقيمة ٦٠ ديناراً للواحدة ، والاخرى جديدة بدفعة أولى قدرها ٣٠ ديناراً ،
وبالباقي من الثمن يدفع أقساطاً شهرية مقدار كل منها عشرة دنانير •

الواردات - ان الصافي من واردات السيارة الاولى الجديدة التي يقودها
الرئيس ثلاثون ديناراً ، والثانية ٢٧ ديناراً ، والثالثة ٢٨ ديناراً ؛ فيكون
المجموع ٨٥ ديناراً سدد منها ٢٥ ديناراً كإقساط عن ثمن السيارات ؛ فيكون
الباقى ٦٠ ديناراً • انتهى » •

فأشار اليها أن تكتب التهمة ، فأخذت القلم ، وصار يملئ عليها

« يقسم هذا المبلغ ستة أقسام يدخر نصف أحدها ، ويدفع نصف قسم
لكل من الاولاد الثلاثة ، ويعطى قسم كامل لكل من الاعضاء الباقين ، ومن
ضمنهم الرئيس ، بالتساوي ؛ فيكون نصيب الواحد عشرة دنانير • والآن
عليك أن تسددي بقية حساب الاعضاء » •

وكافت مفاجأة غريبة ويظهر انهم لم يعلموا شيئاً من هذه التدابير قبل
تلك اللحظة مطلقاً فبهتوا ، وأمسكت الفتاة عن الكتابة ناظرة اليه بشيء من
الاستغراب ، ولم تمالك روعها الا بعد فترة طويلة ، وقد كان الصبيان في
وضع يضحك الشكلي • خمسة دنانير للواحد • ان هذا أمر يصعب تصديقه •
وظلرت الى السائقين ، فأريت على وجه أحدهما صورة رائعة قد تجسم فيها
الاعتراف بالجميع والاخلاص الذي لا يقل عن اخلاص الكلب لسيده ، ورأيت
متثاقلاً وعيناه مغروقتان بالدموع ، ويتقدم من الكاتبة ليقول لها بكل هدوء •
لقد سرقت خمسة دنانير فاخرجيها من حسابي • ثم جلس وسط هدوء عميق •
وكان الثاني ينظر محملاً ، وقد بدت عليه علامات الغباء ، ولكنه لم يلبث
أن تألق وجهه ، ونهض معترفاً بسرقة ستة دنانير ، ولكنني أميل الى الشك بأنه

أضاف ديناراً واحداً من عنده ليسبق رفيقه في هذه المكرمة • ثم جلس •
ورأيت أحد الصبيان الثلاثة يقول بلهجة مضحكة

— « ليش هما أحسن منا » •

ثم نهضوا معاً ، واعترفوا بسرقة ثلاثة دنائير تقاسموها ، وشربوا بها
عرقاً • وكان الرئيس يتسم اثناء هذه الاعترافات النيلية • ثم قال للكاتبـة
بلهجة الأمر

« أضيفي هذه المبالغ ، وأعيدي الحساب من جديد على نفس الأساس » •
ولما استلم الجميع بقايا أجورهم ، وهموا بالانصراف ، وقف الاول
وقال :

— « عمي احنا ناس ما لنا لزوم بنفسنا ، والآدمي الذي ما اله لزوم
بنفسه ينطيه لمن يستحقها • احنا كلنا خدامك انت أول رجال شفنا عنده
انصاف ووجدان • واردات السيارة الواحدة راح تصعد للاربعين دينار لان
راح تشتغل غير شكل ما دام المسألة صارت مساواة » •

وبعد هذه الخطبة الصغيرة البليغة بلغته العامية سلم وخرج شاكرًا •
وخلا الجو الا منا نحن الثلاثة ، انا وهو والفتاة ، وقال لي ضاحكا

— « والآبن هات ما عندك » •

— « وهل تظن عندي غير الدهشة انك ترمي الحقائق في وجه المكابر
حتى تخرسه • لقد هبت عليك الزوبعة ولكنك قاومتها وثبتت فيها ، ولم تكتف
بإلقاء نفسك ، بل انقذت ستة اشخاص بمهارة وسهولة تثير الدهشة والاعجاب » •

— « حمدا لله • لقد كنت أظن بأنني سأخسر كما خسرت كل معارفي
لاني أصبحت (شوفير) ومع اني اعترف بأنني مسرور لفراقهم ، الا انه
لا يسعني أن أشعر نفس الشعور فيما يخصك » •

والتفت بعدها الى الفتاة وقال :

— « وماذا بخصوصك ؟ هل ضايقتك أحد أثناء أداء واجبك ؟ » •

— « لم يتجاسر أحد على ذلك من يوم صرعت ذلك الاحق الذي تعرض لي ، وأعطيته درسا قاسيا • اني أسير الآن بملء حررتي بدون حجاب ، وأقابل كثيرا من الرجال لانهجاز أعمال الشراكة ، ومع ذلك لم يجسر أحد على محاولة اهاتتي أو اعتراض طريقي • اما تلك العجوز اليهودية النجسة صاحبة الدين الوهمي فقد اصبحت تهرب من وجهي كلما لمحتني •

فسأله مستغربا

— « وكيف استطعت أن تحل هذه العقدة العويصة ؟ » •

فأجاب مقهقها

— « لو كنت حاضرا لهلك من الضحك • لقد أتيت ظهر أحد الايام فوجدت الدائنة المحترمة تهدد وتتوعد ، والفتاة منكشة امامها ؛ فذهبت توا الى المطبخ ، واتيت بسكين حاد واقسمت ان اذبحها وارمي اشلاءها للكلاب ، وكنت قد اوصيت شبوطا ان يتضرع الي ألا افعل ، ولقنته جملا يقولها لهذه الغاية ، وصادف ان دخل العفارت الذين كانوا هنا قبل لحظة صدفه ، فأدركوا المراد من هذه المناورة وشرعوا يهددون ويتوعدون ، ولم يكف احدهم بمجرد التهديد ، بل ادعى ان الفتاة أخته ، وان العجوز تتعدى على عرضه ، واقسم ان يأكلها ، ، وقد عضها من رقبتها فعلا • وانقلبت العجوز من التهديد الى التضرع ، ولم اعداها بكف الاذى عنها الا بعد ان قبلت قدمي عدة مرات • وهكذا تخلصنا من شر هذه القوادة اللعينة » •

ولمحت وجنتي الفتاة تصطبغان بحمرة الخجل عند ذكر الكلمة الاخيرة ؛

فعجبت ان تتطهر الفتاة بهذه السرعة •

واضافت الفتاة :

— « اني لا اعرف كيف اشكرك ، ولم اجد فرصة للاعراب عن شكري

قبل الآن ، لانك لم تسمح لي أن اتكلم في غير ما يخص العمل •

فأجابها ساخرا

— « ولماذا تشكريني ؟ انك تقومين بعملك بامانة واخلاص يتعذر ان يوجد عند رجل ، وانا الرابع بعثوري عليك » •

وسكت مليا ثم اضاف :

— « لم تطلعيني حتى الآن علام عولت فيما يخص مسكنك ؟ اني انصحك بالاستقلال الآن في معيشتك ، ما دام قد اصبح لك مورد خاص ، لان هذا المجتمع الاحق لا يعرف معنى وجود رجل وامرأة في بيت واحد ، الا لغاية جنسية ، انه لا يرى في المرأة اكثر من أداة لاشباع الشهوة ، تعتق فترمي او تستبدل • والآن عليك ان تسدي ثمن اكلك وملبسك ومسكنك حتى لا يكون هنالك مجال للاعتراف بالجميل ، ولكي تكوني حرة تشعرين باستقلالك الشخصي » •

ورأت على وجهها امارات الخيبة ، واظن هذا الطلب بالاستقلال ازعجها ، والحاحه عليها بعد ذكر الاعتراف بالجميل اقلقها •

لقد كانت تنتظر منه ان يقول لها لقد انقذتك من الموت وما هو شر من الموت ، ووهبتك حياة محترمة وراتبا ومعيشة سعيدة ؛ فيها اركمي امامي وأدي واجب العبادة • وعند ذلك ترمي بنفسها بين ذراعيه لتقول اني ملكك ايها الرجل الجبار الى الابد • ولكنه يسخر من هذا كله بل يحتقره ، ويطلب منها ان تشعر باستقلالها استقلالاً تاماً ، فشعرت بالخيبة ، واكتفت بالنظر اليه خلسة كما ينظر مخلوق تمس الى اله رفع عنه كثيرا من النكبات والرزايا •

وادركت كل ذلك فهمست في أذنها عند خروجي :

— « اني ارى على وجهك انك تعبدينه يا فتاة فحذار ، انه انسان لا يؤمن باستعباد انسان لآخر ؛ فهو لا يؤمن بسفطاتكم التي تسمونها الحب والتضحية ... الخ •

كوني أكثر عقلا ، وأثري اعجابه بشعورك بالقوة والاستقلال » •



هبت نفحة من التسيم المنعش من ناحية النهر الهاديء الزاحفة مياهه ببطء عظيم ، حتى ليوشك ان يتوهم الناظر اليه انه ساكن مستقر ، ونسج التسيم على سطحه زردا زاهية الوانه ، تكبر حلقاته او تصغر تبعا لشدة عبث التسيم بوجه الماء وخفته ، وتكون هذه الحلقات امواجاً صغيرة ، تزحف ببطء داخلية في الاجوان الصغيرة التي تكثر على الشاطيء ، ثم تتكسر على حافته الطينية ، وتلاشى هناك ، وعلى الجانب الثاني من النهر أمامنا مباشرة ، قامت بضعة منازل بسيطة يتوسطها قصر منيف ، وجامع متواضع ذو منارة سامقة ، وقب فريقة من الالوان ، لا تحليها الأهلة . ولاحت أشجار النخيل بخضرتها الغامقة من بعيد فكانت كالآطار للابنية من الجهة اليسرى ، كما تكاثفت بضع ادواح ملتفة الافنان فكانت لها اطارا من الجهة اليمنى ، وربض كلب أغبر على مقربة منا ، وبسط آخر ذراعيه على مسافة من الاول متمدداً فوق المدر الرطب ، وتململت في جلستي على الكرسي الطويل المريح ، ثم التفت الى ماهر فألفيته مغضض الجبين قد تقوست شفاته وانفجرت قليلا ، وتاهت عيناه في شبه ذهلة عميقة . وكان دافعا رأسه الى الورا ، مسنده الى ظهر المقعد الوثير ، مادا ساقيه الطويلتين ، مرخيا يديه الناعمتين فوق مسندي المقعد ، وظننته يحلم في اليقظة ، وراق لي ان انظر في عينيه ؛ فألويت عنقي قليلا ورأيت اهدابهما الطويلة ساكنة كخط اسود مجسم يحيط بعينه الجامدتين ، كعيني تمثال ، وجذب نظري بصورة خاصة بؤبؤان غامقان في وسط حدقتين زرقاوين ، وكاتتا ساكتين ايضا ، وكاث وجنتاه متوردتين وصدره الواسع يملو ويتخفص ببطء عظيم .

وأردت ان أوظله من حلمه ، فوضعت يدي بخفة فوق يده ؛ فالتفت الي ببطء ، وكأنه لا يزال مستغرقا في حلمه العميق ، ورأيت شفقيه قد قد ارتجفتا ، وانفجرت فمه عن ابتسامة حاولت ان تطرد بصعوبة صورة الالم والتفكير العميق المطبوعة على وجهه ، ثم تنهد وغامت عيناه فتكدر صفاؤهما .

وقلت مفتحا

— « منظر جميل جدا ، بل شعري ساحر أليس كذلك ؟ » •

— « ولكن يظهر لي ان سحر هذه المناظر لم يصب نفسك والا لما انطبعت على وجهك هذه الصورة التي تشبه صورة طفل جميل قد أخشن له في القول او اختطفت من يده الحلوى » •

— « بالعكس ان سحرها يصيني في الصميم ، والا لما هجرت صخب المدن ، وانزوت في هذه القرية... في إحدى هذه الابنية التي امامك يسكن شاعر عظيم ينوف عمره على الخمسين قضاها في صوغ درر الشعر ، لقد أملى آراءه على اهل البلاد ، فاثار الاعجاب والحماس والرقّة في النفوس ، وقد نال من الشهرة ما كان حريا بحبسه في المدن والقصور ، ولكنه لم يتردد في بُذ العظمة ظهريا ، والركون الى هذه القرية الجميلة ليأوى الى هذا البيت المتواضع الساكن ، وكم رأيت على وجهه عين ما تراه على وجهي الآن . انه لا يملك غير ما يقيم أوده ، ولو أراد لحصل على اكثر من ذلك لأستطاع ، لا يعرف الادخار الى الغد ، ليس له ولد ولا تلد ولا عقار ، ولكن كل الناس عنده بمثابة الاهل والقريب ، قد وزع حبه العظيم وعواطفه الجبارة على كل مواطنيه ؛ فأصاب كلا منهم اكثر مما يصيب الولد الوحيد من ابويه ؛ فوسع الانسانية كلها قلبه العظيم ، واتصلت بكل العالم حياته الضخمة •

هكذا تراه يحب الجميع ، ولكنه ينفر من ائانية الاشخاص ؛ فآل به الامر الى ان يسخر بكل ما في هذه الارض من مجد وعظمة وسلطان ، وراح قابعا في وكره ، بين احضان الطبيعة أمه الحنون ، وان أنس فلست ناسيا ما رأيت على وجهه البارحة من صورة بديعة تمثل كل ما في الانسانية من شقاء ؛ فكأنه يحمل هموم الدنيا كلها على عاتقه . لقد كان وجهه الضخم المنتفخ ساكنا كوجه تمثال ، ومناخير انه الكبير تنفتح عند ابتلاع كميات الهواء الكبيرة التي يدفعها الى رئتيه ، وكانت كل شهقة منه تبدو كتنهد

عميق ، ولما نظرت في عينه رأيتهما مغرورتين بالدموع ، ولما سألتها عم
يؤلمه وجدته يشعر بما اشعر به الآن . »

— « وبم تشعران ؟ »

— « بهذا الالم اللذيذ السائق ، الذي لا يشعر به غير اصحاب
النفوس الرقيقة الشاعرة » .

— « ولكن مم يتولد هذا الالم ؟ »

— « ومن تعاسة الناس وشقائهم ، من السير وراء سراب السعادة ،
من تطلب المثل العليا ، والسعي المتواصل الفاشل دائما ، للحصول عليها » .
— « ولكن الشهرة التي يتمتع بها امثاله لا بد من ان تخفف من
هذا الالم » .

— « بل تزيد فيه ، لان امثاله لا يسمعون وراء الشهرة ، بل وراء خير
البشرية ، ولو ان هذه الشهرة كثيرا ما تخفف عنهم اعباء مهمتهم ، على ان
اغلبهم يقاومون ويضهدون . ان هؤلاء هم الوحيدون الذين حلت عليهم
لعنة معرفة الخير والشر ، تدفعهم تقوسهم المحبة الرقيقة المخلصة الى تضحية
ذاتهم في سبيل اعلان الحقيقة ؛ فقد سعوا وراء اظهارها ، وكرسوا جهودهم
لهذه المهمة الخطيرة الصعبة . لقد استحوذت الفكرة عليهم حتى لبستهم ،
 واصبحت جزءاً من عقولهم ، بل كل شخصيتهم . والعالم مملوء بالاغلاط
يا صديقي ، والناس سخفاء بلداء اشرار ، قد اقتسهم المادة حتى جعلت
قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة ، لذلك ينظرون الى هؤلاء نظرة ريبة
وحذر لا يسهل ان يروهم ينالون من عاداتهم وتقاليدهم وانظمتهم ، اذ
لا يسهل ان يسهلهم التغير المتعب ، فيروحوون عليهم باللعنات . » ثم سكت مليا وبعدها
نهض ، وبعد ان غاب لحظة عاد ويده مجلة مصرية ففتحها واعطانيها مشيراً
الى موضوع ، واخذت المجلة وقرأت الموضوع ، وكان قصة لكاتب كبير
عنوانها نهر الجنون ، وملخص القصة

« ان شعباً جن بأسره لانه كان يرتوي من مياه نهر سماه الكاتب نهر الجنون ، الا الملك ووزيره فقد بقيا محتفظين بعقليهما لانها أدركا أن الشرب من ماء النهر يورث الجنون . وكانت النتيجة أن اعتبر الشعب بأسره ملكه ووزيره مجنونين ، لاختلافهما عن المجموع . ولما وجدا أن عاقلين في وسط شعب أهله من المجانين ، لا يختلف عن مجنونين في وسط جمع من العقلاء ، قررا الشرب من نهر الجنون ، وأصبحا ملكا ووزيرا عاقلين بالنسبة الى الشعب » . وانتهت من القصة وتطلعت في وجه صديقي فوجدته يتسم ، ثم سألني :

— « ما رأيك في هذه القصة ؟ »

— « انها تحوي فلسفة عالية رائعة ، وفكرة عميقة جدا . »

— « ولكني أخالف الكاتب ، انك ترى من بين سطور القصة أن الكاتب من أولئك اليائسين الذين لا يؤمنون بالمقاومة والكفاح ، لقد نسي أولئك الذين يرفضون الشرب من نهر الجنون مهما كانت الحال ، أن أمثال الشاعر الذي تكلمت لك عنه ، وغيرهم من رافعي ألوية التمرد لاجل الاصلاح هم من الذين تأبى عليهم كرامتهم الشرب من نهر الجنون ، ويفضلون هذا الشذوذ على الانغمار في تيار المجموع حتى يصبحوا ضحايا خالدة . »

وسكت بعد ذلك ، ولمحت في عينيه دمتين حائرتين ، وغرقت في تأمل وتفكر عميق . وأي انسان بوسعه أن يتجنب اتعاب ذهنه ، حتى ولو في وقت الراحة ، بمحاولة ربط هذه المظاهر الغريبة لحياة انسان عجيب كهذا . عمره لا يتجاوز الثلاثين ولكنه مفعم بالكفاح والمقاومة والثورة ، حياة لا تعرف هدوءاً واستقراراً ، حتى لكانها لا تعترف بفائدة الهدوء والاستقرار ، ولا تستسيغهما .

أهي صحته وقوته ؟ أهي الظروف التي جعلته يقف من الحياة موقف المقاوم المدافع في أغلب الاحيان ؟ أهو ذكاؤه الحاد ؟ أهي رغبته الشديدة في

المطالعة وولعه بصورة خاصة بأدب التمرد ؟ أي شيء من هذا اكسبه هذه الشخصية الفذة الشاذة ؟ لا اعتقد أن عاملا واحدا من هذه العوامل قد طبعه بهذا الطابع ، ولست أشك في أن كل عامل من هذه العوامل قد اثر في الناحية التي يخصصها ، ثم اتحدت النتائج كلها لتخلق من هذا الانسان نموذجا صادقا بديعا للشخصية المتمردة الى حد الشذوذ .

لقد كان شاذا متمردا يوم كان تلميذا في المدرسة ، ولا يبعد انه كان كذلك بشكل ما يوم كان صبيا أو طفلا يحبو ؛ فلست أعرف شيئا عن طفولته لان معرفتي به تبديء من عهد الدراسة الثانوية .

كان يمتاز عن بقية تلاميذ صفنا ببساطة الجسم ، وقوة العضل ، وقوة العارضة ، والمنطق المسكت الذي لا يرحم لغو الكلام وسفسطه ، وكان يجسم الاغلاط في منطقنا بصورة مضحكة فيجبرنا اجبارا على الحذر أمامه ، وما كان أذكى تلميذ في الفصل ، ولم يحز قصب السبق يوما في درس من الدروس ، ومع ذلك فقد كنا نخافه ونخشاه ، ولا انكر اننا كنا نشعر نحوه بشيء من الغيرة والحسد ، وهذا الذي كان يبعثنا على الشتمات به عندما يزل فيجادل أحد المدرسين بصلابة وعناد ، وكان سوء حظه يقوده دائما الى اثارة الجدل في درس الديانة ، التي كان يقوم بتدريسها أقل معلمينا صبرا ، وأضيقهم صدرا ، وأقلهم حيلة ، واني لاذكر من حوادثه معه يوم كان المدرس يعدد صفات الله عز وجل ؛ فقال من جملة ما قال ان الله رحيم قد خلق الانسان في أحسن تقويم ؛ فانبرى يسأل المدرس

— « وهل خلت طبيعة الانسان من الشرور أيها الاستاذ ؟ وهل انعدم الاشرار ؟ وهل كانت الطبيعة خالية من الآفات ؟ وهل مات الشيطان ؟ وهل تقويم الانسان وتركيبه يقاوم كل آفات الطبيعة ؟ اليس في استطاعتنا أن نتصور مخلوقا أعقل وأرقى واكمل من الانسان الحاضر ؟ فكيف نقول انه رحيم ، وخلق الانسان في أحسن تقويم ؟

فأجاب المدرس عابسا

— « لقد خلق الله للانسان عقلا يستعمله للوصول الى كل ما تذكر . »

فاعترض صاحبنا

— « ولماذا لم يرشده الى الطريق رأسا ؟ فتركه يتيه أجيالا ، فيهلك نفسه في أغلب الاحيان ؟ ولماذا جعل هذه الطريق متعرجة ملتوية ، تعترضها الصعاب والتجارب القاسية ؟ .. أترأه يريد أن يتعذب ليضحك منه ؟ .. »

وعند ذلك اهتزت لحية المدرس غضبا ، وتمتحت عيناه واحمرتا سخطا وصرخ به قائلا

— « أيها اللعين، أتريد أن تنتقد الله ؟ .. أخرج .. اترك الصف .. ستال جزاء وقاحتك يا قليل التربية والدين ! »

وعوقب عقابا صارما أثلج صدورنا ، وظنناه سيقلل من عناده ويخفف من غلوائه ، ولكنه ازداد تمردا وعنادا . أما في درس الدين فقد لازم من يومها الصمت العميق .

وبعد أن أنهى دراسته دخل الحياة العملية ، وهل تعني الحياة العملية عندنا غير الوظيفة ؟ وكان شعاره القيام بالواجب قايما ينطبق على ما يراه صحيحا ، وبحسب ما تلقنه وتعلمه في حياته المدرسية ، ولم يعترف بالوضع الراهن ، وما تتطلبه الاحوال ، الي غير ذلك من العبارات التي تستر وراءها الاغلاط الفظيعة ، والخيانات العلنية ، والاهمال الصريح ، والتعدييات الشائنة ، ولم يضع نصب عينيه جر المغنم وثبتت أقدامه في مركزه بارضاء الرؤساء على حساب المرؤسين ؛ فكان مثال الدقة والنشاط ، والامانة والاخلاص . صريح القول ، قوي الشخصية ، عزيز النفس ، مرفوع الرأس أمام الجميع . وأظن القاريء قد أدرك أن شخصا كهذا يعتبر غريب الأطوار وشادا في ذلك الوسط المتكون من اناس قليلي الكفاءة نالوا مراكزهم بالمحسوبية والمنسوبية ، وموظفين صغار يحسبون الوظيفة أملاكا خاصة لا قاربهم من ذوي الشخصيات

البارزة ؛ فهم غير مطالبين بالكد والاجتهاد ، وآخرين قد افنوا اعمارهم بالسير على هذه الطريقة حتى اصبحت بالنسبة اليهم امراً واقعياً وحقيقة مسلماً بها ، وقد يفهمه بعض اولئك الاذكياء فيرو العقول من المثقفين ، ولكن هؤلاء رأوا الطريق المألوف أقل جهداً ، وأكثر فائدة ، وأضمن مستقبلاً ؛ فساروا مع السائرين . اما الرؤساء المحترمون ، المسؤولون عن اعمال من دونهم رتبة في دوائريهم ، اولئك الذين يعتقدون ان الراتب يدفع الى الموظف من جيوبهم الخاصة ، والذين ينتظرون من الموظف كل خضوع مقابل هذا الاحسان ؛ فقد غاظهم ان يروه لا ينكس رأسه ، ولا يقف على بعد امتار من الكرسي المهيّب ، ولا يقف مكتوف اليدين ، ولا ينهض احتراماً عند مرورهم به ، حتى ولو كانوا ذاهبين الى المرحاض ، ولا يزورهم للسؤال عن السلامة ، حتى ولو بعد قدومهم من نزهة لا تتجاوز الساعتين في السيارة الفخمة ؛ فارتفعت غيرتهم بالتذمر والشكوى منه ، وقد رفض قبوله احد الموظفين الكبار في دائرته بعد ان رآه مرتين فقط فتنادى رئيس الديوان وصرخ في وجهه قائلاً :

— « من أين اتانا هذا القليل الحياء ، الذي يقف امامي ، كأنه أمير ، رافعا رأسه نافخاً صدره ، اطلب نقله الى دائرة أخرى لاني لا أريد ان ارى هذا الم (.....) امامي مرة أخرى » .

وصار ينتقل من دائرة الى أخرى بسرعة غريبة حتى ضرب الرقم القياسي في سرعة التحويل ، مما دعا رئيس شعبة الامور الذاتية للوزارة التي ينتمي اليها ان يكتب على ملفته كلمة (غير مرغوب فيه) بحروف كبيرة حمراء . ومن أغرب الامور ألا تجد انساناً واحداً من معارفه يتهمه بقمح السيرة ، وسوء السلوك ، والنذالة او حب الشر ؛ فاذا سألتهم عن سبب كونه شخصاً غير مرغوب فيه اجابوك ، وهم يقلبون شفاههم

— « خشمه عالي هوايه ، اشدعه ؟ »

وادرك المسكين كل ذلك ، ولكن لماذا اقول المسكين ؟ ان العبارة

ستغيظه لو قرأها • فلنكتف بالقول ان هذا الانسان العجيب ادرك ذلك ، وبدلا من ان يرجع عن سلوكه قرر في نفسه واعلن ما قرره ، مع علمه انه الوحيد الذي سيسمع هذا القرار ويهتم به ، قرر ان كل هذه الطغمة تسير على خط معوج • وانهم كلهم في ضلال من الكبير الى الصغير ، وبعد ان القى قبيلته هذه تقهقر بانتظام ، واستقال من عمله ، وقبع في زاوية يشرف على المعسكر اشراف الفاحص المستتج ، وما كان بوضعه هذا مسلما بالواقع، ملقيا سلاحه ، ولكنه كان يشحذ عزيمته ، ويتمالك انفاسه ، ثم يترقب الفرصة المناسبة ليثب في وسط المعركة ويقاوم على هدى وبصيرة •

على ان اغرب جزء من سيرته هو قضية زواجه ؛ فلا اظن القاريء سيتنظر منه ، بعد كل هذا الذي قرأه عنه ، ان يلتجئ الى الطرق التي اصبحت غير مرضية حتى عند اكثر الناس اعتدالا ؛ فيختار امرأة تقوم بتدبير منزله ، وتربية اولاده ، وقضاء حوائجه واوطاره ، لقاء امدادها بالكسوة والقوت • وقد ظن الكثيرون انه سيختار من بنات الغرب زوجته ، اذ ليس في هذه البلاد من النساء من تفهم عقليته ، وتقدر ثورته على العرف والتقاليد ، ولكن روحه المتردة المكافحة ، وعناده وصلابته أثبت عليه الا ان يمتز بوطنه فيرفض اختيار أهون الامور ، واعلن ان النقص ليس في الفتاة الشرقية نفسها ، ولكن النقص في التربية والمحيط والثقافة ؛ فاذا تعلمت هذه المرأة كيف تعتمد على نفسها ، واذا جهزت بما يساعدها على التحرر اقتصاديا وعقليا واخلاقيا ، غدت شخصية في مقدورها تهذيب خشونة الرجل الشرقي ورعوقته ، وارضاء نزواته ، وايفاف طغيانه عند حده ، ومتى تعادلت كفتا الزوجين وجدت السعادة طريقا الى الاسرة ، اذ لا سعادة بدون مساواة • وشرع يبحث عن امرأة معتزة بشخصيتها ، ذات عقل واسع ، نائرة متمردة ، لا تهتم بغير ما يقبله المنطق ، لا العرف ، وأمل ان يجد ضالته بين المتعلمات • واثارت آراؤه الشاذة اهتمام الاوساط النسائية ، واعجاب بعض المعلمات ، وهنا أنه القاريء الى ان هذا الاعجاب لم يكن مصدره تقدير مواهب هذا الرجل وعقليته ، بل شذوذه

وغرابته ، ومخالفته للمألوف ؛ فولع ابنة حواء بالرجل الغريب كولعها بالشوب-
الغريب ، والحبلى الغريبة ، وهي ابدا توافقه الى ما لا يملكه اترابها ، والا-
فكيف تستطيع التفاخر والتباهي ؟ *

وتوهم انه عثر على ضالته المنشودة فقد وجد فتاة متعلمة نزلت عند-
رغبته ، وقبلت كل شروطه ، وهي تعتقد انها قد وفقت الى بطل احلامها الذي
سيحقق لها حلم المساواة ، ولكن المسكينة وجدت اخيرا انها قد سقطت على-
فريسة مرة الطعم ، ووجدت ان هذه المساواة افطع ما يمكن الانسان ان
يتصوره . ان زوجها العزيز يقول ان المساواة هي ان تعمل المرأة كما يعمل
الرجل ، وتحتمل نصف اعباء الحياة معه ، ان تتخلق بأخلاقه ، وتحتمل
الصدمات التي تهب الجبال . اين هذه المساواة من المساواة التي تحلم بها
المرأة ، والتي لا تعدى الدوران من الصباح الى المساء بدون عمل غير
الزيارات ، والاكل والشرب والنوم ، وارتياذ الملاهي ، واقتناء الثياب الجميلة-
والعطور النفيسة ، والحكم في المنزل كالديكتاتور . هذه هي المساواة . انه
يريد منها ان تفكر كما يفكر ، وتعب رأسها الفارغ بالمشاكل الاجتماعية-
والسياسية . انه يطلب منها السير في كل الامور على اساس المنطق والعقل ،
حتى ولو اسخطت الناس جميعا ، وادركت فورا انها سائرة في طريق وعرة ،
وانها ستصبح غريبة عن المجموع مثله ، فأفلتت وولت هاربة تطلب النجاة .
وارتفعت ضحكات الساخرين ، وقهقهات الشامتين حواليه ، وهمس-
البعض في آذان البعض

— « لقد ضرب الرجل الرقم القياسي في الشذوذ وهذا هو الجنون .
بعينه ... اجل لا شك في انه مجنون . » ولكن هذا الهمس لم يرتفع ولم
يرتفع ولم يصبح صياحا ؟

وبعد كل هذا اتظنه تراجع او تهقر ؟ قد تستغرب لو قلت لك انه ازداد-
صلابة وعزيمة وشذوذاً وغرابة ؛ فقد قرر هذه المرة ان يختار طينة لينة لم-

تشكل بعد بشكل من الاشكال ، وادعى ان مثل هذه الطينة اذا تعهدت بطريقة صحيحة ، وصبت بالقالب المطلوب ، تتج منها شيء جميل . هكذا قرر ان يتزوج كما يفعل باقي الناس لا مجارة ، بل ليختار فتاة (خاما) يستطيع ان يتعهدا بنفسه ، ولما كنت لم اعلم حتى الآن شيئا عما تم بهذا المعدن الخام ، رأيت الفرصة مناسبة فمألته

— « لم اعلم شيئا عن حياتك الزوجية الجديدة فهل انت سعيد ؟ » .

ورأيت وجهه يتقلص بصورة تدريجية حتى اسحتال الى صورة شيطان معذب ، ثم اجاب قائلاً :

— « هي المرة الاولى في حياتي ، عملت فيها عملا لا يتفق مع عقلي ومنطقي ؛ فكنت مقلدا سائرا مع التيار . لقد اردت ان اذوق من نهر الجنون فلم يلامس مأؤه لساني حتى احرقه بمرارته ، فلفظته . انها غلطة شنيعة سأقدم عنها الكفارة واتوب . » ثم سكت قليلا كأنه يستعرض صورة مضحكة ، وقد لاحت على وجهه امارات السخريه ، وتابع حديثه

— « ها هي مناظر هذا الزواج المضحك تمر امامي . الخطبة على شرط عدم رؤية الزوجة . المساومة على الثمن . ثم المهر واجتماع البلداء لشرب الشربت واكل السكر وسماع زغرودة النساء ثم ليلة الزفاف ، والعروس المسكينة المبهورة الخائفة تنظر خلسة نحو عريسها لترى شكله ولونه وصورة وجهه . ان ذلك يشبه رواية هزلية ، ولست اشك في ان هذه الرواية ، لو تليت على مسامع اعرق القبائل في الهمجية ، لرأت فيها اشياء لا يقبلها العقل ، ولا وسعتها انتقادا وتسخيفا . »

ولم ابخل على هذه الطفلة المسكينة بالملاطفة ، وبشيء من التدليل ، واني انسان لا يفعل ذلك مع حيوان اليف جميل . على ان عقل هذه المرأة لا يمكن ان يشغل فراغ رجل مثلي ، يهتم بالدراسة والمطالعة اكثر من اهتمامه بكل ما عداهما من شؤون نفسه . وهنا شعرت بالقيد يشد على رسني ، والطوق

يضيق علي الخناق اذ ثارت هذه القطة الاليفة ، التي تأبى الا ان تكون الكل في الكل في حياة رجلها ، هل تفهم يا صديقي ؟ انها تعني ان الرجل ملك لها ؛ بجسمه وعقله وآخر فلس لديه ، والشئ الآخر هو اهم ما تهتم به ، تصور صديقك المسكين عبدا لامرأة بليدة جامدة جاهلة • »

ولم اتمالك نفسي من القهقهة ؛ فقد كان المنظر الذي تخيلته يضحك الموتى • ولكني مع ذلك اجبته قائلا

— « الا ترى انك تنظر الى الامور من وجهتها العقلية النظرية مهملا وجهتها العملية ؟ انك تريد ان ترى كل شئ امامك كاملا لا نقص فيه ، الا خفف من غلوائك يا سيدي ، واقنع بما تيسر والا قضيت حياة متعبة مملة • »

— « قد تكون متعبة ، ولكنها غير مملة ، لقد اصبح الكفاح والمقاومة جزءا من شخصيتي بل من مركبات السعادة في نظري ، والسعادة ، كما لا يخفي عليك ، أمر اعتباري ، ثم عليك ألا تنسى بأني قد قطعت شوطا كبيرا من حياتي في هذه الوجهة وهذه الطريق ، وليس من الميسور ان ارجع وأعود الى البداية من جديد في طريق أخرى • »

— « ولكن لماذا لم تستطع التصرف بطيبتك الخام كما تريد ؟ »

— « لقد نسيت تحت تأثير الصدمة الاولى ان هذه الطينة ذات ادراك واحساس وعواطف ، وانها ذات صلة بالاهل والمحيط ، وانها سوف لا تفهمني ؟ وعند ذلك سلتجأ الى الاهل والمحيط ، وعلى وجهها امارات الدهشة والغباء والخوف ، لقد فضلت المجموع ، وهل يعقل ان يتولد عندها بسهولة تفكير يستطيع ان يوازن بين الحقائق والمظاهر ؟ »

— « ليس في استطاعة امرأة ان تفهمك الا اذا كانت فيلسوفة ، ولكني موقن بأن كلهن سيحببنك لغموضك ، ولكن خوفهن سيجعلنهم يهربن منك • »

— « اراك تغالي في إطرائي • »

— « بل ارثي لك يا صديقي المسكين ! ولكن ماذا ستفعل بهذه
الطينة كما تسميها » •

فأجابني ضاحكا

— « ان امرها سهل ميسور فعليك ألا تنسى ان امثالها يتزوجن لاجل
القوت ؛ فاذا توفر المال والقوت هان كل شيء ، هكذا عزمت على ان افدي
نفسى بالمال الذي لا قيمة له في نظري ، سأقض يدي بتاتا من هذا الجنس
الذي كتب عليه لعنة الالجيال، والذي يستحيل على اي انسان ان يبحو عن جسمه
اثار السياط والعبودية بوقت وجيز • »

— « ولكنك قد لا تعلم ان الاغلبية ستعترك شاذا الى حد الجنون ؟ » •
— « بل اعلم ذلك • »

— « وستتهمك البعض بعدم الاهتمام بالمرأة الا من الناحية الحيوانية »
— « لست مستعدا لتصحيح اغلاطهم ، واني لاكون شاكرا فضلهم
لو سدوا ابوابهم في وجهي عندما يوحى اليّ شيطان الغريزة اعادة الكرة ؛
فينقذوني من الوقوع في خطأ آخر • »

— « وستتهمك البعض بالخشونة والقسوة • »

— « سوف لا اطلب منهم مصاحبتي ومصادقتي • »

« ان ذلك يعني بانك ترفع راية العصيان في وجه الجميع • »

— « فليكن • »

— « اذن فستكون منبوذاً ينظر اليك نظرة الحذر ، وحيداً لا صديق
يؤنسك ولا زوجة تحنو عليك ، وستقتلك الوحدة • »

— « يحسن الناس صنعا لو انقذوني من انفسهم ، وسوف لا اشعر
بأي حرج لفراقهم ، وخصوصا السخفاء منهم • »

— « لا افنك الا في ضلال مبين • »

ولم يجني بل تسم ، وسادنا سكوت عميق ، وعلق بصري الجائل.
في ارجاء حديقة قصره بنبتين ، أجل بنبتين ، كل منهما تسمى نبتة كاملة ،
احدهما شجرة قد شمخت بجذعها القوي ، ومدت فروعها الباسقات عاليا
تستقبل بها أشعة الشمس ، والاخرى نحيفة ضئيلة • وهبت نفحة ريح
قتلتها الفروع القوية واستقبلتها بحفيف الفرح والابتهاج ، ونظرت الى
الصغرى فلم أر لها جذعا يميل أو ورقة تهتز ••• أيعقل أن تكون الصغيرة.
اكثر اطمئنانا من الكبيرة ؟ أو يحق للصغيرة أن تتباهى على الكبيرة بهدوءها
واطمئنانها ؟ •• أو يحق لها أن تسمى نفسها كاملة والاخرى ناقصة ؟

وأمسكت بيد صديقي فجأة وقلت له

— « عذرا يا عزيزي فأنا المخطيء وأنت المصيب • »

ولم يستغرب بل قهقهه ضاحكا •• وما أشبه قهقهته هذه بخفيف أغصان
الدوحة العظيمة عندما تمر بها ريح صرصر عاتية •



عاش سبعين عاما ، ومن يعيش هذا العمر المديد يسم ، ولكن الشيخ سعيد لم يسم ، بل بقي محتفظا بكل مميزات الحياة الموفورة ، كمن يتعاطى اكيرا ضد الفناء . بقي محتفظا بصحته ونشاطه عقلا وجسما ، فهو وان بدت علامات الشيخوخة في تجاعيد وجهه وفي بياض شعره ، الا انها لم تبد في جسمه ، ولم تبد في اخلاقه ولا عقله . بقي ، كما ألفه الناس منذ الصغر ، طروب النفس ، ضاحك الوجه ، محبا للنكتة ، مرحا خفيف الروح ، بعيدا عن رزاة الشيوخ ، لا ينتقد خفة الشباب ولا تحمسهم واندفاعهم ، ويحترم مظهر الحياة المقدسة التي تشتعل نيرانها في شرايينهم فيبدو اثرها في اعمالهم واقوالهم وافكارهم ، بل وفي عواطفهم الملتمة ، وغرامهم الجدي العنيف ؛ فلا ريب في ان ينفر الشيوخ الحقيقيون منه ، وينظرون اليه بكره مبعثه الحسد لا الاحترار ، يكررون عليه تصايبه وتقليده الشباب بالرأي والقول والعادات ؛ فعذوه خارجا على طبقتهم ، بل ومن غير طينتهم .

أما هو فقد كان يتلقى هذا الاتقاد من الشيوخ بكل برود واحتقار ، لانه لا يدين بتقاليدهم ولا يؤمن بمبادئهم . وكان شعاره في كل أدوار حياته (افهم الحياة جيدا ، واقتبس أحسن ما فيها ، وتمتع بأشهى ثمراتها ، ما دمت حيا ، واذا لم يرق لك ذلك فخير لك أن تخلي الطريق لغيرك ؛ فالحياة تنكر من يتجاهلها ، وتكره من لا يحترمها ، وتمسخ من يثور في وجهها) وتعرفت على الشيخ سعيد منذ ستين . وقد انضمت فورا الى حلقة المعجبين به من الشباب الذين لم يبلغ اكبرهم سن الكهولة ؛ فقد كانت شخصيته الجذابة محط اعجاب الجميع ودهشتهم ، وكانت فلسفته قانونا لا تفرسه قوة ولا تحرسه شرطة ، ولا ينفذه قضاة . أما آراؤه التي هي نتيجة تجاربه في هذه الحياة الطويلة فقد كانت تجري الى عقولنا وتنحدر فيها كما تنحدر مياه الشلال التي لا تحتاج الى من يسوقها ، ولا تلقى عناء أو مقاومة اثناء انحدارها ؛ فلا ريب في ان نجه كانسان عزيز ، ونحترمه كاستاذ فيلسوف ،

ونرتاح الى وجوده كما يرتاح الشاعر الى رؤية البدر كاملا ينهض من الافق
متاقلا فوق الامواه المنبسطة الراكدة •

ولم يدخر الشيخ سعيد شيئا لشيخوخته ؛ فلم يكسب من حياته الطويلة
غير راتب تقاعدي ينفذ آخر درهم منه في نهاية شهره ، وولدين رباهما تربية
حسنة ، وكان لهما بمثابة الام والاب ، حتى اذا ما نبت ريشهما ، واستطاعا
دخول معترك الحياة ، تركهما وشأنهما ، واصبح يعاملهما معاملة الاصدقاء ؛
لا يذكرهما بما حملاه من تعب ، ولم يحملهما جميل وجودهما في هذا الحياة ،
ولم يقبل منهما فلسا واحدا ، وكان يرفض ما يقدمانه له بكل اباء وشهم •
ولم يتزوج بعد ان ماتت زوجته تاركة له هذين الطفلين اللذين لم يتجاوز
اكبرهما العاشرة حينذاك ، وما كان يقصد بعمله هذا الوفاء للزوجة أو تقديسا
لذكرها ، بل تقورا مما يسميه الواجب الثقيل ، واجب تخليد النسل ، ولم
يكره الزواج لانه يكره المرأة فهو أعقل من أن يكون ناسكا زاهدا في حياته ،
لقد كان من عبادها ، ولكنه كان يكره ما أحاط به الانسان هذه العلاقة
التاسلية التي هي من غايات الحياة من طقوس وتقاليد وانظمة سخيفة بليدة أذهبت
عنها روعتها وجمالها ، بل وأحالت طعمها علقما يتجرعه الانسان كما يتجرع
الدواء المر • وكما ان هذا الشيخ الغريب الاطوار لم يدخر شيئا لديناه ،
كذلك لم يدخر أعمالا صالحات لآخراه ؛ فقد كان يسكر ويفرح ويمرح
تاركا واجباته الدينية مهملا فرائضها ؛ فما صلى يوما ولا صام ، يفعل ذلك
غير خائف من جحيم الآخرة ، وعذابها المقيم • واذكر انني دخلت يوما عليه
غير متعمد زيارته ، ولكنني اشتقت الى رؤيته عندما مررت ببابه الذي لم يعرف
القتل عمره ؛ فشيخنا لا يخاف اللصوص اذ ليس لديه ما يسرق ، كما انه
لا يترفع عن ضيافة شحاذ أو عابر سبيل لا ملجأ لديه ، يأوي الى زاوية من
زوايا بيته ، ملتئما بقايا طعامه • ورأيت جالسا الى مائدة الطعام ، وخدامه
أمامه يقاسمه شرابه وطعامه • وراق لي ان أمازحه فقلت له

— « يجدر بشيخ في سنك ان يهجر ملاذ الدنيا ، ويتفرغ لآخرته ،

ويستعاض عن السكر والعريضة بالصوم والصلاة » •

فأجابني ضاحكا

— « ان صلاتي هذه لا تفيد ربي ولا تضره ، كما انها لا تعني احداً من البشر ، وربى أعقل من ان يحاسبني على شيء ليس فيه فائدة له ، او لعباده » •

فسألته مستغربا

— « وهل في عملك هذا فائدة لاحد ؟ »

فأجابني مؤكدا

— « بالطبع يا عزيزي ، ان عملي هذا فيه ربح لكثير من الناس • وهاك الحساب ان ثمن هذه الزجاجة من الخمر مائة وخمسون فلسا ، يقتسم ثمنها زارع الكرم وبائعه ، ومخمر النبيذ ومقطره ، وصانع الزجاج وتاجر القناني ، وبائع الخمر ومؤجر حانوته ، وكل من يتبع هؤلاء من عمال وخدم واتباع ، وعليك ألا تنسى ان معظم ثمنها يدفع ضريبة للحكومة ، ومال الحكومة مال كل الناس • وهي فوق كل ذلك تدخل السرور الى قلب شيخ فان مثلي ، وتفتح قريحته فتجود بما يضحك امثالك من الشباب ، ويزحزح هموم الحياة عن صدورهم ، وتلين من طبيعتي حتى تجعلني أُوأخي الخادم والفقير والشحاذ والمسكين ، وكم جلس الى مائدتي من هؤلاء عندما اشرب • وعندما يدب دبيها الى جسمي ، ويتمشى مفعولها في عروقي افتح جيبى فأجود بها فيه لهاتيكَ النسوة التعسبات اللواتي قدر عليهن ان يكسبن قوتهن بعرق نصفهن الاسفل • أترى الصلاة تكلف صاحبها اكثر من قليل من الماء لا يباع ولا يشرى ، وبقعة من الارض طاهرة ، وما اكثرها ، والتوجه للقبلة • على اننا لو اهملنا كل ذلك ، فهل تستطيع ان تفضل علي الشيخ مسعود الذي لا يفوته فرض ولا نافلة ؟ » •

— « أتعني هذا المرابي الذي يحتال على الله والقانون في تقاضي الربى
الفاحش ؟ » *

— « اياه أعني » *

فأجته مدافعا

— « ولكن هذا ممن اصبحت لديهم الفرائض عادة شخصية لا تأثير
لها على اخلاقهم » *

— « وما قولك بالشيخ صالح الذي صرح علانية بوجوب غلق المدارس
لأنها تبث الكفر ، وقتل كل من تسول له نفسه ارتكاب ما يسميه بالحرقات ،
ومقاومة كل ما يسمى تجردا او اصلاحا » أترى ربه يسر من عمله هذا الذي
يضعف شعبا بأسره ، ويجعله طعمة سائفة لكل ذئب مفترس ، ومستعمر
زئيم ، او ظالم طاغية ؟ أيسر الله ان يضطهد المدافعون عن المساكين ؟ أو يسر
الله ان يحمل رجاله على كل مدافع عن الفلاح والعاقل والفقير ، فيتهمون من
تملا قلوبهم عواطف الرحمة والانسانية بالكفر والزندقة والاحاد ليثيروا
عليهم باسم الدين كل الناس ، وحتى اولئك الذين يدافع هؤلاء عنهم . اني
على يقين بأن ربي بريء من هؤلاء ، وان لم يكن كذلك فاني بريء منه ،
لاني لا اعبد من يحمي الفني الظالم والمستعمر الفاشم . يا صديقي ان اله
الرحمة القديم قد اختفى من الوجود منذ زمن سحيق ، واضحى الناس في هذا
العصر يعبدون ، باسم الاول ، الهها يلعب تاج الذهب فوق جبينه ، وتنبعث
الصواعق والحمم من صولجانه ، ويرتل كهنته الصلاة على انعام أهول
ما اخترع العقل الانساني من متفجرات ، ويسكرون بالدماء التي تسيل
غزيرا من ضحاياها ، ويحرقون له الغازات السامة بدل البخور والعنبر . أو
هل نسيت كيف بارك ممثل المسيح اكبر حملة وجهت لذبح أتباع المسيح^(١)
بالاداة التي صلب فوقها المسيح ؟ خذها نصيحة من شيخ ناهز السبعين ، وفر
من هؤلاء الذئاب الذين يرتدون جلود الحملان فرار السليم من الاجرب » *

(١) يقصد بهذا الكلام بركة البابا لجيش موسليني الذي ارسله لفتح الحبشة .

بمثل هذه الفلسفة استطاع الشيخ سعيد ان يصون روحه من الاقدار، ويحفظها تقية بعيدة عن دنس المادة ، وينقذها من الهلاك ؛ فهو لا يسمي اعماله خطايا ، فيختلف بذلك عن اولئك الذين يرتكبون سرا كل ما يسمونه خطيئة ، ويعتقدون باطنياً بسقوطهم في هاوية الرذيلة • واظن السبب في عدم افراطه بهذه الملاذ، واعتداله بكل المتع ، واحتفائه بصحته هذه المدة الطويلة ، يرجع الى هذه الروحية والفلسفة التي يدين بها •

ولم تقعد الشيخوخة بالشيخ سعيد عن الرياضة المنشطة ، ولا أبعدته عن سبيل الآراء الحديثة التي أخذت تغمر العالم ، ولم تنقطع به عن تتبع حوادث الدنيا التي أصبحت في هذا العصر كاليث الواحد ، حتى ان الانسان ليسمع ما يحدث في طوكيو ولندن ونيويورك وموسكو والقطنين قبل أن يسمع نداء النادي في احدى غرف منزله ، وهكذا احتفظ عقله بنشاط الشباب ، فكان على الجملة أكثر شباباً من تسعين بالمائة من شبابنا الجامدين المقلدين الذين يوزعون أوقاتهم بين الدائرة والمقاهي أو أندية القمار واللهو ، وقراءة الجرائد المملوءة بالاخبار الكاذبة ، والدعايات المضحكة التي أصبحت لا تنظلي حتى على الاطفال •

وانقطعت أخبار الشيخ سعيد عن مريديه مدة أسبوع فادهم القلق ، وذهبت الظنون بهم شتى المذاهب ، اذ لم يعودهم الشيخ مثل هذا الانقطاع • وظن البعض أن الشيخ قد مل الحياة وما فيها من فحاش وأكاذيب وغدر وظلم، فهجر المدينة ليتنكس في بعض الصوامع • وقال البعض انه سافر الى حيث لا يعود ، فهو ذو نزوات لا تفارق أخلاقه الصريحة ، وطبيعته غير المقيدة •

وكنيت أشد الجميع لهفة عليه ، واستقصاء لآخاره • ولما يُست من العثور على أثر له شعرت أن جمائ الربيع قد ذوى ، وفقدت مناظره الزاهية روعتها ، فالشيخ وحده يعرف كيف يصفها بما يجعلنا نشعر بها كجزء منا ، فكنت أستصعبه الى نزعاتي الخلوية ، وأشعر عندما يتكلم عن جمال الطبيعة ان كل شيء حوالي قد اصطبغ بالوان زاهية عميقة واضحة •

واشتد ألم الذكرى في فؤادي في أحد الايام بصورة خاصة ، فقد كانت الشمس تسطع في سماء صافية ، وترى أشعتها الدافئة المنعشة على الارض والاحياء ، فتنه فيهم غريزة الحياة ، وتبعث فيهم الرغبات الجامحة للحركة والغناء والحب ، وأمثال هذا اليوم لا يقضى في المنازل ، وفي ضواحي بغداد صوامع لا تحد بجدران لمشايق جمال الطبيعة ، وفي دجلة ذي المياه الحمراء الهادرة ما يبعث في الانسان عواطف التقديس والاجلال ، وكم خيل الي عند وقوفي على شاطئه أثناء الفيضان ان تحت قدمي بقايا رفات انسان كان يقف موقفي هذا منذ أجيال ، تغمره عواطف اكثر قوة ، وانبل مظهرأ ، واعظم روعة ، فلا يكاد يقع نظره على امواجه الحمراء ، ولا يطرق أذنيه هديرها حتى يخر ساجداً وهو يرتل تراتيل الشكر لمحيي الارض ، ومنبت القمح ، ورب الخيرات . وتلقاني عند الباب موزع البريد ، وتناولت من يده مطروفاً ضخماً قدسسته في جيبى دون مبالاة وتابعت سيرى . ووصلت الى شاطئ النهر ، ساعة ، وغايتي هذه مقعد عمومي متواضع قد نصب على شاطئ النهر ، يستظل بشجرة باسقة ، ليس بقربه فضولي وقح ، ولا امرأة مهذرة ، ولا صبي مزعج ، وجلست فاتحا صدري للنسيم الرطب الدافئ . وعاودتني ذكرى الشيخ ومددت يدي الى جيبى فسقطت عفواً على الرسالة ، واخرجتها بدون مبالاة وفضضتها ، فادهشني طولها ونظرت الى الامضاء الذى بذيلها... يا للصدفة المجيدة . الشيخ سعيد . وتملكتي حيرة عجيبة اذ لم يعود الشيخ احدا من اصدقائه على المراسلة ، ولا اظنه قد كتب رسالة في حياته .

اتراه قد جمع كل ما كان واجبا عليه ان يكتبه من الرسائل خلال حياته ، في هذه الرسالة الطويلة ؟ فلنقرأ

» صديقي العزيز

كأني بك وقد فغرت فاك دهشة ، وفتحت عينيك عجا ، وكأني بك في اشد الشوق الى التهام ما تحويه الرسالة الوحيدة التي يكتبها الشيخ سعيد في حياته .

عند وصول هذه الرسالة اليك سيكون دماغ صديقك الشيخ عاجزا عن التفكير ، وقلبه ساكنا لا يخفق ، ولسانه لا يهذي ، ولا يعبر ، حتى اذا اضمحل جسده ، واستحال عصارة تقيت النبات والحيوان ، وحلت خلاصته في كيانها عاد يغرد بلسان البلبل ويضحك بشعر الازهار ، ويهذر بلسان من كان على شاكلتهم يوما ما . ستكون حياته اكثر شمولا ، وكلما سيفقده الشيخ هو هذا الهيكل البشري ، والصوت الجهوري ، وتلك الطريقة الخاصة في المعيشة والتحدث والتفكير ، وليس هذا بخسارة .

شعرت منذ أسبوع ، وللمرة الاولى في حياتي ، بألم حاد بين جنبي دام بضع دقائق ، فنفض علي عيشي ، وولد في نفسي وساوس ومخاوف لم ألقها ولم أطق عليها صبرا ، فأسرعت الى طبيب من معارفي ، وبعد الفحص قال لي بشيء من الأسف .

— « انه قلبك يا سيدي . لقد تعب ويريد ان يستريح ، وعلى الرغم من شيخوختك ، فان في استطاعة الطب ان يعطيك بضع سنين أخرى ، ولكنه يتطلب منك راحة تامة ، وامتناعا باتا ، عن الحركة المجهدة ، والانقطاع عن كل الملاذ ، والاعمال الشاقة سواء اكانت جسمية ام فكرية .

وبتعبير مختصر فهمت ان الرجل يطلب مني ان اكون جثة ناطقة ؛ فركبني الفزع .

تصور صديقك الشيخ لا يفارق فراشه ، مجبرا على ترك الضحك والتسكيت ، واللهو والشرب . تصوره عاجزا وفي حاجة الى كل الناس . وليت الامر يقف عند هذا الحد فهناك نتائج مفرقة ، اذ ان هذا الوضع سينفر مني حتى ولدي واحفادي فالانسان لا يحب المريض مهما كان عزيزا عليه ، وخصوصا اذا كان شيخا فاننا لا امل منه ، ولهم كل الحق في ذلك اذ اني سأنقص عليهم صفو عيشهم قبل ان ارحل . واما المجاملة والمداراة التي سيظهرونها لي فستزيد في عذابي ، فأنت تعلم شدة كرهى للتناق ومسيباته . سينفر مني اصدقائي بعد ان يفقدوا ما يحبهم في ، وسيؤدون ما عليهم من

دين الصداقة يضع زيارات يقومون بها كواجب ثقيل ، من تلك الواجبات المكروهة ، ولست يحاقد عليهم صنعهم • وسأصبح عبثاً ثقيلاً على كل من يجاورني حتى اجعلهم يستخون خطاي ليتخلصوا مما أسببه لهم من متاعب ، فتستحيل الحياة في نظري جريمة نكراء • كل ذلك لكي ارى مساويء الأحياء ، وأنا بهذا الوضع المؤلم ، بضع سنين أخرى •

والآن دعني التي عليك يا صديقي سؤالاً بسيطاً • تصور انك امام طريقين كليهما يوصلك الى غاية ما ، اولهما طويل يستغرق قطعه عدة ساعات ، وعر المسالك ، محفوف بالمخاطر ، مملوء بالاشواك المؤلمة ، والحشرات المؤذية ، والثاني لا يكلفك اكثر من العبور فوق هوة يستطيع ان يتخطاها الطفل قفزاً ، وبلحظة واحدة • فأيهما تفضل ؟ •• ستقول الثاني بدون شك وهذا ما دعاني الى ان اخصك برسائلي هذه دون خلق الله •

أجل يا عزيزي ان النتيجة واحدة في الحالتين ، فليس هناك في انتظاري غير الموت ، ولست بخائف منه ، فهو في نظري مظهر من مظاهر الحياة ، فعلى من يحب الحياة ألا يخشاه ، وفي استطاعتي أن أصله بلحظة واحدة بدلاً من تجرع الفصص مدة طويلة ، فلماذا لا أفعل ؟

لقد عشت سبعين عاماً أي أكثر مما يعيش معظم اولئك الذين يقف شعرهم رعباً عند ذكر الموت ؛ فلماذا لا اتقدم اليه وأحتفي به ؟

لقد صممت على ذلك البارحة ، واحتفظت بسري لاني لا أثق بأحد من هؤلاء الاغبياء الذين يقطعون أوصال الانسان بدعوى الشفقة ، ويجرعوه الفصص بدعوى الشفقة ، ويدبح بعضهم بعضاً بدعوى الشفقة • وليس في القبر ما أخافه ، ولا أحمل من الذنوب ما يسود وجهي ، وينقص علي آخر ساعات حياتي ، كما اني متأكد من أن ربي سيسر ببقايي ؛ فرحمته الواسعة وجه للخير والاحسان ، وكرهه للشر والنفاق أعظم شفيح لي عنده ؛ فأنا لم أحمل غيري حتى مشقة رؤيتي في حالة مرض أو غضب ، ولم أولم انساناً ،

ولم أغتصب مال أحد ، ولم أذكر مخلوقا بسوء ، ولم أكره بشرا سواء أكان
حييا أم زنجيا ، كافرًا زنديقا أم مسلما حنيفا ؛ فقد أدركت أن عقيدة المرء
كبعض صفاته الخلقية هي وليدة التربية وليس للمنطق أو العقل أثر فيها ؛
فمن رابع المستحيلات أن تحول رجلا عن الدين الذي ولد فيه • وإن حدث
ذلك تحت تأثير عامل من العوامل ، كان هذا التغيير طلاء كاذبا لا يستر الاصل ،
أو تمتزج العقيدة الجديدة بالاصلية فتتشيء دينا جديدا • وهذا هو السبب
في تلبل الاديان بعد توسعها ودخول أجناس مختلفة فيها •

لقد آمنت بكل دين لانه صحيح بمنطق أتباعه ، وكفرت بكل الاديان
لأنها مغلوطة اذا قيس بعضها بمنطق بعض ، على ان مما يضحك الشكلي أن
نجد أتباع المذاهب المختلفة للدين الواحد متعادين متخاصمين اكثر من أتباع
الاديان المختلفة •

وقد يلذ لك أن تعرف كيف أودع الحياة فهاك الخبر

سأختار لذلك مساء هذا اليوم الجميل المشرق ؛ فحين ينهض البدر بعد
أن تترقد الشمس ، فيملأ الاكوان بضوئه الفضي ، وبعد أن يعلو شيئا فشيئا
حتى يتربع في قبة الفلك ، سأحمل زجاجة شرابي وحقنة مخدرة (حصلت
عليها بشق الانفس) واركب القارب الصغير الذي ابتعته بما تبقى لدي من
دراهم في هذه الدنيا ، وانحدر به مع التيار ؛ حتى اذا ما بعدت عن العمران ،
وأمنت فضول أهل المدينة ، شرعت في الشرب حتى اسكر تماما ، ثم ربطت رجلي
في ثقل من الحديد ادليه في الماء بعد ان اعلو حافة القارب • فاذا ما لعبت
الخمرة بلبي ، وضحك كل ما حوالي ، ورقص البدر في سمائه ، وخرجت
حوريات الماء لاستقبالي ، غرست الابرّة قريبا من القلب ، وقثت ما فيها من
مخدر سريع المفعول • وعندما أغمض عيني ، وتختفي كل المحسوسات حوالي
يجرني الثقل الى الاسفل فاغوص في الماء واقضي هناك غير شاعر ألما •

يا لها من مية لذيدة ، يمينا يا صديقي اني لفي اشد الشوق الى تجربتها،

فودعا والى الملتقى في الحقول النضرة ، عند السواقي ذات الاثمار الياضنة
التي ستأكلها • سيكون كل جزء من كياني في كل جزء من الطبيعة حواليك ،
وتقبل آخر تحياتي لك وللأخوان • »

ولما انتهت من الرسالة شعرت بمزيج من العواطف تعتلج في نفسي
ليس فيها أثر للتشاؤم او الكآبة والحزن ، وازدحت آراء غريبة في رأسي ،
حتى خيل اليّ اني قد تجردت من حاضري المادي ووقفت بروحي على قمة
العالم • ما بالي لا اذرف الدموع وأردد الحسرات لفقدان هذا الصديق
المحجوب ؟ ولم لا اشعر حتى بالاسف ؟ يخيل الي انني لم افقده • يخيل الي
ان النسيم الدافئ الذي يهب حوالي مشبع بانفاسه ، والبلبل الصداح فوق
افنان الشجرة يترجم عن آرائه ، والنهر ، هذا النهر الاحمر ، الذي سيحيي
الحقول بما يحمله من تربة حمراء ، ما هو الا دماؤه •

وبقيت مبهوتا ، وغرقت في تفكير عميق ، ولما تماكنت روعي شعرت
بالنسيم يختطف الرسالة من يدي ويلقيها في النهر ، وان هي الا فترة حتى
التفت حولها موجة ، ثم طوتها وغاصت بها الى الاعماق ، ولكن ما حوته من
حكم وآراء بقي عالقا في ذهني ، أتذكرها بين حين وآخر لاستقي ، مما تحويه
من اخبار الفناء ، ينبوع الحياة •

المجموعة الرابعة

وعلى الفس

الطبعة الاولى - ١٩٣٨

الإهداء

- إلى الذين يضيئون للناس وهم يحترقون •
- إلى أهل الفن أجمعين •

صلوة فناء

أيتها الحقيقة الخالدة • يا قبلة الفلاسفة ، وانشودة الانبياء ، وحيية الحكماء لك اقدم صلاتي وأبتهل •

ليس لك شكل معين ، ولا صفة خاصة ، ولا محل ، ولا تاريخ • لقد صحبت الكائنات في وجودها ، وسترافقيها في اضمحلالها ؛ فلك اصلي وأبتهل •

لقد بحث البشر عنك منذ الازل ، وما زال يبحث عنك ، وسيبحث ؛ وسيلقي في طريقه ما يلاقي من رزايا وآلام ، ويتجرع في سبيل بحثه كأس المنون وهو يصلي لك ويبتهل •

لقد سمالك بأسماء غريبة ، وصنع لك معابد وهايكل وأصناماً ، وفي كل ما فعل زاد بعداً عنك ، وهو يظن انه قد قرب منك ؛ فلاجلك اصلي وأبتهل •

وفي فترة من تاريخ هذا العقل البشري الغريب الذي لم تعرف بدايته ولا نهايته ، لمح الانسان ظل نفسه فعرف في ذلك ظلك ، ولكنه صقق كما صقق موسى فوق الطور ؛ فكيف لا اصلي لك وأبتهل •

لقد حظي بلمحة منك الانبياء والفلاسفة والحكماء والعلماء ؛ فعبر كل منهم عنك بلغته ، وعلى طريقته ، ولكن البشر لم يفهم شيئاً مما حدثوا ، وسيعبر عنك الفنانون برسوم وأنغام وأشعار وأحاديث ، ولعلمهم بهذا التقرب من مستوى البشر يستطيعون أن يفهموه شيئاً عنك ، ولعلمهم بهذا التواضع سينالون مالم ينله أسلافهم ، ومهما أخفق الاولون وفاز الآخرون ؛ فكل منهم يصلي لك ويبتهل •

سأتحراك في السماء وفيما تجلوه السماء من الواح
سأتحراك في الزهر وما في الزهر من عطر فواح
سأتحراك في خريف السواقي الذي يشبه الغناء والنواح

سأتحرك في الوجوه الصباح والقباح
سأتحرك في الحياة وما في الحياة من أفراح وأتراح
سأتحرك في الموت وما في الموت من سكون وارتياح
وسأجذك في كل ذرة في العالم ، تكونينها وتكمنين فيها ثم تهدمينها ،
ولكنك دائماً تنعكسين عنها ؛ فما شكلك ؟

سأجذك في نفسي فأنت جزء مني وأنا جزء منك • ؛ فما شكلك ؟
قد أحس بك ولكني لا أستطيع أن أصفك لاني لا أعرف كنهك فامجدك
بمظاهرك ، وبذلك اصلي لك وأبتهل •

أيتها الحقيقة العظيمة الازلية الابدية أنت سبب الخير والشر ، والحياة
والموت ، والخلود والفناء ؛ فاسكبي في نفسي نوراً يضيئها ، واجلي حواسي
لازداد قرباً منك •



تِلْكَ وَرِلْ بَعْمِ

كان الثلاثة من أهل الفن ، وبسط رابعهم ذراعيه بالوصيد ، وكان كلباً
ضخم الجسم اغبر اللون يتطلع دوماً في وجه صاحبه فاتحاً فاه مدلياً لسانه
العريض . وما كان في أهل الفن ، ولكن نظراته المملوءة حبا واخلاصاً ،
وتضحيته الغالية ، وعدم معرفته طرق الغش والخداع ، هي من ابرز صفات
جنسه وصفاتهم على الاطلاق .

كان اولهم شاعرا وثانيهم كاتباً روائياً وثالثهم رساما بارعاً ، ولست
اعني بالكاتب ذلك الذي لا يجد لذة في غير كتب الادب ، ولا تهتز مشاعره
لغير ما تسطره الاقلام ، بل هو من ذلك النوع الذي تسكره الانعام المنسجمة،
وتستعبده المناظر الجميلة ، والصور الفنية ، والتماثيل الرائعة ، ويستهويه
الجمال اينما وجد . وهكذا قل عن الباقين . ولم يختلفوا في التسمية الا لأن
الكاتب لا يستطيع ان ينقل احساسه للناس بغير بيانه ، والرسام بغير ريشته،
والشاعر بغير قريضه ، وما عدا ذلك فان بينهم جميعاً وبين كل انواع الفن
صلة روحية وثيقة لا يفهمها غير من وهب احساسهم الدقيق ، وعواطفهم
الرفيعة ، واعتباراتهم الغريبة .

وما كانوا جالسين على أثاث فاخر من لين القטיפه التي تبطن مقاعد
الصاج والابوس ، بل على كراسٍ لا تكاد تماسك اجزاؤها ، ولا يمكن ان
تحمل غير اجسامهم الهزيلة وارواحهم الخفيفة .
ولم يختاروا من بقاع الله قصراً فخماً في حديقة غناء ذات جمال ورواء ، بل
مقهى عاماً تود فيه ضوضاء العوام وجلبتهم ، يشرف على منظر طبيعي بسيط
جداً لا تصنع فيه ولا زخرفة .

وما كانت دراهمهم المعدودة ، وجيوبهم الخاوية لتسمح لهم بملء
بطونهم من فاخر الاطعمة ولذيذ المشروبات والمسكرات .

وقد اجتمعوا في محلهم هذا الذي اعتادوا الاجتماع فيه كل يوم ،
يأتونه في مواعيد مضبوطة ليتنادروا ويتحدثوا • وقد كانوا كلهم في ذلك
اليوم في حالة بؤس وشقاء كثيرا ما تصيبهم ، ولكن يندر أن تنصب على
رؤوسهم جميعا مرة واحدة ؛ فللشاعر حبيبة يحبها بكل ما في نفسه من
اخلاص وعاطفة ، وتحبه هي بقدر ما يحوي جيبه من الاصفر الرنان ، وليس
على وجه البسيطة شاعر صادق الحس يكنز المال أو يعرف قيمته ، ولم يشذ
صاحبنا عن هذه القاعدة ؛ فكان هناؤه بقربها في صعود وهبوط ، وقد تلقى
قبل بضع ساعات طردا شنيعا منها اذ كان خالي الوفاض ؛ فخرج من دارها
كما خرج آدم من الجنة ، ولكنه غير حاقد ولا غاضب ، يعلل نفسه بالرجوع
يوما ، ناسيا انها لا تريد غير ماله ؛ فما شأنه وحقيقة عواطفها ما دام يتمثل
بجمالها ما يوقظ نفسه الحساسة ، ويبعث الشعور في قلبه حيا فيصوغه
شعرا رائعا •

أما الكاتب المسكين فقد أخرج للناس قصة صرف فيها الكثير من وقته ،
وأسال فيها نفسه ووجدانه حتى خلق منها قطعة فنية راقية ، ولكن قيامة العالم
قامت ضده فقد كشف بكتابه عما يظن بعض الناس من شرور وآثام ؛
فكان كتابه عبارة عن مجموعة مدهشة من الحقائق المرة ، والقضايا المستورة
التي لا يحلم مرتكبوها بوجود من يجزؤ على كشفها • ولما وجدوا أنفسهم
أمام الامر الواقع اختلقوا له التهم ، وساروا به الى القضاء ، وسلبوه هنالك
آخر ما لديه من مال ، بعد أن مزقوا كتابه ؛ فأمسى وهو لا يدري مصيره في
غده •

أما المصور فقد كان يشغل وظيفة صغيرة في إحدى الدوائر ، ومن سوء
حظه أن كان رئيسه كثير الاغلاط ، بينما كان هو بطبيعته حساسا كثير
الانتقاد ؛ فأضمر له الرئيس الشر ، وبدأ ينتهز الفرص للحط من كرامته ،
والفنان عزيز النفس ، فما كاد يشعر بهذه المعاملة حتى ترك مصدر قوته ،

واستقال من عمله غير آسف مع انه يعلم جيدا انه في محيط لا يشتري كل
رسومه بفلس واحد •

صوب الكلب نظراته نحو سيده المصور ، ثم وثب وأخذ يتسمح به
تجبا ؛ فمد سيده يده وأخذ يحك رقبة ملاطفا ، ثم خاطبه قائلا :

— ماذا ياسهم ؟ يخيل لي انك تشاركني في شعوري دائما ، اني أهب
نصف حياتي لمن يخبرني بحقيقة ما يجول في خاطرك ؟

فضحك الشاعر وقال معترضا

— ما كنت أظنك تقدر الكلاب وتحترمها الى هذا الحد !

— اني لا أستنكف من ذلك ، ولو أردت الحقيقة فان سهما هو صديق
وفي ابادله العطف ، ولا أعتقد أن هنالك من يسهر على سلامتي ، ويتألم
لمصابي ، ويحنو علي مثله •

وكان الكلب ينظر الى الاثنين أثناء المحاورة ، وما رأى السكوت مخيما
حتى نبج كأنه يستحهم على الحوار ؛ فضحك الكاتب وقال :

— ان سهما يشكر عواطفك الرقيقة ، ودفاعك عن أبناء جلدته •

وسكت هذا الاخير مدة ثم ثار وأخذ يزمجر قائلا :

— أية حالة مملة هذه ؟ وكيف نستطيع البقاء في هذا الوضع • هل
في العالم يا ترى من يفوقنا في البؤس ؟

فأجابه المصور هازئا

— انك لا تستطيع ان تحوز قصب السبق حتى في هذا المضمار •
التفت حواليك قليلا تجد من هو أشد بؤسا منك بمراحل •

— ولكن ما هو مصيرنا غدا ؟ لقد صرفنا اليوم آخر فلس لدينا ،
ولا أظن ان هنالك من يمد يد المعونة لنا اذا رأنا على وشك الموت جوعا •

سيقولون عنا (اناس عاطلون لا يحسنون من الاعمال شيئا فهم يستحقون.
هذا المصير) • ولم يستطع الشاعر كتمان غضبه في هذه اللحظة فثار معترضا •

— كفاك تظلما يا صديقي ؛ ولا تزد في آلامنا بسفاسفك • انك تستطيع
قراءة ما في نفوس الغير بمهارة شيطانية • ولعل هذه الخلقة هي أحسن ما فيك
بل اقبحها في بعض الاحيان ••• الغد ••• الغد ••• ما اسخفها من
كلمة ؛ وما أسخف اولئك الذين يفكرون فيها ••• ما لغد ولنا ، بل ما لنا
ولهؤلاء الذين قدت قلوبهم من صخر ، هؤلاء الذين لا يرون الاشياء الا
عندما تكون تحت انوفهم مباشرة ••• نحن العاطلون ؟ لهم الله •• اننا نذبح
انفسنا ، ونقطع اكبادنا ، وتحمل من عذاب النفس وجهد الاعصاب شيئا
عظيما ؛ كل ذلك لكي نخرج لهم ما يقتلون به اوقات فراغهم • هؤلاء الانانيون
الملاعين ••• من لي بمن يضعهم تحت سلطتي •

فقاطعه الرسام وسأله متحديا

— وماذا تفعل بهم لو تم لك ذلك ؟

فسكت مليا ثم أجاب مبتسما

— لا ادري • اني اعفو عنهم على الغالب • انهم اطفال كبار • ليس
الذنب ذنبهم • انه ذنب طبائعهم وما فطروا عليه •

فأضاف الكاتب شارحا

— اؤكد لكم أنني لم أكن انتظر منه غير هذا الجواب • ان نفوس
الفنانين لا تستطيع احتمال الحقد أو الانتقام • انها ارفع درجة من مستوى
نفوس بقية الناس • ان قدماء الاغريق كانوا يضعون الابطال والنبغاء في
مصاف الآلهة ، أما أنا فأميل الى أن أضع هؤلاء الابطال ومن جملتهم الفنانون
النابعون في منزلة تقرب من منزلة الانبياء • الا تعلمان ان الفنانين يوحى
اليهم كما يوحى الى الانبياء ؟ ألم يوح اليك ايها الشاعر يوما ؟ ألم تجد في

بعض الاوقات انك تكتب قصيدة عصماء ، لا تدري كيف خطر في بالك موضوعها ، ولا تعلم كيف صغت قافيتها ، فكتبتها وكأنها تملى عليك ؟ وأنت أيها المصور ألم تضع تخطيط لوحة دقيقة الصنع متقنة الالوان ذات مغزى عظيم دون ان تعرف كيف تم ذلك في ذهنك ؟

فهتف المصور موافقا

لقد أصبت كبد الحقيقة !

وتساءل الشاعر

— ان ذلك يحدث لي أيضا ؛ ولكن كيف تمل ذلك ؟

— ان الامر أبسط مما تظنان • ان نفوس الفنانين اكثر احساسا بالجمال ، ومواطن الفن من نفوس غيرهم ؛ فقد يمر اناس كثيرون بمنظر من المناظر دون ان يلتفتوا اليه ، ولكن قد يمر به مصور فيعثر على مراكز كثيرة قد كمن فيها الجمال فتنتطح في أعماق ذهنه ، وتبقى راكدة هناك ، وقد يتفاعل بعضها مع بعض بصورة لا شعورية فتتج أثرا ثمينا يبرز للوجود عند أول حافز •

وأضاف الشاعر متفلسفا

— ما أشبه ذلك ينبوع دافق يتفجر من بين الصخور حينما يجد موطننا ضعيفا ومخرجا ملائما بعد ان يكون قد تجمع من قطرات المياه التي تسقط على الروابي والجبال •

فربت المصور على كتفه مستحسنا وقال

— تشبيه بديع ايها السيد الشاعر

وبعد انتهاء هذه المحاوره الفلسفيه وجم الجميع فخيرهم عليهم السكون ، والتفت المصور باحثا عن كلبه فلم يجده بجانبه ، فأخذ يناديه فلم يأت ، وبعد برهة وجيزة رآه يداعب كلبه يدل منظرها ومظهرها على العز والدلال فقَالَ ضاحكا

— ترى كلبه من هذه ؟

فأجاب الكاتب :

— لقد خرجت من ذلك القصر المنيف •

فضحك الشاعر وقال :

— انها كلبة سرية ، ولكنها غير متكبرة • لقد وجدت في سهم شيئا كثيراً من جمال الذكور عند الكلاب ، وأظنها ستخطبه لنفسها دون التفات الى مركزه الادبي والمادي • يخيل الي ايها الرفاق ان الكلاب أسعد ، بل أعقل منا في بعض الاحيان • الا انظروا اليهما والى امارات السعادة التي تلوح جليلة في نظراتهما •

ولم يكذب ينتهي من كلامه حتى كان المقهى يضج بضحكاتهم البريئة الصاخبة فقد كانت نكتة ظريفة حكيمة ، وانفض الجمع بعد ذلك ، وقصد كل منزله •

ودخل الشاعر غرفته ، وتبعته الخادم تحمل العشاء فوضعت أمامه وخرجت • ولم يشعر صاحبنا بدخولها ولا بخروجها ، ولم يلتفت الى ذلك العشاء البارد الموضوع فوق منضدته الحقيبة بجانب قطعة الخبز الجافة •

وسالت بضع عبرات من عينيه • • لقد كان المسكين يشعر بعاصفة من التعاسة تزمجر بين جوانحه ، ولم يلبث ان وثب من مجلسه ، وتناول قلماً وقطعة من الورق سطر عليها ما يقارب العشرين بيتاً من الشعر ، ثم نهض مثاقلاً فارتمى على السرير ، ووضع رأسه على الوسادة ، وراح في سبات عميق •

ودخلت الخادم عندما كان يكتب فرأت القطة تنظف الاناء من البقايا فرفعته ، والتفتت الى سيدها فرأت في مظهره ما اريعها • لقد كان وجهه يلتهب حرارة ، وعيناه محمرتان ، وفي مظهره ما يدل على ان نوبة قاسية من الحمى قد استولت عليه فخرجت وهي تتمتم •

— انه مريض ••• يا لسيدي من رجل تعس •

واتبه صاحبنا صباحا على صوت صياح قد ملأ الغرفة ، فوجد صديقيه بجانب المنضدة ، وكان الاديب يتلو القطعة الشعرية باعجاب مفرط ، وحماس شديد ، والمصور بجانبه يصغي لاهثا جاحظ العينين فسألهما دهشا

— ماذا حدث ؟

فاجابه الاديب •

— ماذا حدث ؟ لقد آتيت بمعجزة المعجزات ايها البطل •

— ولكن عم تتكلم ؟

— عم أتكلم ؟ أظنك لا تقدر قيمة ما تكتب ، انك متواضع دائما ؛
ولكن ليس لك حق الآن في هذا التواضع •

— أكاد أجن !

وتقدم بسرعة منهما فاخطف الورقة من بين يديه فوجدها قصيدة.
عنوانها (الشاعر والذهب) •

ودخلت الخادم في تلك اللحظة تحمل ابرق الشاي فصرخ في وجهها

— من وضع هذه الورقة على المنضدة ؟

فأجابته حائرة :

— لقد كتبتها أنت عند العشاء • لقد رأيتك بعيني هاتين عندما دخلت.
الغرفة لارفع بقايا الطعام وقد وجدت في مظهرك ما أرعبني ، لقد كنت فاتحا.
عينيك كأنك لا ترى شيئا وانت تكتب •

وضرب الشاعر جبهته بيده وقال :

— يا الهي كيف نسيت ؟ لقد كتبتها وأنا في حالة تشبه الغيوبة أو

السكر الشديد •

وعندها صرخ المصور :

— لقد أتاك الوحي ايها العزيز • وهذا مصداق نظرية صديقنا الكاتب •

لو كنت حاضرا لاتخذت منك نموذجا للوحة خالدة •



ليس ما أقصه عليك ايها القارئ قصة واقعية ، ولا هو من نسيج الخيال ، اذ ما هو الا حلم اثار اهتمامي لأ تساق مشاهدته ، وارتباط اجزائه ، وما عهدت الاحلام (واحلامي على الاخص) ان تكون كذلك .

رأيت فيما يرى النائم اني في مدينة واسعة قد بنيت على طراز غريب لا هو بالجديد ولا بالقديم ، ولست ادري أجمع كلتا الميزتين ؟ أم فقدتهما معا ؟ . المدينة غريبة عني تماما ، لا يخطر في بالي اني رأيتها ، لا في سفراتي ، ولا في الافلام السينمائية العديد التي شاهدها ، حتى ولا في الصور ، وتأكدت بعد امعان الفكر ان هذه المدينة لا تعيش في العصر الحاضر رغم بعض المظاهر التي تخالف ما ذهبت اليه ، وتذكرت فيما قرأت من القصص القديمة وصفا ينطبق على بعض ابنتها وقصورها ، ولقد رأيت بعض هاتيك الزخارف والنقوش في المتاحف ، لذلك استغربت ان أجد السيارات تمرق في شوارعها . ولاقطات الامواج الاثيرية قد نصبت فوق سطوح منازلها ، واعلانات السينمات ماثلة في شوارعها ، وكنت واقفا فوق برج شاهق ، يشرف على ميدان واسع قد تجمهر فيه خلق عظيم ، وسمعت الجمهور يهتف مهللا لرجل قد تصدر سيارة فخمة مكشوفة ومزينة بالاعلام ، وكانت السيارة تتبختر بكل عظمة ووقار بين صفوف الجمهور المتحمس ، ودفعني شوق ملح الى رؤية وجه راكبها بوضوح فسهوت وأخذت أميل بجسمي الى الاسفل شيئا فشيئا حتى فقدت موازنتي ، وهويت هابطا في الفضاء . وهبط قلبي رعبا ، ولكن سرعان ما هدأ روعي عندما وجدت انني اهبط ببطء غريب . وشعرت بأنني قادر على الطيران ، فحركت يدي ، وجمعت قواي ، ووثبت كما يفعل السابح في الماء . وكم كان سروري عظيما عندما وجدت انني استطيع المروق بخفة الطير في كل الجهات .

ونزلت وسط الجمهور ، وسألت أحدهم عن سبب هذا التجمهر ،
فرايت الرجل ينظر الى ناحيتي وقد تجلت في عينيه نظرة تجمع بين الرعب
والبلاهة ، فاعدت الكرة ووجدت الرجل يفغر فاه بشكل مضحك غريب ،
فأخذته من يده وهزته ، فأقلت مني وركض يصرخ كالمجنون ، وأعدت
مع آخر فحصلت على النتيجة نفسها يا للشيطان أيعتدل ان أكون لابسا
طلاقة الاختفاء التي ورد ذكرها في الف ليلة وليلة ؟ وأردت ان أقوم بمجهود
أخير لاكتشاف حقيقة الامر فاقتربت من رجل منعزل عن الجمهور ، ولكمته
بخفة ، فالتفت مذعورا ، وأعدت الكرة بلكزة مؤلة ، فهرب الرجل صارخا ،
وكان الشياطين تطارده • يا للغرابة !ميزتان عظيمتان • القدرة على الطيران ،
والاختفاء عن الاقطار • تالله ان هذا لا يكون الا في عالم الاحلام ، وخالجنى
مرح صياني ، فصفت وققرت في الفضاء ، وحثت فوق الرؤوس مليا ، ثم
هبطت في وسط السيارة الفخمة مقابل الرجل العظيم •

ووجدت امامي رجلا ضخيم الجسم ، متنفخ الوداج ، يتيه كبرياء
وغرورا ، يدل بريق عينيه على ذكاء مفرط ، ولكن هيئته كانت تدل على الترفع
والمعرفة •

وكان الى جانبه رجلان التفت أحدهما اليه ، وبعد ان فرك يديه مرارا ،
واختزل قامته وتصنع الخضوع ، قال بذلة ومسكنة :-

— الا انظر ايها الرئيس الجليل الى هذا الشعب المسكين الذي عرف
الآن كيف يقدر رجاله العاملين ، انه يطير فرحا لتسليمكم هذا المنصب ، لانه
ينتظر الخير على يديكم ، انه ينتظر الاصلاح والرفاهية ، وسيتمتع في ظلكم
بالراحة والهدوء والسلام •

فشمخ الرئيس بافه وأجاب بمظمة

— ان هذا من أهم واجباتنا ، وليساعدنا الله على تحقيق هذا الامل •
وكانت السيارة قد وصلت الى بناية غريبة الشكل تمتاز عن بقية المنازل

بأبراجها العالية وابوابها الضخمة المزخرفة ، وما كاد الرجل العظيم يترك سيارته حتى انطلق هتاف عال من حناجر الالوف ، وعندها برقت عيناه ببريق الفوز ، وتوجه نحو البناية ثم غاب فيها .

ووجدت نفسي محاطا بالجمهور المتحمس بحيث لم أجد فسحة انقل فيها قدمي فقفزت في الفضاء ، وحلقت فوق البناية ، ثم هبطت في داخلها ، وبقيت ادور في اروقها الواسعة حتى رأيته يدخل إحدى الغرف بين صفين من الحرس ، ووراءه جمهور كبير من الرؤساء والوجوه والاعيان .

ودخلت مع الداخلين ، وأدرت انظاري أبحث عن محل اجلس فيه ، ولما رأيت المقاعد مملوءة ادركت ان لا مناص من الجلوس على حافة المنضدة الضخمة التي يجلس وراءها الشخص العظيم .

واستتب المجلس أخيرا ، وخفت الضوضاء ، واتهى المهنون من كيل عبارات التلق والمداهنة ، وعند ذلك القيت نظرة شاملة على الحاضرين ، فوجدتهم يشلون مختلف طبقات الشعب ، وكانوا ينظرون الى ذي الشخصية البارزة بعيون منكسرة ، ونظرات مسكينة ذليلة .

ونهض من بين الحاضرين رجل قد اثقلت رأسه عمامة سوداء ، وانطلق يهدر حتى ملأ الغرفة بصياحه ، وكافت عيناه المحمرتان تنظران شزرا ، وكأنهما تقدحان شررا .

— يا فخامة الرئيس لقد ضاع الدين . وماتت الفضيلة ، وانحطت الاخلاق... فهذه المدنية الملعونة مازالت تنشر افساسها الخبيثة، وسمومها القاتلة، فترسلها بشكل افلام سينمائية تارة ، وفي مسكراتها واجسام راقصات تارة اخرى . لقد انتشرت عوامل الفساد ، وسادت القوضى ، وعم الفجور ، واتهكت الاعراض . لقد اختارك الله لانتقاد هذا البلد ، فاضرب بيد من حديد ، وليكن الله في عونك .

وبعد ان جلس قام آخر فعدل نظارته، ومسح جبهته ، ووزع ابتساماته على

الحاضرين ، ثم شرع يقول بلهجة تدل على عدم التحزب ، وكأنه يلقي نتيجة بحث علمي •

— اضم صوتي الى صوت العلامة صاحب الفضيلة فأقول : ان الشعوب الجاهلة لا تفرق بين الفث والسمين ، فهي تندفع وراء المغريات ، وتحرق نفسها بسوء تصرفها فهي بحاجة الى العناية التامة ، والمراقبة الشديدة لانها كالطفل القاصر •

وعندما جلس لمحت رقعة تطل من جيبه وكان يتلمسها بين حين وآخر كأنها كنز ثمين أو صك من صكوك الغفران ، فاثار ذلك فضولي فانسلت الى جانبه ، واخرجت الرقعة ولما نشرتها وجدتها شهادة عالية من جامعة أجنبية راقية •

ونهض بعد صاحب الشهادة رجل نحيف عصبي المزاج فنصب قامته كالديك ، ثم رفع عقيرته صائحا

— هنا في الخارج يقف هذا الشعب الذي ملأه الفرح كأنه قد تنبأ بيوم الخلاص والانطلاق من قيود الجهل والتأخر • سيكون هذا اليوم من الايام المشهودة في تاريخ هذه البلاد ، سيظهر الحق ويزهق الباطل ، وستود الفضيلة ، وتذب الحياة من جديد في جسم هذه الامة ، وتستعيد غابر عزها •

وجلس الخطيب المصقع ، وهو يدير انظاره بين الحاضرين ، يستجدي عبارات الاستحسان • ولم يخل جاره عليه بمباراة مجاملة وتشجيع فالتفت اليه قائلا

— أحسنت ايها الزعيم • لقد اختارك الشعب لتكون زعيمه بحق • وعند ذلك تنحنح صاحب الشخصية البارزة ، ثم وقف خطيبا ، وهو ينتفض من شدة الاشغال ، فقال

— ان الحكومة قوية جدا وستضرب بيد من حديد في سبيل صالح

الشعب ، وفي استطاعتنا ان نصدر أعظم القرارات خطورة بدون خوف
ولا وجل ، فاطمئنا على مصير البلاد .

ثم جلس وراء منضدته وقد بدا العزم والاصرار في عينيه ، ومد يده
فضغط زراً في حافة المنضدة ، وبأسرع من لمح البصر ارتفع غطاء المنضدة ،
وانطلقت منها رزم عديدة من الورق ، ومرقت من النوافذ كالسهم ثم
انتشرت في الفضاء ، واندفعت مع الرزم الى الخارج ، وما كادت تصبح في
الفضاء حتى انحلت بيد سحرية ، وانتشرت الاوراق وكادت تحجب وجه
الشمس ، ثم هبطت فوق رأس الجمهور المحتشد ، فتلاقتها الايدي ، واخذ
الناس يقرأونها باهتمام .

وان هي الا هنيهة حتى رأيت ، وكنت قد حلقت عاليا في الجو ، ان
ابواب السينمات قد اغلقت ومزقت صورها واعلافاتها ، واقفلت ابواب
المراقص ورفعت لوحاتها ، وهجم الجمهور على الحانات فأراق الخمر في
الطرق ، ولاحظت ان بعضهم كان يريقها في جوفه خلسة ، وحطمت
الكرامافونات في المقاهي ، ونزعت لاقطات الامواج ، وكسرت الراديوات
وبقيت هذه العاصفة الهوجاء مدة من الزمن تكتسح كلما يمت الى الفن
بصلة . ثم همدت حركة الجمهور ، وساد المدينة جو عجيب هادئ اشبه
ما يكون بجو مقبرة واسعة . واقبل الليل وتألفت انوار الكهرباء في الشوارع
الواسعة الميتة ، ورأيت وانا في اعالي الجو ثلاثة ابنة تمتاز بضخامتها وفخامتها
وتألقها بالاضوية الساطعة ، ولما هبطت واقتربت من اولها ، وجدت صاحب
الشخصية البارزة بين جمع من اصدقائه يلعبون الميسر وهم يدخلون
ويقفون . واتقلت الى الثاني فاعجبني حديقته الغناء ، ونافورته الجميلة
التي كانت ترطب الهواء بياهاها المتدفقة ، ورأيت صاحب الفضيلة بين نسائه
الجميلات واطفاله ، ويظهر ان الله قد انعم عليه بزنة الحياة كاملة جزاء
وفاقا لدفاعه عن الفضيلة والدين . أما ثالث هذه المنازل فكان منزل الزعيم
الشعبي ، وقد ادهشني ان اسمع عزف آلات الطرب ينبعث من جوه ، فهبطت

الدار ، وكم كانت دهشتي عظيمة عندما رأيت ثلاث راقصات من اولئك اللواتي لم يعد لهن ما يعملنه ، يرقصن بين حفل كبير من المدعويين الذين كانوا يكرعون الخمر بشراهة ، ويعنون ويطربون ، ووجدت في الباب شرطين يحرسان المدخل ، ويردان فضول المتطفلين ، وراقني ان اقضي ليلتي هنا ، فانزويت في أحد الاركان ، وبقيت اتمتع بالسهرة الشائقة ، ثم نمت حتى ادركني الصباح .

واستيقظت في صباح الحلم من نوم عميق خلته استمر بضعة اشهر بدل بضع ساعات قليل الاحلام طويل كنهارها ولعل من اغرب طبائع الحلم ان نجد الوقت خلاله يمر بسرعة ، هائلة حتى لتخال الاسبوع منه لحظة من لحظات اليقظة .

وهكذا وجدت نفسي عند اليقظة في فصل الصيف ، فشعرت بالحرارة تكاد تصهرني ، فوثبت طائرا في الفضاء مرتفعا وراء النسيم البارد لا تخلص من لفح السموم ، واشرفت من موضعي الشاهق على المدينة كلها ، ولفت نظري ميدانان كبيران قد ازدحمت فيهما الجماهير ، فدفعني الفضول الى الهبوط ، ولما شارفت الميدان الاول رأيت صفا طويلا من السيارات المختلفة الحجم ، وبجانبا عدد كبير من المسافرين ، وقد علمت من نوع البستهم ، ولهجاتهم ، وأحاديثهم ، انهم موظفون وملاكون وتجار قد قرروا الهرب من ذلك الحر المهلك الى المصائف الجميلة ذات النسيم العليل المنمش ، حيث اللذائذ والمسرات ، والوجوه الحسان . ووقف أحدهم يشرح برنامج رحلته فقال

— سأزور كل السينمات ، وسأستعرض كل الراقصات ، وسأشرب ما يغنيني عن سكر سنة كاملة .

فضح رفاقه بالضحك ، وهتف آخر مازحا

— ستكون رحلة الصيف رائعة هذا العام ، مليئة بالمباهج والمسرات ،

فشكراً لرئيسنا العظيم الذي عرف كيف يرغمنا على توفير دراهمنا ، وادخارها
لهذا اليوم العصيب •

واتقلت طائراً الى الميدان الثاني فرأيت جمعا هائلا من العمال يرتدون
اسمالا بالية ، وقد اختفى لونهم ولون البستهم تحت طبقة كثيفة من الاوساخ
والاتربة ، وكانت الشمس تصب على ابدانهم نصف العارية شواظا من نار ،
وكانوا يحركون ايديهم بمعاولهم وارفاشهم بملل ، وكان العرق يتصب
غزيرا من ابدانهم المنهوكة ، ولما حل وقت الراحة تمدد قسم كبير منهم تحت
افياء النخيل ؛ ولفت نظري أحدهم وقد انزوى في أحد اطراف الميدان ؛
وكانت عيناه الحالتان تجولان كأنهما تخشيان رقبيا ، أو تتقيان عدوا ، ثم
أخرج من عبه مزمارا وشرع يتفخ فيه نفعا عذبا ما كاد ينتشر ويسمع حتى
وثب الجميع وقد ارتسمت على وجوههم امارات النشاط ، وشرعوا ينفون
ويرقصون • وفجأة ، وبدون سابق انذار ، رأيت شرطيا في وسطهم وكأنه
هبط من السماء يخطف المزمار ويحطمه صارخا فيهم ، ايها الكلاب ألم
تقرأوا المنشور الاخلاقي؟ •

وشعرت مرة أخرى بالزمن يمر أمامي بسرعة الرياح ، وكانت الوجوه
التي تمر امام ناظري تزداد قسوة وشراسة ، وكانت النظرات الوديعة تتحول
بصورة تدريجية الى نظرات شذراء بلهاء كنظرات المجانين والمصابين
بالهستيريا •

وشعرت فجأة بأن الجو قد تلبد بغيوم القوضى ، وسمعت همهمة
عاصفة التمرد تقرب رويدا رويدا وتشتد ، ووجدت نفسي فجأة أمام منظر
هائل • رجل شيطاني الهيئة يشع الخبث من عينيه قد وقف خطيا يندد
بصاحب الشخصية البارزة وبسياسته ، ثم أخذ يحرض الجمهور على العصيان
والتنرد ، مسميا ذلك العهد بعهد الطغيان والظلم والضغط على الحريات ،
وكانت آذان المتجمهرين تلتقف كلماته بشغف وشوق ، وانطلقت الحيوية

المخمدة ، والاعصاب المجبوسة ، والعواطف المكبوتة من عقالها في هذا الجو الخاق ، وما هي الا هنيهة حتى تحول الجمع الى كتلة هائلة مرعبة تنذر بالويل والثبور ، وعظائم الامور ، وصرخ أحد الحاضرين موتا للطغاة ، فلتحطم صاحب الشخصية البارزة ، وانطلق الجمع كالعاصفة الهوجاء يصحبها بريق يعمي الابصار ورعد يصم الآذان ، حتى اذا ما قربوا من البناية ذات الابراج ، وقف في وجوههم صف متراس من الحرس ، يصب نحو صدورهم الموت الزؤام ، وتذكرت الرجل العظيم ، واعترتني رغبة ملحمة في رؤيته فوثبت في الهواء ، ودخلت من النافذة المفتوحة فرأيت نفسي في الغرفة المعهودة ، ولكنها كانت خالية حينذاك الا من صاحب الشخصية البارزة ، وكان واقفا قرب النافذة لا يجسر حتى على اخراج رأسه ، مضفر الوجه ، يرتجف فرقا ، ويتصبب جبينه الواسع عرقا باردا .

حدث في تلك اللحظة ما لم يكن في الحسبان . فقد همدت حركة الجمهور مرة واحدة وسكت عن الصخب والصرخ بصورة غريبة حتى أصبح وكأنه على رأسه الطير ، وسمعت على الاثر صوتا موسيقيا عذب النبرات يملأ الجو ، ويقترب شيئا فشيئا فيزداد وضوحا وسحرا ، وركضت الى النافذة ، واطللت برأسي مع رأس الرئيس فرأيت شبح فتاة عارية تطير في الفضاء ، يغطيها وشاح من شعر ذهبي طويل قد استرسل متموجا يلعب تحت أشعة الشمس حتى قديمها ، وكانت تحمل مزمارا تنفخ فيه فتخرج السحر الحلال . وكانت النغمات تنزل كالماء البارد على الجمهور المتقد غضبا فتحدث عجا ، وعند ذلك بدأت الاسارير تنبسط ، والنظرات ترق ، والشفاه تبسم ، واهتز اكثر الحاضرين حساسية ، راقصا على النغم ، وبعد فترة وجيزة انقض الجمع ، وذهب كل الى حال سبيله ، وهو يعني على ليلاه .

ودخلت الملاك من النافذة واتصبت أمام الرئيس بقامتها الهيفاء ، فلهت اعجابا ، وعندما نظرت في عينيها الحلتين شعرت بأني أكاد ادوب رقة ، ثم سمعتها تغرد وتقول

— ايها الرئيس العظيم اني أنا الفن الذي طردته ظلما وعدوانا من بلادك التي هي في أشد الحاجة اليه • ان هذه الطبقة المسكينة تتحمل اكبر نصيب من مشقات الحياة ، وهي الوحيدة التي تشعر بثقل اعبائها ، ولولا وجود ما ينسبها هذه المتاعب لما تحملت نصيبها ، ولتمرت وأنت امرا إذا ، وقد رأيت النتيجة بعينيك • لقد استخلصتم كل المتع لانفسكم ، فمن العقل ان تتركوا لهذه الطبقة ما يخدرها عند تجرع كأس العلقم • لم تكن تنتظر مني ان انقذك ، واقف منك مثل هذا الموقف ، ولكن عليك ان تعلم ان الفن ينشر السلام ، ولا يعرف الانتقام ، فاذهب بسلام ، وكن عاقلا •

ثم طارت وهي تنفخ بزمارها فتخرج السحر الحلال ، ووجدت امارات العزم تنبث مرة أخرى من عيني الرئيس ، وانتصب وراء المنضدة مرة أخرى ، وضغط زرا آخر ، ثم أشار بيده إشارة سحرية فاذا برزم الاوراق تنبث من الخارج الى الغرفة وتراكم فوق أرضها • وشعرت ببرح صياني ، فارتيت بين هذه الاكداش من الاوراق ، وأخذت اتمرغ فوقها ولم البث ان رأيت الرئيس يوقد عودا من الثقاب ، ويرميه بين الاوراق لاحراقها ، فوثبت مرعوبا ، وانتفضت غير حاسب لسقف الغرفة حسابا ، فارتطم رأسي بالسقف بشدة ، وانتهت مذعورا •

ووجدت نفسي متدحرجا من فوق السرير الى اسفل الغرفة ، وكان رأسي قد ارتطم بحافة أحد المقاعد • ورأيت أخي في آخر الغرفة يكاد يهلك من شدة الضحك ، وطرق مسمعي نعمات هادئة عذبة تملأ جو الغرفة مختلطة بحفيف المروحة الكهربائية ، وسمعت في الخارج مناديا يصيح (الوزارة والاصلاح الاخلاقي) فأدركت انه بائع الصحف يروج بضاعته •

ونفضت ويدي على رأسي لتحسس موضع الالام ، ثم اقتربت من أخي استفسر منه عن سبب ضحكك • فقال ، وهو لا يزال يغص

— لقد وجدت بين مجموعة اسطواناتك هذه (السمفونية) ذات الاسم الغريب (شهرزاد) ، ولست مولعا بالموسيقى الغربية مثلك ، ولكن الاسم

أثار اهتمامي فاردت ان اسمعها كلها ، وبدأت بالاسطوانة الاولى ، ثم اتبعتها
بالثانية ، وقد ادهشني ان أراك تتحرك في نومك على النعم ، فتتحرك يديك
تارة ، ورأسك تارة أخرى ، حتى لكأنك ترقص ، ولما وصلت الى الاسطوانة
الرابعة وهي (العيد في بغداد) ازدادت حركتك حتى سقطت على الارض .
هل آذتك السقطة ؟

فأجبت وأنا أتأوه وأتحسس موضع الالم .

— دعنا من هذا . واخبرني هل أعجبتك الموسيقى الغربية هذه المرة ؟

فأجابني معجبا

— يا لها من قطعة فنية رائعة . انها شرقية الموضوع كما ترى . ما اسم
الملحن ؟ (ريمسكي ... كورزى ... كوف) اسم ثقيل ، هو روسي على
ما أظن ، وشرعني أيضا ؟

فأجبت ضاحكا

— وهل تريد مني ان اسأل قبل ان ابتاع قطعة موسيقية عن مذهب
صاحبها وجنسيته وشكل وجهه ولون شعره ؟ .. انها قطعة رائعة كما رأيت
بنفسك ... ولست أعرف عن صاحبها أكثر من انه ريمسكي كورزيكوف ،
وليكن مجوسيا اذا أراد ... لقد ارتني حلما عجيبا ، وانا نائم ، يختلف عما
أحسست به أنت في حالة اليقظة .

ثم شرعت أقص عليه هذا الحلم العجيب بينما كانت الاسطوانة الاخيرة
من (السمفونية) وهي (غرق مركب السندباد) ترسل في الجو انغامها
الصاخبة التي تمثل الاعاصير .

عَظِيمَ

غرفة قذرة ، محرومة من نور الشمس ، بل من نور النهار . اذ ليس في جدرانها القدرة غير كويتين مستديرتين تخترقهما حزمتان اسطوانيتان من خياء النهار ، لا من أشعة الشمس . ولولا ظلام الغرفة لما كان تمييز هاتين الحزمتين امرا هينا .

ولبرهان ولع غريب بمراقبة هاتين الحزمتين ، فتارة يتصورهما أشعة خارقة تنبعث من عينين سحريتين لتبديد غياهب الظلام من غرفته ، وطرده اليأس من اعماق نفسه ، وطورا يحسبهما اصبعين من اصابع القدر الجبار ، قد مدتا الى هذا الوكر لتلمس ما قد تخبئه هذه الغرفة المظلمة . ويلد له هذا الخيال ، فيتصور نفسه خارجا من احدى هاتين الكويتين محمولا فوق طرف اصبع جبارة ، فإذا به في فضاء هائل لا يرى فيه ، غير نجوم السماء ، وتلعب به اصبع القدر مليا ، ثم تتركه يهوي في الفضاء ، والقدر الجبار يضحك ساخرا فتردد السماء صدى ضحكته كما يتردد صدى الرعد القاصف بين طيات الغيوم ، فيهوي ، ثم يهوي ، وصدى ضحكة القدر يكاد يمزق طبلة اذنيه ، حتى يسقط على الارض نعمة من السماء ، ورحمة للعالمين .

يا له من خيال غريب . ولكن مخيلة برهان جديرة بخلق ما هو أغرب ، بل ما هو أجمل واعظم .

ويدون برهان خيالاته هذه على ورق رخيص ، وبقلم من الرصاص رخيص ، ويجلس أمام المنضدة المتداعية ، فاتحا باب غرفته على مصراعيه لكي تدخل منه كمية من الضوء تعينه على قراءة ما يكتب . وتدخل مع الضوء ضوضاء اطفال ربة البيت وسكانه الذين لا يحصى لهم عدد ، وأي ضوضاء تلك التي تخرج من حناجر عشرة اطفال قذرين لا يتجاوز عمر أكبرهم الخامسة عشرة ، وعمر اصغرهم السنة الواحدة ؟! وعندما يعلو صوت الام

بالشتائم واللعنات ، يخيل لبرهان ان اصوات الاطفال قد تلاشت ، وفي مثل هذا الوقت يعلم ان هذه المرأة ذات الجسم الهائل في نوبة من نوباتها الشيطانية التي قل ان يسلم أحد من مستأجري غرفها من شرها • وحصة برهان من شر هذه التوبات وافرة ، لانه يتأخر دائما عن دفع اجر غرفته ، وكم بات طاويا ليجمع ما يمكنه من اجتناب الحديث معها ، فتناول الدراهم باطراف أصابعها الضخمة الطويلة ، وتفرقع ضحكتها فتملأ الغرفة وتفيض منها الى الفناء ، وعندما تترك الغرفة ، يتمتم برهان :

— يا لها من ضحكة غريبة ؟ انها كضحكة القدر !

ولكن برهان لا يبالي بكل هذه المزعجات ، بل لا اغالي اذا قلت انه لا يكاد يشعر بكل ما حوله عندما يكتب • يكتب !! • وماذا يكتب هذا الخلد المبصر ؟ • وماذا تحوي هذه الاوراق المترامية ؟

لو سألت صاحب جريدة الشفق لاعطاك الجواب الشافي اذ ليس في العالم من يؤمن بعقريه هذا الشاب وذكائه غير صاحب جريدة الشفق ، وبضعة عشر قارئاً من قراء هذه الصحيفة ، من اولئك الذين لا يعرفون كيف يرفعون اصواتهم لاسماع غيرهم • أما صاحب هذه الجريدة فيخشى ان يصرح بأرائه لغيره من الزملاء خوفا من سخرتهم ونقدهم اللاذع ، فهذا الكاتب الصغير لا يكتب في غير ما يخص الامور الاجتماعية ، وماذا تهم هذه ارباب السياسة وأهل المصالح ؟ وهو مغرم بالحملة على العرف والتقاليد ، ينتقد المقاييس الاخلاقية الشائنة ، والعادات المرعية ، لذلك كان غير ماهر في الضرب على الاوتار الحساسة ، والنعمات المألوفة •

ومما زاد في نفور الناس منه تدقيقه وتعمقه في كل ما يكتب • فقد كان حذرا لا يسهل عليه الانزلاق ، أو الركض وراء المظاهر البراقة ، وكم لوح له شياطين الغواية بالمغريات ، وكم حرصه على الانضباط في زمرة كلاب الصيد ، وذلك بتسخير قلمه في خدمة بعضهم ، واستخدام ما لديه من معارف

في خدمة الاغراض بعد صيغها باللون المألوف ، الذي يجذب الانتظار ، أو الباسها ما يستر عورتها ، ويجعل سوءتها حتى تغدو جميلة المنظر ، ولكنه ظل يأبى ذلك بعناد ، يأبى الا ان ينطق بالحقيقة وفي وقتها تماما دون انتهاز فرصة أو انتظار وقت ملائم ، وكان يطرد شياطين الغواية صارخا (اليكم عني فليس هذا طريق الجدد) •

أفبعد هذا كله يستغرب القارىء بقاء هذا الخلد قابعا في جحره ؟ او لا يحق لصاحب جريدة الشفق ان يلومه دائما بقوله

— أكاد أياس منك • خفف من عنادك وصلابتك ايها السيد • واعرف كيف تنتهز الفرصة • اني لا اطلب منك ان تنافق او تكذب • اني لا اطلب منك اكثر من ان تطلق الصرخة في حينها حتى لا تكون صرخة في واد •

ولكن ما فائدة النصح لمثل هذا الخلد الذي يستطيب شظف العيش والظلمات ، ويستهن بكل المتاعب في سبيل ما يعتقده صحيحا ؟•

غير ان من لا ينتهز الفرصة قد تأتيه الفرصة طائفة فتتهززه • واليسك تفصيل الخبر

حدث ان سقطت احدى اعداد جريدة الشفق في يد كاتب أجنبي كبير ، ووقع نظره عفوا على قسم من تلك الاسطر التي خطتها يد ابن الظلام ، وما كاد يتم قراءتها حتى صرخ بصديق له كان منهمكا في المطالعة بجانبه •

— تعال اقرأ ما يكتبه أبناء الشعوب الناهضة • تعال اقرأ الحقائق العارية الخالية من كل غش وتدجيل ، انظر الى البراعة في التعليل والتحليل ، والرأي العلمي الخالي من التحزب والاغراض •

وما كان اعجاب الصديق باقل من اعجاب صاحبه ، ولم يكن لروح المنافسة عمل في حكمها لتباعد الشقة بين القطرين ، فشعرا بواجب الادب ، وقررا ان ينوها بذكر هذا الكاتب في صحفهم المحلية •

وكان ما ارادا • وتلقى صاحب جريدة الشفق الخبر وهو يكاد يطير سرورا • واعلن ذلك على صفحات جريدته بحروف كبيرة ليقرأها كل من يعرف مبادئ القراءة • وحدثت بعد ذلك الضجة • وانتشرت السمعة الطيبة • وهمس كل شخص في اذن صاحبه •

— لقد كتبت الصحف الاجنبية عن برهان ، فما أعظمه ؟ ولم يخطر في بال أحد ان يسأل ماذا كتب برهان ؟ أو ماذا يكتب الآن ؟ • وقال البسطاء (فيلسوف غريب) • وقال الكتاب (مبتديء ينتظر ان يكون ذا مستقبل جيد في هذا الباب) وقالت جريدة الشفق (انسان يستحق ان يفخر العرب به) • وانسابت هذه الاخبار الى جحر الخلد بعد ان تجمعت في الخارج ، وانصبت على رأسه مرة واحدة فكانت تفقده صوابه •

اذن فقد أصبح عظيما ؟ يا للنبا العظيم !

وقرقت ضحكة ام سلطان في الخارج ، فخيل له ان القدر يضحك منه أيضا ، ولكنه أخذ يسخر بالقدر الآن • ان الالوف معه ، وكلهم ينظرون اليه نظرة احترام وتقدير ، اذن ستكون اقواله انجيلا وفرقانا • اذن سيعلم الحقائق دون ان يجد مجادلا أو محاجا • اذن ستكون كلمته نافذة • اذن واذن ...

فيجب عليه ان يتطبق بالحكم ، ويلقى النصائح الى ابناء البشر الظالين • وكانت الشهرة في المقدمة ، وفتحت له هذه الشهرة كثيرا من الابواب التي كانت موصدة دونه ، ورحبه اربابها ، اذ سرهم ان يضيفوا الى تلك الطيور الموضوعة في أقفاص من ذهب طيرا جديدا قوي الصوت ، عذب النبرات ، لم يرتق صفو روحه السامية مرتق ، ولم تشب طبيعته النقية شائبة الغرور والادعاء • وفتحوا أمامه طرق الشهرة في أوساطهم ، وصاروا يرمون أمامه الطعم ، وأغرقوه بالمال الذي كان ينشده لراحة جسده ، وبالمديح الذي كانت

روحه تتوق اليه ، وكان آخر ما قدموا له وظيفة ثابتة ذات ايراد مناسب ، وعقارا يدر عليه ارباحا تقوم بأوده ، وتمده بكل ما تطلبه نفس الفنان البوهيمية من متع ولذازات . هكذا تدفق المال ، وتبدلت الغرفة المظلمة باخرى تسطع فيها أشعة الشمس نهارا ، وتضيؤها ثريات الكهرباء ليلا ، ذات فرش أنيقة ، وستائر من الخز والديباج ، وحلت منضدة فاخرة للكتابة ، وفي غرفة خاصة ، محل المنضدة العتيقة التي كانت تقاسمه غرفة نومه ، وأصبح صاحبنا يقضي معظم وقته دائرا فوق كرسيه الدوار أمام مكتبه دون ان تجود قريحته بشيء ، وشرع يتوسل بالموسيقى والشراب لانعاش روحه ، وفتح مغاليتي قريحته .

وكثر الاصدقاء عندما كثرت دراهمه ، وركض طلاب الشهرة والجاه الى بابيه . وعند ما يحل النسيم يخلق الحصاد ، وكان عدد حساده بعدد اصدقائه ، وامتلات صحائف الجرائد بالكتابة له وعليه .

وفي خلال هذه الزوبعة المبالغته كانت رأس صاحبنا ترتفع وتنخفض ، تلعب بها الزعازع لعب الصبية بالاكبر . ولذ له هذا الطيران مع التيار ، وتخدرت حواسه ، ولم يعد يتقيد فيما يكتب ، ولم يعد يجد الوقت الكافي للدراسة والبحث . واثارت في نفسه سورة الغرور ، وامتلات الصحف بمقالاته ، وأصبحت الشياطين ترقص حواليه وهو يكتب ، وتنير له بمصاييح من ماس وذهب ، ولكنها لم ترعبه هذه المرة ، ولم يبصر شناعتهما وهولها ، لقد أعماه لألاء الشهرة ، وبريق الذهب .

وقهقه القدر عاليا ، ولكن صوت قهقهته ضاع في اصوات العاصفة الهادرة .

وكل عاصفة مآلها الى الزوال ، وهكذا انتهت عاصفة برهان ، وتركه يعود الى نفسه بالتدريج ، ويفتح عينيه ويتطلع حواليه الى ما خلفته .

ففي يوم من ايام عزه جلس في غرفة الاستراحة ، وحيدا ، فلم يكن عنده

جليس يؤنسه ولا صديق يسامره ، وشرع يتسلى بالتدخين ، والتفكير في تاريخ حياته الغريب • وتذكر بيت ام سلطان ، وغرفته المظلمة القذرة ، وتذكر الاطفال المتاكيد فحصر اليهم بجنين غريب • وتذكر اكاداس الارق التي كان يسطرها ، والتي نشر قسما منها ، وحفظ الكثير منها فدفعه الاعتراف بالجميل الى تصفحها ، فقصد غرفة المكتبة ، وازاح الغبار عن مخلفاته العتيقة ، وعثر على رزمة من الورق الاسمر فالتقطها ، وشرع يتسلى بتلاوة بعضها •

ورأى نفسه يقرأ هذه الوريقات بلذة وشوق شديد ، وتبدت له من بين سطورها حقائق رائعة ، وحكم خالدة ، ونصائح ثمينة ، ورأى الاسلوب جذابا رشيقا لا تصنع فيه ولا لبس ، فاعترته الدهشة • لقد خيل اليه انه يقرأ كتابة انسان غريب عنه • انسان لم تلهه سفاسف الدنيا وزخارفها • يحكم بوجودان صحيح ، ولا ينطق عن الهوى •

وأخذ يقارن ما كتبه سابقا بما يكتبه الآن فتضاءل حاضره في عين ماضيه ، وعندها تذكر الحملة الشعواء التي وجهت ضده منذ وقت غير بعيد • الا يحتمل ان يكون اعداؤه محقين في الحملة عليه ؟ •

وركض كالمجنون الى محفظة الجرائد ، فأخرج زبدة المقالات التي وجهت ضده ، وصار يطالعها بعقل جديد ، فرأى معظمها تدل على الانصاف ، وتنتقده بوجودان نزيه • فشعر بموجة من الانكسار والخجل تفمر روحه •

أين كان ذكاؤه الجبار وعقليته الخصبة ودماعه الفعال ؟ وما هذا الذي اعتراه فبدله بهذه الصورة ؟ أين نزاهته وشرفه ووجدانه ؟ الويل له لقد حطمه العاصفة وعبثت بعقله واخلاقه ومنطقه ، وتركته حطاما باليا وخرابا مريعا •

ونهض متاثلا يجبر نفسه بصعوبة كمن اثقلت كاهله السنون ، وبقي يذرع الغرفة غارقا في يؤسه ، ووقف بدون قصد أمام المرأة التي تزين الغرفة ، ونظر الى صورته ، وللمرة الاولى لم يعجبه وجهه المنتفخ ، وبطنه الآخذ

بالاستكراش ، لقد استحال بدنه الرشيق كتلة من الشحم لا نظام فيها ولا تناسق ، وانطقاً بريق عينية ، وحل في محله غلام البلادة والجمود .
وأدار رأسه متطلعا الى صورته الكبيرة المعلقة على الحائط . صورته يوم كان خامل الذكر معوزا ، فرأى ظل ابتسامة يترقق على الوجه ، ابتسامة سعادة من نوع لا يشعر به الا افراد معدودون في كل حين . لقد طعنته الشهرة بنصلها الحاد البراق في القلب تماما ، فقضت عليه بلحظة واحدة وأخذت انقاسه الى الابد .

ورمى نفسه على المقعد واضعا رأسه على المنضدة بين ذراعيه ، وقد سحقه الالم ، فسالت بضع عبارات من عينية ، وما لبث ان سمع ضحكة نسائية رقيقة رنت في جوانب الغرفة ، فرفع رأسه ، ورأى حسناءه الحبيبة تدخل غرفة مكتبه هاتفة ضاحكة ، فخيل له ان القدر يضحك منه للمرة الاخيرة ، ولكنها ضحكة غريبة مرعبة ، فيها كل معاني السخرية ، باردة كالموت نفسه ، فبهت ، وبقي يحملق في الفضاء ، وقد جمدت العبرات في عينية .

سورة الاحقاف

(١)

توقف نوح عن ضرب اخيه ، والتفت عابسا ناحية المطبخ حيث كانت امه تملأ طبقا من النحاس طيخا ، وتناديه باعلى صوته

— هيا ايها الشقي ، كف عن القتال ، وتعال خذ هذا الطعام الى (اسماء) •

وبدلا من ان يلبي نوح نداء امه ، رفع يده ومسح مخاطه بردته ، وعاد يحاسب اخاه الصغير حسابا عسيرا فيأخذ بتلاييه ، وهو يرغي ويزبد ويقول:

— سأخفك اذا لم تقل لي اين وضعت قلبي •

وارتفع صوت الصغير بالبكاء ، يطلب المعونة من امه ، ويشكو جور اخيه الكبير •

وصرخت الام مهددة ، ورفعت المرفة وهبت وراء المعتدي • ورأى نوح ذلك السلاح الذي طالما نال من جده ، يلعب في يدها وعليه اثر من السمن و (البرغل) ، فقفز يرتقي الدرج ، وهو يصخب ويشتم ، وضحك الصغير شماتا بأخيه ، وانقلب يناجزه باللقاب ، يسرد اسماء المضحكة ، واوصافه القبيحة ، ولكنه لم يلبث ان صاح بأمه ينهبها الى القط ، الذي اتهم فرصة المعركة وهب نحو القدر ، فتناول قطعة كبيرة من اللحم (بقدر رأس الجرو) ، وقد اوشك ان ينسل هاربا بالغنمة لو لم تنزل الضربة المهيأة لنوح على أم رأسه ، فتجبره على افلات القطعة ، وسلوك الطريق التي سلكها نوح • وتلقاه الاخير عند السلم ، ويظهر انه لم يعترف به حليفا تجاه عدو واحد ، لان في الامر قطعة سميت من اللحم ، وهذا اعتداء صريح على حقوقه ايضا ، فرقع قدمه ، ورفسه في بطنه بكل ما في رجله من قوة • فانقلب

مرتين ، وركض يموء ويئن شاكيا ما اصابه من رفسة الصغير ، وهو الصبور الذي لم تؤله ضربة (الكفكير) .

ورجعت الام الى المطبخ ، وعادت تناديه لايصال الطعام الى جارتها العجوز ، متوسلة بالتهديد تارة ، وبالوعيد اخرى . ولكن نوحا اخرج لها لسانه ، وأقسم اغلظ الايمان ألا يفعل . واسقط في يدم الام مليا ، ولكنها لم تلبث ان ابتسمت ، فقد وجدت وسيلة ترغمه على الذهاب راضيا فقالت

— حسنا . لا تفعل ، وسوف لا تأتي اسماء لاكمال حكاية حسن البصري ، وسوف لا تبدأ اليوم بغيرها .

وبمثل لمح البصر تبدل الموقف واسرع نوح الى المطبخ ، وهو يسحب المخاط في أفته بشهيق ذي صوت فاشز . ومد يده لتناول الطبق متبشرا ، ومضى يعيب على امه قلة الطعام ، ونظر الى القطعة التي افلتت من فم القط ، وقال مقترحا .

— لقد تدنست هذه القطعة ، فلماذا لا تعطينها لاسماء ؟

وساء الام ان يتدخل هذا اللعين في شؤونها ، فكشرت في وجهه ، ورمته بعبارات مهينة احتملها راضيا ، وفي اثناء هذه المحاورة بين نوح وأمه كان القط قد عاد ، فقد كانت رائحة الشحم واللحم والسمن قد ملأت المنزل الصغير وملأت خياشيمه الحادة ايضا ، فأسالت لعابه واهاجت في احشائه من ألم الجوع ما انساه ألم الضربتين ، فعاد متباطئا ، وشرع ينزل السلام بتؤدة ، ولحجه الصغير فهجم عليه ، ولكن القط لم يفرع بل نظر في وجهه محتقرا ، كأنه يقول (وهل بلغ من حقارة شأني ان يرهبني مثلك ؟) . ثم كشر عن انياه ، وبرز مخالبه ، وقابل الهجوم بمثله . وما كان للصغير عهد بمثل هذه المناوشة فصرخ فرعا ، وسمعت الام هدير القط مزروجا بصراخ ابنها ، فأدركت ما هنالك ، وركضت لنجدته ، وعندئذ خلا الجولنوح فدى قطعة اللحم في الطبق ، ومضى في طريقه لا يلوي .

وعندما مدت اسماء يدها المغضنة لتناول الطبق ، وعلى وجهها ابتسامة عريضة ، اشار نوح الى اللحمة ضاحكا ، وانباها بأنه سرقها ارضاء لها ، فقبلته العجوز بين عينيه ، ووعدته ان تبدأ اليوم بحكاية « عجيب وغريب » ، فبرقت عينا الصغير ببريق اللهفة والشوق ، وطلب منها ان تقص عليه الآن طرفاً من الحكاية

فأجابته وهي تمضغ لقمة كبيرة ، وفي نظراتها مكر ودهاء •

— ان هذا لا يجوز ، والحكاية لا تطيب الا بجوار الكانون ، وعلى صوت ازير الماء في الابريق ، عندما تفوح رائحة الشاي الزكية •

وسها نوح في ذلك المساء حتى عن تناول عشاءه ، فقد مضى يعد الكانون بمهارة ونشاط ارضيا الام حتى اوشكت ان تبتسم في وجهه • ولكنها لمحت تلك الكمية الكبيرة من الفحم وسط الكانون ، مرصوفة على شكل هرم اسود ، ينبعث الشرر من اطرافه ، واللهيب من قمته • ومثل تلك الكمية تكفيهم ثلاثة ايام فصرخت في وجهه محتجة وقرصته قرصة مؤلمة جعلت الدموع تطفرف من عينيه رغم انه ، ولكنه رقاً دمه ، وعاد الى عمله متخذاً من البرد الشديد مبرراً لتبذيره ، واستغربت الام انها الشقي في العمل ، ولكنها تذكرت انه لم يعود ، يوم اسماء واقاصيصها فشمعت بشيء من الرضى ، ومضت في طريقها ، وفي قلبها ميل الى مسامحته ، وبودها ان تشجعه ، فقد كانت لا تقل عنه غراما بحكايات اسماء واقاصيصها ، ولكن ما حيلتها وزوجها ينتهز الفرص ليسمعها لومه القارص وتعنيفه الشديد ، وشكاياته الدائمة من تبذيرها وسوء تديرها •

وبعد ان صلت اسماء صلاة العشاء جلست امام الكانون تقابلها ربة البيت ، وجلس نوح عن يمينها ، والصغير عن يسارها • وقضت اسماء وقتاً ، ما كان اطوله على نوح ، في تلاوة التساييح والذكر ، واحتساء الشاي ، وكان نوح ينقل بصره بين فنجان الشاي وفم اسماء بصبر نافذ ، يظهر عليه الملل كلما شرعت في احتساء فنجان جديد • ولما لم تقصها وبدأت بصوتها الاجش

الهاديء تقول (كان ما كان على الله التكلان ... الخ) برقت عينا نوح ببريق غريب ، وصفق الصغير طربا ، ووضعت الام جانبا الملابس التي كانت تعمل في رتقها ورفوها ، وتوجهت انظار الثلاثة الى وجه اسماء المعصن ، وتفتحت الأذان تتلقف كلماتها بلذة وشوق . وبدأت العجوز تسرد اخبار الملوك والعظماء ، والعشق والهيام ، والصالحين والطالحين ، من الانس والجان والشياطين ، بأسلوبها الغريب ، وفنها العجيب الذي حدقته في ليالي الشتاء الطويلة . وكانت كلماتها ترن رنينا فخما في ذلك المكون العميق ، وكانت القصة تنصب من بين شفيتها باتساق فني لا يشوشه تلعلم او اعادة ، ولا يكدره غير صوت الام حين تستوقفها لتستوضح منها خبرا لم تفهمه ، او تطلب منها اعادة تفاصيل اخبار المحبة والگرام ، وهي بين التند والابتسام ، وما كان نوح يكره شيئا من دنياه كرهه تدخل امه واعتراضاتها اذ تقطع عليه بذلك سلسلة تصوراته واخيلته ، فقد كان يتمثل الغفريت يشوي فرائسه على جمر الكانون امامه ، او يخرج من ابريق الشاي على شكل بخار حتى يدق رأسه السقف .

اما الصغير فكان صوت العجوز يفعل فيه في مثل هذه الظروف فعل السحر . فتظهر عليه امارات الاستسلام والهدوء ، ثم يميل رأسه في حجرها ، ويروح في غفوة بريئة عميقة .

ومضت العجوز تقص وتقص بصوتها الاجش الغريب اخبار الملوك والامراء ، وخيانة النساء ، وأمانة العبيد ، والاطار في الاسفار والممالك ، وكانت تبدو لنوح كأنها مخلوق غير اعتيادي ، مخلوق رهيب غريب محبوب ومحترم . ومضى الوقت سريعا دون ان يحس به أحد ، وتقدم الليل حتى انتصف ، وسهت الام عن موعد قدوم زوجها ، ولم تنتبه من غفوتها الا على صوت الباب يقرع ، وعنددها نهضت العجوز مسرعة فالتفت بملائها ، واسرعت الى الباب ، وركض نوح فاندس في فراشه وتصنع السبات ، ولكن ذلك الفراش السميك الذي سحبه فوق رأسه لم يمنعه من سماع زججرة

الاب وتعنيفه ، سمعه يهدد ويتوعد ، ويتهم الام بتشجيعها له على ترك دروسه واضاعة الوقت بسماع خرافات العجائز والاقاصيص السخيفة ، ويتهمها بتبديد المؤنة والغذاء على اسماء واترابها ، ثم أقسم بالطلاق ليطردن هذه الطرطة النهمة اذا رآها في بيته مرة اخرى • وأدرك نوح ان الامر قد خرج عن طور المزاح ، وأصبح من الخطورة بمكان ، وعلم انه سيحرم الى الابد من سماع تلك الحكايات الساحرة • وادرك أيضا بعد تفكير انه سيحرم من دخول بيت اسماء لسماع حكاياتها هناك لان انقطاع المؤنة والطعام عنها معناه انقطاع الصلة بينهما ، ف شعر بالحزن يحز في فؤاده ، لقد كان نوح يرى في الاقاصيص متعة ما بعدها متعة ، وما كان يرى في لعبه مع رفاقه في الازقة شيئاً يذكر بجانب ذلك •

(٢)

— أين يا نوح ؟

— للدرس مع عدنان يا أمي •

— اذن اياك ان تسهر عن القدوم مبكرا ، فليس في استطاعتي ان اجادل اباك أو أنفاهم معه في كل ما يتعلق بك ، هيا اسرع •

وانفلت نوح راكضا ، وقلبه يخفق سرورا ، وماد كاد يطرق الباب حتى فتحه له عدنان ، وطلب منه الاسراع (فالقصه خون) بدأ مبكرا اليوم ، وقد قرأ ما يقارب خمس اوراق •

واسرع الاثنان وانحشرا في النافذة التي تشرف على المقهى • وتألق وجه نوح سرورا عندما سقط نظره على مصاييح الكاز العديدة المعلقة في الاعمدة الخشبية ، وعلى ذلك العدد الهائل من المستمعين ، وكلهم آذان صاغية تتلقف الكلمات التي تخرج من فم ذلك الراوية الغريب الشكل ذي الهامة الغليظة ، والعمامة الكبيرة ، واللحية القصيرة ، والنظارة البراقة ، وهو متربع على

المقعد الخشبي في هيئة وقار وجلال تسرع عيناه في التقاط الكلمات لتتذوقها
حنجرته بصوت أجش رهيب .

وشكر نوح المقادير التي هيأت له هذا الجار وهذه النافذة التي لا يفصلها
عن مقاعد المقهى غير مسافة لا تتجاوز بضعة أشرار . ولم تكتف المقادير
بهذا الكرم الحاثمي ، بل جعلت مجلس القاص في أقرب مقعد من النافذة بحيث
لا يفوته سماع حرف واحد مما يقرأ .

وبدأت مخيلة الصبي تتمثل ما يسمع ، وتجسم له الحوادث ، فكان
يتخيل عترة أو كما تسميه العامة (عترة ابن شداد) . جبارا أسود ذا شاربين
طويلين ، وعينين براقيتين مربعيتين ، ممتطيا صهوة حصانه العجيب الذي
لا يقل عنه سواداً ، مشهراً رمحه ، يسوق الاعداء أمامه كما يسوق الذئب
قطيعاً من الغنم . وكهم اهتز طرباً عند سماعه أحد السامعين يصرخ استحضاراً
لشجاعة عترة ، أو يضرب الأرض بعصاه تحملاً . وقد افلتت من فمه
صرخة إعجاب وحماس حينما شاهد شخصاً يشب راقصاً كالمجنون عندما روى
الراوي ان عترة طارد كوكبة من الفرسان وأخذ يشكهم بالرمح الواحد بعد
الآخر حتى قفى عليهم .

وانتهى القاص أخيراً ، وقد مضى من الليل نصفه . ولاحظ الصبيان
ان أبويهما يتركان المقهى ، فأسرع نوح الى داره بلحظة ، وركض الى فراشه
فاندس تحته ، ولم يزر النوم جفنيه الا بعد زمن طويل قضاه بالتفكير فيما
سمعه . وكان خياله يجمع به فيتصور نفسه قاصاً يقرأ على السامعين المعجبين
اخبار عترة بن شداد ، أو يتذكر أسماء فيقارن بين أقاصيصها وبين هذه
القصة الطويلة ، ويقارن بين العجوز و (القصة خون) ، فتضاءل الصور
الماضية أمام الجديدة كما يتضاءل نور السراج أمام مصباح (الكاز) المتألق .
وهكذا كان نوح لا يكفي بالتلذذ بسماع الحاضر كرفيقه عدنان بل يقارنه
دائماً بالصور المطبوعة في ذهنه عن الماضي ، وكثيراً ما كانت تكسبه هذه
المقارنة قوة التمييز بين الغث والسمين والملد والممل .

(٣)

وكانت هذه القصة التسلسلة التي كان يسمعا خلسة مع رفيقه عدنان بعد انقطاعه عن سماع أقاصيص العجوز مدة شهرين ، قد استولت على افكاره ومشاعره ، وكانت سلسلة الحوادث التي يسمعا من القاص تمر تباعا في مخيلته حتى في وقت الدرس • وفي صباح أحد الايام ، وبينما كان مدرس التاريخ يلقي الدرس بصورة مملة ، خبأ نوح وعدنان رأسيهما وراء تلميذ ضخم الجثة ، وشرعا يتناقشان في بعض الحوادث التي سمعاها ليلة امس . آمنين شر المدرس الذي كانت عيناه تجولان في قاعة الصف لعلهما تعثران . على تلميذ يلهو ليتخذ منه الاستاذ عبرة لمن اعتبر ، وليظهر للباقيين مبلغ يقظته وشدته وبطشه • وشاركهما التلميذ الثالث الجالس بجوارهما في الحوار والنقاش ، وأضاف ليظهر سعة اطلاعه

— وأين هذه القصة من قصة أبو زيد الهلالي وفيروز شاه والـ ليلة
وليلة و ... و ...

وليث نوح بلهفة وسأله

— وأين تقرأ كل هذه القصص ؟

فأجابه متباهيا •

— كلها موجودة في مكتبة أبي ، ولكنني لا أستطيع قراءتها • ان خطها ناعم ، وطبعها غريب يختلف كثيرا عن خط كتب القراءة والتاريخ • تعالاً عندنا اليوم وسأريكما كل هذه الكتب •

وانتقل محل المذاكرة المزعومة من بيت عدنان الى بيت عبدالرحيم • وانكب الثلاثة على كتب القصص المكتوبة بالخط الناعم ، وعلى ورق أصفر ومضوا يجتهدون في حل طلاسمها ويتعجبان الكلمات واحدة فواحدة . واعترضتهم صعوبات كبيرة • واين لتلاميذ في الصف الخامس الابتدائي ان

يستطيعا قراءة مثل هذه الكتب • ومل عدنان وعبدالرحيم هذا الدرس الشاق ، والمجهود العنيف • ولكن نوحا لم يمل ، فاستعار أحد هذه الكتب ومضى الى بيته ، وشرع يقرأ بهمة لا يعثرها الكلال أو الملل ، وكانت أمه تراقبه ، وتحمد الله الذي هدى ولدها الى السعى والاجتهاد بعد ذلك الكسل ، وتلك الشقاوة •

وما هي الا مدة لا تتجاوز ثلاثة اشهر حتى كان نوح يجلس بين رفاقه يقرأ عليهم اخبار الزير وفيروز شاه ويقصها عليهم بلهجة (القصه خون) نفسها • ولكن بصوت اوطلاً حذراً من ان يسمع أهل الدار ما يقرأ ، واتسعت حلقة سامعيه ، وانضم اليه الكثيرون من تلاميذ صفه ، ولم تنته السنة الدراسية حتى كانت تلك الكتب الصفراء التي تحويها مكتبة أبي عبدالرحيم قد اعيدت قراءتها عدة مرات ، وحفظ نوح بعض اقسامها ، وصار يعيدها على سامعيه ويتملكه سرور عظيم حين يرى مبلغ اعجابهم وشدة دهشتهم • واتى الامتحان النهائي ، وكان نوح في مقدمة الراسين ، يليه في ذلك عدنان وعبدالرحيم ، ومعظم افراد الحلقة ، وتلقى الاب تلك النتيجة بدهشة عظيمة ، وقصد المدرسة عليه يجد من يحل له هذا اللغز العويص ، وحمل معه كتابا من الكتب التي يقرأها ابنه ليستشهد بها • واقسم امام المدير أن ابنه ما كان ينام من الليل الا اقله ، ولا تغفى عيناه قبل ان ينهي جزءاً من تلك الكتب الصفراء الضخمة • وتبادل المعلمون النظرات وعلى وجوههم ابتسامة اشفاق وسخرية ، واخذ المدير الكتاب وفتح وقرأ بصوت عال (وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح الى غد) وضع الجميع بالضحك ، وبدأ الاب يلوم نفسه لعدم ادراكه حيلة ابنه ، ولعدم تمييزه كتب الدرس عن كتب الاقاصيص واللهو ، وقال آسفا - لقد شككت في احد هذه الكتب مرة اذ كان شبه كتاب (القصه خون) ولكن من اين لي ان اعلم ان هذا الخيث يستطيع قراءة مثل هذه الكتب •

واضاف احد المعلمين :

— يظهر ان ابنك كان السبب في رسوب كثير من رفاقه ، فقد سمعت .
انه كان يجتمع بهم بدعوى المذاكرة والاجتهاد ، ولا بد ان يكون قد قضى
الوقت يتلو عليهم القصص •

واقسم الاب ليفقأ عينيه ، ويصلن اذنيه ، ويجدن انفه ، واسرع الى
المنزل ، ومضى يعمل بجذ ونشاط في قطع عصا قوية وتشذيبها • وكانت الام
تراقبه بقلب يرتجف قلقا وخوفا ، وقدم نوح اخيرا متأبطا كتابه فلتقاه الاب .
وعيناه تقدحان شرراً ، وبعد ان تناول الكتاب منه نزل عليه بالضرب المبرح ،
وبقيت العصا تصفر في الهواء وتنزل على جسمه ، دون ان تنفع في ذلك شفاعته
الام ، وصراخ الصبي وائنيه ، حتى انكسرت العصا ، وكل ساعد الاب ،
واوشك ان يغمى على المسكين •

وبعد ان خرج الاب غاضبا يهدد ويتوعد انسل نوح يجر جسمه الملتهب .
الى الفراش وهو يعوي ويئن ، ولما وضع جسمه المقرح فوق الحشية شعر
بجروح جسمه تلسعه كالعقارب ، وما لبث ان اخمد التعب شهيقه فراح في
سبات عميق • وجلست الام بجانبه تكفكف دمعها ، وحتى عبدالمسيح لم
يخل عليه بوضع عبرات رغم ما بينهما من عدااء مستحكم وخصومه دائمة •

(٤)

تعال هنا يا نوح • أترى هذه ؟

وقرأ نوح عنوان الكتاب الذي في يد استاذة (عذراء قريش • رواية
تاريخية غرامية اجتماعية تأليف جرجي زيدان ... الخ) ثم تطلع في وجه
استاذة مستفهما فمضى المعلم يقول

— هذه قصة تفوق كلما قرأته من القصص ، وهي زيادة على ذلك ذات
حوادث تاريخية مفيدة ، سأعطيها لك لتقرأها على شرط ان تجتاز الامتحان
آخر هذا الشهر •

فاجاب الصبي متحررا

— ولكن أبي سيقطنني لو رآها في يدي

فأجاب المعلم باسم

— سأقابلة بنفسى ، وأطلب منه ان يرخص لك بقراءتها • هيا وارنى مهارتك وتذكر ان الامتحان سيبدأ بعد اسبوع •

وفي مساء اليوم رأت أم نوح ابنها يكف عن السهوم والجلوس وحده ، وعلى وجهه امارات البؤس والشقاء دون ان يمس كتبه وكراريسه ، وقد ذكرته مرارا بالعصا التي ما زالت آثارها فوق جسمه فلم يرفع • رأته يقبل على كتبه المدرسية وكراريسه التي صارت تعرفها جيدا ، وتميزها من كتب القصص الضخمة الصفراء ، لتقي ابنها شر علاقة مميته • وزاد ابتهاجها عندما رأته يستغرق في الدرس ، وبقيت تلاحظه علها تكتشف سر هذا الانقلاب فكانت ترى امارات الثورة والتمرد تتجمع فوق جبينه ثم تتلاشى ، ولم تعلم طبعاً ان تفوره وملله من دروسه كان يزول عند تذكره المكافأة المنتظرة ، واستمر على ذلك سبعة ايام ، وما كان الفتى غيباً او بليدا بل كان ذكاًؤه اكثر بكثير من المعتاد ، ولكن هذا الذكاء كان يحتاج الى حافز ليدخل تحت سيطرة ارادة الصبي القوية ، ويتجه به الى غاية ما • لذا كان من المنتظر ان تنجح تجربة المعلم ، فينجح نوح في دروسه نجاحاً باهراً • وائلج هذا النجاح قلب المدرس لنجاح تجربته ، وقلب الام لنجاح ابنها وتخلصه من شر ابيه ، وقلب الاب الذي نظر الى العصا اعجاب وتقدير فقد نسب لها كل الفضل في هذا النجاح ، الا ان نوحاً كان اشد الجميع فرحاً اذ تسنى له ان يقرأ قصة جديدة دون ان يهرب صولة ابيه وشر العصا • ووجد القصة من نوع جديد عجيب يمتاز على ما قرأه بتسلسله المنطقي ، وعدم وجود حوادث تشذ عن المألوف او المعقول ، ووحدة الغرض ، وانتهى من القصة وهو يعتقد ان كل حوادثها حقيقية ليس للكذب او الخيال دخل فيها •

وشعر انه قد ارتفع درجة فوق مستواه الاعتيادي ، وصار ينظر الى
اسماء وقصصها ، والكتب الصفر واقاصيصها نظرة ترفع •

وكم كانت دهشة المعلم عظيمة حينما وجد القصة ترجع اليه بعد يومين ،
وظن لاول وهلة ان الصبي قد اهلها ، ولم تعجبه ، ولكنه ازداد دهشة
حينما رأى الصبي يطلب منه الجزء الثاني بلهجة توسل وتضرع •

— اذن فقد قرأتها كلها في هذه المدة الوجيزة يا نوح ؟

— اجل يا سيدي • انها اجمل قصة قرأتها

— وهل فهمتها ؟

— سأعيدها عليك كلها • ومضى يقص حوادثها دون ان ينسى حتى
اسماء الاشخاص ، وحتى الزمان والمكان • ودق جرس الدرس في تلك
اللحظة فنهض المعلم وهو يعد نوحا بالجزء الثاني على شرط الاتليه القراءة.
عن الاجتهاد في دروسه ، واشترط عليه لكي يعطيه جزءا جديدا ان يثبت
استمراره وتقدمه في الدرس • ومن تلك الساعة لاحظ المعلمون ان نوحا
يتقدم في دروسه تقدما مطردا ، وكانت عبارات الاستحسان والاطراء تنهال
عليه من مدرسي العربية والتاريخ بصورة خاصة ، واصبح الاول في درس
الانشاء والاملاء والقراءة دون منازع ، وخفف الاب من تشديد المراقبة عليه
حين وجد ان كل الكتب الضخمة التي يأتي بها معه تحمل العلامة المثق عليها
بينه وبين المعلم •

وما انتهت السنة الدراسية حتى كانت مخيلة نوح قد استوعبت سلسلة
روايات جرجي زيدان التاريخية باجزائها السبعة عشر ، ونجح من الصف
الخامس نجاحا طيبا لم يترك مجالا لاعتراض ابيه ولوم معلميه •

الا ان في صفو الليالي يحدث الكدر كما تقول القصص ، فقد حدث
ان زار مدرس الدين اباه ، بينما كان الاثنان يتحدثان في شأن نوح ورسوبه

في السنة الماضية ، ونجاحه الباهر في تلك السنة ، تطرق الاب الى الكتب التي يقرأها نوح برخصة من المعلم ، وسأل المعلم نوحا عن تلك الكتب فأجابته متباهيا .

— انها كتب جرجي زيدان الروائية التاريخية •

ورأى نوح وهو مستغرب ان سحنة المدرس قد اكفهرت ثم انهال باللوم والتفريع على من اعطاه هذه الكتب المفسدة ، التي شوهت التاريخ الاسلامي وقللت من قدر الائمة والصالحين ، وتجاهلت المعجزات والخوارق • ولم ييخل على جرجي زيدان ببعض اللعنات • وانبرى الصبي يدافع بحماس عن المؤلف الذي حل منزلة عظيمة في قلبه فقال

— ولكنه لو فعل ما تقول لاصبحت قصصه كقصص عنترة والزير وفيروز شاه • لقد احسن بجعل قصصه خاضعة للتسلسل المنطقي وملاها بالحوادث الحقيقية ذات الاصول التاريخية •

فأجاب المعلم وهو يتجاهل الصبي احتقارا ، ويوجه كلامه الى الاب الامي .

— هكذا يفسد المعلمون اولادنا بتعويدهم قراءة القصص المفسدة ، وتزهيدهم في قراءة القرآن ودلائل الخيرات وعلوم الدين • ولو قضى نوح وقته في مطالعة كتب الصالحين ، بدل كتب السخفاء والكفرة لاصبح وليا •

وبدا الرعب في عين نوح ، وادرك ان المؤامرة على سعادته قد بدأت من جديد • وان عاصفة ابيه ستهب مرة اخرى ، فأراد الاعتراض ، ولكن صفقة مؤلة تلقاها من ابيه جعلته يهرب من الغرفة باكيا متألما • وذهب الى امه يشكو به وبلواه ، واستغربت الام ان ينال ابنها مثل هذا الجزاء رغم نجاحه الباهر في دروسه • فأتظرت حتى خرج هذا (القرد العمم) كما سمته ، وانفجرت تحاسب الاب في هذه المرة حسابا عسيرا ، دون خوف او وجل ، فقد رأت الحق بجانبها والحجة بيدها • ولكن الاب اجابها معنفا

— كل الذنب ممكن إتيها النسوة المفسدات • لقد عودته سماع
القصص منذ الصغر ولو علمته قراءة اخبار الصالحين لكان من الاولياء •
سوف امنعه منعاً باتاً من قراءة كل ما يسمى قصة ، حتى ولو كانت تحمل
اشارة الاذن من مدير المدرسة نفسه •

(٥)

واتت العطلة الصيفية الطويلة ، وقد بدأها نوح بالانزواء واجترار
آلامه ، ولكن روح الصبي ونشاطه لم تلبث ان ثارت لتبرهن على ان روح
الصبا وفرحته وحيويته لا يمكن ان تتمد ، فنفض عنه غبار الخمول ، وانضم
الى زمرة رفاقه ، وابناء صفه الساكنين في محلته ، الذين شرعوا يؤلفون الفرق
والعصابات للهجوم على فرق المحلات الاخرى ، وشن الغارات الموقفة او
الخاسرة ، والهروب سرا الى النهر لتعلم السباحة وصيد السمك بالصنارة •
ولاحظ الاب وجه ابنه الشاب قد اصطبغ بلون نحاسي عميق ، وعثر عليه
عدة مرات قادما من النهر يحمل بضع سمكات صغيرات ، ولما علم تفاصيل
سلوك ابنه استجبد بالعصا مرة اخرى • ولكن نوحا اعلن التمرد والعصيان
في هذه المرة ، واقسم بينه وبين نفسه ان يخالف اباه حتى ولو مات تحت
العصى • وبين هذا الابن المتمرد والاب القاسي الشديد كاد يضع عقل الام
المسكينة •

واعتاد نوح بالتدريج ضربات العصي حتى اصبحت بالنسبة اليه رياضة
غير شاقة ، واحس الاب لأول مرة ان سطوة العصا وقانونها قد بدأ
بالاضمحلال ، وان سيطرته على ابنه بالنتيجة قد بدأت تتلاشى ، وادرك ان
الغضب لا يجديه ، وخشى ان يميته ابنه تحت العصا في ساعة غيظ وجنون •
ولما استيظت عواطفه الابوية ونهض عقله يحاسبه ، ادرك الامناس من التفكير
في وسيلة جديدة وجمعت المصادفة بمدير المدرسة ، فيته الشكوى ، وطلب
منه ان يتوسط بينه وبين أبنة الشقى ، ويستعمل تقوذه في ردعه عن غييه ،
خاجابه المدير متشفيا

— هذا ذنك • لقد كان نوح مولعا بالمطالعة فمنعته مستمعا لنصح رجل سخي ، وفي صييك حيوية شديدة لابد ان تتخذ لها مظهرا ، وتشق لها طريقا ، فاما المطالعة او الشقاوة ، واما طريقا اسوأ وامر • فدع الصبي وميله الطبيعي ، وخير لك ان يقضي يومه بمطالعة القصص من ان يقضيه في النهر ، وبين الاشرار ، يقتبس عاداتهم الفاسدة ، واخلاقهم الوائنة • وكان اليوم الثاني يوم عيد على نوح فقد اعلن له ابوه ان في استطاعته ان يزور المكتبة العامة ويقضي يومه بالمطالعة على شرط ان يكف عن الذهاب الى النهر ومصاحبة الاشرار •

ولم يكتف نوح بالمكتبة العامة بل مضى الى المكتبات الخاصة وحوانيت باعة الكتب الذي يؤجرون القصص للمطالعة ايضا ، وصار يستأجر ما يروقه منها غير آسف على (الأنة) الوحيدة التي يأخذها من أبيه كل يوم (يومية) بخلاف رفاقه الذين يصرفونها في شراء الحلوى واللعب •

وما كان فرح نوح بعثوره على هذه المخازن المملوءة بأقل من فرح البخل عند عثوره على كنز من الذهب ، وكان اصحاب المكتبات يعجبون من سرعة مطالعة هذا الصبي ، فقد كان يطالع رواية ضخمة في اليوم •

(٦)

وبدأ نوح بمطالعة الروايات البوليسية ، وقصص المخاطرات ، فلم تسلم من يده قصص (كونا دويل) و (وادكارالن بو) و (اسكندر دوماس) و (موديس لوبلانك) واضرابهم فتعرف على (شرلوك هولمز) و (اللص الشريف) و (ارسين لووين) و (جونسون) و (ملتون توب) و (طرزان) وما شابه ذلك • وكان من ضمن ما قرأ قصة الجزيرة المرجانية ، وروبسن كروزو وبعض قصص (جول فرن) العلمية •

وعلى الرغم من استحواذ القصة على كل مشاعره وانهماكه في المطالعة لم يكن يغفل عن ملاحظة الفروق بين اساليب المؤلفين القصصيين وغاياتهم.

وانواع قصصهم ، فكان يميز بين انواع القصص بسهولة ، ويقرأ افكار المؤلف من خلال سطور قصته ، فهذا يكتب للريح ، وذلك يكتب لاثبات نظرية اجتماعية أو قضية علمية ، وآخر يبنى قصته على الاستنتاج العقلي المنطقي ، وغيره يرمي الى فكرة دينية .

وانتهت العطلة ولكن نوحا لم يكف عن المطالعة ، ولما رآه ابوه يركن الى البيت ، ويتقدم في دروسه ، وتقل شكايات امه منه ، تركه وشأنه .

وكانت القصص المترجمة الى العربية . في مدينته الصغيرة قليلة في ذلك الوقت ، وسخيفة الموضوع ايضا . ولكن نوحا كان يجد فيها متعة كافية ، ولما اجتاز الدراسة الابتدائية ودخل المدرسة الثانوية اعجبه كتب القراءة الانكليزية (نيوكلوب ريدر) فقد كان فيها من القصص الرائعة قدر وافر وكان ذلك فاتحة ولعه بتعلم اللغة الانكليزية فقد ادرك بالبداهة وجود كنز عظيم من القصص ، مؤلفة بهذه اللغة او منقولة اليها . ولم ينقطع عن التفتيش عن القصص في الحوانيت ، وعند باعة الكتب وكثيرا ما كان يجد ان القصص التي تلذ له قد هذت ، فيضطر الى اعادة قراءة بعضها ، أو يضطر الى التلهي بقراءة الكتب التي تشبه القصص ، ومطالعة الروايات التي لا تتعبه ، وفي إحدى هذه المرات عثر على قصة (الجريمة والعقاب لدستوفسكي) (وتاييس لاناطول فرانس) ، (وبتريس لرايدر هجارد) . فأخذ الاولى وبعد ان قرأ حقيقتين منها رماها متأففا . واما الثانية فقد قرأ نصفها وهو لا يدري اكان يقرأ قصة أم كتابا أم شيئا آخر ، ولما شرع في قراءة الثالثة شعر بالملل لخلو القصة من المغامرات ولما فيها من التطويل والاسهاب في التحليل والاستعارات الشعرية ، ولكن شيئا في نفسه كان يتحرك ، ويحرضه على الاستمرار في المطالعة ، وكانت عواطفه تهبش ، وانفاسه تسرع وقلبه يخفق حين يقرأ وصف اخبار الغرام العنيف الرائع الذي اهرق هذا الكاتب بوصفه وتحليله وتمجيده، وهنا على القارئ ان يتذكر ان نوحا كان قد دخل سن المراهقة ، ذلك السن الذي تنفتح فيه نفس الشاب للحب ، ولم يتنه من القصة حتى كانت دموعه

تسرع فوق خديه تأثرا لما أصاب بتريس شهيدة الحب والاخلاص آسفا على حياتها الثمينة وشبابها الفضي وتمتم مع المؤلف بصوت تخنقه العبرات (سلام على بتريس ، سلام على حبها ، سلام على اخلاصها) وكانت هذه القصة نهاية عهده بقراءة القصص البوليسية ، وفاتحة عهده بقراءة القصص الغرامية المؤثرة ، فمر بكل ما ترجمته جريدة الاهرام من مؤلفات هجارد ، كعائشة والحب الابدي وانجيلا وغيرها ، وبمؤلفات (جارلس جارفيس) وغيرها ، تلك المجموعة الهائلة من الروايات الغرامية التي تمتاز بقوتها ، ونبل غرضها . وصار يبحث عن مؤلفات الاهرام بلهفة وشوق فلا يجد كلمة تعريب (م . ع) ونشرت تباعا بجريدة الاهرام حتى يخفق فؤاده ، ويتناول القصة ويشعر في التهامها ليشارك ابطالها في غرامهم ، وفي جبههم واخلاصهم ويشاركهم في آلامهم وآمالهم والنكبات التي تصيبهم ، فيتألم لمصابهم ويكي بكائهم ، ويسعد لسعادتهم ، ويشعر بطعم القبلية على شفثيه عندما يقبل البطل القوي البطلة الجميلة ، بل قد تذهب به حدة الخيال الى الهيام بالبطلة والتولع بها حتى ينتقل الى قصة اخرى ليعلق بحسنة جديدة ، وقد اغناه خياله عن مطاردة الحان ، وخداع الفتيات ، أو الانغماس في الفسق والفجور ، فصانه ذلك عن الدنس . دون ان يشعر بالحرمان فقد كان خياله القوي يقدم له الغذاء الكافي من هذه العواطف الحارة الملتهبة ، فهو محب محبوب على الدوام ، بل لعوب ذو غرام في المرأة جشع ينتقل من حبيبة الى اخرى كما تنتقل الفراشة بين الازهار ففي كل يوم يشعر بانفاس حبيبة جديدة عطرة تهب على خديه ووجهه ، فيتخذر ويذوب بين ذراعيها ، ومما زاد في سروره ان بعض تلك القصص كانت تجمع بين حدة العواطف ، الغرامية ، وروعة المغامرات وقد وجد في (كليبواترا و (ابنة متروما) و (قلب الدنيا) و (انجيلا) و (كنوز الملك سليمان لرايدر هجارد) ما لم يجده في (الغادة الباسلة) و (فوستا) و (الفرسان الثلاثة) و (الكونت موتوكريستو) وما مائلها . ومر في هذا الدور بترجمات المنفلوطي ، وبعض القصص المترجمة عن شكسبير كتاجر البندقية

وهنري الثامن والعاصفة وغيرها ، كما قرأ كلورث لولترسكوت • وبضع قصص تاريخية أخرى لهذا المؤلف ، وقرأ القصص التاريخية الفرنسية أيضا ، واعجبه منها قصص الفروسية ، فاحب باردليان حبا جما ، وامتدته مترجمات طيوس عبده ، ومعربات اللطائف الأهلية السورية بعدد من القصص كفاه مؤنة البحث والسؤال مدة طويلة ، ولست اعتقد ان مؤلفي تلك القصص ومترجميها كانوا يحلمون بوجود مثل هذا التلميذ الغاوي الذي كان يفهم آراءهم واغراضهم بمجرد الاشارة لاستعداده لها ، والتهيم لقبولها • وانهت دراسته الثانوية دون رسوب او تأخر فكان نجاحه معتدلا بل فوق المعتدل ، اذ ارغمه ولعه بالقصص على ان يقوم بواجباته المدرسية بعد رجوعه من المدرسة فورا ، حتى لا ينقص عليه عند قرائته القصة منقص ، ولو اردنا الحقيقة لقلنا ان الفضل في هذا النجاح المنظم يرجع الى القصة ايضا •

(٧)

وقيل انتهاء دراسته الثانوية انضم الى زمرة اولئك الطلبة المتحمسين الذين يندفعون الى التشبه بالكبار ، من رجال سياسة وأدب وعلم ، فيؤسسون الجمعيات ، ويتباحثون في شتى الشؤون • وقد يدفعهم الفرور الى ان يتصوروا انفسهم قادرين على تغيير سياسة شعب أو مصيره ، أو التفوق على كاتب كبير ، أو عالم تحرير ، فينتقدون ويسفهون بدون حساب •

وفي هذه الزمرة وجد من يعيب عليه ولعه بالقصص ، ويسخر من القصص والقصصين ، والكذبة والكذابين ، ويتباهى بأنه يطالع جهورية افلاطون ، وفلسفة ابن خلدون ، وماديات كارل ماركس ، ونظريات فرويد في التحليل النفسي وغيرها من الكتب التي لا يعرف هؤلاء المتبجحون منها في الحقيقة غير عناوينها واسماء مؤلفيها ، فاضطر مجاراة الى مطالعة بعض تلك الكتب ، ولكنها لم تصادف هوى في نفسه بل قادت الى قراءة الطوييات والتراجم ، فاعجب بطوبى (افلاطون) و (تومس مور) و (ويلز) ،

وكان قد أتقن اللغة الانكليزية اتقاناً يمكنه من فهم ما لم يترجم الى اللغة العربية . ولم يكن ولعه بهذا النوع من الادب الا لمشايبته للقصة وارتباطه بها ، وأعجبه من بين التراجم تاريخ حياة الفلاسفة والعلماء والرجال والبارزين في التاريخ . وعند بدء دراسته العالية وجد في نفسه تحولاً غريباً ، فقد وجد انه أصبح يطالع كل ما يقع تحت يده حتى ولو كان اقصوصة اطفال ، لا بقصد التسلية وقطع أوقات الفراغ بل ابتغاء التلذذ بدراساتها ، وصار يدرس ما يطالع ويتقّد ، ويدرس اخلاق من يعاشر ويتقّد ، ويدرس طبائع اصدقائه وحتى معلميه واساتذته ، وكانت تغلب في انتقاده روح المفاضلة ، والحب والكره ، فيستدح الاخير ويلعن الاشرار ، ويحتقر الاغبياء ، ويعجب بالاذكياء . ولكن هذه الروح كانت تضعف بالتدريج حتى زالت . واستحالت دراسته تلك الى دراسة علمية بحتة ليس للتحزب أو الحب والكره دخل فيها . فاذا وجد شيراً درس فيه اخلاقه واطواره وفلسفته في الحياة وبيئته وتربيته ، ثم ربط كل ذلك بحياته الحاضرة ، وكثيراً ما كان يجد ان هذه المظاهر المكروهة ليست الا نتائج حقيقية لمقدمات واغلة في العمق ، قد غرست جذورها في اعماق النفس ، ولا شك ان نوع دراسته العالية دخلاً غير قليل في هذا الولع بدراسة الاشخاص ، وتطوره في هذه الدراسة .

فقد اختار في دراسته العالية علم النفس ، وعلم الاجتماع وعلم الحياة ، والهندسة التحليلية ، ولعل القارئ يجد غرابة في هذا الخليط من الفروع ، ولكنه بعد امعان قليل في تاريخ حياة هذا الشاب سيجد الا تناقض في هذا ولا تنافر ، فكل هذه العلوم تمتاز بتناولها الانسان في مختلف نزعاته واطواره وانظمته ، فقد درس كثيراً من الشخصيات والطبائع بالسلوب اذا لم يكن قريباً من القصة فهو ذو صلة وثيقة بها . أما علم الحياة والحيوان منه على الاخص فهو عبارة عن وصف مطول بديع لعجائب المخلوقات واطوارها وطبائعها وحياتها فيها عن الطرافة والجمال شيء كثير . وفي هذا الوقت وقع بصره عفواً على قصة الجريمة والعقاب فتذكر انه رآها قبلاً فحبسها من طراز رواية

طرزان لان مربهما واحد ، وانه طالع بضع صحائف منها ورمها بعد ان ادرك خطأه ، ولكنه لم يرمها هذه المرة بل عزم على قراءتها مهما كلفه الامر ، ووجد لشدة دهشته ان القصة تستولي على مشاعره وتخلب لبه . يا للفرابة أيسكن لهذه السنين الست ان تغير من ذوقه وعقليته الى هذا الحد ؟ ان هذا هو الواقع ، وها هو ذا يطالع هذه القصة ثلاث مرات دون ملل . ويجد في كل مرة من الجديد الطريف ما لم يجده في المرة السابقة ، وينس من الفوائد ما لم يلمسه .

وكانت هذه الحادثة بداية دور جديد في حياته فقد عرفته بكتاب فذ ليس في امكان كل فرد ان يفهمه ، كاتب مدهش يختلف عن كل من عرفهم من القصصيين ، فهو لا يكتفي بسرد الحوادث والوصف السطحي بل يغور في أعماق نفوس ابطال قصصه ، ويشرح لك اهواءهم وطباعهم وامزجتهم ، وكثيرا ما يصل لشدة تعمقه الى تلك الصفات التي يشترك فيها الناس عامة ، فتشعر كأنه يتكلم عما فكرت فيه يوما ، أو عما يخالجك من الافكار الباطنية ، والعواطف الغريبة والاحساسات الشاذة . وأعجبه منه اكثر من هذا ولعه بالشخصيات الغريبة الشاذة ، ومهارته العظيمة في تحليلها وتصويرها بدقة فنية بديعة يعجز القلم عن وصفها ، فتطالعها دون صعوبة ، وتجدها مفهومة منك مألوفة لديك ، والأعجب من هذا انه لا يشذ عن الواقع في كل ما يكتب ، فليست قصصه الا قطعة من الحياة ، ولكنها مشرحة ومحللة ومفسرة بمهارة وحذق . وقد وجد في هذا اللون الجديد من الادب كنزا لا يقاس بما قرأه ولا يدانيه .

وتناول (بيت الموتى) و (الزوج الابدي) و (الاخوة كارامازوف) وغيرها من مؤلفات هذا الكاتب وأصبح يحتفظ بهذه القصص يراجعها أو يطالعها عدة مرات ، لا كما كان يفعل سابقا ، حين كان يرمي القصة دون مبالاة بعد ان يفرغ من مطالعتها ، ويرجع الفضل لدستوفسكي في ولعه بالادب الروسي ، فانكب على مطالعة مؤلفات (تولستوي) و (ايفان تورجينف)

و (بوشكن) ولم يعجبه كثيراً (مكسيم جوركي) ولا (تولستوي) رغم روعه فنهما وجزالة اسلوبهما الحماسي المؤثر . وذلك لانه عد الاول داعية شيوعيا ، والثاني واعظا دينيا ، وفي كل ما يسمى دعاية حقائق كثيرة في رأيه .

وقد وجد بونا شاسعا بين اسلوبي هذين المؤلفين واسلوبي تورجنيف ودستوفسكي الذين يعطيان للمجنون من الاهمية بقدر ما يعطيان للتابعة ، ولا يفرقان بين الانسان الاعتيادي والشاذ في عمق التحليل ودقة الوصف فيرضيان مجبي الدراسة والثقافة ويولدان في نفوسهم الاعجاب والتقدير ومن سخرية الاقدار ان يجمع في مكتبه بين هذين الكاتبين المتخاصمين الذين ما كانا يعرفان في حياتهما هدنة ، أو يرضى أحدهما عن الآخر الا فيما ندر . فكنتم تجد (الفقراء والمقارم) الى جانب (الآباء والبنون) ، و (الابله) الى جانب (الارض العذراء) و (بيت الموتى) الى جانب (ليزا) وتعرف بوساطتهما على بضعة عشر كاتباً من كتاب الروس الافذاذ فلم يفت (جريكوف) ، ولا (انطوان تشيكوف) ولا (بونين) وغيرهم من كتاب القصص الكبيرة والصغيرة .

وما نسى ان يبحث عن شبيه هذا النوع من الادب القصصي التحليلي الفلسفي في آداب الامم الاخرى فقادته بحثه الى (اناطول فرانس) و (الفونس دوديه) و (بول بورجيه) و (هنري بوردو) و (وموباسان) و (اميل زولا) و (هوجو) و (فولتير) و (مارسيل برنغو) من كتاب فرنسا وقرأ لهؤلاء اروع ما كتبوه (كتييس) و (الزبنقة الحمراء) و (سلفستر بونار) و (ثورة الملائكة) و (سافو) و (المريد) و (طيب الرف) و (المال) و (الفنان الضريف) و (جرمينال) و (كانديد) و (البؤساء) و (احلب نوتردام) و (زادك) وغير ذلك .

أما من كتاب الانكليز فقد أعجبه (ويلز) بدراسته العلمية العميقة وروحه الانسانية العالية ، كما أعجبه اسلوب (شو) الساخر وعدم خضوعه

لآراء غيره ، وإتيانه برأي جديد طريف في كل ما يصل الى يديه •
 وأعجبه (لورنس) رغم اسلوبه المقطر وأدبه المكشوف • واطلع على
 بعض مؤلفات (جون كالزورتي) و (موم) وقرأ (دكنز) وأحب منه بساطة
 اسلوبه وسلامته مع عمق افكاره وانسانيته • وعلى الرغم من أعجابه بكل
 هؤلاء فقد حل (اوسكار وايلد) في نفسه منزلة لم يحتلها كاتب انكليزي
 فقد وجد في اسلوبه حرارة وحامسا لم يألها في الادب الانكليزي المحافظ
 الرزين •

واستعرض شيئا من الادب الاميركي ، ولم يقف الا عند (سنكلر
 لويس) • فلم يلهه (مارك توين) بدعائاته ولا (أدكار الن بو) بمرعباته
 ومن ثم التفت الى المانيا وايطاليا فوجد ان طراز الحكم الدكتاتوري قد قبر
 الادب الشعبي الراقي المصبوغ بالصبغة الانسانية المطبوع بطابع التحليل
 العلمي ، فما عدت تجد كتابا مثل (كوتيه) في الادب الالماني ولا من يقتني
 أثر داتتي وبوكاشيو في الادب الايطالي وقد ختم الطليان شهرتهم (بلويجي
 بيرانديلو) والالمان (بماريا ريماك) واستعاضوا عن أدب الحياة بالجمعية
 والكلام الفارغ ، فبرهنوا بذلك على ان همجية القرون الخالية قد استهوتهم
 أكثر مما استهواهم بهرج المدينة ونور العلم •

(٨)

واتتهت دراسته العالية واستلم شهادته في حفلة رائعة وارسل في طلبه
 عميد الجامعة قبل ان يترك المعهد وبعد ان هنأه مرة أخرى على تقدمه ونشاطه،
 أعلن له أعجابه بسلوكه وحسن اخلاقه واضاف متمنيا

— ارجو ان لا تفسدك الدنيا وارجو ان تظل محافظا على زهدك
 ونسكك وطيبة اخلاقك وامانتك •

فاجاب

— وهل تظن الدنيا قد أصبحت فاسدة الى هذا الحد ايها الاستاذ ؟

— انها دائما فاسدة ، ولكنها تتن في بعض الاحيان فتنبعث منها
روائح كريهة تفسد اذواق الناس ، وتثير في قوسهم الميل الى الشر . ولكن
خبرني ألا تزال مولعا بالقصص ؟

— أجل يا سيدي ، فهل في هذا ضير ؟

— لا ولكن يجب ان لا يخفي عليك ان القصص الراقية تعطي ذوق
الانسان ونظرة الى الحياة ، وامثالك يصدمون عادة لان خيالهم الخصب
يقنعهم بإمكان وجود الكمال ، بينما نجد الحقيقة خلاف ، ذلك ، ومن هذا
التعارض بين الخيال والواقع تنتج ازمات نفسية خطيرة ، وعلى كل فأرجو
ألا تتعذب .

وخرج من جامعته وكلمات المعيد ترن في اذنيه فتحدث تأثيرا غريبا .
ولكنها كانت تثير في نفسه الاقدام والجرأة لا الخوف ، وبنفس عناده يوم
كان صبيا ، عزم على ان يدخل معترك الحياة بقدم ثابتة ويدافع عن هذه الاخيلة
التي يكونها الخيال الخصب حتى ولو كان هذا الدفاع شاقا عسيرا .

(٩)

مضى عهد الدراسة وبدأ عهد الكفاح ، ودخل نوح الممعة لا يحبل
من الاسلحة غير شهادة البكلوريوس في ذلك المزيج من الفروع ، ومخيلة قوية
خصبة يحكمها الخيال المنظم ، ونفس أبية تدين بمبدأ (من لا يعمل لا يحق
له العيش) وجهل مطبق بكل الطرق العلمية التي تكفل لصاحبها النجاح
والشهرة . وكان من السذاجة بمكان ، فلم يخطر في باله ان لديه مواهب
عالية تؤهله لمراكز ممتازة . وبكل تواضع وبساطة تقدم لعمل حكومي
بسيط ، وبعد جهد جهيد استطاع ان يحصل على وظيفة ذات مرتب يكفيه
للافاق على نفسه ، وعلى امه التي بلغت من الكبر عتيا ، وعلى أخيه حتى
يكمل دراسته . وقد حمل هذا العبء راضيا مسرورا ، اذ وجد ان ليس هنالك
غيره بعد وفاة أبيه ، وليس لهم من المال غير ما يحصله بكده بعد ان استترف

ماخلفه له أبوه من المال اثناء دراسته • فكان لزاما عليه ان يفي بدينه ، ويقوم بمهمة أبيه •

وبدأ عمله بمهمة ونشاط لم تعهدا في غيره ، وكانت وظيفته في ديوان احدى الوزارات • ومضى عليه في عمله ستان لم تقدم اثناءهما عنه شكاية عن اهمال أو تقصير ، وقد لاحظ رئيس الديوان ، وهو مستغرب ، ان موظفه من طراز جديد لم يسبق به • فلا هو بالسكير المعربد المهمل ، ولا هو بالمتبجح المتكبر الكذاب ، ولا هو ممن يخلقون كل يوم حادثة ويفرضوا علاقتهم بوزير مهم أو شخصية بارزة ، لكي ينالوا احترام رفاقهم ويفرضوا سلطتهم عليهم ، ولا هو ممن ينقل ما يتكلم به رفاقه في جلساتهم الخاصة اليه والى بقية الرؤساء مع التحريف والزيادة والنقصان لينالوا حظوة ، أو يوقعوا بعدو ، أو يفيدوا صديقا ، وبالتالي فهو لا ينتمي الى حزب ما أو الى شخصية معينة ، وليس فيه من ميزة غير هذا الانكباب الجدي على العمل ، وعدم التدخل في كل ما عدا ذلك • وقد ألحت عليه الحيرة فساقته الى سؤاله عن آماله في الحياة ومظامحه ، فأجابه مبتسما •

— اني لا اتمنى اكثر مما أنا فيه ، وما أتقاضاه من خزينة الدولة مبلغ ليس بالزهيد ، واذا كنت استحق اكثر من هذا فلا أعتقد بوجود من يحول بيني وبين ما استحقه ، أما أوقات فراغي فاقضيها في المطالعة •

ومضت سنة اخرى ، وشغرت وظيفة رئيس الديوان وانهاالت على الوزير الطلبات وبطاقات الوساطة من كل موظفي الديوان ما عدا نوح • وقد أحصى الوزير أوراق الوساطات فوجدها تقل عن عدد الموظفين واحدا • وعلم ان هذا الواحد هو نوح • فارسل وراءه فورا وسأله مستغربا

— أليس لك أمل في المنصب الشاغر ؟

فأجابه باسم

— اذا كنت استحقه فمعالیکم سترشحنی له دون شك ، وعدم ترشيحکم لي يدل على اني لا استحقه •

فقهر الوزير فاه دهشة وسأله

— الا ترى عيبا في رفاقك الذين يشتغلون معك ؟

فأجاب

— ان هذا ليس من شأني يا سيدي ، ولست أرى من حقي ان احكم في سلوكهم ، ولكنني اكفي بالقول بأني لم أر منهم ما يسىء الى شخصي .
أما مقدار اهتمامهم باعمالهم فعلمه عند رئيس الديوان .

وشعب الوزير انه ازاء رجل غريب . ترى من أين أتى هذا المخلوق ؟ وكيف امكن ان يبقى بين كل هذا العدد الضخم من الموظفين الذين لا يتقنون غير التملق والتزلف والنفاق والوشاية ، عدة سنين ، دون ان يتأثر بأخلاقهم ، أو يقتبس عاداتهم ؟ كم يكون جميلا لو كان عند كل الموظفين المسؤولين مثل هذا الانصاف ؟ اذن فلن يبق في دوائر الحكومة ما يسمى ظلما أو اضطهادا أو تلاعبا أو رشوة أو خيانة ، ولا ريب ان ذلك هو المثل الاعلى للحكومة الكاملة . واستولت عليه الفكرة وأثرت فيه شخصية هذا الشاب بطريق غير مباشرة . فاكسب منه بالعدوى شيئا من الميل الى الانصاف والعدل . وعندما امضى الامر الاداري بتعيينه رئيسا للديوان شعر بشيء من الزهو والكبرياء ، ولم يخف عليه انه قام بعمل يعد الوحيد من نوعه بين كل رفاقه الساسة ، وفي كل حياته . وكان تأثير الحادثة في نفسه أعمق من هذا فمضى يقص على كل معارفه هذه المكرمة ، ويمتدح اخلاق هذا الشاب وصفاته ، حتى جعله علما ، وقدم له من الشهرة ما لم يحلم به . وحدث ان سقطت الوزارة بعد تعيينه ببضعة أشهر وتسلم المنصب وزير جديده أتى للإصلاح والتعمير كما هو متعارف ، وعزم على أن يقوم بأعمال تفوق ما قام به سلفه ، ويظهر للناس مبلغ حنكته وحكمته ، ومبلغ سوء تصرف السلف ، وسخفه وكان محله يمتليء كل يوم بمؤلمي التقدم والترقي ، ولم يخل إلا من رئيس الديوان . وقد سأل عنه مرة فأجابه موظف منصف

— إنه ناسك يقضي وقته بالمطالعة وقل أن يخرج من بيته فاعترض آخر
خيث ••

— ولماذا لا تقول أنه من أنصار الوزير السابق ، فقد كان يشيد بمدحه
في كل مكان ، حتى جعله أشهر من نار على علم ، لذا كان من الوفاء أن يبقى
مخلصاً له فهو الذي جعل منه موظفاً قديراً •

واغتاض الوزير ، وأرسل وراءه بعد يومين ، وطلب منه أن يقدم تقريراً
حسناً عن أحد مرؤوسيه بغية ترقية • وبعد أن اطلع نوح على ملفه وجد أن
ذلك التقرير يستحيل أن يكون حسناً فقدم النتيجة الى الوزير ، فصاح الاخير
في وجهه •

— قلت لك أريد تقريراً حسناً •

فأجابه مصرأ

— اني أستخرج التقارير ولست أخلقها خلقاً •

فثار صاحب المعالي وصاح في وجهه

— أتحداني أيها الكلب ؟ سأريك •••

فكانت هذه الاهانة ذات وقع هائل في أذنه ، فاحمر وجهه وأجاب

ووجهه مكفهر وجسمه يرتجف

— اني لم أرتكب ما يوجب الاهانة • انك تريد مني أن أكذب وهذا

أمر لا أستطيعه فان كنت ترى ذلك ضرورياً ففي استطاعتك ان تنتخب غيري

لهذا المنصب •

وما كان صاحب المعالي في حاجة الى مثل هذه النصيحة فقد كان مصمماً

على ذلك منذ امد طويل ، وفي اليوم التالي تلقى أمر انتقاله الى وظيفة اخرى

ادنى مركزاً ولكنها ليست اقل راتباً •

(١٠)

هل رأيت أيها القاريء قبلة تطلق قرب انسان نائم ؟ وكيف يكون
تأثيرها عليه اذا لم تكن قد رأيت ذلك فتصوره ، لتعلم مقدار أثر هذه الحادثة

في نفس هذا الشاب الذي ما كان يعرف عن الواقع والحياة العملية شيئا .
لقد كادت تلك المفاجأة تذهب بلبه وقد بقي مدة تحت تأثير الصدمة السيئة ،
ثم اخذ يفتح عينيه للواقع شيئا فشيئا ، ومن ثم استفاق تماما ، واخذ يتطلع
حواليه بنفس يقظة ، واذن مرهفة وبصر حديد .

وووجد ، وبما اسوأ ما وجده . وكانت الحقائق السيئة تنكشف امامه تباعا ،
فصار يتبّه الى كل ما يقال . وعلم ، وعلم ، وعلم ان مقياس المرء ما يملكه من حنكة
ودهاء . وان الاخلاق لا مفهوم لها ، وان الاخلاص يدل على السذاجة
والحق ، والشرف شيء مكروه ، والصدق معناه الجنون ، وخيانة الواجب
اول شروط النجاح والشعوذة رأس مال من يبغي التقدم ، والخدمة
الصحيحة تأتي بأسوأ العواقب ، والوطنية اسم بلا معنى ، والقومية بناء
قصور لبضعة أشخاص فقط ، والشعبية والشعوية والشيوعية تدل على
مفهوم واحد .

ومرت عليه ثلاث سنين أخرى حدثت فيها ثلاثة أشياء مهمة . . أولها
موت أمه ، وثانيها انتهاء أخيه من دراسته ، وثالثها تبدل أساسي في نفسيته
وطباعه ، فقد انقلب من شخص رضي هاديء الى متهم متمرد على تلك
الامور السيئة التي أصبح أمرها غير خاف على الخاص والعام . وفي هذه
المرة انكب على مطالعة الادب العربي الحديث عله يجد صوتا واحدا يعلن
الخطأ ، ويطلب الاصلاح ، ولكنه ازداد حيرة في أمره فقد رأى هؤلاء يرتكبون
جريمتين السكوت عن الحق ، ومشايعة الباطل خوفا من ذوي السلطان ، وجبا
في جر المغنم .

وفي هذا الدور أيضا نشأت في نفسه حرب هائلة بين قوى الخيال التي
لا تفنأ تعمل وتبني في عقله العاللي والقصور والمثل العليا ، وبين الواقع الذي
يحاول أن يفرض عليه التسليم للمقادير والخضوع الاعمى لها ، وكانت حرب
عنيفة ، قاسى منها أكثر مما قاسى من جور أبيه وتعنيف معلميه وسخرية رفاقه ،
فهنا شيء يحاول أن يهدم كل ما بناه في عقله ، وليت شعري ما طعم الحياة بعد

هذا الاقار • وشعر يوما بأن شيئا من الاضمحلال والرضوخ يمد يده الى نفسه فيلينيها ، وعلم أن ذلك فاتحة الرضوخ والانحدار الى الهوة ، فصمم على ان يقطع على نفسه كل أمل في التقهقر والخذلان • لقد قام بواجبه نحو أمه وأخيه ، فليكرس بقية حياته للقيام بواجبه نحو وطنه ، ولم يعلم كيف تذكر طارق بن زياد حينما أحرق سفنه ليقطع على جيشه خط الرجعة ، وصمم بنفس العناد والاصرار الذي كان يقاوم به تعنت أبيه ، على ان يقطع بينه وبين هذه النظم الفاسدة كل أمل في الاتفاق والتفاهم • وأراد أن ينفذ قراره بنشر مقالات متسلسلة يشرح بها وجهة نظره ، أو يبرهن على فساد الانظمة المتعارفة بصورة تجعل قبوله لها في المستقبل من المحال ، وبدأ يكتب ، وكم كانت دهشته عظيمة حينما وجد انه يكتب فصلا من قصة ، ولكن ذلك لم يشنه فاندفع يكتب حتى اتم رواية كبيرة كاملة مزج فيها الفن بالنقد والنكات بالمآسي ، والاحلام المعسولة بالشكوى المريرة •

ولما عاد الى تلاوتها ادرك فورا عدم وجود من يوافق على نشرها ، وعلم ايضا ان قصته هذه سوف لا تلاقي رواجاً لعدم وجود الدعاة المشجعين ، ولكن هذه العقبات لم تقف كثيراً أمام عناده ، فطبعها سراً ثم فاجأ الناس بها غير خاف عليه ان عمله هذا قد يعود عليه بأسوأ العواقب واوخمها • وانزوى يراقب ما يأتي به القدر •

وتلقى رؤساء الصحف المحلية كتابا يهدى اليهم يحمل اسم مؤلف معنوم ، فلم يكلفوا أنفسهم حتى مؤنة النظر الى عنوانه ، وتلقى الكتاب البارزون نفس الكتاب مرسلًا بواسطة البريد فاستغربوا أن يرسل لهم كتاب من شخص لا يعرفونه ، ولما كان الكتاب لم يكلفهم ثمنًا لم يردوه بل شرعوا في تلاوة بعض سطورهم ، وجذب انظارهم أسلوبه الفني الغريب فمضوا يقرأون حتى التهموا قسما غير قليل منه ، وصفق أكثرهم أخلاصا للادب طربا لعثورهم على رفيق جديد يقف في صف الادباء ، ومضوا يشيدون بذكره ، ويحضون الناس على متابعة آثاره ، واما أولئك الذين لا يعرفون من الكتابة

الا انها واسطة لاصطياد المال ونيل الشهرة ، فقد اكفهرت وجوههم لوجود هذا المنافس الجديد ، وزادهم سخطا وثقورا شعورهم بتفوقه عليهم في الجراة وقوة البياة والحماس الذي يثيرة الاخلاص وتذكية النزاهة ، ولكنهم لم يلبثوا ان ابتسموا حينما علموا أنه مغمور لا اسم له ، وان اسلوبه هجومي عنيف ، وانه بهذا النقد اللاذع سيثير سخط كل أصحاب الشخصيات البارزة والمتنفذين بل وكل الناس ، فهأنوا أنفسهم مقدما بقرب خلاصهم منه ، ولكنهم لم ينسوا أن يثيرا عليه حملة خبيثة في الخفاء ، فينبهوا من يههم الامر الى ذلك الكتاب بغية ايقار صدورهم على مؤلفه • ولم يتردد عن اهداء مؤلفه الى أكثر الناس امعانا في الرجمية والمحافظة على القديم ، فقرأوه وعجبوا كيف تجسر المطابع على اخراج مثل هذا الهذيان ، الذي لا يحوي كلمات غامضة أو عبارات معقدة ، أو فلسفة لا يفهمها احد ، وتتم بعضهم هازئا (سوف يعود بخفي حنين) وأهدى الكتاب الى كل اصدقائه والمقرئين اليه فاغتاظ بعضهم من ان بيدي رفيقهم هذا النشاط دونهم ، ومضوا يسفهنون اراءه وتمنوا من كل قلوبهم ألا يبيع نسخة واحدة من كتابه ، وقد تأمروا فعلا على اجباط مساعيه فصاروا يقدمون مؤلفه الى كل راغب في قراءته حتى يكسدوا سوقه • على ان اغرب ما حدث في هذا الباب ان كاتباً بارزاً يستشهد بشهادة عالية على تعمقه في الادب •

تناوله بأطراف اصابعه ولما أتم قراءته قال

— لو اصدرت الحكومة اوامر مشددة تمنع بها كل شخص عن الاشتغال بغير اختصاصه ، وتمنع المتطفلين على الادب من مزاولته لكان في ذلك اعظم فائدة •

ولم يزد على ذلك

ومضى وقت كبير دون ان يلتفت احد اليه او الى ما كتب او استغرب الناس ان يسكت اولو الامر وأرباب السياسة عن هذا الذي يندد باعمالهم وخططهم على رؤوس الاشهاد • ولكن هؤلاء الناس لم يعلموا أبدا ان هؤلاء

يرون في أنفسهم غير ما يرى الناس فيهم ، وانهم قد بلغوا من الغرور ان أصبحوا يظنون كل مديح مسند اليهم ، وكل ذم موجه الى اعدائهم ، وليس من الانصاف ان ننسى ان بعضهم كان يرى في اقواله رغبة حقيقية في الخدمة غير مصبوغة بغرض شخصي او حزبي ، فدفعتهم بقية من الشرف كامنة في اعماق نفوسهم ، الى محاولة الاخذ بيده اذا لم يخسروا من جراء ذلك شيئاً ، والا فليستوا عنه على الاقل . اما هو فقد ادرك كل ذلك فتنفس الصعداء فقد وجد طريقاً للعمل المثمر المتواضع .

واقسم على ان يستمر في هذه المحاولة مهما كلف الامر ، وان يقدم في سبيل ذلك كل تضحية ممكنة ، ولم يخف عليه ان نتائج عمله ستكون بطيئة ، ولكنه لا يسعى الى فائدة شخصية او نتيجة سريعة ، فقد اولع الآن بكتابة القصة واعماً لا يقل عن ولعه بقراءتها سابقاً .

الْبَيْتُ

أمسك رفيقي الذي كان يلاعيني بالنرد ، وهم بالقاءه ، وانتقلت عيناى
من التحديق بالنرد الذي كان بين أصابعه متلهفة الى استطلاع ما ستأتي به
الصف ، الى وجهه مستعربة امساكه عن رميه . ولحظت على وجهه ظل ابتسامة
تدل على انه يرى شيئا سارا ، فدفعني ذلك الى أن التفت الى الوراء لاستطلاع
ما يجذب انظاره . ورأيت شخصا يلوح من وجهته انه قادم نحونا ، ولكن
عينه لا تدلان على ذلك ، كاتتا عالقتين بالقضاء ، وكان ينقل قدميه ، ويحرك
يديه بشكل يدل على انه قد أطلق لعضلات اطرافه القيادة لتحرك كيف شاءت .
وسمعت ملاعبي يقول :

— هذه صدفه طيبة ، لقد أتى بنفسه ، ولم يحملنا مؤنة الذهاب اليه .
فسأله

— من تعني ؟

فاجاب وابتسامة خبت ترقص على شفثيه .

— المجنون الملقب بالنبي ، الذي كنت أحدثك عنه قبل أن نبدأ باللعب ،

فأظهرت شوقا الى رؤيته والتعرف عليه .

واقرب منا مبسما ، ولم يظهر عليه انه أحس بنظرات الفضول التي
غمرته بها ، ولا بنظرات السخرية التي صوبها رفيقي نحوه . وسلم ، ثم
اضاف .

— ارجو ألا ينعمكم حضوري عن الاستمرار في اللعب .

فأجاب صديقي

— ان صديقي هذا مشتاق الى التعرف عليك فقد حدثته كثيراً عنك فهو

لا يعد نفسه مغبونا لو استعاض عن اللعب بالحديث اليك . هذا بغض النظر
عن عدم ولعه بلعب النرد .

ومرة اخرى لم يحسن بما يحمله كلام مخاطبه من سخرية وهزؤ ،

فأجاب بلهجة رقيقة مؤدبة .

— أتشرف بالتعرف عليه ، اهلا .

ومد نحوي يدا نحيلة صغيرة يحملها ساعد ضعيف ، فشددت على
اصابعه برفق خشية ان تضيق هباء في كهي الغليظة • ثم القى بجسمه بهدوء
وبطء فوق المقعد الخشبي ، وعاد الى النظر في الفضاء ، وقطرت الى الجهة
التي علق بها بصره ، فلم اجد سوى قرص الشمس الاحمر الكبير يغوص
وراء الافق تدريجيا تحف به قطع مبعثرة من الغيوم التي تسوقها الرياح من
حيث لا ندري الى حيث لا ندري ، وكانت تأخذ اثناء سيرها اشكالا غريبة
واوضاعا عجيبة ، او تتجمع لتكون صورا مشوهة تارة ، ومتقنة تارة اخرى ،
ثم لا تلبث الرياح ان تمزقها او تمسخها ، ثم تعود الى جمعها من جديد • اما
شمس الاصيل فقد اخذت على عاتقها مهمة التلوين ، تفرق تلك القطعة بماء
الذهب ، او تشبع تلك الاسفنجية الشكل بلون الدماء القانية ، ثم تدفع
تلك القطع حتى تلتصق ببعض هاتيك الكتل وتنث فيها ماتحله من اللوان ،
وتركت النظر الى الغيوم والتفت اليه ، فرأته يبتسم وقد برقت عيناه واصطبغ
وجهه بلون قرمزي ليس في وسع رائيه ان يعرف أهو لونه الحقيقي أم جزء
من ألوان الشمس الكاذبة ؟ وقلت أفتتح الحديث

— أراك من المولعين بمنابر الغروب •

فأجاب

— أترأى من يفهمون المهازل التي تقوم بتمثيلها الشمس في بعض
الاحيان ، على مسرح السماء ؟ أم أنت ممن لم يوهبوا حق المشاهدة • ان
الشمس تقوم باعمال باهرة في بعض الاحيان ، ولكنها لم تهب كل الناس
حق الدخول الى مسرحها •

فأجبت ضاحكا

— أعتقد أنني ممن وهبهم الشمس هذا الحق يا أستاذ ، وأعتقد أنني

أستطيع فهم بعض ما تقوم به ، ولكنني مستجد ، فلت في غنى إيضاح هاو عتيق مثلك •

وفي تلك اللحظة شعرت بلكزة خفيفة في ذراعي ، وصوت يهمس في أذني

— لقد بدأ يهذي ••

وخفت أن يلاحظ استخفاف رفاقي به فيمك عن الكلام ، فما كان مني إلا أن مددت ساقي خلسة ورفست ساقه رفسة أعتقد أنها آلمته ، ولكنها أفهمته ما أريد ، فسكت وتصنع الجذ •

مضى من يسميه بالنبي يتحدث :

— أترى تلك الغيوم الخفيفة البيضاء ؟ التي تشبه البخار المتكاثف في جو بارد • انها الستار • أنظر كيف يرتفع عن المنظر • لقد تحرك المثلون ما أجمله وما أعظمه من منظر •• أنظر تلك الغيوم كيف تتكور وتدور • أنظر كيف تمد الشمس عصاها السحرية فتحيل تلك القطع الخفيفة الى أرجوان وذهب ، ثم انظر كيف تسبغه فوق هذا القزم الغريب الشكل لباسا فاخرا من الدماء • ياله من قزم غريب الشكل ترى ماذا يشبه ، وهو متمنطق بهذا الحزام من الذهب ، والمتربع فوق عرش من الذهب ؟

فأجبه بدون وعي

— قائد يعود منتصرا من سحق أمة ضعيفة •

— وما هاتان القطعتان من الغيوم ؟

— أسير وجلاد • يا الهي يلوح لي أنها رواية حقيقية ! أنظر كيف

تهوي رأس المسكين وتندرج ، يا للهول ! أنظر كيف فاضت الدماء فأغرقت كل المنظر ! لقد غرق كل شيء في الدماء •

فأجاب وهو يلهث !

— هذه هي النهاية • لقد غرق كل شيء في الدماء • لقد أسدل الستار •
وساد سكون غريب ، وحتى رفيقي الساخر لم يجد ما يقول فبقى
يحدق في وجهينا بحيرة وبلادة •

واختفى قرص الشمس وراء الأفق ، وبدأ الظلام يتسرب الى حنايا المنظر
وثناياه ، حتى اذا ما امتزج سواده بسواد الغيوم ، عاد وليس في امكان الناظر
ان يتميز جزءاً من أجزائه • وختم على فم هذا الذي يسميه رفيقي بالمجنون
او النبي كما أسدل الظلام حجابيه على ذلك المشهد ، فلم ينس ينت شفة •
لقد أمسك عن الكلام مرة واحدة كما بدأ مرة واحدة كالاوركسترا
التي تعزف رواية غنائية • فتبدأ عند رفع الستار وتسكت عند سدوله •
والتفت الى رفيقي الاول ، فرأيت في وجهه وعينه ما يشير الى أنه يريد
أن يقول :

— ألم أقل لك ؟ هل رأيت مجنوناً كهذا ؟

وسمعت زفرة طويلة من المجنون خيل الي أنها جواب بليغ على كلام
رفيقي الاول ، زفرة انبعثت من قلب مثقل بالهموم ، رزخ تحت اعباء الحياة،
ولكنها لا تدل على الثورة أو التمرد او الشكوى ، بل على منتهى الصبر
والاحتمال • ونهض أخيراً ، ثم استأذن يريد الانصراف • فسألته بشيء من
الالاحاح

— بودي لو أستطيع الاجتماع بك في غير هذا المكان • لقد أعجبني
حديثك ، فهل تسمح لي بزيارتك ؟

فأجابني بلهجة تمتزج فيها الدهشة والحزن •

— حقا • أتشرف بزيارتك • ثم أعطاني عنوانه ، وذهب كما أتى
بدون ضجيج •

واتبعت الى صديقي يطلق ضحكة جوفاء ويقول
— ما كنت احسبك مولعا بالمجانين الى هذا الحد !
فأجبتة مؤنبا

— مهما بلغ به العتة ، فهو من النوع الهادي المحبوب ، ولكن ألاحظ
أنك تميل الى أذاه والنكاية به مع انه لا يبدو كمن يحمل لك غلا أو حقدا •
— انه لا يحمل حقدا ، ولا يفهم ما هو الغل • وقد كانت هذه الصفة
بارزة في أطواره منذ الطفولة ، لقد كان محط سخرية رفاقه وأذاهم ، يتخذونه
محورا لنكاتهم وألعابهم القاسية • والصبيان كما تعلم لا يرحمون مسكينا ،
ولا يهابون الا الشرير الذي يزههم في أعمال الشقاوة وفنونها ، ويري
كل من يعرفه قصة غريبة عنه يومذاك ، فقد حدث أن تمادى رفاقه الاشرار
يوما في الاساءة اليه حتى أسالوا من من جبينه الدماء ، وفر الصية القساة
عند رؤية الدماء ، أما هو فقد غسل الدماء وأخفى أثر الجرح عن أمه ، اذ
كان غير مولع بالشكوى ، وما تثيره من شر ، ولكن أحد الصبية أعجبه أن
يتبرع بنقل الخبر ليرى ما يحدث • فثارت الام عند سماعها خبر اضطهاد
ابنها ، وذهبت تشكو الصبي المسيء الى أبيه ، وما كان من الاخير ، وقد رأى
ما جنت يدا ابنه الشرير ، الا أن انهال عليه ضربا وركلا حتى كاد يقطع
أنفاسه ، وكان صاحبنا حاضرا ذلك المشهد مع أمه ، فما كاد يرى عدوه
يستنجد ويستغيث ، حتى هجم باكيا على الاب ، وحال بينه وبين ابنه متحملا
بعض الضربات التي أصابته عفوا ، وبقي طول يومه تحت تأثير نوبة عصبية
حاددة • وكانت تلك الحادثة مبدأ اقتناع أمه بجنون وحيدها فلم تترك مزارا
الا قصدته ، ولا تمائم دون أن تعلقها برقبته ، ولا شيئا دون أن تذيق ابنها
من بصاقه • ولكن مساعيها ذهبت ادراج الرياح •

وسكت صاحبي بعد هذا الشرح فسألته حبا في اطالة الحديث ..

— هل أحب أو تزوج ؟

فقهقه وأجاب :

— انه لا يعرف حتى ظل المرأة ، فهو فاسك خجول • ولا أعتقد أن هنالك امرأة تستطيع أن تحمله أو تحترمه • لقد ترك أمه وأخته واستأجر غرفة في احدى الفنادق الحظيرة ، وقبع فيها لا يزور ولا يزار ، قانعا بما يرده من عقار أبيه ، مكتفيا بنصيبه من الدنيا ، وقد نفّض أهله أيديهم منه ، وأخرجوه من حساب الوجود •

— ولكن لماذا ترك أهله ؟

— لقد أحس بهم يتجسسون عليه ، وهو عاكف في غرفته يتمتم ويتحدث مع نفسه ، أو يكتب أوراقا ثم يقفل عليها مكتبه ، وقد لمح أمه تمزج طعامه وشرابه ببياه السحرة وعقاقيرهم ، وتضع سرا في بطانة ثيابه التسمائم واللفائف التي يكتبها المشعوذون بساء الزعفران ودماء الديكة ، فارت ثائرته وصمم على فراقهم الى الابد •

— ولكن كل ما ذكرت لا يدل على ان الرجل مجنون •

— انك لم تره الا مرة واحدة ، ولم تسمعه يتحدث الا عن الشمس والغيوم ، ولو كنت مثلي طويل العهد بصحبته لرأيت من اطواره المتقلبة ومظاهره المتنافرة ما لا يترك لك مجالا للاعتراض • لقد رأيته بنفسك الآن في أتم مظاهر الهدوء والسكينة ، حتى أنك لا تصدق ان مثله يمكن ان يشور ويلعن ويشتم كما يفعل السوق • وسأقص عليك نبأ ثورة من ثوراته فقد دعوته يوما مع بعض الاصدقاء الى داري للمنادمة والسمر ، وكان غرضي من ذلك ان أخرج من عزلته ، فقد أشفقت عليه من هذه العزلة وهذا التنسك ، ولكنه كافاني مكافأة سمنار لسبب لا تستطيع ان تتكهن به ، فقد صادف ان كنت معلقا رسمين لهتر وموسليني في صدر قاعة الاستقبال ، فما كاد يلمحهما حتى اكهر وجهه وسألني

— هل لك ان تخبرني لم علت صورة هذين الرجلين في غرفتك ؟

فأجته

— لاني أحبهما ، فهما بطلان قد أنقذا أمتيهما من القوضى ونهضا بهما الى الاوج ، وأعدا شعبيهما ليوم الشدائد ، وسلحاهما بما سيساعدها على اكساح العالم .

وتدخل احد الحاضرين فأضاف

— سوف يقهران انكلترا ، ويسلبانها مستعمراتها ، ويوقان طغيانها عند حده .

فالتفت الى المتدخل ، وسأله ساخرا

— وماذا سيكون حظك من هذه الغنيمة حينذاك ؟ ألا تظن أن أمتك (وهي التي ما تزال في دور الطفولة) ستكون اولى الفرائس ؟

وهنا تدخل آخر ، وكأنه أولع فتيلة قنبلة ، فقال

— لا بأس ، وخير لنا ان تستعمرنا ألمانيا بدلا من ان نكون تحت سيطرة الانكليز .

فحدثت الطامة ، ووقف يرتجف وقد احمرت عيناه والتهب وجهه الشاحب ، وانطلق يصرخ

— أيتها السائمة .. يا من لا تعرفون غير المقارنة بين استعباد واستعباد ، يا من تخرجون من تحت نير لتحملوا أثقل منه ، يا من طبعت نفوسكم بطابع الخنوع للقوى ، وضربت عليكم الذلة والمسكنة ، هلا فكرتم يوما في حريتكم المسلوبة ، وانحطاطكم المهين ؟ بدلا من التبعج والتفاخر بأعدائكم الذين لا يرون فيكم الا حيوانات تسخر ، او بقرات حلوبا ؟ انكم تعلمون انباءكم والساكنين الجهلة من انباء شعبيكم احترام من يضعكم في صف الهمج ، ويعد دمكم دون دمه ، من حيث النقاء والشرف ، بمراحل ، متجاهلين انكم

بذلك تمهدون الطريق لمستعمر جديد سيسومكم الخسف والهوان . هـ
اعتبرت بما تلاقونه على ايدي هؤلاء الذين فتحتم لهم ابواب بلادكم ، ووضعت
تحت ايديهم خيراتها ، وحاربتم في صفوفهم جنبا لجنب ، وسميتوهم
بالحررين الذين على ايديهم سيتم خلاصكم من استعمار الترك وظلمهم ، فلم
يضعوا ارجلهم في ارضكم حتى قلبوا لكم ظهر المجن ، فشتوا شبانكم ،
ورملوا نساءكم ، واخذوا على أنفسهم عهدا في طردكم من بلادكم ، وهم
الذين كانوا يصيحون (لقد آتينا محررين لا فاتحين) ، أترى هذه الاجيال
الطويلة ، اجيل الاستعباد ، قد اضعفت عقولكم ، وقتلت في نفوسكم كل
اثر للاباء والشمم ! ان بعضكم يحسب الوطنية تفاخرا بمآثر الاجنبي ،
وبعضكم لا يتقن غير التفاخر بمآثر الآباء والاجداد ، كالطفل المدلل الفاسد
الذي لا يعرف غير التباهي بالنسب والحسب ، ما كان احري بكم ان تعملوا
على انتشال ابناء وطنكم من وهدة الجهل والانحطاط ، بدلا من قضاء الوقت
في التباهي بمحامد هذا الدكتاتور وذاك الطاغية .

وقاطعه احد الحاضرين ، وكأنه صب على النار زيتا بقوله

— ليس في الامكان ان نخلق من (المعيدي) انسانا .

فأجابه وقد اكتسى وجهه هيئة مرعبة ، وتدفق الزبد من شذقيه :—

— لقد اكتسح هذا المعيدي يوما كثيرا من الاقطار ، وشاد امبراطورية
واسعة مترامية الاطراف ، ولكن انايتكم وجبنكم هي التي انحطت به الى
هذا الدرك ، وكيف لا يكون حيوانا ما دام ساداته لا يعرفون غير التمرغ على
اقدام الفاتحين ، فلا يختلفون كثيرا عن الفاحشة التي لا تعرف غير التباهي
بعدد عشاقها وقوتهم ، ولا تفكر في غير انتخاب الاقوى منهم ، لتضع جسدها
النفس تحت جثثاته .

ألا لعنة الله عليكم ، ايها الخونة ، يا ناكري الجميل ، أيها العاقون .

أيها العواهر ..

ثم خرج كالزوبعة لا يلوي على شيء •

وبقينا مدة وجيزة كالمثلولين ، وسادنا سكون عميق رهيب ، اخرجنا
احد الحاضرين منه بقوله :-

— هكذا المجانين دائما يشورون لغير ما سبب ، ويخلقون من الحبة قبة ،
ومن اتفه الامور قضايا طويلة عريضة • فأجبت

— لو كنت حاضرا لما ترددت من التصفيق له بعد انتهائه من خطبته
الحماسية ، وليس غير هؤلاء الذين تنعتونهم بالمجانين ، من يذكر الحقائق
على علاقتها ، فالامة الالمانية قد صرحت على لسان زعيمها بأن العرب لا يرتقون
على الزوج الهمج الا بوضع درجات ، وانهم دون الالمان بمراحل ، فالدعاية
الامة استعمارية جائرة كهذه في بلاد ضعيفة مسكينة كبلادنا ، بالكلام والجرائد
والخطب والتساوير ، بحجة الخلاص من الانكليز ، لا تختلف كثيرا عن الدعاية
للحلفاء ضد الاتراك قبل الحرب ، وانت ترى ما يفعل هؤلاء الحلفاء في بلاد
العرب الآن • ولست ارى في كرهه للاستعمار ما يبرر لكم ان تسموه مجنونا ،
ان اغلب مواطنينا لا تختلف عقولهم عن اسطوانات الحاكي التي تعيد مسجل
عليها دون زيادة او نقصان ، فاذا وجد بينهم من يشذ عن هذه القاعدة ، دفعتم
شراسنتهم وسوء ادبهم الى أن يخلقوا له التهم والمثالب ، وأن ينعتوه بمختلف
النعوت • على ان كل ذلك لا ينفي وجود شذوذ واضح في أخلاقه وطباعه
وآرائه ، ولست أشك في انه من الشخصيات النادرة المعقدة التي لا يسهل
على كل انسان فهمها واستطلاع مكنونات أمرها • سأذهب لمقابلته غدا في
ممكنه ، وأرجو أن أرى ما يسر •

— ستجد خدم فندقه يروون عنه أخبارا غريبة ، بعضها مضحك وبعضها
مخيف •

وفي غداة تلك الليلة تأهبت مبكرا لهذه الزيارة وقصدت فندقه ،
ووجدت ذلك الفندق من الفنادق المتوسطة في الطابق الثاني من بناية ضخمة

في شارع يكاد أن يكون غير مطروق • وصعدت درجا أوصلني الى دهليز طويل ، ووجدت في أول الدهليز منضدة مغطاة بقطعة تحمل بقعا كثيرة من الزيت والمداد على اختلاف ألوانه • وفوقها بضعة دفاتر ومحبرتان وكان أمام المنضدة مقعد طويل (كبة) قد تمدد فوقها رجل يناهز الأربعين ، عليه من اللباس ثوب داخلي وسروال طويل ، وقد وضع تحت رأسه مخدة مستطيلة وسخة قد طواها مرتين حتى أصبح لها من السمك ما يسند رأسه ويربحه ، وما كان الرجل نائما ، بل ممددا مفتوح العينين • وأعطيته الاسم بعد أن بادأته بالسلام فصاح بأعلى صوته مناديا (غلام) •

وبعد دقيقتين قدم غلام يحمل مكنسة ، فطلب اليه سيده أن يدلنني على الغرفة المطلوبة ، ولوى الغلام فمه بابتسامة سخرية خفيفة ، وطلب مني أن أتبعه • وبعد أن وصل الى نهاية الدهليز أشار الى أحد الابواب وقال باقتضاب (هنا) ومضى في طريقه • وهممت أن أطرق الباب • ولكن سمعت ضجة أصوات موسيقية مألوقة لدي، ولكنها كانت غريبة جدا في ذلك الوسط، وكان (مارش كارمن) ورأيت السريزيد غموضا ، والمشكلة تزيد تعقيدا • وأسرت فطرت الباب فضاعت الطرقة في صوت الموسيقى ، وأعدت الطرق عدة مرات فلم أسمع جوابا • وأخيرا صمت على أن اخاطر ، فأدريت اكثرة الباب ، ودفعت أحد الرتاجين ، ولما دخلت رأيت نفسي أمام حاجز خشبي (بروان) يفصلني عن الغرفة ووجدت الحاجز مثقوبا في بعض أطرافه ، وبين مفاصله شقوق طويلة تفسح للناظر المجال ليرى كل ما في الغرفة بوضوح • واستولت عليّ نوبة من الفضول ملحة ، وتملكتني رغبة شيطانية في استطلاع ما يجري داخل الغرفة • ووقفت مدة دقيقة عليّ أسمع ما يدل على انه قد أحس بدخولي • ولما لم أر ما يدل على ذلك ، نظرت خلسة خلال الشقوق فوجدت الغرفة تبلغ ستة أمتار في أربعة ، ويظهر انها أكبر غرفة في الفندق • وفي نهايتها سرير حديدي يحمل فراشا نظيفا ، وبجانبه منضدة صغيرة تحمل مصباحا كهربائيا للمطالعة ، ووراءه دولاب كبير مملوء بالكتب ، وفي وسط الغرفة

قرب الباب ، وجدته قد جلس الى منضدة صغيرة يكتب بقلم من الرصاص بسرعة .

وما كان في الغرفة عدا ذلك غير دولاب للملابس ومنضدة صغيرة يظهر انها صنعت خصيصا لحمل الحاكي ، وفيها محل لوضع محافظ الاسطوانات ، وقلة موضوعة في طاسة من (الجينكو) في قمها كأس بلوري ، وسكت الانعام في تلك اللحظة ، فأرأته ينهض فيرفع الاسطوانة المنتهية ويعيدها الى المحفظة الموضوعة فوق الفراش بكل عناية ، ويأتي بأخرى من القطع الكبير وبدأت الانعام ، وعرفت فيها (ريكوليتو للويجيني) ولم يرجع الى محله رأسا بل بقي يخطو على النعم ، ويأتي بحركات مضحكة ، ونظرت الى وجهه فأرأيت ما أزعجني . لقد كانت عيناه ترسلان بريقا مخيفا ، وأساريره قد تصلبت ، وظل يذهب ويجيء ، يهدد الهواء بقبضته ويتمتع بعض ألفاظ غير مفهومة ، و انتهت الاسطوانة فأبدلها بأخرى ، وكانت في هذه المرة (لعنة فاوست) وعندها عاد الى الجلوس الى المنضدة وعاود الكتابة . وكان يكتب بسرعة عجيبة ورأيته يقف فجأة عن الكتابة . ثم يضرب المنضدة بقبضته ضربة أطارات احدى الاوراق وأسقطتها تحت حافة الحاجز الذي كنت مخبئا وراءه ولم أستطع أن أقاوم الاغراء فمددت يدي والتقطتها ، ثم القيت نظرة أخيرة عليه فأرأته قد حمل رأسه فوق كفيه ورأيت عينيه مغروقتين بالدموع وكانت كل مظاهره تدل على انه في نوبة جنونية ، وخرجت ساحبا ورائي رتاج الباب ، وسمعت له عند انطباقه صوتا أزعجني ، فقد خفت ان يكون قد نم على وجودي ، فأنصت علي سمع ما يدل على ذلك . وفي تلك اللحظة مر الغلام فسألني

— ألم يفتح لك الباب حتى الآن ؟

قلم أرد عليه ، وسمعته يقول وهو ماض في طريقه

— لو بقيت الى المساء لما حصلت جوابا من هذا المجنون .

ورجعت وأنا في شبه عاصفة من الافكار المتضاربة المتناقضة ، ونزلت

السلام مثيرا بنفس ظرات الاستغراب التي استقبلت بها ، ولم أكد أصبح في الطريق حتى أخرجت الصحيفة من جيبى ، ونظرت فيها فلم أجد غير بضعة سطور بخط مشوش ، وكان الخط من الرداءة بحيث يولد اليأس من امكان حل طلاسه ، ولكن شوقي الى معرفة ما تحويه لم يكن له حد ، فالتكأت على احدى الاعمدة التي تحمل أروقة الشارع ، وبدأت أقرأ بصعوبة

مجد روما ومكانة تحت الشمس

كم وقف (الدوجي) في شرفة (البلاسيو دي فينسيا) وهدد العالم بقبضته وهدير هتاف الجماهير يكاد يصم اذنيه !!

ترى ماذا يريد هذا المارد من العالم ؟ وبم أساء العالم اليه ؟

يريد الدوجي أن يعيد مجد روما كما يريد غيره أن يتبوأ مقعدا تحت الشمس

ولكن علام الزئير والصراخ ؟ أليس في امكانه أن يعيد هذا المجد ، او ينتفخ غيره فوق هذا المقعد ، دون جلبة او ضوضاء ؟

لا . ان ذلك لا يتم الا بطرد هذا الاسد الضاري الذي يصول ويجول بين أشلاء فرائسه ، وأمام هذا الاسد (غوريلا) غاضب ، ونمر شرس جائع ، وثعبان ضيق العينين قد خرج توأ من سبات الشتاء الطويل ، والجوع يكاد يهلكه . اذن فلا بد من نشوب حرب وحشية هائلة . اذن فستسيل الدماء ، وتمتليء السماء بالصراخ والالانين والفحيح والمواء . لا مناص من ذلك .

وأنت أيتها الشمس لماذا لا تحرقين هذا المقعد ان كان خشبا ، او تصهرينه ان كان ذهباً ؟

ان الشمس تسخر ، ولعلها تضحك من مهازل البشر .

يريد الدوجي أن يعيد مجد روما ، ولست أدري ما الذي أعجبه من هذا المجد !

أريد أن يستمتع بمئات الجواري يغسلن أقدامه ، ويتمرغن أمامه
عاريات ؟

أبهرته تيجان الذهب بما فيها من ماس يلتمع وجواهر تتلألأ ؟
أطربت اذناه لصراخ الوف العبيد الرهيب ، عندما كانوا يلقون طعاما
لسباع (الاريتا) ؟

هل سره منظر تلك المشاعل من أجساد شهداء المسيحية التي كان يستنير
بها مضطهدوهم ؟

هل راقه منظر روما وهي تحترق تحت أقدام (نيرون) ؟
لا رب ، ولم يخطيء علماء التربية عندما قالوا (ان الطفل قد يجرم
لمجرد اعجابه بمنظر طفل آخر يساق الى المحكمة) فحرموا محاكمة الاطفال
علنا ، وقد كان من واجب البشرية أن تخفي أعمال مجرمي التاريخ عن أمثال
الدوجي .

الماضي مجيد في عين الدوجي يستحق أن يضحي في سبيله بكل مرتخص
وغال .

وما حيلة البشرية مع هذا الذي لا يرى غير المجد والعظمة ، ولا يبصر
غير عرش مرتفع الاركان ، يقوم على الجمال والاشلاء ؟
لقد استهواه الماضي كما يستهوي الثعبان فريسته .

تنبه نفسك جيدا أيها السيد العظيم ، وحذار أن يستهويك الماضي
البعيد أكثر فأكثر ، حتى ترمي فأسك المربوطة بحزمة العصي ، وتركض وراء
الذئبة لترضع من حليبها .

اني أخشى أن تركض وراء أصداء الماضي أبعد من هذا ، فترمي عنك
لباس المدنية والحضارة ، وترتدي فروة الغوريلا ثم تأخذ بيدك صولجاناً من

أغصان الشجر ، وتضرب صدرك بيدك وأنت تصرخ صراخ الحرب • هذا
إذا كان الغرور قد أبقى في رأسك ما يذكرك بالماضي البعيد •

ولكن أي شيطان ساقني الى تنبيهك الى كل هذا ، وأنا العليم بأن
صرخة منك تحيل كل من حولك من المساكين قرودا لو أردت ؟

انهم يعبدونك • وكم عبد البشر الاصنام !



وأدركت فوراً لماذا يسميه الناس نبيا ، ولماذا يعتقدون انه مجنون •
وقطع علي سلسلة أفكارى صوت مفاجيء •

— اذن فقد تعذت ما عزمت عليه وزرت المجنون ؟

والتفت فرأيت رفيقي الاول ينظر الي ، وعلى وجهه امارات السخرية
والاستخفاف ، ولا أدري لماذا غاظني منظره حينذاك ، ولم أستطع أن أمنع
نفسي من اجابته بقولي

— أكون شاكرا فضلك لو كفيتني مؤنة سماع هذرك وسخفك ، ولو
لمدة وجيزة !•

وأزعجه جوابي الخشن ، ورأيت ان غضبي المفاجيء قد أدهشه فمضى
حائقا وهو يتم

— تالله لو كنت أعلم ان الجنون يعدي لما عرفتك به •



وأخيرا مات الشاعر الكبير ، وأحدث موته ضجة ما كان يحلم بشئها في حياته ، ولو كان عارفا بما ستحدثه وفاته لعجل بأجله فقد أضنته دنياه ، ولم تبق المصائب في قوس صبره منزعا ، وقد نزل خبر موته بردا وسلاما على قلوب أربعة • أولهم زعيم حزب سياسي كان الشاعر من أصدقائه في أيام محنته ، وابتعاده عن الحكم • ولما بسم الخط في وجهه ورأس وزارة جديدة أحب أن يتخذ من مديقه (الغرب الاطوار) كما يسميه ، عصا يهوي بها على رؤوس معارضيه وخصومه في السياسة ، ولكن الشاعر أخبره بلطف ان الشعر أسمى من ان يكون وسيلة للعداء الشخصي ، فثارت ثائرتة واتهم الشاعر بخيانة الصحة ، ونسيان عهد المودة والاخاء ، فما كان من الاخير الا ان تركه وأقسم ان لا يرى وجهه بعد ، ولكن الزعيم ما لبث ان ندم ، ولم يندم لانه أضاع صديقا وفيا ، وخلا مؤنسا ، ومساعدة شريفا ، بل خاف من ان ينضم الى أعدائه في السياسة ، ويشهر حربا عليه ، غير انه لو علم بدخائل نفس صاحبه لما ذهب به الوهم هذا المذهب ، ولكن من أين له ان يعلم؟ والبعد بين رجل الفن ورجل السياسة شاسع كالبعد بين السماء والارض •

أما ثانيهم فرئيس جمعية دينية ، ولست في حاجة الى شرح العداوة المتأصلة بين رجل الدين ورجل الفن من أقدم الازمان ، اذ ان كليهما يحاول السيطرة على قلوب الجماهير وعقولها ، فيتوسل الاول بالالوهام والجهل وبشر الظلام والرغبة لتقويم أركان عرشه • أما الثاني فيولع بمصايحه هنا وهناك ، ويبقى حاملا مشعل النور في يديه حتى يحترق • وهنا أرجو ألا يغضب كلامي هذا ، كل من لبس عمامة ، وارتنى جبة ، وأطلق في وجهه لحية ، فلست أعني برجال الدين أولئك الذين هجروا حطام الدنيا ، وكرسوا جهودهم لفعل الخير ومحاربة الرذيلة والجشع ، بل أعني بهم أولئك الذين جعلوا الدين مهنة ومرزقا ، فأصبحوا بذلك لا يختلفون عن كهنة طيبة وسدنة

البعل ورصدة النجوم في هياكل بابل • فالاديان السماوية ، وأخصها الاسلام ،
 لم تجعل الدين مرتزقا ، وحرمت على الانسان أن يعيش بغير سعيه وكده ،
 وما هؤلاء المتصيدون باسم الدين الا أعوان الشيطان وجواسيسه ، قد
 تستروا بلباس أعدائه ليسهل عليهم نشر رسالته • أمثال هؤلاء يتزعمون ،
 ويملاون جيوبهم بالاصفر الرنان ، ويننون القصور العامرة ، ويقنتون
 الحداائق الغناء ، باسم الدين ، وما عهدنا الدين يوصل أهله الى غير لبس الرقعة
 والاكتفاء بالبلغة ، والازواء في صومعة • هؤلاء هم الذين يثيرون الاحقاد
 بين الناس ، ويسلحون الانسان الذي ما زال همجيا باكثر الاسلحة خطرا
 وأشدها مضاء ، ويرسلونه وقد أعماه التعصب ليذبح أخاه الانسان ، ويلغ
 في دمائه • هؤلاء هم الذين يفرقون بين المرء وزوجه ، والاخ وأخيه ،
 والصديق وصديقه ، ويجعلون أبناء الوطن الواحد شيعا وأحزابا ، يأخذ
 بعضها بخناق بعض باسم الدين ، وباسم كل ما يتعلق بالدين • هؤلاء الذين
 سيرتعش بعضهم غضبا ، ويقسم لينتقم من هذا الذي يتدخل في شؤون
 الدين ، وسيدافع بعضهم بقوله (لم نسع الى ذلك الا لتزداد قوة فيزداد
 الدين سطوة) متجاهلين انهم بذلك يهينون الدين ، معترفين ان الدين بالاكراه ،
 وانه بدون النفوذ والدينار لا تقوم له قائمة ، وهم بذلك اكثر الناس كفرا
 بالدين واحتقارا لشأنه • كان اسلافهم ينفذون وصية عيسى (أحبوا أعداءكم)
 بسمل الميون ، وسحب الاظافر ، واحرق الاحياء ، والتمثيل بأعدائهم في الدنيا
 لا في الدين ، ووصية محمد (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة)
 بشق رجال العلم او قطع رؤوسهم بدعوى الكفر والزندقة • ولكن عهد
 محكمة التفتيش قد مضى ، واستبداد الخلفاء قد انقضى ، وليس في استطاعة
 الاحفاد نصب المشاقق ، ولا تشييد المحارق فما العمل ؟ وهل سيضعف
 كيدهم ويقل شرهم ؟ لا • ان الابالسة يظنون فهم لا يجهلون ان لكل عصر
 نفمة ، ولكل وقت تهمة ، فاذا لم تعد تهمة الزندقة فالاحاد ، واذا لم تكف
 تهمة الشيوعية فالشيوعية ، واذا لم يتمكنوا من قتل أعدائهم فلا أقل من ان

يحيلوا حياتهم هما ، ويكدروا صفوهم ، ويكثروا لهم الاعداء ، ويشيروا عليهم السلطان ، وقد يذهب بهم الحقد الى محالفة أعداء دينهم سرا ، وقتل كل ما من شأنه اضعاف سيطرتهم حتى ولو كان ذلك بتخريب البلاد ، وافناء المؤمنين من العباد .

فلا ريب أن ينصب شاعرنا نفسه لمحاربتهم وشن الغارة عليهم . وقد كان بينه وبينهم كروفر ، أتبعهما معا ، فلا غرابة ان يرقص هذا الرئيس طربا عند سماعه نعيه ، كما يرقص الشيطان عند موت نبي .

وأما ثالثهم فرئيس ديوان من دواوين الحكومة كان الشاعر قد قدم اليه قبل هذه الميتة المفاجئة عريضة ، وبهذه العريضة كان يشرح سوء حاله المالية ، ويطلب منه ان يسند له عملا يستطيع بواسطته ان يتخلص من استبداد الدائنين ، وحيل الناشرين والطابعين ، وأثانية القراء . فوقع الرئيس في حيرة فهو لا يميل الى ادخال مثل هذه الشوكة في دائرته ، ولكنه يخشى ان يرد طلبه لقوته الادبية ، ومقدرته الشعرية .

ورابع هؤلاء انسان يسمي نفسه كما يسميه الناس كاتباً لأنه يعرف كيف يملأ بضعة أعمدة من جريدة ، وقد باع قلمه مؤخرا الى الحزب القابض على دفة الحكم ، وشرع يكتب عن بعض الشخصيات التي لها مكانة واحترام في نفوس الناس بلهجة سخرية مضحكة ، للحط من قيمتها والاساءة الى سمعتها ارضاء لمن ييدهم حل (العقد) وربطها . وقد كان على وشك مهاجمة هذا الشاعر ، ولكنه كان يعلم أنه سيهاجم انساناً يعرف كيف يدافع عن نفسه فكانت يده ترتجف .

ومن غرائب المصادفة أن يكون هؤلاء الاربعة مشغولي الفكر به عند تلقيهم خبر نعيه ، فقد كان الاول يهم بمخاطبة أحد أصدقائه بالهاتف ليتوسط في فض النزاع بينهما ، واعادة المياه الى مجاريها ، فرمى السماعه وقد بدت على وجهه امارت السرور وهو يتمم عبارات الاسف . وكان الثاني قد جمع

بعض اعوانه ليدبروا حملة منكرة ضده ، ويحرضوا الحكومة على قتله ، واذا لم يتسن لهم ذلك فلا أقل من أن يحرضوا الناس على التعرض له وايدائه ، فلما سمعوا نعيه انقلبت مؤامرتهم الى البحث في اسلوب تشييعه ، وأيهم سيكون الامام عند الصلاة عليه ، ومن منهم سيؤينه وترحم على روحه . وأما الثالث فما سمع النبا حتى كتب تحريرا رسميا يجيب به على عريضته ، ويسند له وظيفة ذات مرتب ضخمة ، ووضعه في محل بارز ليعلم من يراه أنه قد أسند له وظيفة مهمة قبل موته تقديرا لادبه وخدماته ، ولكن المنية لم تبق عليه . على ان أغرب هؤلاء كان الرابع فقد كان حينما بلغه الخبر يكتب مقالا يسرد فيه أوصاف وجهه القبيح وملابسه القذرة ، واطواره المعجية التي لا تدل على غير العته ، فانقلب مقاله الى خطبة رثاء بليغة . ولما أنهاها تمت هازئا .

— أنه يستحق اكثر من هذا . . فقد أحسن لنا احسانا كبيرا بموته ، ولو لا خوفي من الناس لقلت انه لم يصنع شيئا مفيدا في حياته ، غير هذه الرحلة الفجائية الى العالم الآخر .

ولكن طبيعته الخبيثة ، وخضوع عقله وقلبه لجبيه خضوعا يعنى الاول ويقى الثاني ، جعلاه ينكر حتى بينه وبين نفسه . ان هذا الانسان لا يعرف غير الاحسان فهو يأتيه طبيعة ، ودون تعمد ، كالمسك ينشر أريجها أينما حل ، وكالعود يفوح طيبا عندما يخرق . لقد أتى الحياة وتركها ، كسهم أطلق من الظلام وعاد الى الظلام ، ولما مر بأشعة الشمس التمتع نصله وتوهج ، وغنى في الهواء أغنية عذبة كم أسكرت قلوبا ، وألقت فيها الهدوء والسلام والاخاء .

ولم يحزن عليه من بين خلق الله أحد ، كما حزن خادمه سلام . وما كان سلام وتفجعه لغيرته على الادب والشعر والفن ، فقد كان لا يعرف شيئا عنها ، ولم يسمع بها في حياته ، وكم راقب سيده وضجر من جلوسه * يقوم سيده بهذا العمل الطويل المجد ، الذي لا يطعم خبزا ، ولا يعطي سطوة او جاها . ولو لم يحب سيده حب الكلب لصاحبه لهجره من زمن بعيد ،

٣٤٠

* الساعات الطوال ، يفكر ويكتب ، فيضع ذلك على الورق ، ثم يسأل الى متى

وكيف لا يولع بهذا السيد الذي لا يترفع عن دعوته الى مائدته ؟ ويجود عليه بالملابس قبل ان تبلى جدتها ؟

وقد كان سلوك سيده في بعض الاحيان مصدر حيرته وارتباك ، فكثيرا ما كان يجده غارقا في الافكار والوساوس والآلام ، وقد أدرك من أطوار سيده سبب اقلاله من المسكرات ، فقد وجد ان سيده ، خلاف بقية الناس ، يزداد كآبة وحزنا عندما يسكر وقد رآه مرة يبكي ولم يعلم سبب بكائه ولم ير من المفيد أن يسأله فقد فهم رغم بساطته ان هذه الاسباب فوق مستوى ادراكه ، ولكنه كان يتألم لذلك ، وكما سالت عبراته في مثل هذه المواقف • فلا ريب بعد كل هذا أن يهده الحزن ويكاد يقتله •

واستيقظت المدينة صباحا لتسمع نبا نعيه ، وتلقى الناس الخبر بشيء من الدهشة المزوجة بالاسف ، وقد قال أحد الادباء من عارفي فضله

— لقد كانت كل أعماله غريبة وفجائية كالصواعق عندما تنقض ، ولم يشذ عن ذلك حتى حينما أزمع ترك الفانية • ليت شعري كيف أخذ الموت تلك النفس الالوية القوية التي لم تفر عن الصراع والكفاح ، فما أعطت للظلم فرصة ، ولا للغدر مسندا •

ولم يكد الخبر ينتشر ويشيع حتى غص بيته الصغير باصدقائه وعارفي فضله ، وازدحم الشارع بمريديه وأنصاره ، وكانت الحكومة بالمرصاد ، فانتهزت تلك الفرصة لتبرهن غيرتها على الامة ورجالها العاملين ، فأرسلت وراءه حملة الاقلام من أتباعها ليقولوا ما يناسب المقام ، ولا يتعارض مع مصالحها او ينوه بأعمالها ، بل بالعكس يشير الى سهرها على الشعب وصالحه •

وسار جمهور المشيعين فملا الشارع على سعته ، وكان عددهم يزداد كلما تقدموا في طريقهم حتى امتد في الشارع الى مسافة بعيدة • وبعد أن صلى عليه من كان يلعبه قبل موته ، تقدموا به الى الحفرة المظلمة قوضعوه فيها وأهالوا عليه التراب •

وبعد أن قرئت الفاتحة تقدم مدير حفلة الجناز ، ليقدم الشاعر الاول والشاعر الثاني ، والخطيب الاول والخطيب الثاني ، والمؤين الاول والثاني ... الخ ولم ينس كل هؤلاء أن ينوهوا بفضل الحكومة واهتمامها الزائد بالادب والادباء والشعر والشعراء ، والفن والفنانين ، وكان الخطباء يتلقون عبارات التهنة والاعجاب من الحاضرين همساً بعد انتهائهم من القاء ما عندهم ، فتبدو عليهم امارات السرور كأنهم في عرس لا مأتم . ولم ينسوا أن ينتقد بعضهم بعضاً فيعيب هذا على ذاك ركافة الاسلوب او اخلاله بحسن الاداء والالقاء ... الخ وقد أنست عبارات الاطراء أحد الشعراء انه كان يتلو قصيدة رثاء فأجاب رفيقه الذي أطرى شعره :

— لو كانت كما قلت لسمنا تصفيق الاستحسان •

فتبسم صاحبه وأجاب

— أو نسيت ان التصفيق لا يجوز في حفلات التأين •

وفي تلك اللحظة اتبه المشيوعون لسماعهم حركة غير اعتيادية بين الجمهور ، وسمعوا صوت حوار يدل على جدل ونقاش حاد ، فتألبوا على مبعث الصوت ، فرأوا شخصاً قصير القامة أصفر الوجه مجدره ، منبوش الشعر يندفع الى القبر مغرورق العينين ، ويبدو بهيئة من يريد أن يلقي كلاماً ، وكان رئيس الحفلة يحاوره ويداوره ، وعثا يحاول أن يصدده عن قصده ، فيقول له :

— ان اسمك لم يرد في المنهاج ، فليس من اللائق أن تتكلم •

فيجيبه :

— أيها المسكين أو تظن ان في استطاعتك واستطاعة من وكل اليك القيام بهذه المهمة أن يمنعتي من اظهار شعوري نحو انسان لم يعرفه أحد او يشاركه في آلامه وآماله أكثر مني ، أو تظنون ان من حقكم فقط أن تؤنبوه وقد كنتم قبل موته تلعنونه ، لقد عذبتموه في حياته ، ورقصتم على قبره بعد مماته . ولو

كان في استطاعته أن يعترض لنفض التراب وأطار الاطباق ، وصرخ في وجوهكم الصفيقة (غني أيتها الحشرات الحفيرة) • تريدون أن تخرسوا اللسان التي تعرف كيف تتكلم عنه ، وتصمتوا القلوب التي كانت تخفق بحبه ، وتمنعوها من أن تبكي عليه وتنوح • ما أغباكُم ، وما أقصر أنظاركم • سأقول شعري وارثيه ، حتى ولو صببتم عليّ الجحيم والعذاب •

واندفع بعد ذلك يلقي قصيدة عصماء تفيض شعورا ، وتلهب حماسا ، وتبكيه بدموع القلب والعين •

ولما عرف الجميع ألا حيلة لهم في منعه أخذوا ينزلون واحدا بعد واحد حتى انقض الجمع من حوله كركام من الهشيم داهمه سيل عظيم • وانتهى الشاعر ، الذي لم يرد اسمه في القائمة ، من رثائه وتطلع حواليه ، فلم ير من خلال عبراته غير سلام مكبا على قبر سيده يسقيه بدمع هتون ويقول بتفجع :

— عمي من بقى لي بالدنيا • وين أروح بعدك عمي ؟

فهوى الى جانب الخادم فوق قبر صديقه وسالت عبراته مدرارا وقد فعلت تلك الجملة في نفسه ما لم تفعله كل تلك الخطب الرفانة •

وفي تلك اللحظة ارتفع ما وضعه الانسان من حواجز بين الافراد ، فامتزجت نفس شاعر عبقرى ، بنفس خادم لا يفهم بيتا من الشعر ، كما امتزجت عبراتهما التي فاضت لتسقي جدنا ضم وفات الصديق ، ولتطفي نيران الالم والحزن التي شبت في نفسيهما ، تلك النيران المقدسة التي تستمد جذوتها من وقود المحبة والامانة والوفاء •

المجموعة الخامسة

الكادِجُون

الطبعة الاولى ١٩٣٩

الإهداء

إلى الذين هم مصدر ثروة العراق وحياته
إلى الذين لا يتم للبلاد رقى بغير رقيهم ، ولا رفاه بدون رفاههم
إلى أكثرية الشعب الساحقة
إلى العامل والفلاح

في سبيل مجر العرب

توطئة

في سبيل انقاذ العرب من الاستعمار ، وانتشالهم من الفوضى السياسية والاخلاقية ، يعمل الكثيرون . وفي هذا الجيش العرمم من المدافعين عن حقوق العرب ، والراغبين في اعادة مجد العرب ، تجد انماطاً عجبية ، لهم آراء غريبة وخطط مختلفة . وب نظرة شاملة يعقبها تفكير عميق ومقارنة دقيقة يمكنك ان تميز المخلص من هؤلاء من الخائن ، المضحي من المتصيد ، المؤمن من الكافر . ومن المؤسف حقاً ان تستغل هذه الفكرة السامية وهي في المهد فتحمل ما ينوء بحمله الجبارة .

بين هؤلاء الفيورين على العرب تجد من يكفر بالعلم ، ويؤله الجهل ، ويدعو الى تجاهل الحقائق ، والتعلق بالاوهام .

وتجد وراء هذا جيشاً لجباً من المصفقين والهاتفين ، فتعجب وتقول أبلغت السذاجة بالقوم هذه الدرجة ؟ ولكن حيرتك لا تلبث ان تبدد عندما تعلم ان هذا الخطيب المصقع يملك في يده ذهباً وقوة مادية ومعنوية ، وان هؤلاء المصفقين غارقون في بحر نواله . فمنهم من وضع قلمه بالمزايدة ، ومن تمهد بالطاعة العمياء ، ومن أخذ على نفسه اختلاق الاكاذيب ، ومن وضع على عاتقه مهمة شتم من وضعوا في صف المقاومين والاعداء .

وستجد بينهم من يذكرك بالدون كيخوتي ، ذلك الذي جنّ بأخبار الفروسية والبطولة ، فقرر أن يكون فارساً ، فأتخذ له من طاسة حلاق خوذة ، ومن زرد عتيق صدى درعا ، وامتشق رمحا ياليا ، وسيفاً ليس له حد ، وامتطى سهوة حصان لا يستطيع المشي بله الركض ، ومضى لقتال الجبارة والطغاة في سبيل الدفاع عن المرأة والضعيف . وهاجم الطواحين الهوائية ، وهاجم

الخراف والرعاة ، وتعرض لخدم الفنادق ، كل ذلك في سبيل نصرة مبادئه السامية . ودواء هؤلاء عندي ان يحفظوا سيرة دون كيخوتي لينجوا من هذا المرض .

ومرض دون كيخوتي الحديث ليس الفروسية بل الدكتاتورية . اذن فلا يبعد ان تجد يوما من الايام بين ظهراي العرب ، من يعتقد ان لبس بدلة عسكرية يكفي لتوليد الشعور القومي ، وآخر يجمع وراءه عددا عظيما من الاطفال ويسير بهم واسلحتهم المصي لافتتاح العالم . ولست أريد تفصيلا أكثر من ذلك لأنه من اختصاص اطباء العقول . وستجد بين هؤلاء ايضا من ترتفع اصواتهم بين هذه الصرخات لتقول ليس العرب احجارا ولا اشجارا ولا قطعانا من الحمر او الغنم ، بل شعوبا من البشر قد اوصلتها عهود الاستعمار والظلم والطغيان الى هذا الدرك المنحط ، وان الاكثية الساحقة من هذه الشعوب ، من الفلاحين الكادحين ، والعمال المضطهدين ، وان عند هؤلاء من البطولة والشهامة والاخلاص شيئا عظيما ، ولكن الجهل قد خيم عليهم ، والاضطهاد قد كبلهم ، فأصبحوا كالحيوانات . فمن أراد أمة عربية عظيمة قوية كالتي يشدق بها الكذابون والمتصيدون والمنافقون والمخبولون ، فعليه بهذه القيود فليحطمها ، والى هذه العقول فليصقها . وعلى سواعد هذه الملايين العديدة من العرب ستشاد اعظم حضارة عرفها التاريخ .

ويرى الكذابون هذه الحقائق فيقولون متى راج سوق الصدق كسد سوق الكذب فهلكتنا ، ويسمعها المتصيدون فيعلمون ان حيلهم ان اظلت على الجهل ، ف سوف لا تنظلي على العلم ، ويسمعها المنافقون فيحاوون ويداورون ويقولون كلاما ظاهره مقبول وباطنه ملعون ويسكتون . اما دون كيخوتي فلو لم يكن دون كيخوتي حقاً لقال لاولئك المفكرين امضوا في طريقكم فلا تناقض بين اهدافي واهدافكم ، ولا خطر على خوذتي ودرعي وسيفي وحصاني من امثالكم . ولكن دون كيخوتي المهاجم الذي لا يطيق ان يتحدى سلطانه متحدٍ يأبى الا ان يثبت انه الدون كيخوتي بدون زيادة او نقصان .

اما أنا فمن ذلك القسم الذي يعتقد بأن القوة التي لا تستمد من الشعب
تطير بهبة ريح ، والمجد الذي لا يبنى على سواعد اكثرية الشعب هو مجد
باطل سخيف ، والعظمة التي يتحل بها افراد محدودون فقط ، هي عظمة
مغتصبة من عرق جبين الكادح المسكين الذي سيقى مرتبصا باسياده حتى يحين
وقت القصاص العادل .

اني مؤمن بما أقول وايماني هذا لم يكسبني قصرا منيفا ، ولا مركزا
عاليا ، ولا هبات مستوردة . هذا اذا لم يحاسبني عليه اولئك الذين قدت
قلوبهم من صخر ، وعميت عيونهم عن رؤية الحق ، اولئك الذين ييدهم
صاير الذهب ومفاتيح السجون . ويوم يضحي بى وبامثالى على مذبح
الانانية والجشع سيعلم بعض القوم الذين ليس في قلوبهم مرض ، بأن هذا
الايمان هو الايمان الصادق الذي يصطنعه اولئك الكذابون .

ان هذا الشعب الذي اوقرت سمعه الاجيال، سينتبه تدريجيا من غفلته ،
وعندها سيسمع صدى تلك الصرخات المخنوقة فيعيرها من اصواته قوة، ويجعلها
تردد على كرا الاجيال . ولا يضيرنى مطلقا ان يصبغني بصبغة مفردة اولئك
الذين لا يتكلمون العربية في بيوتهم ، ويدعون خدمة العرب بهذه الطريقة
المشوهة . ومهما اسكت هؤلاء اللسن بقوة مراكزهم وبالذهب الذي
اثنوا عليه لغايات اخرى ، فان حقيقتهم ستظهر عندما تكسد سوق الكذب
والنفاق والمداجاة .

السرخدة

وقفت أمام خزانة كتيبي ، فازعجني ان ارى رفها الاعلى مكتظا بالاوراق ، فقلت لنفسي « اية فائدة اتوخى من خزن هذه الأوراق ، وتخصيص قسم من مكتبي لها ؟ لست مولعاً بالذكريات القديمة ، واغلب هذه الأوراق رسائل من معارف واصدقاء نسيت أغلبهم ونسوي . إذن فلاقدمها طعاما للنيران » ونفذت الفكرة حالا ، فجلست امام الموقد ، وشرعت ارمى بتلك الرسائل في النار . بعد القاء نظرة بسيطة على كل منها ، حيث تصبح كتلة من اللهب حمراء ، ثم تنقلب الى قطعة سوداء ، ولا تزال ألوانها في تغير حتى تستحيل الى رماد .

وأتى دور ظرف ضخم منتفخ كدت ارمى به قلب النيران قبل فحص محتوياته ، ولكن قصاصة سقطت منه جعلتني أحجم فأؤخر التنفيذ . انها مجموعة رسائل (عزيز) ورسائل هذا الصديق عزيزة علي ، يعجبني منها اسلوبها الرشيق الذي لا يقل رشاقة عن جسم كاتبها ، وأفكاره العالية ، وملاحظاته الاجتماعية الصائبة .

وأخرجت الرسائل ، ورتبتها حسب تواريخها ، ثم بدأت أعيد تلاوتها الواحدة بعد الاخرى . وما كانت النشوة التي تستولي علي عند قراءة رسائل عزيز باقل من النشوة التي تملكني عند مطالعة كتاب اجتماعي ، أو رواية تحليلية وصفية ، وليس علي الا ان انقل هذه الرسائل الى القارئ حتى يحكم بنفسه .

الكوفة ٥ مارس ١٩٣٢

عزيزي

إني لأشعر بالمدلة كلما تذكرت ان النجف ثالث محل حثولت إليه هذه السنة . من بغداد الى الناصرية ، بحجة عدم مراعاة التقاليد ، اذ اعتدت ان أمشي

مكشوف الرأس ، ومن الناصرية الى النجف لأنني لم أزر متصرف اللواء ، ولم ارضه . وأعجب ما في الأمر ان مدير المعارف ؛ وهو رئيس وحدة ثقافية لا يستهان بها ، لا يتردد عن التصريح بكل ذلك ، ولا يستغرب مثل هذه الأعذار ، بل يعدها اسباباً موجبة لهذا الاضطهاد والتشريد . انك اعرف الناس بمقدار ميلي الى التنقل ، وبمبلغ سأمي من البقاء كالماء الراكد في بقعة واحدة ، ولكن صفة العقوبة في هذا التحويل تحيل حلاوته مرارة .

هذه هي سنتي الثانية في التدريس ، ولا امدح نفسي اذا قلت اني كنت اكثر كل رفاقي اقبالا على العمل واهتماماً به ، ولكن ذلك كله يتلاشى ويفقد قيمته لانني أمشي مكشوف الرأس ، ولان متصرفا متعجرفا لم يعجبه انعزالي ، وعدم ترددي على داره لاسماعه عبارات التسلق والتزلف ، ولو لا هذا الخلق الذي اطلقت عليه (المناعة الأخلاقية) لضقت ذرعاً بهذه العبودية . ان لهذا الخلق فضلاً كبيراً علي . لقد شعرت بفائدته الى حد اني أصبحت اعظ به . اني اسوي هذه الطريقة في السلوك (باسك) فانت صاحب العبارة ، وانت الذي نهني الى الاستفادة من هذه الصفة الموجودة في ، واعتقد انه لا بد ان يكون لها اثر ما في مستقبل حياتي .

شعرت بالوحشة والانقباض عند اول دخولي مدينة النجف : فقد خيل الي اني في وسط غريب عني ، وقد استغربت ان اشعر بالوحشة في بلد من بلاد هذا القطر الصغير الذي اعده وطناً فرض علي أن احبه . ان عادات اهل البلد وأخلاقهم وتقاليدهم غريبة عني تماماً ، وهنا عملت نظريتك عليها ، فقد جعلت هذه العناية مصدر اهتمام ودراسة ، بدلاً من ان تكون مصدر كره ونفور ، وكانت النتيجة ان اكتشفت في بعض نواحي الحياة في هذه المدينة جبلاً وسحراً لا يغلب ، وسرعان ما زالت عني الوحشة ، وحلت محلها روح العطف والولاء ، الذي لم يلبث ان انعكس من السكان نحوي ، وعند ذلك شعرت بأنني في وسط اقرب الى نفسي حتى من بلدي ومستط رأسي .

المدينة قسمان ، يحتل القسم الاول منها الأموات ، ويسكن القسم الثاني الأحياء ، ويرجع الفضل الى القسم الأول في وجود القسم الثاني ، فالمدينة عبارة عن مقبرة مقدسة واسعة ، يعيش الأحياء من سكانها على خدمة القبور ، ومدارة الموتى ، وقد نسج هذا الوضع الاقتصادي غطاء سميكا فوق حيوية السكان ، اخفى عن الاظار نشاطهم الزاخر ، وقد كبلهم وضعهم هذا بقيود اجتماعية ثقيلة منعتهم من الحركة ، الا ضمن نطاق محدود ، ولكنها لم تمنعهم منها بتاتا . ان في رؤوس هؤلاء القوم نيراناً موقدة من الذكاء ، ولكنها تحت غطاء كثيف من الرماد ، وفي دمائهم قوة هرقلية ، ولكن القيود تحول دون الاستفادة من هذه القوى ، الا في سبل معدودة . ويوم ينكشف الرماد وتتحطم القيود سيكون لهؤلاء القوم شأن وأي شأن في وثبة القطر العراقي ، بل وفي نهضة البلاد العربية جمعاء .

لقد اعترضتني مشكلة ، ولكنني وجدت لها حلاً سهلاً فأهل المدينة يحرمون الفناء ، واستعمال الحاكي وغيره من آلات الطرب . وعبثاً حاولت اقناع بعضهم بان الاموات لا يستأوون مطلقاً من الاصوات الموسيقية ، واخيراً لم اجد مناصاً من الانتقال مع بعض رفاقي المدرسين الى الكوفة التي تبعد عن المدينة مسافة تقطعها السيارة بعشر دقائق . هكذا تطلبت الآلة على مشكلة لم اكن بدونها لأوفق الى حل . ومن هذه البلدة الصغيرة الجميلة اكتب لك رسالتي هذه .

الكوفة ١١ مارت ١٩٣٣

لم يخطر على بالي مطلقاً بانني سأحب هذه البلدة هذا الحب المفرط ، واولع بمنظرها الجميلة هذا الولع العظيم ، ولعل لكرم اهل البلدة ، وطيب اخلاقتهم اثراً مهماً في هذا الحب . لقد اصبح لي في هذه الايام خمسة خمسة اصدقاء خلص لا يألون جهداً في تسهيل اموري ، وادخال السرور الى نفسي . وقد ألفتهم واحببتهم بسرعة واطن ذلك يرجع الى عدم تعصبي لمذهب من

المذاهب الاسلامية • بعكس عبدالرحمن افندي فهو لا يستطيع ان يرى احدهم ، او يحتلمه • وانت تعلم ان هذا الافندي كان معممًا من معلمي (السنة المتعصين) • وقد بلغ به التعصب ان كره السكنى معي عندما رأيته أندمج باصدقائي الجدد ، وارتبط بهم برباط متين من الصداقة والولاء •

ان المنزل الذي نسينه يطل على القرات ، وله شرفة يجرى من تحتها النهر ، وتربها صواري السفن الشراعية التي ترسو عند الرصيف حتى لتكاد ان تلامسها ؛ وكم يطيب لي الجلوس في هذه الشرفة حيث استنشقت نسيم النهر المنعش ، واثمتع بمنظر البساتين والنخيل على جانبي النهر • وعند الغروب يكتسي النهر ومناظره ، والسفن الجارية فوقه بأشعتها المخروطية البيضاء ، حلة رائعة تجعل المنظر من المناظر الشعرية الفريدة •

في عصر هذا اليوم كنت جالساً مع احد اصدقائي الجدد نسمع اسطوانة (لشيلايين) وقد اعجب صديقي بخنجره هذا المعني النابعة ، وأعجب بالنغم رغم عدم فهمه مضمون الغناء • وكان صوت (شيلايين) يلعلع في هذا الجو الساكن ، ويذهب الى مدى بعيد ، وهو يعني نشيد نوتيه (الفولكا) • وقد استغنت بصورة من مجسوة صوري على افهام زائري معنى النشيد ، وكيف يفنيه النوتية وهم يسحبون سفنهم المثقلة بالحبوب • ولما رأى الصورة تبسم وقال :

« اني اشاهد امثال هذا المنظر مرارا كل يوم • ولعلك لم ترحتي الآن (النواخذة) وهم يسحبون هذه السفن المصطفة حذاء الرصيف ؟ ستراهم قريباً ما دمت تسكن الكوفة ؛ ولكن الغريب في الامر ان يكون في بلاد الغرب شبيه لهؤلاء التعساء ! »

وبعد نصف ساعة كنت اتمشى وصديقي هذا على شاطئ القرات تحت النخيل • وكانت الشمس تميل الى الغروب • ولم نكد نبتعد عن العمران مسافة نصف كيلومتر ، حتى سمعت نهيتاً ووقع ارجل حافية • ورأيت في منحنى

النهر وراء النخيل صاري سفينة قادمة نحونا • وظهروا كلهم مرة واحدة من وراء حنية النهر • وقد كانوا ستة من (النواخذة) وتذكرت الصورة ، وكلام صاحبي • السفينة عين السفينة • وكذلك طريقة سحبها بالجمال • انها صورة حية لنوتية القولكا بشعرهم الوسخ المعقد ووجوههم الغبراء واسالهم البالية التي لا تستر من اجسامهم اكثر مما يبرز • وعيونهم الغائرة • وارجلهم الحافية الغائصة في وحل الشاطيء • وعندما اقتربوا مني رأيتهم ينحنون الى درجة الركوع ليتمكنوا من سحب السفينة الثقيلة ، وقد تصلبت عضلاتهم وجرى العرق غزيراً من اجسادهم المنهوكة رغم اعتدال الجو • ورفع احدهم رأسه ، وكان يناهز الستين ، فحيا وابتسم عن اسنان مبعثرة في فكيه ، ورأنا ندخن فتوقف قليلاً وطلب منا سكاراة ، فقدمت له العلية فاخذ واحدة تقاسمها مع رفيقه ، فطلبت منه ان يأخذ اكثر من واحدة ، فاخذ خمسة اخرى وزعها على رفاقه • ثم عادوا جميعاً الى الركوع لسحب السفينة المثقلة بالحبوب ، تفرقع عظامهم وعضلاتهم اعياء كما تفرقع اجزاء السفينة ، ويئن صارحها •

الكوفة ٢٨ مارت ١٩٣٢

أنا في اتم الراحة لا ينقصني شيء من الضروريات ، حتى ولا الكماليات • وقد تستغرب ادعائي هذا حينما تذكر عاداتي وطراز معيشتي وما تتطلبه من احتياجات كثيرة منزلية كانت ام رياضية ام ثقافية • ان الكتب تردني باستمرار بواسطة البريد ؛ ولديّ من الاسطوانات الموسيقية مقدار لا بأس به ، وعندي من الجعة صندوق كامل اعب منه قدر ما اريد وانا في شرفة منزلي الجميلة • واما ما يخص الرياضة فقد خطر في بالي ان استفيد من النهر ، ولكن لا للسباحة لان المياه قذرة والشواطيء موبوءة، بل للتجذيف • وقد اتفقنا انا وبقية المدرسين فاوصينا صناع السفن بصنع قارب صغير • وغدا هذا القارب واسطة تسلية وأداة رياضية ذات كفاءة • وقد ارتفع النهر في هذه الايام بواسطة مياه الفيضان فتلطمت امواجه واسرع تياره ولكن ذلك لم يمنعنا عن ركوب متن

الموج ، وقد وجدنا في مثل هذه المخاطر ما نخفف به من حدة النشاط والصحة المتدفقة في اجسامنا •

لقد خرجنا في هذا اليوم للتجذيف والنهر يرغي ويزيد ، وشرنا عن سواعدا ، فاستطعنا ان ندفع القارب ضد التيار مسافة طويلة ، وعندما قربنا من حنية النهر تغلبت قوة التيار على صلابة مجاذيفنا فكسرتها وتركنا تحت رحمة التيار •

هلمت قلوبنا ونحن في ذلك القارب الذي كانت الامواج تتقاذفه كريشة في عاصفة ، وكان يسير بسرعة الى ناحية الجسر ، وهناك الموت الزؤام • لقد كان نصفنا لا يتقن السباحة في بركة مياه راكدة ؛ فما يصنع اذا انقلب به القارب في هذا النهر ذي الامواج الصاخبة ؟ واخذنا نجاهد بمجاذيفنا المكسورة جهادا مستميتا ، وبينما كنا نجد في كفاحنا مع الموج ، اذ رأينا نوتيا يركض على الرصيف ويبيده جبل طويل ، وكان يرقبنا كما يرقب الصياد السمك ويبيده (فالتة) ولما اصبحنا على اقرب ما يمكن من الشاطئ قذف الرجل بالجل نحونا ، واصاب الهدف • وتشبثنا بالجبل ، وبعد دقائق كنا على الشاطئ نشكر منقذنا ، وكان هو عين الشيخ النوخذه • ولم تطربه عبارات الشكر بقدر ما افرحته الفحة المالية التي قدمناها له • وعلما ان اسمه (نعيمور) وقد طلبت منه ان يتردد على منزلنا اثناء مروره بنا علنا نستطيع ان نقي له دينه ، ونجزيه حق الجزاء •

الكوفة ٣ نيسان ١٩٣٢

اصبح (نعيمور) صديقا حميما لنا • واصبحت اكثر الجميع اهتماما به ورغبة في الخوض معه في الاحاديث • سيعجبك ان تتصور صديقك المتأق يجلس الى نوخذه يعتبره القوم ، حتى هنا ، من احط الطبقات ، يصغي الى احاديثه واخباره ، ويتبادل معه الآراء •

وقد ألفنا ، واكثر من التردد علينا رغم اعتقاده بنجاستنا ، وصار يستهلك

ما يتبقى من طعامنا ، ويشارك خادمنا الكسوة العتيقة ، ويتعجّب بما نجود به عليه من الدراهم . وعلى رأسه ينصب القسم الاعظم من فكاهاتنا ونكاتنا وهكذا اصبح محور انسا ودعاباتنا . ولهذا الرجل طبيعة ساذجة فد حملتها الحياة اعباء ينوء تحت ثقلها اكثرنا جلدأ ، ولكنه يتقبلها كقدر محتوم .

وارى ان ثمة تشابها بيننا وبينه في ذلك . ألسنا نتحمل سيطا من الالهات والاضطهاد تلهب ادمغتنا وافكارنا ، بقدر ما يتحمل نعيور من سيطا التعاسة التي تلهب جسمه ومشاعره .

ولا فرق بيننا الا في كونه لا يشعر بها كما نشعر نحن ، فليس لديه مقدرتنا على التحليل والتعليل ، وتبين مواطن العيوب والاهانات .

ان لنعيور زوجة وخمسة اطفال يعيشون مثله على خبز الشعير او خبز الذرة ، لا يرون وجهه ولا يراهم الا بضعة ايام في السنة ، عندما يمر بهم في سفينته التي يجرها اكثر مما تحمله .

١٠ نيسان ١٩٣٢

لشد ما يدهشني مبلغ قناعة هؤلاء الذين لا يجدون ما يسد رمقهم ، ولشد ما استغرب هدوءهم وبعدهم عن الشر والاجرام . ان صمالك البلاد الاخرى قاطبة غارقون في حمأة الرذيلة والاجرام حتى العنق . اما هؤلاء فيكادون ان يكونوا نموذجا للبساطة والسذاجة ، وهم ابعد ما يكونون عن التفكير بإمكان تغيير حالتهم وترفيه عيشهم .

ان الامر قد يربك الانسان لاول وهلة ، ولكنه لا يلبث ان يجد حلا له في سطوة رجال الدين (الموامنة) على نفوسهم وعقولهم . ان لرجال الدين هنا نظاما (كليركيا) يشبه نظام رجال الدين عند المسيحيين ، ويربط هذا النظام بين افراد هذه الطغمة ، ويوجه اعمالهم نحو هدف واحد هو اقناعهم بوجوب طاعة الرؤساء من رجال دين ورجال اقطاع ، واقناعهم بأنه ليس في

الاماكن احسن مما كان وتلقينهم بغض أتباع الاديان الاخرى والمذاهب
الاسلامية الاخرى .

انهم ينفروهم من الافندي ورجل الحكومة ، ويحرمون عليهم وعلى
نسائهم التعليم ، ويفرضون عليهم مقداراً من الضرائب يفوق ما تتقاضاه
الحكومة منهم . وهم يقدمون هذه الضرائب لرجال الدين (والسادة منهم
على الاخص) بفرح وسرور ، ولكنهم كثيراً ما يمتعون عن تقديم هذه
الضرائب الى الحكومة ويثورون في اوجه جامعها . واني لأجد شعباً عظيماً
لهؤلاء النواخذة والفلاحين في جنوب العراق بسان العراق القدماء ، باخلاقهم
واطوارهم وطباعهم وخضوعهم الأعنى لرجال الدين وحتى بسحنتهم
واطوارهم ولباسهم ومواسم اعيادهم وطقوسهم الدينية . فأرى ان ألوفاً من
السنين مرت على هذا الشعب ، وهو على ما كان عليه لم يتقدم نحو المدينة
ولا خطوة واحدة . وبمثل هؤلاء سنواجه العالم العصري المتمدن لنقول له
نحن ايضاً عصريون ومتمدنون .

عزيزي

اكتب اليك هذه الرسالة وأنا في حالة نفسية مزعجة . لقد وقعت امامي
فاجعة لا زال شبحها المزعج يحز قلبي ويطبق على صدري ويرسل الدموع
مداراً الى مآقي .

ان هذا هو موسم الاعياد حيث تكثر زيارات الاماكن المقدسة ؛ وفي
مثل هذه الأيام يحمل الفلاح والعامل ما ادخره في سنته ، ويسير على قدميه
من مسافات بعيدة ، او يركب سفينة كسفينة نوح قاصداً هذه المحلات المقدسة
ليقدم للسنة زبدة ما حصل عليه بعرق جبينه بل بدمائه . لقد رأيت هؤلاء يعني
يتشاجرون اثناء اقتسام هؤلاء الزوار لسلبهم ما يحملون . وقد يسكون
بالزائر لشدة جشعهم ، فيسحبونه سحبا الى مزاراتهم او يختطفونه اختطافا .

لقد اكتظت الكوفة بالزوار في هذا اليوم ، وامتألت الشوارع والأزقة

بهم ليل نهار • وكانوا يفرشون التراب في الطرق ، وينامون في الأزقة ،
وقد رأيت المئات منهم نائمين تحت شرفة منزلي ، على الرصيف ليلة البارحة •

كنت في منزلي في هذا اليوم ، فقد كان يوم عطلة • وقد جلست في
الشرفة امتع نظري بهذه الالوف تقصد مناسكها من كل حذب وصوب ،
وكانت السفن البخارية ، وهي سفن قد استعيض عن الاشرعة فيها بمحركات
بخارية قديمة ، يسمونها (موتور) ، تنقل المئات منهم • وكان النهر في اقصى
ارتفاعه وامواجه الحمراء تهدر وتتلاطم ، واصوات هذه الموتورات وصياح
الزوار وجلبتهم تملأ الفضاء • وقد استرعت نظري سفينة بخارية من هذه
السفن مثقلة بشحنة من الحبوب ، وفوقها شحنة اخرى من البشر يربو عددها
على المائة ، وكانت تسير متاقلة مع التيار ، وهي تكاد تغترف الماء • وان هي
الافرة من الزمن حتى سمعنا صوت ربانها يطلب النجدة وقطع الجسر ، ولم
نعلم ماداه ، فقد كان صوت آلاته مسموعاً ، ولكن الامواج والتيار كانت
تتقاذف سفينته وتلعب بها كما تشاء ، واخيرا ادركنا ان رفاص سفينته قد
انكسر ، ولا بد انه كان رفاصاً عتيقاً قد التقي عليه من الجهد ضعف ما هو
مقدر له • وبين صياح الجباهير وضجيجها حمل التيار السفينة فصادمها
بالجسر ، فانخفض مقدمها ، وغاصت بطفرة عين •

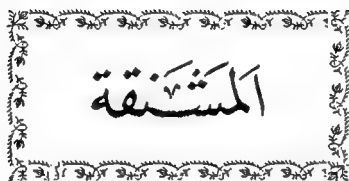
ولم ينج من حمولة السفينة وركابها اكثر من عشرين راكباً ، ومات
الباقون غرقاً • وقد رأيت قسماً من النسوة يرمين فلذات اكبادهن في انياه
حجاً في النجاة ، ومنهن من ضحين بحياتهن ، وهن متشبثات باطفالهن ، وجاهد
الكثير من الرجال في سبيل انقاذ ابنائهم وزوجاتهم • وكان من جملة من
قضوا في هذه المأساة النوخذه المسكين مع كل افراد عائلته • لقد بقي كل
حياته يسحب سفينته ، وربما كانت هذه المرة الاولى التي ركب فيها سفينة ولم
يسحبها ، ولكن تلك السفينة المجهزة بألة عصرية مشوهة قضت عليه وعلى
كثير من اصحابه ورفاقه •

هكذا كانت خاتمة حياة هذا التعس في سفينة قضى كل حياته في سحب
امثالها • لقد اتى الى الزيارة هو وافراد عائلته • وقد كان ذلك اليوم عيداً
في نظره ، يستريح فيه من عمله المضني •

لقد رأيته في اليوم الثاني في تابوت مصنوع من سعف النخيل ممدداً
بجانب زوجته وأحد اولاده ، وقد تثبت بعضهم ببعض وعليهم اسمالهم
البالية التي غسلتها المياه فظهرت اكثر نظافة وبياضاً ، وقد تكرم عليهم السدنة
وعلى غيرهم من الفرقى الذين قدفت الامواج بجثثهم الى الشاطئ ، بالطواف
حول ضريح الامام زيد ليموا زيارتهم وهم محمولون على الاعواد ، ثم ساروا
بهم الى المدافن وامامهم مؤذن واحد يكبر امام توايبتهم بالجملة ، يفعل ذلك
لوجه الله ، لا يريد جزاء ولا شكورا •

الى هنا انتهت الرسائل التي تخص النوخذه نعيور ، وبعد اسبوع من
هذه الحادثة حولت وزارة المعارف عزيزاً ، لسبب لا يقل غرابة عن الاسباب
المذكورة في رسالته الاولى ، واطنهم لم يرتاحوا لقبوله عقوباتهم بمثل هذا
الاستخفاف ، وخلقه من السيء حسناً في كل ما يقع بين يديه •

وقد يؤسفك ان تعلم بانه قد طرد اخيراً من سلك التدريس ، في ذيل من
الذيول ولا اعلم مصيره الآن •



كانت غرفة السجن او التوقيف صغيرة رطبة لا يدخلها الضوء الا من كوة في اعلى الجدار عليها شبكة من القضبان الحديدية • ولو لم تكن افكار السجن في قلق واضطراب ، ولو لم يكن نهب الهواجس ، وفي انتظار الموت المزعج لعد هذه الغرفة قصراً منيفاً اذا قيس بيته • واعتقد انا نظلم البيوت ، ونظلم الاكواخ ونظلم السقائف اذا اطلقنا اسماءها على هذا الشيء المضحك الذي يسميه (حزباوى) بكل اعتزاز بيته • وقوام هذا البيت قنطرة من حصير السعف تستند على اعواد قد غرست في الارض ، تغطيها من بعض الجهات قطع اخرى من نفس الحصير • وعندما يقبله (حزباوى) مع زوجته داخل هذا الحصير يضطر ان يثني ركبتيه قليلا حتى لا تصطدم قدمه بجدار ذلك الكوخ الغريب • اما زوجته فليست بحاجة الى ثني ركبتيها لانها اقصر منه قامة ولكنها أملاً جسماً واكثر نشاطاً •

ولو لم تحدث تلك الفاجعة التي سلبته داره وزوجته لما اشترك في تلك الثورة الخطيرة التي كان اكثر الناس جهلاً بأسبابها ومبرراتها ومقاصدها ، ففقد حدث ان حريقاً شب يوماً في بضعة اكواخ فالتهمت النيران ، وكان من جعلتها كوخه ، اما زوجته فكانت تغط في نومها اثناء ذلك فاصيبت بحروق لم تمهلها اكثر من بضعة ايام •

هكذا خسر (حزباوى) كوخه وزوجته • وقدر كل تلك الخسائر الفادحة ، وليس من ضمنها زوجته التي لا تقدر بثمن ، فاذا بها ثلاثماية وخمسة وستون فلساً ، وبألها من خسارة •

وقد يضحك القاريء من هذا المبلغ ، ويضحك عندما اسميها خسائر فادحة ، ولكنها فادحة اذا قيست بدخل (حزباوى) الذي لا يتعدى الدينار في كل السنة •

وكانت وفاة زوجته وتلك الخسارة سبب يأسه العميق ، وعدم اهتمامه بكل ما يحيط به في الدنيا • وهذا هو السبب الحقيقي ايضا في انخراطه في سلك الثوار • فقد عد تلك الثورة نعمة من الله قد هيأها له لتسيه همومه ، وتشفله عن ذكرى زوجته المخلصة •

كانت فاتحة الثورة دعوة لكل افراد القبيلة على عشاء في منزل الشيخ ، أكل حزاوي فيها اللحم السمين ، والارز الدهين ، وخبز الحنطة • وقد اكل ما يكفي خمسة رجال ، ولو لم يقفر السماط من الطعام لالتهم مقداراً آخر • وكان الشيخ لطيفاً بشوشاً معه ومع كل المدعويين خلاف عاداته فكان يلاطفهم ، ويقوم لهم عند دخولهم عليه احتراماً • وكانت كل تلك المظاهر غريبة في نظره فأربكت عقله ، واوهته ان تغييراً مهماً قد دهم العالم ، ولكنه علم عند توزيع السلاح ان هنالك ثورة ، وأنهم سيقاومون بعض الجنود ، ففرح بذلك ، وعده بلسماً لجراحه ، وحتى لو لم تمت زوجته ، ويأس من الدنيا ، لاشتراك في الثورة ، وكيف لا يشترك فيها والشيخ يطعمهم كل يوم مثل تلك المآكل الدسمة التي لا يحلم بمثلها حتى ولا في المنام •

وكانت ثورة عنيفة فتكت الطائرات بهم خلالها فتكا ذريعاً ولكنها لم تفت في عضدهم بل قابلوها برصاص بنادقهم وهم يهزجون -

متعجب خالكله بعيره يامضطرط سوّى طياره

واسقطوا طائرة ، ومثلوا بسائقها • وكان (حزاوي) أثناءها في هوس قد استولى عليه وأنساه كل شيء الا القتل والسطب والنهب • ولم يستيقظ من تلك النوبة حتى سقط اسيراً في ايدي الجنود ، فقادوه الى الناصرية هو وكثير من رفاقه فكيلوهم بالاغلال ليلاقوا مصيرهم المحتوم • وليس (حزاوي) من سكة القرى المجاورة للمدن ، فهو لم ير مدينة في حياته ، بل ولم ير سجنًا ولا قضاة ، لذا بدت الاجراءات القانونية غريبة جداً في نظره ، وقد ظنّ لأول وهلة ، عند سقوطه بأيدي الجند ، انهم سيعدمونه رمياً بالرصاص

ولم يفهم الحكمة من اخذه الى المدينة في سيارة مريحة ووضعه في تلك الغرفة الباردة المتعشة التي يحلو للانسان ان يتدد على ارضها من الصباح الى المساء ، حيث ينسى حر الشمس الهلك واشعتها الملتبة . والاغرب من ذلك انهم قدموا له أكلاً دسماً لا بأس به ، ولا يختلف كثيراً عن طعام الشيخ الذي كان يقدمه للتوار ، لقد اخذوه عدة مرات الى مجلس الحكام ، والقوا عليه اسئلة كثيرة كان معظمها يعاد عليه عدة مرات ، وترجم له بلغته العامية وكانت اسئلة مضحكة جداً في نظره ، لقد سألوهم لماذا ثار وحمل السلاح في وجه الحكومة ، ولما اجابهم بان طاعة الشيخ واجبة ، وان الشيخ هو الذي طلب منهم ذلك ، وفوق ذلك فقد اطعمهم واحترمهم ، فليس من الأدب عصيان اوامرهم ، ضج بعضهم بالضحك ، وكان بين المحققين متفلسف ارعن يعتقد ان للشيوعية أصعباً في كل ما يحدث في (البلاد) فسأله « وهل انت شيوعي ؟ » فأجابه محتدماً « جابوي إلا أنني شئو ؟ كلنا شيعة والحمد لله أباً عن جد . أنني شيعي وكل اهلي شيعة » . وفي آخر مرة حضر المجلس ، وقف القاضي ، والقى الصيغة القانونية بالحكم عليه وعلى رفاقه بالاعدام شنقاً حتى الموت ، فلم تظهر على وجهه بادرة خوف ، لا لأنه شجاع لا يهاب الموت ، بل لأنه لم يفهم شيئاً من كلام الحاكم ، ولكنه لاحظ ان بعض رفاقه قد اصفر وجهه ، وهي جلده ، وعند ذلك فقط تساءل عن الخبر ، وعلم انه سيموت شنقاً اي بواسطة اداة تسمى المشنقة . ولم يهتم بالموت او يستغربه فقد أدرك عندما سقط بأيدي الجند أنه مقضي عليه لا محالة ، ولكن كلمة المشنقة كانت غريبة جداً في مسامعه . ترى ماهي هذه المشنقة التي تمت الانسان ، هي آلة (كالترمبل) و (الشمندر) وغيرهما من الألعاب العصر الحديث التي تحير العقول ؟ وهل يكون الموت بواسطتها مريحاً كالركوب في السيارة و (الشمندر) ؟ ومضى يسأل من رفاقه ، ويلج في اسئلته ، ولكنه لم يجد بينهم من يشفى غليله ، فقد كان اغلبهم اجهل منه بهذه المشنقة ، وطريقتها في قتل الانسان . وقد تجاسر

مرة وسأل الحارس فظنه الحارس يهزأ بالموت ويسخر منه ، فنهز وقذف في وجهه ببعض الشائم •

وقد قدر (لحزباوي) ان يكون في سجن رأسه رجل لم تر السجون لا في العراق ولا في غير العراق اعجب منه • لقد كان الرجل من ذلك النوع الذي يكون نكبة على المتفذين في البلاد ؛ فلا يزال بهم يضايقهم ويشدد عليهم ، يذكرهم بأيام الرفقة والمدرسة والتلمذة ، حتى يجدوا له وظيفة • وقد لا يرضى الا ان يكون رئيساً ، وهنا الطامة الكبرى ، اذ كثيراً ما يكون من ذلك الطراز الذي لا يليق ان يترأس جماعة من القطط والفيران ، فكيف الحال اذا ترأس عدداً من الشبان العصبيين الذين قد يكون لدى أصغرهم من الثقافة ما لا يحلم به امثاله ؟ ومع ان الرأسة تسدل ستاراً كثيفاً على نقائص الانسان وتقصيره في عمله ، ولكنها تكشف عن شخصيته وتجعله هدفاً للنقد والتجريح ، فيؤول به الامر الى ان يكون مصدرا للمتاعب • ولكن أحد هؤلاء السياسين المحنكين ممن نكبوا بشر هذا الذي أتاه يطلب رئاسة ، ولديه من الشفاعة ما يجعل رده مستحيلاً ، استطاع ان يتخلص من هذا المأزق بسهولة ، وذلك بأن جعله رئيساً على المجرمين والسجائين ، وقال له باسماً « سيكون تحت امرتك في دائرتك اكبر عدد يسكن ان تحويه دائرة » • وقد جعلته المقادير مديراً للسجن الذي نحن بصدد •

لقد كان هذا الرئيس سكيراً مدمناً ، لا يفك عن الشرب صباح مساء ، ولكل سكير نوع من الهوس والجنون يركبه اثناء سكره ، وكان هوس هذا الرئيس تعذيب سجنائه ، وتشديد النكير على المجرمين • اما يوم يكون لديه اشخاص ممن قد حكم عليهم بالاعدام فذلك اليوم عيد عنده ، وعندما بلغ بالحكم على هؤلاء السبعة الذين كان (حزباوي) من ضمنهم قرر ان يحتفل بهذه البشرى ، ويشرب قدرا من الخمرة يناسب هذا السرور المضاعف ، وألج في الشرب من العصر الى العشاء وهو يفكر بهؤلاء السبعة الذين سيميتهم في الصباح • وعندما حلّ المساء جاء يزور ضحاياه ، وعيناه محمرتان ، وصار

يذهب ويحيى امامهم يمازحهم ، ويققه في وجوههم ويلعب بهم لعب القطة بالفأر قبل اقتراسه ، ورأى (حزباوى) هذا الرجل الذي يظهر عليه الجذل ، وقد احمرت عيناه وانبعثت من فمه رائحة كريهة ، يكثر من الكلام مع المحكوم عليهم ويمازحهم ، فأطمأن اليه ، واعتقد ان في استطاعته ان يسأله عن المشنقة ، وقد تبادر الى ذهنه قبل السؤال ان لهذا الرجل علاقة وثيقة بالمشنقة ، فهو يكثر من التحدث عنها ، والمزاح على حسابها ، لذلك لم يتردد عن ان يسأله ، « عمي شنو وظيفتك بالمشنقة ؟ » وما سمع الرجل ذلك السؤال الغريب حتى قهقهه عاليا وأجاب « اني سائقها » فقد ادرك بأن الرجل يعتقد ان المشنقة معمل فيه عمال وموظفون ، وعندما سأله (حزباوى) وكيف تمت الانسان ؟ أجابه - بأن الانسان يقعد على مقاعد المشنقة المريحة ، اما هو فيركب محل (الدريول) ثم تنطلق على اجنحة عزرائيل الى القبر . وأشكل الأمر على (حزباوى) فسأله . « ولكن هل تأتى انت معنا ايضا ؟ » فأجابه « لا . ولكن أوصلكم الى الباب وأرجع » ، فسأل وهل يحدث الموت بواسطتها ألماً ؟ فأجابه ساخراً « مطلقاً ان الموت يحدث بظرفة عين يشعر الراكب خلالها بأنه يطير في الهواء . » فعجب (حزباوى) لهذه الآلات الغريبة ، بعضها يقطع المسافات مثل ملح البصر ، وبعضها يطير في الهواء وبعضها يشنق الانسان . ولم يكن نلرعب مجال لطرد هذه الخواطر من ذهنه ، فقد كان الموت بالنسبة اليه امراً اعتيادياً مألوفاً قد يكون احسن من الحياة بمراحل ، فمصره الجنة دون شك . لقد بكى على الحسين مرارا ، ولطم وجهه عدة مرات في التعازي ، وها هو يخوض القتال ويموت في سبيل شيخه ، وفي سبيل طاعة (المؤمن) فم يخاف ؟ وهكذا كان من الطبيعي ان يفكر في المشنقة اكثر مما يفكر في الموت .

وعندما رجع مدير السجن الى داره أعطاه أحد الخدم برقية وكانت من المراجع العليا تأمره بايقاف عقوبة التنفيذ واطلاق سراح المساجين السبعة ، فأدرك ان قواد الثورة قد اتفقوا مع الحكومة وخضعوا لها ، وسيبب

ذلك افلات هذه الفريسة السمينة من بين مخالبه ، فجنَّ غيظاً ، وهم بتزريق تلك البرقية ، ولكنه ادرك خطورة عمله ، ومضى يقطع الغرفة جيئةً وذهاباً وهو يحرق الأرم ، ولم يلبث ان اهتدى الى حل فأخذ البرقية ووضعها في غلاف جديد ، ثم أقفلها ، وكتب فوقها العنوان ، فبدت وكأنها لم تفتح قط ، ثم وضعها على منضدته واخبر الخادم بأنه ذاهب لينام ، وكان موعد تنفيذ العقوبة في الفجر ، وبينه وبين الفجر عشر ساعات قرر ان يقضيها في النوم ، ثم يكر في تنفيذ العقوبة ، ويدعى بأنه لم يقرأ البرقية الا بعد الاعدام ، لانها انت متأخرة ، ورغم سكره الشديد لم يخف عليه انه يرتكب حماقة فيها خطر على وظيفته وعلى حياته ، في سبيل قتل هؤلاء الارباء اشباعاً لشهوة القتل في نفسه ، ولكن لم يخف عليه ايضاً ان الحادثة سوف لا تثير ضجة لأن المحكوم عليهم قرويون سذج لا يوجد من يدافع عنهم •

وعاد الى الكأس والخمر يرب منها وهو يتخيل فرائسه تتأرجح في حبال المشنقة ، فيرقص قلبه سروراً • اما (حزباوى) فقد كان ينظر ساعة التنفيذ بفارغ الصبر ، وعندما اخذوه للوزن ظن القبان هو (المشنقة) فمجب لهذه الآلة الصغيرة وكيف يمكن ان تبت الانسان ، وصار يتمن في ذراع القبان وينظر الى حركات الوزان ، ولكنه علم ان تلك الآلة ليست المشنقة ولكنها شيء له علاقة بها ، او من جيلة مراسيمها • وعند الفجر سمع حزباوى ضجة في فناء السجن ولم يلبث ان وجد السجان ومعه ضابط برتبة عالية في الجيش يفتح الباب ويحل قيودهم ، ويأمرهم بالذهاب ، واعترض (حزباوى) قائلاً ولكن اين المشنقة ؟ فراق للضابط ان يمزح معه فقال له لقد شنت واتهى الأمر ، فعد الى اهلك • فانطلق (حزباوى) مع رفاقه وهو يتلمس يده وبموجب كيف شتق ولم يمت • وظن الأمر حيلة من حيل الحكومة او نوعاً جديداً من الموت الحديث •

وتفصيل الخبر ان احد قواد الجيش المربط في تلك المنطقة مر بالسجن صدفة ، فرأى الحراس مهتمين بنصب المشائق فسألهم عن يشتق ؟ فأبأوه بانهم عدد من المساجين . ولما سألهم ألم يردكم خبر العفو؟ اجابوه بانهم لم يبلغوا . فاسرع الى مدير السجن ورأى البرقية على منضدته غير مفضوضة ، ففضها ووضعها تحت عينيه الكليتين ، ولم يخل عليه عند خروجه بركلة قوية ويضع لعنات صبا على رأسه وعلى رأس من وضعه في مثل هذا المركز المهم . اما (حزباي) فقد خرج من الثورة بمدة أفاض لم يجد لها حلاً كل حياته . لماذا ثار ؟ ولماذا لم يعدم بالرصاص عند القبض عليه ؟ ولماذا حكم عليه بالشنق ؟ وما هي المشتقة ؟ وكيف يعدم الانسان ولا يموت ؟ . وستبقى هذه الالغاز في ذهنه طويلاً حتى يتزوج مرة اخرى فينسى زوجته المتوفاة والثورة وولاياتها .

آلَمُ مُرْمَنَة

اهتزت السيارة قليلاً عندما دوي صوت فرقة تشبه طلبة مسدس ، وتلا ذلك فحيح استمر برهة وجيزة كانت السيارة خلالها تميل على احد جانبيها شيئاً فشيئاً ، وتقلل من سرعتها حتى وقفت • والتفت السائق الينا يقول وقد تقطب وجهه وأظلم

- (بنجر) -

ثم نزل من السيارة صاخباً لاعناً سارداً كل ما وسعه قاموسه من الفاظ الشتم والسباب ، ووقف بجانب السيارة منكس الرأس كمن أني امرأ لدا ، ثم تمتم بلهجة ضراعة وتوسل

- « من فضلكم •• لا بد من نزولكم لاصلاح العطل »•

وتحرك الطبيب بجهد وتمتم لعنة بلهجة سورية لم يفهما السائق ولكنها لم تكد تصل اذن المفوض حتى علق عليها بلغات انصبت على السائق فلم تترك أحداً من اهله وأقاربه القريين والبعيدن ، وكان الاخير يتلقاها باثاً وهو يتنتم متعذراً

- « وماذا اعمل ؟ انه قدر • »

ونزلت بخفة ، وتبعني المفوض ثم تحرك البدويان اللذان كانا محشورين بين ساقينا حثرا ليتركا مكانا لبطن الطبيب الضخم • وقد يظن القارئ ان سيارتنا تلك كانت حافلة عمومية والحقيقة اننا كنا خمسة في المقعد الخلفي من سيارة اجرة (تاكسي) قد تكدسنا فوق بعضنا تكدساً ، هذا عدا السيدتين الجالستين بجانب السائق ، (والتقنج) المتعلق بمؤخرة السيارة • ولا يخفى على القارئ، ان هذا التقنج أمر محتوم • ويصبح (التقنج) رسمياً حينما يكون بين الركاب (قنجن) رسمي كالمفوض الذي كان معنا مثلاً ، اذ لا بد في هذه الحالة من (قنجن) آخر لا يهتم السائق بأمر اخفائه لانه يسدد اجرة

الاول ؛ ويكون بدويا فلاحا طبعاً اذ ان هذا يدفع الاجرة بكاملها ، ويرضى بالركوب حتى على ظهر السيارة ، لانه يقارن بين هذه السيارة وحماره الذي يقطع به في شهر ما تقطعه السيارة بوضع ساعات ، ولا يكلف نفسه بالتفكير اكثر من ذلك .

ولا بد للسائق من يساعده في عمله ، (والسكند) غير موجود فقد استعاض عنه براكب يدفع دراهم تزيد محصوله من هذه السفرة ؛ قتلّت حوايه ، ورأى البدو الثلاثة يتكأون حوله فصرخ باحدهم

- « اسرع هنا يا ابن الكلب .. تعال ساعدني » ثم انهال بالشتائم على رأس الآخر لينفس من كربه ، ويردّ الضربة التي تلقاها من المفوض . وكافت الشمس في السمت تماماً لا تلقي ظلاً تنقّى به ، وشعر الطبيب بلذع اشعتها فتلّت مذعوراً وصرخ بالسائق

- « وكم من الزمن تحتاج لتصلح سيارتك وتركنا تحت سلطة هذه الأشعة المحرقة ؟ » فاجاب السائق متبرماً

- ما يقارب نصف الساعة ، اذ لا بد من ابدال (التاير) . وانهالت اللعنات من المفوض والطبيب وأصاب الفلاحين الثلاثة شيء كثير منها محولة بواسطة السائق .

وكنّت في خلال هذه المناورة أتلّت حوالي وقد فتني الآل الذي احاط بنا حتى اصبحنا وكأنا في جزيرة منتظمة الاستدارة ، وكان اجبل ما في هذه الدائرة قطعة خضراء هي عبارة عن حقل مزروع تتوسطه سقيفة صغيرة لا تبعد عنا اكثر من مائة خطوة ، فالتفت الى رفيقي وقلت مقترحاً

- « ستقينا هذه السقيفة شرحر الهجير خلال هذه المدة ، فلنقصدها » .

فقال الطبيب وكرشه يهتز طرباً ، وهو يسح العرق المنصب من وجهه
الاحمر

- « فكرة طيبة • هيا » •

ولما أصبحنا من السقيفة على بعد عشر خطوات ، هجم علينا كلب ضخيم
لم تميزه اولا ، فقد كان بلون الارض ، وبرز من الكوخ على الأثر شيخ
مديد القامة لا يختلف لونه ولون ثيابه عن لون ارضه وكلبه • اما وجهه فقد
شابه في تجعدات حقله المحروث • ولم يظهر عليه ما ينبئ عن رغبته في صد
هجوم الكلب عنا بادية بدء ، ولكنه لم يلبث ان انقلب فانبطت تجعدات
وجهه واسرع في طرد الكلب والتفت ورأني فعلمت سبب هذا التبدل •

لقد كان المقوض يسير وراءنا ، وكنا نسير صفا واحدا لان السكة لا
تسع اكثر من واحد ، وكان الطبيب يستره عرضا ، وأستره أنا طولا فلم يره
الشيخ اولا ، ولكنه تنحى حينما رأى الكلب هاجما وهو يهر هريرا مزعجا
فراآه وحدثت الآية • ودخلنا هذه السقيفة التي يسمونها كوخا او دارا ، والتي
لا تزيد على ثلاثة جدران يعلوها سقف منحدر من الحطب والطين ، وكان
كل جزء منه من الارض المحيطة به •

ووجدت* اننا لم نكن الوحيدين اللتجئين الى ظل هذه السقيفة ، فقد
كانت هنالك امرأة الشيخ ، وحمار الشيخ ، وشيء آخر ممدد على الارض ،
وعدد هائل من الذباب قد سقط بعضه على الروث والاوساخ ، وتراكم معظمه
على هذا الشيء الذي لم اتميزه ، ولو لا حركة امرأة الشيخ لما ميزتها عن تربة
الكوخ ، ولولا برذعة الحمار لما ميزته ايضا عن لون الارض ، ولولا الذباب
اللاجئ مثلنا الى الظل لما تميزت هذا الشيء الذي لم اعرف ماهيته • وسمعت

على أثر دخولنا صراخ طفل فلم ادر من اين أتى ، ورايت كومة الذباب تنفر ،
ورأيت الأعراية تحمل لقافة من الخرق بلون الارض واذا بذلك الشيء طفل
رضيع حملته والقمته ثديها •

وبعد ان أدى الشيخ واجب الترحيب طلب منا الجلوس على قطعة من
الباد كانت اكثر كل ما في الكوخ مشابة للارض ، ولا ادرى كيف جارت
الارض على كل هذه الالوان فطمستها وصبغتها بالصبغة الغبراء فكان الارض توحى
اليك ان كل هؤلاء ملكها وجزء لا يتجزء منها ، ولا يساوون من الثمن قيمة متر
مربع منها ، هم أبناؤها وأحفادها من يوم نزل الانسان لأول مرة هذه الاراضي
الى يوم يعيشون •

وجلس المفوض غير عابئ • أما الطبيب فلم يكذب يلصق جيش الذباب
حتى هرب الى الباب ولم ترق لي هذه الجلسة على الارض ولقت نظري برذعة
الحمار التي كانت أنظف ما في الكوخ فجلست فوقها جلسة مريحة ، وحرّك
الحمار رأسه ناظرا الي بعينه الكبيرتين ، ثم ادنى رأسه وحكه بطرف ركبتى ،
وخيل الي انه يتسم •

ولحظ الشيخ قهقورنا واشمئزازنا على الرغم من سذاجته فطفق يعتذر
بلغته وعلى طريقته « نحن عرب وسخون يا افندية • اعذرونا • لو كنا في
العز لفرشنا لكم فرشاً نظيفة ونحرقنا لكم شاة » •

وعجبت ان يكون لهذا يوم عز سابق فألته

– ومتى كان ذلك ؟

وبعد ان هز رأسه مراراً تنهد وقال

– « ايه يا افندي ... انظر الى هذا الحقل الواسع الذي لا يحده

البصر • لقد كان ملك آبائي واجدادى يدر علينا الخير والمال الجزيل ، وكانت

مضارب القبيلة تملأ جزءاً غير قليل من هذا القفر ، كانت دورا للكرم والعطاء ، يستضيفها المسافرون فيجدون اهلا ويطأون سهلا ويخرجون حامدين شاكرين . وكنت يومئذ في سن الخامسة عشرة ، وكانت زوجتي هذه عروسا لا تتعدى الاثني عشرة ، اما الحمار والكلب فما كانا في عالم الاحياء . وفي احد ايام الربيع حل عندنا محصل الاعشار يصحبه بضعة اقهار من (الجندرمة) وقبل وصولهم مضاربنا التقوا بزوجتي هذه ، وكانت ترجع بالابقار الى زرائبها ، وسولت لأحدهم نفسه ان يداعبها ، فنزل عن صهوة حصانه واحتضنها ، ثم قبلها اغتصابا . وكنت امام مضربي ارقب عودة زوجتي ، فما كدت ارى ما حصل حتى فار الدم في عروقي ، ولم اعد ارى غير الدماء ، واختلطت خنجري وبعد ثلاث دقائق كان الجندي يتخبط بدمه تحت قدمي . وهرب المحصل وبقية افراد الجندرمة فأبلغوا الخبر لكاظم باشا والي هذه البلاد في ذلك العهد فجرد حملة على القبيلة فشردنا في فيافي هذه الصحراء القاحلة حتى تهدت اقواتنا ومواشينا . وبعد ان اغتصب الجندي ما بقي منها وجدنا انفسنا لا نملك غير انفسنا وبناقدنا فاضطرتنا الحاجة الى قطع الطرق على المسافرين واغتصاب ما يسد رمقتنا منهم لقاء حسايتهم من بقية لصوص البوادي ولكن الحكومة لم تكف عن مطاردتنا بل شددت علينا النكير حتى سقط ابي واخي الكبير في يدها فشنقتهما .

ولم يبق في قيد الحياة سواي وسوى امي العجوز وزوجتي واخوي الصغيرين . ولما وجدنا انفسنا ضعفاء لا سلطة لنا ولا معين هاجرنا الى بادية الشام ؛ وهناك عشنا على الصدقات خمس سنوات ، ثم اشتغلت عند احد اصحاب الابل فاستطعت ان احصل من الثمر والزاد ما اسد به رمق العائلة . وقبل عشر سنين بلغني ان دولة الاتراك قد دالت ، وان الانكليز قد احتلوا البلاد ، وان حكومة عربية قد تشكلت فطرت بالخبر سرورا . وقلت ستردد حقوق علي ، واتيت بلادي وقصدت ارضي فوجدتها ملكا لاحد خدم كاظم باشا قد سجلها باسمه في الطابو ، وعلمت ان هذا المالك الجديد صديق حميم

وعبد مطيع لولاة الامور يقدم لهم قسما من غلته ومحصوله في سبيل تمهيد الامور له ، واخيراً ضحيت بحريتي وبكل امانتي قمي في سبيل البقاء في ربوع الطفولة ، فتقدمت للخدمة عنده وقد سهل الله علينا فبنينا هذه الدار ، واستقرت عيشتنا بعد طول التشريد . »

وسكتَ فلم ار ما يدل على أله لهذه النكبات المتتابعة التي كملت له ترى ، بل بالعكس وجدته مستبشراً لانه قد اثار فينا روح الاهتمام . وسأله احدنا

« ولكن اين بقية أفراد عائلتك ؟ »

فأجابه بلهجة اعتيادية

« لقد مات اخواي في العام الماضي الواحد بعد الآخر ، وقبل شهر مات ابني الكبير ، وماتت ابنتي البارحة ولم يبق لي غير هذه الصغيرة وفرحان ، وهو في الخارج يحرس الزرع . »

ورأى الطبيب فرصة لارضاء فضول المهنة فسأله

« وبأى مرض ماتت ابنتك ؟ »

فأجاب :

« لا أدري لقد شكت من بطنها مدة شهر قبل موتها ، وهذه الصغيرة

تشكو من نفس العلة » .

وتقدم الطبيب لفحص الطفلة ثم قال

« انها مصابة بالزحار المزمن ، ويظهر ان جميع افراد العائلة مصابون

بالرمد المزمن ايضاً .. انظروا الى عيونهم . »

ولم يفهم المفوض معنى كلمة مزمن فتساءل

- « وما معنى مرض مزمن ؟ »

فاجابه الطبيب

« حينما تالزم بعض الامراض الانسان مدة طويلة تصبح مألوفة لدية ، ولا يعود يشكو من آلامها الحادة كثيرا ، وفي هذه الحالة يصعب شفاء المرض »

فاضفت

- « ألم تلاحظ أيها الطبيب كيف كان هذا الشيخ يروى سلسلة النكبات التي حلت به دون ان تظهر عليه علامات الألم ؟ اذن فلا بد ان تكون آلام نفسه وجروح قلبه مزمنة ايضا »

وجاء في تلك اللحظة احد رفاقنا البدو واخبرنا بان السيارة قد اصلحت ، فتركنا الفلاح الشيخ . ورأيت السائق عند عودتنا في حالة مؤلمة ، فقد كان العرق الغزير ينصب من كل اجزاء بدنه ، وقد تلوث وجهه بالتراب والزيوت ، واصبح مزاجه لا يطاق ، وكان ينفس عن كربه بشتيم البدو ، ورأيتني ميالا الى الانتصار لهذه الفئة البائسة فقلت له

- « رفقا ايها الصديق . لقد اعانوك على عملك ، ثم هم قد دفعوا لك اجرة كاملة كما دفعنا . فاسكت عنهم على الاقل ، هذا اذا لم ترد ان تشكرهم » فاعترض المفوض بقوله

- « وما الفائدة من الدفاع عن امثال هؤلاء الحسير . انظر كيف يتقبلون الالهانة باسمين »

وقال الطبيب مازحا

- « لعلهم مصابون بالالهانة المزمنة ايضا »

فأجبتة بألم « لا ريب . ولكن هؤلاء يكونون الاغلبية الساحقة من سكان العراق »



كان (اوحيد) يخوض مياه الهور الضحلة بخفة وحذر كالنمر يلح صيدا سمينا عن كتب ، وكان (اوحيد) قد لمح صيدا سمينا ، سمكة تنهادى قرب سطح الماء ، تنقلب وتلوى برشاقة الاسماك المعروفة . وكانت كل حركة من حركتها مبعث سرور لهذا النمر الذي كان يراقبها بعينين كبيرتين سوداوين نقاذتين ترسلان بريقا كبريق الرمح ذي التصلين المشرع بيده . (فالة) ، وأسرت السمكة نحو قطعة طافية فوق سطح الماء ، وارتفعت الذراع القوية السمراء في الهواء ، وأصبحت السمكة بحركتها تلك قيد بضعة أمتار من موقف الصياد . وبأسرع من لمح البصر تقلصت عضلات تلك الذراع القولاذية وقذفت بالرمح . ولم يخطيء الرمي ، وما أظنه قد أخطأ مرمى سدد اليه رمحه منذ أن أطلقت عليه العثيرة لقب صياد . وبعد بضع ثوان عاد رمحه الى يده وفي رأسه تلك السمكة وهي تتلوى وتتقض بين فرعي النصل الذي يشبه لسان ثعبان . وأضاف تلك السمكة الى ثلاث اخر في حقيبة معلقة الى جانبه . أربع سمكات لا يقل ثقل اصغرها عن الاوقيتين تكفي له ولزوجته ولطفله طعام يوم كامل . واكتفى بما اصابه في يومه ، فسبقت بواحدة ويبيع الباقيات ببضع درهمات فلا شك انه موفق في ذلك الصباح فشكراً لله .

ولما رجع الى كتبه رفع سمكاته أمام زوجته مزهواً ، فوثبت فرحة وقد افترت شفتاها الموشومتان باللون الاخضر عن اسنان لؤلؤية ناصعة ، وتناولت السمكات ، ولم تبخل عليه بقليل من عبارات الاطراء والاعجاب ، واقرحت أن تهدي إحداها الى الشيخ فلم يد (اوحيد) اعتراضاً ، ورقص الصغير طربا عندما رأى صيد ابيه والتقط (الفالة) وأخذ يهرها في الهواء كأنه يسدها الى سمكة وهمية . وكان ابوه مشغولاً عنه ، فقد كان ينتهب بنظره قائماً امه

الهيفاء ، فقد بدت قامتها رشيقة مثيرة في ثوبها الخفيف (الشالة) وانطلق فجأة يغني « حدرج يا شاله • حدرج يا شاله • شمس او گمر وانجوم حدرج يا يا شاله » ثم لف ذراعه السراء حول خصرها الأهيف واعتصره حتى كاد يحطمه ، ولم تستطع الزوجة ان تتخلص من شر تلك النوبة الغرامية المفاجئة إلا بعد ان هددته بانها ستعضه اذا لم يتركها ، فتركها بعد أن عض شفتها الموشومة ، وترك الطفل لعبته يراقب تلك المعركة الغرامية وهو يضحك وبقفز في العرفة جذلا •

استيقظ (اوحيد) من سباته العميق عصراً وقد خفت وطأة الحر ، وبسط عضلاته القولاذية ثم قلصها حتى ناء العنجرب بحمله فقرقع ، وانقلب على جانبه ليواجه زوجته المتمددة بينه وبين طفله ، وكان الثلاثة في ثوب آدم قبل خروجه من الجنة ، واشتهى أن يقضم حلمتي ذلك الثدي المتوئب المنتصب فوق صدرها بجانبه ، واشتهى أن يعض موضعاً من ذلك الجسم الاسمر الرشيق • ولا يظنن القاريء ان (اوحيد) انما اغرم بزوجه لانها من طينته ومن بنات عشيرته ، فليست أظن القاريء الا شاعرا بشعوره لو كان في موضعه ، ومن لم ير تلك الاجسام المشتعلة السراء الضامرة الرشيقة لا يدرك بسهولة أي سحر وفتون فيها • أما اللون فتدفع الاوروية حياتها للحصون على ظل منه ، وأما الرشاقة فلا تكتسب منها بكل انواع الرياضة والالعب إلا قدرا يسيرا لا يلبث ان يزول •

ولم يلهه جمال زوجته عن الأصغاء الى صوت قرع الطبول والصياح في الخارج ، ولم يمنعه عن الوثوب وارتداء شملته والخروج لاستطلاع الخبر • ولح عند خروجه من كنه اعلاماً صفراء ترفرف في الهواء ، فادرك ان القبيلة ستشن غارة ، وانها ستخوض معركة • أما مع من ستكون هذه المعركة ؟ وما الغاية من خوضها ؟ فلم يكلف (اوحيد) نفسه مؤونة

التفكير بذلك • لقد كان شاباً حديث السن لا يهتم من حياته بغير زوجته وطفله وبالقتال عندما يتطايّر شرره • وعلم ان المعركة ستكون في صباح الغد ، وانها ستكون معركة حامية الوطيس ، وستكون ميداناً لا يبراز الشجاعة واثبات الرجولة ونيل القاب البطولة والظفر •

وفي صباح اليوم الثاني انحدر كل أفراد قبيلته كالذئاب نحو احد السهول ، وانضموا في طريقهم الى عدد كبير من افراد القبائل الاخرى وعندها تأكد (اوحيد) ان تلك المعركة ستكون من المعارك النادرة ، وكانوا مدججين بمجموعة غريبة من الاسلحة تصلح لان تكون مجموعة تاريخية نادرة للأسلحة في مختلف درجات تطورها ، فمن بندقية حديثة سريعة الطلقات ، الى بندقية صيد ، الى رمح ، الى (قالة) ، الى هراوة او عصي غليظة • وكانت زغاريد النساء واهازيجهن تغلّي الدماء في العروق وتثير الحماس في الصدور •

وعندما اتى البشير باقتراب العدو ، كمن اولئك الذئاب في الادغال ووراء الأشجار وبين القصب ، ولم ينتظروا كثيراً حتى رأوا خطأ طويلاً من جنود الانكليز (الصوجر) والهنود يتقدم باطمئنان ، ورأى اوحيد البنادق والحراب اللامعة فرقص قلبه بين جنيه طرباً إذ طالما تاقت نفسه الى الحصول على بندقية جميلة حديثة سريعة الطلقات • وتقلصت أيدي الكامنين على أسلحتهم وتهاووا للوثوب ، وعندما توسط الجنود بين نقاط المكامن اعطيت الاشارة فملت ضجة الهجوم وثوب الكل مرة واحدة ، واطبقوا على اولئك الجنود المتدربين الذين خاضوا من المعارك ما يجعلهم ينظرون الى مثل تلك الثورة نظرهم الى لعبة عسكرية او مناورة صيانية • ولكنهم اخذوا على غرة ، ولم يستيقظوا من دهشة تلك المباغتة ليتناولوا أسلحتهم ، حتى كان اولئك الذئاب قد عملوا بأجسادهم ورؤوسهم تلك الأسلحة ، التي يرجع اصل بعضها الى ايام بابل وآشور ، ببسالة شلت قواهم ، وكانت (قالة) (اوحيد) ترق في الفضاء هنا وهناك ، تخترق قلب جندي انكليزي ، او تركب رقبة هندي ، او تفقأ عيني

خابط من أبناء التاييمز ، وهو فوق صهوة حصانه ، ولم يقدر لجندي من أولئك الجنود ان يصل الى المحل الذي كانت تقصده الفرقة ، ليروى لرفاقه كيف ان شزيمة من الفلاحين ، مجهزة بأسلحة صيدانية مضحكة ، استطاعت ان تمحق فرقة مدربة مجهزة بأحدث الاسلحة عن بكرة ابها .

وبعد من المارك يماثل هذه بل يفوقها شراسة أدرك الانكليز أنهم امام قوة لا عهد لهم بمثلها ، وامام شعب لم يعدوا بعد خطة سياسية من خططهم الشيطانية لاختضاعه فأخفوا مخالبهم مستسلمين .

وخرجت البلاد من تلك الثورات بحكم ذاتي . وخرج (اوحيد) بندقيتين انكليزيتين سريعتي الطلقات خصص إحداها لتدريب ابنه على الرمي ، واحتفظ بالآخرى لنفسه . ولم ينس أن يلب بعض ضحايا تلك المعارك ما يحملونه من رصاص ، إذ ليس في استطاعته شراءه من دخله الزهيد .



كرت أعوام عشرة حدث فيها ما حدث من تقلبات وصلت اخبار بعضها الى القرية فلم تجد من يعيرها اهتماماً . اما (اوحيد) فلم يطرأ عليه من التغير غير زيادة طفلين في كوخه ، ونمو ابنه البكر واشتداد ساعده وتبريزه في الصيد . (بالغاللة) ورمى الرصاص . وقد حاول بعض أقربائه أن يقنعه بإرسال ابنه للخدمة في الجيش فلم يفلح لأن (اوحيد) لا يفرق بين (الصوحر) والجيش العراقي ، ما دام الكل يرتدون ثيابا عسكرية ويتدربون في الشكنات .

لقد كان (اوحيد) لا يرى ان من حقه او حتى أحد من أفراد عائلته أن يخرج عن تقاليد القبيلة ونظامها . لقد خلق كادحاً يكد من الصباح الى المساء في الصيد والزراعة لتحصيل قوت يومه الذي لا يتعدى السمك وخبز الشعير او الذرة وبعض الارز . أما كسوته فتوب واحد له ولكل افراد عائلته لا يستبدل إلا مرة في السنة (في العيد) .

هكذا عاش أجداده ، وسيعيش مثلهم قانعا راضيا لا يعرف شكايه او

تمردا ، ولا يفهم من الدنيا غير اصول الزراعة والصيد بتلك الطريقة الابتدائية ، ولم يقدروا ان يتخطى حدود قريته ، ولم يسعده الحظ يوما بزيارة أحد الائمة في المدن المقدسة ، حيث يرقدون تحت قباب مكسوة بالذهب ، وكثيرا ما كان يسمع ان شيخ قبيلته قد اصبح (حكومة) فيظن انه قد أصبح ملكا او شيئا من هذا القبيل ، ولم يكلف نفسه مؤونة السؤال او التفكير في مركز شيخه من الحكومة ، ومقدار نفوذه فيها ، وعلى الرغم من كل ذلك فقد كان اول الملبين حينما يطلب الشيخ من قبيلته أن تشهر السلاح • وكم تمنى ان تهيأ له الفرص معركة كتلك المعركة التي كسب فيها بنديتين يوم كان لا يملك من السلاح غير فalcته •

وحدث يوماً ما كان يتمناه • وقد سبق ذلك حركة غير اعتيادية انتشرت في القرى المجاورة ثم اكتسحت قريته ، وكان من مظاهر تلك الحركة كثرة تردد (الموانمة) على القبائل ، وتنديدهم برجال الحكومة ، واتهامهم بالكفر والزندقة والمروق ، وكثرة تبادل الزيارات بين رؤساء القبائل • وأولم الشيخ يوماً وليمة لم يسمع بمثلها كل حياته ، دعى اليها كل أفراد قبيلته حيث كان الارز المطبوخ ألوانا فوق الاسمطة ، غارقا في دهن الذبائح • وبعد أن ملأ المدعوون بطونهم قرئت التعزية ، وانتقل المؤمن منها ، على خلاف العادة ، الى البكاء على الدين ، وانذر الناس بقرب يوم القيامة لفساد الزمان وفسق أولي الأمر والرؤساء • وأعقبه (سركال) متحمس فخطب باللغة العامية وافهم القبيلة ان الحكومة قررت تجنيدهم قسراً ، والباسهم لباس « الصوحر » والباس زوجاتهم سراويل قصيرة • وكانت أصوات الاستنكار تعلو عند ذكر السراويل القصيرة ، إذ كيف تجرأ الحكومة على الخوض في اعراض الناس ، واجبار المرأة على ارتداء السراويل القصير تحت ثيابها ، وهي التي اعتادت ألا تلبس غير (الشالة) ولا شيء تحتها ولا فوقها ، تالله انه لكفر صريح وظلم شنيع • وبمثل هذه الدعايات المضحكة اثرت النخوة ، وغلى الدم في العروق ، واقسم الكل يمين الاخلاص والتفاني ، ودقوا بينهم عطر منشم •

اجمعت القبيلة أمرها عشاءً ، ولما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء .
فأسرعت الخيول وشحذت السيوف ، ونظفت البنادق ، ثم نشرت الرايات
السوداء والخضراء ، وهلل النساء وكبر الرجال ، والتفت أم الشيخ بعباءتها
ورقصت والبندقية بيدها وهي تنشد الأهازيج المثرية . وسرعان ما علا الهتاف
والصياح ، واهتزت تلك الاجسام القوية الرشيقة ووثبت ترقص على نغم
الأهازيج ، ثم سار الجمع الحاشد ملتفاً حول الاعلام يدور حولها ويردد
مقاطيع من تلك الأهازيج الحماسية .

واقتربوا من موقع المعركة فرأوا ان جيش الحكومة لهم بالمرصاد . ولمحوا
عن بعد تلك السنحات السمراء ، سحنات اخوانهم وأبناء عمومتهم وخوّلتهم
وذوي قرباهم . ولم يلمحوا ظلاً (لصوري) واحداً أو لهندي . لقد انقلبت
الآية ، فهم يحاربون الان إخوانهم . وسمع افراد الجيش تلك الأهازيج فأجابوا
بأهازيج أشد منها حماساً ، ثم اتشروا بشكل نصف دائرة فنصبوا رشاشاتهم
واتظروا حتى أصبح المهاجمون على قيد مرمى البنادق والرشاشات . وبدأت
النيران تحصد تلك الجموع المتراسة الملتفة حول الاعلام ، وصارت الكتلة
تذوب كما يذوب الجليد أمام النار . ولكن الهجوم استمر رغم ذلك ،
واستمرت النيران تطلق من كل جانب وتحصد الالوف حتى لم يبق من تلك
الجموع الا عدد لا يزيد عن المائة ، وعندها سكنت بعض الرشاشات عن
إطلاق النار وتولى أحد الرشاشات مهمة حصد هذا العدد الباقي ، الذي اصر
على الهجوم بعناد غير مبال بمصيره المحتوم . ولم يبق من المائة غير ثلاثة ،
وصاح أحد الجنود الرابضين وراء الرشاش إرجع مع ابنك يا (اوحيد)
فأجابه الاثنان « اتخسأ يا مضرط » وكثر الجالس وراء الرشاش ساخراً
وصاح وهو يدير رشاشه في وجههم « دونك من ابن عمك يا اوحيد » وبطرفة
عين سقط الثلاثة وهم قاب قوسين أو أدنى من الرشاش ، وقد قسم الرصاص
كلا منهم الى نصفين .

وكان منظر المتقاتلين غريباً حقاً • قسم يدافع عن شيخه ورئيس
قبيلته ، وقسم يدافع عن مليكه وحكومته ، وكلهم من قبيلة واحدة • ولا
أظن أنه خطر في بال أحد من الجنود أو من الثوار أن سبب كل تلك المجزرة
كان كرسيّاً في مجلس النواب •

أما الحكومة الانكليزية فقد أضافت فصلاً جديداً الى كتاب خطط
الاستعمار وأساليبه •



(١) تدعوني الامانة الى اعلام القارىء بان هذه الاقصوصة قد وضعت على نمط اقصوصة غريبة لكاتب كبير لا يحضرني اسمه

وليس هذا المعيدي هو المعنى بالمثل العربي « سماعك بالمعيدي خير من رؤيته » ولو ان المثل ينطبق عليه اتم الانطباق ، بل هو ذلك الذي قال فيه (حسين قسام) شاعر المعدان

المعيدي مات موته معللة ابد ما واحد مثل هذا ابتلى والفرق بين هذا المعيدي الذي سأروي لك حلمه ، وبين معيدي حسين جسام ، هو ان الأول حلم بأنه قد مات ونشر وحضر يوم الحساب ، ودافع عن نفسه دفاعا مجيدا . اما الثاني فقد مات فعلا ، ولما رأى ما في الموت من مشقات وتكاليف لا طاقة له بها ، قرر ان يرجع الى الحياة ، فتأبط كفته وعاد الى عالم الأحياء قبل ان يدفن .

لقد رأى بطل هذه الاقصوصة ما يراه الأموات ، ولكن في حلم طويل مزيج ، بعد اكلة ثقيلة دسمة من السمك المتن الذي تشم رائحته على بعد فرسخ ، ورغيف من (الطابك) وليس هذا الطابك سوى عجين من دقيق الذرة مشوى فوق ارض طينية قد احرق فوقها الوقود ، فالرغيف يجمع اذن بين دقيق الذرة ، ورماد الحطب ، وطين الارض ، فهو مزيج منها .

تمدد المعيدي بعد الأكل مجهداً من عمل استمر من الصباح الى المساء دون انقطاع ، للراحة في فترة صغيرة ، في منتصف النهار تناول في أثنائها رغيفاً من الخبز اليابس كان قد اخفاه بين ثوبه وجلده ويشغل المعيدي في زراعة الارز في تلك الحقول التي يغمرها الماء ويغمر ساقيه ايضا عدة ايام ، فيتهرأ جلد ساقيه حتى تنتن قدماء فتضطر زوجته الى الجلوس بجانبه عندما ينام لتجرسهما ، وتطرد العقيان والعقاق التي تستسبح هذا النوع من اللحوم ، وتمنعهما من نقر ساقيه واختطاف بعض لحمها .

ولم يكد يغمض جفنيه حتى استغرق في سباتٍ عميق كسبات الأموات ، دون ان يحس بألم في قدميه المتنتين ، ولا في معدته المنته ايضاً ، وعملت تلك الاكلة الثقيلة عملها ، فأحس وهو نائم بأن انساناً ثقيلاً قد جثم فوق صدره ، يكاد يخمد انقاسه ، ورأى فيما يرى النائم انه قد فتح عينيه لينظر الى هذا الراكب فوق صدره ، فرأى شيخاً معتماً بعمامة سوداء انيقة ، ذا عينين جميلتين ، ووجه منور ، ملتخفاً بعباءة وبرية غالية الثمن تحتها جلباب فاخر من الحرير الابيض ، ولما رأى حجمه الكبير ، وسمنته المفرطة ، وقامته المديدة ادرك سبب ذلك الثقل الذي يكاد يرهق روحه . وساله بصوت متحشرج « لماذا انت نائم فوق صدري هكذا ايها (المؤمن) ؟ » فأجابه « لست مؤمناً ولكني عزرائيل قابض الارواح ، قد اتيت لاقبض روحك ، فقد حانت ميتتك » فسأله المعيدي « ولكن أليس هنالك طريقة أخرى اسهل من هذه لقبض الارواح ؟ » لا تعترض ايها المعيدي ، لا تعترض . افتح فاك واعطني لسانك لأتمكن من اخراج روحك بسهولة » وفتح المعيدي فاه ، ومد لسانه ، وشعر بشيء يخرج من صدره فيزدحم في المريء ، ثم ارتج عليه وغاب عن الصواب .

واستيقظ بعد فترة وجيزة من اغماء الموت على صوت دوي هائل ورأى نفسه خارجاً من الارض في بطن قرن من الفول قد انشق حديثاً ، فتذكر وعظ (المؤمن) ووصفه ليوم النشور ، يوم ينفخ في الصور فينبعث الناس من قبورهم ، وقفز من القشرة فرأى الكون مناراً بنور ذهبي كنور الشفق الأحمر ، ولكنه شديد البهر واللمعان . رأى الجبال تذوب في الهواء ، وتلاشى كما يتلاشى البخار الخارج من بليلة ابرق الشاي ، ورأى النجوم تنهاوى من السماء كقطع من الورق المزخرف ، وسقطت احداها على يده فتلاشت دون ان يحس بها ، ثم رأى القمر ينشق قطعتين سقطت احدهما في الشرق والاخرى في الغرب ، ثم رأى الشمس تدنو ثم تنحل كما انحلت الجبال في ذلك الشفق الاحمر ، وتأكد المعيدي بأن ذلك هو يوم النشور . ورأى

الناس يملأون الارض ما بين المشرق والمغرب كالجراد عندما يغزو المزارع ، وكان يسمع للفظهم دويًا هائلًا لم يسمع بمثله في دنياه ، فهو كدوي النحل ، ولكنه مكبر ومضخم آلاف المرات . ورأى مناظر لم يحلم برؤيتها في حياته ، إذ لم يتح له الانتقال من قرته الى القرى والبلدان المجاورة يوم ذاك . رأى النساء الجميلات والقيحات والعجائز والصغيرات ، ورأى بعضهن في اوضاع مريبة ، ورأى البعض سكارى ، والبعض يغني ، والبعض يحمل رأسه في يده تشخب منه الدماء ، والبعض ممتشقًا سيفًا يضرب به رأسه وقد سال الدم على وجهه . اذن الناس حقًا يحشرون على ما كانوا عليه حين الوفاة . ورأى بعضهم يصلي وبعضهم يسبح .

وكانوا يسرون الى جهة واحدٍ دون مرشد او ايماء ، ويتحركون دون ابطاء او توقف . وطال بهم المسير ، وكانوا يقطعون طريقتهم في صحراء مجدبة مقفرة محرقة ، هواؤها حار لافح يجفف الجلود ويحرق الشفاه ، ورأى غلمانًا ظرفاء يطوفون على الناس بكؤوس من الماء يسقون البعض دون البعض ، واقترب احدهم فاستغاث به طالبًا جرعة ماء ، فقدم له الفلام كأسًا باردًا بدون ثلج ، حلوا بدون سكر ، فوضعه على شفتيه اليابستين وافرغه بطفرة عين . تناول الفلام الكأس الفارغ وهو يقول هذا نصيب من سقى الناس أيام عاشوراء ، فتذكر انه سقى الماء في احدى التمازي التي اقيمت في القرية ، فحمد الله لانه قام بذلك ، والا لعذبه العطش . وكانت الرمال المحرقة تلهب جروح رجليه ، وتسيل الدماء منها فتستحيل وحلا متنا يزيد من قذارة جسده حتى اصبح منظره لا يطاق ، ورائحته لا تحتمل .

وبعد مدة لا يمكن تقديرها قضاها في ذلك السير المتعب رأى نفسه امام وادٍ رهيب لا يدرك البصر قعره ، يقطعه صراط احد من السيف وادق من الشعرة ، وكان الناس يمرّون عليه زرافات ووحلانا ، بعضهم يركب جمالًا ، وبعضهم يركب ابقارًا وثيرانًا او كبوشًا ، وحتى الاسماك والدجاج ؛ ولم يجد بينهم من يركب فرسا مطهما ولا حمارا صبورًا ، وذلك لأنهم لا يضحون في

ايام عيد الاضحى بالخيـل والحمير والبغال بل يركبونها في الدنيا . ولما كان المعيدي لم يضح في حياته ، حتى ولا بعصفور ، فقد ادرك ان عليه ان يقطع الصراط ماشياً ، فأغمض عينه وخطا ، ولم يفتحهما حتى أصبح في الطرف الثاني ، وعند ذلك التفت الى الوادي السحيق على طرفي الصراط ، ورأى النار المتأججة في احدهما والجمد الزمهريري في الثاني ، فأدرك بأنه قد نجا بقدرة الله لأنه مسلم مؤمن

ورأى اكمة يصعدھا الناس ، فصعد مع الصاعدين ، ومن فوق تلك الاكمة اشرف على سهلٍ واسع فيه خضرة نضرة ، جوه عبق لطيف ، ورأي في وسط ذلك السهل رواقاً عظيماً هائل الحجم قد رفع سقفه على عمد دقيقة جميلة لا يدرك البصر مدى ارتفاعها ، تشع انواراً لطيفة ، فتشير ذلك السهل المنبسط . وكان الهواء منعشاً جميلاً دونه هواء الربيع ، وشهق المعيدي شهقة طويلة مبتلماً كمية من ذلك الهواء فشعر بقواه تتجدد وب نشاطه يعود ، فكأنه قد استيقظ حديثاً من نوم مريح ، وتزل الاكمة واختلط بالجمهور الذي كان يزحف ببطء الى عرش الديان ليقدم كل الحساب عما جنت يداه في الحياة الدنيا .

وكان الناس لا يشعرون بالزمن ، ولا يعلمون ما هو السأم ، يمضي الوقت بالنسبة لهم كالبرق الخاطف ، وان يوماً عند ربك كالف سنة مما تعدون . واقترب المعيدي من عرش الاله ، ومن بين كل الصور في ذلك العرش كانت صورة الله واضحة ثابتة الشكل لا تكبر ولا تصغر على عكس باقي الصور ؛ لقد رأى جلال الله منذ كان على الاكمة وكانت صورة رائعة ، رهبة جميلة ، تأسر النظر ، وتقيد الحواس ؛ لها هيئة البشر ، ولكنها غير محدودة كأجسام البشر ، وفيها جمال البشر ولكنه جمال ينبعث من كل جزء ، ولا يصدر عن جزء دون الاجزاء الاخرى ، ومن الغريب ان لها عينين واهماً وفماً ولحية هائلة بيضاء ، ولكن كل تلك التقاطيع - لا تشير الى انها تقاطيع بشر ، ولم تخف المعيدي تلك الصورة ، بل ولدت في نفسه شيئاً من الرهبة المزوجة

بالحب والاحلال . وعندما اصبح من العرش على مسافة كافية للرؤية ابصر ذلك الميزان الهائل المعلق في الفضاء بخطاف من نور ؛ وكانت احدى كفتيه كبيرة والاخرى صغيرة ، وكانت الكفة الكبيرة مصنوعة من الخشب ومعلقة بسلاسل غليظة من الحديد ، والاخرى صغيرة مصنوعة من حجر كريم . معلقة بسلاسل دقيقة من الذهب ووقف امام الميزان ملك لطيف يحل سجلًا عظيمًا يقرأ فيه ، وبصحبه ملائكة مساعد يقف امام صنجات كثيرة من الذهب والفضة موضوعة قرب كفة الحسنات ، واخرى من الحديد للأمور المعنوية من السيئات كالكفر والكذب وترك الصلاة ... الخ موضوعة قرب كفة السيئات . وفي اسفل عرش الله نصبت عروش صغيرة من ياقوت وجواهر وقد جلس عليها الانبياء والمرسلون يتوسطهم النبي المصطفى . وفي طرف من الرواق جلس امير المؤمنين علي كرم الله وجهه على عرشه الجميل يفيض وجهه نوراً ، وتبعث من عينيه اشعة سحرية لطيفة فتزيدهما جمالاً وتمحو اثر بعض البوس الذي يشير الى حزن الرجل وألمه مما حدث لابنه الحسين في الدنيا ، ووقف الحسين عن يمينه والحسن عن يساره .

وهتف الملاك الموكل بالجل ينادي المعيدي (حاجم) . عندما أصبح الأخير امام الرواق تماماً . وشعر المعيدي بأن قلبه يكاد يكف عن الخفقان ، وتقدم بخطى مضطربة ، فارتقى درجات الرواق ، ودخل القاعة ، وبقي يتقدم فيها حتى وقف بجانب الميزان ، ثم تلفت حواليه فرأى الحاضرين ينظرون اليه بتقزز واشمئزاز ، وكان البعض ينظر الى قدميه ثم يشيح بوجهه ، ويسد البعض أفقه لكي لا يشم تلك الروائح المنتنة المنبعثة من رجليه ومن ثيابه ، ونظر المعيدي الى نفسه فرأى انه قطعة من القذارة في وسط القاعة النظيفة الرائعة ، فتمنى لو أن الارض تنشق وتبتلعها ، وتمنى لو يحكم الله عليه بأن يستحيل الى عدم في التو واللحظة . ورأى ايضا ما كان يسيل من قدميه من دماء قدرة منتنة سوداء على ارض تلك القاعة النظيفة الصافية كالمرآة ،

فحنى رأسه ذلةً وبقي ينظر الى صورته المنعكسة على القاع دون ان يجرو
على رفع عينيه .

وقرأ الملاك السجل « ولد حاجم المعيدي مسلماً ، ولكنه لم يتعلم قراءة
القرآن في صباه ، بل تعلم الشقاوة والكفر والسرقة . لقد سرق في صباه
دجاجة ، وسرق درهماً من احد رفاقه ؛ وسرق مرة اخرى نعجة من قطع من
الغنم مره به » وكان الملاك كلما نطق بشيء من تلك الاشياء يقفز ذلك الشيء
الى كفة الميزان الخشبية فتتخفض وتنخفض . واستمر الملاك يعدد السيئات
« لقد حمل مرة حماراً اكثر من طاقته ، وألح عليه بالضرب حتى قتله » وقفز
الحمار الى كفة الميزان بحمله العظيم وهو ينهق نهيقاً مؤلماً ، « وقد اشتغل في
شبابه بالزراعة فسرق في السنة الفلانية من (السركال) كيساً من الحنطة
مقدارها كذا وكذا ، وفي السنة الفلانية . الخ ثم اصبح زراع ارز فسرق كذا
وكذا ولم يصل يوماً ولا صام » . وعندما قرأ الملاك ذلك وضع الملاك المساعد
صنجة كبيرة من الحديد في كفة السيئات ، واستمر القاريء يعدد سيئاته
وقباحتاته حتى اوشكت تلك الاثقال الحديدية ان تصبح كلها في كفة السيئات ،
ثم ختم كلامه بقوله « وفوق ذلك لقد قال النبي (ص) النظافة من الايمان ،
فانظروا الى قدميه والى جسمه والى ثيابه والى وجهه وشعر رأسه لتروا مقدار
ما في صدره من الايمان . » وتطلع المعيدي برعب نحو الميزان فوجد الكفة
الكبرى كفة السيئات في الحضيض وكفة الحسنات عالية تكاد لا ترى .

ثم عاد الملاك فقرأ صحيفة الحسنات قائلاً « ان المعيدي لطم على
الحسين ، وبكى في بعض التعازي بكاءً صادقاً لا كاذباً ، وسقى الماء في ايام
عاشورا » . ووضع الملاك رموز تلك الأعمال في كفة الحسنات فلم تكن لتحرك
الكفة الكبيرة ولا عقدة واحدة .

وفي تلك اللحظة شعر (حاجم) بأن انقاساً عبقة قد ملأت الجو ،
فاستنشق منها ما جدد نشاطه ، واعاد اليه قواه المادية والمعنوية . وسمع على

الاثر صوتا رهيا لطيفا معا هو صوت الله يقول « ايها المعيدي التعس ، ها انت ترى ان كفة سيئاتك قد رجحت على كفة حسناتك بمراحل وان النار ستكون مثواك وبئس المصير . فهل لديك ما تقوله قبل ارسالك الى سقر ؟ »
وشعر المعيدي بأن قوة هائلة تردهم في صدره ، وشعر بأن غضبا مروعا يعصف في نفسه ، لقد شعر بأنه قد ظلم وغبن في الدنيا والآخرة . لقد حرم في الدنيا من كل طيباتها ، وكان يسكت متمنيا نفسه بالآخرة ، وها هي الآخرة لا تقدم له الا عذاب سقر جزاء حرمانه . وحدثت في تلك اللحظة معجزة المعجزات ، فان المعيدي الذليل الغبي الذي لم يتعلم في حياته كيف يدافع عن نفسه ، ولم يفضب قط لاهانة لحقته ، او لغبن اصابه . أبى ان يسكت امام عرش الله فنفخ صدره ورفع رأسه ، وانطلق يدافع عن نفسه بقوة خارقة وببلاغة مذهشة غير عابئة بما يحيط به من آيات الروعة والجلال . لقد شعر بأنه قد وصل الى أعماق دركات اليأس ، وانها فرصته الوحيدة للترفيه عن نفسه ، وشفاء غليله ، فصاح « ايها الإله الجبار . لقد وهبتي الحياة وليس سواك من يهبها ، ووضعتني في بطن أفقر الامهات ، وأنزلتني من صلب اجل الآباء ، وهل يحدث ذلك بغير ارادتك ؟ فولدت في العذاب والشقاء والحرمان . لقد رضعت حليب امي ، ورضعت معها دموعها ، وبقايا جسدها المنهوك في العمل من الصباح الى المساء ، وكم ارضعتني وهي تحتطب ، وكم نمت فوق ظهرها مربوطة الى جسدها وهي تعمل في الحقل تحت اشعة الشمس المحرقة ، او في قارص البرد وزمهرير الشتاء . وتعلمت الكلام من شتائم أبوي وشجارهما الدائم ، وهل يتعلم الطفل الكلام من غير أبويه ؟ وعندما استطعت المشي ألقيا على عاتقي اعمالا تشابه اعمالهما فناء جسمي الغض يحملها .

أجل أيها الاله ، لم اتعلم القراءة والكتابة والقرآن ، وأين هو الوقت الذي اتعلم به كل هذا ، وأين الثمن الذي ادفعه لمن يعلمني ذلك .
أجل لقد سرت ، ولم افعل غير ما يفعله كل اترابي من الاطفال ولم يخبرنا احد بأن في هذا العمل سبة او معصية ، وانه يسمى سرقة محرمة .

لقد كنا نسميه شطارة ومهارة ، وكان يدفعنا اليه الحرمان والجوع في بعض الاحيان . وهذه الصلاة التي لم أقم بها من ترى كان يعلمنيها، و (المؤمن) يقرأ التذرية في ساعة واحدة لقاء مبلغ من المال يعجز عن تقديمه عشرة فلاحين اذا اجتمعوا معاً وقرروا الصيام شهراً كاملاً ؟ ايها الرب القدير انت تعلم كيف يعاملنا الراكلة وملكو الأرض فليس ذلك على علمك يخاف . انهم يطلبون منا أن نعمل ليل نهار ، ولكنهم يجلدوننا بالسياط ويميتوننا في السجون لو طالبنا ببسط حقوقنا . اتنا نزرع الحنطة والأرز ولكننا نأكل خبز الذرة المزوج بالتراب والرماد ، فهل يعد اخذنا بضعة حفنات من الحنطة والأرز جريمة او خطيئة ؟ لقد قتلت الحمار لأنني أطلب منه أن يعمل ، ولكنني في الحقيقة كنت اسأويه بنفسي ، وها انذا قد قتلت نفسي في سبيل هذا العمل ، وأنت تعلم ايها الإله الجبار كيف مت .

تحاسبني على قذارة قديمي يارب ؟ وليستا قذرتين فحسب ولكنهما منتتان ايضاً ومعرضتان لأذى العقاقع والعقيان ، لقد كان الحمار الذي قتلته أسعد مني خطأً لأن اقدامه لا تتن أثناء العمل . وكيف يتسنى لثوبي ان يكون نظيفاً وأنا ارتديه طوال السنة اذ ليس لدى غيره ، وكيف اكون نظيفاً وسط تلك المستنقعات الموبوءة ؟ ليس جسدي وسخاً فحسب ولكن نفسي وقلبي فيهما آلام وامراض دونها آلام الجسد وأمراضه .

أيها الإله الجبار لقد وهبتي نعمة الحياة فكانت تلك النعمة عذاباً هائلاً وجحيماً دنيوياً ، ولكنني كنت اتحمل هذا العذاب بصبر وجلد منتظراً نعيم الآخرة . وهكذا كنا نوعظ في الدنيا وتنصح بالصبر لندخل الجنة ، ولولا ذلك لفعلنا ألا نولد . لقد كنا تساءل لماذا نحن فقراء وتعباء ومحرومون ومضطهدون ، بينما شاربو الخمر والمقامرون والسارقون والفاجرون يتمتعون بنعيم الدنيا ؟ فكانوا يجيبوننا بان دار الآخرة خير واولى فنسكت . سيأنيك السركال بحذائه الجميل ، وعباءته الفاخرة وثوبه التنظيف وعقاله الفاخر تقوح رائحة العطر منه فلا تحاسبه على النظافة ، وهو يقرأ ويكتب فقد اتفق عليه

اهله مالا عظيماً في المدارس ، فلا تحاسبه على الجهل ، وهو يملك مالا يدفعه لقراءة التعازى فيقرأ في كل يوم تعزية فتكون حسناته أعظم من سيئاته ، وهكذا يدخل الجنة ، ويتنعم بها كما تنعم في الدنيا ، وكل ذلك بمشيئتك فأين عدلك ؟ لقد خلقتني وقررت لي هذا المصير ، فأنت الأول والآخر ، ولا اعلم ماذا جنيت حتى استحق هذا العذاب الأبدى في الدنيا والآخرة ؟ »

وانهى كلامه بشهقة مؤلمة ، وتواثبت الدموع من عينيه وسالت على وجهه .
وجسه فكان يسبح بها سحاً ، ومن خلال عباراته المراقبة رأي لشدة دهشته .
ان الأنبياء والرسل كانوا يكون لبكائه ولكن دموعهم كانت من لؤلؤ وياقوت وذهب ، وكانت تتدرج على الأرض فيجمعها الملاك الموكل بالميزان فيضعها في كفة الحسنات ، وكان أمير المؤمنين كرم الله وجهه ينشج نشيجاً مؤلماً فتتزل الدموع من عينيه درراً متألقة ثم تتدرج على لحيته الكريمة فيتلقاها الملاك الموكل بالميزان ويضعها في الكفة الصغرى فكانت تتخفض وتنخفض ، والكفة الكبرى ترتفع وترتفع ، حتى انعكست الآية ؛ وكانت دموعه الغزيرة قد بللت كل جسده وثيابه ففسلتها وصارت تسيل على الأرض وتتجمع هناك في شبه بركة ثم خرجت من تلك البركة ساقية فمرت على ما خلفته قدماء من الدماء فمسحتها . وكف أخيراً عن البكاء ونظر الى ثيابه فرأها قد اصبحت نظيفة .
كثياب الملائكة ، ثم نظر الى قدميه فلم ير فيهما اثرأ لجرح ، وفاحت من جسده رائحة طيبة ، وتطلع نحو الميزان ، فأرأى الكفة الصغرى ، كفة الحسنات ، تهوى الى الاسفل حتى اصطدمت بالقاع فحدث رنيناً غريباً ، وعلى صوت ذلك الرنين أفاق من نومه .

لِللَّامِ وَالْهَيْمَةِ

ولم أتردد في مصارحة (صاحب) بأنه لم يوفق هذه المرة في اختيار دار سكناه ، فقد انبسطت امام بابه فسحة من الارض واطئة ، قد غرقها مياه الامطار حتى غدت مستنقعا تنبعث منه روائح كريهة ، وتسبح في سوائه اسراب من البعوض لا يقل حجم احداها عن حجم الذبابة . ولا اظن الجاموس السابح في مياهها المستنقع بدفئها ، اقل انشراحاً وسروراً من الذباب والبعوض الذي كان يطن في سمائها . وقامت على جانبي المستنقع منازل من طين تظهر انها قد ساخت فأندثر نصفها في الارض ، وكانت جدرانها الطينية احقر من ان تسمى جدراناً واما ابوابها ، فعبارة عن الواح من الخشب البالي لا يظهر منها سوى نصفها الأعلى ، اذ كان نصفها الاسفل تحت مستوى الارض والمستنقع ، ولا أثر للنوافذ في كل تلك المنازل . ولعل اغرب ما فيها انك ترى سطوحها وانت سائر في طريقك بكل جلاء ووضوح . ولو لا ذلك الشارع المبلط الذي يحجز بين البيوت والمستنقع لتدفقت المياه الآسنة فملأت تلك الحفر المسقمة بجذوع النخيل والحصير والطين .

وشعرت بان ذلك المنظر كريه يطبق على صدي ، ويبعث الكآبة والملل الى نفسي - فالتفت الى (صاحب) محتجاً وقلت

— « او تظن من الانصاف ان تدعوني الى بغداد ، وتجب اليّ القدوم ، وتعدني بالمأكولات والمشروبات والملاهي ، حتى اذا ما صدقت وعودك ، وآمنت بوفائك ، وتركت (الحلة) لاقضي يوم العطلة عندك فذفت بي الى هذه المستنقعات الموبوءة ؟ قل يا رجل . اهي نكتة غير مستحبة ، ام انتقام قد اضرته لي في نفسك ؟ وكيف يخطر لك ان تزج بنفسك وباطفالك في مثل هذا الوسط الموبوء » .

واجابني معتذرا عندما رأى ما في لهجتي من ألم ومرارة :

اقسم لك يا عزيزي ان ظروفنا قاهرة قد الجأتني الى اختيار هذه البقعة الموبوءة ، واستئجار دار لسكنائي في وسطها • لقد ارتفعت اجور المساكن ارتفاعاً مفاجئاً ، وزادت اسعار الحاجيات على حين غرة ، واتاني صاحب الدار يطلب مني زيادة فاحشة ؛ ، ورأيت ان اجرة الدار ستكون نصف راتبي ، فاضطرت الى البحث عن دار تتفق اجرتها مع قلة دخلي ، وبعد جهد عثرت على منزل في هذه البقعة ، ولا عيب فيه في الحقيقة غير انه في حي العمال والمهاجرين من الفلاحين ، اما هذا المستنقع فله في الليل روعة وجمال •

وكنا قد وصلنا صفاً من المنازل الجديدة ، التي تبدو على الرغم من بساطة شكلها ، وعدم احتوائها على اكثر من طابق واحد ، قصوراً شامخة انيقة تزري بما حولها من اكواخ وخيم وبيوت من الطين ، وكان داخل داره اجمل بكثير من ظاهرها ، ولكن الاجمل من كل ذلك عناية صاحبه بتهيئة كل اسباب الانس والانشراح ، ففي حجرة الاستقبال الصغيرة الأنيقة في المنزل نصبت منضدة صغيرة تحمل ما لذ وطاب من المأكول والمشروب ، ارخص ما فيها يدل على كرم هذا الرجل وسخائه ، اذا اخذ راتبه الزهيد بنظر الاعتبار •

وبعد صديقي هذا اليوم عيداً سعيداً ، يصرف فيه آخر ما تبقى من راتبه ، على احياء ليلة انس يقضيها مع صديق ، ولست اعلم كيف اصبحت محظوظاً لديه ؟ وما كنت اقل سروراً بنفسه الطيبة وسريره الجميلة منه بي ، ولم يمنني ما تسرب الى نفسي من غبطة وانشراح وشعور بالطمأنينة والهدوء من التعليق على ما رأيت من المناظر ، وانتقاد امانة العاصمة لاهمالها فقلت

« أليس من العيب ان تقع العين على مثل هذه المناظر المؤلمة في مدينة الرشيد ، وعاصمة الحضارة العباسية ؟ امثل هذا الاهمال نبرهن على اننا اباة ذوو عزة وأئمة ؟ تالله اني لاتمنى ان تستحيل كل هذه البيوت الخربة منازل متواضعة كمزلك هذا • واني لافضل ان اعيش في منزل بسيط في وسط نظيف متجانس لا تقع العين فيه على ما تؤذيها ، بدلا من ان اسكن قصراً منيفاً

في مدينة تحوي مثل هذه الخرائب • انني لاشعر بالشقاء والالام لمجرد وقوع نظري على مثل هذه المناظر البائسة » •

ورأيت صاحبي في هيئة فرع ودهشة يسرع الى احدى النوافذ فيطل منها حذراً ، ثم يلتفت الي قائلا : « وحتى انت ، قل لي من القى في رأسك هذه الافكار الهدامة ؟ المساواة ، التجانس ، مساعدة الفقير ، القصور الفخمة والاكواخ الخربة • يا بني هذه هي الافكار الهدامة • حرصاً على شبابك يا فتى ، أدخل رأسك من هذه الافكار الشيطانية ، وحذار من ان تفوه بها مرة اخرى ، فان للجدران آذاناً » وكان يتكلم وهو يقفل النوافذ الواحدة بعد الاخرى . بعد ان غربت الشمس ليحتفظ بما خلفته من حرارة ، ولينع تبر ما يدور بيننا من الحديث الى الخارج ، ومر في تلك اللحظة جمع من البنائين والفعلة ، عائدین الى جحورهم ، يحملون فؤوسهم وارفاشهم ، وكانوا يتحدثون باعلى اصواتهم كعادتهم ، وسمعت احدهم يقول ، وكان كهلاً قوي البنية مغضن الاسارير •

— « لقد بنيت ما ينوف على المائتي بيت ما بين قصر وكوخ ، ولم يكن احدها لي ، ولست احلم بسكنى امثالها • »

فاجابه آخر • وكان شيخاً منا يرتدي اسمالا بالية

— « ليس لك نصيب • ولم يكتب الله لك ان تكون اكثر من عامل ، فعليك بالرضاء بما قسم لك • والله في خلقه شؤون » •

والثفت صاحب بعد ان انتهى من مهمته وقال باسمأ

« اسمعتهم ؟ انهم قانون ، وتلك فلسفة محمودة ، لولاها لما قر لهم قرار ، ولأهلكوا انفسهم • »

فأجته غير مقتنع

— « لولا اني اخشى ان يضيع الوقت فيما لا طائل تحته ، ولو لا اني

قد اخذت على نفسي عهداً ان ارتاح هذا اليوم من الافكار المتعبة ، ولو لا اني اخشى اتعاب رأسك الآمن المطمئن ، الذي يعجبني اطمئانه ، لبرهنت لك على ان الله لا يدلّه في ظلم الانسان لآخيه الانسان ، ولبرهنت لك على ان آلهة هؤلاء البشر ليس فيه شيء من الهدم ، بل هو عين العمران والبناء . ولكن لنندع كل ذلك ، ولنغرق رؤوسنا في هذه المشعشعة . »

وافرغ لنفسه كأساً ، وصب لي مثله ، وشعرت بالنشوة بعد الكأس .
الثالثة ، وكانت نشوتي باحاديثه ونكته وخفة روحه اعظم ، وليس مثل صاحبي . هذا رجل تحيله الخبرة لطيفاً ظريفاً خفيف الروح ، حتى لتكر انه عين الرجل . اثناء صحوه ، إذ تنسبه الخبرة كل همومه ، تنسبه اطفاله الخمسة ، وزوجته الثائرة الوقحة ، وراتبه القليل الذي حجز ثلثه بصورة دائمة لتسديد دين مزمن ، وتنسبه اشغاله واعماله المكروهة ، واذا ما تذكرها حينذاك تذكر منها حسناتها ونواحيها المبهجة اللطيفة ، فتفيض منه عواطف الجذل حتى تغرق . جلساءه وتنسيهم كل متاعبهم .

وطفق يحدثني عن جيرانه ، وكيف ان احدهم غضب على زوجته فطردها من منزله طرداً شنيعاً ، وما كان منزله ذاك سوى حصيد (بارية) منشور فوق قوائم من الخشب ، فعدت الزوجة نفسها مطرودة وهي جالسة في الدار . وان منازل مثل هذه لا يجد ساكنوها حاجة الى الحركة ليكونوا خارجها . وكيف ان راعية جاموس رفضت ان تزوج راعياً لانه لم يكن (حليو) وان كل اهلها اجمعوا على انها محقة ، وبذلك يرهنوا على انهم قوم عصريون قد فاقوا الاشراف وذوي الثراء بايمانهم بالحرية وحقوق المرأة . وهكذا استمر يتحدث بمحامد منزله وجيرانه ، وجمال البحيرة امام بابه ، حتى قطع عليه سلسلة حديثه الفكاهة همهمة رعد . من بعيد فقال ضاحكاً

« أرى ان المطر سيسقط ، وستمتلئ البحيرة بمائه احتفاءً بقدموك . لكي تتمتع بجمالها ، وهي في اتم اشكالها » .

وزأرت الرياح بعد فترة من الزمن ، وجادت السماء بغيث منهمر ، وكانت اصوات الرياح والمطر والرعد من الشدة بحيث جعلت مهمة الحوار صعبة شاقة ، وكان البرق يسطع بين آوثة واخرى فيملاً الاكوان بنوره البديع ، ثم تعقبه الرعود كأنها اصوات قنابل منفجرة . ولم يسع صاحبي الا ان يقول :

— « هذه حرب قد نشبت على حين غفلة ، تالله اني لآخشي ان تسقط على هذه الديار صاعقة ، او تنهار جدران منزلي ، ويخر السقف على رأسي من شدة الاهتزاز ، ولو لا علمي بان البحيرة ستمتلىء لكهرت كل ذلك وعددهه باطلاً لا فائدة فيه . »

وليس من عادة المزن الشديدة ان تستمر مدة طويلة ، ولكنها لم تكن في الحقيقة مزنة واحدة ، بل مزناً متتابعة قد اخذ بعضها باذيال بعض ، فلم تتركنا بعد أن أوينا الى الفراش للاحتماء به من شر تلك الأصوات المرعبة .

وعقب تلك الليلة الليلاء صباح جميل مشرق لا أثر للغيوم في سماءه ، ولا للكدر في زونقه وبهائه ، وانتفضت من الفراش في ساعة مبكرة ، وانا على اتم ما اكون صحة ونشاطاً ، وسمعت صاحبي يطرق عليّ الباب ويطلب مني بالحاح ان اسرع لاملأ نواظري بمشهد بحيرته قبل ان يتسرب شيء من مائها ، واسرعنا بفتح الباب بين تهليل صبيته وتكبيرهم . ووجدناها بحيرة بكل معنى الكلمة ، فقد ارتفع مأوها ، ولم يبق بينه وبين عتبة الباب ، وكانت ترتفع عنه ثلاث اقدام في المساء ، الا قدما واحدة . ولكن شيئاً قد زال من المشهد جعلني اشك في انه هو عين ما رأيته البارحة ، ورأى صاحبي حيرتي فتطلع نحو الجهة التي كنت انظر اليها ، وفتحت عيناه دهشة وصاح « يا للسماء لقد اختفت محلة كاملة من خارطة هذه الجهة ؟ ترى أين ذهب منازل العمال الطينية ؟ » فتذكرت على الفور تلك المنازل السائحة في الارض فخيّل اليّ انها قد ساخت شيئاً فشيئاً حتى اختفت تحت سطح الارض ، ولم يعد لها من اثر . ومرّ بنا في تلك اللحظة جماعة من سكانها عارية اجسامهم ، ليس

عليها غير ما يستر العورة ، يحملون اواني مكسرة ، وينوء بعضهم تحت ثقل جذوع من التخيل ، وكان البعض يبكي ويعول ، والبعض يضحك دون التفات الى ما حلّ به . ومرّ احدهم يحمل ادوات البناء التي يعمل بها ويظهر انها كانت اغلى شيء في نظره ، فصاح به رفيقي يسأله :

« فليساعدك الله يا فتى • خبرني هل اصبتم بضرر ؟ »

فاجابه الفتى باسمًا « لقد هربنا من المنازل عند نزول المطر وتمتنعنا بحمام بارد بضع ساعات ، نحن وادواتنا القليلة واثاثنا البسيط ، ولكن عشرة منازل كان اصحابها غارقين في النوم لشدة ما اصابهم من الاعياء اثناء نهارهم لم ينتبهوا الا على صوت السقوف تطبق عليهم • ان عمال الأمانة وموظفيها يستخرجون جثثهم من هناك ، وشكراً لامانة العاصمة وأمينها فقد تبرعوا لنا ببعض القوت ، وآوونا الى بعض الفنادق والحجر والدكاكين الخالية ، حتى نستطيع ان نبني بيوتا اخرى فسألته مستغرباً •

— « ومن أين لكم الارض ومواد البناء ؟ »

فأجابني وهو يهز فأسه في يده

— « اتنا نبني في كل ارض ، فنحفرها ؛ ومن ترابها نصنع الجدران ، وبهذه الجذوع نسقفها حتى اذا ما انهدمت رجع التراب الى التراب ، وآل الملك الى صاحبه ، الا هذه الجذوع فهي ملكنا وعماد بيوتنا • ان هذه الجذوع التي تراها قد حملت سقوف اربعة منازل ، وسوف تحمل سقوف بيوت اخرى ، وربما عاشت اكثر مني » •

ومضى في طريقه في عجل ؛ وعدت انا واول ساخطا

« في القرن العشرين ، وفي عاصمة بلاد لا ترضى ان تنتقص ، يموت اكثر من خمسين شخصاً تحت الاقناض دون ان يهتم بهم احد ، ودون ان يسأل عنهم احد • تالله انه لظلم شنيع وقساوة متناهية • ترى من المسؤول عن

شقاء هؤلاء وبؤسهم وضياع حياتهم بالجملة بهذه الكيفية المؤلمة ؟ الا تكفيهم
الامراض والاوبئة الفتاكة حتى يموت من ينجو منهم بانتهيار بيوتهم فوق
رؤوسهم . الا قل لي من هو المسؤول عن انهدام هذه البيوت فوق رؤوس
اصحابها ؟ » .

فأجابني صاحبي ضاحكا وكأن مرح الليل لم يفارقه
— « هي الافكار الهدامة يا بني ، هي الافكار الهدامة . »

المجموعة السادسة

بُرْجُ بَابِلَ

الطبعة الاولى : ١٩٣٩

اهداء

- الى الشعب العراقي ، والشعوب العربية كافة •
- الى الذين يشدون الحياة في دياجير من الظلمات حالكة •

مقدمة

مرت على هذا الشعب اجيال طويلة ، حافلة بالحوادث الجسيمة ، والعبر العظيمة ، ولكنه لم يستفد من عبر الايام ، فقد زهد في الهدى ، وقع بالعمى ، يعثر بالحجر الواحد مرارا دون ان يفكر في ازاحته من طريقه ، وتحترق أصابعه فلا يرتدع عن اللعب بالنار ، وسيبقى يقاسي آلام هذه التجارب وويلاتها حتى يرى السراب فلا يظنه نهر المجرة ، ويسمع نهيق الحمير فلا يحسبه غناء مطربا ، ولا يسجد للاصنام التي تسبح باسم الله تفاقا بدل ان يسجد لله •

فيالك قطرا ما أعجب تاريخه ! وما أغرب حاضره ! وما أغمض مستقبله ! ويا لك شعبا ولد في الشذوذ ، وترعرع في الشذوذ ، فجاءت اعماله شذوذا في شذوذ • ولا يعيبك هذا الشذوذ ، لانه من نوع يصعب على من يطيل التمعن به ان يحكم في نوعه ، أهو شذوذ الجنون ، أم شذوذ النبوغ ؟

كل فرد من بنيك ناقد حاذق لا يجد صعوبة في اكتشاف الاغلاط والتشهير بها ، يكره الاعتدال والوسط ، يأبى الا الكمال ، ولا يرضى باليسير ، يريد جنة الخلد ، والا فجحيم وسقر •

حفنة من البشر لا تتجاوز خمسة الملايين عدا ، ولكنها قد برهنت على انها اكبر من عددها في كل شيء ، وحتى في كثرة الاغلاط • فيها اجناس كثيرة ، ومذاهب عديدة ، وأديان مختلفة ، وعادات وتقاليد لا رابطة بينها ولا تشابه • وان امتازت هذه المجموعة الغريبة من البشر بشيء فهو الكثرة من كل شيء ، ونطرفها في كل شيء • لقد ثار هذا الشعب بالامس على المستعمر فسجل من الثورات عددا لا ييزه فيه شعب ثائر • وما فتىء حتى نال حريته ، وبدأ حياة نيابة ديمقراطية ، وحينذاك اضحى كل عشرة رجال يكونون حزبا سياسيا ، وسرعان ما مل ذلك ، ففضى على الحياة الحزبية قضاء مبرما ، وغدا كل رئيس وزارة ، ومن ورائه كل موظف من موظفي

حكومته ديكتاتورا يخجل موسوليني وهتلر عند ذكر أعماله في الشدة والبطش .

وأما في المناورات السياسية والالاب الحزبية فلم يتورع عن استخدام كل واسطة توصله الى غايته مهما كانت سامية ، ومهما كانت منحطة ، متمثلا بالقول المأثور (الغاية تبرر الوسطة) . فالدين يستخدم في السياسة ، والمذاهب تلعب دورا مهما ، والفوارق الطبقية واللغوية واسطة قوية وسلاح ماض في يد الاحزاب المتناحرة . وحتى اختلاف الناس فيما يخص مسقط رؤوسهم ومحاليل سكتانهم صار مما يحسب له حساب . ومما يضحك الشكلي ان تجد بين هؤلاء ، الذين يهتمون بالفوارق التافهة مثل هذا الاهتمام ، من لا يستغرب الدعوة الى الوحدة العالمية ، ومن يضع نصب عينيه الرابطة الشرقية ، ومن يكرس جهوده لتحقيق الوحدة الاسلامية ، ومن يصيح بأعلى صوته مناديا بالوحدة العربية ، ولكنك لا تجد بينهم من يحلم بالوحدة العراقية .

أما ما يخص المبادئ السياسية فحدث ولا حرج . هذا شيوعي ، وذاك فاشيستي ، وزيد ديمقراطي . ومثل هذه الكثرة تجدها في عدد الزعماء أو المتزعمين . فكل رئيس حكومة زعيم ، وكل رئيس عشيرة زعيم ، وكل وزير سابق زعيم ، وكل رئيس عائلة زعيم ، بل وكل رئيس تحرير جريدة زعيم . ولكل من هؤلاء الزعماء آراء في الحكم يسعى لتحقيقها ويستعمل للوصول الى ذلك كل واسطة ويضحي في هذا السبيل بكل شيء .

وتضح هذه الاصوات المتنافرة ، فلا تنتج غير فوضى مريعة ، ولا تحدث غير التبلل في كل شيء .

كل فرد من ابناء هذا الشعب قوي في ذاته ، ولكنه ضعيف مع غيره ، فالواحد قوة ، والاثنان لا شيء . وأعتقد ان تاريخ هذا القطر لا يمكن تفسيره دون ملاحظة هذه القاعدة ، فهو أعرق الامم في الحضارة ، قامت فيه

عدة ممالك مجيدة ، وأسست فيه عدة دول قوية الشكيمة عظيمة الشأن ،
ولكنها قصيرة العمر سريعة الانهيار •

تقول التوراة « ان الله قد خاف من اتحاد هذا الشعب فحكم عليه
بالتبليد الابدي » فيا لها من نبوءة ! اذا فهذا الشعب هو الوحيد الذي
أخاف الله ، والله عز وجل يعترف بأن في افراد هذا الشعب من القوى ما لو
اتحدت معا لواصلته الى السماء ؟

ان التاريخ ليلقي قبسا من النور على هذه النبوءة الغريبة • ألم يترزعزع
الاسلام ، وهو أقوى دين سماوي ، في هذا القطر ؟ ألم توضع تحت اسسه
أقوى الافكار الهدامة ؟ وهل كانت تلك الافكار الا نتاج عقول جبارة ؟ اذا
وجد عقل جبار واحد في شعب خضع الآخرون له وصنعوا المعجزات ، ولكن
ماذا يحدث في شعب يكثر فيه امثال هؤلاء ؟ ستقول يتحد هؤلاء فتكون
المعجزة أعظم • ولكني أسألك هل ينسب الاتحاد الا على التضحية ؟ وهل تتم
التضحية الا تحت تأثير حمى الحماس للوصول الى الهدف ، وجنونه ؟ وكيف
يحصل الاتحاد في شعب فيه مناعة ضد هذه الحمى ؟ أليس هذا شذوذا
وأي نوع من الشذوذ هذا ؟

ليس في امكانك ان تسمي التفكير العميق نقصا ولكنه نقص في الواقع •
وعلة سكان هذا القطر في تفكيرهم وتدقيقهم في كل ما يسمعون • فتراهم
لا يجتمعون وراء اصحاب الدعايات والمبادئ ، بل يلبون من ينسبهم بالفوائد
المادية ثم لا يلبثون ان يروا قلة نصيبهم من الغنيمة فيتفرقون •

هم أنانيون متمدنون ، يتمردون على آباءهم وعلى ابنائهم ، وعلى
حكومتهم ، وعلى ربهم أيضا • تمردهم هذا مظهر من مظاهر القوى • ولكنها
قوى لو اتحدت معا لواصلتهم الى السماء ، ولو تنافرت لقصت عليهم قضاء
مبرما • فهل ستهلكهم قواهم ، أم تصل بهم الى السماء ؟

في هذا الوسط العجيب نشأ أبطال أقاصيص هذه المجموعة ، وبين
ظهري هذا الشعب المصاب بالهستيريا ترعرعوا فحملوا في طباعهم كبرياءه
وفي عقولهم فوضاه وتذبذبه ، وفي قلوبهم فراغا من كل شيء عدا (الغاية
تبرر الوسطة) ♦



في فاحشة البرج

هي ذي بغداد بشوارعها النظيفة الانيقة ، وأزقتها الخربة القذرة ،
بقصورها العامرة في حدائقها الغناء ، وأكوأخها المهدمة وسط المزابل المنتنة ،
بسياراتها الانيقة الفارهة من آخر طراز ، وعرباتها التي يرجع عهدها الى الايام
الخوالي والعصور الموغلة في القدم . لقد أصبحت بغداد في هذه الايام قبله
كل سكان القطر ومقصدهم ، يقصدها المزارع من أقاصي الارياض ليحظى
بمقابلة الوجوه والاعيان ، وليحظى بالجاه والسطوة والانس واللذة ،
ويقصدها التلميذ من أقاصي الالوية والنواحي ، لا رغبة في العلم بل حبا في
نيل شهادة من كلية او جامعة يتخذها واسطة لمعاشه وترفيه حاله ، ويقصدها
العاطلون من ذوي الحسب والنسب ، الذين قضوا زهرة شبابهم في اللهو
واللعب ، حتى اذا ما خلا وفاضهم شرعوا يبحثون عن عمل يدر عليهم
الذهب . ويعتقد هؤلاء ان المجال لهم في بغداد واسع ، فما دام في مجلس
النواب من لا يعرف القراءة والكتابة، فلماذا لا يكونون هم أيضا من أعضائه ؟
وهل يتطلب الامر أكثر من الزلفى والتلق ؟ وما أسهله عملا لامثالهم ! واذا
لم يستطيعوا الوصول الى ذلك فلا أقل من أن يكونوا أذنانا لمن هم أوفر
منهم حظا وأعظم نصيبا . ويقصد بغداد كل من تبلد ذهنه ، وعجز عن هضم
بسائط العلوم ، يحمل في يمينه شهادة عجزه عن انتهاء دراسته ، وفي يساره
قليلا من المال ورخصة حكومية لانشاء صحيفة سياسية ثقافية جامعة مديرها
المسؤول فلان ، الذي يتقاضى اجرا لقاء قيامه بهذه الخدعة الدستورية
المشروعة . ويقصد بغداد كل مطرود من مدرسته ، وكل محروم من وظيفته
ليدلي دلوه بين الدلاء ، وليبرهن للناس على ان معظم أبطال التاريخ والعباقره
هم من المطرودين والخائين في حياتهم العلمية والمدرسية . وكان من جملة
القصاص المتصيدين قاسم ، وقد أقسم قاسم هذا الصغر على أن يحتقر كل
ما خط في كتاب ، وينفر من كل ما يسمى مدرسة ، ويسخر بكل من يحمل

لقب معلم • وما كان في استطاعة أحد أن يفرض عليه ما يصد جموحه او
او يرده عن غيه ، فهو الولد الوحيد لآب مثر يملك من الضياع والعقار قدرا
كثيرا ، أرسل ولده الى المدرسة ، لا ليصبح موظفا في مستقبل أيامه ، بل
جريا على العادة المتبعة ، وجا في تلقينه ما يجعله محتفظا بمركزه الاجتماعي
الكبير • ولكن الولد لم يصل سن المراهقة حتى انخرط في زمرة أبناء السوء ،
فأهمل الدرس والكتاب ، واستعاض عنهما باللهو والعبث • وزاد في سرعة
تدهوره وفرة مال أبيه ، وتدليل امه ، وشيخوخة والده ثم وفاته بعد قليل •
وسرعان ما اختفت مظاهر الهدوء والسكون من ذلك البيت القديم الوقور ،
لتحل محلها ضجة اللهو والعبث • ففي كل يوم للرفاق دعوة ، وفي كل
اسبوع للاصدقاء سهرة ، فيها رقص وسكر وعريضة • أما في النهار فالبيت
متنبدى يؤمه ذوو الجيوب المثقلة بالابيض الرنان ، والازرق والاحمر
والاخضر من الاوراق النقدية •

وأصبح البيت بطبيعة الحال مقصد كبار الموظفين ، وأهل الجاه والثروة
من أهل الموصل ، اولئك الذين يكونون طبقة ارسقراطية ليست في حاجة الى
الحسب والنسب لكي تفرض سلطانها على الفقراء والمساكين •

وان هي الا بضعة سنين حتى أحس الشاب المتلاف بأنه على وشك
الافلاس ، فتلفت حواله يستجد بصحبه ورفاقه من ذوي النفوذ واليسار ،
وجلسائه حول مائدة القمار • فكانوا عند حسن ظنه ، وبرهنوا على انهم
اناس يرعون عهد المودة ، ولا يتخلون عن من تربطهم به رابطة الشراب
والميسر عندما ينزل به الزمان ، وقذفوا به الى بغداد ليكون شخصية بارزة ،
مرشحة لمنصب النيابة فما فوق •

وصل قاسم بغداد يحمل في رأسه جهلا مطبقا بكل ما يخص العلم
والحياة ، ولكنه يتقن فن المجاملة والكلام ، واصول الشغب ومدح الانصار
والاصدقاء ، ومهاجمة الاضداد والاعداء • وأدرك على الفور انه قد تعلم
كل ما يلزمه لغايته ، وشكر حسن طالعها الذي دفع به الى هذا المسلك الذي

وان كان قد بدد فيه جل ثروته ، ولكنه اكتسب منه اسما معروفا ، ومركزا سياسيا ، وجاها عظيما . ومن يدري ما يخبئه له المستقبل ؟ وبدأ كفاحه في التردد على (مقهى سلطان) .

وكان من جملة القصاد المتصدين عارف . واشتهر عارف هذا في صغره بالشقاوة وارهاب رفاقه ، وبطالمة كل الجرائد ، والتفاخر بمقدرته على تحجير مقالات كأحسن ما تنشئه الجرائد . وكان في ذلك ماهرا حقا ، وكان شعوره هذا مصدر اهماله العلم والتحصيل ، فخاب في دروسه ، ورسب مرارا حتى اضطرت ادارة المدرسة الى طرده ، وكان آخر ما ودع به المدير وهو يترك مدرسته قوله « لقد كان هتلر عريفا في الجيش ، واشتغل موسوليني فاعلا في الطرق ، وكان ستالين عاملا صغيرا . وأنا أحسن حالا منهم عندما كانوا في سني ، اني أحسن القيام بتحرير جريدة على الاقل » .

لقد كان عارف متواضعا فيما ذكر فهو يعرف زيادة على ذلك تاريخ حياة رجال العالم المعاصرين البارزين ، اذ قرأه وتعلم مبادئهم ، واتفق لهجة الجرائد في الدفاع عن العرب المظلومين والبيكاء على فلسطين . وليست هذه كل ميزاته ، فهو عملاق ضخيم الجسم جهوري الصوت ، يحسن الشتم ان أعياه المنطق ، ويحسن اللكم ان اندحر في الشتم ؛ وقد تعود أن يلقي محاضرة على كل من يصادفه في نقاء دمه ، وعراقة نسبه في العروبة ، كأنه يريد أن يرحي الى مخاطبه ان كونه نجفي الاصل لا يعني انه من اصل فارسي . وقد علم بدهاء ان طريقه سيكون وعرا ، اذ ينقصه المركز العالي الممتاز فجعل أول خطواته في كفاحه الاتصال بشخصية بارزة . ولما كان ممن يقضون أوقاتهم في (مقهى سلطان) كان من الطبيعي ان يلتقي بقاسم ، ويتعرف عليه ، وكان من الطبيعي أن يجد كل منهما في رفيقه ما يكمل نقصه . ولم تمض على التقائهما ثلاثة أسابيع حتى أصبح عارف لسان قاسم ويده وعقله أيضا ، وأصبح قاسم جيب عارف وبيته وحاته أيضا !

وتردد على (مقهى سلطان) أيضا الشيخ حسن • وهو شيخ في العلم لا فى السن ، قضى زهرة عمره فى تحصيل علوم الدين واللغة ، وسهر الليالي مكبا على الكتب الصفراء حتى شحبت وجهه ، وكل بصره ، وضعفت بينته ، فأصبح يشبه بقامته النحيفة ، ووجهه الصغير ، وعمامة البيضاء ، وملابسه العصرية ، تحت الجبة السوداء ، قلما من الرصاص فى رأسه ممحاة (كما وصفه أحد زبائن المقهى ممن يقضون وقتهم بالسخرية من الموجودين) •

قضى الشيخ حسن عمره فى الدراسة وهو يعتقد انه يسهر الليالي فى طلب المعالي ، ولكنه لم يلبث أن أدرك بعد فوات الوقت ان سهر الليالي الذي يوصل الانسان الى المعالي يجب أن يكون على موائد القمار ، وفي حفلات الرقص والانس والحبور ، وأدرك ان ما فات لا يمكن ارجاعه ، وان الفرصة قد أفلتت من يده ، فثار وزأر ، وشهر يراعه وتنمر ، ومضى ينبه الناس الى هؤلاء الذين لا أخلاق لهم ولا دين ، ولا وطنية ولا مبدأ ، ولا يسعك الا أن تصادق على كلامه حينما يهز عمامته الصغير ويدعي بأنه أولى بالمعالي من هؤلاء « الذين هم من الاخلاص متبرئون ، ومن العلم خالون ، ومن العقل فارغون ، هؤلاء المراؤون الذين يقولون ما لا يفعلون ، والذين هم للمسكرات شاربون ، وعلى الكراسي للاكل يجلسون ، ييلعون أطياب المأكول مع (الصمون) بالشوكة والسكين والملعقة والماعون » •

أما مقهى سلطان فمتمدى لكل هذا العدد من الشخصيات البارزة وهو واحد من تلك المحلات العديد المتشرة على جوانب الشوارع الجديدة في بغداد ، تمتاز بواجهاتها الزجاجية التي تغلق في الشتاء فتحصر الهواء الفاسد المكون من أنفاس الزبائن الكثيرين الذين يمثلون كل طبقات المجتمع ، ودخان السيكاير و (النار كيل) ، الذي قد يتكاثر حتى يجعل جو المقهى كالضباب تتألق في وسطه المصابيح الكهربائية العديدة • ويبدو المقهى حينذاك كأنه كبير من آنية الاحياء المائية الزجاجية ، فيه سائل عكر ، تروح وتغدو في

أسفله حيوانات ذات أشكال مختلفة وألوان متباينة ، تنفث الدخان من أفواهها ، وتحرك يمينه ويسرة على قاعدة الاناء .

ويربط هؤلاء الزبائن حب التكلم في السياسة ، والآمال البراقة التي تلوح لهم خلال ذلك الجو الفاسد فتراهم يجتمعون في زاوية من زوايا المقهى يتحادثون ويتجادلون . وقد اجتذبت تلك الاحاديث التي تدور حول رجال الحكم جاسوسا ماهرا تشهد له الملفات السرية بأنه لم يرجع من جولة وهو خالي الوفاض ، أي دون ان يكتشف مشاغبا أو شيوعيا متآمرا . وإذا لم يجد ما يرضيه لفق حادثة في مخيلته ، وأنهم بها من توقعه الصدفه السيئة في طريقه . كل ذلك ليقدّم زبائن جددا للسجون ، ولكي تزداد الحكومة مطمئنا على سلامتها وتزداد بعدا من الافكار الهدامة . وقد تزداد الحلقة في بعض الاحيان وتوسع ، فينضم اليها رئيس تحرير جريدة ، أو موظف يريد ان يشوه سمعة رئيس يكرهه ، أو تلميذ في كلية الحقوق يؤسس له مستقبلا باختلاطه بشخصيات بارزة . وقد يشتد النقاش والجدل فيلعب فلان ، ويشاد بذكر فلان ، ويحكم بالاعدام على فلان وفلان ، وقد ترتفع درجة الحماس حتى تبلغ حد الخطر ، ثم تهبط فجأة بصيحة من أحد لاعبي رد قد عاكسه الحظ كثيرا فنضى يستنجد بالنرد ويخاطبه حائقا (لك دوشيش) . وعندها يعلم القوم ان الحماس في غير محله ، وان الخطب النارية لا تلقى بين الاوباش، فيغيرون مجرى الحديث !

وفى أحد الامسية اجتمع هؤلاء الاربعة ، وبعد ان استقر كل في مجلسه افتتح قاسم الجلسة بقوله « لست أدري والله متى يقدر الخلاص لهذا البلد المسكين ؟ » .

فأجابه عارف على الفور « ما دام في البلد امثال هؤلاء الخونة فلان وفلان فليس الخلاص في الامكان » وعندها هز الشيخ رأسه الصغير واعترض بقوله « الشعور الديني هو أساس الاتحاد ، وحين يقوى الايمان في صدور القوم تحدث المعجزة » .

وأراد الجاسوس ان يدلي برأيه فأضاف « ولكن الشيوعية والافكار الهدامة • هي علة الخراب فيجب قطع دابرها قبل كل شيء » •

وعندها ارتفع صوت قاسم ليعطي رأيا حاسما فى تلك القضية وهو يحسب ان علو صوته يكفي لاقناع رفاقه بسداد رأيه وقوة شخصيته فقال « كل ما قلت صحيح وسببه انتشار الغباء بين ظهرائي العرب • والدم غير العربي الذي يجري في عروقهم هو الذي يدفع بهم الى عدم الاعتداد بصالح أوطانهم • نحن بحاجة الى يد جبارة تقتل وتمتلك بدون رحمة • نحن بحاجة الى ديكتاتور يقتل على الشبهة • نحن بحاجة الى حجاج آخر يبيد الاعجام واليهود، ولكن الذين تجري في عروقهم دماء عربية ثقية بعيدون عن الحكم • اني من انقى العراقيين دما ، يرجع نسبي من امي الى (•••) ومن أبي الى (•••) ، لذلك لا تطاوعني نفسي حتى على مجرد تصور الخيانة ، لكن الخونة يحولون بيني وبين كرسي في مجلس النواب ليفوز فلان التركي الجدد ، وفلان الفارسي الاصل ، بالنيابة وغيرها » •

وشعر الشيخ ان الكلام موجه ضده بدون قصد ، لانه من أصل كردي فاعترض محتدا « ان الدين هو الكل في الكل فيما يخص الإصلاح والتقدم • ان أحسن دواء لتأخر الشرق والبلاد العربية هو توحيد قوى المسلمين في مشارق الارض ومغاربها ، ومقاومة الكفر والالحاد ، ومحاربة اعداء الدين وهم كثيرون فى هذا القطر • في هذه البلاد قامت الحركات الهدامة لهدم الاسلام فزعزعته وكادت تقضي عليه • ان الشعوبية والمائنة ودعوة القرامطة وحركات (الزط) اتخذت هذا القطر مسرحا لها • ولو اوتيت من القوة ما يكفي لفضيت على كل ملحد حتى لو كلف ذلك ذبح سكان هذا القطر جميعا • اما قضايا الدم الخالص فضلال في ضلال بل كفر صريح ، ويجب ان تبدل هذه العبارة بعبارة الايمان الخالص • (لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى) (ان اكرمكم عند الله اتقاكم) اني لافضل الهندي المؤمن على العربي الملحد ،

والجاوي الذي يقصد مكة للحج على السوري العريق في العروبة الذي لا يخطر في باله زيارة البيت الحرام » •

وهب عارف مدافعا فقال « لو دان الامويون بما تقول وساووا بين الشعوب التي دخلت في الاسلام لما استعمروا مشارق الارض ومغاربها ، ولما جعلوا الناس خولا وعبيدا » وكان عارف يضرب على هذه النعمة دائما مع انه جعفري المذهب ، كيما يوحى الى السامع انه فوق الفوارق الطائفية، وليبرهن للناس على انه عربي متحمس للعروبة • ولكن هذا الحماس لم يؤثر في الشيخ فhez رأسه مرارا ، وقلب شفتيه احتقارا •

وسبقه مدير تحرير جريدة اسبوعية كاسدة معترضا فانشأ يقول « لا تنس ان معظم الجرائد الرائجة هي واسطة للدعايات الاجنبية، يتقاضى أصحابها رواتب معينة للدعايات الفاشيستية ، تحت ستار مقاومة الشيوعية، أما جريدتي التي لا تبالي بغير الصالح العام فكاسدة • ان الصحافة في هذه البلاد في أيدي اناس لا ضمير لهم ولا شرف يحسنون الدس ومقاومة خطى الاصلاح ، ولا يحسنون شيئا سواء ، فتراهم والتأخر يسرون جنبا الى جنب » •

ويظهر ان الجاسوس لم يفهم معظم تلك الاحاديث ، ولم يعجبه بعضها ، ولم ير فائدة في الاصغاء الى تلك المحاوره لخلوها من لفظة (شيوعية وافكار هدامة) فمضى يتشاءب ويتمطى •

وبالقرب من هؤلاء ، الذين كانوا يلقون الكلام على عواهنه ، دون ان يتكلف أحدهم مؤونة التفكير فيما يقول رفيقه ، لاعتقاده بأن آراءه أعلى الآراء واكملها ، وآراء غيره حقيرة لا تستحق حتى الاصغاء ، جلس شاب ، ويظهر ان الحوار كان قد استرعى اهتمامه ، فأصغى اليه ، ولاحث على وجهه امارات من يريد الكلام ، أو التدخل والاعتراض مرارا • ولما انقطع الحديث وجد الفرصة مناسبة للدخول في الحوار فقال « أخشى ان تعدوني فضوليا اذا تدخلت في الموضوع ، وأبديت رأيا فيما تتباحثون فيه » •

فأجاب الكل مجاملين « استغفر الله • تفضل • تفضل » •

وبدا بمظهر من يريد القاء محاضرة طويلة فاعتدل في جلسته ، ثم شرع يقول « لقد علمت من حواركم انكم متفقون على ان القطر في حالة تأخر مشينة لا تشرف ساكنيه ، وان من الواجب النهوض به الى العلا ، ولكنكم مختلفون في الطريقة المؤدية الى ذلك ، فأحدكم يريد ان يطرد من القطر كل من لا تجري في عروقه دماء عربية نقية ، جاهلا ان العالم كله تقريبا خال من الشعوب التي لم تمتزج دماؤها بدماء غيرها بالتصاهر أو التزاوج ، وانه غير موجود الا في تلك الشعوب التي أحاطتها الطبيعة بسياج يصونها من الاختلاط ، ولا أعتقد ان بين امم الارض من يحسد تلك الشعوب على حظها من الرقي ، فهي كلها في أقصى درجات الهمجية • أما عبارة الدم النقي التي يترنم بها الالمان مثلا ففضية وهمية قد اختلفت لمقاومة اليهود وبقية المعارضين لسياسة النازي • والعراق بصورة خاصة أكثر بلاد العرب خلوا من الدماء ، فهو بحكم موقعه الجغرافي ملتحق بثلاث امم مختلفة ، الترك والعرب والفرس ، فهو مزيج من هذه الامم دما ، ولكن لفته وتاريخه وعنناته فصلته عن الترك والفرس وجعلته جزءا من البلاد العربية • وقد ثبت علميا ان الانسان لا يرث الاعتقادات والمبادئ الوطنية ، لانها امور تتعلق بالتربية ، ولكنه يرث الصفات الجسمية والقابليات العقلية • وقد ثبت أيضا ان نسل الزوجين المتباعدين بالنسب اقوى جسما وانشط عقلا من نسل القريين • غير ان الفائدة من هذه الصفات تتوقف على كيفية استخدامها وتوجيهها الى هدف مفيد • وقضية الدين لا تختلف في شيء عن قضايا الدم • فالدين فكرة سامية تولد في محل ، وتكون مطبوعة بطابع ذلك المحل ، وعندما تنتشر وتدخل امصارا واقطارا مختلفة تمتزج بالاعتقادات المتفشية في تلك الاقطار ، وتولد افكارا جديدة • فالاسلام مثلا قد ولد في جزيرة العرب ، ولما انتشر في فارس وبلاد الهند والسند والمغرب انقسم الى مذاهب لكل منها اشباع يتعصبون له ، ويتناحرون في سبيله • والدين اليوم ليس الا آراءاً شخصية واعتقادات فردية • فليس في الامكان ان تجدد الآن

اثنين يتبعان دينا واحدا ومذهبا واحدا ، وتكون آرائهما متشابهة فيما يتعلق بمعتقداتهما • فهل من المعقول ان يكون الدين اساساً في الشعور المشترك ؟ أما أنا فأرى ان سعادة الشعوب ورفقها يقومان على أساس توفير الغذاء الكافي والمعيشة الصحية والثقافية لأكبر عدد منها أو لكل افرادها ، ولا يتم ذلك الا بوجود قادة ذوي ادمغة كبيرة ، وتقوس عالية ، واخلاص متناه ، يؤمنون بهذه الفكرة ، ويسعون لتحقيقها •

وما كاد ينتهي من كلامه حتى أغار عليه الجميع فقال قاسم « هذه شعوبية وافكار هدامة » وقال الشيخ « هذا كفر وشيوعية » وقال عارف « خير لك ان لا تصرح بمثل هذه الآراء في كل مكان » وفتح الجاسوس عينيه وقد برق فيهما بريق الفوز ، ونهض قاصدا صاحب المقهى ليسأل عن اسم المتكلم ومهنته وعنوانه •

وكان لاعبا نرد قد انتهيا من اللعب ، وأخذا يراقبان المتكلمين بفضول ، وانضم اليهما افندي سوداوي المزاج نحيف البنية أصفر الوجه ، وبعد ان بصق في أسفل القطعة المكتوب عليها (البصاق ممنوع بأمر مديرية الصحة) قال منتقدا « دوخوا رأسنا والله هذا يريد عربية ، وهذا يريد اسلامية ، وهذا يريد شيوعية ، وكلهم طلاب (كلاوات) يلغون ويشاغبون حتى ينالوا ما يريدون » وراق هذا التصريح للاعبي النرد فهتفا معا (صدقت والله) •



لِنَقَامِ

آية ضربة قاسية نزلت على ام رأسه فصعقته ، وطبعت على وجهه صورة تنفر حتى الشيطان ؟ أي حقد فطيع وأي ألم ممض يعصر نفسه ويجعله يتلوى كمن يلهب جسده بالسياط ؟ لقد استحات صورته الى صورة شيطان مريد ؛ وزادت عيناه ضيقا ، ولمع في حدقتيهما بريق الكره القاسي المريع . وكانت اللعنات الفظيعة والشتائم القبيحة تنصب من بين شفثيه بين آن وآخر . أما لونه فقد كان يزداد اصفراراً كلما كثرت الصفحات المقروءة ؛ وقلت الصفحات الباقية من الكتاب الذي بين يديه ، حتى اذا ما قلب الصحيفة الاخيرة منه بأصابعه المرتجفة أحدث الورق خفيفاً ، كان وقعه في نفسه كوقع فحيح ثعبان مهلك . وما كان ينتهي من قراءة الكلمة الاخيرة ، حتى قذف بالكتاب الى نهاية الغرفة قرب حذائه وانكمش على الديوان ، وأغمض عينيه قليلا ، كمن يبعد عنه شبحا مرعبا ، او يستريح من عمل متعب .

ولم يلبث أن انتفض مرة ثانية كمن به جثّة ، وسار الى نهاية الغرفة ، والتقط الكتاب مرة اخرى ، وعاد الى مطالعة العنوان ، والتحديث في اسم المؤلف ، وعند ذلك عاد الى التقطيب ، وانبعث بريق الكره من عينيه .

هل غاظه موضوع الكتاب ؟ لا يعقل ذلك اذ مهما كان يحوي هذا الموضوع فليس من المعقول أن يحدث في نفسه هذه الثورة وهذا السخط . وأي شيء يسخط الانسان الى هذا الحد من موضوع يتناول البحث في تجديد اللغة ؛ هذا مع العلم ان حامدا من أنصار هذا البحث والقائلين به ؟!

أيمكن أن يكون مؤلف الكتاب هو الذي أثار حفيظته ؟ وأوقد نيران الغضب في نفسه ؟ ولكن بم أساء اليه حتى استحق منه هذا الكره الشديد ؟ فنحن على يقين بأنه لم يقتل أباه ولا أخاه ؛ ولا أحدا من ذويه او من أفراد عشيرته الاقربين ولا الأبعدين ؛ كما انه لم يذكره بسوء ؛ ولم يحتفظ له في

نفسه غير التقدير والاحترام . لقد درسا معا اللغة العربية على استاذ واحد ، وكان حامد أذكى من صديقه ؛ وكثيرا ما استأثر بعبارات الاطراء والمديح دونه ؛ وكان اسماعيل يقدر مواهب صديقه ، ويعتمد عليه فنشأ على حبه وانطبع على الاعتقاد بنبوغه ، كما انطبع بيت الشعر الذي كان حامد يردده في اثبات وجوب تجديد اللغة وهو

(أين قلبي هذا كئيب قديم ومقالي عقنقل قد موس)

في أعماق ذاكرته . ولا ننالي اذا قلنا ان هذا البيت هو الذي أوحى اليه موضوع كتابه الذي « لم يأت شيء في وقت الحاجة اليه مثله » كما قالت عنه إحدى الصحف المحلية . اذن فما الذي أوجب سخط حامد على الكتاب ومؤلفه ؟ فلنصغ الى مناجاة حامد لنفسه ، وهو يزجر بصوت واطيء ، بعد أن رمى الكتاب مرة أخرى

« يا له من كلب لعين ؛ لقد سلبنى الشهرة وسد عليّ منافذ العمل . لقد تناول البحث من كل جهاته فلم ينس شاردة ولا واردة . ولم يكتف بذلك ، بل أتى برأي جديد في وجوب تسهيل دراسة قواعد اللغة العربية ، بشطب الشواذ ورفع الالفاظ الثقيلة المنفرة ، وما يتبعها من قواعد ، وادخال الكلمات العصرية السهلة ، والاصطلاحات العلمية والفنية الحديثة . ما الذي أبقي لي ؟ لقد انتهز الفرصة دوني . وكيف يخطر على بالي ان حكاية السلفاة والارنب تنطبق على الواقع هذا الانطباق ؟ »

أستأثر هذا الخامل بالشهرة دونه ؟ أتمتليء أعمدة الصحف بتقريظ كتابه والاشادة بمدحه ، ويبقى هو منغزلا في عقر داره ! أصبح اسماعيل ثقة في اللغة ومجددا فيها ، ويكون هو بين الخاملين ؟

وليت الامر يقف عند هذا الحد ، اذ ربما أسندت اليه هذه الحكومة ، التي اشتهرت في رغبتها بالتجديد ، منصبا مهما . لعنة الله عليه ، لقد أساء اليه إساءة لا تغتفر .

ودخل الخادم ، فقطع عليه سلسلة أفكاره ، وأخبره بأن صديقه اسماعيل يسأل عنه ، فأجابه بلهجة تركته مشدوها

« قل له ينتظرنى في غرفة الاستقبال ريثما أتهى من اداء الفريضة » .
وبدأ صلاته باستغفار الله والتوبة اليه عدة مرات ، وبعد أن أدى صلاة خاشعة ، جلس على حافة سجادته ، وأطال الدعاء عن قصد .

وكان اللقاء حارا بين الصديقين ! تخلله الكثير من عبارات الترحيب المتكررة ، والسؤال الملح عن الصحة (والخطر) والسلامة ، الى أن قال حامد

« لقد قمت بعمل عظيم أيها الصديق لقد قدمت للغة العربية خدمة عظيمة بكتابك هذا » .

فأجابه « العفو . لم أفعل غير تسجيل اقتراحاتك وأفكارك فكل ما فيه صدى لأرائك المعهودة ، اني لا أزال أتذكر كلماتك واقتراحاتك ، كما انني لم أنس البيت الذي لا بد أن تكون قد قرأته في كتابي » .

وسكت اسماعيل واصفر وجه حامد حتى غدا كوجوه الاموات ، وود لو يستطيع أن يشرب دماء هذا الجالس أمامه ، ويتمكن من سحق عظامه ومضغ لحمه .

ولم ينتبه اسماعيل الى ذلك فقد كان سروره وتفاؤله يصبغان كل ما تقع عليه عينه بألوان بهيجة ، ويجعلها بعيدة عن مظنة السوء والشبهة . وأخيرا قال بلهجة ملؤها التسامح والكرم

« اني أود أن أستطلع رأيك واني أريد منك انتقادا حازما ، لا يتأثر بعاطفة الصداقة ، وأنا مستعد لتلافي كل ما في الكتاب من النواقص عند اعادة طبعه » .

فأجاب حامد بمكر

« هذا واجب مقدس أيها الصديق ، أثبت لك وكتابك دعاية لها قيمتها وأثرها ، سترى ذلك بنفسك » ♦

وكان الوداع لا يقل حرارة عن اللقاء ، وافترق الصديقان ، وفي نفس أحدهما فرح وشكر وتفاؤل ، وفي نفس ثانيهما موجدة وتشاؤم ، ولما كان حامد قد أخذ على عاتقه بث الدعاية لصديقه ، ولكتاب صديقه ، فقد أسرع قاصدا بيت الاستاذ سيف الدين استاذ اللغة الكبير ، حيث يجتمع ادباء البلد وعلماءه وتلاميذه هؤلاء ، من متعممين وآخرين قد نزعوا العمامة حديثا ، مجارة لروح العصر ، وقليل من الشبان الخارجين على قاعدة ابقاء القديم على قدمه ، ويهرب هؤلاء من الحلقة الواحد بعد الآخر ، وكان اسماعيل أحد هؤلاء الخارجين ، أما حامد فقد كان على وشك الافلات منها ، لولا هذه الضربة التي دفعته الى وسطها مرة اخرى ♦

ورأى الحلقة كاملة ♦ ورأى الوجوه الكالحة عابسة ، وتطلع الى مجلس الرئيس ، فوجده مقطب الجبين ، وبين يديه كتاب يقلبه كما يقلب الانسان اداة قذرة ، وقام الكل عند قدومه كالعادة فسلم وجلس ، وانهالت عليه عبارات الترحيب الواحدة بعد الاخرى ، فردها ♦ وبعد فترة خاطب الاستاذ قائلا

« ما رأي الاستاذ بهذا التجديد الذي يطلبه اسماعيل في كتابه هذا ؟ » ♦

فأجابه الاستاذ بعد أن قلب شفتيه احتقارا

« نصف عالم يكفر الناس . لقد اكتسحت البدع العادات والاخلاق والتقاليد والدين وسرت الى اللغة ، ان هؤلاء الشبان الطائشين حرصون على عدم الابقاء على شيء من مخلفات اجدادنا المقدسة . ان هذا المتحذلق يطلب ابطال استعمال الكلمات الفخمة ، انه يتنقذ بذلك لغة القرآن ، ويريد استبدالها باخرى بسيطة سهلة ، وكأنه يريد أن ينحط باللغة من مستواها العالي المقدس الى مستوى الرعاع

الابوابش • انه يريد أن يجردنا من الروعة والفخامة التي قل أن وجدت في لغة أخرى • ومن المؤسف ألا تجد صوتا يرتفع في وجهه • سقى الله عهدا كان الشاب فيه لا يرفع رأسه اذا مشى في الطريق ، ويجلس قرب الاحذية عندما يحضر مجلسا كهذا ، ولا يكتب شيئا قبل أن يخالط لحيته المشيب « • ثم تنهد وتأوه وسكت •

ووجد حامد الجو ملائما للقيام بالمهمة التي أخذها على عاتقه والعهد الذي قطعه على نفسه في مساعدة صديقه وبث العناية له فقال « وما فائدة الرد على مثل هذه السفاسف سيهمل هذا الكتاب ، وتذهب دعاياته وآراؤه ادراج الرياح ، انه لا يستحق حتى المطالعة » •

وما كاد ينتهي من سرد عبارات (الاطراء التي وعد بها صديقه) ، حتى انفالت عبارات القدح من الجميع وشرعوا يتبارون في اختلاق المثالب ، وخلق العيوب ، واختراع الفضائح ، التي تدور كلها حول شخص هذا المسكين ، ومن بين الحاضرين كان شخص قميء زري الهيئة مجدر الوجه أعور العين ينتظر دوره بسكون ، وما كاد يفرغ الحاضرون ما بجعبهم حتى شرع يقول بلهجة من يلقي خطبة حماسية

« اني لا استغرب ما بدر من اسماعيل ، فلو اصغينا الى الهمس الذي يدور بين الناس حول سمعته القذرة ، وسلوكه وسلوك أهله الشائن ، لادركنا ان من لا يغار على شرفه لا يغار على لغته ، وأظن ان حامد افندي أعرف الناس بدرجة تسامح هذا الشاب بعرضه يوم كان شابا لامعا » •

ولم تظهر على حامد أية علامة تدل على استنكار هذه التهم التي يعلم ان صديقه يرى منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، غفل عن قوله تعالى (ان الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر) وقوله تعالى (ولا يقتب بعضكم بعضا) يجب أحذكم ان يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه) ونسي الحديث النبوي الشريف (الساكت عن الحق شيطان أخرس) ؛ نسي كل شيء الا

الشهرة التي تمتع اسماعيل بها مؤخرا ، والسمة الطيبة التي حازها عند المثقفين ، والحظوة عند اولي الامر والمتنفذين . لقد اكتسحه واكسح امثاله من الجامدين كما تكتسح العاصفة التبت الهزيل ، فيجب عليه ان يتتقم . وقد لاحت على وجهه ابتسامة شيطانية صفراء وأجاب

« ان لاسماعيل بعض العذر في ماضيه ، فقد كان والده سكيراً فتسلمذ على أهله ووالده ، والشاب يركب رأسه عندما يجد نفسه في حاجة الى المال ، فرلت قدمه وتردى في الهاوية ؛ وهيهات ان ينقذ نفسه منها ، وقانا الله شر السقوط ! » .

وقال الجميع مرة واحدة « اللهم سترك » . وترك حامد مجلس الاستاذ وابتسامة الانتصار تلوح على شفثيه . لقد اتقم ، وياله من اتقام .

لقد بدا الطريق ووجهتهما واحدة ، وكان ان اغتر أحدهما بقوة ساقية ومقدرته على الجري فجلس يلهو ويلعب ، أما الثاني فقد ادرك خلوه من هذه الميزة فمضى في طريقه متتد الخطى يجد في سيره بقوة وعزم ، واتبه الغافل المغرور فوجد المسافة شاسعة بينه وبين رفيقه ، فتجلت حماقة الاطفال في سلوكه ، اذ لم يفعل غير ان أدار وجهه وسلك الطريق المعاكس وهو يصخب ويشتم ، سوف يتبه الى غلطته ، ولكن بعد فوات الفرصة .

لقد سار صاحبه متجها نحو الشرق ، يستقبل أشعة الشمس المنعشة ، ليصل الى عالم الاحياء ، حيث الخضرة اليانعة ، والزهور الرائعة والوجوه الباسمة ، أما هو فقد سار نحو الغرب حيث المقابر والمدافن ، ليستعين بالاموات وسكان القبور ، وشتان بين مشرق ومغرب .

سوف يدرك غلطته عندما يسمع نقيق البوم ، وتهب في وجهه ريح الموت السافية ، وتغمره لجة الظلام . سيندم حينما يقف مع الحقيقة وجها لوجه ، ولات ساعة مندم .



عاصمہ زہرا

افتحت ميازيب السماء كأفواه القرب ، وجلجل الرعد بعد برق ساطع ،
أنار ظلمات الليل فبانت خيوط المطر كأسلاك مبرومة من فضة ، تصل
السحاب المظلم بالأرض الفارقة في المياه •

ليلة ليلاء ، وعاصفة هوجاء ، يبرق يضطف الابصار ، ورعد يصم
الآذان ، وسيل من السماء قد دهم الغبراء كأنه طوفان آخر كطوفان نوح ،
قد سلطه الاله الجبار على العباد الفارقين في حمأة الرذيلة والاجرام •
مزنة لا تقاوي امثالها بغداد الا مرة كل خمس سنين أو ما ينوف ،
ولكنها تكررت مرتين في أوائل ربيع تلك السنة •

قام (توما) الى النوافذ فأحكم رتبها ، ثم شرع يقطع الغرفة جيئة وذهابا
كمن ينتظر امرا وهو على أحر من الجمر ، ثم بان عليه اليأس فرمى نفسه على
احدى الارائك الوثيرة وتمتم

« انه جو لا يصلح حتى لارسال كلب خارج الدار ، فليس من المنتظر
ان يبر الجباعة بوعدهم ، ويأتوا هذه الليلة ، ولا مناص من تأخير احاديثهم
وشغبهم ومؤامراتهم الى يوم آخر » •

ولكن هذا التأخير يزعجه ، انه يريد ان يرفه عن نفسه حتى ولو بمجرد
تصوره امكان اسقاط الوزارة ، واستعادة مركزه وفهذه السياسي • لقد ذل
في الايام الاخيرة حتى بالت عليه الثعالب ، وها هي جريدة (البرهان) تشن
عليه غارة أثر غارة ، وتفضح كل اسراره دون ان يكلفها ذلك غير نشر بضعة
عشر سطرا من مقالات نشرت قديما في جريدته • لقد وقع في المصيدة أخيرا
كجرذ أحرق ، وكثيرا ما انحنى باللائمة على نفسه وعلى خطته ، ولكنه ما يلبث
ان يتعرض ما قام به من الاعمال ، والحوادث الفجائية غير المنتظرة ، فيعذر
نفسه ، ويسقط بعض الذنب عن عاتقها •

أما انه ذكي فأمر يعترف به حتى اعداؤه ، وأما انه صحفي قدير فقد شهدت له بذلك امهات الصحف في البلاد العربية ، واحلته بينها منزلة ذات أهمية ، وأما انه ذاهية فيشهد له بذلك تمكنه من بسط نفوذه وسيطرته على عدة زعماء مختلفين في الاهواء والمبادئ حتى حل من قلوبهم الواحد تلو الآخر منزلة ذات خطر ، وأما جريدته فقد كانت ولا تزال ، اكثر الجرائد رواجاً ، وأعظمها انتشاراً ، يخطب ودها الزعماء والوزراء ، وكل من يطمع بنفوذ مادي أو أدبي في هذه البلاد . ولكن ثلاث جرائد اخرى قد بدأت تزاحمه ، وتكاد تزحجه عن الطريق ، وقد شهرت الحرب في وجهه من يوم ان رفضت الحكومة مد يد المساعدة اليه . وشمر بقوة خصومه عندما أغفلت الحكومة انتخابه نائباً ، وعينت آخر بدلاً منه ، فأعطت لهذا الآخر ، وهو صاحب جريدة أيضا ، فرصة للتنكيل به . ولم يتخاذل أو يجبن عن مقابلة الهجوم بمثله ، ولكن هجومه ، أو بالاحرى دفاعه ، لم يتعد الدس بطريقته الموهودة التي لم يسبقه بها أحد ، وهي الظهور بمظهر المسالم ، والتأمر بالخفاء ، وتسديد الضربات من وراء .

وكان له بالمرصاد نائبان ، وهما صاحبا جريدتين أيضا ، في سقوط الحكومة سقوطهما ، وفي ثباتها ثباتهما في كراسي النيابة ، هبا للدفاع عنها كما تدافع اللبوة عن عرينها . ولم يجد هذان الخصمان صعوبة تذكر في ان يكيلا له ضربات محكمة كادت تخمد انقاسه ، وتقضي على مستقبله في عالم الصحافة . ولكنه هاجمهما بشراسة ، ودافع دفاع المستميت ، ولما شعر بأنه على وشك ان يصبح تحت رحمتها سدد لهما ، وللحكومة التي تسندهما ضربة طائشة كانت السبب في تعطيل جريدته الى أجل غير مسمى . فتنفس الصعداء ، فقد صان هذا التعطيل كرامته الصحفية ، ومنعه من نشر دفاع هزيل ، فمضى ييث شكواه جهرا ، يعلن للوزراء السابقين ، وللزعماء الذين لا يترغمون سوى انفسهم ، ولعدد من الثبائ الطموحين ، ان الحكومة قد تأمرت مع اعدائه للقضاء عليه لما وجدته أقوى منهم جميعا ، وداست القوانين والحريات ،

وعطلت جريدته بغير سبب مشروع لتغل يديه وتمنعه عن المقاومة • لقد مضى على سد جريدته شهران • ونسى الناس تلك المعركة التي كاد يبدو فيها هزالة، وفي نهاية هذين الشهرين أو قبل أربع وعشرين ساعة بالضبط ، طلب زعيمان، وهما وزيران سابقان وقنصل دولة أجنبية ، الاجتماع به بصورة سرية ، ومع انه لم يعلم بعد الغرض من تلك الزيارة الا انه لم يصعب عليه ان يشم من ورائها رائحة مؤامرة محبوكة ، يعقبها سقوط وزارة ، وقيام أخرى وتعقبها أيضا نيابة بل وربما وزارة • ولكن هذه العاصفة الهوجاء التي لم تكن في الحسبان قد أخرت ذلك الاجتماع ، والتأخير له خطره في هذه البلاد التي يحدث فيها كل لحظة ما لم يكن في الحسبان • وما أشبه هذه العاصفة بذلك الانقلاب الفجائي الذي حال بينه وبين سلم الصعود الى كرسي وزارة ، بعد ان كاد يضع قدمه على أول درجة منه • ان المقادير تعاكسه دائما • ولم تبسم في وجهه الا مرة واحدة في كل حياته ، فلماذا لا يعتقد انها قد اقسمت على معاكسته منذ ولادته ، فلو كانت معه حينذاك لولد مسلما بدل ان يولد مسيحيا ، وهل دين المرء الا دين أبويه ؟ ذلك الدين الذي يولد عليه ؟ وفيما عدا ذلك فما الفرق بينه وبين كل هؤلاء المسلمين الذين يفاخرون باسلاميتهم • ولو ولد مسلما لكان لذهنه الخصب ، وقلمه السيل ، وطموحه الذي ليس له حد ، شأن وأي شأن •

وزارت الرياح في الخارج فكان لزعيرها دوي هائل مرعب قطع عليه سلسلة أفكاره ، وارتجفت درف النوافذ تحت ضغط الرياح ، ثم تغلبت على واحدة منها لم تكن محكمة الاقبال فدفعتها بشدة ، ودخلت الغرفة بدوي وصفير • وأبرقت السماء في تلك اللحظة ، فامتلاّت الغرفة بضوء البرق حتى بدا القنديل الكهربائي كمشكاة في رابعة النهار ، ولم تمنعه تلك المفاجأة غير المنتظرة التي أرعبته عن النهوض لسد النافذة ، وبعد أن خطا خطوتين قصف الرعد فاهتزت أركان الغرفة وجدرانها ، فبغت ، وعثرت قدمه بمنضدة صغيرة فتشبث بحافة خزانة الكتب كيما يتفادى السقوط ، ولكن يده سقطت

عفوا على أحد المجلدات الضخمة المرصوفة فيها فجاء يده ، وهوى على وجهه ، وهوت معه عدة مجلدات ضخمة ، وقصف الرعد أثر برق أشد خطفا من سابقه فتضعفت حواسه ، ونهض من كبوته مسرعا الى النافذة ليحكم أقفالها ، ويمنع تلك الرياح من العبث بالغرفة ، ثم عاد الى الكتب المبعثرة فوق أمامها مبهورا .

لم يكن توما في تلك اللحظة في حالة طبيعية . لقد أثرت في قوة أعصابه التكبّات التي حلت به أخيرا ، وأشغلت أفكاره تلك الزيارة التي لم تتحقق ، وأتت هذه العاصفة فكانت ضغنا على ابالة . فقد سببت تأخير الاجتماع ، وأثارت حنقه وسخطه ، ثم شرعت تفتح عليه النوافذ فتهاجمه وتلقيه على وجهه ، وترمي بكل مجموعات جريدته فوق رأسه . ولو كان ممن درسوا دراسة علمية لضعف إيمانه الديني بالخوارق والمعجزات . الا أن توما نشأ نشأة دينية ، وقضى أيام طفولته وأوائل سني شبابه مع القسس ، يقرأ اللاهوت ليكون قسيسا . ولكن الظروف قذفت به في هذا السبيل ، فلا غرابة في أن يربط كل تلك الحوادث بأسباب وهمية . ولما كانت في ماضيه الصحفي حوادث لا تتفق مع نشأته ، اعتقد ان كل ما حدث ليس الا انذارا من السماء .

وشرع يلتقط المجلدات ويضعها فوق مكتبه ، ثم جلس ومضى يحدق في ذلك الركام من المجلدات .

وكانت عشرة مجلدات هي مجموعات جريدته السنوية كلها . سجل ينطق بطول جهاده ، وشدة اناته ، وتقلبه في ألوان من الرفعة والضعفة ، عشر سنين في كفاح مستمر ، ونضال عنيف لم يحصل بعدها الا على بيته هذا ، وثروة لا بأس بها ، واسم تصب عليه اللعنات بين آن وآخر ، وشخصية كالجسر يعبر عليها الاقوياء الى حيث يريدون ، وكم مر عليه من اناس لا يساوي أحدهم قلامة ظفر ، حتى اذا ما أوصلهم الى حيث يطمحون ، قلبوا له ظهر المجن .

وتسلطه رغبة في فتح أحد المجلدات • فاستقر على كرسيه وراء المكتب وبعد أن تمالك روعه تناول المجلد الاول وقتحه دون أن يقصد صحيفة خاصة ، او بحثا معنا • واهتج الكتاب على صحيفة تحمل عنوان جريدته الضخم الايق ، وكانت الصحيفة الاولى من العدد ٣٥٠ من السنة الاولى • وفيها مقال افتتاحي بقلمه عنوانه « حاجة البلاد الماسة الى الاصلاح » وكان المقال قويا مؤثرا تتخلله شروح وافية ، ووصف دقيق لمواطن النقص في البلاد ، واقتراح مسهب لسد هذا النقص وتقويم المعوج ، وشرح لموقف الحكومة من تلك النواقص حينذاك ، ووجه فيه عدة ضربات محكمة الى بناء الوزارة ، والحزب القابض على دفة الحكم ، ضربات قوية تهز كيانهم وتفتح أعين الناس الى نقص الحكومة البارز ، بشكل لا يترك للقاري مناصا بعد انتهائه من القراءة من أن يقول « ألا فلتبدل هذه الوزارة باخرى ، ولتكن هذه الجريدة لسان حالها ، وليكن هذا الرجل شخصية مهمة فيها ، وزيرا على الاكثر ، ونائبا على الاقل ، ولتدخل البلاد في دور جديد ، ولتتد يد الاصلاح الى أطرافها ومرافقها » •

ووقف بعد انتهائه من تلاوة المقال مليا يستعيد بعض الذكريات ويفكر • كان ذلك المقال ذا أثر قوي في بناء شخصيته التي هي على وشك الانهدام الآن ، مقال ما كان أقوام وأعظم الاثر الذي أحدثه حينذاك • لقد بلغ بواسطته قمة الشهرة ، وحاز اعجاب رجالات حزبه وشخصياته الممتازة المحترمة ، وتألق نجمه يومذاك ، فخبأ ضوء النجوم المتألقة في سماء الصحافة بجانبه ! وهو يذكر جيدا كيف احتفي به في بلده ومسقط رأسه أثناء ذهابه انيها في زيارة غير رسمية ، ويذكر كيف استقبل استقبالا فخما واقيمت له حفلة تكريم ألقى فيها بعض الشبان المتحمسين خطبا رنانة في تكميمه وتمجيده • كم شعر بالزهو وكم تملكه الغرور حينذاك ! لقد شعر بأن كل شيء يبسم حوالبه • وان الدنيا قد فتحت له أبواب النعيم ، وانه قد شاد اسس سعادته على دعائم قوية • وتأثير عدد من أمثال هذه المقالات سقطت الوزارة • وانهارت كبناء شامخ متصدع •

وكانت وزارة جديدة ، وكانت حكومة جديدة ، وانتخب نائباً للمرة الاولى . ولم يسر ان يسخر من أيه حينذاك لانه كان قد أزمع ان يجعل منه قسيسا ، وغضب عليه عندما عصيه يومذاك .

انه يذكر جيدا كيف أجاب أباه بقوله « أتريد مني أن أكون قسيسا أقتأت على الصدقات ، وأبيع القداس بمائة فلس ؟ لقد خلقت لآكون أكثر من كاهن يرتدي المسوح ويدرس الدين واللاهوت في أقبية الكنائس المعتمة » . لقد وجد في تلك الحادثة فرصة للضحك من أيه ، ولكنه لا يميل الى الضحك في موقفه الحاضر . ان في قلبه غصة أليمة تنغص عليه حياته ، وتحيل العيش في نظره كابوسا مخيفاً .

وقطع عليه سلسلة أفكاره رعد له رنة ، وجادت السماء بمزنة أغزر من سابقتها ، وصبت على الارض سيولا متدفقة ، وكان صوت المطر كصوت أزيز الدهن المغلي في المقلاة عندما يصاب برشاش من الماء .

ألقى المجلد الاول متنهدا ، وتناول المجلد الثاني وفتحه بنفس الطريقة . فافتتح المجلد هذه المرة على صحيفة جديدة وكان العدد ١٥٣ من السنة الثانية وصادف أن كان المقال الافتتاحي أيضا بقلمه ، فقرأ المقال وكان تمجيذا لرئيس الوزارة الذي هو زعيم حزبه ، ردا على مقال آخر نشرته الجرائد المنتمية لحزب المعارضين ، تهاجم به رئيس الوزارة ، فدافع بذلك المقال عن رئيسه دفاعا مجدا لازال أعضاء حزبه يتحدثون بقوته . وتذكر كيف دعاه صاحب الفخامة الرئيس وشكره وأطرى مقاله ، ثم أخبره انه كان بوده لو يعينه وزيرا للمعارف ، ولكن مسيحيته حالت دون ذلك . لان الوزارة مقسمة بين الاسلام من سنة وشيعة ، ولا مجال لادخال اليهود او المسيحيين فامتنع عندئذ ، وخرج مكسوف البال وهو يخفي امتعاضه الذي لم يكن لانه حرم من وزارة ، بل لان رئيسه يتغنى بلباقته ومهارته الصحفية ثم يحتج بمثل هذا العذر الوجيه (في نظره) لحرمانه من كرسي الوزارة . وما أسخفه من

عذر • ومن ذلك اليوم شعر بأنه مسيحي ، ومسيحي صميم ليس في استطاعته ان يتبرأ من مسيحيته • وقد خطر في باله ان يسلم ، ولكنه ادرك ان الناس سيعلمون الغاية من اسلامه ، فيضيع بذلك المسلمين والمسيحين ، ويبقى بدون صديق أو نصير •

ومن يومها شعر بعطف على كل افراد طائفته ، عطفاً تولده المصائب المشتركة ، لا المصالح المشتركة ، ولا الاعتقادات المشتركة ، فأخذ يساعد اطفالهم وشبانهم بماله من نفوذ وسطة ، وأي نفوذ يفوق نفوذ صاحب جريدة رائجة هي أعظم جريدة في البلاد دون منازع ، يناصرها رئيس وزارة ، ومن ورائها حزب قوي يشد ازرها • يخطب ودها الوزراء والمدراء ورؤساء الدوائر •

وترقى في ذلك الوقت عدد كبير من المسيحيين من ابناء طائفته • فترفع بعضهم ، وزادت رواتب البعض ، واحتل قسم منهم كراسي مهمة • وكان يشعر بالانتصار عندما ينجح في مهمة من تلك المهام • وبقي يتقلب في الوان من العز والسؤدد حتى حدثت تلك الفاجعة الكبرى ، وسقطت الوزارة. سقوطاً عنيفاً لا يقل عن شدة تشبثها بالحكم ، واضطهد أعضاؤها بصورة دستورية وغير دستورية ، فقد كان الدستور الذي داسه أعضاؤها بأقدامهم عندما كانوا في دست الحكم ، بين ايدي اعدائهم ، فلم يترددوا عن رميهم ببقاياهم وشظاياهم • وما كان منه حينذاك الا ان اسرع الى رئيس الوزارة الجديدة ، فسقط على اقدامه ، وقبل يديه ، وأقسم له يمين الولاء والاخلاص ، ووضع صحيفته بين يديه فقبل الرئيس توبته ، ورأى من الحكمة ان يضمه الى كتلته فعينه نائبا • وعندها شعر بالزهو ، وظن انه قد انتصر على الاقدار والمصادفات السيئة • وظن ان هذه الكتلة التي أتت بالعنف متخلد بالحكم ، ويخلد هو معها ، ولكنه لم يلبث ان شعر بأنه يبني قصراً فوق رمال • فقد ادرك بسهولة ضعف الكتلة الجديدة وعدم تماسك عناصرها • وقرب سقوطها • وهنا علم انه كان قصير النظر سريعاً في احكامه ، فأراد ان يحتفظ

لنفسه بخط الرجعة • فسعى سراً لاستمالة أقوى اجرائها ، وأخذ يدس بين اقسام تلك الوحدة غير المتجانسة ، وكانت مهمته سهلة جدا ، فسرعان ما نشب الخلاف ، وذهبت تلك الزوبعة المؤقتة كما أتت • وظن الفرصة قد بسمت له مرة اخرى ، ولكنه وجدها تسخر به في هذه المرة وتعلن في وجهه العصيان • فقد أتت الى الحكم كتلة لم تعترف به اذ كانت تلك الحوادث السريعة ، والتقلبات الفجائية قد أظهرت ميوعة شخصيته وجبنه ، وسخف آرائه وتقلبه ، فقامت الحجة عليه من جميع الجهات وكان الصحفيون المغمورون له بالمرصاد، فلم يفعلوا اكثر من نشر عدة مقالات بقلمه نشرت في جريدته بين فترات لا يتجاوز اعظمها طولا السنة الواحدة ، وكانت تلك الضربة من قاصمات الظهور •

لقد سقطت جريدته على رأسه فكبحته كما سقطت هذه المجلدات الاثني عشر بجملتها مرة واحدة على رأسه الآن فرمته على وجهه • لقد طعته في الصميم من شخصيته وسمعته ، وجعلت هؤلاء الاقوام يسخرون منه ، ويمددون له المثالب دون ان يكلفهم ذلك جهدا كبيرا • ألا ما أحرقه ، وما ظلمه أحد ولكنه ظلم نفسه •

وقف يفكر بمصيره ، ويعض بنان الندم • ولكن لماذا يحاسب نفسه ؟ وهل الذنب ذنبه أم ذنب تلك الاوضاع التي لا تعرف الاستقرار ؟ ولو فرضنا ان أحد هؤلاء الحمقى نال من السطوة ما نال ، فهل كان يملك غير الطريقة التي سلكها هو للمحافظة على ما في يده ؟ انهم لا يمتازون عنه الا في كونهم لا ماضي لديهم يشهر في وجوههم ، فقد كانوا غمرا لا صوت لهم ولا اسم • اذن فعلام الندم ؟ ان الامور في هذه البلاد الغريبة العجيبة تجري بأسلوب خاص •

ان اعداده يرمونه بالشعوذة والدجل وعدم الاخلاص لانه دافع عن الحكومات التي اسندته ، فمن منهم يرفض مركزه فيما لو قدم اليه ، ويأبى ان يدافع عنه ، أي يرفض الجاه والسطوة في سبيل الدفاع عن الحق المزعوم ؟

هل يتردد أحدهم عن تحجير أقوى المقالات للدفاع عن مثل مركزه ؟ انهم يعلمون ذلك ، والناس يعلمون ذلك ، وولاة الامور يعلمون ذلك أيضا ، ولكنهم قد اتفقوا على ان يظهروا غير ما يظنون ، ويعلمون انهم خدام العدل ، والمضمون في سبيل البلاد ، والساھرون على الامة ، دون ان يذكروا مثلاً واحداً يؤيد ما يزعمون . أما اولئك الذين يتكلمون بالارقام والحقائق ، ويضجون بكل شيء في سبيل المبدأ بعناد . فهم كالْمسيح عندما أراد ان يرشد اليهود ، ويسعى لانتقادهم ، فما كان منهم الا ان ساقوه بأيديهم الى الصليب ، فانقذوا الاستعمار الروماني من خطر التمرد والعصيان ، دون ان يكلفوه أي جهد في هذا السبيل ، ولم يتردد هؤلاء المستعمرون من الظهور بمظهر الكرم بطلاً ، فصرحوا هازئين بأنهم براء من دم هذا النبي الجديد .

انهم يريدون منه ان يخلص على الطريقة التي يريدونها ، ولماذا يخلص لشعب يعترف بمقدرته وقوته ، ولكنه لا يتردد عن سلب حق التفوق منه لانه مسيحي ؟ اذن فليكن كما يريد هؤلاء ، فليكن صدى لافكارهم ، ومثالاً لترددهم ، وشكلاً من اشكال فوضاهم وتناحرهم على الكرسي والدينار ، فليمثلهم باخلاص ، وقد فعل فسمى كل قوي منهم زعيماً جباراً ، وكل رئيس وزارة مصلحاً عظيماً ، فاذا ما تجاهلوه انقلب يسميهم ما لا يحبون ، وعاد يناشدهم باسم الحق والعدل ان يزنوا بالقسطاس المستقيم ، وينفذوا المشاريع التي يعلم جيداً عدم امكان تنفيذها ، لكي يكون له المجال لاتهامهم بالتقصير والاهمال ، ويلزمهم الحجة .

انهم يريدون منه ان يخلص لهذا الشعب ، وعلام الاخلاص لشعب لا يعترف بوجوده ، الا فلتبق هذه الفوضى ، وليعم الخراب ، وليبق التنافس والتناحر ، ولتبق يد الاجنبي لتسند عند الحاجة ، فانه ليخشي ان يقوى هذا الشعب وعندها يرهف حسه فيشم عدم الاخلاص منه ومن غيره ، والويل له حينذاك . اذن فليدس وليدس على كل خطوة اصلاح ، وليتجاهل كل فرد مخلص ، وليرم الاعلام المخلصة ، والجرائد الزهية بالتهمة والمثالب ، وهو

يعرف كيف يرميهم بهذه التهم ، وكيف يخلق لهم تلك المثالب . لقد فعلها يوما ، وسيفعلها الآن ، وفي المستقبل ، ليبقى متتعا بهذا المركز المحترم . وسيبقى كذلك ما دامت القوضى ضاربة اطنابها ، وما دامت الاصوات متبيلة في برج بابل . لقد عاش هو وأمثاله من المتلونين أكثر مما عاش غيره . لقد عاش لأنه مسيحي ضعيف مجبر على التلون أكثر مما عاش زملاؤه المسلمون الذين يمتازون عليه بالجرأة والثبات على مبادئهم بحكم قوة مركزهم . فما أحق هؤلاء الذين يساعدون المضر ويعاكسون المخلص ، هؤلاء اليهود الضالون انه ليس أحق ليكون مسيحا بينهم .

ولم البرق فامتلاأت الغرفة بنور ساطع شديد اللعان يهر الابصار ، حتى ظهر كل شيء في الغرفة واضحا جليا ، ولح صورة المسيح المعلقة على الحائط أمامه مصلوبا ، وعلى رأسه أكاليل الشوك فعلق بصره به . انه ينظر اليه تلك النظرات الحزينة الباسمة ، نفس تلك النظرة التي كان يراها دائما منذ الصغر ، وارتج المنزل فتكسرت نوافذه وسقطت خزانة الكتب على وجهها فتبعثرت محتوياتها . وكان صوت الرعد من الشدة بحيث أصم أذنيه مدة دقيقة من الزمن ما كان يسمع خلالها الا صوت دوي وصليل مبهم ، ثم انفتح الباب ودخل طفله الاكبر وقد جن رعبا ، وكان أول ما سمعه بعد ذلك الصمم الموقت صوت صراخ طفله ينطق بكلمات متقطعة . وسمع صوت صراخ وأنين وصوت أنقاض تتساقط . وارتسمت الحقيقة في ذهنه المضطرب ، فتمشت الرعدة في جسده ، وشعر بأن ساقيه تخذلانه ، وانه لا يستطيع القيام .

وحاول أن ينتزع نفسه من الكرسي ، فلم يستطع غير رفع رأسه والنظر الى جوانب الغرفة بذهول ، ورأى كل التصاوير قد سقطت من محلها الا تصويرا واحدا . ورأى وجه يسوع الحزين وعينيه الحاليتين ، وعلى رأسه اكليل الشوك باسطا ذراعيه على الصليب . وارتعش بدنه كمن يلامس سلكا كهربائيا ، ونهض متناظلا وسار وراء ابنه الباكي ، وسمع صوت عويل زوجته،

ولما أصبح في الصحن خيل اليه ان جانباً كاملاً من البيت قد أصبح ركاماً من الانقاض ، وتقدم من زوجته المولولة فسمعها تقول والهة :

« توما .. جان .. لقد خرج لقضاء حاجة .. لقد دك دكا تحت الركام ... توما انظر الى رأسه . لقد سحقته الانقاض » . وكان الطفل المهشم محمولا بين ذراعي الخادم الذي سار به أمامهم الى الغرفة وهو يندب الطفل المسكين .

ورأى يدي طفله مدلاتين وقد جددت الدماء على جبينه . وعندما وضعوه على الفراش الناصع بقيت يداه مبسوطتين وعلى وجهه ابتسامة حزينة. وكان شعره المخضب بالدماء يشبه اكليلا أحمر . وارتعش مرة اخرى ورسم علامة الصليب ، وسمع زوجته تقول بتفجع ، وهي تحتضن طفلهما الآخر كأنها تخشى عليه ذلك المصير « جان . جان . لقد مات جان يا توما .. مات جان . ربي لماذا فجعتنا هكذا ؟ وما ذنبنا حتى ترمي صواعقك على رأسنا ؟ لماذا لم تنزلها على رأسي بدلا منه ؟ ماذا جنى الطفل ؟ وماذا فعلنا ؟ » .

وارتعش بدنه مرة اخرى ، وانكب على طفله فطبع قبلة على جبينه ثم انسحب من الغرفة ببطء بعد ان القى نظرة ذهول يمازجها رعب وألم ساحق، ومشى الى غرفة مكتبه وقد وهي جلده ، وخانه صبره ، وانسكبت الدموع من عينيه مرة واحدة .

لقد قضى ثلاث سنين في مدارس الكهنوت فتشبع عقله الفج بالافكار الدينية ، ولم يستطع الكهان رغم ما فيهم من تعصب وحقد على اعداء دينهم من الملل الاخرى ان يقتلعوا من نفسه عواطف الرحمة والتضحية التي بشر بها المسيح ، وكثيرا ما كان يتخيل المسيح حافيا يسير ووراءه اتباعه ومريدوه ، وكلهم من الدهماء ، يمسح دموعهم ، ويخفف آلامهم ، ويقتل من نفوسهم الانانية والحقد ، ويعلمهم كيف يموتون في سبيل الايمان .

لقد ود يوما لو يستطيع ان يكون مبشرا بمسيحية صحيحة لتمتلي .

القلوب بالحب والحنان بدلا من العدا والحقء . ولكن علم استحالة ذلك لان من أور مبادئ الكهنوت محاربة الاديان الاخرى والقضاء عليها . لقد ادرك ان الاديان قد فقدت أهم ميزاتها وتحولت سلاحا للفتك يستعمله القوي ضد الضعيف ، ولم يبق منها غير الاسم والظل ، فقرر أن يسلك في الحياة سبيلا آخر ، ثم أتته الفرصة فأصبح محررا في جريدة ، ثم مديرا لها ثم شخصية يشار لها بالبنان . لقد نزع مسوح الرهبان ونزع معه الايمان من قلبه ، ثم رمى بنفسه وسط اللجة ولكنه لم يتزود بما يعوضه عن الايمان، فلم يكن له مبدأ معين ، ولا خطة واضحة . لقد هدم كل مقدساته ، ولم يبق منها غير الايمان بنفسه . لقد كفر بالله وبالمسيح وبكل الاديان يوم كان يصعد سلال المجد ، ولكنه عاد فتذكرها عندما حلت به النكبة . ترى أهى الصدفة التي جمعت كل هذه الحوادث الغريبة في تلك الليلة التي ليس لها صباح ؟ أم هي معجزة ؟

في استطاعة من يكون قويا هادىء الاعصاب ان ينكر انها معجزة ، ولكن توما لم يكن كذلك فقد كانت كل ظروفه ، وكل الحوادث التي مرت عليه ، وكل الاسس التي بنى عليها عقله منذ الصغر توحى اليه ان هذه لم تكن الا ضربة من ضربات الله .

ورجع الى غرفة مكتبه وتقدم من صورة يسوع بقلب مضطرب ، ثم ركع أمام المسيح المصلوب ، وبعد ان رسم علامة الصليب بدأ ، وهو تحت تأثير تلك النوبة الدينية التي أصابته من جراء الحادثة . يعترف بكل ذنوبه ، وكانت اعترافات رهيبة سردها وهو يرتجف افعالا بصوت يكاد ان يكون مسموعا « رحماك ربي منك المغفرة ، لقد أذنبت وارتكبت كل ما نهيتنا عنه من الخطايا عن تعمد وسبق اصرار ، لقد فقدت الايمان بك أولا ، ثم آمنت بالخطيئة والجهل ، فأصبحت عبدا لذوي الطغيان والظلمة . لقد عبت الجشع ، والته العجل الذهبي ، وآمنت بالشهرة المبنية على الشعوذة والتدجيل ، ولم أضح بقلامة ظفر في سبيل الانسانية حتى سقط فوق رأسي

غضبك . لقد قدم الى من كنت أتهت السوم في أجسامهم ، وأسعى للقضاء عليهم ، حياة محترمة ، وقصرا منيفا ، وثروة لا يحلم بها الكثير منهم . لقد قدموا الي عسارة دماءهم ، وعرق أجسادهم ، فما كان مني الا أن وضعت قدمي فوق صدورهم لاختاد أنفاسهم ، ولم أكتف بذلك بل حاربت من يدافع عن آلامهم ويواسي جروحهم ، ونكلت بهم تنكيلا . لقد عادت من أخذوا على أنفسهم عهدا في بث رسالتك باسم جديد . فما كان مني الا أن وضعت صليبهم على أعناقهم . وقد ارتكبت ما هو أظنع من ذلك ، فقد كذبت حتى عليك وعلى نفسي . لقد كنت ابرر أعمالي بحجة اني أخدم دينك . بواسطة هدم سعادة من يدينون بغير دينك ، وأعطيتهم السم في الدسم ، متغافلا عن قولك « أحبوا اعداءكم » وما كانوا أعداء وأيم الحق ، بل مساكين مخلصين سذجا وايم الحق . لقد أخست من يدافع عن الحق ويدين بالانصاف وينادي بالعدل . فكنت أول من ذاق مرارة الظلم والاضطهاد . لقد خدمت الوحوش والاجلاف فكان جزائي رفسة في بطني ، وتفلة في وجهي ، وهذا هو الجزاء الذي استحقه . لقد سرقت أتعاب غيري بتهديدهم بالقوة التي بيدي . فأخذت من التاجر والصانع وصاحب الملهى جزءا من ربحه رغم انقه . وهددت أصحاب السلطة من الموظفين بفضح أغلاطهم وبث الدعاية ضدهم اذا لم يخدموا اغراضي . فما كان منهم الا أن قدموا الي ثمرة أتعاب أغيرهم رشوة لقاء سكوتي عن غدرهم وخيائتهم ، وكنت أتقاضى الاموال الكثيرة لقاء الخيانة والخيانة فقط . انه عمل دنس هذا الذي كنت أقوم به . انه عمل اللص وقاطع الطريق وعمل الفجرة . لقد قاسمت الناس أتعابهم لاني صاحب جريدة أستطيع أن أقول فلان حسن وفلان رديء . اني لم أخدم الحق ، ولم ادافع عن الفضيلة ، وبذلك كنت كلبا للارشار ، ولو صادف وكان في كل جريدتي سطر واحد في سبيل الحقيقة فاني فعلت ذلك عن غاية خبيسة ونية نجسة ، أو تحت تأثير الخوف . لقد عاشت جريدتي أكثر من غيرها لانها كانت صدى لكل صيحة ، فكاف وكأنها لم توجد قط . لقد

كانت نعمات مضطربة يعزفها خونة غدارون • وكنت أنا حامل المعرف فقط •
فعلت كل ذلك فى سبيل الصعود الى قمة البرج ، وقد كان فى استطاعتي أن
أعيش حياة شريفة غير هذه ، فاللهم رحمتك • الهى ساعدني على التطهر من
هذه الادران » •

وقطع عليه استغراقه فى الصلاة صوت عرف من نبرته ولهجته انه صوت
صديقه الدكتور حسان ، وكان يقول ضاحكا « ماذا يا رجل • يخيل لي ان
النكبة الموهومة التي حلت بك قد افقدتك صوابك • انك تصلي وتدعو •
ويح الانسان انه لا يتذكر الله الا عندما تصيبه مصيبة ، ولكن لا مصيبة هناك
ولا ضرر ، ولم تقع الصاعقة فوق دارك لقد سقطت على بعد مائة متر منه
فهدمت ثلاث بيوت متداعية لفقراء مساكين ، وقد سقط بعض جدار سطح
منزلك من أثر الاهتزاز ، وأصاب رأس طفلك حجر طائش فرماه ، وستراه فى
الصباح يلهو كأن لم تحدث له حادثة •

ثم تقدم من صديقه الجاثي فانفضه وهزه بكلتا يديه وهو يقول مشجعا
« انك تلوح كشبح معذب • تالله انك فى حاجة الى الطبيب اكثر من طفلك •
يالها من ليلة هائلة • لقد استمر المطرست ساعات ولم تهدأ العاصفة الا قبل
ساعتين • ولكن الجو رائع مبهج ، انظر الى القمر ما ابهاه » • ثم فتح النافذة
فهب منها نسيم منعش ، ورفع توما نظره الى النافذة فرأى بقايا من غيوم
خفيفة تلوح وكأنها ساكنة والقمر يركض فى ثناياها ، فيختفي فيها تارة ويشرق
من بين فجواتها تارة اخرى ، وهب نسيم من النافذة مشبع بالرطوبة ورائحة
الاوزون • وكان نسيما منعشا استنشق مقدارا منه فخيّل اليه انه يعود الى
الحياة من جديد • ورن جرس التلفون فى تلك اللحظة فتقدم منه متاثقلا ،
وسمع أحد اصحابه الذين وعدهم بالاجتماع فى داره يقول بان العاصفة قد
أخرته ، وانه سيكون عنده فى الصباح ، فسرت رعشة فى بدنه واصفر وجهه ،
وأراد ان يعتذر ، ولكن صوتا خرج من حنجرتة وكأنه صوت انسان آخر

همس في التلفون « سأكون بانتظاركم » ثم رد السماعة مرتجفا • وطرق
سمعه صوت همهمة من بعيد ، همهمة الرعد الذي كان يصرخ في اذنيه قبل
وقت وجيز •



تمطى خليل وتثاءب، ثم رفع ساقيه والقاهما بملل فوق (التخت) ، ووضع رأسه وكفيه فوق المسند الخشبي الخشن ، ووضع (سدارته) فوق عينيه ليتقي بها أشعة الشمس الساطعة التي تبهر الابصار ، شمس الظهيرة في أواسط شباط . وأحس صاحبه حسام بحركته فسأله دون ان يلتفت اليه « هل غفوت ايها الفتى ؟ » •

فأجابه بفتور « ليتني استطعت ذلك في وسط هذه الضوضاء » • واعترض هاشم ، وكان يتلهى بتقليب صفحات مجلة اسبوعية مصورة، « ما أغرب هذه المتناقضات • هو ذا أفندي أنيق ذو مركز محترم ، لا يرى بأسا في النوم على مقعد خشبي من مقاعد مقهى عمومي مكشوف ، وفي وسط ضجيج العربات ، وضوضاء المارة » •

فأجابه الاول دون ان يتلمل « هلا حفظت نصائحك لتلاميذك ؟ انسي انصحك ألا تبثرها في كل مكان • اجمعها واستعن بها على قضاء ساعة الدرس ، حينما تعجز عن الاجابة على سؤال مخرج ، لكي تخفي قصورك عن تلاميذك » •

وظهر الضجر على الثاني ، فدفعه الى ان يقول « تعسا لهذه الحياة المملة • أهى حياة بشر ذي عقل ؟ أم حياة حيوان أعجم ؟ العمل الكريه ، ثم البيت الجهني بعد التسكع في المقاهي الحقيرة التي لا تمتاز عن الشوارع بغير هذه المقاعد اللعينة التي لا تصلح لغير الوقود ، وبعدم مرور وسائط النقل والمارة فوق أرضها القذرة • لا منتزهات ، ولا نوادي ، ولا ألعاب » واکمل الاول عبارة صديقه « ولا خمر ولا غرام • حياة لا يرضى بها الا اللئام » وقال المعلم « وأصعب ما فيها هو التفكير بطريقة ارتكاب هذه الجريمة الشنعاء ، جريمة القتل » •

وهب الاول من رقدته ، واعتدل الثاني في جلسته ، وصاحا معا « أية جريمة تعني ايها الاحق ؟ » .

فأجابها مسرورا لانه أيقضهما من افكارهما البليدة « هي جريمة التفكير بقتل الوقت يا صاحبي ، انها جريمة قتل كما تريان » . فأجابها الاول مغضبا ، وهو يتأهب للتمدد مرة اخرى « تعسا . وهل تعلمت هذه الطريقة الخيفة لازعاج الناس في قاعات الدرس ايها الاحق ؟ الا سحقا لكل معلم خرف » . واكمل الثاني حملة رفيقه بقوله « ومن أعجب الامور انهم يعدون عملهم هذا متعبا ، فيسمح لهم بالعطل الطويلة ، ولا يعطي لاحدهم من الدروس ما يزيد عن الاربع والعشرين ساعة في الاسبوع ، يقضونها بشئ هذه السفاسف . وها هو استاذنا المحترم يقضي عطلة اسبوعين لا نالها نحن الا برخصة طيبة كاذبة ، ندفع ثمنها نصف دينار لطبيب (خوش ولد) ومن المؤسف ان عدد هؤلاء الاطباء (خوش ولد) قد بدأ يقل في الايام الاخيرة » .

لم تغضب الاستاذ تلك الحملة الشعواء ، فأجابها بكل برود « كذبتما عليكما اللعنة ، فاني متألم جدا لحلول هذه العطلة ، وقد بدأت اكره العطل كرها شنيعا » .

وكانت مفاجأة اخرى وثب الاثنان عند سماعها مرة اخرى وصاحا به معا « أحلف برأس اسامة ان كنت من الصادقين » وكانا يعلمان انه يفعل كل شيء ، الا ان يحلف برأس ابنه اسامة كذبا ، فلما حلف برأس اسامة أيقنا انه صادق ، وحاول الاول ان يفسر هذه الظاهرة العجيبة فقال « اني أعلم ان المعلم يخرف بعد قضائه عشر سنين في التدريس ، وما كنت أحسب ان خمس سنين تكفي لغرس هذه الافكار في رأسه ، وترشحه لاحتلال غرفة في مستشفى المجانين » .

وأجاب هاشم ، وهو يتصنع هيئة جد مضحكة فقال واعظا ، وهو يشير الى رأس خليل ثم الى جسمه بطرف سبابته « العقل الكسول في الجسم

الكسول» ، ثم أشار الى رأس حسام والى جسمه بعين الطريقة قائلا « والعقل البليد في الجسم البليد » ثم قال وهو يشير الى رأسه وجسمه « والعقل السليم في الجسم السليم » ثم أتم عبارته « ولو كان لكما ذكائي وحكمتي لتذكرتما حالا بأن عدد دروسي قد انخفض الى الستة عشر في الاسبوع ، واني ادرس في المدرسة المائية خمسة دروس اضافية أقتاضى على الساعة منها ربع دينار فوق راتبي فيكون دخلي قد زاد خمسة دنانير شهريا ، وانخفض عدد ساعات عملي ثلاثا في الاسبوع . وقد حرمتني هذه العطلة اللعينة من دينارين ونصف دون ما سبب مبرر فلعنة الله على العطل » .

وفتح الاثنان اعينهما دهشة وصاح حسام .

« يالها من فوضى . لقد طلبت وزارة المعارف في هذه السنة ما لا يقل عن عشرين معلما بحجة نقص ملاك التدريس ، ولا بد ان يكون رؤساؤك اكثر خرفا منك ، حتى تنظلي عليهم هذه الخدعة الحقيرة » .

فأجابه هاشم « نطقت بالصواب ، وللمرة الاولى في حياتك ، وهي حكمة سأسجلها لك . ان شدة الخزف تتناسب تناسبا طرديا مع عظم المسؤولية ، وارتفاع المركز . ويجب ان تتعلم طرق الخزف لترفع » .

وبرق في عين خليل فجأة بريق الانتصار وصاح فرحا كمن سقط على كنز « وهل تظنني قليل الغيرة حتى أخفي امر هذا التلاعب عن رئيس دائرتي في وزارة المالية ؟ سأريك أي وطني غيور أنا » .

وظهرت على هاشم علامات المباغطة للمرة الاولى اثناء هذا الحديث ، وقال بلهجة جدية « لقد حسبت الحساب لكل شيء . أما ان تخون عهد الصداقة والمودة فأمر لم احلم به » .

وتدخل حسام لحسم النزاع فقال « أما أنا فأرى ان يزكي هذا المبلغ المسروق من خزانة الدولة بمبلغ يصرفه هاشم على ابناء الدولة (يعني نفسه

وريفقه (فلتتفق على مقدار المبلغ ، وعلى كيفية صرفه ، فتكون بذلك قد حللنا مشكلة ذات عواقب وخيمة » .

ويظهر ان هاشما سلم بالقدر عندما رأى ان لا مفر له من هذه الكارثة التي نزلت عليه من السماء فقال « هيا واسرعا في تقدير هذا المبلغ الذي يخفف من حرارة هذه الغيرة الوطنية المفاجئة ، وكونا منصفين » .

وتعاون الاثنان على ترتيب البرنامج ، وتم القرار على ان تكون هذه الزكاة حفلة عشاء فيها من الالوان ما تضيق بها مائدة مساحتها واحد في اثنين ، يسبقها عرق وويسكي وكونياك ، نصف زجاجة من كل نوع ، ثم تكمل السهرة في احدى المراقص الراقية . ولما قدمت البنود الى هاشم للموافقة لاحظ الاثنان ان ريفقهما الشحيح لا يبدي مقاومة تذكر ، ورأى هاشم ان من الحزم ان يبطئ في اعطاء الجواب ، ويخفي آيات السرور التي كادت تفضح ما يجول بخاطره . وأخيرا أجاب بهيئة المستلم « الامر لله الواحد القهار ، ولكن من يضمن لي عدم خيانتكما بعد ان رأيت منكما ما رأيت . عليكم ان تقسما بكلام الله أولا ، ثم بشرفكما ثانيا ، وسوف لا اطمئن حتى أرى أيديكما فوق كلام الله ، واتما تقسمان » فسألاه :

« ومن اين تأتي بالقرآن ؟ »

وراق له ان يسخر بهما انتقاما فقال « ان القسم يكون اما بالمصاحف أو بأي أداة كتبت عليها آيات قرآنية ، وها هو المذيع يتلو (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) فيصح ان نعتبر الراديو مصحفا فضعنا أيديكما عليه واقسما » .

ورأى هيئة الاستنكار في نظراتهما ، فأقسم برأس اسامة أن يمزق المعاهدة اذا لم يفعلا . ورأى الاثنان ان الحكمة تقضي عليهم بعدم اغضابه بعد ان وصلا به الى هذا الحد ، فنهض الثلاثة واقتربوا من الآلة ، وأدى الاثنان القسم المطلوب ، وهما يتلفتان خوف وجود من يشهد هذه المهزلة ، ويسمع

بهذا القسم العجيب • وبعدها عاد المعلم الى لهجته الساخرة فقال « أما وقد كنتما ولدين مطيعين ، وتلميذين فجيئين فلا كافتكما بالحسنى ، ولتكن هذه الحادثة عظة لكما تذكركما بالطاعة والاخلاص » •

ثم اعتدل وتصنع هيئة الوقار وقال « سنزيد مساحة المائدة مترا في الطول وآخر في العرض ، ولنبدل نصف الزجاجة من كل انواع المشروبات بزجاجة كاملة ، ولنصف شخصا واحدا لمنادمة المدعويين الكريمين ، وخوفا من أن يتطرق الشك الى نفسيكما بهذا الكرم الحاتمي ، نضع هذا الصك بين يديكما ليكون برهانا قاطعا لا تأويل فيه ولا شبهة » وأخرج من جيبه ورقة ناولها الى رفيقه فتلاقفتها ايديهما ووجداها رسالة بامضاء (ابن الشعب) يدعو فيها رفاقه الثلاثة ، بمناسبة قدومه الى بغداد ، الى حفلة عشاء ومنادمة • ووجدا ألوان المأكول والمشروب مدونة في الرسالة ، وكانت كلها مطابقة للشروط ، وكان منظرهما مضحكا ، ولم يسع الاول الا ان يقول « انك ترى انها حيلة دنيئة ، ولكن شروطك كانت واضحة ، ومع ان من حقي ان انقض الشروط ، ولكنني ساحافظ عليها اكراما لهذا الرأس الذي زعزع ثقتي بالكلام المأثور عن المعلم والحلاق والاسكافي والنداف » •

وقال الثاني « اوافق بدون قيد ولا شرط » •

وكان مساء ، وكانت وليمة فاخرة يسيل لها اللعاب وقال هاشم عند أول دخوله الدار « أكاد اتذوق خمرته اللذيذة ، واني لأشم رائحة شوائه ، ولابد ان يكون من ضمنها الدجاج ، لقد اشتهر بالكرم والسخاء يوم كان تلميذا لا مورد له غير ما يوجد عليه به أبوه ، فكيف به الآن وهو ذو الراتب الضخم ، والمركز العظيم ، والصيت الطائر ، تالله اني لمشتاق جدا الى عناقه ، ولو اني الى طعامه وشرايه أشوق » •

ورأى خليل فرصة لشن غارة اخرى على صاحبه فقال « يا لك من معلم

مبطان ، تقدم الاكل على الصلبة ، والخمرة على الصديق ، انك ضريبة باهظة على من توقعه المقادير في طريق صحبتك » •

وقال حسام وكان يفكر اثناء الحوار « أما أنا فأشتم رائحة مؤامرة سياسية يقوم بها صديقنا الحميم ، وراءها راتب عظيم ، ومركز جسيم ، وسمة طيبة ، والا فما هي العلة في نقله الى بغداد بعد ان قضى خمس سنين خارج العراق ، موطئا في السلك الخارجي • لقد ثبت انه من المغضوب عليهم في هذا العهد ، وانه ذو صلة متينة بحزب المعارضة الخفي الذي يسعى لاسقاط الحكومة ، ومتى تم اسقاطها عوض الخسارة التي لحقت اضعافا مضاعفة » •

فأجابه هاشم بأسلوبه الهازل الماكر

« يالك من كلب صيد سياسي سليم المنخرين • وأقسم أن الامر لو آلهي وأصبحت رئيس حكومة ، وليس هذا بالبعيد في هذا البلد العجيب ، لخلقت لك وظيفة تناسب هذا الاختصاص فيك ، ولجعلت منك جاسوسا يكشف المؤامرات بمجرد الشم ، وحينما احكم على اعدائي بالسجن والتعذيب اقول حكمت المحكمة على المجرم فلان بالجلد كذا وبالعودة على الخازوق مرات عددها كذا ، لان مدير الشم العام قد شم في بيته رائحة قوية للدعايات المضرة ، حتى انه عطس عدة مرات لشدة تأثيرها في خياشيمه » •

وقطع عليه الحديث دخول صاحب الدار ليفرقهم بعبارات الترحيب والاعزاز والشوق مصحوبة بالضحك والابتسام ، وقال خليل وهو يشد على يده « يا للعجب ! كم غيرتك هذه السنين الخمس ، لقد زدت وزنا وصحة وجمالا » •

وأضاف حسام :

« ومجاملة في الحديث » فاكمل هاشم « ووقارا » •

فأجابه مسرورا « وهل تنتظرون مني أن أبقى كما كنت طول حياتي ، صيلا لا يهتم في دنياه بغير المزاح والنكات واللهو • لقد تغيرتم انتم ايضا » •

فرجع هاشم يده محتجا وقال « على رسلك • نحن اناس مشهورون بالمحافظة على المبدأ ، فخليل لا زال أرعن كما عهدته ، كسولا سليط اللسان ، ولم يتبدل منه غير طول قامته وما يناسب ذلك من زيادة في حماقة ، وكثرة اسرافه وتبذيره • أما حسام فلا زال يشم رائحة شي في كل حادثة ، وها هو قد اشتهم رائحة مؤامرة سياسية في دعوتك ، وهأنذا كما تراني لم ازد الا اسامة ، وهو ابني وابن ام اسامة كما لا يخفي على فطنتك » •

واعترض خليل « أما حضرته فيعتقد انه فيلسوف حازم ، ويتواضع كثيرا حينما يقول لك بانه لم يتغير ، والحقيقة انه قد اصبح ناقدا فظيما ، واني على يقين بأن ام اسامة تحتل من سخافات الامرين وأجرها على الله » •

وتصنع هاشم الحدة وقال « لا تخض في عرض الناس • فمالك ومال ام اسامة ، هي قانعة بي ، ولم تشك لك حالها ، ولو كنت شاطرا لاقنعت امرأة باحتمال فضاضتك وسلالة لسانك » •

فاجابه ضاحكا « اني لا أوئن بالزواج ، لاني لا استطيع ان اصبر على امرأة واحدة ، فالاجدر بي ان اتزوج كل شهر امرأة على الطريقة الحديثة » • فسأله صاحب الدعوة مازحا « ولماذا لا تتزوج منى وثلاث ورباع فترضي هذا الميل في نفسك ، وترضي الله ، وتعمل عدة فتيات من بنات وطنك لا مورد للرزق عندهن » ، فأضحكتهن التكتة • وأجاب هاشم « لانه يخاف ان يرمى بتهمة الرجعية وهو الشاب الحديث (موديرن) من آخر طراز » •

وأضاف حسام : « اما انا فقد مللت زوجتي ، ولما صارتها بالامر رضية ان اتخذ لي خلية الهو بها في الخارج للتغير ، بدلا من ان اتزوج باخرى » • فهاجمه هاشم بقوله « هذا هو الظلم بعينه ، ساخير ام اسامة بالامر ، وستلقي في اذني زوجتك محاضرة طويلة في حقوق الزوجية وواجباتها ، وكيفية السيطرة على الزوج » •

وهاجمه خليل بقوله « انك وزوجتك وكل عشيرتك نكبة على الاصدقاء بسفاسفكم واتقاداتكم ، والقائكم بذور الفتن في كل مكان » •

فاجابه دون مبالاة كعادته « أما أنت فنكبة على أذان اصدقائك بما
تلقيه من شتائمك القبيحة التي تطلقها في كل فرصة » .

وأراد صاحب الدعوة أن يبت في الامر فقال « الحقيقة ان الزواج
ضروري لكل منا ، والاطفال يكبحون جماح طيشنا ، والاسرة تحملنا على
الشعور بالمسئولية . لقد تغيرت كثيرا عندما تزوجت ، ولما أصبح لي أربعة
أطفال شعرت ان غشاوة ترتفع عن عيني » .

فاعترض خليل « ولماذا لا تقول ان غشاوة قد نزلت على عينيك فكلنا
الامرين محتمل » .

ورأى هاشم مجالا للانتقاد فقال « ان كنت اتفدك على شيء فعلى
الاكثار من الاطفال يا بني . ان الجيش يحتاج الى قواد قليلين وجنود كثيرين،
ولو كان لك عشرة اطفال لاصبحوا جنودا حتما ، أما ولك اربعة اطفال
فسيكونون ضباطا يرتب لا بأس بها . اما اسامة فهو القائد العام ، والقائد
العام لا يكون الا واحدا . علينا ان ننجب القواد والعطاء ، وعلى الشعب
ان ينجب الاتباع . ألا ترى ان المثرين لا ينجبون الا ولدا واحدا بينما الفقراء
ينجبون العشرات » .

وأراد صاحب الدعوة ان ينهي الحديث فدعاهم الى قاعة الطعام .
فقال هاشم « الى الامام ايها البطل تقدم علينا وسوف لا نعصي لك
امرا » ولم ينس حسام ان يقيس ابعاد المائدة ، ويعد اصناف المشروبات
لثلاثين .

وتكلم الكل على المائدة عدا هاشم ، فلما سئل عن ذلك اجاب « والبس
لكل حالة لبوسها » .

وعندما رجعوا الى غرفة الاستقبال مرة اخرى وتراموا على مقاعدهم
الوثيرة يرتشفون القهوة بعد الاكل قال صاحب الدعوة فجأة « ما رأيكم

في الحكومة الحاضرة ؟ » فاجاب خليل « انها اتعنس حكومة تولت الحكم •
لقد استمرت بالقوانين والحقوق ، وداست الكفاءة فى سبيل المحسوين
والمنسوين » •

وهمس حسام فى اذن خليل « ها قد اشتدت الراحة » •
وقال خليل « ألم يبلغكم خبر السرقات العلنية القانونية منها وغير
القانونية ؟ » •

وقال هاشم « وزارة المعارف ؛ ويا ويح وزارة المعارف ان أمرها
لعجيب ، وان داءها لغريب ، ولو وليت عليها لقومت اعوجاجها » •
فتبسم صاحب الدعوة وقال « اذا فأنتم متردون عليها وتحبون
انساقطها » •

فأجابه حسام « وهل عرفنا الا متردين على كل حكومة مهما كان
نوعها ؟ وهل هناك خطة ما ودور تقوم به ؟ تكلم ونحن على استعداد » •
فقال المضيف « الحقيقة ان هنالك مؤامرة واسعة النطاق لانساقطها ،
ولما كانت الحريات مخنوقة ، والاحزاب مضطهدة فلا مجال لغير المؤامرات
السرية ، وسيساعدنا الجيش ، فعليكم بالدعوة سرا لفلان وفلان من
الشخصيات البارزة ، وستكون اولى خطوات الاصلاح ان تتولوا شؤون
الدوائر التي تشغلون فيها لانكم أدرى الناس بنواقصها ، وستم بعد ذلك
بقية خطوات الاصلاح على أيدي هؤلاء الرجال المخلصين وبمساعدتكم » •

فأجاب خليل « اني أعرف الكثير من الفضايح المستورة في وزارة المالية
وسأنشرها سرا » وقال حسام « أما انا فسأقوم باستطلاع الآراء وحس
الانباض لاختباركم بأسماء من يعادونكم لتتخذوا منهم الحيطة والحذر ، ومن
يساعدكم لترحبوا بهم » •

وهتف هاشم « لابد أن يكون في الامر مظاهرة يقودها التلاميذ

الكسالى بكل نشاط عندما يوعدون بالنجاح في الامتحانات » •
وكانت الحميا قد صعدت في رؤوسهم فبدا الحماس في لهجّاتهم وصاح
خلييل :
« سأعلم هؤلاء السراق من أين تؤكل الكتف ، هؤلاء الذين لا يتهيّبون
من سرقة أموال الحكومة جهارا » وصاح هاشم بنفس النبرة « ان يسرق فقد
سرق أخ له من قبل » •

وانتهت الجلسة بتعداد ماوىء الحاضرين في الحكم ، ومناقبة
القامين • وحلم كل منهم بالمناصب التي سيتسّمها (لاصلاح الاحوال)
وقطع دابر الشر ، ولم ينس هاشم أن يسأل صاحب الدار عن رأيه في (فلان)
في وزارة المعارف • وما أجابه انه من أصدقائه ومن جماعة المتآمرين ، هلل وكبر
اذ أيقن ان راتبه سيزداد وان عدد دروسه الاضافية سيرتفع ، وان عدد
دروسه الرسمية سينخفض • وتلك لعمرى أول بوادر الاصلاح وطلائعه •



دوى صوت صافرة القطار تنذر المسافرين بالرحيل ، وكان لذلك الدوي أثر جميل في اذن ابراهيم ، فهو اشارة الانتقال في حياته ، من دور الدراسة والتلمذة الى دور الرجولة والعمل . انتقال من دنيا المتاعب والسهر على الدروس الى دنيا الراحة والسهر في المتنبات والملاهي . ولم يخطر في باله ان الحياة العملية قد تكون اكثر من حياة الدراسة مشقة ، وأحفلها بالمتاعب والآلام . انه في طريق العودة من لندن الى بغداد بعد حيازة أعظم شهادة علمية في فن الزراعة من ارقى جامعات بريطانيا . وقد حرص على ان تكون شهادته الاولى من نوعها ، وارقى شهادة علمية حصل عليها طالب عراقي حتى الآن . لقد انتهى دور الزراعة وأتى دور الحصاد على حد تعبيره . لقد صب من العلم من رأسه قدرا يفوق كلما يحويه عقل عراقي حتى الآن ، وذلك بشهادة جامعته الرسمية ، وهي مستند لا غبار عليه ، لا يمكن ان يعترض معترض على صحته ، أو يشك في قيمته .

ما أغرب حياة الدراسة ؟ وما أحفلها بالذكريات ؟ ان من الكلمات والاقوال ما ينطبع في عقل الصغير ، ويبقى ذا أثر في توجيه حياته والتأثير في أعماله طيلة حياته ، ولو سأله سائل هل يتذكر المعلم غضبان أفندي وهو يكرر كلمته التي اعتاد ان يقولها لكل تلميذ كسول « ابق كسلانا وسوف لا تكون في مستقبل حياتك اكثر من شرطي » ، أو قوله لكل تلميذ مجتهد ، وقد كان هو أحدهم ، « غفارم ابني ستكون وزيرا في المستقبل ولا تنس ان تنظر بعين العطف الى رفيقك الكسول فتعينه خادما في دأرتك » لضحك ملء شديقه ، واعترف بأنه يتذكرها جيدا كأنه قد سمعها البارحة ، ولكن لو قلت له بأنه ما زال تحت تأثير هذه الكلمات ، خاضعا لقانونها ، لانكر بشدة ،

لا لسبب الا لان غضبان أفندي ، وامثال غضبان أفندي أحط من أن يؤثروا في حياة رجل عظيم مثله .

واختفت لندن عن نظره مع غرف الدراسة والكتب والكراريس كما اختفت تلك الحياة المملة حياة الدراسة الطويلة المتعبة ، وها هو يستقبل حياة العمل التي لا تتعدى في نظره تقديم شهادته الى وزارة الزراعة ، ليكون مرشحا لتبوء اكبر منصب حكومي في وزارة الاقتصاد بحق . سيفرض على الناس ان يسموه دكتورا . ويجبر المقالات بامضاء دكتور من جامعة (.....) وقد ينفار منه بعضهم فيسعى للحصول على مثل شهادته ، ولكنه سيكون الاسبق ، ويحتل المركز المهم قبل غيره ، وعندها يشرع في اتخاذ التدابير الكافية ، ويضع خطة دفاع محكمة لصيانة نفسه ومركزه من المنافسين .

وكانت هذه الآمال كما يرى القارئ حلوة معسولة لا يشوب صفاءها كدر ، فطبت على وجهه أثرا جميلا فكان يكثر من الابتسام غير حافل بغيره من المسافرين . وكان في عربته مسافران دفعهما الفضول الى مراقبة هذا (الذي يظهر من سحته ولونه الشديد السرة انه عربي أو هندي) وقال أحدهما لصاحبه مازحا .

« ما أسعد هذا الشاب . لابد ان يكون ابن أحد راجوات الهند . انه في طريقه الى وطنه لاستلام مهام امارته بعد موت أبيه . ألا تراه يحلم بالجواهر والحريم ومحفات الذهب ؟ » فأجابه رفيقه « اراهن على انك مخطيء فيما ذهبت اليه ، فهو من برابرة شمال افريقيا عائد الى امارته وحريه بعد نزهة في اوربا » . واعتزما ان يسألاه ، وانتهزوا فرصة لنخوض معه في الحديث . ولما سألاه عن جنسيته وهويته أجابهما متباهيا بأنه قد حاز شهادة الدكتوراه في العلوم الزراعية ، وهو عائد الى وطنه العراق ، وكانت كلمة (عراق) غريبة على مسامعهما فقال أحدهما وكان سكيما عتيقا « اني أتذكر مسكرا بهذا الاسم ، ولعله يصنع في بلادكم ؟ » فأضحكه جوابه ، وأراد ان

يفهمه أهمية بلاده بطريقة أخرى فقال « هي (ميزوبوتيميا) بلاد النفط » فأجاباه معا « ولماذا لم تقل ذلك أولا ؟ » وأضاف أحدهما « لاند ان تكون بعض أراضي شركة النفط من املاكك » . فأجاباه مازحا « لا ولكن قسما من وارداتها سيؤول الي اذ سأكون موظفا كبيرا في حكومة العراق وأتقاضى مرتبا ضخما » .

- ٢ -

انكب الدكتور ابراهيم فوق أثناء الطعام ، ومضى ينقل الملعة بين فمه والاناء بسرعة لا تسمح له بالمضغ ، وتذوق الطعام ، وكان يأكل كمن يقوم بعمل مكروه لا مناص من القيام به . ولم يكن للأكل في نظره قيمة اذا قورن بالاجتماع الذي سينعقد في داره في ذلك اليوم .

لقد تأخر في الدائرة اكثر من المعتاد ، ولم يتأخر لانجاز ائتماله المتراكمة ، وانهاء واجباته المتأخرة ، بل قضى الوقت في الاحتفاء ببضع شخصيات بارزة ينتظر ان يكون لها شأن في المستقبل . وقد تعرف اليوم بشخصيتين خطيرتين ، زيادة على الشخصيات الكثيرة الاخرى . وما كانت زيارة هؤلاء لامور تتعلق بوظيفته ، بل كانت زيارة شخصية للمحادثة ، وبث الاشواق ، واحتساء القهوة ، وتدخين السكاير ، والخوض في الامور السياسية والاجتماعية ، ورواية الاخبار العالمية ، وابداء الآراء الشخصية في كل ما يتعلق بذلك . وقد ينشب جدل في مثل هذه الجلسات ، فيعلو الصخب ، ويتكلم كل خمسة منهم مرة واحدة ، ويفوز منهم من يعلو صوته على أصوات الباقين ، يجري كل ذلك والباب محجوز دون ارباب المصالح والمراجعين ، وكل ذي عمل رسمي . ويقوم الحاجب بواجبه في مثل هذه الظروف قايما يرضي البيك ، فعندما يزور رئيسه ذوو الوجاهة الذين يعرفهم جيدا من كروشهم ، وظاراتهم وملابسهم الغالية الثمن المبهدة الهندام ، ولهجاتهم المملوءة غطرسة وكبرياء ،

بيجز الباب دون بقية المراجعين •

وقد تواعد مع زواره على الالتقاء في بيته في ساعة معينة من ذلك اليوم
لامر هام • وها قد مضى الوقت ، ولم يبق على موعد زيارتهم غير بضع دقائق •
وقدموا أخيرا فاستقبلهم من الباب مرحبا ، وكانوا عشر شخصيات
بارزة بينهم ثلاثة محامين ، وصحافي واحد ، وثلاثة وزراء سابقين وثلاثة نواب ،
ولا بد أن يكون القارئ قد أدرك أن اجتماعا كهذا هو أحد الاجتماعات
الخطيرة ، وكانت علنية آنذاك ، ولكنها أصبحت سرية في الوقت الذي تعطلت
فيه الأحزاب ، وشلت حركات المعارضة ، فاستحالت الى مؤامرات بصورة
زيارات لا يصل خبرها الى جاسوس ، ولا الى رقيب ، تعقد في المنازل بدل
الملتديات ، وتدون محاضرها في العقول بدل السجلات • ويظهر أن الحكومة
لم تعلم حين سدت الأحزاب أن غرف الاستقبال في منزل كل شخص بارز
ستكون دارا لحزب سري مستقل •

ودار الحديث حول السياسة والساسة ، ودار الحديث حول أعمال
الحكومة ، فاذا بها نقائص ومثالب ، وتناولوا سيرة الوزراء ، فاذا هم
لا يزيدون عن أرعن وأحمق ، أو خائن غدار • أو سارق كذاب ، أو منافق
خيث ، أو أناني لعين ، ولما بحثوا في أمر الإصلاح اتفقوا جميعا « على أن
الملة هي تلك الوزارة التي يجب أن تسقط ، ويجب أن تحل الأخرى محلها
ليتم هذا الإصلاح المنشود ، أما الوزارة التي ستحل محلها فقوامها اصدقاؤهم ،
والرجال الذين يتصلون بهم ويعملون لهم • وقرروا أن يشنوا غارة شعواء
على تلك الوزارة بغية إسقاطها • ووزعوا الأعمال بينهم •

وكان من نصيب صاحب الجريدة أن يكرس صحائف جريدته لكل
ما يكتب في مدح المعارضة وذم الحكومة ، وأخذ كل على عاتقه أن يقسم
بالهجوم من ناحية ، وكان أكثر الجميع اهتماما بالدور الذي اسند اليه
الدكتور ابراهيم ، فقد شرع بتنفيذ مهمته حالا بعد خروج زائريه ، فحبر
مقالة ضافية يتفقد بها شؤون الزراعة • ولم يعتمد على احصاء أو تقرير أو

بحث أو تحر ذاتي • فهو اكبر من ان يعتمد على مثل هذه الامور ، والا فما فائدة الشهادة العالية • ولم يكتف بمقال واحد بل كتب مقالة اخرى يتهم الحكومة بها بالتقصير والاهمال ، الامر الذي أدى الى حدوث الحادثة الفلانية والفلانية ، ولم يكتف بالكتابة في تلك الصحيفة بامضاء مستعار ، بل مضى يتحدث في كل مجلس بلهجة خطيب مصقع ، يشرح نقائص الحكومة ، وتقصيرها ، وعدم اعطائها المجال للاخصائيين وحملة الشهادات للخدمة ، بحيث يترك السامع مرتاحا الى فصاحته وبلاغته ، معتقدا ان عهد العراق الذهبي لا بد ان يكون قريبا • وكثيرا ما يندفع رجل متحمس طيب القلب من السامعين الى التعليق على كلامه فيقول « ها هم اولادنا قد عادوا من معاهد الغرب يحملون ثمرات العلم والثقافة لينهضوا بالبلاد نهضة مباركة » •

- ٣ -

فرغ الدكتور ابراهيم المدير العام للشؤون الزراعية في وزارة الاقتصاد والمواصلات من كل واجباته اليومية التي لا تتعدى التوقيع على بضع رسائل رسمية ، ثم انكأ على كرسيه ، واستغرق في تفكير عميق ، وعلى وجهه امارات الغبطة والانشراح والهدوء • لقد وثب وثبتين رائعتين بمدة وجيزة لا تتجاوز الاربعة أشهر ، وأصبح مديرا عاما ، خطير الشأن ، ذا راتب يحسده عليه كل أقرانه في السن والتحصيل ، ولم يكن لديه من الفرور ما ينسيه الكيفية التي نال بها ذلك المنصب ؛ فلولا الوزارة التي اشتغل لها كثيرا لما حطم بمثل هذا المنصب ، فكان حتما عليه ان يفكر بأخذ الحيطة من غدر الايام وتقلبات الزمان ، فلو قدر لهذه الوزارة أن تسقط لسقط معها ، وذهبت كل مساعي ادراج الرياح ، اذن فيجب عليه ان يحتاط للمستقبل ، ويحسب حسابا للمنافسين ممن سيتخرجون من مدرسته نفسها ، حائزين على نفس شهادته ، ويجب ان يحسب حسابا لاعدائه الذين اغتصب مراكزهم ،

وداس على حقوقهم أثناء ركضه السريع نحو القمة ، فكان من الطبيعي ان يفكر في وضع خطة محكمة تقيه شر المفاجآت ، ويتنهر كل فرصة لاحكام تدابيرہ ، وملافاة النواقص في خطته .

اما خطته تلك فتتجسر في التعرف بأصحاب الشخصيات البارزة ، والاكتثار من زيارتهم ، والكلام في حضرتهم ليحدث له أثرا محسوسا في عقولهم وأفئدتهم ، ثم الانتماء الى كل الجمعيات والمؤسسات الخيرية من وطنية او دينية او ثقافية ، ودراسة الانعام التي تطرب القوم ، ليضرب عليها في الاوقات الملائمة فيكون خطيب الساعة المصقع ، وكان من خطته المحكمة أيضا أن يكتسب ثقة أصحاب الصحف والجرائد المحلية ، وكانت طريقته في ذلك أن يشترك في كل تلك الصحف ، وينشر المقالات الضافية على صفحاتها، ويوزع الاعلانات عليها توزيعا عادلا ، وكانت اولى المواضيع التي كتب فيها تدور حول احترام أصحاب الشهادات ومنحهم الثقة المطلقة ، ثم انتقل الى مشاريعه الجبارة لتلافي النواقص الزراعية ، تلك المشاريع التي يعلم هو وكل الناس انها ليست الا حبرا على ورق ، ولا يقصد منها سوى اقناع السذج بأن الرجل قد شرع ينفذ ما وعد بتنفيذه قبل تسنمه ذلك المنصب ، تلك المشاريع التي كان هو أول العارفين باستحالة تنفيذها . ولم يكتف بذلك بل كان يسرع في خدمة أصحاب هذه الجرائد عندما تباح له الفرصة كتوظيف قريب، او ترفيع نسيب ، وهكذا أصبح (خوش ولد) عند كل أصحاب الصحف . لا يخلو عدد من أعدادهم من التنويه بذكره ، وبث الدعاية له . وتوج كل هذه التدابير بالسيطرة على البعثات لدراسة فن الزراعة ، بحيث لا تبعث الحكومة أحدا لهذه الدراسة دون اذنه وموافقة .

وبعد أن عرف القاريء تفاصيل خطة الدكتور ابراهيم لا يستغرب أن يراه عضوا فعالا في جمعية الشبان المسلمين لانه مسلم غيور على دينه ، وفي جمعية الشبان المسيحيين لان زوجته انكليزية متدينة ، وفي جمعية (التريمينس) لانه رجل ذو أخلاق عالية ، وفي نادي المثني بن حارثة الشيباني لانه قومي

صميم ، ويحمل حملات شعواء على الشيعة ويلقبهم بالاعجام أمام المتعصبين من السنة ليكسب ثقة طائفته ، ويعترف أمام الشيوعين بأنه كان شيوعيا عندما كان تلميذا ، وقد تجرأ وسأله أحدهم مرة كيف يستطيع أن يوفق بين كل تلك المبادئ المتضاربة المتناقضة ، والنوادي والجمعيات المختلفة الغايات فأجاب وهو يتسم « ان ولي عهد انكلترا (البرنس اوف ويلز) كان يفعل كل ذلك أيضا » .

وسوف لا يستغرب أيضا أن يرى المرشحين للبعثات يمتازون بغياوتهم وقلة تحصيلهم وضعف بنيتهم ، فيذهبون ويعودون كما اتوا بعد ان يكبدوا خزينة الدولة مبالغ طائلة ، وبذلك يقوم البرهان على ان الدكتور ابراهيم عبقرى فذ ، والا لما تمكن من تحصيل تلك الشهادة بمثل تلك السهولة .

— ٤ —

وحدثت في أحد الايام حادثة أثارت سخط الدكتور ابراهيم وأخرجته عن طوره ، فقد تقدم اليه شاب يحمل شهادة تماثل شهادته بل تفوقها درجة ، ومن نفس مدرسته يطلب عملا في دائرته . واستغرب أن يخترق هذا الشاب كل مصائده ويفلت من حباله وهو غافل ، وأراد أن ينجي على نفسه باللائمة لولا أن عرف ان الشاب قد درس على تفقته الخاصة . ف شعر كأن كابوسا قد ازيح عن صدره ، اذ ليست الحكومة مجبرة على توظيفه في مثل هذه الحالة ، فأخبر الشاب وهو آسف بأن كل المناصب في دائرته مشغولة بموظفين أكفاء ، ولم ينس أن ينصحه بتقديم طلب الى وزارة المعارف لتعيينه مدرسا للغة الانكليزية مثلا .

وخرج الشاب غير يائس ، فهو عراقي صميم يعلم كيف يصبح المستحيل سهلا ، والمنوع متبوعا ، وما هو ضد القانون قانونيا مشروعا . فالتجأ الى أهله وأقاربه ، واثارهم للبحث عن رجل كبير يتوسط بينه وبين هذا الدكتور

الدكتور ولم يصعب على هؤلاء أن يجدوا زعيما طيب القلب هو من أصدقاء الدكتور ومن يحسب لهم حسابا •

وغضب الدكتور عندما رأى ان علاقته برجل كبير على وشك التورب بسبب هذا الاحتمق الملحاح ، فلم يتورع من أن يكذب عليه ويقول « لو أتيتني في غير هذا الطلب ، او في ما هو أعظم منه لما ترددت في خدمتك ، ولكن هذا الشاب شيوعي ملحد يريد الاتصال بالفلاحين لبذر الشيوعية بينهم ، فتعيينه في وظيفة زراعية ليس الا تمهيد الامر له ، ووضع سلاح قوي في يده » •

وأصاب سهمه الهدف ، فقد كان الرجل شديد الكره لهذه الكلمة ، ولكل ما يتصل بها ، فخرج غاضبا وهو يقسم أن يطرد من كلفه بهذا التوسط طردا شنيعا •

واضطرب الشاب الى البحث عن رجل آخر لا يسهل خداعه ، ولانظلي عليه الاكاذيب بسهولة ليقوم بالمهمة التي فشل بها الزعيم • فتوسط بصديق ، وتوسط الصديق بصديق ، وتوسط الصديق الاخير بصديق آخر من عائلة ارستقراطية بارزة ، فكلف هذا اباه بالمهمة ، ولم يسر الاب بأسا من القيام بهذه المهمة الخيرية لوجه الله • فقصد صاحب السعادة ، وطلب منه أن يفسح المجال لهذا الشاب الذكي ليحتل منصبا في دائرته • وعندها زاد حتى الدكتور ابراهيم ، لعن الساعة التي ولد بها هذا الشاب ، ورد على التماس زائر بقوله: « وكيف اصطادك هذا الشيطان ؟ انه مختال ينتمي الى جمعية طائفية تسمى لفصل الجنوب عن الشمال ، والحاقة بالعجم ، فهل تريد مني أن أعطيه فرصة لشر سموه ؟ » •

وكان ذلك الرجل سنيا متعصبا ، يكره اتباع المذهب الجعفري لاسباب كانت دينية ، ثم أصبحت قومية ، ولا نعلم ما ستصبح في المستقبل ، فانقلب على ذلك الشاب المسكين بدلا من أن يكون عونا له • وفهم الشاب أية أساليب دينية يكافحه هذا الرجل بها فعلى الدم في

عروقه وأقسم أن يتقم لنفسه ، وأسرع الى دائرة الدكتور وقد أعماه الغضب ، فدخل عليه بدون استئذان ورقعه عن كرسيه كما يرفع جرواً ، ورمى به الارض ، وأخذ يكيل له الصفعات والرفسات ، ولم يخلصه من يده الا أربعة من حجاب دائرته (المحترمة) • والقي الشاب في غياهب السجن جزاء ما جنت يده ، وقدم صاحب السعادة تقريراً مسهباً الى وزيره يشرح به سبب هذا الاعتداء ويدعي ان حرصه وغيرته على صالح دائرته قد عرضه لمثل هذه الاهانة ، وان هذه الحادثة ستزيد من صلابته ودفاعه عن الحق ، وانه لا يبالي حتى بالموت في سبيل اداء واجبه ، وان التضحية لا بد منها على كل حال •

وأوحى له تلك الحادثة طريقة في التوفيق بين ارضاء الناس والتخلص من المسؤولية ، فاذا تقدم منه رجل قوي الجانب يطلب خدمة فيها خطر على صالح دائرته ، ويشك من افعال الحكومة لها ، يكلف أحد مرؤوسيه بانجاز المهمة بطريقة لا تلقي تبعاتها على عاتقه ، فاذا مرت الحادثة بسلام نال شكر صاحب المهمة وتقديره ، واذا افضحت فالويل للمرؤوس المقصر •

— ٥ —

هكذا أصبح صاحب السعادة ممن يضحون حتى بكرامتهم الشخصية ، ويعرضون أنفسهم لاشد الاخطار في سبيل صالح الوطن ، مثال الدقة والنشاط في عمله ، يعلم الكل باغلاظه ، ولكن لا صحيفة تنتقده ، ولا موظف يحاسبه ، ولا جمعية تهاجمه ، ولا زعيم يسعى ضده • وعلى الرغم من تلك الانتصارات الباهرة التي أحرزها الدكتور ابراهيم ، حامل أول شهادة في فن الزراعة ، في ميدان السياسة ، فقد بقيت حادثة إهائته والاعتداء عليه تنغص حياته • اذ دلته على ان كل تلك الاحتياطات لم تجعل منه رجلاً مهيباً مرهوباً الجانب • فالراتب الضخم ، والمركز المحترم ، والسطة ، قد تحيطه بالمداهنين والمتملقين الذين سرعان ما ينكشف زيفهم عند زوال النعمة وحلول النقمة •

ولكنها لا تكسبه شخصية محترمة • فأدرك انه يستحيل أن يكون محبوبا
ومحترما ، وصاحب منصب عال بنفس الوقت ، ففضل الامر الثاني ، وكان
بكل شخصيته وأعماله وسلوكه مثالا حيا لبرج بابل من الرأس الى اخمص
القدم •



جلس أمر الفرقة في خيمته ، وأمامه أوراقه وخرائطه مبعثرة فوق منضدة السفر ، وكان مرتديا كسوته العسكرية الانيقة ، معلقا فوق صدره وكفيه كل شاراته وأوسمه ، وكانت بين يديه قضية عويصة ذات صلة مباشرة بالحركات العسكرية التي وضعت تحت قيادته ، وهي قضية رجل متهم بامداد الثورة التي اوكل اليه أمر اخمادها بالعتاد والسلاح . وكانت أدلة الاثبات ضعيفة ، والقضية معقدة مربكة . ولم يكن لديه من الوقت ما يمكنه من التفرغ لها لكشف غوامضها وأسرارها ، حتى يزن التهمة بميزان العدل ، ويوقع العقاب المناسب على المتهم ، لان الحركات العسكرية تتطلب اجراءات سريعة لازالة العوائق والموانع بأي ثمن .

وبعد برهة تملل في مجلسه وعيس ، فكان ذلك دليلا على نفاذ صبره ، وعندما تناول كأس الوسكي المترع أمامه ، ورفعته الى شفثيه وبدأ يترشفه . متلذذا ، وانبسطت أسارير وجهه المتليء ، وقرع جرسا صغيرا أمامه وطلب استدعاء الضابط (. . . .) وهو من المقرين اليه ، وممن يعتمد عليهم كل الاعتماد . ولما مثل الضابط بين يديه فاتحه بما يزججه فقال « ان قضية هذا الرجل تزعجني ، ولا بد من التخلص منها بأسرع وقت مهما كانت النتائج » . فأجابه الضابط باسم « ان عدد المقتولين من الطرفين ، الثوار ، والجنود ، يتجاوز المئات في اليوم ، ولم يرتكب كل هؤلاء جريمة ، ولم تحم حولهم الشبهات ، فلماذا لا يموت هذا الرجل أيضا ، فيصبح شهيدا كبقية الجنود ان كان بريئا ، او خائنا قد نال جزاءه ان كان مجرما ، وسوف لا يزيد في عدد من ماتوا او ينقصه » فسأله القائد مستغربا « وكيف يموت وهو في أتم صحته ؟ » فضحك الضابط وقال « ان ذلك لا يكلف أكثر من عشرة فلوس ، أي ثمن رصاصة واحدة » . وفكر القائد مليا ثم تبسم وقال « انك رجل

حضيف الرأي ، خذه وتخلص منه ، ولا تنس المراسيم القانونية » وخرج الضابط جذلا ، وبعد ساعة من الزمن قدم الى قائده تقريرا فحواه ان الرجل قد هرب أثناء نقله الى نقطة عسكرية اخرى ، حسب أمر القيادة فاضطر الى اطلاق الرصاص عليه ، فقتل .

وفهقه القائد ثم نظر الى مسدسه وحزام الرصاص المعلق بجانبه مبتهجا ، ومضى يفكر . لقد فحّته رصاصة ثمنها عشرة فلوس من تلك المشكلة المعقدة التي كانت تحتاج الى وقت طويل ، وتفكير متعب ، ومثلها يكفي للقضاء على كل من اولئك الزعماء الذين سببوا هذه الثورة ، اولئك الذين يخرجون مركز الحكومة بين آن وآخر بشغبهم ومؤامراتهم فيكلف اسكانهم مئات الدنانير ، ومثل هذا العدد من الارواح تذهب ضياعا من خزينه الدولة ونفوس أهل البلاد . وبمثلها يتخلص الانسان من اعدى أعدائه ، او يقبض الجبناء من أعدائه الى أنصار مخلصين ، وبعشرات الفلوس يستطيع أن يسطق نفوذه على عشرات الالوف من البشر ، وبكمية من الرصاص يستطيع أن يكون حاكما مطلقا ، ودكتاتورا عظيما . ولكن هل يكفي الرصاص وحده يا ترى ؟ واذا كان كافيا فلماذا لم يصبح دكتاتورا حتى الآن ؟ وعملت كأس اخرى من الوسكي أكثر مما عملته سابقتها ، فأنعشت فكره ، وصقلت ذهنه ، وجعلته يدرك ان الرصاص لا يكفي لوحده ، فلا بد من وجود قانون يسنده ، ورجال مخلصين (كالآلات) يطلقونه بدون قيد ولا شرط . أما الشرط الثاني فيتم اذا أصبحت القيادة العليا للجيش في يده ، وأما القانون فلم يحل يوما دون شخص قوي وما يتناه ، بل وربما أصبح أكبر معين له ، فالقوانين كانت ولا زالت آلة في يد الاقوياء تخولهم حق السيطرة على الضعفاء .

وبمثل تلك الاجراءات السريعة ، والآراء العسكرية تمكن من اخماد الثورة بمدة وجيزة ، فاعتبر مثال القائد الحاذق المخلص لوطنه . وعندما عاد من ساحة القتال استقبله الشعب بمظاهرات عظيمة يعرب بها عن اعجابه او (بكلمة أصح) عن اعجاب أولياء أمره . وكيّلت له ألقاب البطولة والاخلاص ،

ومجد تمجيدا يليق بأمثاله الأبطال ، أما الصحف فقد ملأت أعمدتها بتصاويره وأخبار انتصاراته ، واخرجت بعضها أعدادا خاصة ملأتها بسيرته ، وتاريخ حياته ، ودلائل عبقرته ونبوغه ، والتكهن بمستقبله العظيم . وبذلك كملت لنفسها من الأرباح ما تحلم به في الاوقات الاعتيادية . وقامت الحكومة بنصيحها في تكريمه وتمجيده ، فحملته من الاوسمة والرتب ما ملأ صدره بالنياشين اللامعة ، وقلبه بالآمال العظيمة ، ورأسه بالافكار الخطيرة . وعندما مثل أمام رئيسه الاعلى صافحه الاخير بحرارة وحماس ، وقال له بطيئة واخلص « انك تليق بمنصب أكبر مما أنت فيه ، وسوف لا تقضي مدة سنتين حتى اعزل الجيش ، لاهي لك فرصة تسنم منصبى الذي تستحقه عن جدارة » .

ولم يتردد بعض المتزلفين المتملقين الذين يعيشون على فئات موائد غيرهم من تلقيه بالدكتاتور العظيم ، والمصلح الجبار ، ورجل الساعة . وكان كل واحد منهم يشحذ ذهنه لاختراع لقب أكثر ضخامة ، وأعظم وقعا في الاسماع واستهواء للنفوس من غيره ، لينال كسرة من الخبز أكبر من كسرة رفيقه ، وقطعة من العظم أضخم من نصيب سواء . وقال له أحدهم يوما « لقد كان رضا شاه يهلوي جنديا صغيرا ، وها هو ذا قد أصبح امبراطورا لايران ، وكان مصطفى كمال ضابطا صغيرا ، فأصبح اليوم معبود الاتراك ، وموسوليني لم ينل رتبة عسكرية في حياته ، وهتلر ما كان غير عريف في الجيش ، وكان ستالين عاملا صغيرا ، وها هم قد أصبحوا يحكمون الملايين بإشارة من اصابعهم . وقد كان هؤلاء عندما كانوا في مثل سنه أنته أثرا ، وأقل قيمة في نفوس الشعوب* بهذه السرعة في نفوس الشعب العراقي ، فان المستقبل أمامك عظيم » .

وكان لتلك الكلمات من الوقع في نفسه ما يفوق كل ما أحدثته عبارات الملق والرياء ، فقد كانت بذرة صالحة ، القيت في أرض خصبة ، وفي موسم زرعها تماما .

* التي تمجدهم اليوم ناذنا قنا بقدرك مهيأته

ونمت تلك البذرة واورقت ، وصار الرجل يفكر ويفكر ، وكلما ازداد تفكيراً ازدادت النبتة نمواً ، وازداد اقتناعاً بأنه أعظم شأناً من غيره ، من سادة العالم المعاصرين ، وأكثرهم خطورة . وهاهو ذا الشعب العراقي عن أبيه قد شعر بضعف ادارة رجاله ، فكره حاضره المضطرب ، وضع من القوضى المرعبة التي لا يستطيع من أسرها فكاً ، حتى يئس من الراحة بله السعادة ، بل ومن الحياة نفسها . وبمئة يأسه الى أن يحلم بالخلاص على يد رجل جبار يقوم بالمعجزات ، شأنه شأن المريض الذي يئس من الشفاء فوضع نفسه بين أيدي المشعوذين والسحرة ، رغم عدم ثقته بهم ، علمهم يصلحون ما أفسد الدهر . وليس سوى قوة السلاح معجزة في العصر الحاضر . فلماذا لا يحقق أحلام هؤلاء المساكين ؟ ويكون البطل المنتظر ؟ والمنقذ الاعظم ؟ ولماذا لا يكون دكتاتوراً في العراق وما جاوره من البلاد العربية ، ان ذلك لا يكلفه ، بعد تلك المنزلة التي حلها في نفوس الناس ، غير كمية من الرصاص ثمن الواحدة (عشرة فلوس) يقضي بها على حياة من يعاديه ، او يقف في وجهه . فاذا ما ثبت أقدامه شرع بتنفيذها ما يرتأيه من اصلاح ونظام .

وكانت من أبرز صفات هذا القائد ، عدم اهتمامه بالتقاليد العسكرية أثناء الفراغ ، فهو صديق حميم ، حتى لا صغر ضابط تحت امرته ، لا يتردد في منادته ، وقرع الكأس معه ، وبذلك حل منزلة في نفوس مرؤوسيه يصعب على غيره أن يحتلها بالمراسيم والانظمة العسكرية المرهقة ، ويقال ان نابليون كان يفعل ذلك أيضاً ، كما يعلم هذا القائد ، او لا يعلم .

وأصبحت تلك البذرة شجرة مورقة فتفتحت أزهارها ، ثم نضجت أثمارها وتهايت الفرصة لاقتطافها . وكان ذلك في يوم غاب رئيسه الاعلى في اجازة ، ورفع الشعب هممة تدمير ، كما يقول المعارضون الذين لا يعرفون الشعب ولا الشعب يعرفهم ، واستنجد هؤلاء به ليخلصهم من ظل تلك الكتلة التي طال وجودها في الحكم حتى ملت وكرهت . فما كان منه الا أن ألقى أمراً عسكرياً على فرقته لترحف على بغداد ، وأرسل بضع طائرات محملة

بالقنابر لاعطاء الانذار النهائي ، وكان رئيسه الاعلى اولى ضحاياه ، فقد خف هذا اليه ليخفف من غلوائه ، فلقى حتفه في الطريق ولم ينس القائد أن يحترم رتبته العسكرية ، فجعل ثمن حياته مائة فلس بدل عشرة • ولم يحلم الرجل رغم شدة اندفاعه وتهوره بأن الامور ستكون أمامه سهلة الى هذا الحد ، فلا تكلفه كل تلك الحركة الجبارة أكثر من حفنة من الرصاص ، وثلاث قنابر فارغة ، وشعر بأن هذا الشعب أحط بكثير مما كان يتصور ، وأيقن بأن كل ما في رؤوس مفكره من أدمغة وعقول لا تساوي النفاية والاوساخ ، فها هي أعظم جرائد البلد ، وأحسن الادمغة المفكرة تسبح بحمده ، وترتجف من ظله • اذن فليفرض عليهم ضريبة تفوقه ، وليكونوا له أطوع من بنائه • انه الرجل الوحيد بين كل هاتيك النساء ، فليتمتع بالسطوة المطلقة التي ليس لها حد • يجب أن يسخر رجالهم وأقلامهم وعقولهم ، وقد يضيف عندما يسكر الى قائمة المسخرين ، نساءهم أيضا ، ولم يتورع أن يظهر بكل المظاهر الشاذة المستغربة ، ووجد بين عبيده من يبرر له هذا الشذوذ ، بل ومن يعدده مظهرا من مظاهر حياة العظماء •

ووجد الدكتاتور نفسه أمام الحكومة البريطانية وجها لوجه ، تنافسه في سلطته ، وتضيق عليه الخناق • وأدرك ، وهو القائد المحنك ، ان النحلة قد تؤذي الاسد ، ولكنها لا تستطيع أن تتخلص من شره • فخطر في باله أن يلتجئ الى أعداء الاسد من دبة وفهود ونمور ليعلم الأسد من أين تؤكل الكتف ، وقر قراره سريعا كعادته • وشد الرحال لتنفيذ خطته • وأنذر وهو في طريقه بأن هنالك من يتآمر عليه ويسعى الى اغتصاب السلطة من يده ، فضحك ملة شديقه وقال « أين هؤلاء العبيد من يحسن التآمر ؟ وهل يحدث الاتجار بدون بارود ؟ اذن فلعلم هؤلاء ان حياة الفرد منهم لا تكلفني أكثر من عشرة فلوس » •

وفي أحد الامسية ، وكان في طريقه لتحقيق مهمته العظيمة ، جلس مع اصفياه ، والمخلصين له من ضباطه وجنوده ، يقرع معهم الكأس بالكأس

ويحدثهم عن كيفية تكتيل القوى ، وتنظيم الجيش ، وفرض سلطانه على كل رجل في البلاد ، حتى يصبح كالرب المعبود ، كل تصرفاته معقولة مهما تعارضت مع العقل والمنطق ، وكل اجراءاته مقبولة مهما تعارضت المصلحة والسياسة ، لا يحلم أحد بمناوئته ، ولا يجسر حتى على مجرد التفكير بمقاومته ، وعند ذلك تلهب ظهور هذه الاغنام بالسياط ، ويتسلط على عقولها وقلوبها ، فتبدل من أزيائها وعاداتها وأخلاقها ومعتقداتها ، ثم يمزق الحجاب ، وتطلق الفتاة من اسرها ، كما فعل اتاتورك والبهلوي ، ثم يفكر بالخطوة الثانية • وهتف الجميع له ، وكان أشد الناس هتافا الشبان العزب الذين لم يستمتعوا بجديث فتاة ، او شفاء عذراء ، اولئك الذين يحلمون بالمرأة كما يحلم الظمان بالماء الثير في وسط صحراء قاحلة • وشرب الجميع نخب الاصلاح المنشود ، ونخب الدكتاتور العظيم ، وهتفوا بطول حياته ، وبسقوط أعدائه • وشرب الدكتاتور الكأس بعد الكأس ، حتى كاد يلمس سلطانه وعظمته وجبروته بيده • وأخذ يفكر بتلك الفترة الوجيزة التي أصبح له في أثنائها كل هذا السلطان ، وتذكر الحادثة التي أوحى له بكل أعماله وخطه ، فابتسم وتلمس المسدس بجانبه بعطف ورضى • ألا ما أعظم القوة ! وما أجمل السلطان • برصاصة واحدة لا يزيد ثمنها على عشرة فلوس يتخلص من أعظم المشكلات ، وأكبر الشخصيات ، وأقوى المعارضين ، وأخطر الاعداء ، وبها يستولى على كل شيء ، ويصبح دكتاتورا في كل البلاد • برصاصة واحدة • • • • • واتبه من أحلامه على صوت ناري ، وشعر بكتلة صلبة ملتصقة تخترق رأسه من وراء اذنه ، ولم يقل أكثر من (آخ) وارتمى على وجهه مضرجا بدمائه •

هكذا ضاعت حياة أعظم دكتاتور ، رجل الساعة ، ورب السطوة ، وصاحب المشاريع الجبارة بعشرة فلوس ، عشرة فلوس فقط ، لا أكثر ولا أقل •

ولعل أغرب ما في حياة هذا الدكتاتور القصير العمر ، شأن كل الاعمار في برج بابل ، انه كان يعتقد ، رغم ذكائه الحاد ، ان القواعد الاخلاقية ،

والقوانين الاجتماعية ، هي كأفكار الجنود تؤدي له التحية عندما تمثل أمامه ،
وقد نسي أيضا ان برج بابل لا يكفيه دكتاتور واحد ، وان أهله أذكياء يتلقون
الدروس بسرعة عجيبة ، وسرعان ما يخرجونها الى حيز الوجود ، ويطبقونها
بمهارة وحذق ♦

تحذير

هذه مجموعة أخرى تتناول ناحية أخرى من نواحي حياتنا الاجتماعية، ذات رابطة وثيقة بالناحية السياسية ، ولكنها ليست سياسية مطلقا . فهي تصف وتشرح أوضاعا يصدق أغلبها ، اذا لم تقل كلها ، على ذلك العهد الشاذ الذي مر على العراق فسماء البعض بالفترة ، وسماء آخرون بأيام النكبة ، وسماء أصحابه بعهد الانقلاب ، كما لا يخفى على القاريء بعد اكماله مطالعة هذه المجموعة . وليعلم القاريء بانني لم أقصد حادثة خاصة ، ولا شخصية معينة . كما انني لم اهاجم سياسة قسم من رجالنا ، او اذافع عن سياسة آخرين ، اذ لم أكن متميلا الى حزب من الاحزاب او الى شخصية بارزة . ولم يكن لاي شيء مهما كان رفيعا او وضعيا أثر في تكويني مركزي وشخصيتي الاجتماعية ، غير عملي واتاجي . لذا كان من الطبيعي في نظري ألا تصطبغ آرائي وأبحاثي وما توصلت اليه ، بعد التأمل في هذه الطوارئ والحوادث السياسية الغريبة المتلاحقة ، بأية صبغة سواء أكانت سياسية أم دينية ، او بأي شيء له علاقة بالمبادئ السياسية والحزبية . واني كائنسان يفكر ، لا أكثر ولا أقل ، لم يكن لي بد من التأثير بما يجري في بلادنا من أحداث ، وكفرد اجتماعي ، يجب ان يخدم مجتمعه ، لم أجد مناصا من تسجيل تأثير هذه الطوارئ والاحداث في نفسي . ولما كنت موظفا بعيدا عن السياسة ، لم أجعلها مقالات ترفع الذنب عن عاتق فلان لتلقيه على عاتق فلان ، تشر في الصحف والجرائد اليومية لغرض لا يخفى على كل قاريء . ولما كنت بعيدا عن كره الناس أو عن محبتهم ، غير متم الى ناد سياسي ، ولا الى جمعية سرية كانت أو علنية ، لم أجعلها بحوثا تدافع عن مبدأ معين أو مذهب خاص ، فجاءت قصصا خيالية ابطالها من الخيال وحوادثها من الخيال ، ولكن الدافع الى كتابتها هو الواقع المؤلم بما فيه من مرارة لاذعة ، ولا أعتقد ان لائنسان واحد أو لحزب معين أو لسياسة خاصة أو لصفة معلومة

أو لحادثة ما دخلا في تكوين هذا الواقع المؤلم ، دون الامور الاخرى فهو وضع قد تضافرت عوامل كثيرة على صبه في هذا القالب غير المرغوب فيه ، ويؤلمني جدا ان أسمع بأن فلانا كان سبب تأخر العراق وان الحادثة الفلانية كانت الكل في الكل في هذا الوضع الفاسد ، أو الانكليز هم سبب الخراب ، وان رجالنا لا قدرة لهم على ادارة الوضع ، الى غير ذلك من التعابير السطحية ، وهذا سبب آخر دعاني الى ان اكتب القصة فقط . ففيها يتمتع الكاتب بالحرية بأوسع معانيها ، ولكنه لا يسعى بنفس الوقت الى انسان ما مثقال ذرة ، مهما كان وثيق الصلة بالبحث الذي يتناوله . وقد دعاني الى تذييل هذا الكتيب بهذا التحذير المسهب ما سمعته بعد نشر المجموعة (رسل الثقافة) من توزيع اسماء ابطال أقاصيصي وحوادثها على بعض رجال المعارف مما ألهم وألمني . واني لاشكر طيب اخلاق رجال المعارف ، وسعة صدورهم ، وسعة آفاق تفكيرهم ، وكل ما جعلني بعيدا عن مقتهم ، وموضع شكرهم وتقديرهم ، وفقنا الله جميعا لخدمة أوطاننا واصلاح كل فاسد فيها ، وتقويم اعوجاجها مهما كان شكل هذه الخدمة . ومهما كانت صيغتها .

المؤلف

١٥ نيسان ١٩٣٩

المجموعة السابعة

العقل في محنته

الطبعة الاولى ١٩٤٠

الإهداء

- ♦ إلى من كتب عليهم الشقاء الأبدى في سبيل خير البشرية
- ♦ إلى رجال الفكر والمصلحين في كل عصر وحين

المؤلف

تهيد

وكما يهذي المحموم عندما ترتفع حرارته ، كذلك يسف العقل ، ويتقهقر المنطق في كل امة ، عندما تصاب تلك الامة بالحمى .

والامم عرضة للحمى كالأفراد ، ولكن جرثومة امراضها لا تشبه مكروب الملاريا ، وناقلة الجراثيم ، لا تماثل البعوضة حجما ولا شكلا . بل تشبهما في طريقة اداء مهمتها فقط

ان مكروب الحمى عند الامم هو الافكار العفنة ، والآراء البليدة ، وسبب العدوى في هذه الامراض افراد من تلك الامة المصابة . يولدون في مستنقع الرجعية الموبوء ، حيث يبلغ التفسخ منتهاه ، ويتزعرعون فيه . وقد يبلغ مدى انتشار هذه الامراض الاجتماعية بالعدوى الى حد يستفحل معه امرها فتصبح عالمية .

وعلامات هذه الامراض واضحة لا تحتاج الى محرار او ساعة ، بل يكفي لادراكها حواس سليمة ، وعقل يقظ يميز بين الفث والسمين بسهولة ، ويسمي الاشياء المختلفة باسمائها الصحيحة ، ولا يخلط بينها .

والعالم بأجمعه اليوم في نوبة من نوبات هذه الحمى الخبيثة التي انتشرت في مختلف انحاءه بسرعة عجيبة ، وكان بينها وبين المناعة الطبيعية ، التي تتمثل في ميل المجتمع الى المحافظة على الاصلح ، حرب شعواء ، كذلك التي تنشب بين المكروب وكريات الدم البيضاء .

وهو قد اشتدت هذه الحرب ، وذلك يدل على ان هذه الحمى في دورها الاخير . وفي هذا الدور يكثر الهذيان ، ويعم الاضطراب ، ثم يتبع ذلك دور النقاة . واذا وجدت ما يستثير الضحك في هذا الهذيان الذي يصدر عن العقل البشري وهو في محنته العظيمة ، فلا تستغرب ولا تتشاءم لان الجسم في حالة غير طبيعية ، وهكذا عقل المريض عندما تبلغ درجة حرارته الاربعين .

مسرعة العقل

اما حوادث هذه الاقصوة فقد حدثت في احدى امارات الهند الغنية بخيراتها وجواربها وراجواتها ؛ وهذا ما يبعث الاطمئنان الى نفسي من عدم اعتقاد البعض بأنني اعنيه ، واقصد التحرش بأخلاقه ، واندد بأعماله ، فيثور ويرغي ويزبد ، او يخاف فيرتعد ، او يبكي حاله ويشكو مآله .

وستلاقي هذه الاقصوة دون شك اعجابا من جميع الذين يكبرون العقل العربي والمزايا العربية ؛ ويقولون بأن العرب قد وصلوا الى درجة من الرقي والمدنية لا تدانيها درجة ؛ وانه في طباعهم واخلاقهم ما يكفل لهم المجد وهم نيام ، اذ سجدون مدى سحف العقل الهندي وسيرون كيف يحكم المستعمر هذه البلاد الواسعة بحفنة من رجاله .

ففي احدى ولايات الهند مقاطعة يحكمها راجا عظيم الشأن ، واسع السلطان ، يسجد امامه الناس اذا رأوه ، ويصلون عليه اذا سمعوا باسمه ، تمتلئ قلوبهم غبطة وفخراً اذا مر بهم على فيله العظيم ، المحلى بالذهب والفضة والجواهر والآلى . والجلال المصوغ من كريم المعادن . ويكفى ان تعلم بأن ثمن ما تتحلّى به بضعة افيال كهذا الفيل تكفى لشراء القطر العراقي بكل ما فيه ، وجعله املاكا خاصة لهذا الراجا العظيم .

ولا يعرف سكان هذه المقاطعة او المملكة لغير اميرهم سلطانا . ولعل اغلبهم لم يسمعوا حتى الآن بأن الانكليز قد بسطوا نفوذهم على بلاد الهند كلها وسموها امراً لهم ، لا لانها ولدتهم ، اذ كيف يلد الاسود ابيض ، بل لانهم يرضعون من حليبها دوماً ، ويلعبون على ظهرها ويدغدغونها ؛ وقد تصل بهم الشقاوة الى خرمشتها بأظفارهم الحادة ، واسالة الدماء منها ، فتتهرهم بلطف ، وتعاملهم كما تعامل الام الرؤوم اولادها اذا خرجوا عن طورهم في المزاح .

وقد يذهب الوهم بهؤلاء السكان الى الاعتقاد بأن هؤلاء البيض ، الذين يجلسون ابدأ دون مجلس الرجا ، هم ممثلون لبعض ممتلكاته الجديدة، وقد حدث ذلك فعلا ، فقد قام احد المتحمسين لعبادة الرجا يوما فقال: « ان للرجا املاكا جديدة فيما وراء البحار ، وان هؤلاء الانكليز ليسوا الا وكلاء الرجا في هذه البلاد ؛ وكان هذا الرجل من ذلك النوع المتحمس لما يعتقد به ، قد لبسته الفكرة حتى اصبح جزءا منها من الرأس الى اخص القدم ، فعمامته ايمان ، وشعر رأسه ايمان ، ورأسه ايمان ، وجسمه ايمان ، ولباسه ايمان ، يأكل ايمانا ، ويشرب ايمانا ، بالوهية الرجة العظيم .

اما الرجا فلم يلتفت ، لا كثيرا ولا قليلا ، الى هذا الرجل المتفاني في محبته ، فكم رأى من هذه المظاهر ، حتى اصبحت بالنسبة اليه امرا مألوفا لا غرابة فيه . ولكن أحد مستشاريه من السكسون قال له ناصحات ذات يوم « ان امثال هذا الرجل نعمة لامثالك ، لا يقوم لك ملك بدونهم ، ولا ترسخ محبتك في قلوب الشعب الا بتعاليمهم ، ولو راجعت تاريخ اجدادك لوجدت ان آباءك الاولين كانوا من سواد الشعب ، حتى قام امثال هؤلاء فجعلوا منكم آلهة ورفعوكم فوق مستوى الناس » . ولا يكره الرجا شيئا في حياته كرهه لهذه اللهجة التي يتكلم بها الانكليز ، فهم ابدا يشيرون الى بعض الامور التي تقلل من قدره . ولكن التجارب القاسية علمته ان يسكت على مضض ، ويقدر نصيحهم حق قدره . وعاد هذا الناصح الامين يهمس في اذن الرجا « اتذكر اني نصحتك مرة بالتخلي عن تلك الفكرة الهوجاء التي احتلت رأسك يوم زرت اوروبا فلمكت عليك مشاعرك وجعلتك فريسة لهوس جنوني . لقد جنّ جنونك يومذاك ، فوددت ان يكون في بلادك مثل تلك الشوارع ؛ ومثل تلك المدارس ، ومثل تلك المعامل ، واعجبك ان يرتدي الرجال والنساء القبعات ، وصرت تحلم بذلك حتى في نومك . وقد اردت ان تتم كل ذلك مرة واحدة فتقول للشيء كن فيكون كما يفعل الآلهة . وما زلنا بك حتى افهمناك ان فتح المدارس ونشر التعليم يجب ان يكون مبهدا لذلك . »

وهنا وجد الراجا مجالا للاعتراض فقال « وكانت نتيجة نصحك ان انشأتم طبقة جديدة تدين بيدع ما انزل الله بها من سلطان ، فصار هؤلاء ينغصون عليّ عيشتي ، ويهمسون فيما بينهم بما يحيط من تقاليدهم ويشير الى عدم الفائدة من وجودي ، وقد افقت نصف الخزينة في سبيل مطاردتهم والقضاء عليهم . فضحك المستشار وقال « لقد افهمناك ان المدينة والراجوات لا يجتمعان في صعيد واحد ، فاما ان ترضى بعرشك ، وتترك شعبك في وضعه ذاك ، واما ان تقبل المدينة فتتخلي عن الوهيتك وعن بذخك » . فقال الراجا « ان ملوككم مسرفون مترفون ، ومع ذلك فاتهم ارقى الشعوب مدينة ، وعندكم من المدارس والمعامل والشوارع ما يساوي كل ما في العالم عدا ، فكيف استطعتم التوفيق بين هذين الامرين ؟ » فاجابه المستشار « انك تجهل حقيقة السياسة الانكليزية ، والمدينة الانكليزية ، فاما الملك عندنا فلا يعتبر الاهاً مثلك ؛ والناس يحملون عليه هناك في بعض الاحيان ، وحتى في مجالسهم النيابية فلا يحرقهم وهم احياء ، كما انه لا يتمتع بعشر معشار ترفك على الرغم من انه يحكم بلادا شاسعة، حتى قيل عنه ، ان الشمس لا تغرب عن ممتلكاته ، ولو فرضنا انك ضحيت ببعض بذخك وطلبت وضعاً كهذا ، فذلك يحتاج الى مدة طويلة قد تقضي انت قبل ان تدركه . ان الامر لا يمكن ان يكون الا بصورة تدريجية ، والا فسيكون في ذلك سقوطك عن عرشك ، وربما كان السبب في القضاء على حياتك ايضا » . وارتعد الراجا وسلم امره لهذا الناصح الامين ، الذي اثبتت التجربة انه غيور على مصلحة ملكه اكثر من غيرته على مصلحته الخاصة ؛ فلم يتردد في القول « اذن فاعمل بما تراه صالحا ، وقل لنا ما ترى ان تفعل » .

فتبسم المستشار راضيا وقال « عليك بهذا الرجل الذي كنت اتحدث اليك عنه ، وعن اخلاصه العميق لك ، وايمانه العظيم بعظمتك ، والذي يعتقد ان المملكة هي انت وان حياتها مستمدة من حياتك ، وعقلها من عقلك ، وشرفها من شرفك ، فأجعله مسيطرا على التعليم والمدارس ، وعلى الكتب

والصحف والخطب ، وكلما يخص السياسة وسترى النتيجة بعينك » •

ويظهر ان الراجا رغم ايمانه باخلاص نصيحه ، لم يعجه ان ينصب رجلا جاهلا ، كهذا المؤمن فقط ، على مؤسسة العقل والعلم ، ولم يتردد في مصارحة المستشار بما يجول في خاطره ، فاغتاظ المستشار وقال مجتدا : « وهل اصبحت انت راجا لانك اعقل رجل في المملكة ؟ » • ولما رأى عبوس الراجا ادرك انه قد تهور فاستدرك بقوله « لا شك انك اعقل من بني قومك ، فقد ورثت العقل عن آبائك ، ولقد اردت ان اقول هل تعلم كلما يعلمه قومك من صنائع وحرف حتى تكون اميراً عليهم ؟ » •

ولم يجد الراجا مناصا من قبول تلك المشورة فاصدر اوامره السامية بتعيين « كالا صاحب » وزيرا لشؤون التعليم والصحافة والنشر وكل ما يتعلق بالكلام والمنطق والعقل •

ويجدد بنا الآن ان تبسط في سيرة (كالا صاحب) هذا الذي كان محط اكبار المستشار واعجابه لشدة وطنيته ، وقوة ايمانه بالراجا •

ولد كالا صاحب في احدى قرى الافغان من اب افغاني ، وام روسية كان قد سبها ابوه في احدى غاراته على تركستان • وكان الرجل الذي كان يملكها قد سبها ايضا من قرية من قرى سبريا ، ولعل غيره كان قد سبها من غيره ، بل ربما كانت حياة تلك المسكينة كلها سبيا وتشريدا ومصائب حتى سقطت في يد المقاتل الافغاني حبيب • وكان هذا فظا غليظ القلب ، يعامل المرأة كما يعامل كلبا ، وقد قاست منه الامرين اثناء مدة وجودها معه ، ولم تتجاوز تلك المدة السنة الواحدة ، حملت في اثنائها (بكالا صاحب) ثم توفيت بعد ولادته • واذا صدق الطب في دعواه ، بأن الام اذا كانت في ازمة نفسية اثناء الحمل ، ولدت طفلا شاذا ، صح ان نسند شذوذ كالا صاحب الى هذا السبب •

اشتهر كالا صاحب منذ صغره بالمزاج العصبي ، وسعة الخيال وشدة الحساسية ، وسرعة الغضب ، الى حد الصرع • وكان اطفال القرية يخشون

بأسه رغم صغر جثته وضعف بنيته • وكان كالا يتكلم في سباته ، ويمشي في منامه ، ويروي احاديث غير مترابطة ، وينطق بكلمات غير مفهومة • فاعتقد اهل القرية بأن روحا قد حلت في جسمه ؛ وانه ولي من اولياء الله الصالحين • وسمع كالا صاحب ، ذلك الهمس الذي يدور حوله ، فزاد من تلك الظاهرة وآمن هو نفسه ايضا بأنه ولي عظيم • وقبل ان يبلغ سن الحلم ، أغواه كاهن هندوسى متجول واقنعة بمصاحبه • فسافر معه دون ان يخبر احدا من ذويه ، وعلى يد هذا الكاهن تعلم طب العقاقير ، وقراءة التمايم والقيام ببعض الطقوس وغير ذلك • ثم حل بمدينة الراجا المار الذكر ، وهناك ألقى عصى الترحال ، فقد وجد امامه مجال العيش واسعا ، والريح وافرًا وجزيلا •

وفي احد الايام رأى الراجا في موكبه العظيم ، فكاد يريق الجواهر والذهب يذهب بلبه ؛ وكادت تلك العظمة تفقده صوابه • ومن يومها صار يحلم بتلك العظمة ويراهها ماثلة امامه صباح مساء ، حتى غدت موضع تقديسه وعبادته • فما كان لامثاله ان يحلموا بإمكان الحصول على مثل ذلك المجد ، ولكن بإمكانهم ان يمدوه ويفنوا في محبته ، حتى يصبحوا جزءاً لا يتجزأ منه • وهل في استطاعته ان يكون راجا ؟ وكيف يكون راجا وهو لم يخرج من رحم محصن لامة من اماء الراجا ، او احدى سراريه ؟ هكذا اكتفى بذلك الايمان مضطرا فكان غذاءاً لروحه ، وعزاءاً لنفسه وقبلته في حياته ، ومرماه في جهاده •

وامارة الراجا من تلك الامارات المتاخمة لبلاد الافغان والتركستان الروسية ، بلد الشيوعية والمبادئ العجيبة • فكان من الطبيعي ان يترب بعض دعاة تلك المبادئ وانصارها الى امارة الراجا ليزرعوا الفتن والخراب ؛ ولم يجدوا لهم انصارا كثيرين بين ذلك الشعب الذي ينظر الى الراجا كما ينظر الى آله • ولكن همسا غريبا حول بذخ الراجا واسرافه صار يسري بين الناس ، وكان البعض يطعن فيه لخضوعه لادانته الانكليز وكانت تلك فرصة لا يمكن ان يفلتها كالا صاحب لاثبات ولائه للسلطات • فشرع عن ساعد

الجد ومضى يدافع بكل قوته عن الراجا ، ويدحض تلك الاكاذيب . فاعلن
لاولئك المرجفين ان الراجا هو سيد الانكليز ، وليس الانكليز سادته ، وكيف
يكون الانكليز سادة الراجا وهم يجلسون دونه في المجالس ؟ ويركعون له
عند السلام عليه ، وما كان يمنعهم عن سلب جواهره ولآلئه لو كانوا ساداته .

وتناقل الناس تلك الحجج الواضحة معجبين ؛ وكان المستشار اكثر الجميع
اعجابا وأشدهم حماسا وايمانا . وهذا ما دعاه الى اقتناع الراجا بضرورة جمع
هذه الحجج بكتاب واذاعتها على الناس .

وعندما استلم كالا صاحب امر الراجا السامي بتعيينه بهذا المنصب
الهام اصابته نوبة من الصرع ، وصار يهذي ويريدوه حوله يسجلون هذيانه
ليصبح حكمة خالدة يتناقلها الابرار عن الآباء .

واستفتح اعماله بخطبة رنانة خصصت الصحف المحلية لها اعدادا خاصة ،
وكان من جملة ما قال « ان الافكار الفاسدة ، والتعاليم السامة قد بدأت تروج
في هذه الامارة السعيدة الآمنة ، فتزعزت ثقة الناس بامرائهم وبتقاليدهم ،
وكادوا يفقدون الثقة بأنفسهم ايضا . ومتى فقد الانسان الثقة بنفسه اصبح
لاشيء ، ومتى اصبح الانسان لاشيء فرغت البلاد من السكان ، ومتى فرغت
البلاد من السكان ماتت البلاد » . وصفق له السامعون واعجبوا بهذا المنطق
العجيب ، وقالت بعض الصحف ان الآلهة قد الهمت كالا صاحب ، كما الهمت
الانبياء من قبله . وقال بعضها لاشك ان ساسة العلم في العصر الحديث قد
استمدوا آراءهم من كالا صاحب ، ولا ريب فالهند هي بلد الحكمة ومهد
الفلسفة منذ قديم الزمان .

ووضع كالا صاحب خطته المحكمة لاعادة مجد البلاد . فصرح بأن
عليه قبل كل شيء ان ينظر في امر تلك المدارس العصرية التي كانت السبب
في كل هذا الفساد ، فقرر اقفال معظمها وتحويل القسم الآخر الى مدارس
من الطراز القديم ، يتعلم فيها الاطفال تعاليم بوذا وزرادشت ، وتاريخ اسرة

الراجا العظيم ، وكيف صعد احد اجداده الى السماء واصبح آلهاً • ثم صنف كتابا عظيما يصف به اعمال الراجا وغزواته وفتوحاته واملاكه •

وما كان لكل تلك الامور وجود في غير مخيلته • ثم قرر ان يكافح اعداءه واعداء الوطن ، ولأجل سهولة العمل قسم اعداءه الى ثلاثة اقسام

١ — الذين يدينون بدين اهل الشمال من الروس ، وهؤلاء يجب حرقهم ، وبعبثة رمادهم في الهواء •

٣ — الذين يدينون بدين اهل الجنوب وهم اتباع غاندي والوطنيين من الهنود ، وهؤلاء لا يقتلون شراً عن الاولين ، فيجب ان يكون مصيرهم كمصير اولئك •

٣ — اهل العلم والمتفلسفون ، ويجب امتحان هؤلاء فمن استطاع ان يضع كتابا فيسايرون به على امجاد الامارة وعراقتها في المدينة ، واستطاع ان يثبت ان حقائق الوجود كلها مستمدة من الراجا وسلالته ، فجا ، والا كان مصيره كمصير رفاقه •

وشمر كالا صاحب عن ساعد الجد وشيدت المحارق وبدأ التنكيل بأولئك الذين يحملون تعاليم سامة ، يشلون بها جسم الامة كما يشل الثعبان فريسته قبل ازديادها •

ومضى العلماء والمفرون يكتبون الرسائل الضافية والكتب المطولة لاثبات براءتهم من هذه التهم النكراء ، واتقاذ جلودهم من سفير المحارق •

وكان أشد الجميع رعبا من تلك الزوبعة المهلكة الدكتور (بابو جيتربنارجي) • وهو دكتور وجراح في الطب تخرج من جامعة ادنبره ارقصى جامعات انكلترة ، وكان هذا الدكتور حاذقاً في مهته ، وقد انقذ حياة الراجا من مرض خبيث مرة ، فاصبح موضع ثقته ، وغريق نواله ، مما أثار حسد كل الاطباء وباعة العقاقير والطارئين في المملكة ، فعقد هؤلاء مؤتمرا وقرروا انتهاز تلك الفرصة للقضاء عليه • وقام احدهم فوضع رسالة يتهم بها

الدكتور (بابو جيتر بنارجي) بالكفر والزندقة واستدل على ذلك من مقدمة
لاحد كتبه التي ينكر دخل الارواح الشريرة في الامراض ، ويدعي ان الطب
الحديث ارقى من طب الهنود القديم ، ويقول بأن المستحضرات الطبية احسن
من عقاقير غابات الهند المقدسة ، والافطع من كل هذا انه يصرح بأن برك
المعابد المقدسة ملوثة بالجرائم والاوبئة ، لان الناس يسبحون بها كلهم، دون
ان يبدلوا ماءها .

وجن الدكتور فزعا ، وركض الى الراجا يستنجد به ، ولكن الراجا
اكده بأنه يثق بكالا صاحب اكثر مما يثق به ، وانه وان كان قد انقذه من
مرض خبيث ، فكالا صاحب سينقذ الملكة من شر مستطير ؛ وختم كلامه
بقوله « ان كنت تريد أن تنقذ جلدك من نيران المحرقة ، فعليك بواسطة تبرهن
بها على انك غير خارج على تعاليمه » .

وركض الطبيب الى منزلة كالمجنون وهو يرتجف فرقا . وكان أجبن
خلق الله على الاطلاق . وعندما اختلى بنفسه بدأ يبكي ويلطم على وجهه، وينتف
شعر لحيته ؛ ويلعن الساعة التي ولدته فيها امه ، والساعة التي قدر عليه بها
ان يذهب الى اوروبا .

وفي اليوم الثاني أتهام (كالا صاحب) الخطير والذي يقول فيه
« ان الطبيب المذكور قد حقر آلهة الهند ومعابدها ، وفضل عليها حتى الكفرة
من البيض ، وان عملا كهذا من شأنه ان يفقد الناس ثقتهم بأنفسهم . » الخ .

وحقق الدكتور على أوربا وعلى كل علوم اوروبا واصابه شيء من جنون
الرعب ، ونشط عقله ليخترع وسيلة ينجو بها ، وبعد ساعة من الزمن تبسم
وقال لنفسه « لا اسهل من التملص من هذه الورطة . وعلى العلم الذي كان
السبب في هذا الاتهام تقع تبعة النتائج ؛ وعلى رأسه ستنصب النقمة » .

وانكب الدكتور صباح مساء على تأليف رسالة يثبت بها بأن البقاء في
بلاد الغرب وتحصيل العلم هناك يورث الانسان بالعدوى نوعا من الامراض

العقلية التي لم يكتشف الطب جراثيمها وطرق انتشارها والوقاية منها ، وان الانسان قد يشفى بعد رجوعه الى وطنه وبقائه فيه مدة تساوي اربعة امثال المدة التي قضاها هناك . ولكنه قد يرتكب في خلال تلك المدة بعض الحماقات الجنونية . ويقول في رسالته انه اكتشف هذا المرض في نفسه ، فقد وجد بعد انتهاء مدة الشفاء ، انه كان قد سلك في ايام المرض سلوكا معيبا جدا ، غير مبني على عقل ولا منطق ، ومن جملة ذلك ما جاء في مقدمة كتابه وهذا ما دعاه الى ان يفكر طويلا ، ويجري بعض التجارب على القادمين حديثا من الغرب، ويتأكد مما توصل اليه ، وقد قضى خمس سنين في اختراع دواء يكافح به هذا المرض الجنوني العجيب ، وقد كللت اعماله بالنجاح في ذلك اليوم المبارك الذي تسلم به كالا صاحب خادم الآلهة العظيم مقاليد الحكم ، وهو متعمد لتجربة الدواء امام الراجا وامام (كالا صاحب) .

وكان يوم التجربة يوما مشهودا ، حضره الوزراء ومستشار الدولة الانكليزي . واتى بتلميذ حديث التخرج من ارقى جامعات لندن الطيبة ، وكان المسكين يظن انه قد استقدم ليمتحن ، ولم يدر بما خبأته له المقادير . وسأله (كالا صاحب) « ما أفضل الادوية في العالم ؟ ومن أحسن الاطباء ؟ وأين كان أصل المدينة ؟ وهل هنالك حقيقة في العالم لم تخرج من الكتب المقدسة ؟ » .

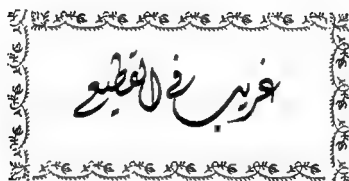
فأجاب التلميذ على كل تلك الاسئلة أجوبة نالت أعجاب المستشار الانكليزي ، وجعلت الهنود يهزون رؤوسهم وينظر بعضهم في وجه بعض استمزازاً ، وعندما قدمت كأس الدواء اليه رفض ان يشرب ، واصر على انه غير مريض ، ولكنهم جرعه الدواء بالقوة وكان الدواء مركباً من بعض السموم الهندية التي تحدث شللا في بعض اقسام العقل . وارتجف المسكين بعد ان تجرع السم ثم اغمى عليه مدة ثلاث دقائق . ثم قام بعد ذلك مصفراً ذاهلاً . وكان اول ما فعله بعد يقظته ان سجد للراجا وبكى من دون سبب ، ثم اخذ يقبل ايدي الحاضرين الواحدة تلو الآخر ، ولما اعيدت عليه الاسئلة

أجاب عليها أجوبة أحدثت عكس ما أحدثته الاجوبة الاولى . وعندها صرخ كالآ صاحب والزبد يتدفق من شديقه « فليتمجد الرب ! » وبهت المستشار وسأل طبيبه الخاص عن سر تلك الحادثة ، فطلب هذا الكأس للبركة فسمح له بها . وفي مختبره حلل بقايا الدواء ، وقدم تقريراً للمستشار فحواه ان هذا الدواء يشل قوى الارادة والشخصية ، ولكنه لا يقضي على التفكير ، فهو يقضي على الجرأة والحماس ، ولا يؤثر مطلقاً على المعلومات المخزونة ، ولا يفقد متجرعه الكفاءة العملية والفنية ، ولكن يفقده صفة الاعتزاز بشخصيته ، ويجعل منه آلة للتنفيذ فقط .

وبعد ان أتم المستشار قراءة التقرير تبسم ، وقدم بدوره تقريراً الى وزارة المستعمرات ، يشرح به مفعول هذا الدواء العجيب ، ثم بعث برسالة ودية الى الراجا يهنئه بهذا الطبيب العبقري ، ويطلب منه ان ينشيء مستشفى لتخليد ذكرى هذا الطبيب العظيم على ان يسميه (مستشفى العقل الخيث) .

أما هو فقد اطلق بينه وبين نفسه على ذلك المستشفى اسم (مصرع العقل) ، واطلق على الامارة كلها (مقبرة العقل) . ويقال أن كثيراً من الاطباء الهنود من تلك المقاطعة هربوا ، فأخلوا الجو للدكتور الذي تركوه يقاسم الراجا ، وكالآ صاحب السطوة والسلطان ، اما اعداءه فقد عضوا بنان الندم عندما رأوا انتصاره الباهر فنكل بهم شر تنكيل .

وبعد فان مثل حوادث هذه الاقصوة لا يمكن ان تقع في البلاد العربية ، لان العرب لا يعبدون الاصنام ، واذا وجد بينهم من يدعى الالهوية احتقروه ، واذا صاح صوت يشبه صوت كالآ صاحب هزءوا به ، وما دام الامر كذلك فلا حاجة لامثال (بابو جتتر بنارجي) ان يسلكوا مثل هذه السلوك المشين ، وكل هذا مما يخيف المستعمرين ويجعلهم يحسبون له ألف حساب .



غريب في الفقه

في بقعة من الأرض خصبة ، محاطة بقنن الجبال الشامخة ، المتسوجة بالثلوج الابدية الناصعة ، عاشت قبيلة هندية لا تعرف الخرائط لها موقعا. ولا يحفظ الجغرافيون لها اسماً ، اذ لم يتح الحظ لواحد من اولئك الرواد الأبطال ان يعبر تلك القمم الشامخة من جبال هيمالايا ، لتكتب له صفحة خالدة في التاريخ، ويضيف الى مستعمرات امته مستعمرة جديدة ، ويدخل في زمرة الابطال فيشيد بذكره ابناء الامة الآكلة والمأكولة على السواء .

هكذا بقيت القبيلة قروناً وأجيالاً ، لا تعرف من دنياها غير تلك الهضبة المحدودة التي تتصل أسوارها بالسماء ، كما تقول ديانة القوم . وتقول اساطير القبيلة أن ما وراء تلك الأسوار تسكن الجن والشياطين والارواح الخبيثة ، وان اله القبيلة «كازملان» هو الذي ضرب تلك الاسوار الحصينة بين القوم ، وبين ذلك العالم الجهنمي .

وظراً لضيق ساحة الارض كانت غلتها محدودة ضئيلة لا تكفي غير عدد لا يتجاوز العشرين الف نسمة ، مع مواشيهم وحيواناتهم . ولم يكن للقبيلة حظ من التقدم والرقى ، شأن كل من حيل بينه وبين العالم بمثل تلك الاسوار ، فظلت القبيلة في حالة ابتدائية حتى القرن العشرين . فما كانت تعرف عن تحديد النسل شيئاً ، وما كانت الحروب موجودة في هذا العالم الضيق لعدم احتوائه على امم مختلفة تخضع لرؤساء لهم ميول متنافرة وآراء متضاربة ، يلهون بتقديم خيرة ابناءهم الى المجازر في سبيل اهدافهم الحقيرة ، واطماعهم الاشعبية ، ويررون سخافتهم باختلاق نظرية فلسفية تشير الى ضرورة بقاء الحروب ، لآبادة العدد الزائد من السكان ، لذا كان من أهم اساطيرهم وأغربها تحديد عدد الرجال بقتل كل من تزيد سنه على الاربعين واطعام لحمه للباقيين . أما عدد الاناث فهو محدود ابداً لا يزيد على عدد معين واذا ما زادت المواليد

من الاناث على ذلك العدد قدمت المولودة المنكودة الحظ طعاماً سائفاً للملك وحاشيته في ولائم مربعة تقام لهذه الغاية .

في هذه البقعة العجيبة نشأ « بندلالا » من أب قوي البنية دؤوب على العمل يكد في فلاحة الارض واتماء المحصول ، وام طيبة النفس جميلة السيرة من نفس طبقة ابيه ؛ ولكن ما تنتجه تلك العائلة الكادحة النشطة لم يكن كله ولا اكثره لها ، وانما كان لها الثلث ، شأنها في ذلك شأن جميع العوائل التي تشبهها ، اما اكثر الغلة فتخزن في هراء الملك وكهنته .

كان « بندلالا » بكر ابيه ، لم ينجب غيره من الذكور اذ كانت مواليده اناثا ، ومن سوء حظه ان الملكة بقيت طيلة مدة زواجه لا تلد اغلب نساها ؛ غير الاناث وكان موعد ولادة ام « بندلالا » بعد بلوغ المواليد من الاناث العدد المحدد في قانون الملكة دائما ، فكان الاب المسكين يقدم فلذة كبده طعاما سائفاً لولائم السلطان التي كثررت حينذاك ..

وقد قال له طاهي الملك مرة مواسياً ، اذ اخذته الشفقة عليه ، لما رأى دموعه تسيل على لحيته ، وهو يقدم طفله المولودة حديثاً الى الجزار « لا تحزن ايها الرجل فقد سمعت الملك يطري لحم ابتتك ويمتدحه . ! » .

وأراد الكاهن ان يوجد عليه ببعض اللحم فرفض الرجل بأباء ، وخرج باكياً ، وكيف يستسيع لحم طفلة فجع بها ابواها كما فجع هو بطفله .

نشأ « بندلالا » بين النواح والدموع والنكبات ، فرق طبعه ، وأرهف شعوره ، وكثر تأله وحسه بمصائب الآخرين من ابناء طبقته ؛ فصار يفكر منذ طفولته بذلك القانون الغريب الذي تسير على سننه الملكة . وما كاد يبلغ العاشرة من سنه حتى اكتنه خوافيه ، وأتقن فلسفته ومبرراته والباعث اليه ؛ ومال الى التفكير بطريقة جديدة تنجي الملكة من شره .

وكان « بندلالا » غريباً بين رفاقه الاطفال لا يألف لعبهم ولهوهم ، ولا يلذ له سمرهم وعبثهم تكاد ان تحسه شيخاً في الحكمة والعقل . وكان

التفكير عادة له ، يفكر وهو في الفراش ، ويفكر عندما يساعد امه في اعمال المنزل . وكـم ألقى عليها من الاسئلة المربكة ما تحار في الجواب عليه ، ويفكر وهو يعمل في الحقل مع ابيه ، وغالباً ما يجد في ابيه عوناً على التفكير ، يجب على اسئلته الكثيرة اجوبة مقنعة . وكان اكثر اسئلته عن الجدران الصخرية الشاهقة التي تحيط بالمملكة ، فكأنه أدرك ملهماً انها علة النكبات التي تنصب على رؤوس سكانها الآمنين .

وبمدة قصيرة اتقن جغرافية المملكة ، وعرف اسماء كل جزء من قننها وجدرانها ومياهها ومظاهرها وخواصها ، وما تختص به من خير او شر حسب ديانة القوم . وقد لفت نظره من جغرافية مملكته كهف عظيم يشق أحد الجدران الصماء ، تخرج منه المياه التي تعتمد عليها المملكة في الري . وكانت تلك العين وذلك الكهف موضعين مقدسين عند القوم يعتقدون بانهما موطن الآلهة .

وقد نحت صومعه في ذلك الكهف يتعبد فيها رئيس الكهنة ويستشير الآلهة ، وفي الكهف منعطف مظلم يسجن فيه من يرتكب معصية دينية ، او يخرج على نظام المملكة او يغيظ الملك .

وقد كان « بندلالا » شديد الشوق الى رؤية باطن الكهف واستطلاع خفاياه ، وتمنى لو لم يكن محضوراً على غير الكهان ، وكان يحوم حوله يتمعن في بابه العظيم ، وزخارفه ونقوشه . وكانت آخر النكبات التي اصابته الفتى المسكين وافدحها ، مصيته بفقدان ابيه ، وذلك يوم بلغ ابوه سن الاربعين فقد حضر وامه مصرع ابيه كما تقتضي تقاليد القبيلة ، ولكنه رفض ان يشرب من الكأس الطافح بدماء ابيه الحنون ، وأصر على رفضه رغم تهديد رئيس الكهان ، فعوقب على هذه المخالفة بقضاء اسبوع في سجن الآلهة ، الافاعي السامة والعقارب القاتلة .

وكان حزن الفتى على أبيه وألمه لمصرعه المؤلم قد انسياء كل خوف وملا.

قلبه بروح التمرد والعصيان والثورة على تلك الأنظمة الهمجية والتقاليد الخرقاء ، فمضى الى سجنه بقلب لا يهاب المهالك ، وقد تمنى لو يلتقي بتلك الآلهة الدموية ، ليحاسبها على ما صبت على رأسه من مصائب وآلام .

فلما أصبح في الكهف ورأى ذلك النفق المظلم الذي تسكنه الآلهة ثارت لواعجه ، ومضى يعالج الباب ، ووجد لحسن حظه ان مركب مصراعيه قد وهى وتخلل بسبب القدم ، ولم يندل جهدا كثيرا حتى هوى الباب الذي يفصل بينه وبين كهف الآلهة . فقفز غير هباب ولا وجل حاملا زاده متوكأ على عصاه ، ويده الاخرى سراجة وغاب في ظلمة تلك الدهاليز الرطبة .

وأطلق ساقيه راكضاً عندما وجد ذلك الممشى الضيق على جانبي مجرى الماء قد تحول بعد مسيرة ساعة الى ميدان فيسح قد فرشت ارضه بالحص والرمل ، يستطيع ان يجري الانسان فيه بدون صعوبة مطلقاً . وبقي يركض ما يقارب الساعتين حتى وصل الى منطقة وعرة المسالك صعبة المرتقى ترتفع صعوداً بانحدار تدريجي ، وما زال صاعداً حتى اوشكت قواه ان تخونه ، وكاد يرجع القهقري ، لولا ان رأى في نهاية ذلك الكهف العظيم بصيصاً من نور متألق فتجددت قواه ، وقصد ذلك النور ، وهو يظنه من نور الآلهة ، وبعد ان قضى في كل سيره ما يقارب يوماً واحداً وصل مصدر ذلك الضوء ، فوجد باباً عظيماً لذلك النفق تدخل منه مياه غزيرة تأتي من جانب ذلك الجبل ، فقال في نفسه لاشك ان هذا باب مسكن الآلهة .

وخرج من ذلك الباب فرأى الشمس قد غابت ، ووجد نفسه على سفح جبل شاهق الارتفاع ، عظيم الانحدار ، تغطي قنته الثلوج ، وتنصب على جوانبه شلالات عظيمة يدخل قسم منها ذلك الكهف الذي اتى منه . ولم ير ما يشير الى وجود أحد من البشر او الآلهة . وكان الليل قد اقبل فأوى الى أحد الغيران حيث أكل زاده ، ومضى يفكر في تلك الخرافات التي يتناقلها قومه ، ويتمن بما فيها من خطأ مشين ، وتمنى من صميم قلبه لو يعود ليطلع قومه على ما توصل اليه .

في صباح غد انحدر فوق ذلك السفح الوعر ، ومازال ينحدر حتى وصل قبيل منتصف النهار سفحاً آخر يشرف على واد يزهو بالخضرة النضرة فأسرع اليه ، وعند العصر ادركه ، فوجد انه جنات تحف بقرى جسيمة عامرة بالسكان ، فيها من آثار العمران العجيب ما كاد يذهله ويخرجه عن صوابه . ورأى في تلك القرية شيوخاً قد تجاوزوا سن الأربعين فظنهم لاول وهلة كهاناً او امراء من العائلة المالكة قد اغفوا من القتل . ووجد القوم يتكلمون لغة لا يفهمها ، ولكنه ارتاح الى كثرة اهتمامهم به ، واستأنس بامارات اللطف والحبور ، التي بدت في وجوههم عند رؤيتهم اياه .

بقي « بندلالا » مع هؤلاء القوم خمس سنين تعلم خلالها لغتهم وعلومهم ، وأتقن فلسفتهم ، وعرف انظمتهم وتقاليدهم التي تخالف كل ما اعتاد عليه كل المخالفة ، وجدهم لا يثدنون الاناث ولا يقتلون الكهول . يرحبون بالغرباء ، ويقرون الضيف . ووجد ان اراضيهم تسع اضعاف سكانها ، وغلثهم تكفي اضعاف اضعافهم ، فاسند ما تحويه طباعهم من مسامحة ولطف وحب الغير الى سهولة العيش عندهم .

وبعد ان قضى بين ظهرائهم هذه المدة الطويلة تذكر بلاده وأوطانه ، وتذكر اهله وما هم عليه من تأخر وهمجية ، فروى خبرهم لعلية القوم ، واستشار نخوتهم لمعوتهم وارشادهم ، فترع خمسة منهم ما بين شيخ وشاب وكهل لمساعدته في اتمام هذه المهمة الانسانية . وبعد ان حملوا معهم من نقائس ماتحويه بلدتهم من تحف ومأكل ومشرب ، قصدوا ارض الآلهة (كازملان) سالكين عين النفق الذي قدم منه (بندلالا) . وبينما كانوا يجتازون تلك السرايب الغريبة اشار بندلالا الى ازدياد كمية المياه المتدفقة في النفق عما كانت عليه اولاً ، ثم لفت انظار المرشدين الى ازدياد سعة الاثاق . وكانت كتل عظيمة من الصخور تتساقط بين آن وآخر فتعرض حياتهم للهلاك وتحدث دويّاً هائلاً يمتز له الجبل اهتزازاً .

وقال احد المرشدين — وكان شيخاً طاعناً في السن — لقد رأيت في حياتي
نكبتين من اقصى النكبات حدثت بسبب حفر المياه في اساس الجبل ، وذلك
ان الجبل يبرك في بعض الاحيان فيطمر قرى او بلاداً آمنة بأسرها •
وحث المرشدين الخطي وقطعوا النفق بعشر ساعات •

وكان اول من رآهم عند خروجهم من النفق ، في ارض الآله كازملان، فلاح
كان يحرق الارض ، فادهشته هيئاتهم ، وظنهم آلهة ، فسجد امامهم مرتجفاً ،
فهدأ (بندلالا) من روعه ، وتكلم معه بلغته الوطنية ، ثم اخبره بأن الآلهة
قد أرتة وجه الصواب ، ورسلة لارشاد قومه المساكين ، وانذارهم بخطر
عظيم ماحق •

واسرع الفلاح فاذاغ الخبر في المدينة حتى بلغ مسامع الملك، فاسرع هذا الى
مجلسه قرب الهيكل ، ومعه رئيس كهنته ، وأمر باحضار هؤلاء الرسل •
ولما استقر مجلس السلطان تقدم بندلالا فسلم على الملك ودعى له باليمن
والبركة ، ثم ارتجل امامه خطاباً فقال

« ايها الملك العظيم الشأن ! ان الآلهة وهبت الانسان عقلاً يتعلم
بالحواس والتلقين ، ثم يفكر باحسن واسطة يحافظ بها على حياته وعلى نسله ،
وكلما ازداد عدد المراتب والمسموعات ازداد العقل حكمة ، واصبح اكثر قابلية
لايجاد انظمة مسعدة مفيدة • اما اساطير الدين فيجب ان تكون دائماً باتصال
مع العلم والمنطق العقلي ، والا فقدت قيمتها ، اذ يتقدم عليها العقل ، ثم يهملها
ويحتقرها ويثور عليها ، وهذا نصيب التقاليد ايضاً • أيها الملك ، أن سكان
هذه المملكة الصغيرة المحاطة بهذه الجدران الصماء قد فرضو على انفسهم
نظاماً قاسياً مرعباً الجأتهم اليه ظروفهم ومعلوماتهم وظيق عقولهم ، حتى غدوا
يقضون حياة مرة متعبة ، يملؤها اليأس والحرمان • يكبد الرجل اربعين سنة
ليقتل ويطعم لغيره ، او تلد النساء البنات ليقدمنهن طعاماً للولائم • اما عادة
استساغة اكل الغير فهي شر العادات وأقساها ، اذ تفسخ الروابط الاجتماعية،

وتولد الكره ، وتجعل مهمة الحياة صعبة شاقة ، فلو فرضنا اننا استطعنا العثور على ارض اوسع من ارضنا واكثر غلة ، وتعلمنا من اصول تربية الحيوانات والزراعة ما يحسن المحصول ويكثره ، لتناسي الناس هذه العادة الذميمة وعاشوا ناعمين سعداء •

ايها الملك ، لقد قادت الآلهة قدمائي واشدتني الى ارض اوسع من هذه آلاف المرات ، فيها من الخيرات اضعاف ما في هذه ، جوها لطيف ، وسكانها كرماء ، قد وهبتهم الآلهة قوة في العقل وسعة في الصدر ، وسيرحبون بنا اذا ما قصدنا ارضهم واتقلنا عندهم ، وهجرنا هذه البقعة المهددة بالخراب • لقد حداني الى الرجوع الى هذه الارض حبي لهذا العدد العظيم من هؤلاء الذين لا يعرفون للضحك معنى ، ولا للراحة مفهوماً ، ولا للتعاون وحب الغير مبرراً •

سأقودكم بنفسي الى ارض الخيرات التي اتينا منها بهذه الهدايا ، حيث نبني مدينة اعظم من هذه وأجدر بالحياة ، وسوف لا يكلفنا ذلك غير مسيرة يوم في نقى الآلهة •»

ولما انتهى بندلالا من خطابه ، نظر الملك في وجوه الناس فرآها منطلقة مستبشرة ، والتفت الى حاشيته وكهاتته فرأى وجوههم عابسة قاتمة • ورأى الحشد رئيس الكهان يتقدم من الملك فيلقي في أذنه بعض الكلمات •

وعلى اثر ذلك نهض الملك وأعلن انه سينظر في اقوال ذلك الفتى بعد ان يستشير رئيس الكهان والآلهة ، وحدد للجواب عصر ذلك اليوم • ولما ان آن الأوان لسماع جواب الملك وكهنته ، اجتمع الناس في الساحة امام القصر ، وهم ما بين متفائل ومتشائم • وكان اكثر الجميع شوقاً الى سماع النتيجة بندلالا واصحابه •

ونهض الملك فقال

« ايها القوم ، ان هذا الشيطان الآبق (بندلالا) عاصي الآلهة وخارق نظام المملكة ، والهارب من وجه العدالة ، قد ذهب بتحريض روحه الشريرة الى بلاد الشياطين ، وعاد ومعه من الابالسة خمسة يعني اخراجنا من ديارنا وتسليمتنا الى شياطين العذاب لتمحق هذه الامة . وقد استقتى الكاهن الاعظم الاله (كازملان) في أمرهم ، فأشار عليه باحراق اجسادهم ودفن رمادهم في اعماق الارض ، اذ لا يسوغ أكل جثثهم النجسة . »

ولما انتهى الملك من كلامه سرت دمدمة رعب وسخط على (بندلالا) ورفاقه وتقدم الكهنة فساقوا بندلالا ورسله الى المحرقة بين صياح الجمهور المتعطش الى الانتقام وضجيجهم .

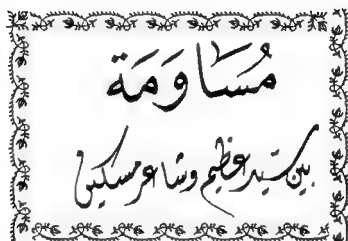
وطلب اكبر الرسل سناً ان يسر الى الملك شيئاً قبل ان يذهب الى المحرقة؛ فأذن له فتقدم من الملك واسرني في اذنه .

— « ايها الملك المسكين ، انك ادري وكهنتك بكذب ما ادعيتموه ولا انكر ان من صالحكم ان توهموا الناس بكذبنا خوفاً على سيطرتكم وطفيانكم ، ولكني اؤكد لك ان الجبل سيرك فوقكم عما قرب ، فيظمر قراكم ويدفنكم تحت جنادله وأتمم أحياء . ولا اعترض على الحكم الذي اصدرته بحقي وحق رفاقي ، فقد بلغت ارذل العمل ، والموت في سبيل الخير والحق نعمة عظيمة في شريعتنا . ولكني احب ان اراك تعمل بعد موتي بهذه المشورة فتتجو انت وقومك من هذا الخراب المالحق . »

فسخر الملك من كلام الشيخ وأمر الكهنة ان يسوقوه الى المحرقة .
وتقدم الرسل من المحرقة بقلوب ثابتة وأوجه مستبشرة .

وبعد يومين من اعدام اولئك الرسل ، وبيئما كان القوم قرب كهوف الآلهة محتفلين باحد اعيادهم الدينية ، سمعوا دمدمة عالية تأتي من جوف الجبل، اعقبها دوي هائل فجرت في اثره المياه من الكهف ، ثم انصدع كهف الآلهة

وزلزلت الارض زلزالها • ورأى القوم وقد شل الرعب قواهم ان الجبل
باجمعه يزحف نحوهم في دوي هائل يصم الآذان •
هكذا طمر الجبل قرى الآله (كازملان) وطمر ساكنيها ، فلم يبق لتلك
الامة الغريبة ذات التقاليد العجيبة اثر يذكر ، الا ما ترويه اساطير الاقوام
السكنة وراء الجبال •



جلس السيد العظيم على عرشه الصغير ، وقد دب الغرور في جسمه ،
وتسربت العظمة الى لحمه ودمه ، ولكنها لم تنزل عليه من فوق ، بل صعدت
اليه من تحت ، من ذلك الكرسي الخشبي الذي لا يساوى في حد ذاته بضعة
دراهم ، ولكنه وامثاله يدعون ان له قيمة معنوية مستمدة منهم ، والحقيقة
ان قيمتهم مستمدة منه ، ولا عكس •

ما كان عالماً ، ولكنه اصبح عالماً عندما جلس عليه ؛ وما كان شاعراً ،
وكنه اصبح شاعراً حينما جلس عليه ؛ وما كان فيلسوفاً ، ولكنه اصبح
فيلسوفاً بعدما جلس عليه ، وما كان شيئاً مذكوراً ، ولكنه اصبح كل شيء
لأنه جلس عليه •

لقد اصبح في استطاعته ان يأمر وينهي ؛ وينصب ويمزل ؛ ويرفه ويقتل • اذن
فيجب ان يكون مرهوباً ترتجف امامه الناس وترتعد •

واشتهى ، وهو جالس على عرشه ، كل ما يشتهيه بشرفان ، واشتهى ما
يشتهي الخالدون • امر بالصحف ان تشيد باسمه ، وامر اتباعه ان يهتفوا
بجياته ؛ وامر برؤوسه ان يمثلوا امامه مهازل الذل والعبودية ، فاطاعه
البعض خوفاً من شره ؛ وسلم آخرون له زمامهم رجاء نواله ، ولكنهم كانوا
لا يلبثون ان ينتقموا لكرامتهم المهانة ، ولنفوسهم المستذلة عندما يخلوا بعضهم
الى بعض ، فهم يعرفون كيف يسخرون منه ، ويضحكون على ذقنه ؛ وينسجون
حول اعماله قصصاً وخرافات ، ويضربون بحماقته الامثال •

واراد احد هؤلاء الخبثاء ان يورطه بما يريه قدر نفسه ، ومبلغ حماقته
فهمس في اذنه

« في البلد شاعر مفلق ، يسير بذكره الركبان ، فهلا طلبت منه أن يخلد اسمك بقصيدة ، كما يخلد الشعراء العظماء في كل عصر وحين » •

فانبسطت اسارير وجهه وسأل المقترح

« كم قصراً يملك هذا الشاعر ؟ »

فقال له « انه لا يملك شبراً من الارض حتى ولا قبراً لرفاته • »

وسأل « كم قنطاراً من الذهب عنده ؟ »

فاجابه « اذا زاد ما عنده على قوت يومه اعطاه لغيره • »

فسأل « وكم ثمن دواوين شعره ؟ »

فاجبه « انه لا يبيع شعره بذهب ، بل يجودبه على البعض ويمسكه عن البعض • »

قال « اذن فارسل وراءه ، ولنر ما يستطيع ان يقول في تمجيدنا • »

ودخل عليه في الموعد المضروب صعلوك زرى الشياب ، مغضن الأهاب ، على شفته ابتسامة ، ومن عينيه تنبعث اشعة خارقة •

فسأله السيد العظيم « هل انت الشاعر الخطير الذي يتحدث بخبره الناس ، وتسير بذكره الركبان ؟ »

فاجابه الرجل بصوت لطيف « انا شاعر ياسيدي ؛ ولكن لست خطيراً • وقد يتحدث الناس بذكري ؛ وهذا كرم منهم • »

فقال « او تستطيع ان تخلدني بقصيدة ؟ »

فاجابه « اجل ولكن اريد الثمن مقدماً »

فقال السيد « سالبسك فاخر اللباس ؛ وأطعمك اطيب المأكولات ، واملا جيبك ذهباً ، واضع في يدك قوة ليخاف منك الناس • »

فاجابه « ارى انك طفل صغير ايها السيد • ان ثوبي هذا جميل في

نظري خفيف على جسدي ، لا يخفى مساوئي فاتخلص منها ، ولا يطوى محاسني فيراها كل الناس . واما الأكل فلدي منه ما يكفيني ، ولست ممن يرغبون في التخمّة ، والمآكل الدسمة ، وما فائدة وضع هذا المعدن الثقيل الذي تسونه ذهباً في جيبى . لو اردت ان اثقل جيبى لملائته بالحصى ولا فرق بين الاثنين اذا كان القصد ثقل الجيب . وعندى من القوة شيء كثير ، ولكنها قوة يطمئن اليها الناس ، ولا يخافون منها . فهل هذا كل ما لديك من ثمن ؟

فبهت السيد المطاع وقال « اذن فماذا تريد ؟ »

فقال الشاعر « اني لا اريد شيئاً مما ذكرت ، واذا كنت تستحق مني قصيدة عصماء فسوف لا ابخل عليك بها . فقل لي كم مظلوما نصرت ؟ وكم حقيقة اظهرت ؟ وكم كذابا اخrst ، وكم لثيماً كسفت ؟ وكم سخافة ابطلت ؟ عدد لي ما لديك من هذه المآثر فذلك هو الثمن ، وسأخلدك بقصيدة عصماء لم يسمع بمثلا الاوائل » .

فقال السيد « انا صاحب الصولجان ، والعظمة والسلطان ، يرهب الناس سطوتي ، ويرتجفون امام بأسى وقوتي ؛ احوّلهم الى اصنام باشارة ، والى حجارة بمبارة . انزع عنهم سلطانهم بجرة قلم ، وارفعهم من الحضيض بكلمة - يأكلون ويشربون ويلبسون كما اريد ، ويتحركون ويعملون ويفكرون كما اريد ، ان في استطاعتي ان احوّلهم الى عصي اضرب بها من اريد ، وسيزداد عددهم يوماً حتى يبلغ الحد المطلوب ، وسأقدمهم حينذاك قرايين احرقها امام نصب الجبروت والظفیان ؛ وسترتفع حينذاك اناشيد الظفر والمجد حولي » .

وابتمس الشاعر ابتسامة ساخرة وقال مشفقاً :

« ايها الصم المتحرك ، ايها العقل المتحجر ؛ ايها القلب المتصلب ، وافت من الضعف بحيث تأكلك الحجارة والجماد . او ما ترى كيف ان قطعة من

الجماد ، وجزءاً من جسم شجرة ميت ، قد لواه وطواه وصقله نجار حاذق ،
حتى جعل منه اداة للجلوس ، قد طغى على جسمك ، وعلى قلبك ؛ وعلى عقلك
فاشغلها ولم يترك لك ما يشير الى انك انسان . سيضحك عليك العقلاء ،
ويسخر منك الجهلاء ، ويأسف على عقلك المضاع الحكماء ؛ ويحتقرك الشعراء ؛
هذه هي القصيدة التي تستحقها ، ولست اعرف من هو احق منك بها ، فقرأها
صباح مساء ، علها تصلح منك ما فسد كرسيك .

غضب السيد وزأر ، وصاح وزمجر ..

ونادى رئيس ديوانه وطلب منه ان يلقي لهذا الرجل القليل الحياء تهمة
مناسبة لا تلم من عظمته ، ويرسله الى السجن .

فضحك الشاعر وقال « انني جزء من الكون ، تطيب لي كل بقعة ،
ويؤنسني كل الناس ، والسجن في نظري ملهى ومنتزه ؛ بل قصر رحب
الأركان ؛ جميل البنيان ، وسيكون لي فيه اصدقاء واخوان . اما انت ياسجن
الكروسي فقد اخترت لنفسك اصفر السجون ، ضيقاً لا يسع سواك ، ولا
يشاركك فيه من يستمتع بلواك . »

ومضى الشاعر صجة رئيس الديوان ضاحكا مستبشراً ، يتخفه بنكته ،
ويخفف عنه بخفة روحه ، وبذلك الجلسة الصغيرة معه ملك قلبه ، ولما آن
ان يفارقه تمنى رئيس الديوان من كل قلبه لو تطول مدة بقاءه عنده ، ولعن
السيد الأحق من كل قلبه ، وتمنى لو تخسف به الارض ، او تنطبق عليه
السماء . وكان للشاعر صديقاً جديداً .

ورافقه الشرطي الى السجن ؛ فلم يجده يشكو او يتألم بل رآه يسير
وديعاً لطيفاً مبتهجا ، كمن يسير الى وليمة فأدهشه امره ، وبادله الحديث ؛
فغنى له الشاعر تشيد الشرطة المنكوبين ، وما يقاسونه من عنت وجور ،
وظلم واضطهاد ، فحن له الشرطي ومال اليه ، وشعر بأن عقل هذا الرجل جزء

من عقله ، وعواطفه رقيقة ككلامه ؛ فكم يعرف من اموره ، وكم يتألم لمصابه ؛ فكان للشاعر صديقاً جديداً •

وتلقاه مدير السجن ، وكان من المولعين بقراءة اشعاره ، وسماع اخباره ، فاحتضنه وقال « سأحترك يا صديقي من الصباح الى المساء ، لاطرب قلبي بانشادك ، وانير عقلي بمرر كلامك ، فاي نعمة عظيمة هذه ، واخشى يا صديقي ان يكون وجودك في السجن سبباً في ملازمتي له ، وكيف استطيع ان اترك محلاً تحل فيه » •

فعانقه الشاعر وقال

« سأعيش معك ومع اخواني داخل السجن ، فان اعجبك فكن معنا ، عليك يا صديقي قبل كل شيء ان تعرفني بزملائي هؤلاء واخواني في هذه الدار التي قد يطول فيها سكني » •

وقدموا له السجين الأول فسأله عن ذنبه فاجابه السجين :

« اختي زنت ياسيدي فقتلتها ، لان تقاليد العشيرة تأمر بذلك ؛ ولو لم افعل لما استطعت أن ارفع رأسي بين أهلي وعشيرتي ولاصبحت مصدر عارهم الذي لا تحبوه الاجيال » • فرق له وقال « افت ضحية بائسة ، كان على القانون ان يسجن العشيرة كلها ويطلق سراحك » •

وقدموا له السجين الثاني فسأله عن ذنبه فاجاب : « لقد ولدت في بيئة منحطة تتفاخر بالقتل وسفك الدماء ؛ مقياس الرجولة عندها الخناجر الملوثة بالدماء ؛ وكنت شاباً يانماً نزعاً مغروراً ، فاجبت ان اترك من الاعمال ما ارفع به قيمتي بين صحبي واقراني ، فقتلت • أجل لقد ذبحت انساناً فضحك الشاعر وقال « لو انصفوا لجعلوك في محل هذا السيد الذي بعث بي الى السجن ، فهو ايضاً يمشق سفك الدماء ، والفرق بينك وبينه هو انه كاذب وجبان رعديد ، لا يستطيع ان يفعل ما يقول ، اما انت فتفعل اكثر مما تقول ؛ فانت سيد سفكة الدماء وزعيمهم الجبار » •

وقدم له آخر فسأله عن ذنبه فقال « انه اوشك ان يموت جوعا فسرقت رغيفاً ، وكان قد طلب عملاً قبل ذلك فسدت في وجهه السبل » • فرق له وقال « يا صديقي المسكين او لم تسمع بي ؟ لو كنت قد اتيتني لقاسمتك بما عندي فضحك السجين وقال : « ولكنك لا تستطيع ان تقيتي كل الحياة • اما السجن فيقدم لي غذاء كاملاً كل يوم ، فانت ضيفي الآن بدلاً من أن أكون ضيفك » •

وقدم له آخر فسأله عن ذنبه فوقف موقف الخطيب وقال « لقد قلت ان الله قد قسم الارزاق على الناس على عكس نسبة اعمالهم وفائدتهم للبشر ، فاعطى افراداً قائلًا قناطير من ذهب وفضة ، وحرم الملايين من الخبز ، وانعم على الجبناء والخونة بألقاب البطولة والظفر ، ووصم الشهداء الذين يسقطون في سوح الجهاد بوصمة الجريمة والخيانة » • فقال له الشاعر «لقد ظلمت الله ، فان كل ذلك من عمل الشيطان لا من عمله ، وقد خفى عنك ان الناس يعبدون الشيطان الآن • ولا يعبدون الله ، وانهم لذلك يتقنون من انفسهم بأنفسهم ، وينهشون لحومهم باستانهم » •

وانتهى من دورته على المساجين ، وقد شعر بأنه في احسن بقعة ، وبين اطيب الصحب ، واخلص الرفاق • وحلم بحياة جميلة سيقتضيها بين هذه الجدران ، بعد ان مل التجول والتشرد •

وسأله بدورهم « ولكن باي ذنب ساقوك انت الى السجن ؟ » •

فقال الشاعر : « لعل تهمني صادقة اكثر من تهكمك جميعاً • لقد اتهمت بالرغبة في هدم هذه الاصنام، فحكم علي هؤلاء الاصنام بان اقضي وقتاً معكم ، ولعل هذا العمل هو الاحسان الوحيد الذي آتته هذه الأصنام دون قصد ، فكانت فيه فائدة ، والله في خلقه شؤون » •



ها هي الدنيا كلها ضده ، كلها بمن فيها من اصدقاء واعداء واذكياء
واغبياء واغنياء وفقراء • وليست هذه الدنيا غير ديناه الصغيرة •• دنيا وطنه
وبلاده ، بسهولة وهضابها وانهارها ووديانها •

لقد أولع بامور كثيرة في حياته ، وجرب كثيراً من المتع • وكان في كل
ما خبره من لذات وآلام ، وافراح واتراح ، يرى وجه الحقيقة يلوح جلياً
من وراء تلك الاستار المزخرفة • وما كان أعمى كغيره لا يرى غير البراقع
والحجب ، بل كان تهاذ البصيرة ، حديد النظر •

وفتنه ذلك الوجه ، فهو في عشقه وتوله بمرامه ؛ وكره تلك الاستار
والحجب التي تشوه ذلك الوجه الرائع الجميل ، وتملكته رغبة جامحة في
تمزيق تلك الأستار ؛ فانقض عليها بجنون ، ومضى يعمل فيها تمزيقاً وتقطيعاً ،
ووجه الحبيبة يتسم له مشجعاً •

وما كانت تلك الأستار والحجب الا خرقاً قدرة ، علقها المفرضون
ليكتسبوا حق الادعاء بملكية ذلك الوجه واستخدامه لأغراضهم الخاصة •
وكان كلما مزق رقعة من تلك البراقع ، آثار ضده كتلة من الناس الذين
يسس ذلك التمزيق مصالحهم ويكشف من نواياهم • فثار عليه الاشراف اولا
اذ سمعوه يقول : ان الشرف لا يورث ، وان الحمد والتمجيد لا يفتصب ،
وان العظمة لا تفرض فرضاً على الناس ، ولا يستحقها الا اولئك الذين يذلون
في سبيلها كل مرتخص وغال

وثار عليه رجال الدين لما سمعوه يقول عنهم انهم لا يملكون من الدين
شيئاً • اذ ما هم سوى انصار الشيطان قد تزوا بزبي اعدائه بغية التستر
وخداع المؤمنين السذج واستغلالهم • وأقام رجال العلم وأقعدهم لما برهن

على ان العلم قد اصبح في يد أدعيائه كمفتاح خزائن غنية قد سقط غفواً في ايدي لصوص ، فمكنهم من السطو على ما فيها دون خوف ولا وجل •

وثار عليه اصحاب المباديء عندما بشر بقول الشاعر

احبولة الدين رثت من تقادمها

فاعتاض عنها الورى احبولة الوطن

وثار عليه اصحاب المناصب يوم اعلن ان هذه المناصب ليست الا لخدمة الجمهور الذي يدفع من عرق جبينه ما تتطلبه من رواتب ومصاريف • وانهم لذلك خدّم الجمهور ، وليسوا سادته ، فليس من حق الخادم ان يضطهد سيده •

ونقم عليه اصدقاؤه لما انكر كلمة الصداقة وسماها باسماء مضحكة مزرية ، وسخر باولئك الذين يتاجرون بالصداقة ، ويتداولونها بابخس الاثمان • يشترونها بأكلة ويبيعونها بسيكارة ، ويشنقونها في سبيل وظيفته ••

وثار عليه اهله واقاربه لأنه منعهم من ان يستخدموا اسمه المحبوب عند البعض ، والمخيف عند آخرين ، واسطة لجر مغنم أو دفع مغرم •

ولم يهتم بكل اولئك قيد شعرة ، ولكنه شعر بفصة عندما رأى زوجته الحبيبة ، التي طالما حدثته بانها الوحيدة التي تحبه من بين الناس اجمعين تحب منه اخلاقه وجرأته ورجولته ، يوم كان عامر الجيب! اما وجيبه على وشك الفراغ ، فما هي ذي تلك الزوجة الوفية المضحية تعبس في وجهه وتعلن الحياة والاقدار مراراً أمامه بسبب وبدون سبب ، كأنها تريد أن تفهمه بأنه مسؤول عن هذا التشاؤم في طبعها المرح •

ولقد سمعها مرة تحدث امها ، وكانت امها حيزبونا لعينة تقيس طيب الزواج وصلاحه بما يوجد به على البيت من دارهم • وما فائدة الزواج في نظرها اذا كان الزواج لا يدفع ؟ وتلك حكمة تفتخر بها لانها قد قالتها ولم يقلها احد غيرها • سمعها تهمس في اذن ابنتها المدللة وتقول : ما تحبين في هذه

المجنون المغرور الخشن الذي يكرهه كل الناس ؟ انه ليس من ذلك النوع الذي يلتصق بمن لا ييدي رغبة في قبوله ، وتلك لعمرى من جملة حماقاته • عليك بهؤلاء الذين يخطبون ودك ، وبينهم الجميل والطريف والسخي • وأحقر من فيهم احسن منه • فأشيرى الى واحد منهم ، واطهرى لهذا المألوف النفور ، وسوف يتخلى عنك •

فاستجابت البنية المدللة للنداء ، وكشرت عن انيابها ، وما كاد يرى تحولها الذي بدا في ميولها وتذمرها ، حتى صارحها بأسلوبه المعهود فقال : « انسى اخو صراع وجلاد • قد اشتهرت حربا على الدنيا ومن فيها • سيلازمني الهمم ويخامرني الغم ، وسأسقط في شتى الخطوب والمهالك • أترك تستظعن مجارتي في هذا المضمار ومقاسمتي باوصابي ؟ »

فأجابته وعلام هذا الجنون منك ، ومن أوكلك بالعالم وأقامك وصيا على أبنائه وقيما على نظمه وقوانينه ؟ لماذا لا تكون كغيرك لاكون كغيري زوجة معززة مكرمة عندها كل ماتريد ولديها ماتشتهي وتحب ؟ » •

فشعر بقليل من الالم لاول مرة في كفاحه ، وأجابها بأباء : « لا عليك يابنية • اني قد خلقت من غير طينة الناس ، وقد اكون اسوأهم ، وليس لي طاقة على ان اكون بغير هذا الشكل • ولكن ليس من الانصاف ان اروضك هذه الرياضة الشاقة فامرك بيدك • »

وهمس الذي اغتصب منه زوجته في اذن تلك الزوجة الوفية « ياله من احق مأفون لا يقدر ما بيده ، ولا يفار على جواهره الثمينة • هذه من جملة حماقاته الكثيرة ، اذ كيف تكونين زوجته ولا يكرس كل حياته لفصل قديمك الجميلين ولا يتفانى في خدمتك وعبادتك • »

فقالت وهي تنظر غنجا ودلالا « انه مجنون ، ولكن جنونه هادى لا يؤذي ، ولولا ذلك لما تركني متاعاً سهلاً لمن هم اكثر منه مالا واعزاً نقرأ • »

وها هو ذا في دنيا مقفرة ، لا صديق له فيها ولا رفيق ولا أنيس ،
هو ذا يمشي في مناكب الارض بين همس غريب مربب يحيط به من كل جانب
ونظرات حائرة بليدة تسأل اي نوع من البشر هذا ؟ لقد طاردوه مطاردة لا
هودة فيها ولا لين ، بنظراتهم وفضولهم وأنانياتهم ، وكانت تكني لتعكير صفوه
نظرة شزراء ساخرة ، فهذا الذي يتحدى الملوك والامراء والعظماء والأثرياء
قد تخجله نظرة من صعلوك .

واقادته قدماء المنهو كنان يوماً الى ضاحية منعزلة . وكان النسيم
مسججاً ، والخضرة يانعة ، والجو رائقاً جميلاً فترجع على الارض ، وقد
وجد ان قلبه قد امتلا عطفاً ، وامتلا رأسه نوراً ، وجرت الدماء في شرايينه
فاراً ، فاسرعت يده الى دفتره وقلبه ، وتدفقت الكلمات والسطور ، وامتلات
الصحائف وحيّاً رائقاً جميلاً طاهراً كذلك البقعة وذلك الجو الخالين من
دنس بعض البشر وانحطاطهم المشين .

وقبله النسيم العليل ، وداعبت الشمس رأسه وشعره المبعر فارتمى
في احضان الارض ، والصق وجهه بالعشب الندي ، واغض عينيه ، ورأى
حلماً .

وجد نفسه في بقعة خضراء هادئة زهراء ، ينيرها نور وردي يسلا الكون
ويضفي على النفس بهجة وسرورا ، وسمع اغنية حزينة تتردد في الفضاء ،
وتحمل الى انفوس ارق العواطف وأطيب الأحاسيس ، فاشرق وجهه اذ ادرك
ان هذا صوت عشيقته ، فسار ممدود اليدين نحو الأفق ، وكان كلما اقترب
من الصوت ازداد وقعه في اذنه عذوبة وسحراً ، ولكن الغناء كان حزيناً
يحمل في تضاعفه همّاً ثقيلاً وبؤساً موجعا يستدر الرحمة ويسيل الدموع .
وبعد ان سار أجيالا وقطع أميالا وصل الى جنة زاهية تجري من تحتها الانهار
في وسطها عرش من الذهب فوقه حسناء لم يخلق الله لها مثيلا ، قد صنع
جسمها كما يشتهي الشعراء ، وفي نبرات صوتها كل ما في الموسيقى من عظمة

وفن ، ورآته مقبلا فزاد صوتها شكاية وازداد لحنها انينا ، وكانت تنطق بما لم يسمع بمثله الخطباء ، وفي كلامها من العجى والعقل مالم يحلم بمثله الحكماء . ورآها عن بعد وكاد قلبه يتقطع اسى عندما رأى أصفادا من ذهب تلمع حول راسها ، وكأحليها .

وتحفر ليقطع الوادي الذي يحول بينه وبينها فاجمده أن سمع زئرا مربعا ملا الآفاق ، ورأى ، وبالهول ما رأى ، ثعبانا هائلا كتلك الثعابين الاثرية الجيولوجية التي لم ير العالم غير هياكلها العظيمة في المتاحف ، قد وقف على الجانب الآخر من الوادي ينث من فيه نارا ودخانا ، ويرمي من عينيه اللتين تشبهان بركتين من الدماء شررا مستطيرا . وارتفع صوت الفتاة الشاكية ، فالهبت الدماء في عروقه واتبه الى سلاح يحمله عصى كبندقية صيد مصدئة قد اكل الدهر عليها وشرب ، ولم يتردد ، ورفعها وسدد المرمى الى الوحش ، ووجد ماسورة بندقيته لينة ، حتى انها لا تستقيم عند التسديد كعصى من خرق ، فقومها باحدى يديه ، وحرك الزناد باعصاب ثابتة ، واطلق ولم يسمع صوت طلقة ، ولكنه احس بصوت خافت ورأى خردقة واحدة تفلت من الرصاصة ، وتمرق امامه بكل وضوح ، ورآها تدخل في رأس الأنفي في فجوة لينة قرب اذنه غير المكسوة بتلك الحراشف ، التي تشبه الواحدة منها ترسا . ولح خيطا من الدماء ينبثق من مدخل الخردقة ، ثم رأى الوحش يتمرغ على التراب حتى همدت حركته . واتبه من حلمه فوجد رجلا وأمرأة بقره .

وسأله الانثى : « هل كنت تحلم بحبيبتك ايها الفتى المسكين فاجابها : أجل وقد رأيتها ، وكان لابد من قتل الوحش قبل الوصول اليها .

وسأله الذكر : وهل كان بينك وبينها وحش •

فأجابه : أجل يا صديقي ، وإن له لعينان حمراوتان كعينيك وفحيح غريب
كضحكتك • ولكنني لم أخف منه ، بل هجمت عليه بسلاحي هذا » •
وابتعد الاثنان عنه بعد أن هز قلعه في وجهيهما وهما يتتمان اشفاقا
« يا للشباب المسكين • أنه مجنون »



رَقْصُ الْمَقَابِرِ

Dance Macabre

اعتدت أن القي نظرة استفهام الى سيروب ، كلما مررت بحانوته .
ويشهم السيد سيروب معنى نظرتي جيدا فيتم ويرد تحيتي ويقول « لا جديد
هذا اليوم » أو يستوقني ويشرني بوجود ما ارتاح الى اقتنائه .

وعصر البارحة استوقني ، وأبأني بورود كمية كبيرة من الاسطوانات
الجديدة وقال « لست أشك بأن بعضها سيمجيك ، فتعال اسمعها » .

وليت النداء اذ لست ممن يستطيعون مقاومة مثل هذا الاغراء .
واعطاني قائمة كبيرة تحوي اسماء القطع الموسيقية التي وردته حديثا ، فالتقت
نظرة سريعة على القائمة واستوقني اسم غريب (Dance Macabre) وتحتها
معنى الكلمة بالانكليزية (رقص الموتى) وتبادر الى ذهني المعنى العربي
مقترنا بالكلمة العربية القريبة من لفظ (ماكابر) الفرنجية ، وهي لفظة (مقابر)
فقلت « كم تكون الترجمة حرفية لو ترجمت هذه العبارة (برقص المقابر)
وجالت برأسي خواطر كثيرة وصور عديدة ، تدور كلها حول قصد الملحن من
وضع هذه القطعة الموسيقية ، أتراد يريد ان يمثل بها سكرات الموت ؟ أم يريد
ان يمثل الموتى يرقصون ؟ أم يريد ان يصور ملائكة الموت يرقص رقص
قبض الارواح وييده منجله المرعب ؟ ترى أي من هذه الصور ستمثل لي
عند سماع تلك الانغام ، واسرعت الى غرفة التجربة الخشبية الصغيرة ، وبعد
أن أغلقت الباب لاكون بعزل عن ضوضاء الشارع وضجيج ادرت آلة
الحاكي ووضعت الاسطوانات فوق قرصه وارهفت اذني .

بدأت الاسطوانة بنقرات متتابعة على وتر ، تشبه نقرات ساعة دقاقة
وسط سكون رهيب واحصيتها فاذا بها اثنتا عشرة دقة ، ولا شك ان ذلك

يعني منتصف الليل لا منتصف النهار ، واعتبرت ذلك نغمة رهيبة من بوق كأنها نفخة الصور يوم القيامة ، ثم تلاها لحن متزن لذيذ في الأذن له إيقاع يتفق وحركات الرقص ، ولكنه لحن يتجلى فيه الألم والحزن ، ثم انقلب إلى آخر صاحب ، غير أنه أكثر اتزاناً واعظم رهبة من سابقه ، وكان يشبه هدير الرعد في ليلة هوجاء عاصفة ، ثم انقلبت النغمة إلى أخرى غليظة مرعبة تصحبها ضوضاء خافتة ، ثم انتهت كما بدأت بنغمة تشبه انين الاحتضار ، طويلة تقبض القلب ، وصفرت بعدها نغمات مختلفة ، ثم عادت الإبواق المرعبة تصرخ بأعلى أصواتها ، ثم خفت وانقلبت إلى دمدمة يصحبها عويل مؤلم ، وأعقبها صوت الكمنجة كالبكاء . وعادت أصوات العويل فارتمع وأرشمع وأختلط بصفير يشبه صفير العاصفة ، ثم ارتفعت أصوات نخب خاذة وعلت الضوضاء والتهديدات ثم هبطت الأنغام فجأة حتى كادت أن تكون غير مسموعة ، وانتهت القطعة وسط ذلك السكون بنغمة حزينة تنفطر لها القلب .

وعدت بها إلى البيت ، حيث سمعتها مرة أخرى وثالثة ثم أدتني كلمتنا اقتنيت أسطوانة جديدة تعجيني .

وصادف أن عدت في مساء ذلك اليوم في منتصف الليل فاستقبلتني ساعة الدار بدقاتها الاثني عشرة فذكرتني بالأسطوانة الجديدة ، وبعد أن استبدلت ملابسني بملابس النوم عدت إلى الأسطوانة الجديدة فوضعتها على قرص الحاكي وتمددت بعد ذلك على الفراش ، والنوم يداعب جفني ، وكنت نسان من أثر تعب النهار ، وبدأت الدقات الأثني عشرة وسط سكون الليل الرهيب ، وكان لتلك الدقات الخفيفة الرخيمة المتتابعة وقع غريب في نفسي ولما متعبداً فوق الفراش . فقد كانت كصوت مبحري في الكرى يرميني في أحضان النعاس . وقبل أن تصل الدقات العشر داهمني الكرى ففقت^(١) ثم وسنت فتناجحت^(٢) علي الأحلام وبألها من أحلام تنظمها تلك القطعة الموسيقية الغريبة الرهيبة !

(١) غفف الرجل نام ثم استيقظ ثم نام (٢) تابعت بصديق

ليلة هادئة ساكنة ينير البدو سماءها الصافية ، ويسكب أشعته على مقبرة
 واسعة لا يحدها البصر ، لا ترى فيها غير الاجداث كثية في ضوء البدر
 انتفضت الاطباق عن أحد الاجداث فقام هيكل عظمي ملتف بكفنه ، ويده
 طيلة صغيرة ينقر عليها نقرات تشبه دقات الساعة ، وهو يطوف في جو المقبرة
 كخفاش جبار خاطف ، ولم تكذ ثلاثى تلك الدقات الاثنى عشرة حتى انتفض
 اثني عشر هيكلًا ملتحًا باكفانه البيضاء ، وبايديه العظيمة اثني عشر بوقًا ،
 نهضت فيها فكدر سكوني الليلة اصواتها المزعجة الرهيبة .

وتطايرت الأطياف ، وامتألت تلك الساحة الخالية بالوف الهياكل العظيمة
 قد جعلت من اكفانها اردية فضفاضة معقودة عند العنق كأردية الرومان القدماء ،
 وانطلقت ترقص وتغني باصوات لا أستطيع ، وصفها اذ لا وجود لما يماثلها في
 عالم الأحياء على نغمات أبواق غريبة الشكل عجيبه الصوت

رقدت الأحياء طرا فنهضنا راقصين
 نملأ الكون جميعا بالاغاني جذلين
 نحن لا نعرف ما الهم ولا ذرف الجفون
 نحن أحياء ولكن لم نعد قيد السجون

وانتهت المقطوعة ، واستمر الرقص ، وبعد هنيهة انفصل هيكل عظمي
 خفيف الوثبات رشيق الحركات عن الحشد، ومضى يعني منفردًا بصوت رهيب:

كنت حسناء لعبوا صنعتي سحر العيون
 غير أنني كنت دوما في ارتياح من منون
 هبا أنا أرقص لاني ازدري كر السنين

وانطلق هيكل ثان غليظ الاطراف جبار ، ومضي يراقص الهيكل الاول
 وهو يتغنى بنفس النغمة الرهيبة

كنت جبارا غيدا صنعتي محق العباد
غير اني كنت اخشى بعض ما تجني الايادي
انا كالطفل بريء لا تهددني الاعادي

وانبرى هيكل ثالث ، وكان قزما مضحكا فانضم الى رفيقه وغنى

بدوره

كنت عبدالمال صجبي مذهبي جمع الذهب
قد قضيت العمر تعا ذاهبا حيث ذهب
ها أنا حر طليق بعدما العمر ذهب

وما كادت نغمات هذا تتلاشى حتى انبرى هيكل آخر ذو جمجمة أكبر

حجبا من بقية الجماجم

يا رفاقي كنت غرا ادعي عشق الحقيقة
قد قضيت العمر درسا باحثا عن ذي العثقة
لم اكن اعلم ان الموت ييدي ذي الحقيقة

واشتدت عاصفة الابواق واسرعت الانعام الرهبة فتحول الرقص الى قفز
وكر وفر وصياح حتى غدا ذلك الجمع الهائل كالبحر الهائج الهادر المتلاطم
الامواج ، وارتفعت فجأة اصواتهم كلها معا تشد تشيدا واحدا بنظام يحسدهم
عليه الاحياء .

قد غدونا اخوة في الاجداث حينما لم يبق غير العتب
لا حروبا لا عهودا وضعت نكثت في العمر او لم تنكث
لا غنيا لا فقيرا حاقدا لا رفيعا لا رضيع الخبث
علم الاحياء يا بدر السما حكمة الاحياء رهن الجدث

واستيقظت من ذلك الحلم الرهيب على أصوات عويل مؤلم فكاد شعر
رأسي يقف رعبا • ونهضت مسرعا وفتحت النافذة لاستطلع مصدر الصوت
فرايت منزل احد الجيران في حركة ، ومنه كانت تنبعث اصوات العويل • اذن
فقد قضى مريضهم المدنف ، وكان يقاسي آلام السرطان الجهنمية ، بعد ان يش
الاطباء من شفائه •

وكان سكون الليل شاملا لا يعكره غير ذلك العويل •

السكون الشامل والعويل المؤلم كل ذلك لا يحتمل بعد مثل ذلك الحلم ،
اذن فلاداو هذا الرعب بدائه ولا ودع جاري المسكين بلعن الاموات ، وسكان
القبور ، فلعله يرقصها الان بين رفاقه • فادرت الحاكي واطلقت الانغام المرعبة،
واطفأت المصباح واندست في الفراش وانا اترنم بيت ابي العلاء •
وشبه صوت النعي اذا قيس بصوت البشير في كل ناد •••

سُبُوْحِي مِنَ الْحَمْدِ لَكَ

في غرفة عالية الاثاث ، جميلة التنسيق ، انيقة المظهر ، تغطي نوافذها ستائر من القطيفة الثمينة وتلطف جوها مروحة كهربائية هي في حد ذاتها قطعة انيقة من الرياش الفاخر ، تزيد في جمال الغرفة واناعتها ، جلس رجلان عظيمان يتناقشان ويتداولان في أمر عظيم هو من الخطورة بمكان .

ولمس احدهما نظارته ذات الاطار الذهبي بطرف انامله ؛ وداعب الثاني السلسلة الذهبية المعلقة بنظارته المنفردة « المتوكل » وهما في حالة تفكير عميق ، ولم يضع الثاني تلك النظارة المنفردة على احدى باصريه لخلل فيها ، بل كان يستعملها بطرا ليزيد من مظاهر بذخه ، ودلائل اسرافه ، ومع ان تلك النظارة لا تؤذي العين الا ان بعض الدلائل الصادقة تشير الى انها قد اعمت احدى عينيه فعلا عن رؤية بعض الحقائق ، واما الاول فالنظارة ضرورية له جداً ، لا يستطيع بدونها ان يرى الاشياء على بعد ذراع . ويؤكد المشاغبون انه ينجز كل الاعمال الخطيرة في دائرته دون ان يستعمل نظارته ذات الاطار الذهبي . ويستدلون على ذلك بعدم وجود شيء معقول في قراراته واجرائه .

وليس هذان ركنين عظيمين في شركة صناعية ، ولا في عمل تجاري مهم ؛ ولم يرثا ثروة طائلة عن ابويهما ، ولم يعثرا على كنز ، بل هما شخصيتان مهمتان جدا دائرة من ارجى دوائر حكومة صغيرة في احدى جزر الملايو لها أمير ، ولها وزارة ؛ ولها دوائر كثيرة العدد ، ولها مجالس نيابية وقوانين دستورية ولها اشراف ونبلاء وعظماء ايضا ، ويقال ان ما يصرف من ميزانية تلك الدولة على موظفي تلك الحكومة يبلغ ثلاثة ارباع الميزانية العامة . وان دخل الموظف الكبير من وظيفته لا يقل عن دخل رئيس شركة اوربية واسعة الاعمال ، راجعة البضاعة ، وان موظفيها الصغار في بجوحة من العيش ، يقتنون السيارات

ويسكنون القصور والفيلات ، ويتزوجون بالاوناس الجميلات ؛ ولهذه المملكة جيش كبير ؛ عدد ضباطه وقواده بقدر عدد جنوده وافراده .

وتحوي هذه الامارة من الثروة الطبيعية ما يسيل عند ذكرها لعاب اصحاب رؤوس الاموال والشركات والبنوك الاوربية ، ففيها من المعادن الذهب والحديد والفحم والبتروول ، وفيها غابات من ائمن الاشجار واجود الاخشاب ، وفيها اشجار الصمغ واشجار الورد والزان والكافور والابنوس ، وما شابه ذلك . وفي هذه الامارة ايضا جو موبوء هو من اقبح ما خلق الله من اجواء ؛ فالبلاد غنية بخيراتها وغنية بامراضها واوبتتها ، وفي هذه البلاد ايضا عدد هائل من السكان يقتاتون بائمارها الكثيرة ومن صيد برها وبحرها ، قد تكيفوا حسب طبيعة البيئة يحتملون من الامراض ورداءة الجو ما لا يستطيع الاوربي ان يحتمل عشر معشاره ، وهذا هو الذي حدا بالحكومة الهولندية التي كانت تلك الامارة من نصيبها ، الى الابقاء على السكان وعدم محققهم وملء الجزيرة بالهولنديين ، او اسكان انصارهم فيها كما يفعل الانكليز في فلسطين ، وارغمتهم على التمسك بتلك التشكيلات الحكومية الوطنية .

وما كانت الحكومة المستعمرة مغبوة في ذلك ، فان جميع ما تتطلبه تلك التشكيلات من مصاريف باهضة كانت تبذل اغلب ميزانية تلك الحكومة التي قوامها الضرائب المحلية والكمركية على الصادرات والواردات ، غير الهولندية طبعا ، ولا يدخل في تلك الميزانية درهم واحد من ارباح الشركات الكثيرة التي تشتغل تلك الارض . وقد اضطرت الحكومة المستعمرة هذه الامارة المستقلة الى فتح المدارس اضطارا لان كتاب الشركات ورؤساءها وكل موظفيها ، وكذلك ضباط الجيش وموظفي الحكومة يجب ان يكونوا كلهم من اهل البلاد ، ولا يرأس كل تلك التشكيلات سوى رئيس واحد يتبدل كل ثلاثة أشهر ، ويتقاضى مرتبات عظيمة من خزينة الامارة ايضا . وهكذا اسست الحكومة الهولندية نظاما للمعارف في تلك الامارة وجعلت لها وزيرا ومديرا ووظائف اخرى كثيرة ، وجعلت عدد الموظفين بعدد التلاميذ تقريبا ، حتى لا

يتعلم من ابناء البلاد اكثر من العدد الذى تحتاجه الشركات والمعامل وبقية الوظائف ، وكلما زادت ميزانية المعارف زادت رواتب الموظفين ، وزادت الوظائف ، وبقى عدد التلاميذ واحدا لا يتغير . وقد وجد الهولنديون ان هذه المؤسسة قد اصبحت مصدرا للمتاعب ، رغم كثرة الاحتياطات المتخذة للحيلولة دون تسرب الافكار والمبادئ الاوربية الى السكان . ولهذا حرصت على ان لا تكل امر هذه المؤسسة الا لمن تثق بهم السلطة وتعتمد على اخلاصهم لاميرهم وحكومتهم وتقاليدهم ، وبعبارة اخرى للسلطة المستترة وراء هذه المؤسسة .

ومن جملة هذه الاحتياطات فتح ملفات شخصية تدون فيها كل ما يخص اولئك الافراد من التلاميذ الذين يؤمل منهم تقدم في العلوم ، يصاحبه تأخر في الاخلاق ؛ واعجاب كبير بالهولنديين . فتختار منهم من تأمن غدره وتثق باخلاصه ، فتعلمه على ثققتها ، وتدر به على اعمالها ، وتغرس في نفسه كل ما يؤيد سلطاتها واحترام مؤسساتها في تلك البلاد .

وصاحب النظارة المنفردة (المنوكل) هو وزير المعارف في تلك البلاد، وقد كان في مبدأ امره تابعا للمستشار الاداري الهولندي ، فلاحظ المستشار منه نياهة وذكاء واخلاصا في الخدمة فمال اليه ؛ وتوقع له مستقبلا عظيما في تلك الامارة ، فساعد على دخول المدرسة ، وتلقى العلوم ، واتقان اللغة الهولندية ، ثم توسط له عند الامير وارسله الى اوربا حيث اكمل علومه . ولما عاد رشحه المستشار (وكان قد اطلع على ملفته الشخصية التي تحوي وصايا كل المستشارين بحقه ؛ وشهاداتهم له بكل ما يؤيد عماء عن نوايا المستعمرين، وبشبه شدة اخلاصه وتعلقه بأمره وبالنظام الحكومي السائد في تلك البلاد) لان يكون وزير المعارف في تلك الامارة . واما ذو النظارة ذات الاطار الذهبي فهو ابن احد اشراف الامارة ، اشتهر بكره الشعب والترفع عليه ، ينظر الى العوام كما ينظر الى البهائم او الحمر ، لا يخلو كلامه في كل وقت

من التنديد بهم وبجهلهم وحقاقتهم ؛ وكثيرا ما صرح بأنه يفضل ان يحقهم
عن بكرة ايهم ؛ ويسكن محلهم اناسا اعقل وارقي واكثر ذوقا ونظافة •

ولما استلم هذا الوزير زمام الامور في مصلحة المعارف ، وبدأ يتفقد
شؤونها ، رأى ان انتشار اللغة الهولندية قد ادى الى انتشار الكتب الاوربية
والمطبوعات الاوربية ، وان ذلك قد جعل بعض المتعلمين يتكلمون بالامور
السياسية ، ويكثرون من الانتقاد والتناول على السلطات المحلية ، وقد ذهب
الهوس بالبعض الى التأدب بالآداب العصرية ، والتشبع بروح الادب الثوري
بعد ان قرأوا افاتول فرانس وهوجو وفولتير وبرناردشو وتولستوى
وكوركي ، ورفعوا عقيرتهم يطالبون بالعدل والمساواة •

ورأى ان ثمة طبقة من المتعلمين قد ذهب بها التطرف الى ابعد من هذا
الحد ، فاخذت تنادي بضرورة تقليل الرواتب الضخمة ، وتزيد الرواتب
القليلة ، حتى تصبح الرواتب على اساس معقول ، وتزعم ان ميزانية الدولة
يجب ان يصرف اغلبها على المصالح العامة ، وان التعليم يجب ان يعم كل
الطبقات ، وان تعطى القرص لكل الناس للتقدم والنجاح ، في الحياة الى غير
ذلك من المبادئ التي وقف شعر الامير عند سماعها رعبا ؛ وساد من جرائها
الخوف والقلق بين اصحاب الرواتب الضخمة ، واقسم الامراء والاشراف ان
يقاوموا تلك المبادئ اللعينة ، وبدأوا لاول مرة في حياتهم يلعنون الحكومة
الهولندية ، وما جرته عليهم من رزايا ونكبات •

اما السلطات المستعمرة فقد اطمأنت بعض الشيء عندما اسندت ادارة
المعارف الى هذين الرجلين العدوين لكل اصلاح وتطور ، واملت خيرا على
ايديهما •

وكان اول عمل قام به وزير المعارف ان اذاع منشورا يذكر فيه ان
بعض المبادئ الفاسدة قد انتشرت في العالم وتسمى بالمبادئ الشيوعية ،
وان هذه المبادئ ضد الدين والتقاليد ، وضد الاشراف والافراد والجماعات

و ضد الشعوب و ضد الانسانية و ضد كل شيء ، و ان الغاية منها القضاء على الجنس البشري ، و ان مؤسسها مجانين خطرون ، و ان اول ما سيفعله هو مقاومة هؤلاء الذين ينادون بها وينشرونها •

ولهذه الامارة تقاليد غريبة لم نسمع بمثلا نحن ، وهي ضد تقاليدنا تماما ، فلما سمعناها لاطلقنا على المتسكين بها لقب الشيوعية والهدم والفجور والاباحية ، ولو سمعوا بتقاليدنا لقالوا عنا كما نقول عن تقاليدهم • فمن تقاليدنا ان الامير اذا مات احرقت نساؤه معه ، و ان الامير لا يسوغ له ان يأكل مع صعلوك ، و ان فعل وجب قتلها معا ، و ان الاخوة يجب عليهم ان يتزوجوا بامرأة واحدة ؛ الى غير ذلك من غرائب العادات والتقاليد • وفي نظر هذا الوزير ان كل من يندد بهذه التقاليد كافر يجب قتله • وارتاع الناس وخافوا من تلك البدع ، وصلوا الى الاهم ان يرسل على مبتدعيها نقمته وعذابه •

واجتمع الوزير والمدير في تلك الغرفة الانيقة التي افتتحنها الكلام بوصفها ، للنظر في شأن احد اتباعهما ، فقد بلغهما ان احد موظفيهما الصغار اشتهر بالاخلاق الطيبة ، وبحسن معاملة الناس ، وبتنفيذ الاوامر المعطاة له على اساس العدالة ، وبالقيام بواجبه اتم القيام • وانه بسبب ذلك اصبح محبوبا لدى الكثيرين ، ولحسن اخلاقه صار يقابل عطف الناس عليه بالعطف عليهم ، وخدمة مصالحهم ؛ فأوقف قسما كبيرا من وقته لتعليمهم وارشادهم وتلقينهم بعض المعلومات الاخلاقية والصحية ، و صار ذلك ديدنه حتى ملك قلوب الكثيرين •

وسمع الوزير والمدير بأن هذا الشاب قد نال اسما لم يناله ، وحل مركزا لم يحتلاه ، و صار له من الشهرة ، ولو بين الدهماء ، ما جعل الناس يذكرونه اكثر مما يذكرونها ، فقررا القضاء عليه واجتمعا لهذه الغاية •

قال صاحب النظارة الذهبية بعد ان قطع الغرفة ذهابا وايابا عدة مرات: « لا شك ان هذا الشاب شيوعي قدير ، ومن أحسن الدعاة للشيوعية

وأذكاهم ، فعلينا أن نقدم تقريراً الى الأمير ليحكم عليه بالاعدام كما حكم على بقية رفاقه الاشرار . »

ولعب ذو المنوكل بسلسلة المنوكل الذهبية ثم قال « لو لم يكن في الوسط هذا المستشار اللعين لهان الامر ، فهو لا ينسى طبيعته الاوربية حتى في هذه البلاد ، ويطلب دائماً دلائل وبراهين تؤيد التهم قبل ان يأمر الأمير بوضع خاتمه . فعلينا ان تفكر جيداً باثبات التهم قبل الاقدام على وضع التقرير . » فأجابه المدير « ان حب المتهم للشعب والاحترام المتبادل بينه وبين كل الناس دليل واضح على ذلك . » فأجاب الوزير

« ولكن هذا غير ممنوع ، فما دام من طبقة الدهماء ففي استطاعته أن يحب الدهماء . ولو كان من طبقة الاشراف لعدت عواطفه نحو الشعب تهمة . »

فاعترض الثاني بقوله « لا تنس ان قانون الملكة يفرض على كل فرد أن يحب الأمير ، ومن يقاسم الأمير في حب الناس له خائن ، خصوصاً اذا كان قد استمد هذا الحب من طريقة لا علاقة لها بالامير . وهذه خطبه ونصائحه تشير الى ذلك . »

فصفق الثاني وقال « لا شك ان هذا برهان جيد ، فعليك بآخر لكي تكون التهمة قوية لا تقبل النقص . »

واخذ ذو النظارة الذهبية يلعب بنظارته ملياً ، ثم قمز وصاح جذلاً: « لقد وجدت برهاناً آخر لقد اشيع عنه انه زاهد في النساء ، ومعنى ذلك انه لا يشارك اخاه في زوجته ، وكيف يستطيع ان يبرهن على انه يفعل ذلك لمجرد الزهد ، ولا يفعله لان تعاليم الشيوخ تنهي عن ذلك ؟ واذا ادعى الزهد فلماذا لا يزهد في الاكل مثلاً ؟ »

فتبسم الوزير وقال « عوفيت من مفكر حاذق ، والآن عليك ان تفكر بالسبب الثالث ، وسوف لا اطلب منك اكثر من ثلاثة اسباب . »

وكان المدير العام في تلك اللحظة يذهب ويجيء ، يتقزم ويصنق ويفرك يديه كالقرود وقد تهلل وجهه الاسود الاصفر وهو يقول : « لقد وجدت الملايين من البراهين والحجج اولها أن هذا الرجل لا يحب عبارات المديح والاطراء ، وينتهي عنها ، وفي هذا دعوة ضمنية الى المساواة ، والمساواة من مبادئ الشيوعية كما لا يخفى عليك وثانيها .. »

فقاطعه الوزير بقوله « لا تنس ان الامير يكره الاستماع لتقرير طويل ، وربما رفض القضية كلها لمجرد ورودها في تقرير طويل ، فعليك ان تجعله مختصرا لا يجلب السآمة والملل ، وبذلك تكفل موافقة الامير ورضى المستشار » .

الجمهورية العراقية - دولة النعم

الرواية الكلاسيكية في فنون الأدب

المجلد الثاني

القصص

ذو النون أيرب



المجموعة الثامنة

صَمَيَات

الأهداء

الى الذين يعيشون الصحة ويمقتون المرض وهل هنالك من يمسك
الصحة ويعشق المرض ؟

امراض وأمراض

ان مثل من يتوهم ان الامراض الخلقية والنفسية اقل فتكا بالبشر من الامراض الجسمية ، واهون منها شرا ، كمثل رجل اطرش اعمى وسط غرفة مسدودة التوافذ مقللة الباب ، لا تنفذ اليها نفخة من ريح او نفخة من نسيم ، قد حالت جدرانها بينه وبين عالم تكتسحه عواصف هوجاء وزوابع مدمرة . اذ ليت شعري كيف يسوغ له العقل والمنطق ان يحسب وافدات التيفوئيد والملاريا والطاعون والكوليرا خطرا لا خطر بعده ، وهو يرى بأم عينيه سيول الدماء الجارية ، ويسمع بأذنيه هدير المدافع المصبة المهلكة ، ويشاهد الالوف والملايين من بني البشر اصحاء اقوياء يدخلون ابواب الفناء زمرا ، كل ذلك بسبب نوبة جشع قد اصاب مجتمعنا من المجتمعات ، او وافدة غرور قد انتابت عددا من الناس .

وقد يؤمن البعض بأن هذه الامراض كنك ، من حيث الخطر وشدة الفتك ، ولكنه يتدارك فيقول واذا امكن ملافاة الامراض الجسمية فيستحيل القضاء على الامراض الخلقية ، فما هي الا قدر محتم يلزم الانسانية من المهد الى اللحد .

وقد كان امثال هؤلاء او اجدادهم ومن كان يفكر بمثل عقولهم يعتقدون ان الامراض من فعل ارواح شريرة ، والابوة من عمل الجان والشیطان ، وذلك يوم كانوا همجا ، كما يدعون .

ملاريا

سهول منبسطة لا يحدها البصر ، تغمرها اشعة الشمس دافئة منعشة ،
وتظللها سماء لا اثر للغيوم فيها .

الموسم شتاء : ولكن لا اثر لبرد الشتاء القارس ، ولا لرياحه القاسية
التي تجمد المياه في الحقول والدماء في العروق ، تربة سمراء خصبة من اجود
ما يمكن ان تكون التربة ، واي برهان على جودتها اعظم من تلك الخضرة
الدائمة التي لا تفارق تلك السهول مهما اختلفت المواسم وتداولت الايام ،
خضرة ترتاح لها العين ، وبتهج بها القلب ، هي خضرة الزروع المختلفة
والمحاصيل الغنية ، تغذيها ارض سخية ، وتروىها جداول تنساب المياه فيها
دون بذل مجهود او صرف نفقة تذكر .

تلك هي سهول جنوب العراق وذلك هو جوه ، كل ما فيه دليل على
ما يمكن ان يدر من ثروة ، وما يجلب من حظ ونعمة ، لمن يطلب الحظ وينشد
النعمة ، قطر فريد كاللماسة تتألق في الظلام فتلفت اليها انظار لصوص المال
وسراق جهود الغير . او ما تراههم ابدا يثيرون حروبا طاحنة ويسفكون دماء
زكية في سبيل الاستيلاء عليه وعلى ما يشبهه من بقاع المعمورة .

مرت بفكري الوف الخواطر والسيارة تنهب بنا طريقا معبدا اسود

كأنه ثعبان لا يدرك البصر نهايته ، وقد رقد هادئاً مستكيناً وقد استطاب.
• الدفء •

كنا اربعة في حملة لمكافحة الملاريا ، وما اصعب ان يذهب المرء لاول
وهلة الى امكان وجود جراثيم فاتكة وامراض وبيلة في مثل تلك البقعة ، وفي
مثل ذلك الجو ، وهل هنالك ما هو اقوى من الهواء الطلق والشمس الساطعة
على مقاومة الجراثيم وقتكها ، وكيف يتسنى للوباء ان يترعرع في مثل ذلك
الجو الجميل الذي يشير كل ما فيه الى اكمل شروط الصحة والحياة • وافضيت
بعلة حيرتي الى رفيقي الدكتور فأكد لي ان كل هذا لا يدفع البلاء اذا انهك.
الجوع الاجسام واضعفتها القذارة •

• ووصلنا بعد حين هدفنا المنشود •

• واحاط بالسيارة جمهور كبير من الفلاحين •

وجوه كثية هزيلة لونها اصفر فاقع يسوء الناظرين • للموت والفناء.
اثر يبدو في كل قسمة من قسرات تلك الوجوه ، في تلك العيون التي يوشك
بريقها ان ينطفئ ، وفي تلك الخدود الشاحبة والشفاه المتقلصة اليابسة •
وكانوا ينظرون الينا كما ينظر انسان هالك الى اله قدير رحيم ، فقد
انبثوا بأن السيارة تحمل الطبيب والدواء والشفاء ، وتلك نعمة اخرى من نعم
الحكومة التي وعدتهم ان تساعد في بلواهم فترسل لهم من يسعفهم
ويكشف عنهم الغمة •

لقد دب ديب الحياة في تلك الاجسام المنهوكه فبرقت العيون الخاملة ،
وانطلقت الالوجه الكثية ، وابتسمت الشفاه اليابسة عندما بدأ الطبيب عمله ،
وظهر صندوق الدواء للعيان • وذلك دليل قوي على شدة ايمان هؤلاء
الريفين بالحكومة والطبيب والدواء ، وما اغرب ذلك في وسط كهذا لم
تلمسه المدنية بعد بعصاها السحرية حتى تجعله ينزل السحرة والعرافين
والدجالين ، ذوي الادعية والتمايم ، عن عروشهم ليضع محلهم الاطباء

(الافندية) ذوي الموضع والمشرط والدواء المر • ولكن هذا هو الواقع الذي لا ينكر رغم ما فيه من غرابة وشذوذ •

وسأل الطبيب عددا منهم عن ما يشكو منه فما سمع جوابا غير عبارة واحدة (رجيفة ، عمي رجيفة) • اذن فهو ذلك المرض الذي يرجف البدن حتى العظام ، ذو القشعريرة التي لا تدفعها اغطية الدنيا ، هو «الرجيفة» ، وكان الى جانبهم اطفال هم صورة حية للسقم ، ولهذا النوع الخاص منه ، تنطق به وجوههم الصفراء الهزيلة وبطونهم المنتفخة ، وكانت القدرة قد زادت منظرهم كآبة •

ومد الطبيب يده يجس بها بضعة بطون مكورة من بطون هؤلاء الاطفال ، فصرخ بعضهم من الخوف لا من الالم ، وتطلع بعضهم في وجهه ، مستغربا تلك المداعبة الخشنة ، بأنظار كليلة مضناة •

سأل الطبيب عن عدد المصابين فأجاب رئيسهم (الجميع) •
جميع القرية مصابة بداء واحد •

والتفت الطبيب نحوي وقد بدت الحيرة في عينيه وتمتم «الجميع ؟ الجميع !» ثم حول بصره نحو صندوق الدواء الصغير في يد المضمد وأشار له يأس ان يوزع الدواء ، فشرع هذا يوزع حبات الكيتا ، ستاً او تسعاً او اثنتي عشرة لكل واحد ، حسب سنه وشدة مرضه •

وتمتم شيخ حسن المنظر دون ان يمد يده لآخذ الدواء :

— «وما فائدة هذه الحبات ؟ سيعود المرض بعد تفاؤها حتما ويا له من وباء ما عهدناه قط يزورنا في الشتاء» •

واعجبني الشيخ فقد كان حاضر البديهة ، كثير النكت ، تلوح عليه امارات الصحة والنشاط ، فسألته مداعباً :

— «أرى ان الرجيفة لم تقض عظامك» •

فأجاب متحديا

— « خست الرجفة وخسى غيرها • اني لم اشعر بمرض طيلة مائة وعشرين سنة • ان يني وبين عزرائيل هدنة طويلة » •

وظهر على الطبيب انه يشك بقول الرجل ، فمن الصعب ان يعمر انسان مثل هذه المدة في وسط تلك الفاقة والعوز ، ولما اكد الجميع كلام الشيخ قال موقفا بين علمه والواقع •

— « هو الانتخاب الطبيعي يا صاح ، فمثل هذه البيئة القاسية لا تبقى . الا على من يظهر جلدا في مكافحتها ومقاومة آفاتها » •

ولما اخذ الحاضرون نصيبهم من الدواء سألنا كبيرهم « هل بقي من يحتاج الى اسعاف ؟ » •

فأجاب اكثر من واحد : « هناك النساء والشيخوخ ، والذين لا يستطيعون ترك البيوت لشدة وطأة الداء » •

وقصدنا تلك البيوت او بالاحرى تلك الاخصاص الطينية التي يسميها القوم بيوتا ، وما هي في الحقيقة سوى جدران اربعة يعلوها سقف من القش ، امام بابها فناء صغير جدرانه اكوام من الشوك يستطيع ان يخطاها صبي نشيط • وفي ظلمات تلك الاخصاص القذرة طالعنا وجوه كالحة شاحبة تن وتترجف فتسمع صوت اصطكاك اسنانها فتحسبه صوت اسنان جرد تحرق . الارم من الم الجوع •

وما اتهمنا من تلك المهمة المبئسة التي تفتقر القلب وتقبض النفس ، حتى قصدنا سيارتنا لنهرب من ذلك الجو الذي يخيم عليه السقام ، ولكن كبير القوم وهو انظفهم جسما واحسنهم بزة اعترض طريقنا ، بعد ان اعتذر لغياب شيخ القرية او القبيلة اخبرنا بأنه يستحيل ان نغادرهم قبل ان يقوموا لنا بواجب الضيافة ، اي انه يتحتم علينا ان نتناول الغداء عندهم ، فجادلناه

بالحسنى للتخلص من هذه الورطة ، ولما وجدناه يعتبر امتاعنا عن تلبية طلبه
أهانة لتقاليد العشيرة ، رضخنا لمشيئته ، وتوجهنا جميعا الى مضيف الشيخ
حيث جلسنا على بساط قد ثرت فوقه بعض الوسائد ، فأحاطتنا الملائيا الحية
من كل جانب ، ودار بيننا وبين معاقل الملائيا حديث ذو شجون ، وربما كان
ذلك الحديث اطرف ما صادفنا في تلك الحملة •

ودار حديث بين بعض القوم ودليلا الشرطي حول وفرة راتبه في نظرهم
وقلة عمله ، فهو يتقاضى ثلاثة دنانير في الشهر ، ولا يعمل اكثر من ان يذهب
مع هذا ويأتي مع ذلك • سألوه اين ينفق ذلك المبلغ الضخم بلهجة فيها ما فيها
من العبطة ، وحسده بعضهم على تلك النعمة •

وكان رئيسهم يستمع لذلك الجدل المحتدم بقلق ، ولما رأى الحديث
يأخذ دورا مخطرا ، اراد ان يضع حدا لما قد يجول بأفكارهم من جرائه فأخذ
يعدد لهم مطالب السكنى في المدينة وكثرة تفقاتها ومساوئها وآفاتنا • فقال
واحد منهم انه يتمنى بجدة الانف ان يسكن المدينة رغم ما فيها من مساوىء ،
ويتحمل تكاليفها التي ستأتيه عفوا ، كما اتت الشرطي ، واذا لم يكن في المدينة
غير رائحة الكباب والشواء في السوق ، فهي افضل من احسن قرية • وانطلق
هزيل شاحب الوجه منهم يروي كيف زار المدينة ولم يتركها حتى أكل في ثلاثة
محللات مختلفة ، أكالات شهية كلفته الواحدة منها عشرين فلسا •

وفي اثناء الحديث كانت تتوافد علينا قلاع حصينة لهذا الداء الويل
تمشي على ارجل ضعيفة ، وتطلب المعونة على مقاومة هذا الداء الدخيل الذي
احتلها عنوة •

وعلمنا ان بجوارهم مستنقعا وبيتا ، وعلمنا انهم لا يدفونونه لان ذلك
يكلفهم مالا لا يملكونه ، او بالاحرى وقتا لا يستغنون عنه ، وجهدا لا
يستطيعون صرفه في غير العمل في الحقول لكسب القوت •

واعجبني مريض قد احتمل المرض بصبر وقلة اهتمام مع انه كان العلة مجسمة ، ولما تناول حبات الكينا التهم منها اثنتين ومضى يقضهما بأسنانه كما يقضم الطفل قطعة من السكر ، فلم يختلج منه عضو ، ولم تتغير له سحنة ، ولم يد عليه ان مرارتها تؤذيه • سألته هازلا « ايلذ له طعما ؟ » فتبسّم واجاب : « انها مرة وهكذا كل دواء » • وعندما حضر الطعام ابى الحاضرون ان يشاركونا فيه لان التقاليد تمنع ازعاج الضيوف ، وبعد ان تناولنا عدة لقمات بأيدينا اكراما للمضيف ، هضمنا مكتفين ، وكنت اراقب ذلك الذي أقر بأنه يحب سكنى المدينة ليمتع برائحة الشواء ، لارى موقعه حيال الارز اللذيذ واللحم النفيس ،، فرأيته ينهض فيتناول بقايا الاكل ويضعها امام اعرابي لا يختلف عن غيره من الحاضرين سحنة وبزة حتى ظنناه احدهم ، ولكن ذلك الايثار دلنا على انه ضيف مثلنا ، فمن واجب القرية ان تطعمه احسن ما تأكل ، وتأويه في احسن مكان لديها حتى يطيب له الرحيل •

وعلمت ان الطبيب قد لاحظ ما لاحظت واكبر من اخلاق القوم ما أكبرت اذ قال

— « ما اكرم هؤلاء القوم » •
فاجبته :

— اجل ما اكرمهم • انهم يكرمون كل ضيف حتى ولو كان من اعدى اعدائهم • انهم يكرمون حتى جرائيم الملايا ، الا ترى الداء كيف يرعى في اجسامهم ، ويحتل كل كرية من كريات دمائهم ، وما اخطر الجرائم عندما تنزل بساحة قوم يقرون الضيف •

مناعة

— او تزعم ان ما قمت به شيء عظيم ؟ لا ايها السيد ، وحذار من ان يتطرق الغرور الى نفسك . فلتعلم ان الغرور قمين بالقضاء على كل موهبة ، اذن فلنخفف من غلوائك .

ولم يجب من كان الخطاب موجها له بغير ابتسامة حاول بها ان يظهر بمظهر عدم المبالاة ، وان يطرد بها عاطفة الكره والحقن التي ضيقت عليه الخناق ، وكادت تظهره بمظهر الارعن قليل الاحتمال . لقد كاد ان ينفجر ولكنه قاوم مقاومة الابطال ، واستطاع ان يملك قياد نفسه ، حتى مرت تلك الموجة التي طفت عليها بسلام .

ولم تكذب تلاشي كلمات المتكلم الاول في جو الغرفة حتى بدأ آخر يروي له خبرا مزعجا ، قال :

لقد التقيت بصديقك سنان ، فألقى علي خطبة طويلة في نقدك وذمك ، انه شرير ، وهذا امر لا ينكر ، وهو ذو وجهين ، ولكن يجب الا يخفى عليك انه يستطيع تشويه سمعتك . انه نذل زئيم .

ولم يذكر هذا المتكلم ؛ المخلص لصاحبه ، انه التقى بثلاثة آخرين سمع منهم كل مدح وثناء . مدح طيب احرق قلبه النجس بالحسد الشنيع ؛ فجعله يجب على مديحهم بما يقلل من قدر صاحبه ، ويطمس ذلك الاثر الذي أحدثه

تقي نفوس هؤلاء الذين لم يتعرفوا بعد بصاحبه ، ولم يصبحوا له اصدقاء
خلصا .

ولم يستطع ان يجيب على هذا الكلام الذي اثار موجة اخرى قوية في
نفسه بغير قوله :

— من حقه ان ينتقد ، ولكل انسان ان يبدي رأيه كما يريد ؛ ولكن ليس
من حقه ان يذم ؛ انها صفة اللثام .

وكان في ايدي بعضهم صحائف من جرائد مختلفة ، يتلهون بالنظر فيما
تحتويه من مقالات واخبار ، واعجب احدهم ان يقول :

— ان كل هذه الجرائد لم تنوه بديوانك الاخير مع انها ذكرت
شيئا كثيرا عن ديوانك الاول ، وقرظته تقريظا حسنا .

ولم يعجب المتكلم ان يخبره بان في جيبه جريدة قد كتبت عن شعره
مقالا كله ثناء واطراء واعجاب . وليس من المعقول ان يخبره ايضا بأنه قد
نقل عبارة سوء ، كان قد فاه بها بحق احد اصحاب الجرائد ؛ الى من تعنيه ،
فأوغر صدره عليه وجمله يحجم عن الاهتمام بشعره .

وكانت هذه الطعنة اقوى من سابقتها ؛ وخنقه التأثر فلم يحر جوابا ،
ولكن اثر الانفعال ظهر هذه المرة في احمرار وجهه واكمهراة ، وفي ارتجاف
صوته وتلعشه . ولو تناول القلم في تلك اللحظة فصور الشيطان بشعره
الجميل الخلاب لما صوره الا بصورة انسان اصفر الوجه ، ضعيف البنية ،
قصير القامة ضيق الجبهة ، غليظ الحاجبين اصلم ، وكل هذه الصفات تنطبق
على المتكلم الاخير .

واعجب احدهم ان يتندر ويتفكه ، فكانت كل نكاته تدور حول
الشعراء واطوارهم العجيبة واخلاقهم الغريبة وحماقاتهم . ثم شرعوا

يتمازحون فيرمي الفرد رفيقه بنكتة لاذعة يجاوبه هذا عليها باخرى اشد منها
لدعا واكثر ايلاما ، ولكنهم لم يلبثوا جميعا ان حاصروه من كل جانب
وطوقوه بسور لا يمكن الفرار منه . وكانت نكاتهم الوحشية اشد على
نفسه من السهام المسمومة .

واخذ يسائل نفسه ماذا عرى القوم ؟ وماذا حل بهم اليوم ؟ بأي
شيء اساء اليهم ؟ ولماذا يتقصدون ايلامه بهذه الكيفية التي تدل على اقصى
درجات الضغينة والموجدة ؟ يعلم الله انه لم يحمل لهم في قلبه غلا ولا حقدا
ولم يتمن لهم الا كل خير وفلاح . ويعلم الله انهم كانوا يحملون له في قلوبهم
مثل ما كان يحمل لهم في قلبه ، انه على يقين من ذلك ، فاين العلة في هذا
الهجوم الفجائي ؟ واين السبب ؟ اما من الحوادث فلم يجد ما يمكن ان
يكون مدعاة لهذا الجفاء ، وهذا التافر .

وقدم صديق جديد لم يكده وسلم ويجلس حتى سأله احدهم بخبث :
هل قرأت ديوان الاستاذ صادق الجديد .

واعقب سؤاله بضحكة مكبوتة ، هي اشبه (بكخة) قط شرس رأى
في فم رفيقه قطعة من اللحم ، فأغار عليه لاستلابها منه ، واجاب الثاني عابسا
صاحكا معا .

— لست من الغاوين يا صديقي الحميم ، وليذهب الشعراء الى الجحيم ،
وحاشاك يا عزيزي صادق صاحب الديوان الثمين .

واجابه صادق على الفور

— اني لأفضل الذهاب معهم الى الجحيم ؛ ولا أظنني واجدا زبائنتها

اكثر شراسة من صديق مثلك .

وهتف القادم الاخير ، وقد تصنع هيئة الخائف ماجنا .

— رحماك ياعزيزي اخشى ان تهجوني هجاءا مقذعا ، فاذا لم تقبل
شفاعتي فسأجثو واقبل قدميك •

وضعت الغرفة بتهقة سرور منبعثة من اعماق قلوب جذلة •

وادرك المسكين ، وهو الحساس ذو الشعور المرهف ؛ ان تلك النكتة
لو قيلت في غير ذلك المكان ، وفي غير تلك الفرصة ، وبدون هذه المناسبة
لقابلها الجميع بالتجهم والعبوس ، فحرق الارم ، ودفعته كبرياؤه وجبه
المحافظة على كرامته الى ان يقول :

— ليس من طبعي الهجاء ، ولكني انصحك الا تتعرض لشاعر آخر
له لساني ونفسك ، والا كنت سيبا في ابداع ما قيل في الهجاء •
ولم يضحك احد هذه المرة ، ولكن بعضهم نظر في وجه بعض وبخوا
بضحكة سخرية مكتومة •

ورأى صادق ان الجو قد تكهرب ، وان عاصفة من سوء التفاهم
والشحناء ستثور قريبا ، وان ذلك لا يشرفه فاستأذن وانصرف •

وعندما احتوت غرفة مكتبه في منزله انفجر مرة واحدة وصرخ من
بين اسنانه المصطكة « اني اكرههم • اكرههم • لو سقطوا بيدي واحدا
فواحدا لقطعتهم اربا اربا • لعنة الله على نفوسهم الخبيثة المنحطة ، وافكارهم
النجسة • اني لم اقصد بما فعلت ان اترفع عليهم ؛ او ان اظهر قصورهم
وعجزهم ، وما ذنبي انا اذ نطق بعض الناس بمدحي ، واعجبهم علي • وهل
يجب علي ان اتعمد التقصير لاثال رضاهم ؟ اني لو فعلت ذلك لما حصلت
على غير هذه النتيجة • وما ضرتني ان ينتقني خمسة اشخاص مع ان المئات
يثنون علي ؟ فلما افكر بأمرهم ؟ ولماذا اشغل افكاري بأمر عصبية من
الادنياء قد اعماها الحسد حتى اصبحت كالعقارب قد رفعت زباناها تلعب
من تصادفه وتنث في عواطفه سموما مهلكة ؟ ولكنه لم يستطع ان يتخلص

من تأثيرهم السيء على الرغم من علمه بأنهم لا يستطيعون ان يسيئوا اليه
والى شعره . ان قطعة من السكر لا تحلي كوبا من الماء . ولكن قطرة من
العلقم تكفي لافساد جردل منه وجعله مر المذاق .

لقد اشتهر صادق بكتابة الشعر الرقيق ؛ الذي يدور حول الوصف
والغزل ، وقد اخرجت المطابع له ديوانين حويا من الوصف الجميل والمعاطف
الرقيقة ؛ والصور الخلافة ، ما جعلها موضع اعجاب عدد كبير من القراء .
وكان اجمل ما فيهما سهولة التعبير ، وبساطة الاسلوب ، حتى ليخيل للقارئ
ان الرجل لم يفعل اكثر من ازاحة الحجب المادية عن نفسه وطبيعته لتظهر
بهذا الشعر النفيس . وقد كان الرجل حقا جميل النفس ؛ رقيق العاطفة ،
سليم الطوية ، من ذلك النوع الذي لم يلق من عنت الايام ، وشروخ الانسان
ما يفسد نفسه ، ويكدر عليه صفو عيشه . حتى بدأ نجمه يتألق في ناحية
من نواحي الحياة ، وسرعان ما ادرك ان الناس ليسوا كما وصفهم في شعره
بسطاء ، قد جبلوا على حب الخير ، وان ما يبدو منهم من شر ليس الا لدفع
الاذى ورد عادية الايام ، وانهم لو لاقوا من سالمهم لظهرت طبيعتهم النقية ؛
وبدت محاسنهم للعيان . ان الحادثة الاخيرة وكثيرا من مثيلاتها قد هدمت
نظرية كاملة من نظرياته . انه اعلم الناس بنفسه واكثرهم يقينا بأنه ممن
لا يحبون الاساءة الى الغير . وقليلون جدا هم الذين ينكرون عليه ذلك ؛
ولعل هؤلاء القليلين هم اصدقاءه الخالص ، هؤلاء الذين اعلنوا عداوتهم له
لا لسبب الا انه قام بمجهود جعله بارزا بينهم . ايمكن ان يكون مثلهم
حسودا لا يجب ان يبرز احدهم في ناحية ما ؟ لا ؛ وشكرا لله ، لقد حدث
ان برز احدهم في ناحية اخرى وحتى في موضوع شعري ايضا ، فكان اول
المهئين والداعين له ، والساعين في حضي الناس على متابعة آثاره .

وعندما وصل بتفكيره الى هذه المرحلة انبسطت اساريره ، وبدأ عليه
الانشراح كأن كابوسا من الهم قد ارتفع عن نفسه . لقد وجد برهانا ساطعا

على انه اسمى منهم تقسا . لقد صمم تحت تأثير الغضب ان يجري قلمه في وصف اللثام ؛ تلك الحثالة البشرية التي تشبه قطرات العلقم تفسد مجاري العقل البشري وتحيل مياهها الصافية العذبة علقما مر المذاق ؛ ولكن هذا التحليل الذي اوصله الى هذه النتيجة محا من نفسه كل اثر للحقد ، فقد وجد انهم يستحقون الشفقة والرحمة اكثر مما يستحقون العدااء والخصومة . واكتفى صادق بالوقوف عند الحد الذي وصل اليه ، وانقضت غيوم الكدر من سماء نفسه الشاعرة .



تِفْوَيْد

لم يقو على حمله الا اربعة رجال اشداء من سكان تلك الجبال الوعرة
البر التي تتوج هامة قطرنا بتاج رائع ، يبيض شتاء ويخضر صيفا • ويبدو
ان تلك الحمى المهلكة التي قعدت به عن العمل ، لم تتمكن في ثلاثة ايام من
هد ذلك الجسد الصلب ، ذي العضل المقتول ، والدماء القتية الحارة ،
والقامة المديدة ، والبناء المشدود •

وكان اول ما بدا عليه من اعراض المرض خلل في جهاز الهضم صحبه
الم في المعدة وقليل منه في الامعاء ، وامساك غير طبيعي مع صداع شديد
مزعج • وقد ظن اول الامر ان مصدر هذا التوعك هو الامساك الذي
كثيرا ما ألم به من قبل • لقد كان يكره هذا التوعك ، فهو يفضل المرض
الحقيقي على التوعك الذي لا يعرف مصدره • ومن عادته أن يداوي نفسه
بنفسه في مثل هذه الظروف ، ويطبق ما اكتبه من خبرة على نفسه وعلى
عماله الخمسة وحصانه وبغليه اللذين يحملان متاعه • ولم يكن به شح بالمال
يمسكه عن الطبيب ، ولكن بعده عن العمران في تلك الجبال الجميلة
التي كلف بذرعها ومسحها اجبره على القيام بمهمة الطبيب والبيطار في بعض
الاحيان •

لقد طبق فنه على كل عماله ، ولكنه لم يجد ضرورة في تطبيق طبه على

حصانه وبغليه ، فقد كانت تظهر عليهما كل امارات الصحة والنشاط ، فالماء غزير ، والكلا وافر ، والهواء عليل منعش ، وكثيرا ما يسهل الحصان عندما يستنشق نسيم الجبال النقي ، او يفتح شفتيه ، وييدي كل أستانه ، ليظهر سروره بهذا الوسط الذي لا ينقصه فيه غير وجود الاتى •

وجرب كل ما لديه من المسهلات الخفيفة ولما راها قليلة الجدوى التجأ الى أقواها مفعولا (الملح الانكليزي) فاذا ب علبة منه في كوب من ماء النبع الصافي البارد واجترعه مرة واحدة ، وكان أشد كرها لهذا الدواء اللعين ، الذي لا يكاد يدخل المعدة حتى يحدث فيها اضطرابا وشغبا ، فيشور جهاز الهضم باجمعه ، وتضطرب الاحشاء ، ثم تندفع الى البلعوم مرة واحدة لتقذف نفسها وتقذفه معها ، حتى اذا ما وصلت المرئ تراجعت هناك ورجعت معه على مضض • ولم ييخل مريضنا على هذا الدواء بشيء من الشتائم واللعنات ، فبعد أن بلغ ريقه عدة مرات ومسح الدموع من عينيه تتم بصوت متحسرج

« سحقا لك من دواء لعين • لا ادري لماذا لا يكون لك بعض صفات الانكليز ما دمت تسمى باسمهم ؟ انهم يفتحون الاقطار ، وبعد ان يخدروها يمتصون دماءها فيقتلون شبيها وشبابها وهي ضاحكة تلهو لا تشعر بالضربات التي تنزل على رأسها ، اما انت فلا تكاد تدخل باب المعدة حتى تقيم كل اعضاء الجسم وتقعدها تقورا منك وضجرا من وجودك • قد يكون ذلك لانك تريد اصلاحا لا افسادا ، وهذا هو الفرق بينك وبين قومك • تالله لولا خوفي من الموت لما ذقت طعمك » •

وبات ليلة سوداء • وفي صباح اليوم الثاني شعر بانحلال غير طبيعي في قواه ، وازداد ألم الصداع في رأسه ؛ وتناول مقياس الحرارة فدسه تحت لسانه ، وعندما اخرجها ونظر الى زئبقه خفق فؤاده رعبا فقد وجده يشير

الى درجة الاربعين من الستغراد . ثلاثة خطوط اخرى ويصبح في عداد الاموات . ورمى المقياس جانبا واسلم نفسه للوساس والهواجس ، وتمدد فوق سريره البسيط في ظل خيمته الصغيرة ، وشعر بأنه قد فقد كل قوة تعينه على تدبير اموره ، فأسلم نفسه للمرض ، وغرق في غشيان غريب .

قضى ثلاث ليال قاسية لم يذق خلالها طعم النوم ؛ وحرارة جسمه المسجور تكاد تزهق روحه ، وتذيب دماغه وتذهب بعقله . وكان يكثر من شرب الماء لا لاطفاء ظمأ ، بل لمجرد التلذذ ببرودته . وامر رئيس عماله المسمى (حما) بوضع سريره في العراء ليلا ، وكان يقضي ليايله المسهدة في التحديق برقعة السماء المحصورة بين قنن الجبال المحيطة به ؛ حتى كادت تنطبع ساحتها الضيقة بما فيها من نجوم في دماغه الملهب . وكانت سلاسل الافكار لا تنقطع من رأسه ، وكانت تجري على وتيرة غريبة ؛ ومرت به ذكريات متقطعة لا تربطها سلسلة واضحة ، ولا يحكمها منطق معقول ؛ فتذكر امورا غريبة لا داعي لتذكرها . وتذكر جميع الصدمات التي تلقاها خلال العشرين سنة التي عاشها ، ثم تذكر آماله ومطامحه ومشاريعه التي سوف لا تتم ، ثم أخذ يرثي نفسه . وتصور كيف انه سيوت مبكرا فاغرورقت عيناه بالدموع وشعر كأنه يبكي انسانا عزيزا عليه غريبا عنه . وتذكر حوادث محزنة حدثت لبعض اصدقائه واقاربه ، فبكى لذكرها بدهوء . وفي نهاية ايام اربعة فقد المهندس المسكين سيطرته على كل شيء ، واسلم نفسه لعماله الخمسة يصنعون به ما يشاؤون .

واستلم (حما) المهمة محتقلا وقرر الاستقلال برأيه ، والقبض على زمام الامور بحزم . ولذ له ان يكون بطل الساعة ، فقد اصبح سيده يهذي اكثر مما يتكلم ، فليس من العقل ان يخضع لهذيانه ويتركه في تلك الحالة المحزنة . يجب ان يعد للامر عدته ؛ فهذا المرض الثقيل لا يمكن ان يكون هزلا ، فليس هو (مرارى) ملاريا ولا (قبز) امساك . انه شيء قد يفضي

بالإنسان الى قبره ، وهو يعرفه جيدا لانه يشيع بكثرة في قراهم الجبلية ، وهم يدأونه بالاحاجي والادعية وماء (الباجه) الكوارع عادة . ومن حسن الحظ ان (حما) كان ينظر الى سيده (الافندي) بغير العين التي ينظر بها الى ابناء جنسه فلم يتصرف به كما يتصرف بامراته ، فالأفندي في اعتقاده يختلف عن الكردي حتى فيما يخص الامراض والادوية . اذن فلا بد من نقل سيده الى اقرب (قستخانه) مستشفى . ولكن المسافة بينهم وبين هذا المستشفى تستغرق خمس ساعات مشيا على الاقدام ، وليس في كل هذه الاطراف طريق للسيارات والعربات ، ومن المستحيل ان يقطعها سيده ماشيا او جالسا فوق صهوة حصانه فالطريق شاقة وعرة المسالك تخترق آكاما ووهادا ، تنصب في اودية عميقة تارة ، وتصعد في سفوح قائمة تارة اخرى ، او تنقلب رفوفا صخرية ضيقة على احد جانبيها هوة لا يدرك البصر قعرها ، وعلى الجانب الآخر جدار صخري سامق لا يدرك الطرف نهايته . وادنى هفوة من المار ترديه في تلك الهوى الصخرية فلا يصل قرارها الا اثناء ممزقة مبعثرة .

ولما اعيتته الحيلة جمع رفاقه وعقد منهم مؤتمرا . وبقي يصني الى لفظهم وصخبهم مدة من الزمن وهو عابس صامت ، ويظهر انه جمعهم ليظهر تفوقه عليهم لا ليسترشد بأرائهم اذ لم يلبث ان وثب بينهم واخذ يلقي عليهم اوامر صارمة . وبعد خمس دقائق صنعوا محفة قوامها عمودان خشبيان قد شدا بمهارة الى جانبي قماش سرير سيده السفري .

وتم نقله ليلا لان (حما) ادرك رغم جهله ان حرارة النهار على خفتها في تلك الجبال ليست مما يوافق مريضا مدتما . وحمل اربعة من العمال نقالة سيدهم ؛ وسار (حما) امامهم وترك الخاسر يسوق الحيوانات التي تحمل امتعتهم . وكان القمر بدرا ينير لهم الطريق ؛ ويرهم معالمه بوضوح ولم يخف جمال الليل حتى على المريض المحمول في تلك النقالة . فقد بقي محدقا

طول الطريق بالبدر واشعته الفضة المراقبة على القن والسفوح • وشعر
بالسلام والهدوء وهو في محفته المريحة • وائر بهاء الليل وجلاله في تلك
الجبال الرائقة في تلك النفوس البكر التي لاتقل طهارة وجبالا عن تلك الجبال
التي ابتتها • واستخف الطرب سائق الخيل فلعلع صوته في هدوء الليل
يغني مقاما كرديا يصف فيه مواقع غرام وقتال • وكان رفاقه يرددون عند
انتهائه من كل مقطع (هاي هووو •••) فتجيبهم الجبال والوديان والجنادل
والصخور والغابات (هاي هووو •••) •

وفي صباح تلك الليلة اجتمع حول سريره في المستشفى الصغير الطبيب
ومساعده وممرض ، وحاول الطبيب عثا ان يفهم منه سير مرضه واعراضه •
فقد وجد جوابه لا يتعدى الهذيان فالتجأ الى (حما) والى مقياسه وادواته •
وبعد فحص قليل التفت الى مساعده قائلا :

— تيئفؤيد ! ومن النوع الخطر • ان المسكين في حالة سيئة جدا •

فأجاب المساعد يائسا

— ولقد تناول عدة مسهلات • ولا ادري كيف نجا من شرها • ان

امره لغريب •

فأجابه الطبيب

انه قوي البنية كما ترى ، وسيصارع المرض مدة اخرى ؛ وليس في
استطاعتنا ان نساعده بغير العناية التامة كيما يستطيع ان ينازل المرض بكل
قواه • وما أدرانا ، ربما نجا شدة وطأة المرض •

وعلم من محاوره الطبيب ومساعده التي كانت تجري على مسمع منه ان
حانته خطرة ؛ وانه سيموت حتما • واستولت عليه تلك الفكرة ولم تترك
مجالا لسواها طيلة ثلاثة ايام • وما كان يشعر بغير الضيق والضجر ، وود

من كل قلبه لو كان في استطاعته ان يموت ، ويتخلص من حياة مضية قاسية لم ير فيها غير المتاعب والالام . كم ود لو كان في استطاعته ان يتخلص من هذا الكرب الخاق الذي لا يعرف مصدره . وسأل نفسه لماذا لا يشعر بالام النزع ؟ الا يحتمل ان تكون حواسه متخدرة او ميتة ؟ ومد يده يقرص اطراف بدنه ويفرز اظافره في لحمه فلا يحس لذلك الما ؛ ولا يشعر بغير اصابعه تغور في جسمه . وغاضه جدا الا يموت بسرعة فنادى الممرض وصاح به عابسا :

— اني اعلم بأنني سأموت ؛ ولست أسفا على ذلك ، ولكن لا اريد ان اتعذب . ليس من الانسانية ان تتركوني نصف ميت طيلة هذه المدة . قل للطبيب ان يعطيني مخدرا ساما يقضي علي بدون ألم . قل له ذلك .

وغاب الممرض ثم عاد بكيسين من المطاط مملئين بقطع الثلج وضع احدهما على رأسه والاخر فوق معدته .

وتألم من هذه المعاملة فهو يطلب الموت وهم يأتونه بدلا عنه باكياس الثلج . واتعبه الغضب والتفكير بالموت فاستلم مدة قصيرة نوم مضطرب ، ثم اتبه قلقا . وكانت سلسلة الافكار تمر برأسه الملهب بطريقة عجيبة ، فتترك آثارا غريبة وتصور له النتائج مفزعة مضحكة . وصار يتذكر بين فترة وفترة اخبارا عتيقة جدا قرأها في الصحف فيحسبها اخبار الباردة . وتذكر فيما تذكر خبر جريمة شنيعة روت الصحف تفاصيلها منذ ثلاث سنين وكان قد ذهب ضحيتها شاب صغير السن سطا عليه الاشرار فسلبوه ماله وقطعوه اربا اربا ، وخبسط الشرطة في التحقيق خبط عشواء كعادتهم ، وارتبط ذهنه بخبر الجريمة ، واخذت كل افكاره تدور حولها . وممر بالصدفة في تلك اللحظة شرطي بباب غرفته يحمل دفترا تحت ابطه ، فتوهم فوراً بأنه يحمل ملف التحقيق في قضية جنائية لها صلة بالقتيل ولا بد ان

تكون هذه القضية هي تلك القضية التي قرأ عنها قريبا قريبا ! ولكن من تراهم سيتهمون بها ؟ ان الشرطة مشهورون باغلاطهم فلا يبعد ان يتهموا هو بهذه الجريمة . ان الامر لا ريب فيه . لقد نظر اليه الشرطي نظرة غريبة ، فلا بد ان يكون الامر حقيقيا ؛ ولا بد ان يلقوا القبض عليه ، ولكنهم سينتظرونه حتى يشفى .

ومر به الطبيب في تلك اللحظة فناداه وسأله بلهجة الخائف :

— هل بدأ التحقيق ؟

فلم يجبه الطبيب ولكنه اصدر الامر بتبديل اكياس الثلج .

وبقى يومين لا يزور الكرى جفيه . وهو يتصور سير هذا التحقيق الموهوم بعقله المريض ورأى نظرات الاستغراب توجه اليه من كل الناس فخيّل له ان التهمة قد ثبتت عليه ، وانه سيشق عن قريب ، وبدأ يشكو لنفسه سوء تدبير الشرطة وقلة اهتمامهم بواجباتهم ، وكثرة اغلاطهم . ولم يرغب في اعلان شكواه ، فقد اصبح سيء الظن بكل الناس . ولكن لماذا لا ينتحر ؟ ونظر حواله فلم يجد اداة تساعد على تنفيذ ما عزم عليه ، واخيرا التفت الى الممرضة وطلب منها دبوسا فنظرت اليه مستغربة وسألته عما يريد ان يصنع به فابتسم بمكر ثم اجابها وهو يعتقد انه لا يفصح سرا :

— ان الدبوس اذا غرس في الرقبة او فوق القلب يحدث الوفاة اليس

كذلك ؟

فابتسمت وابدلت كيسى الثلج .

سحقا ، حتى هذه اللعينة علمت غرضه . يجب ان يغلبهم . وطلب كوبا من الماء .

وانتهت الممرضة على صوت الزجاج يتحطم بين اسنانه ، فاستخرجت

الشظايا من فمه بعد جهد جهيد : ومن تلك اللحظة صارت تقدم له الماء بكأس من الألمنيوم .

وفي احد الايام عادته جدته ، وهي الوحيدة الباقية على قيد الحياة من كل اسرته ، فشكا لها همه وما يلقاه من سوء المعاملة في المستشفى ؛ واعلمها بانهم سيشتقونه فوضعت يدها على رأسه وصارت تتمم التعاويذ وتنفخ في وجهه ، ثم صممت على زيارة الشيخ (سوليم) فهو الوحيد الذي في استطاعته ان يشفي الانسان من المس ويطرد الارواح الخبيثة ، واته في اليوم الثاني بقطعة من السكر . وبعد ان رآته يضعها في فمه قبلته وخرجت مطمئنة فقد عزم على القطعة الشيخ الولي ، ونفخ فيها عدة مرات . ولم تنس عند خروجها ان تلقي نظرة كره الى الاطباء والمرضات وعجبت كيف يشفى الانسان وسط هؤلاء الكفرة والزنادقة . واتبه في اليوم الثاني على مثل صوت المطارق يدخل من النافذة ، فعلم انهم يشيدون شيئا من الخشب خارج المستشفى ، اذن فلا بد ان تكون المشتقة . ياللهول ، ايشنقونه بهذه السرعة؟ وعندما زاره الطبيب في صباح ذلك اليوم رأى امارات الرعب تنبعث من نظراته ورآه يحدق في السقف وبالمروحة الكهربائية المعلقة فيه . وسمع الطبيب للمروحة صوتا اثناء دورانها يشبه النقر ، فطلب من مرافقه ان يخفف الدوران ويقطع ذلك الصوت . ثم تطلع ناحية المريض فرآه يتسم ويقول بصوت متحشرج

— اذا كان لابد من شق الانسان فلماذا لا تأخذونه من الباب ؛ وما هي الحكمة في خرق السقف وسجبه من هناك؟

ولم يلتفت الطبيب اليه ومضى ينظر الى لوحة الخط البياني لحسرة المريض ورأى الخط يرتفع الى الاعلى بصورة شاذة فنادى الممرضة وسألها هل ازعجه احد ؟ وهل قدم له من الاكل غير ما اوصى به ؟ فاجابت بالنفي واخبرته بزيارة جدته المعجوز ، فقال المساعد :

— لقد رأيت الشر في عيني هذه الجحمرش • لا بد ان تكون قد اعطته شيئا •

فقطب الطبيب وجهه وامرهم بمنع الزوار ، وتمتم وهو في طريقه الى غرفة مريض آخر

— مسكين • لقد تضاعل الامل بشفاؤه •

واعقب تلك الليلة عدة ليال سود لا يتذكر خلالها امرا • وكانت حالته اشبه بكابوس طويل مرعب في جو خائق ، وكانت فكرة الاعدام قد تبدلت باخرى واخرى ، ثم اختلطت الافكار في رأسه بشكل يصعب معه تمييزها • وكان ينتبه في بعض الاحيان اتباهة قصيرة ، ويشعر بشيء من الراحة وذلك عند تبديل كيسى الثلج •

وبعد مدة لا يعرف مقدارها بالضبط اتبه الى نفسه ، وكان الوقت صباحا ، ورأى لاشعة الشمس رونقا بهجا ؛ وشعر بنسيم الصباح المنعش يداعب وجهه فابتسم لذة وجورا ، وشعر بالهدوء والسلام يفران روحه ، وما لهذه الراحة بعد ذلك الكابوس المرعب •

ودخل الطبيب متهلل الاسارير ومد يده فداعب ذقنه الذي لم يلامسه موسى عددا غير قليل من الايام ، وقال ضاحكا :

— اني اعلم كم انت جائع ايها الطفل ، فلا تعجل ، وستملأ معدتك جيذا بعد بضعة ايام •

وبلغ ريقه عندما ذكر الطعام امامه فشعر على الاثر بشيء من المرارة في فمه ، ولما اتوه بالقطور نظر اليه بازدراء وسأل الخادم « هذا فقط ؟ » فاجابه :
« لا نستطيع ان تقدم لك غير ما يوصي به الطبيب • »

وبعد ثلاثة ايام اخبره الطبيب ان باستطاعته مغادرة المستشفى • فلما خرج

وجد عماله وحصانه وبغليہ وجדתہ العجوز في انتظاره بباب المستشفى فشمع
بالسعادة والرضى عن الحياة ، واغرقه الجميع بعبارات التهئة ، وقبلته
جدته وعيناها تفيضان بالدموع سرورا .

انه ليشعر بانه قد ولد من جديد ، فابتسم للدنيا وظلت الابتسامة مدة
طويلة لا تفارق شفتيه .

وقال الطبيب لمساعدہ بعد ان صافح مريضه وهنأه بالسلامة :

— لم ار طيلة اشتغالي بالمهنة شخصا ينجو من بين فكي المنية وهي على
وشك ازدراده كما نجا هذا الشاب . انظر اليه . انه لا يقل نشاطا وصحة
وفتوة عن حصانه . لقد ازدرت كل فنون الطب عندما وجدتها تتخاذل
امام مرضه . لقد عملت الصحة والقوة ما عجز عنه الطب لقد انجته صحته
من موت محتم باعجوبة . بينما بقى الطب امامه مكتوف اليدين لا يملك غير
الدهش والاعجاب .



باسل

يؤمن السيد باسل بنفسه ايمانا قويا لا يأتيه الشك من بين يديه ولا من خلفه ، يؤمن بأنه فيلسوف مجهول ، وهل يكون الفيلسوف بين الحمقى غير رجل مجهول . وكثيرا ما يحاول ان يرى الناس ، بكل تواضع ، جانبا بسيطا من هذه الفلسفة الفريدة ، وذلك بسلوكه اليومي ، ومعاملته لغيره ، واسلوبه في الحياة . فهو يختار لقضاء اوقات فراغه مقهى من مقاهي شارع ابي ثؤاس التي لا يضاهيها مكان آخر ، وخصوصا في موسم الشتاء عندما تسطع الشمس ويهب نسيم النهر رخيا منعشا، فيختار مقعدا منعزلا يقرأ كتابا، او يصغي الى احاديث المارة وثرثرة الزبائن ، وكثيرا ماتجده قد اطلق لقدميه وساقيه العنان يقودانه الى الامكنة الخلوية فيسير الهونا وعلى شفثيه ابتسامة المفكر المشفق . ومن النادر ان تجده لاهيا بما يلهم من هم في سنه من الشبان الطاشين الذين يؤمنون كل الايمان بأن عمل الشاب في اول مراحل حياته لهو ولعب يسمم العقل ويتعب البدن ويضعف النظر ويقصر الاجل ، ومما يشهد له باحتلاله مركزا ممتازا في وصف الفلاسفة ، قلة اصدقائه ، وانعدام اعدائه . ويفتخر باسل بعدم وجود عدو له ، كما يفخر بقلة اصدقائه ، فهو من المؤمنين بعدم وجود صديق في الدنيا ، وبناء على ذلك فعقل المرء وحكمته تقاس عكسيا بنسبة عدد اعدائه .

ويعترف كل من يعرف السيد باسل بأنه انسان طيب ، هذا اذا لم يكن من المؤمنين بفلسفته . فمن النادر جدا ان يغضب انسانا دون مبرر ، وينظر الى اغلاط الناس وسخافاتهم نظرة ترفع وعجرفة ، فهو لا يتنازل حتى الى ابداء ما يشير الى شوره من غلطة وقعت امامه مهما كانت فظيعة مؤذية .

وقد تجد بصحبته رجلا واحدا ماشيا معه او جالسا معه ، واحدا لا اكثر ولا اقل ، ويكون ذلك الرجل من اصدقائه القلائل فاذا خاضا في حديث يقوم باسل بدور الفيلسوف المتكلم ، ويقوم الصديق بدور المعجب بذكاء صاحبه وحكمته . وقد ييسط القادم جريدة ويشرع يقرأ الانباء العالمية ويعلق عليها ، فاذا ما انتهت الخارجية من هذه الاخبار اعقبها بالداخلية ، وقد يتطلع بين آن وآخر في وجه صاحبه ليرى مبلغ اهتمامه بخبر مهم او حادثة عجيبة او نبأ خطير ، فلا يجد منه سوى اعراض الساخر المشفق ، فيعجب لهذا الرجل العظيم الذي يرى الدنيا لهو اطفال وسخافات اقزام . وقد يحظى المريد بانارة اهتمام استاذة عندما يقرأ له مقالا افتتاحيا يبحث في شأن من الشؤون الداخلية مكتوبا بأسلوب العالم المحلل ، وكلما زاد الاستاذ اتباها زاد المريد حماسا في القراءة . وما اسعده عندما يستوقفه الاستاذ ليسمعه نقدا عميقا فلسفيا لعبارة من العبارات بعد ان يقدم له بتحليل علمي دقيق يدل على المهارة والحدق ، فيزداد الصديق اعجابا فوق اعجاب ، وما اكثر ما يسأل ذلك الصديق او التلميذ او المريد صديقه او استاذة او شيخه

« اني ليدهشني ان تكون لك مثل هذه المقدرة على التفكير والتحليل فلا تكتب شيئا . لماذا لا تخرج من عزلتك فترى الناس بعض قابلياتك » .

فلا يجيبه بغير ابتسامة فلسفية صامته . وكان كلما سمع مثل هذه العبارة المغرية تور في نفسه رغبة جامحة في ان يحقق امل هؤلاء الاصدقاء

فيه ، وتثور في نفسه ايضا رغبة اخرى لا تقل جموحا عن الاولى في خنق الرغبة الاولى اذ يتصور ما قد يلحقه من جراء ذلك من اضرار ، وما يصيبه من جراء خروجه عن فلسفته وتمرده على طريقته من اوصاب .

وكلما تكررت تلك العبارة ازدادت المعركة في نفسه شدة حتى اصبح فريسة لهذه الحرب الشعواء ، فيسائل نفسه لماذا لا يكتب ؟ ولماذا لا يخوض في بحث الشؤون السياسية والاجتماعية وكل الشؤون الهامة كما يفعل غيره ؟ انه ان فعل فلا شك انه سيوفق بعض التوفيق ، فليست آراؤه أقل نضوجا من آراء أحسن الكتاب اذا لم تكن اكثر منها عمقا ودقة .

ولكل انسان ميل بالفريضة الى اظهار مقدرته في شأن من شؤون الحياة ، والقات نظر الناس الى بعض ما لديه من حسنات ، فلماذا لا يرضي هذه الفريضة بأن يحقق هذه الرغبة ؟ ان الناس يرون فيه رجلا مغمورا لا يؤذي ولا يفيد ، فليته يعمل ما ينفي عنه هذه التهمة ويخلصه من هذا الخمول .



وفي احدى الامسيات وكان خاليا مما يشغله دخل مكتبه ومضى يتلهى باستعراض صفوف الكتب المنضدة في مكتبته ، ومضى يفكر ، واحس بالحرب الشعراء تثور في نفسه ، وشعر بعزف عن القراءة وبميل الى الكتابة ، وتذكر انه قرأ مقالا حول مسألة اجتماعية اثارها احدى الصحف المحلية ، وتذكر انه قرأ مقالا حول تلك المسألة مشحونا بالاغلاط ملووء بالتناقضات فلماذا لا يكتب هو ايضا في نفس ذلك الموضوع ؟

واسرع فجلس الى مكتبه وتناول قلما وقرطاسا وشرع يكتب ، وكان يكتب بنظام ودقة يحسده الكثير عليها ومضى يكتب وكأنه يلهم الهاما ، وبعد ساعة من الزمن اكمل موضوعا اجتماعيا هاما مكتوبا بأسلوب علمي جميل معززا بالحجج الدامعة والمنطق السليم ، فتنفس الصعداء .

واعاد تلاوة ما كتب فتملكه زهو واعجاب شديد ، ومر بخاطره ان يعرضه على احد اصدقائه من اصحاب الصحف ، وتصور المقال وقد نشر في محل بارز من تلك الصحيفة ، وتصور الناس يقرأون ذلك المقال باهتمام شديد ، ويثنون على الكاتب الفذ ، ولكن ايكون الاعجاب عاما ؟ لابد ان يكون بين القراء من لا يرى رايه فيرد عليه وربما سفهه ، وعندما وصل الى هذه المرحلة من تصوراته احس ببعض الخيبة .

ثم عاد يفكر مبتدئا من هذه الحقيقة التي تصطدم مع مذهبه وفلسفته فحزأ من البديهي ان اغلب الناس لا يعجبون بأمر من الامور اذا لم يدفعهم الى ذلك الاعجاب فائدة شخصية وعلاقة مادية . اما اغلب المحايدين فيسكتون او ينقدون ، ويتعمد اغلبهم الانتقاد حسدا ولؤما ، او غيظا من حقيقة واردة تلذعه ، او عبارة شاردة تلذعه . ويزيد عدد هؤلاء كلما اقترب الموضوع من الواقع الملئوس شأن كل المواضيع الاجتماعية . وقد يكون ذوو النفوذ والسلطان في مقدمة المغتابين ، والويل للكاتب من شرهم حينذاك ، فغيظ هؤلاء قد يكون سبب غيظ عدد كبير من انصارهم واذنابهم وابواقهم ، فيعدى هؤلاء عددا كبيرا من الناس حتى يكونوا رأيا عاما قد ينزل اقوى الضربات على رأس ذلك الكاتب .

وما ان وصل الى هذه النتيجة حتى عاد يقرأ المقال بدقة وحذر ، فيقف عند كل جملة ، فيرى في هذه الجملة مطعنا ، وفي تلك ثورة ، وفي الاخرى موضعا للشبهة والتهمة ، فيتصور النقمة والهول كامنين وراء كل عبارة وكل سطر ، وانه ليكاد ينطق بأسماء بعض من ستثور ثائرتهم عند قراءتهم ذلك المقال . وبقيت عزيمة تتردد بين الاقدام والاحجام يدفعها الاول بما يصور له من عواقب حسنة وبرجها الثاني بما يريه من اخطار وتناجج وخيمة .

وكانت كفة الاحجام تزداد رجحانا حتى اوصلته الى ان يتصور ان نشر المقال سيجلب له كره المغرضين ، وقلة اكتراث المحايدين الذين لا

يهتمون بشيء ، وسخيمة الحاسدين ، وقد يخسر من جراء ذلك كل اعوانه واصدقائه ، وقد يغضب ذوي السلطان والرؤساء فيقع تحت طائلة عقابهم ويخسر بسبب ذلك راتبه ووظيفته وقد يتعرض للتهم الخطيرة ، بل للسجن .

اما اذا بقى منزويا كماداته فيحتفظ بأنصاره الذين يؤمنون بمواهبه ، ورغم قلة هؤلاء فان قيمتهم عظيمة ، وما توانى بعد ما وصل الى هذه المرحلة من التفكير فاختطف المقال ومزقه شر ممزق ، وقذف به الى سلة المهملات . ثم تنفس الصعداء كأنه قد تخلص من شر مستطير .



والتقى في اليوم الثاني بصديق من انصاره المعجيين به ، ورأى في يمينه جريدة يلوح بها باعجاب وحماس ، وكان من المهتمين بالموضوع الآنف الذكر مثل صديقه ، وبعد ان بسط الجريدة شرع يقرأ بحماس وشوق وازداد حماسا في القراءة لما رأى صاحبه يصغي باتتباء على خلاف عادته وقد ظهرت عليه البغطة . لقد كانت الآراء والحجج الواردة في ذلك المقال هي عين ما فكر به البارحة ، وحتى الاسلوب هو نفس اسلوبه ، وقد اوشك ان يشك بأنه يسمع نفس مقاله يتلى عليه مرة اخرى .

ولما انتهى الصديق من تلاوة المقال نظر اليه منتصرا وقال :

« اعتقد انك الآن غير محق اذا ما بقيت متشائما من تقاهة الجرائد وسخافة ما ينشر فيها مادامت تنشر مثل هذا المقال الرائع . لو سمعت بالضجة التي احدثها لادركت قيمة هذا الكاتب ، فلم الاق طول هذا اليوم غير معجب بهذا الكاتب ومفخر بأرائه او متباه بنبوغه . لقد احرز انتصارا لا يجود به الزمن كل يوم » .

وكان باسل في شغل عن سماع كلام صديقه • كان يفكر بهارة هذا الكاتب الذي استطاع ان يتميز نقاط الضعف ، ويجب عليها بمثل دقته ومهارته ، ويستبد بالشهرة دونه ، والغريب انه نسي كل خطر يمكن ان ينال الكاتب من جراء مقاله ، وكل ضرر يمكن ان يلحق به • فلم ير فيه عندما سمع اطراء صاحبه الا مغتصبا لحقوقه ، سارقا لثمرة جهود غيره • كم يود نلو يستطيع ان ييرهن للملا ان هذه آراؤه لا آراء غيره ، وان هذا الرجل سارق ملعون •

والتفت الى صديقه مغتاظا ضجرا فسأله :

« ومن هذا الكاتب المأفون الذي ملك عليك لبك » •

فأجابه رفيقه وقد ادهشه مسلك صديقه غير المنتظر :

« انه سبحانه • انك تعرفه جيدا دون شك • فهو من اصدقائك

المعجبين بك » •

فحرق باسل الارم وقال مستخفا

« انه يخطط خطب عشواء • انها لآراء ضحلة تعوزها كثرة التجربة وسعة الاطلاع • كان عليه الا يكتب شيئا وهو بهذه السن ، ولكن ليس الذنب ذنبه انه ذنب هذه الجرائد التي انحطت حتى اصبحت العوبة للصبيان ولهاوا للاطفال • كم تحسن الحكومة صنعا لو منعت كل من لم يتجاوز سن الاربعين عن كتابة اي شيء » •

وادرك الصديق المعجب ان استاذة يتكلم بدون روية لأول مرة في حياته ، وان هناك ما يكمن وراء تلك العبارات الجوفاء التي القيت جزافا ، واحس بأن امله فيه يتضاءل • وادرك الفيلسوف من نظرات صاحبه وحيرته انه تسرع فكشف مكنونات سره وخبايا نفسه ، فشرع بالضجر من وجود صديقه بجانبه ، واحس بالنفور منه •

وقد سبب تلك الحادثة انقلابا جوهريا في حياة الفيلسوف المنزوي ، فكثر
هذره ، وقل عدد المعجبين بأخلاقه وازداد عدد الساخرين منه والشامتين به •
اما اعداؤه الصادقون في عدائهم ، فلم يعد لهم وجود اذ اصبحت قيمته في
الحياة صفرا ، واصبح واحدا من القطيع المسوق الى حيث لا يدري •
ترهبه قرقرة سوط وترضيه حفنة من شعر •

قبل الغروب

ليس في العراق سماء اصفى من سماء البصرة ، ولا جو ابدع من
جوها ، ولا نسيم ارق من نسيمها في اواخر الشتاء ، وفي شهر مارت على
الاخص .

تدب الحياة في شوارع العشار وقت العصر ، حياة متراخية مترفة
ناعمة . فالسيارات تمرق بخفة وحذر لا ضجيج لها ولا ضوضاء ،
والمتزهون يتهادون بفتور مبعثه النشوة لا الخمول والكل .

كان مجلسنا في شرفة مغمورة بأشعة الشمس الفاترة وهي تميل الى
الغروب منحدرة وراء النخيل . وكان جليسي صديقاً من اصدقاء الدراسة
ورقيقاً من رفاق الصبا . وانطلق يسمعي حديثاً هادئاً فاتراً لا أثر للحماس
فيه او الصخب على خلاف عادته عندما يتحدث .

قال وهو يشير الى ذلك الشارع الواسع ، الذي شطره النهر بقواربه
الطويلة الرفيعة ، الى شطرين غير متساويين « انك لا تجد لهذا النوع من
الشوارع مثيلاً في كل انحاء العراق . شارع يقرب عرضه من الخسين متراً
يشطره نهر لا يقل عرضه عن الثلاثين متراً ، تتهادى فيه قوارب الصيد
وقوارب النزهة ، والنسوة السافرات منهن والمتحجبات يمسن في الشارع
بملء الحرية دون ان يجدن مشاكسا او منتقدا » .

فأضفت :

« ولست واجدا مثل هذا الجو الفاتر الرطب ، ولا مثل هذه الوجوه الصبوحه الشديدة السمره الفاترة العيون • يلوح لي ان الحياة هنا تسير بنفسها دون ان تجد حافزا يثيرها ، او مشاكة تستهضها ، او حادثة مهمة تشحذها • انها لينة متراخية كهذا الجو ، ولكنها قد تصف بالهدوء والمسالمة » •

فهز صاحبي رأسه موافقا وقال :

« ان اهل البلدة مشهورون بدماثة الخلق ، ولين العريكة وحسن المعشر ، وعدم الميل الى التدخل في شؤون الغير واثارة القلاقل والمزعجات » •
والنفت الى الصبية المرحه التي كانت تنتقل في الشرفه كالقراثة في اواخر الربيع ، وسألتها وانا اتملى وجهها الصبوح ، وقد انستني عيناها الجميلتان الدعجاوان اللتان كاتتا تفيضان طهارة ، كل خاطرة سيئة وكل فكرة مزعجة •

« ترى كيف تقارنين يا صغيرتي بين الموصل مسقط رأسك وبين هذه البلدة ؟ » •

فأجابتنى بإبتسامة فاترة :

« لا مثل لجو الموصل في كل العراق ، ولكنني احب هذه البلدة واحب اهلهما الطرفاء الذين لا يحصون على المرأة خطواتها ، ولا يتعصبون للحجاب ، ولا ادري لماذا يلح اهل الموصل في التدخل في شؤون الغير ويحاسبون انفسهم على سلوكهم حسابا عسيرا ؟ » •

وقبل ان اضيف اعجابي بافكار الصبية الى اعجابي بجمالها ، تخطى عتبة الشرفه رجل يبدو عليه التراخي والذهول جليا واضحا ، في عينيه الخامدتين

الا من جذوة تنأق بين الفينة والفينة ، وفي شفقه المرتختين الياستين ،
ولحيته المهملة النابتة بنشاط غير متساو في صفحتي خديه الفائرين ، وفي
ملابسه المهملة ، وحذائه الوسخ ، وفي مشيته التي تشبه حركة تمثال محشو
بالخرق قد شد بسلك غير منظور • وجلس بالقرب مني بعد ان سلم •

واستقبلته بحفاوة تناسب مقدار احترامي له في الماضي ومبلغ حزني
لما اصابه في الحاضر ، فزداد برق الجذوة الهامدة في عينيه •

وانقلب جو الغرفة بقدمه فانسحبت الصية من المجلس على الفور ،
وتقطب وجهه جليسي قليلا ، وصرت استشف في نظراته الى الزائر الجديد.
امارات الاشفاق ممزوجة بمظاهر الاستياء ، ولم يلبث ان تتمم قريبا في.
أذني •

» انه سكران ايضا « •

وما كنت بحاجة الى ذلك الهمس لاعلم انه سكران فقد كانت رائحة:
الخمرة قد ملأت جو الشرفة وتسربت الى خياشيمنا رغم طلاقة الجو ، ولم
تكن المسافة بيني وبينه كافية لا نقاذي من رائحة الخمرة المنبعثة من فمه •

ورمى سدارته عن رأسه فأنكشفت عن بضع خصل من الشعر مبشرة:
فوق اذنيه ورقبته ، قد قف بعضها ، والتف البعض ، وتفرق البعض في.
اتجاهات مختلفة متعاكسة • وكان وجهه كثيا مظلما ذا الوان كثيرة منفردة.
فهو قائم قرب العينين ، واصفر في الصدغين وغامق قرب الانف والشفتين •

وانطلق يتحدث دون ان يجد معارضا او مقاطعا • وخاض في حديث.
طويل عن الوظيفة وعن متاعبه فيها ، وكفاحه في سبيل الواجب ومواقفه.
المشهورة ، واحراجه الرؤساء والوزراء ومجابتهم بالاجوبة المسكتة والحجج.
الدامغة • واعقب ذلك بشروح طويلة وتحاليل دقيقة لحياة الوظيفة ومتاعبها

ومتناقضاتها ، وضياح حقوق الاكفاء والمخلصين فيها ، وبروز البلاء والمهلين في مسالكها .

وكان يسمو في بعض الاحيان فييدي من الآراء الصائبة والمقارنات المعقولة ما يستهوي السامع ويملك اعجابه ، ويسف احيانا فيخطط في الحديث ويأتي بعبارات مفككة لا علاقة لها ببقية الحديث مما يجعل السامع يشك بوعيه او بصحوه او بعقله .

وكنست استشف من حديثه بعض تلك الروح الوثابة والذكاء الحاد والقوة على المثابرة والجلد في احتمال المكاره وغير ذلك من الصفات التي كنت اعرفها فيه يوم كان في العقد الثالث من عمره ، حين كان يعد من الممتازين بذكائهم وشدة ملاحظتهم وسرعة انتباههم وحساسيتهم المفرطة . ثم انقلب يتكلم عن نفسه فصار يشكو افلاسه المزمع وسوء حاله في الوظيفة .

فسألته عما يصنع براتبه الوافر .

فأجاب صاحب المنزل دون ان يعطيه فرصة للجواب :

« انه يسكر بعشر راتبه ويقامر بتسعة اعشاره ، وله في القمار ولع لم تسمع بمثله فهو يطارد كل اصحابه ومعارفه ولا يزال بهم حتى يجبرهم على اللعب معه ، فاذا احتجوا بعدم معرفتهم اصول اللعب ، الح عليهم بأن يتعلموه على يده ، واذا اعتذروا بعدم وجود دراهم معهم قاسمهم بما عنده ، ولا يزال هذا ديدنه حتى يخسر كل ما معه . وهو بطل في الدين ، يشرع فيه بعد ثلاثة ايام من استلام راتبه . هذا اذا افترضنا المستحيل ووجد من يمد له يده ببضعة دراهم » .

وانتفت الى ذلك الكهل المتهدم ، الذي كان فيما مضى ذا شخصية ممتازة بارزة لا يسهل ان توجه له عبارة اقتصاص ، لأرى ما يدل على

الاستنكار او الاعتراض او التكذيب ، فرأيته يضحك جذلا كأنه يسمع
خبرا مضحكا عن انسان ماجن لا يمت اليه بصلة . ثم التفت الي
واضاف .

« اني مولع باللعب لمجرد الرغبة فيما يثيره اللعب من مختلف العواطف .
انه الشيء الوحيد الذي ينسى الانسان نفسه ، واذا تعاون مع المسكر كان
لهما فائدة وتأثير لا يمكن ان يكون لغيرهما من المخدرات » .

وأردت ان اثير نخوته ، وادفعه الى التفكير الجدي في الحياة ، والالتزام
الى الهوة التي ستبطله قريبا ، فتعمدت ان اذكره ببعض ماضيه واشيد
بذكر اعماله ومشاريعه وآرائه . وقد لمست شيئا من النجاح في ذلك ، اذ
ارتسمت على شفثيه ابتسامة غريبة وازداد بريق عينيه ، وارتجف ذفنه غير
الحليق ارتجافا خفيفا ، وارتفعت يده ببطء لتضع السيكرة بين شفثيه
اليابستين ، ثم اكتسى وجهه بنقاب شفاف، ازرق من الدخان ، فبدا كوجه
شيخ مبرقع يتقدم من اللانهاية ، وبدأت في جمه الهامد حركة نشاط ، ثم
نفخ الدخان نفخة طويلة بددت ذلك النقاب ، وكشفت عن وجهه وقد دب
فيه ديب النشاط ، وارتفع صوته المرتجف شيئا فشيئا ، وانطلق يتكلم
بلهجة قوية ، ومضى ينتقد ويندد ، ويهدد ويتوعد . واستنار فكره قليلا
فمضى يذكر بعض تجاربه ومحنه ، ويقارن بينها وبين وضع القوم الذي
فيه يتخبطون ، وصاح باعلى صوته « ان هؤلاء المجانين يخبطون في نتائج
فوضاهم خط عشواء ، ولو انتهوا الى تحذيراتي ، واستمعوا الى نصائحي
ونصائح امثالي، ولم يضرىوا بكل اقتراحاتي عرض الحائط ، لكانوا في غير
هذه الحال ، ولاستراحوا من شر هذه المتاعب والمصاعب غير المتناهية .
ولكن و ... ولكن » وانخفض صوته شيئا فشيئا ثم ارتجف واهتمز ،
وسكت . ورجع الى سكوته وجموده وتبلده .

ونظرت الى صديقي الاول قرأته قد انصرف عن الاصغاء الى حديثنا

وإنتقل بنظره الى الشارع يلاحق بنظراته تلكم الفتيات الممتلئات الاجسام ،
اللواتي كن يسنن الهونا بثاقل ، تتلوى اعطافهن بشكل مغر مثير ، وكان
البعض منهن يرفعن اعينهن الناعسة الى الشرفة .

ومرت ثلاث منهن لوسطاهن شعر كستنائي يشبه اشعة الشمس عند
الغروب ، وكانت طويلة القامة ممثلة الجسم براقة العينين لا يسهل على
الناظر اغفالها مهما كان جامد العاطفة عديم الاهتمام بينات جنسها .

وصحت بذلك الكهل انبهه اليها فرأيته يعد بثاقل بضعة دراهم وينقلها
من يد الى اخرى ، ثم تطلع نحوي وقال :

« اذا كنت لا تحسن اللعب فسأعلمك . لا بد ان يكون عندك شيء
من الدراهم . واذا لم يكن عندك شيء منها فسأقرضك قليلا مما معي .
هيا لنلعب الورق » .



عداء قائل

السما مشرقة ضاحكة ، والارض مخضرة زاهية ، والنسيم رقيق
رطب عقب منعش •

كل شيء باسم بهيج ، في السماء ، وفي الارض ، وما بينهما ، الا مخلوقا
واحدا من مخلوقات فاطر السموات والارض •

يرتدي هذا المخلوق العابس بذلة انيقة ، وله قامة رشيقة ووجه جميل.
لولا ذلك العبوس ، وما اشبه ذلك الوجه بنافذة جميلة البناء مزخرفة
الاطار ، رائعة الهندسة والتنسيق قد اطل منها عفريت من غفارىت الجحيم.
او ساكن من سكان اعماق الارض •

كان يوما من ايام الربيع النادرة في حسننها وجمالها • فالاشجار مورقة.
مزهرة ، والورود متفتحة تنشر اريجها يبعث البهجة والنشاط والامل الى
كل نفس حية الا نفس ذلك الرجل •

كان يتمشى وحيدا مضطربا كأنه قد نجا توا من اعداء الداء بعد ان
اوسعوه تعذيبا واضطهادا ، وكان قد خلف المدينة وراءه وضرب في ضواحيها.
لا بغية التمتع بجمال الخلاء ، ولكن هربا من شر المدينة ، وكانت سحتته
اعظم دليل •

وانك لتظنه لاول وهلة حين ترى اناقة زيه وجمال وجهه ومظاهر
النعمة في هندامه ، احد اولئك الذين يولدون وفي افواههم ملاعق من
ذهب ، كما يقول المثل ، وسيعيشون في الدنيا لا يعرفون منها سوى
حليتها ، ولا يشعرون بمساوئها ومضايقاتها ونكباتها ، يقطعونها من المهد
الى اللحد ، كما يقطعون حديقة غناء فيها كل ما لذ وطاب ، الزهر الندى ،
والاكل اللذيذ ، والوجه الحسن ، حتى اذا ما اطلت التأمل بسحته ايقنت
بطلان ما ذهبت اليه .

لقد ولد كما يولد كل الناس من ابوين ، وكان وحيدا لهما لا يشاركه
في حناهما اخ او اخت ، وتعلم في المدرسة ليكون موظفا كأيهم الذي مات
ولما يبلغ ولده الحلم ، وكان للطفل ما اراد بعد ان كبر واكمل تحصيله . وما
كان حصوله على الوظيفة امرا هينا ، بل حصلها بعد كفاح وجهاد ابلت فيهما
امه بلاء حسنا شاركها فيه الاقرباء والاصدقاء والجيران ، وابلى هو ايضا
بلاء لا يقل عن بلاء امه ، فاستعان بكل مواهبه في هذا السبيل ، وكانت
تلك المواهب وسامة في وجهه ، ورشاقة في قدمه ، وغنج في حركاته وكلامه ،
وفراغ في عقله الذي اتسع لفهم كل مقاييس الحياة المغلوطة واساليب
(الكشخة) والنفخة ولم يتسع لفهم ابسط العلوم والمعارف ، وهذا ما ينتظر
من طفل وحيد لانه قد تركت الدنيا لاجله ولم تبخل عليه بكل ما تملك
لتجعل منه ذلك الشاب الجميل الرشيق الذي تتسابق الفتيات لنيل رضاه .

وسلك في الوظيفة المسلك الوحيد الذي ينتظر من امثاله ، فتقدم على
اقرانه ، وتزايد راتبه فتزايدت مصاريفه وكثر اصدقائه وتنوعت علاقاته
بالناس ، وكثر عدد من احسن اليهم فأساء الى العمل الذي وضعه بين
أيديهم . واراد أن يبرهن على انه البطل الموفق في ميدان الغرام زيادة على
موفقياته في ميدان السياسة والكفاءة والاقدام .

وما كان بحاجة الى جهود تذكر في هذا السبيل ، فله وجه جميل ، واسم نبيل ، وجاه عريض وطويل ، ولديه كل ما تمثقه راقصة طروب ، او فتاة لعوب ، او مصونة قد ألفت شباكها لاصطياد بعل عتيد .

وكان ماهرا حذرا في جولاته وصولاته ومناوراته ، يعرف من اين تؤكل الفخذ والردف ، فتزوج الحرائر المصونات ، ولم يترك مجالا لتتزوج واحدة منهن وسقط في غرامه كل بنات الهوى من صغيرات متبذلات مستهترات ، وكبيرات متمنعات متعجرفات ، ولم يسقط هو في غرام واحدة منهن ، ولم يخسر في كل هذه المارك غير محتويات جيبه ، وجيوب اصدقائه والمتوسلين به ، ومحسويه والمنسوبين اليه .

والان عد فتأمل في وجهه المنقبض السحنة وستستغرب حتما ان يكون لصاحب هذا المجد الاثيل مثل هذا الوجه الكئيب الطويل ، وستندهش ان تراه يسير وحيدا دون صديق او رفيق ، قد امتطى ساقيه بدلا من ان يمتطي سيارة فخمة من شركة شهيرة قد امتطته او امتطت المصلحة العامة ثمنا لها .

ولكن مهلا فلحديثه بقية ، وكل من عليها فان ، والنعمة في هذه البلاد قصيرة العمر تأتي بطرفة عين ، وتذهب بطرفة عين . ففي طرفه من طرفات عين الحكومة التي تستيقظ فتفتحها حيناً ، ثم تنام فتغمضها وقتاً طويلاً ، او تعتدل فتتكاسل ، وتمطى وتثائب ملياً ، لتعود فتنام من جديد ، حدث ان سقطت هذه العين ، وكانت مفتوحة محملقة ، على هذا الراجع في بحبوحاتها المحتمى بسلطانها ، ففاظطها الامر ما أن يلهو ويلعب على هواه ، وربما كان مزاجها حادا حينذاك بسبب توقعك في صحتها ، او مقص في بطنها ، او صداع في راسها ، ومهما كان السبب فقد رفعت يدها الثقيلة ، « كفخته » ، وما كانت يدها تلك سوى وزير جديد قد خلف آخر قديم ، فكان شعر رأسه يقف كرها كلما سمع باسم سلفه ، او رأى شيئا من أعماله ، او أحد محسوبيه

فلم يجد صعوبة تذكر في ايجاد ما يبرر فصل ذلك الموظف بقانون من تلك القوانين التي تعددت أسماؤها ولكن مفعولها واحد • وقد احصى عليه من الاغلاط ما يكفي لتذييله مائة مرة او صنع مائة ذيل له •

وهكذا طرد صاحبنا من عمله غير مكتسب منه سوى ديون طائفة. ابتلعت المنحة التي استحقها بسبب الفصل •

فلا حق لك بعد ما علمت من أمره ما علمت في أن تلوم هذا الانسان لعبوسه وتهجمه وتعاسته وعدم تأثره بالطبيعة الجميلة الضاحكة • وكيف يكون في استطاعته أن يتهجم بعد أن غدا بين عشية وضحاها صفر اليدين من كل شئ من المال والاصحاب والانصار والاصدقاء والاحباب أما المال فلا يأتي من لا يملك شيئا من المواهب غير فن الوظيفة ، وهو لم يتقن في حياته سوى هذا العمل •

والوظيفة التي تدر الدنانير داخل دوائر الحكومة لا تدر غير السخط والاحتقار خارج دوائر الحكومة •

وأما الاصدقاء فقد تفرقوا عنه بعد ان غدا صفر اليدين من الاصفرالران وصار يهددهم بأن يكون عالة عليهم • وانقلب أنصاره عليه اعداء ألداء حفظا لمراكزهم وخوفا على رواتبهم وتقربا من ذوي السلطان •

وأما الراقصات ، ويح الراقصات فقد أدرن له ظهورهن ، وهززن في وجهه أردافهن التي لا زالت تحمل أثار مداعباته وعضاته وخمشاته •

وما اعظم كل هذه الخسارة في نظر انسان لا يعرف من دنياه غيرها ، فليس في نفسه المقفرة عواطف سامية ، ولا في رأسه الخالي فلسفة شخصية تعينه على احتمال هذه النكبة وتخفف من تأثيرها ، وهذا ما جعل لوقعها في نفسه صدى هائلا كأنه صدى صرخة حادة في غرفة واسعة خالية •

وليس هذا فحسب ، بل هنالك ما هو أدهى وامر ، هنالك الحساد الذين كان يكيد لهم ، والمنافسون الذين كان يزهم عليهم ، والاعداء الذين نكبهم في سبيل مصلحة قريب او صديق . وهنالك وهنالك .
يا لله ما أكثر هؤلاء الاعداء ، وما أصعب احتمال وجوههم الشامتة عندما تبرز كلها مرة واحدة من الظلام فتكاد تفقد الانسان صوابه .

فلا عجب اذن في حزنه وبؤسه ، بل ان العجب في اصطباره عدة اشهر دون ان يأتي عملا جنونيا تهمة له افكاره البليدة وبأسه المريع . لقد باع كل ما لديه واصبح لا يملك قوت يومه ، ولا يحوي جيبه اكثر من خمسين فلسا ، عفوا انه يملك شيئا آخر يملك مسدسه الصغير الذى اعتاد أن يحمله ولا زال يحمله بمزيج من الدوافع منها الخوف و (الكشخة) وزيادة الاطمئنان ... ومن يدري .

كان وحيد امه ، لم يعتد احتمال أدنى الصدمات ، ولم يعص له أحد أمرا في حياته ، او يحل بينه وبين رغبة من رغباته حتى ان هذا الرئيس الجديد قطع عليه مجرى حياته .

ترى كيف فعل ذلك ؟ ولماذا فعل ذلك ؟ اتراه لم يقدر عظم المصيبة التي انزلها به وهل من حقه ان يستهتر بحقوق الافراد الى هذا الحد ؟ لو عرف طريقة للتفاهم معه لا تبعها ، ولكنه رئيس بعد محاولات كثيرة فاشلة . ان الرجل يريد أن يكون مصلحا على حسابه ، وأي اصلاح مضحك هذا اتراه قد وضع في محله من هو أصلح منه لقد ظلمه ، بل لقد قتله ، وأي فرق بين وضعه ذاك وبين الموت . ان الموت خير واولى من حياة كهذه تشبه كابوسا مرعبا مخيفا . تالله لو سقط هذا الرئيس بين يديه لقتله خنقا بيديه الرقيقتين ، ولكن لماذا لا يقتله رميا بالرصاص ؟

ونظر الى يديه المتخشبتيين ، والى اصابعه تقبضت فاصبحت كمخالب
نسر ، ثم مد يده الى المسدس الذي لا يفارق جيب بنظلوله الخلفي ومضى
يقلبه بين يديه ، ثم نظر حواليه ، وبعد ان تأكد من خلو المكان صوّبه الى هدفه
واطلق عيارا فاصاب المرمى

لقد كان التدريب على اطلاق الرصاص من جملة ملاحيه في أيام العز ،
وكان للطلقة دوي رهيب في تلك الضاحية المقفرة وانبعث من عينه شعاع
مخيف واعتدال في وقفته وهو يردد

« ساقته . ساقته . ولماذا ؟ لو قتلت لقتلوني . أما هو فيخسر
بموته مركزا عظيما ، وراثبا ضخما ، وجاها عريضا ، ومتعا ونعيا لا يحلم
بمثلها الا القليل ، واما أنا فساخر الشامتين والحساد والدائنين والخونة من
الاصدقاء والاقارب والاحباب ، واكون فوق ذلك قد كلت للمعتدي صاعا
بصاعين ، فما اعظم الفرق بين الخسارتين ؟ »

واستحوذت عليه الفكرة فلم تترك مجالا لسواها ، واثارت في نفسه
عواطف الكره والغيظ المميت ، وتمنى لو كان عدوه أمامه ليفرغ في رأسه
رصاص مسدسه وليكن بعد ذلك ما يكون .

ومرت بفكره في تلك اللحظة كل تلك المحاولات الفاشلة المتعبة
لاستعادة راتبه ومركزه . لقد جاهد جهاد المستميت ، وكان كلما خاب في
محاولة من محاولاته ازداد كرها لهذا الرجل الذي كان السبب الوحيد
المباشر لهذه النكبة .

لقد عصر اليأس قلبه بيد من حديد فلم يترك للخلاص سوى فكرة
الانتحار ، ولكن اترك حياته تذهب هباء وتزيد اعداءه شماتة وهزوا ؟ لو
انتحر لاجتمع اعداؤه على قبره ضاحكين ، ولا يتسم عدوه الكبير ذو المركز
الخطير ، ثم قال « فلتذهب روحه الى سقر » . ان هذا لا يحتمل ولا يطاق .

يجب أن يفعل شيئاً وما دام غير خائف من الموت فلماذا لا يميت كل أعدائه
أيضاً لماذا لا يقتلهم ثم يموت انه ليتمنى على الله أن يجمعهم كلهم معه في
غرفة واحدة ثم يخسف بهم الارض جميعاً •

ويح هذه الحياة المتعبة ما أقبحها في نظره بعد ان انقلبت عليه هذا
الانقلاب المريع الا ما انقلها على عاتقه بعد ان امتلات بالاعداء الشامتين لقد
صفع بدون انذار كما يصفع النائم بكف جبار فاستيقظ مسلوب اللب
مهدم الكيان •

وكر راجعاً الى المدينة ، واستعان بسيارة عمومية على قطع المسافة
بينه وبين تلك الدائرة التي كانت فيما مضى حصناً منيعاً لعزه ومجده ولما
وصلها وقف امام بابها متردداً وقد غص بريقه حتى كاد يختنق ، واغرورت
عيناه بالدموع ، وكاد ان ينكص على عقبيه ، لولا ان لمح غريمه الذي حل محله
متوجهاً الى الدائرة ، فأراد الهرب من نظراته الشامتة ، ولكن الاخير اسرع
اليه ضاحكاً ، وسلم عليه هائلاً وقال له ساخراً « كيف حال المذيل العزيز ؟ »
ومتى يقدر لذلك ان يقطع ؟ •

فأجابه عابساً وقد غلت الدماء في عروقه :

« عندما تقطع اعناق واضعيه » •

واسرع فدخل الدائرة وتقدم من غرفة الوزير غير هباب ولا وجل ،
واخبر الحاجب انه يريد ان يقابل صاحب المعالي في شأن خطير • وتردد
الحاجب قليلاً ، وهو الذي كان لا يعصى له فيما مضى امراً ، فشدّد عليه
الطلب بقوله

« قل له بأني موفد من قبل رئيس الوزراء ، ومعني رسالة خصوصية
لا يمكن تسليمها الا له يداً بيد » •

فأسرع الحاجب بفتح الباب ، وادخله الغرفة • وبعد ان سد الباب

وراءه تقدم من منضدة الوزير الفخمة فرآه مكبا عليها في بعض عمله ، ورآه يرفع رأسه وينظر اليه بدون مبالاة ، فود لو يستطيع ان يحوله الى هباء ، وتقدم نحوه بجراً وقد تقلصت كل عضلة في بدنه ، فسأله الوزير بخشونة « ماذا تريد ؟ » فأجاب بمثل تلك الخشونة :

« اتيت أسألك عن جواب العريضة التي قدمتها لك » .

فأجاب « لقد قرأتها وقررت رفض طلبك ، لانك لا تستحق الرحمة » .

فأبتسم ابتسامة صفراء ورد عليه بقوله « وهل تستحق انت الرحمة » .

فبهت الوزير ونظر اليه ، وقد ترب الخوف الى فؤاده ، فخفف من لهجته وقال : « ماذا تعني ؟ » .

فأجابه « اعني انك سلبتني كل شيء بجرة قلم ، ولو سلبتني حياتي لكان ذلك اهون علي ، وقد فعلتها دون خوف من احد ، لانك انت القانون والعدل وكل شيء ، ولكنني انا الحقير الذي اعد في نظرك لا شيء ، استطيع أن أحرملك كل شيء بطلقة مدس . ستخسر كل شيء يا صاحب المعالي . ساذيلك من الحياة . انظر : »

ونظر الوزير يربع الى فوهة المدس المصوب الى رأسه وقال وهو يحاول ان يخفي الرعب الذي شله عن الحركة بابتسامة « انك تمزح دون شك يا هذا . وعلام اليأس ؟ سترجع الى الوظيفة بعد سقوط هذه الوزارة ، وحتى في اثناء وجودها . لقد قررت اعادتك ، ولكن بعد حين » .

وكان يحاول ان يصل الباب في طلب النجاة ، وقبل ان يتقدم خطوتين اخترقت قلبه رصاصة فسقط كتلة من اللحم لا حركة فيها ولا حياة .

وفتح الحاجب الباب فاخرقت جمجمته رصاصة اخرى اردته على الفور ، وخرج القاتل وهو يشعر بأنه قد استحال الى مارد جبار قوة وعظمة ،

ونشر الموظفون من غرفهم مذعورين ، كحمر فرت من قسورة ، فكان للضجة العظيمة التي احدثوها صدى جميل في اذنه ، وللفزع الذي ساد كل مكان حوله منظرا بهيجا في نظره ، وسرت دماء الحياة في عروقه من جديد ، وانتفخ فيها ، وشعر بأنه قد استعاد كل ما كان لديه من غرور وسلطان . ولمح منافسه يفر مع الفارين ، وهو يتساءل عن الخبر ، فتقدم منه وقد اخفى المسدس وراء ظهره وقال :

« لقد ذيلت رئيسك وسأذيلك انت ايضا » واطلق عليه عيارا آخر ، وحققه عاليا عندما رآه يقفز عدة قفزات ويسقط على الارض مضرجا بدمائه .
ولمح ثلاثة من الشرطة تنهب السلام وبأيديها البنادق والمسدسات ، فوجه مسدسه الى قلبه ، ودوت طلقة اخرى اختلط دويها بتهقته الجنونية .



المجموعة التاسعة

القائمة الشاملة

الأهداء

الى الابطال الميامين الذين يقدمون ارواحهم بكرم وبسخاء للقضاء على
اخطر ما ابتكرته الرجعية من شرور وآثام •
الى المحاربين في مختلف الجبهات ضد قوى الطغيان •

المؤلف

صلى الحرب

وكما كان يتنبأ انبياء العهد القديم ، بوحي من الله ، بالدمار والخراب والاسر والتشريد ، مهدين بهذا التنبؤ رعاياهم المضادين ، كذلك تنبأ علماء الاجتماع من القرن التاسع عشر بالحروب العالمية العامة ، نتيجة دراسة الأوضاع الاقتصادية القلقة ، المرتبطة بنظم سياسية واجتماعية اشد قلقاً منها، فأعلنوا نتيجة دراساتهم للملا ، وبينوا ان التناقض العظيم بين مدينة القرن العشرين الصناعية ، وهجبة وضع العمال (عبيد القرن العشرين) في هذه المدينة الحديثة ، امر لا يستسيغه منطق ، ولا يقبله عرف ، ولا يرضى به وجدان ، فتبأوا بالكوارث والصدام ، وبشروا الضعفاء بيوم الخلاص المحتوم . ففي رأيهم ان المهينين على رقاب العباد لا يعرفون حدودا في الجشع ، ولا بد ان يجرمهم هذا الجشع الى العمى عن مصيرهم المنتظر ، والى سوء التدبير الذى يقرب نهايتهم ، فيلتحم بعضهم ببعض في صراع هائل جهنمي ، يضعفهم وينه عبيدهم الى الانقضاض عليهم للتخلص منهم ، فيرفع العبيد السلاح الذي اعطوه لذبح رفاقهم من العبيد في امم اخرى ، في وجه غاصبي حرياتهم ، ويكرس العمال القيود التي صاغوها هم انفسهم حول ابدانهم كرها فتحمي القوارق بين السيد والمسود ، وينتهي حينذاك التناحر ليحل محله التعاون ، وبهذا التعاون تدخل البشرية في صبح يوم على حياة البشرية جديد .

لقد انقضت حرب عالمية وتبعتها حرب عالمية اخرى ، وكل من هاتين الحربين شاهد عدل على صحة تنبؤات العصر الحديث ، فما كادت تنتهي الاولى حتى غدت هذه الكرة مقسما بين دول قلائل كل منها في خدمة افراد قلائل من قوارين المال واصنام الذهب . واضاع هؤلاء الآلهة الصغار رشدهم ، وامتدت اعينهم الى ما في ايدي غيرهم وتحاربوا بالصواعق والزلازل واذا براكين الهول تنفجر ، وتغمر الارض بطوفان من الدماء

وها هي ذي الحرب ادركت ويلاتها الجندي في الجبهة ، والاهلي في المؤخرة ، وها هو ذا العدوان يتجمع حول قطب واحد ، واعداء البشرية يتميزون عن اصدقائها اذ رفع جلد الحمل عن الذئب فبدي بانياه ومخالبه . وها هي الامم في جميع اطراف الارض ترى الشر الذي كان ولا يزال ينغص عليها عيشها جليا رأي العين ، فتشحذ همها الاهوال التي عاتتها للتخلص من هذا الشر ، الذي يسميه البعض ابديا فتصمم على التخلص منه الى الابد .

ان البشر سيخرجون من هذا الحرب مقسمين على ان لا تكون ثمة حرب اخرى ، واذا كانت هذه الحرب الاخرى مما ليس منه بد ، فستكون حربا على من ييشر بالحرب ، وييني مجده على الجماجم والاشلاء .

ان الحرب العالمية الحاضرة شاملة شمول الهواء والماء ، تراها في كل مكان ، وتحس باثارها وتائجها في كل مكان ، وتقاسي لوعتها في كل مكان . والعراق هذه البقعة الصغيرة جدا ، في هذا العالم الواسع ، قد نال سهمه من هذه الكارثة الشاملة ، ولعله سينال نصيبه من نعمة السلام الشاملة التي يؤمل ان تعقب هذه الحرب ايضا .

انك تجد في هذه الاقاصيص ما يوضح لك كيف شملت الحرب هذه البقعة الصغيرة فأثرت فيها ، وخلقت اوضاعا تدل على ان العالم جسم واحد ،

وإن الحمى إذا أصابت هذا الجسم فلا مخلص لجزء منه من تأثيرها ، وعذرا
أصحاب نظرية الأدب لهذه الصور المؤلمة التي فيها حقد على الظلم ، وسخرية
من الهولة البشرية ، فقد أعلنت قصوري ، منذ امد ، عن استخلاص الجمال
من المآسي . فمن شاء أن يحشر هذه المواضيع في غير حقل الفن والأدب ،
فله أن يتفلسف كما يحلو له ، على أن لا يستعين علينا بالقوى الغاشمة
المخرسة ، ولا بالسفاهة ، وحسبه حرية ندعو إليها لنستفيد منها كما يستفيد
هو أيضا . ويكفيه منا اعترافا بأننا لا نستطيع أن نعزف على القيثارة ، ونغني
على ليالينا في مثل هذه الليلة المدلهمة الظلام .



بوق الحرب

كان يوما من الايام النادرة في شتاء بغداد ، يشتد فيه البرد فجأة ، كان ريحا من الزمهرير تجتاح المدينة • ويقعأ السكان بالبرد القارس ، فيتقلصون في ثيابهم ، وتغوص رؤوسهم في ياقات معاطفهم ، وتندس ايديهم في اعماق جيوبهم ، ويسرعون في المشي اسرعا تحسبه رجفة عنيفة مستديرة تنقل اقدامهم بما يشبه القفز غير الاختياري •

كان الوقت مساء ، وكنت اقتز في الزقاق المؤدي الى داري كما يقفز المارة ، من شدة البرد ، وفي منعطف الزقاق ، كدت اطلأ مخلوقا قد انطوى على الارض مرتين ، فاصبح رأسه بين ركبتيه • وكان يرتجف ارتجافا شديدا ، ويخرج ايننا مؤلما ايقاعيا يتفق وتموجات جسمه المرتجف ، وكان اينه ممتزجا بشيء يقوله ، فاذا اصغيت اليه مليا تميزت كلمة (جو • • عا • • ن) يلفظها بانفاس متقطعة • شعرت كان هذا البرد الذي يقضقض عظام السائل ويركض المارة برغمهم ، قد اجمد سجلا من صفحات الحاضر في ذاكرتي فاغلقته ، واطلق سيلا من صحائف سجل آخر من اغوار الذاكرة فاجاء ، وكانت كلمة (جوعان) عنوان السجل المستعاد •

فلنرجع الى الورا ثلاثين سنة او اقل ، الى زقاق يشبه هذا المنعطف في الشكل ، ولكنه في الموصل بدل بغداد ، والى ايام حرب كهذه الحرب ، كانت

تسمى الكبرى ، ولكنها الصغرى اذا ما قيست احوالها باحوال هذه . كانت تلك ايام الطفولة غير السعيدة . وما كنت يومذاك استطيع الخروج مساء ، كما افعل الآن ، وما كان يستطيع ذلك من هم اكبر مني سنا من اخوتي والعديدين . . . ما كان يستطيع الخروج الا ابي ، فكان يلتف بعباءته ، ويقفل باب الدار بالمفتاح زيادة في الاطمئنان علينا ، فنصبح ونحن سجناء الدار في أمن من السراق الكثيرين ، والجوع المتزايدين .

كنا نأوى عندما يأتي المساء الى غرفة من غرف الدار ، ونجلس القرفصاء حول كاونون مملوء بالجمر المتقد النضلي، بيننا وبين زمهرير الشتاء وخطر الجوع والسراق جدران كجدران القلاع ، وباب مصفح يعصمنا من جنون الجوع الجوع الذي لم يبق ولم يذر ، ذلك الجوع الذي انسى فرائسه نجاسة لحوم الكلاب والقطط ، ولم يبق عاطفة تسمثر من الجيف . لقد انساهم انهم بشر فاكلوا لحوم البشر .

كنا نشعر بالطمأنينة حين نسمع صوت المفتاح الضخم یرن في قفل الباب رنيناً ذا جلبة وصدى ، الا جدتي اذ كانت تشيع ابنها بنظرات القلق ، وشفتاها تسرعان بقذف آية الكرسي وراءه قذفا متداركا ، وكأنها تخشي ان تفوت كلمة منها طربوشه ، او تقع عبارة منها دون عباءته ، وما كانت تجهل ان ابنها يحمل مسدسا فاتكا يملأ عبه ، ولكن ما قيمة ذلك المسدس ازاء آية الكرسي في نظرها ؟ !

كنا نكون مع امنا والخادمة طوقا محكما حول الكاونون ، فستأوب الام والخادم في فض مشاحناتنا ، وسرد القصص لتسليتنا . اما جدتي فتكون آنذاك في مخدعها تصلي وتهجد ، تظهر في ظلام الغرفة ساكنة فوق سجاداتها بوجهها الابيض المتغضن ، وشعرها الفضي وفوطتها النظيفة ، كالشبح .

ولا يكاد يمر على خروج ابي نصف ساعة حتى يهتز البيت بصيحة

مرعبة (جوعان) ، فجمد رعبا عند سماعها رغم تكرارها كل يوم ، ونسكت مبهوتين ، فتتمتم الخادم « هذا يونس المسكين » ونسمع صوت تشييع خافت يأتي من صومعة جدتي متمزجا بالتضرع الى الله ان يرفع عن البشر تلك الغمة . ولا يكاد يونس يصرخ صرخته الثالثة حتى نسمع صوت اقدام جدتي البطيئة وهي في طريقها الى النافذة التي تملو باب الدار ، ثم نسمع صوت الردفات تفتح ، فينقطع البوق عن اعلان انذاره المتكرر المرعب .

واعلنت امي مرة سخطها وتذمرها من حماها المعجوز فقالت « لولا انها اعتادت ان ترمي له الطعام من النافذة كلما وضع فمه في ثقب المفتاح وجأر ، لانقطع يونس عن ندائه الذي يكاد يفقد الاطفال صوابهم رعبا » .

استمر يونس يستخدم ثقب الباب صورا ينفج فيه مدة تزيد عن الشهرين ، وقد بدأ نداءه الاول عندما اتصف الخريف وختل الطرق من الجيف المنتنة والكلاب السائبة ، واختفت القطط من منازل الموسرين هربا من انياب الجائعين . وما كان يونس بالشخص المجهول عندنا نحن الصغار ، ولا عند الكبار من اهل الدار ، كانت الخادم تعرف الكثير عنه وعن ذويه ، كان رفيقنا في « الملا » يتنازعنا بطول قامته وشدة بأسه وبأنه وحيد لابويه فهو مدللها ، كنا نسمع ان اباه العامل النشط الذي يكسب كثيرا في نهاره ، لا يعصي له امرا ، فيونس مملوء الجيب دائما بقطع الدراهم يشتري بها ما يروق له من الحلوى ، ويلعب في الازقة متى اراد فنحسده على هذه النعمة « نعمة الدلال » فقد كنا نأكل ما يشتهي لنا الوالدان ، ولعب وقت يسمحان ، وتتصرف كما يريدان ، لقد كنا اطفالا كثيرين متعيين ، وبالنسبة غير مدللين .

واعلن النفير العام ، وسبق الناس الى الحرب زمرا ، وكان ابو يونس من جملة من سبق . واشتدت الحال على الام يوم اقمرت الاسواق من الطعام ، وختل الجيوب من الدراهم ، واصبحت وزنة الحنطة بثلاث ليرات عثمانية صفر ، وسرعان ما قصمت المصيبة والجوع ظهر الام فماتت ، ولم

يجد يونس طريقاً للحياة غير التشرّد والاستجداء ، شأنه شأن الكثيرين ممن كانوا أقوى منه حيلة وأكثر جلدًا وصبراً •

ولست انسى اول مرة فقخ يونس في صورته العجيب معلنا خوفه من الهلاك جوعاً ، وكيف سالت دموع الخادم وقالت بلهجة مؤثرة تشبه لهجتها في سرد القصص « هذا يونس ابن الدلال ، ياليت عين الاب ترى ما قد فعل القدر بالام والولد » • وكيف سادنا صمت رهيب كدوره صوت نشيج جدتي الورعة ، وصوت خطاها وهي تقصد الشباك ويدها خرقة قد لقت بها شيئاً ، ولما سألتها امي « ماذا تنوين ان تفعلي » اجابت منتحبة « اريد ان اعطي يونس فضلة طعامي » فسألتها « وكيف السبيل والباب موصد » فأجابت « ارميه له من النافذة ملفوفا بهذه الخرقة » •

ولما تكررت هذه العملية بعد ذلك ارتفع صوت امي بالشكوى والتذمر فقالت لها مرة « اخشى ان تجمعي علينا الشحاذين بعملك هذا وتعرضي الاطفال والدار للخطر » •

فأجابت جدتي « ان يونس حريص على سره ، فلو علم الشحاذون باللقمة التي ينالها كل يوم لشقوا فمه واخذوها منه عنوة • اي بنيتي لا تتضايقي مما افعل • انها صدفة تبعد الشر عن زوجك ، وعن اطفالك الصغار لقد كان ليونس اب يدله ، وام تحنو عليه ، وها هو ذا تمزق شكواه الالكاد » •

واقبل الشتاء بعد الخريف ، وناهيك بشتاء الموصل وببرده القارص وصار الشحاذون يموتون بالعشرات ثم بالمئات • وكان يونس يحتمي بقنطرة قريبة منا لا يتركها ليلاً ولا نهاراً • وكم رأيناها يرتجف من البرد فيقول بعض الاشقياء الصغار وهم يتضحكون « يونس يرقص من شدة البرد » •

وفي يوم لا يختلف عن اليوم الذي افتحنا به هذه القصة الا بشدة زمهريره الذي يهرأ الابدان ، وبالجمد الذي يغطي الارض ، خرج ابي عن

عادته في ذلك اليوم ، فبقي معنا يعد الشاي ، وخرجت جدتي عن عاداتها
ايضا فتركت سجاداتها ، وجلست معنا تملأ عينيها بالنظر الى ابنها ، وكانت
الخدام كعادتها تروي لنا القصص . وحان موعد صيحة يونس فتأهبنا
لسماعها ، وتململت جدتي في مجلسها ، ومضى الوقت فلم نسمع تلك الصرخة
الداوية . ولما تساءلنا عنها قال صغيرنا « لعله خاف من ابي اليوم فلم ينفخ
في ثقب المفتاح » فتبادلت امي والخدام والجدة النظر ، ووجموا حزنا
وسرعان ما اشغلنا الشاي عن التفكير يونس ومصيره .

وفي غداة ذلك اليوم وقفنا كعادتنا على وصيد الباب تتلهى بالتفرج على
الجمد ، ورأينا عربة الزبل ، التي اصبحت عربة الموتى ايضا تمر امامنا واخذنا
تسابق باحصاء عدد ما فيها من جثث الشحاذين ، وسمعنا صوت السائق
يهيب بمساعده «هو ذا يونس قد جمد من البرد اليوم . لقد اتى دوره
اخيراً » ورأيناها يحملانه من يديه ورجليه فلا ينطوي جسده ، ويرميانه
فوق رفاقه وكأنه جذع شجرة قوية مجتثة ، واسرعنا الى الدار ونحن ننعي
يونس لكل من فيه « لقد مات يونس . مات يونس » .

ألا ما اشبه الليلة بالبارحة . هو ذا هذا الشحاذ يرتجف كما كان
يرتجف يونس فيعيد الى فكري هذه الذكريات المؤلمة ، وما اكثر التشابه
بينهما في الزمان والظرف والمكان ، بل وربما في الحال والمال ايضا .

العبُّ العظيم

وقف على شاطئ النهر يواجه قرص الشمس وقد بدا أكبر حجماً وأقل تألقاً ، وهو يغوص شيئاً فشيئاً في الأفق عند حنية النهر ، كأنه يغطس في تلك المياه الهادئة لينسجم فيها ويتردد ، ويتخلص من غناء يوم قائف قطع خلاله القبه الزرقاء من الشرق الى الغرب . المنظر فاتن خلاب يستهوي على رأي بعضهم ، ذوي الاذواق الممتازة والمواهب الفنية ، ولا يستهوي الصعاليك الكادحين . اذن فما لهذا العامل « رجب » قد وقف مولياً وجهه شطر المغرب ينظر الى قرص الشمس باعين مفتوحة ، وقد انبسطت اساريره وتراخت عضلات وجهه التي كانت متقلصة من اعياء اليوم وجهده ؟

وهبت نسائم رقيقة رطبة من ناحية النهر ، فمسحت جبينه الملهب وتخللت شعر رأسه فارتسمت على وجهه ابتسامة ارتياح لهذه المداعبة التي ذكرته بتدليل امه الحنون ، يوم كانت في قيد الحياة .

انه لا يتذكر اين قرأ عبارة لقصصي او لشاعر على الارجح ، يتكلم عن مداعبة الطبيعة لابنائها وتدليلهم ، حين تقبل اطراف اجسامهم او وجناتهم بمثل هذا النسيم الرقيق . لقد اعجبه هذا التشبيه ، فالطبيعة حقاً ام سخية تقدم لابنائها كنوزها المطمورة وتسخر لهم قواها العظيمة غير المتناهية ، تلك الكنوز وتلك القوى التي تغني اضعاف سكان هذا الكوكب وتسعدهم .

ومر بفكره كل ما قرأه - اذ كان عاملاً يقرأ ويكتب - عن ثروة الارض الطبيعية من معادن ووقود وتربة خصبة وقوى طبيعية ، من رياح ومياه ، وعضلاته وعضلات الملايين من امثاله ، ومن عقله وعقول الملايين من ابناء البشر . وجمدت الابتسامة على شفتيه اذ طرق سمعه ازيز طائفة ، وانتقل فكره الى سوح واسعة في بلاد عامرة ، قد انقلبت جحيماً مريعاً ، ورأى بعين مخيلته الوف الطائرات تنثر قنابل جهنمية في كل مكان فلا تبقى ولا تذر ، جهنم تهوى من السماء وجهنم تصعد من الارض ، فتختلط في شبه سيل من نار تتلاشى حياة الفرد من بني البشر بين امواجه كما يتلاشى عود من هشيم يابس في اتون متقد .

وشعر بشيء من الاعياء وبما يشبه الدوار ، فاقعد ارضا رملية نظيفة ، وتذكر اصوات آلات العمل الذي يعمل فيه طول يومه ، تذكر فحيح البخار واصطفاق الانفطة وائين المحاور وهدير العجلات . انها اصوات حبيبة عليه مألوفة عنده لولا ما يخالطها من اصوات تضرر وسخط ، تتطاير من افواه رفاقه في العمل . اصوات متبرمة بالحياة ، حاقدة على كل شيء ، تتمنى الخراب كما يتمنى اليأس الذي انهكته تصاريق القدر ، الموت السريع .

في ظهر ذلك اليوم ، والعمل قائم على قدم وساق ، سمع جاره « حامد » يعلن ويصخب ، فقد حرم من اجرة ثلاثة ايام بسبب مرض الم به ، وكان يسمح العرق المتصب من جبينه ويتم بصوت خافت كان يلوح بين اصوات تلك الآلات الجبارة كوسوسة محور عجلة صديء على وشك ان ينقصف فيحدث نكبة .

« ومن يستطيع ان يحتفظ بقواه وصحته في مثل هذا الجو الملهب والعمل المتواصل ، ومع ذلك ، فاذا اعترضت فائت مشاغب ، تطرد لتموت جوعاً ، واذا تمرضت فالعقاب اسوأ ، اين هذا العدل الذي يترنمون به ، وهل في استطاعة الانسان ان يتصور تعاسة اعظم من هذه . ايتها الحرب احرقني

الاخضر واليابس ، وانت يا اله الشر هتلى هلا اقتصرت ؟ اني لوائق كل الثقة بانك مهما ابتكرت من اساليب الشر فليس في استطاعتك ان تأتي بمثل هذه الافانين من العذاب » .

وقد أجابه رجب ساخراً

« وما رأيك ببقر البطون بعد قطع الايدي وسمل العيون ؟ »

فاجاب حامل بمثل سخريته « الموت السريع بعد عذاب يوم واحد خير الف مرة من موت بطيء تقاسي سكراته عشرات السنين . »

فما كان من رجب الا ان يجيبه مواسيا « انت تهذي ولا عتب عليك، قد انهكك المرض واضنى قواك المحطمة التعب ، واثار اعصابك ، فعدت لا تعرف طرق الشكوى ، وحتى لو كنت انسانا من حديد لتحطمت ، ولكن مهلا يا صديقي ولا تكن مدحورا . انت ان شكوت فتبين ما تشكو منه ، وان اهنت فأعرف من اهالك ، وان ظلمت فانح باللائمة على من ظلمك ، وما الفائدة ان تصورت ان العمل هو سبب شقائك ، وان هذه الآلة التي تعمل بها هي التي اضطهدتك مع انها مصدر حياتك . اني لا تصورك حين تنطق بهذا اللغو كمن قد صوابه واختلت اعصابه فجن وهاجم هذه العجلة الكبيرة فتحطم بين اذرعها وهو يتصور انه يثأر لنفسه » .

واكتفى حامد بأن قال « يا لك من انسان بطر ! » وانتهى بينهما الحديث

في تلك الظهيرة عند هذا الحد .

وفي الامسية التي نحن بصددھا اقبل حامد يحمل آلامه وهمومه ، فتلقاھ رجب مرحبا وجب له ان يضطجع بجانبه فوق ذلك البساط النظيف من الرمل ، فاقعد حامد الارض ماذا رجليه ، والتفت بوجهه المتجهم الى رجب يقول « كم تدهشني قوة اعصابك وشدة مراسك . لا اخالك اقوى منا فما هذا الذي يدو عليك دوننا من رصانة وجلد ، ومالك متفائلا كل حياتك رغم ما يحيط بك من ظروف قاسية ؟ فلا زال كلامك الذي لم افهم

جله يتردد في اذني ، فهل لك ان توضح لي بعض غوامضه ؟ اعده علي الآن ،
فلعلي استطيع ان احاورك في هذا المساء فافتحك او تقنعني بقي تسمي ميل
الى ان اكون لي فكرة ثابتة ، واتبع فلسفة خاصة احل بها مشاكل حياتي ،
واهديء بها اعصابي اذا ما هاجت وثارت » •

فأعتدل رجب مهتما وقال لصاحبه « جميل منك هذا يا صاح ، فهيا
اعرني سمعك • ان عندي فلسفة احب ان القيها اليك ، فلعلك تجد فيها
مبتغاك • ان العالم وما فيه يا صاحبي مجموعة قوى وكنوز ، وما الانسان الا
جزء من هذه القوى ولكنه قوة واعية تتعاون عنده القوة الفكرية مع القوة
العضلية على خلق ظروف توجد جوا مريحا ملائما ، وذلك في سبيل حياة اهنا
واسعد فهو ابدا في تقدم مستمر ، والمجتمع الانساني لا بد ان يرتقي ويتقدم
ما دام له هذا العقل الواعي وهذه الرغبة الغريزية في التقدم •

لقد قطعت البشرية اشواطا في هذا المضمار ، وكلما تقدمت خطوة
وجدت فيها مالا يستحب وما يقيها في سيرها فيؤدي بها ذلك الى قطع
خطوة اخرى ، حتى كان هذا العصر الآلي المدهش الذي نعيش فيه • هذا
العصر الذي تباهى بعظمته المفكرون ، واشاد به الكتاب ، حتى ظن بعضهم
بانه غاية الغايات ، ولكن ها هي الحروب الطاحنة ، تقوض بعض معالمه ، وها
انت في المعمل تئن وتشكو رغم انك اهم مظهر من مظاهر هذا التقدم • فانت
العنصر الضروري لسير الآلة التي بنيت عليها كل حضارة هذا العصر • اذن
فالحرب وشكواك قضيتان تمثلان حجرى عثرة في سبيل تكامل هذه
الحضارة ، اذن فعلى المجتمع البشري ان يزيل هذين الحجرين وهو في طريقه
الى ذلك » •

او تعلم يا صاحبي من اوجد الحرب ؟ ولماذا يشنها قوم على آخرين •
انهم يفعلون ذلك في سبيل الفتح كما لا يخفي عليك ، ومن وراء الفتح
يجدون اسواقا لمنتجاتهم الصناعية ، وارباح هذه المنتجات تذهب راسا الى

جيوب امثال من تشكو انت من سوء معاملته ، وانت تعلم ايضا ان الحرب التي بدأت بالشكل الذي شرحته قد تحولت الى تصفية جميلة فقد تجمهر غلاة المحتكرين الرجمين في معسكر وتجمهر المعتدلون وطلبة التقديمين في معسكر آخر ، فالعرب لك وفي سبيلك انت وامثالك ، والوف الملايين من بني البشر . ولما كانت حربا آلية فهي تقوم على اكتافك واكتاف امثالك ، فانت ان شكوت من اضطهاد فاعلم انك تشكو من ذبول بقايا النظام الذي شنت الحرب لتأييده ، وان تعبت فانما تعبت في سبيل قضيتك خاصة ، وقضية جميع الشعوب عامة ، فعليك يا صاحبي ان تتحمل قليلا بشرط ان لا يقعدك هذا التحمل عن تحصيل حقوقك مما يؤدي الى قلة نشاطك في الانتاج ، وان تمردت فأعرف كيف تتمرد وكيف تطالب بحقوقك حذرا من ان يرتد سعيك الى تحرك ففسير ضد مصلحتك ومصلحة طبقتك وكم ألمي يا صاح ان تتمنى انتصار هتلر تصورك كالطفل الذي آلمه جرح فاتزع الضماد واهاج الجرح وادماه » وسكت رجب والتفت الى حامد فوجده ساهما ينظر الى البدر وقد نثر شعاعه القضي فوق مياه النهر الهادئة ، وما لبث ان رأى شفته تتحركان وسمعه يتبسم .

« يا الهي كم نخطيء عندما يخوننا التفكير . اذن فالعبء كله على عاتقنا والمستقبل كله لنا ؟ » .

فاجاب رجب ضاحكا « اجل يا بني انه عبء عظيم ولكنه يليق بالابطال الميامين » .

الفرصة

كان يتكلم عن الفرصة الى عدد من الاصدقاء والاحباب قد اجتمعوا
للانس والسر ، وعلى سيماء كل فرد منهم دلائل النعمة وراحة البال ، وليس
ذلك بالغريب على من يملك من حطام الدنيا مايستعين به على توفير اسباب الراحة
والانس والطرب ، ولكن الغريب ان يستطع الانسان ان يهيئ كل ذلك في
ظل هذه الحرب الرهيبة .

كان يتكلم بلهجة فيها الكثير من الاعتداد بالنفس مزوجا بكثير من
النكت وكان يدير عينيه الجاحظتين في اوجه اصدقائه ويضحك ، فيقهقون
معه بصورة اوتوماتيكية ، فاذا ما ضحك اهتز كرشه وارتجف لحم صدره ،
وكان ذلك الاهتزاز والارتجاج غير متسقين ، فكان كل جزء من تلك
الاجزاء المتورمة من جسمه مطلق القياد يتحرك حسب هواه ، مستقلا في
حركاته .

وكان الى جانب كؤوس الوسكي المترعة ، التي كانت تفرغ بجرعة او
جرعتين ، وتمتليء على الفور بصورة دورية عدد كبير من زجاجات ذلك
الشراب ، ملصقة عليها اوراق حمراء منقوشة بالخط المذهب .

وكان رب المنزل المحدث يدير عينيه مزهوا ويستعرض في كل فترة
تلك الزجاجات المصطفة ، وكأنها فصيل من الجنود يحيه ويشيد بعظمته .

« ايها الاخوان انكم انما تشربون نخب فجاح منقطع النظر ، حزنه في سوق المال . وقد لا يخطر ببالكم ، وبعضكم تاجر ذو ماض مجيد ، الطريقة المبكرة التي اتبعتموها ، والفرصة الفريدة التي اتمهزتها ، لاحتراز هذا الانتصار المين برأس مال قليل ، وفي سوق قد امتلأت بجبايرة الدراهم وعظماء التجار الذين لا تخفي عليهم خافية ، ولا تفوتهم فرصة مؤاتية . كانت كل ثروتني دون الالف من الدنانير ، اجل دون الالف . وقائمة البضاعة التي خضعت لقانون الاحتكار والربح الفاحش طويلة جدا ، تبدىء باهم هذه الانواع واكثرها قيمة وهو الخبز ، وتنتهي بأنهمها واقلها شأنًا كالابرة والدبوس وما خفي على ان تجارة الخبز محفوفة بالمخاطر والمهلك ، ولا يسمع التاجر الا ان يقف فيها عند حد ، لان الجوع قد يضطر الناس الى الهياج ، ويضطر السلطة بنتيجة ذلك الى ان تدوس فوق مصالح الاصدقاء والاقرباء في سبيل اتقاء الخطر المدهام ، فتكون النتيجة افلاسا لا يشرف التاجر ، وليس هذا الوقت المملوء بالفرص وقت افلاس ، وحرى بالتاجر ان يفقد شرفه اذا ما افلس في هذا الوقت ، هذا بقطع النظر عن قلة الربح وكثرة المنافسين ، وقس على ذلك بقية البضائع الضرورية .

وكان عليّ ان ابحث عن فرصتي ، فاستيقظت مهارتي من سباتها ، وانطلقت اتسعم الاخبار ، واحيط علما بكل صغيرة وكبيرة في السوق ، وفجأة عثرت على فرصتي بصدف غريبة ، تشبه تلك الفرص التي تخدم اصحاب الاختراعات والعلماء وحكاية ذلك انني كنت اتسنى مرة في شارع البنك فوجدت فلاحا حافيا رث الثياب يسألني عن محل بيع (حجر المقدحة) وكان هذا الحجر بمثابة حجر الفلاسفة بالنسبة الي فصرفته عني . ومضيت ابحث افان هذا الحجر . وما اسرع ما توصلت الى ان كل ماهو موجود منها محصور في قبضة عددا من التجاره لا يتجاوزون اصابع اليد عدا . وقدرت مبلغ الحاجة لهذا الحجر من بحث الفلاح عنه . اذن ان شيئا يحتاج اليه حتى هذا

الفلاح لا بد ان يكون بضاعة مرغوبة رائجة • بل هو امر ضروري حيوي •
وكانت اسعار عود الكبريت قد ارتفعت عاليا • وحدث ارتفاعها ضجة
اعارتها السياسة اتباعها مناسبا • ولكنني كنت واثقا بان احدا لا يخطر بباله
قط ان يعير هذا الحجر التفاهة اهتماما •

واستطعت بمحاولات بسيطة ان اقنع باعة هذا الحجر المحدودين
بتفاهة قيمته وعدم فائدته • وان المال في مثل هذه الظروف ائمن من بضاعة
كهنده ، وانني احتاج الى هذا الحجر لتوزيعه على الباعة المتجولين في الارياض •
فتخلوا لي عنه بريح زهيد ، اي بقيمة لا تختلف كثيرا عن قيمته قبل الحرب •
وبعد ان استحوذت على هذا الكنز الثمين انطلقت ابحث عن القداحات
البسيطة ذوات الفتيل ، والانيقة ذات الاشكال الجميلة التي تعمل بالبنزين •
وبقيت اراقب ثمن عب الثقاب وهو يرتفع ويرتفع ، فترفع دقات قلبي
سرورا ، حتى اذا ما بلغت الحد المناسب نزلت الى السوق فبعت الحجر بما
يعادل مائة ضعف من ثمنه ، لأن المستهلك وجد البضاعة الجديدة اقل نفقة
من غيرها ، والمشتري كما لا يخفي على فطنتكم التجارية لا يهتم بالاسعار
السابقة لبضاعة ما عندما يجد تلك البضاعة قليلة الكلفة تغنيه عن اخرى
غالية • وهكذا اصبح الواحد عندي مائة والمائة عشرة آلاف والالف مائة
الف » •

وارتج جسمه بضحكة انتصار ، واهتز كرشه وارتجف ثدياه ، وضحك
ثلاثة من الحاضرين معه • ولكن الرابع ابتسم ابتسامة صفراء وهمس في اذن
رفيقه « لو كان صاحبنا متأكدا من وجود حجر واحد في السوق خارج
حوزته لما قص علينا قصته • » فاجاب رفيقه كمن يؤمن بسوء حظه ، ويصبر
نفسه على مكروه « هي الحرب التي تركت مجالا لذوي الحظوظ ، وليس في
الامر ذكاء ولا مقدرة يحق لصاحبنا ان يتباهى بهما »

والنفث احد الضاحكين ، وكان اسرع الجميع في ارتشاف الكؤوس ،

كأن به ظمأ مزمناً الى هذا النوع من الشراب العزيز المنال ، فقال « أولاً ترون ايها الاصدقاء ان الحرب قد فتحت المجال ، رغم ما فيها من شرور يزعمها البعض ، لظهور مواهب صديقنا الكريم ، العلمية والتجارية • اني لا شبهه حين رأى الفلاح يسأل عن حجر المقدحة بنيوتن حين رأى تفاحة تسقط • ونحن معشر الكتاب لا تقوتنا مثل هذه المقارنات التي توحى لنا الطُفَ المواضيع وافيدها • وفي رأسي تصميم لمقال ظريف في هذا الباب » ثم التفت وهمس في اذن جاره « لا تتغزل بالكأس يا صديقي الشاعر المفلس بل اشربها واسرع ما استطعت ، فقد تكون هذه المرة هي الاخيرة التي ترى فيها بعينيك مثل هذا المشروب حتى نهاية هذه الحرب - او حتى نهاية عمرك » •

فاسرع الشاعر الى كأسه ، وكأنه قد اتبه من حلم ، واجترعها دفعة واحدة وهو يترنم بهذا البيت •

وانتهز الفرصة ان الفرصة نصير ان لم تنتهزها غصة



تاريخ وجاهة

مال وبنون ، جاه عريض ونعيم مقيم ، متع ومسرات ، رخاء وهناء ذلك هو كل حظ السيد المطاع والعظيم المهاب ، صاحب المقاطعات الشاسعة والقصور العامرة . والمراكز النافذة ، صاحب الصولة والرفعة كنعان بيك .

خلق جاه كنعان بيك يوم خلقت الحكومة العراقية الحاضرة ، وبين خلقها وجاهه صلة وثيقة ، فقد قامت على اكتافه واكتاف بضعة ائقار من امثاله ، فخلقت يوم خلقوا ، وكانت يوم اصبح هؤلاء ممن يشار اليهم بالبنان .

كان كنعان بيك قبل وجود الحكومة العراقية شيئاً غير مذكور ، ولا يعرف حتى هو كيف اصبح شيئاً عظيماً مرموقاً . ولكنه يدين بينه وبين نفسه للصدف او للاقدار . ويؤمن بأن قابلياته في الحكم وادارة شؤون البلاد اعظم من ان يدركها حتى هو نفسه . والا فلماذا كان هو المختار دون غيره من بين هذه الملايين الكثيرة التي تسكن هذه البقعة ذات الموارد الغنية ، والساكن الفقراء .

لقد بدأ حياته مزارعاً بسيطاً . واثري شيئاً فشيئاً . ثم وثب الى قمة الثروة يوم اتيح له ان يتصل ببعض ذوي النفوذ . فيستفيد منهم ويفيدهم . ثم افتحت له ابواب البرلمان . فافتحت امامه ابواب واسعة للرزق ما كان يحلم بها من قبل . فكان هذا المجلس بساط مسحري ينقله حيث يشاء .

ويعطيه ما يشاء • واصبح بعدها صاحب الكلمة المسموعة وحار عليه ان يكتب ويخطب ، ويفهم السياسة ويدي فيها رأيا • وهو يعلم انه ما كتب ولا خطب في حياته • ولكن حل هذه المشكلة امر هين فان كان حقا لا يكتب فسوف لا يعدم من يكتب عنه في صحيفة او كتاب مدعيا بانه كاتب مبدع ، وخطيب مصقع ، وفيلسوف عظيم • وذلك لقاء بضعة دراهم او دنانير • وقد فعل • أما احاديث السيادة العالمية فما اسهل عليه ان يستمع لما يدور منها في الاندية والمجالس التي يكثر من التردد عليها ، فيلتقط بعض العبارات الشاردة ، والمعاني الواردة ، فيكون له رأيا يلوكه في هذه المجالس كما يفعل رفاقه واصحابه • وقد فعل •

كان العالم يوم ان اتبه كنعان بيك الى واجباته العظيمة : بأعتبره رجلا سياسيا مهما ، في بداية ازمة خطيرة • كان موسوليني يعوي في ايطاليا فلايلث ان يردد عواءه هتلر في المانيا ، فيستدل الجشعون من هذا العواء على ان ثمة عصابة جائعة من الذئاب تريد ان تنهش اللحم وتغضم العظم فيخطر ببالهم ان يوجهوا هذه العصابة العاوية الى اولئك العصاة الذين يأبون ان يؤكلوا او ان يأكلوا غيرهم ، اي اولئك المترفعين عليهم ، ذوي النظام الجديد ، الى الشيوعيين الذين يعتبر مجرد وجودهم مع الطماعين في عالم واحد ، دليلا على انحطاط الطماعين السلايين وخستهم وما كان الطماعون كذلك قبل وجود هؤلاء المترفعين عن الدنيا • فقد كان من يحلم بإمكان وجود امثالهم يعد خياليا او مجنونا •

اجل وجد الحاكمون على خمسة اسداس العالم فرصة ضيعة في اطلاق هذه الذئاب في حظيرة تلك الزمرة في سدسه ، فاذا ما اصبحت هذه الزمرة الجديدة في بطون الذئاب امنوا شرها وشر الذئاب معا الى الابد • وما كانت هذه الزمرة الجشعة المملوءة البطون ، من السذاجة ان تعوي مع الذئاب فتتفر منها الخراف ، ولكنها تركت هذا العواء يتردد ، حتى تألفه الاسماع ،

ثم اثنت تشرحه وتعلق عليه ، بل انها كانت تغذي هذه الذئاب وتقويها ايضا .
 ووصل هذا العواء الى كل اطراف العالم من اقصاه الى ادناه فملاه ، ولم يترك
 مجالا لئلا عداه ، وصار كل من يريد ان يسمع له صوت ، يقلد هذا العواء ،
 وما كان اعجب ان ترى بعض الخراف تقلده ايضا لتسمع بأنوفها على بقية
 ابناء جلدتها ، وهكذا كان على كنعان بيك ان يعوي عواء الذئاب ، ليكون
 ممن يشهد لهم بالذكاء في فهم النظريات السياسية الحديثة ، فعوى بصوت
 مجوح . وصار يمجّد النازية والفاشية . او القومية كما كانت تسمى .
 بوقام بواجباته الجديدة خير قيام .

صار كنعان بيك ينتهز كل فرصة ليحقر من قيم الديمقراطية التي تسمح
 للرعاع بأن يفسدوا تدابير القّة المختارة التي خلقت للحكم ، وصار يندد بكل
 أمة تقبل مثل هذا النظام الذي يبرهن على عدم صلاحيته وكفاءته ، وخطر بباله
 ان اساءداً جديداً سيحكمون كل العالم بدل الاسياد القدماء ، وان الاسياد
 الجدد فيهم من الحزم والبطش ما لا يوجد في القدماء ، فمضى يعد نفسه
 ليكون متطوراً مع الزمن ، وان يلبس لكل حالة لبوسها ، ولم يخطر له على
 بال قط بان هذا العواء الواصل الى مسامعه هو عواء ذئاب ، يمكن ان
 تصيدها بنادق انسان عاقل كما يصاد كل وحش مفترس ، ومضى في عوائه
 مع العاوين ، حتى انطلقت الذئاب ، واذا بها تنهش مروضيها ومربيها قبل ان
 تنهش من اعدت لنهشه ، فرجع المربون الى وعيمهم ونادوا بالويل من هذه
 الوحوش الشاردة السائبة ، وتنبه العالم الى ان الخطر اقوى من ان تنفرد زمرة
 في القضاء عليه فتألب العالم كله على هذه الذئاب . يحاول التخلص منها .

ولكن كنعان بيك لم يطل عواءه . واصر على ان هذه الحيوانات العاوية
 هي البشر الحقيقي . وما سواها حيوانات ضعيفة غير قابلة للحياة . وكانت
 اوائل الحرب تقوي في نفسه هذا الاعتقاد . كان البيك يجاهر بآرائه
 السياسية في كل مكان حتى عرف عنه جميع الناس هذه النزعة المتطرفة في

مناصرة (النظام الجديد) في العالم ، نظام الذئاب العاوية • ولكنه وجد بعد حين ان امثاله من المناصرين صاروا يساقون الى المعتقلات • وان بعضهم صار يخسر ما كسبه في الماضي من سمعة ومركز وتقوؤ بل وثروة ومال. ايضا ، فقرر ان يلجم لسانه الى حين ، وصمت فترة من الزمن ليتقي شر الاعداء الضعفاء القريين ، مادام الاصحاب الاقوياء بعيدين • وبصته هذا حافظ على ما كان موجوداً في يده ، وان هي الا بضعة اشهر حتى صار كنعان. بيك يحمد الله على هذا السكوت • وذلك يوم وجد ان الذئاب صارت تحصد في كل مكان ، فيتخلص تقوؤها ، ويقل عددها • واذا بعوائها ينقلب عويل. ذئاب جريئة منفر • فأدرك آنذاك ان عليه ان ينفذ يده من مناصرة النظام المحتضر ، وقرر ان يرهف اذنيه من جديد ليسمع النغمات الحديثة التي يجب ان يتقنها ليقوم بواجباته الجديدة •

مضى كنعان بيك يتسقط الاخبار الحديثة ، ويفتح اذنيه الى احاديث السياسة الرائجة • وتعمد ان يطرق كل محل تروج فيه رائجة الحديد المنتصر ويبحث عن اصحاب (المودة الجديدة) في السياسة ، يطرق مجالسهم ، ويصني الى احاديثهم ، ويحاول ان يقلدهم في المنطق والجدل ، وكان كلما ازداد اطلاعا على ما يبحث عنه ، ازداد قلقا • لقد وجد ان منطق هذا النظام الجديد المنتصر ، المسمى (ديمقراطيا) يشترط في النائب مثلا ان ينتخبه الناس ، لا ان يعينه رئيس الوزراء ، وهذا امر لو تعرض له فيخسر كرسيه في المجلس السحري دون شك ، فهو لا يعرف احدا من الناس ، ولا يعرفه الا الذين اساء اليهم في معاملاته اليومية ، في حقوله ومزارعه • ويشترط ايضا ان تكون الوزارة مؤيدة من قبل هذا المجلس المنتخب • والويل له من وزارة ليس له فيها صديق او حبيب • والادهى من كل ذلك انه هو وامثاله يجب ان يكونوا مع غيرهم من الرعاع امام القانون سواء • فيكون من حق فلاحه ان يقاضيه ، وقد يأخذ حكما ضده • ويكون من حق الحكومة ان تستوفي منه

الضرائب كاملة ، دون الغاء او شطب . وهكذا دواليك . ووجد البيك المرتعب ان كل بند من بنود هذه الديمقراطية معول هدام ينزل على ام رأس امتيازاته فيضعض اسسها . الا لحي الله وقنا كانت تسمى فيه كل هذه الآراء بالآراء الهدامة ، ويساق المبشرون بها الى السجن وبئس المصير ، بتهمة الشيوعية والاباحية . ترى اجنت الحكومة حتى تسمح للكتاب والطامحين الى السلطة الجدد بترديد مثل هذه النغمات التي تهدد كيانها في الصميم ؟ ولكن ما الحيلة . وهذه الحرب تفرض ان تبث الدعاية للديمقراطية ، وحتى للشيوعية والعياذ بالله ؟ تنبه كنعان ييك الى هذا الخطر الماحق ، وصار ينبه رفاقه الكثيرين الى هذا الوباء المقبل ، فكان يجد ان غيره قد اتبته اليه قبله ووجد بعض رفاقه عديم المبالاة بهذه النوبة (الشاذة) التي اصابته البلاد ، ويؤكد له ان النظام الحكومي الذي لم يتغير خلال هذه الحرب ، سوف لا يقدر له ان يتغير بعدها ، ولا عبرة بالاسماء والنموت التي تطلق على هذا النظام . فاذا ما اعترض على تكاثر الشبان (المفسدين) المطالبين بتغيير الوضع اجيب بأن هؤلاء قد اطلقوا عن عمد ، وستكم افواههم بعد ان تزول الحاجة اليهم . ولكن الييك لا يكف عن القلق ، ولا تعجبه هذه الصفة في بعض رفاقه ، صفة عدم المبالاة التي تبدو على ملامحهم . لقد عزم كنعان ييك على ان يعمل بنشاط مضاعف لاتقاء هذه الكارثة التي سببتها الكارثة العالمية ، فمضى عقله الضعيف يخلق النظريات ويتكر الطرق للخروج من هذا المأزق الحرج ، وقرر ان يسعى مع غيره لاصدار صحف تدافع عن وجهة نظرهم ، فكان له ما أراد بطرفة عين ، ومضى يقنع الكتاب الذين يكتبون له ، بالتبشير بنظرية جديدة مؤداها ان الديمقراطية لا يمكن ان تكون شكلا واحدا في كل مكان ، وان العراق قطر جاهل واهله عديمو الوعي السياسي والاجتماعي ، وان تسليم زمام الامور الى الرعاع يؤدي الى الدمار والخراب ، وما دامت الديمقراطية تتطلب تغييرا في نظام الحكم فهم مستعدون للقيام بهذا التغيير ،

على شرط ان يقل باب المنافسة في اوجه اعدائهم ، واذا كان ولا بد من اعطاء ضمان لكلامهم فان هذا الضمان سيكون يمينا مغلظة يطفونها في مجلسهم المقدس للبر بوعدهم للقيام بالاصلاحات المنشودة ، على ان يكون أولو الامر القداماء كلهم يدا واحدة في تنفيذ هذا الوعد :

واصبح عدنان بيك منذ تلك الساعة البطل الذي سينقذ كل افراد طبقته من مصير محتوم ، ولاقت آراءه هذه رواجاً عظيماً في الاندية السياسية ، وكان لها شأن على صفحات بعض الجرائد الجديدة (الديمقراطية) واقترحها احد النواب في المجلس ، وحدث لفظ حولها ، وهبت الجرائد التي لا ترتاح لدعوة كنعان بيك وامثاله تفند ما جاء فيها بحجج قوية مضى يقابلها كنعان بيك بالسخرية وهو يقول « كل كلامكم معقول ، ولكن ارجلكم ليست في الركاب كأرجلنا ، وما دمنا نحن الفرسان فسوجه الخيل حيث نريد » .



ابن البناء ينشد العلم

خالد ولد نجيب وتلميذ مجتهد ، بارز بين اقرانه في المدرسة ، مؤدبه خلوق ، كل ذلك رغم انه فقير الحال من اسرة واطئة من اسر العمال . وعلى الرغم من فقره فان نظافة بزمته وحسن سلوكه ودمائة اخلاقه كثيرا ما توههم الاساتذة بأن خالدا هذا ابن رجل اقل ما يقال عنه انه فاضل ، وقد يكون من اسرة عريقة قد نزل بها الزمان .

لقد ارسله ابوه الى المدرسة ليتعلم ، فيكون ضابطا او طبيا او معلما ، او يمتن اية مهنة اخرى غير مهنة ابيه الشاقة المتعبة . لقد كان ابوه يشفق عليه ان يشقى في الحياة كما شقى هو بها . انه يريد ان يسعد ابنه ويسعد نفسه من ورائه

لقد رأى الكثيرين من رفاقه وزملائه في المهنة يدخلون اولادهم المدارس ، وان هي الا بضع سنين حتى يصبحون افندية موظفين ، فتبديل احوال اسرهم وترتفع منزلتهم فيصبحون وكأنهم ليسوا من طينة البنائين .

وقد استطاع ان يقتصد من طعامه ولباسه ليوفر لابنه ما يسد به مصاريف المدرسة والتعليم . وكان كلما شعر بالضيق من تلك التكاليف فكر بالمستقبل الباسم فهانت في نظره التضحيات . ومن حسن حظه ان ابنه اقبل على الدراسة اقبالا منقطع النظير ، يندر جدا ان تجد مثله في مثل اقرانه

الذين هم من ابناء طبقته • لقد عشق هذا الطفل الكتاب والعلم والقرطاس ،
واصبح مضرب المثل بين رفاقه واساتذته ، فارتفع رأس ابيه زهواً وفخراً •
وحدث ان كان ابوه يوماً يعمل في انشاء دار لمدير المدرسة التي يدرس فيها
ابنه ، وكان المدير يتفقد بعض شؤون البناء ، وبينما هو في دورته على القلعة
اذ باحدهم وكان بناء من الدرجة الثانية (خلفه) يسأله :

« عبي من فضلك هل تؤمل لخادمك خالد مستقبلاً طيباً ؟ » •

فالتفت اليه مستغرباً وسأله واي خالد تعني ؟

فاجابه - : خالد عوده التلميذ في الصف السادس من مدرستك •

فانبسطت اسارير المدير وقال - « اذن فهو ابنك • ولماذا لم تخبرني
بذلك عندما بدأت بالعمل في داري • انه في درسه لا يقل مهارة عنك في
عملك • انه مضرب المثل في الذكاء ، وكم من البيكوات من يتنى ان يكون
لولده من العقل والسلوك والحسن بعض ما عند ابنك •

فاجاب عوده وهو يضع (الطابوقة) بعناية ومهارة فائقة حتى ليكاد ان
يستغني عن الشاقول « لقد بيض وجهي خالداً يا استاذ ، ولم يعودني والحمد
لله ان اتوسط له في شأن من شؤون الدراسة ، ولم يرهب ولا سنة واحدة ،
ولهذا لم اعود ان اتكلم عن علاقتي به امام من يهمهم امره ، مع اني قد
اشتغلت في بناء دور كثير من الاساتذة وكبار رجال وزارة المعارف • »

وتركه المدير وهو يقول « لو كانت الامور تسير في مجراها الطبيعي
« اذن لكان مستقبل ابنك عظيماً جداً » ولم يفهم عوده ما يقصده المدير ، وعندما
عاد الى البيت مساء ذلك اليوم اخبر (حسنه) زوجته بما دار بينه وبين المدير
من حديث حول ابنها ، فزغردت وقالت « يحدثني قلبي بان ابنك سيصير
وزيراً في المستقبل • » فاجابها عاباً

« الطمع فساد الدين يا حسنة ، يكفيننا منه ان يكون طيبيا او استاذنا او محامياً كبيراً . وسأوفر له من الآن ما يساعده على اكمال تحصيله . »

ورأى خالد في مساء ذلك اليوم من ابيه وامه واختيه واخيه الصغير حفاوة ما بعدها حفاوة . وكان من عادة ابيه ان يؤنبه دائماً دونما سب تأنيها يراه من واجبات التربية واصول الرعاية ، ولم ينس ان يؤنبه مساء ذلك اليوم فقال له

- « أراك لا تطلب نقوداً تشتري بها كتاباً ما دمت مولعاً بالدرس كما أرى ؟ وحذار ان تراني (خلفه) لا استطيع ان امدك بالدرهم فاننا والحمدلله استطيع ان اصرف لك من الدراهم ما يصرف الافندي على ابنه . انسي (خلفه) من النوع الممتاز ، وسأكون (اسطى) قريباً انشاء الله » ثم فكر وسأل ابنه « لقد قال لي المدير ان الامور لا تأخذ مجراها الطبيعي فماذا يعني بقوله ؟ » فاجابه خالد

« ربما كان يقصد ما يقوله كل الناس ، وهو ان الفقير لا أمل له في المناصب العالية مهما كان مقتدرأ ، واظننا مشاغبة عامة لا اساس لها من الصحة » .

وكرت الايام وتبعثها الاعوام ، وانهى خالد دراسته في المدارس المتوسطة بنجاح يحسد عليه ، وكان من سوء حظه ان انهى دراسته في هذه السنة العصية سنة اشتداد الحرب . ففي هذه السنة سنة الحرب والهول التي زاد فيها الغلاء وعم الشقاء وهددت البشرية بالقضاء ، حلت بخالد اعظم نكبة . ولا اخال القاريء سيصعب عليه معرفة سبب هذه النكبة ونوعها وأى نكبة لعمرى اكبر من تلك التي تحل بفتى يعشق العلم فيمنع عنه ، ويهوى الثقافة فيحال بينها وبينه ، ويروم ان يكون انساناً قريباً من الكمال فيجبر على البقاء في ظلمات الجهل .

لقد ضاقت المدارس وقل عدد المقبولين في الثانوية والعالية منها
ووضعت في سبيل القبول الشروط المانعة ، والحجة هي ان الظروف قاسية
استثنائية ، فليس في استطاعة المدارس ان تقبل الا النخبة الممتازة •

لقد عرف خالد وابوه ما في الجو من غيوم ، ولكن رغبة الولد في اكمال
الدراسة وتشجيع ابيه له هونت امامهما السبل وذالت الصعاب ، فقررا ان
يجاهدا بكل ما لديهما من حول جهاد المستमित في سبيل دخول المدرسة
الثانوية في تلك السنة ، وربما انقرجت الازمة في نهايتها وانتهت هذه الحرب
اللعينة •

وقصد الولد المدرسة الثانوية حين اعلنت وزارة المعارف استعدادها
لقبول التلاميذ •

وما كاد يثقل بين يدي المدير حتى اخبره الاخير دون ان يتناول اوراقه
بقوله

« لا محل لك مع الاسف لقد قبلت المدرسة العدد المقرر • »

وخرج وتلك الكلمة تدوي في رأسه • واتي في المساء فرأى ابنه في
حالة يرثى لها ، وعلم منه ان المدرسة قد قبلت العدد المقرر فسأل ابنه
« ولماذا لا تقبل المدرسة جميع التلاميذ ؟ ولماذا تحدد العدد ؟ »

فأجابه ابنه « لان ميزانية وزارة المعارف لا تساعد على فتح عدد من
المدارس اكبر من هذا » •

فتجههم وجه الاب ، وصاح بابنه

« وهل معنى ذلك ان الوقت الذي قضيته في الدرس ، وكل ما صرف
عليك سيضيع هباء » •

فأجابه الولد « انت تعلم يا ابي ان ذلك لا يهون علي ، ولكن ما عساني

اصنع ؟ ليس هنالك غير وسيلة واحدة هي ان تحصل لي توصية لا دخل المدرسة بصورة خصوصية » •

واطلق الاب المسكين وقد رأى شبح اليأس يتماثل امام عينيه ، فلم يترك داراً اشتغل بتشبيدها دون ان يتركها • ولكنه عاد خائباً ، اذ اخبره الجميع بان المدارس قد امتلأت ، وانهم لا يستطيعون ان يدخلوا حتى اولادهم في المدارس فكيف الحال بابنه •

ولما رجع وكاشف ابنه بهذا اليأس صاحت الام « ان ابني اشتر من رفاقه فلماذا لا يدخل المدرسة بدلا من غيره » •

فأجاب الاب المسكين متحسرا « هذا طالعه لو ولد قبل خمس سنين لما صادف هذه الازمة ولكان ضابطا الان » •

فثار الولد وصاح بابه « وهل هذا ذنبي ؟ لماذا تلقي على عاتق الافقار ؟ ان المدارس لم تخلق في الحقيقة لامثالنا نحن البنائين ، فلو ترك لنا مجال المنافسة مع هؤلاء الذين يسمون انفسهم اشرافا ورؤساء لكننا نحن الاسياد وهم البناؤون ، ومع ذلك فالقوانين تنص على ان جميع العراقيين متساوون بالحقوق فابن هذا التساوي ؟ ولماذا احرم من التحصيل وانا أموت ظلماً اليه ، ويترك المجال لغيري ممن لا يقدر العلم ولا يعرف من المدرسة غير واسطة لقضاء الوقت ؟ » • والتفت الاب الى زوجته وقال اتذكرين يا حسنة يوم كانت الحكومة تشجع الناس على دخول المدارس بالكتب والهدايا واللعب والموسيقى فلماذا فعلوا ذلك ؟ اتراهم قد خدعونا وتركونا نصرف هذه الدراهم عبثاً ؟ لو كان خالد بناء لكان ذلك خير له ، ولا ادري والله ما افعل به الآن ؟ ولكن ربما كان هذا حظنا لقد سمعت احد الافندية البارحة يقول بان الحكومة ستقلل من التعليم لكي لا تشجع الناس على ان يكونوا افندية عاطلين ، وبذلك تجبرهم على ان يبقوا عمالا مفيدين • » فصاح ابنه معترضا « ولكن عمال البلاد الاخرى متعلمون ، ولست اريد ان اكون افنديا •

اني اريد ان اتعلم قبل كل شيء ، ولأكن بناء بعد ذلك اني لا احتقر هذه المهنة » .

ورأت الام تحرق ابنها وشعرت بألمه الشديد فقالت تواسيه « هذا حظك يا بني ، وربما كان لك رفاق في هذه المصيبة » .

شعر خالد في ذلك الحين بأن الدنيا تضيق به فصار يتسكع كل يوم حول المدرسة مع عدد كبير من رفاقه لعل الله يفرجها عليهم ، فيكون لهذه الازمة حل ، وكان عدد رفاقه لا يستهان به ، ووجد ان بعضهم من غير طبقته ، وحتى من ابناء الافندية والبكوات ، ولكن الازمة لم تحل .

وبينا هو ذات يوم في دورته اليايسة على المدارس والدوائر اذ عثر به مدير المدرسة الابتدائية التي تخرج منها فقجاجة بدون مقدمة .

« انك بدون مدرسة يا خالد اليس كذلك ؟ ما اصعب ذلك على تلميذ مجتهد ؟ لو كانت الامور تسير بصورة طبيعية اذن لكان لك شأن » .

وتذكر خالد انه قد سمع العبارة فيما مضى فلم يفهم منها سوى ان المدير يشاغب ، أما الآن ... وبينما هو في هواجه اذ ابصر برفيق مستبشر فأنبأه بأن المدير قد قبل عددا من التلاميذ .. فأسرع يحدوه الامل ودس في يد الفراش آخر درهم في جيبه لكي يسمح له بالدخول قبل غيره .

ورفع المدير عينيه ونظر في وجه الطالب الملحاح وبعد ان نظر في شهادته قال « ستقبلك لان درجاتك ممتازة » .

وقبل ان ينتهي من تلك العبارة دخل الغرفة شخص تدل اناقة لباسه ونظافة بزمته (وكشيدته) ولهجته ، على انه من الوجهاء . وتلقاه المدير بما يليق من حفاوة واکرام ، واسرع يستفهم منه عما يروم فقال الوجه « خادمك سعد كان اكمالا وقد فجع ، والآن لا بد من ادخاله في المدرسة » .

وبدت البغطة على وجه المدير وسأل خالداً بلهجة من قد غير عزمه « انك تدفع الاجرة طبعاً » فاجابه خالد وقد علم بما يجول في فكره « ان درجاتي تخول لي الدخول بدون اجرة ، ولكن اذا كان لابد من الاجرة فسأدفعها » فسأله المدير « وما هي مهنة ابيك ؟ » فاجابه « بناء » فانطلقت اسارير المدير اذ وجد فلسفة يستطيع ان يقذفها في وجه هذا التلميذ الملحاح للتخلص منه .

« لا ادري لماذا لا يتعلم الاولاد مهنة ابيهم ويساعدونهم على العيش بدلاً من دخول المدارس . انت ابن بناء والمدارس كثيرة النفقة الان فلماذا لا تكون بناء يا ولدي كأبيك ؟ ان المدارس لا تغني والمتخرجون يتسكعون بدون عمل ، وارى من الواجب الا اسهل لك اضاءة الوقت . اذهب وكن بناء فالبنا خير من البطالة ، بل هذا هو العمل المهم في المجتمع »

ثم اعاد له اوراقه واكد له خلو المدرسة بعد قدوم الوجيه من محل له . وشعر خالد بالحق والاحقار لهؤلاء الذين كان يحترمهم فيما مضى وقال ساخراً « من درجاتي تعلم ايها الاستاذ اني اصلح ان اكون اكثر من بناء ، ولكن من الحماقة ان يظن الانسان ان ما تتلقته في المدرسة عن الانصاف والمساواة هو امر صحيح . كان يجب ان ارتدع عن طرق ابواب المدرسة من زمن طويل ، ولكنها بقية من حسن الظن بكم دفعتني الى هذا الالاح الذي لا طائل تحته » .

فاحمر وجه المدير وصاح به « سوف اكتب للمعارف لتمنع قبولك في كل المدارس يا قليل الادب » .

ولما خرج قال الوجيه « حقاً ان ابناء العوام أناس سفلة . لماذا تفتحون المدارس لهم ؟ اما سمعت المثل القائل « بالطف من المعيدي اذا تحضر » فقال

المدير هو ذنب الحكومة فباستطاعتها ان تسن قانوناً صريحاً تمنع الفقراء من الدراسة ما دامت المدارس قد ضاقت . ولكنها ضعيفة كما تعلم » .
واجتمع البناء بابنه وزوجته مساء ذلك اليوم ، فعقدوا جلسة عائلية مهمة ، حضرها الصغار ايضا .

وانفجر خالد فحمل على النظام الاجتماعي الجائر حملة شعواء ، فلم ينس عيباً فيه لم يذكره ، وكان يحلل ويعمل بهارة شدهت الام والجمست الاب ، وانهى الفتى كلامه بقوله « ليس العلم كبقية الاشياء يمنع بالاحتكار سأتعلم رغم انف من لا يريد ان يراني متعلما ، فادرس لوحدي وسأهيء نفسي لمقاومة الطغيان في المستقبل » .

فارتجف قلب الام رعباً اذ شعرت بأن ابنها سيخاطر بنفسه ، فنظرت اليه متوسلة ، وقالت « احذر يا بني ان تأتي من الاعمال ما لا تحمد عواقبه .
وخير لك ان لا تتكلم عن السلطة بمثل هذا اللسان » .

فالتفت الاب اليها وقال « ولماذا يخافها . بل ولماذا اخافها أنا . اظنك لا تعلمين حتى الآن بأنني سوف لا اذهب غداً الى الشغل اذ قد توقفت أعمال البناء ، فهل في استطاعة هذه السلطة اسعافنا ؟ »

فصاحت الام مرتاعة « وقد تضاعفت اسعار الحاجيات ؟ »

فنظر الاب والابن كل في وجه الآخر . واخيراً قال الولد بلهجة اصرار وحزم « لا تبتئسي يا أماء فسأزرع انا وابي القوت لك وللصغار اتزاعا ، وليس منع الرغبة هيتا كمنع العلم . والويل لمن يقف في سبيلنا » .

قصة مدينة سائبة

يحدث خلال الحروب كثير من الامور الغريبة التي يحار العقل في تمليها ، ولا مجال لحدوث امثال هذه الامور في وقت السلم . وكثيرا ما يسقط وقت الحرب جزء من الحواجز التي تضعها الحياة المدنية بين الانسان وغرائزه الابتدائية ، وقد تسقط معها حواجز كانت تحول بين جوهر بعض الناس النفيس وبين مظهرهم الاعتيادي الخسيس .

واليك قصة مدينة سابت فترة من الزمن ، وانطلقت على هواها تفعل ما تريد ، وتظهر ما كان كامناً في طيات نفسها وخفيا ضميرها .

ليست هذه المدينة في قلب العالم ولا في مركز مهم من عقله ، بل هي مدينة صغيرة الشأن على هامشه . فلما تسم جسم العالم من جراء ما دخل في جوفه من مواد ملوثة فاتكة ، وفي عقله من افكار سامة قاتلة ، وفي عواطفه من تعاليم في السلوك منحطة قذرة ، يضاف الى ذلك مخدرات اخرى كانت تحول بين الجسم وبين تنبيه للخطر ، وكان من الطبيعي ان يسرع العطب الى هذه المدينة قبل غيرها . وهكذا حدث عندما ارتج كيان العالم فجأة وتزلزل ، وفقد السيطرة المنظمة على بعض اجزائه واطرافه ، اذ تسببت هذه المدينة الصغيرة على هامشه .

نحن في صباح يوم رائق مشرق ، والمدينة صامتا ساكنة سكونا رهيبا

يشبه سكoon العاصفة قبل انفجارها ، ولم يدم هذا السكون طويلا ، فقد انتشرت في جو المدينة رائحة حدوث امر جلل ، واذا بدمدمة في احد اطرافها تشبه دممدة الارض قبل حدوث زلزال . استمرت الدممدة مدة من الزمن ثم تحولت الى صخب هائل ، وفرقة تنذر بحلول فاجعة ، وان هي الا هنيهة حتى امتلات الشوارع الكبيرة في المدينة بسيل من البشر ، يشبه سيل الحمم المقدوفة من جوف بركان ، انحدرت زائرة ملتفة ، نحو قلب المدينة ثم تكاثفت في وسطها تكاثفا ادى الى بطء الجريان .

وثمة شبه آخر بين هذه الحمم البشرية والحمم البركانية ، فكما ان تلك تخرب ما تمر به وتتلفه ، كذلك كانت هذه تحل الخراب والدمار في كل شيء في المدينة ، وهي طريقها . فابواب العمارات والدكاكين كانت تتداعي امام ذلك السيل الجارف ، ثم لا تلبث ان تصبح خالية خاوية . يحدث كل ذلك برمسة عين . وكان افراد ذلك السيل الجارف كالنمل الشغول ، كل فرد فيه يحمل شيئا مما يصادفه في طريقه ، في يده او فوق رأسه او على ظهره ، صغيرا كان ذلك الشيء او كبيرا ، ولا فرق في الافراد بين صعلوك او امير ، وانه ليخيل للرأي ان هذا السيل من البشر قد انطلق عن قصد ، ليقوم بمهمة التخريب ومن بعدها بمهمة التنظيف .

واستمر هذا السيل يخترق الشوارع ، يعمل عمله الذي كان يجري على وتيرة واحدة . فتراه في كل مكان لا يكاد يقف امام حانوت حتى تذوب الاقمال ويتطاير الباب ، وان هي الا لحظة اخرى حتى ينتظف المحل مما كان فيه فلا يبقى حتى اوساخ اقدام هؤلاء الدائين على العمل بحماس منقطع النظير .

واستمرت هذه الموجة الطاغية تعمل عملها حتى لم يبق ما يستحق الاهتمام مما ينهب او يسلب ، هكذا كان يلوح المنظر لمن يشرف عليه من بعيد . على ان من يقترب من ذلك السيل او يندمج فيه يرى امورا اعجب

واغرب ، اموراً ذات دلالة واضحة تعبر عما في خفايا نفوس بعض افراد ذلك القطيع من سمو لا يتفق وذلك المظهر الهيجي العام . فمن ذلك ان صعلوكا حافيا معدما دخل مخزنا عامرا باشياء لم يرها قبل ذلك الا من وراء زجاج معارض المخازن الفخمة ، فما كان منه الا ان شرع يخلع اسماله قطعة قطعة ويستبدلها بما في ذلك المخزن من فاخر الثياب ، حتى اصبح افنديا انيقا من الرأس الى اخمص القدم ، ولم ينس حتى الربطة اللينة ، والتعديل المعطر ، ثم اختال تيهما لا ينظر يمينه ولا يسره ، ولم يعر ذلك الحشد الهائل وهو في هرجه ومرجه اى اهتمام ، بل ولم يخل عليه بنظرة اشمئزاز لتكالبه على النهب والسلب .

ومنها ايضا ان صعلوكا اخر دخل مخزنا من مخازن الاحذية ومعه كيس فجمع ما يستطيع جمعه ، ثم خرج بحمله الثقيل ، ولما رأى تنه منمولا بذلك العدد من الاحذية ، وجد من اللياقة ان لا يسير على قدميه ، فركب سيارة اجرة عمومية وادار ظفره في احذية الركاب وكان معظمها باليا ، فافطهر اشمئزاً من وجودها فوق ارجل الناس ، وما لبث ان اخرج ما لديه وصار يوزعه على الركاب فرداً فرداً ، وكان يقيس الاحذية على ارجلهم بصبر وفراط اناة ، ولا يتذمر من كثرة التبديل والقياس ، وشدة اللجاجة والالاحاح ، حتى اذا رآهم كلهم باحذية جديدة رمى القديمة من السيارة ، واتعل هو ايضا حذاء جديداً ومضى في سبيله مرفوع الرأس لا يريد جزاء ولا شكورا .

وقد ترى فتاة مخدرة من الابسات الخز والحريز ، وممن يتيه على الناس برافة الاصل وبالحسب والنسب ، وقد تحفت والتحفّت بباعة من الصوف تشبها بالصعاليك ، او اقل تواضعا اذا اردت ، وخرجت وسلاحها الخنجر للدفاع والهجوم ، ومضت تنهب وتسلب ، وقد تراها تكلف حملا بان يحمل جمعتها ، او تأمر خادمها بان يعينها على السلب والنهب .

هكذا كانت حالة تلك الحمم مجتمعة ، وتلك كانت اخلاق بعض
اجزائها افراداً .

استمرت تلك الحمم تقذف ليل نهار ، حتى خف الضغط في جوف
المدينة شيئاً فشيئاً فتفتست ملياً وهدأت مدة من الزمن هدوء من يستجم النشاط ،
ثم عادت فاشتجرت من جديد . وكان انفجارها هذه المرة ادهى وامر . لقد
مارست بانفجارها الاول شيئاً من القوضى ، وخفت بعض ما عليها من اودية
المدينة وطلاتها ، اما هذه المرة فقد كان هناك الويل والثبور . لقد انبعثت
هذه الكتلة نبحت عبا تعمله ، وهي اكثر شراسة فكانت كالصخور الهائلة
المحمرة المقدوفة من جوف البركان .

لقد طاب للقطيع هذه المرة ان يقتل ، وكم كان يطيب لاجداده في حقب
التاريخ الحقيقة ان يفعلوا ذلك . مضى يطمئن ما انتبه في نفسه من غرائز
الهمجية ، ودك عندما اتفك عنه القيد ، وانطلق على هواه ، ولم ينفس عن
غرائزه هذه بهاجمة الاقوى ، بل بقتل الاضعف ، وطبيعي ان يفعل ذلك ،
لقد كانت القبيلة في فجر تأريخه لا ترحم ضعيفا فيها ، وحتى ربما اذا شاخ
وضعف مات على يدي احد بنيه الاقوياء ، وربما اكلته القبيلة بعد ذلك .
هكذا كانت الحالة في هذه الفترة فقد انصب الاقوياء على الضعفاء انصباب
الليل ، فانسحق امامهم الضعفاء . لقد قتل الناس اناسا مثلهم بكل ما لديهم
من اسلحة ، لقد قتلوا غيرهم بدون سلاح ايضا ، بالخنق والرمي من فوق
سطوح المنازل ، فقتلوا نساء وقتلوا شبانا واطفالا ، لقد قتلوا وهم تحت
تأثير حى مرعبة مفرزة افقدت القاتل والقتيل وعيه ، فصار القاتل يقتل
وكانه يقوم بعمل بسيط مقدر عليه ان يقوم به ، والمقتول يستسلم للقتل كمن
يستسلم لاجله المحتوم ، ولم يخل هذا الدور الرهيب من شذوذ لا يتفق
وطبيعة الروح الهمجية السائدة فيه . فكم من جار حمى جيرانه وعرض
نفسه للخطر دفاعا عنهم ، بينما كان هذا الجار لا يتأبى عن الولوغ في دماء

الابعدين ، وكم من رجل ثارت نخوته والسكين على رقبة ضحيته بكلمة استغاثة رقيقة من الضحية اصابت هدفا من رجولته ، فانقلب مدافعا عنها يقتل الآخرين في سبيلها • وكم من رجل قد سلمه القانون سلاحا لحفظ النظام فاستخدمه في قتل الأبرياء العزل وهو تياہ فخور •

وعم ذلك الكابوس واشتد ، ولم ينح منه عاقل ولا جاهل ، الا فئة واحدة كانت في الحقيقة هي الدافع الذي بعث ذلك الانفجار • لقد سعت تلك الفئة لاجل ذلك مدة طويلة من الزمن ، حتى تكلل عملها اخيرا بالنجاح لقد كانت تلك الفئة لا تتأ تعمل بكل ما لديها من قوة وحول ، على دفع سكان المدينة الى الورداء ، وتحطيم قيود العقل المتحضر الذي يقيد الفرائز الهمجية الابتدائية ، وقد رأت ثمرة عملها عندما عمت تلك الحمى العالمية العامة • رأت كيف يرجع ابناء القرن العشرين الى عصور ما قبل التاريخ بفضل عملهم المنظم الخبيث •

وانتهت العاصفة اخيرا ، ولا بد لكل عاصفة من نهاية • واستيقظ سكان المدينة كمن يستيقظ من نوم عميق تخللته احلام مفرعة ، ومرت تلك الحوادث المفجعة في اذهانهم مرور ذكريات حلم مخيف من تلك الاحلام الغريبة التي تطرقنا احيانا ، تلك التي ترينا انفسنا في غابات مظلمة ، وحواليها وحوش غريبة ذات زئير مرعب ، او توهمننا باننا ساقطون بين مخالب تلك الوحوش ، وتحت رحمة انايها • تلك هي بروق خاطفة من حياة الانسان الاول ، يوم كان يسكن الغاب والتي لا يزال العقل يحتفظ ببعض لمحات منها رغم كر القرون والاجيال •

المجموعة العاشرة

حفظمة فارغة

الأهداء

الى ضحايا العظمة الفارغة المزيفة
الى شهداء الوثبة الكبرى
الى ذوي العظمة الصادقة
ذو النون أيوب

العظمة

يقول المتقون « العظمة لله اما الانسان فمن نقطة قدرة » وهم بتواضعهم المفرط في الدنيا ، يشدون العظمة القصوى في الآخرة . اما غير المتقين فالعظمة عند بعضهم اولى المطالب بعد سد الرق ، فلا يكاد احدهم يشعر بامتلاء بطنه ، حتى ينظر الى جاره غابطاً ، ثم حاسداً ، ثم سالباً ، فاذا ما واتاه الحظ مضى متعاليا متشامخا ، ناسيا ، وهو في نشوة التعالي ، انه بعمله هذا قد اعتدى ، وقتل ، وسحق ، وآذى ، ولا يزال كذلك حتى يلاقي جزاءه فجأة ، فاذا هو اسفل السافلين . هذا اذا لم يفقد حياته فضلا عما سرقه . ويقابل هذا النوع من العظمة عظمة من نوع آخر ، ذلك : انه عند شيوع الطغيان وكثرة الاضطهاد والظلم تدافع البشرية عن كيانها بدفاعها عن حريتها فتألب وتتكتل ، لتدفع الاذى وتقي الضيم ، فتأتي بالمعجزات ، وهي بذلك ترتفع ايضا نحو العظمة ، وقد يطفو على زبد امواجها القواراة اشخاص يمثلون انتفاضها ، ويحسمون توجيه ضغطها ، فاذا بهؤلاء بين عشية وضحاها عظماء ، وهؤلاء ، اما ان يفقدوا توازنهم عند الارتفاع ، وينسوا انفسهم ، فيغوصوا مرة ثانية في الاعماق ، او يبقوا فوق تلك الامواج حاسبين حسابا لكل شيء ، الا لشيء واحد ، هو انهم قد اصبحوا عظماء . وقد يبلغ

الاخلاص عند بعضهم ان يتجاهل تلك العظمة حتى ولو دوت الدنيا بها
جميعا في اذنيه ، تجاهل مؤمن عارف ، لا تجاهل منافق كاذب .

بهؤلاء وحدهم تليق هذه الكلمة الرائعة ، وعليهم تنطبق • هؤلاء هم
العظماء لان عظمتهم من عظمة الآلهة ، وهي العظمة الخالدة •



صاحب الفخامة

لست ادري من اين اشتق هذا الاسم الذي يحمله رئيس الوزراء في العراق ، ولا ادري لماذا كان الوزير صاحب المعالي ، والرئيس صاحب الفخامة . وكل ما اعلم ان صاحب الفخامة الذي اروي قصته ، كان يدعي قتيلا صاحب المعالي ، وان فخامته احس بقامته القصيرة تطول عدة اشبار يوم حلت الفخامة محل المعالي اي يوم اصبح جبارا يشار اليه بالبنان ويقول بعض المتفلسفين ، ان من حق صاحب الفخامة هذا ان يتيه على الاصحاب والاقربان ، فهو بالعصامية يسبق فورد ونابليون . فقد نشأ من بيت وضيع ، فكان خادما ، ثم افنديا صغيرا ، ثم افنديا كبيرا ، ثم صاحب السعادة البيك ، ثم صاحب المعالي ، واخيرا صاحب الفخامة . فهل ثمة من كان احقر منه ، ثم اصبح ارفع منه ؟ واذا لم تكن العصامية كذلك فكيف تكون ؟ ها هو العراق اقضاه وادناه ، يخطب وده ، ويتمنى رضاه ، واصحاب الصحف الخاصة يكيلون له المديح جزافا ، ليكال لهم المال جزافا (وبالكيل الذي تكيلونه يكال لكم ويزداد) .

اما اصحاب الصحف العامة فقد تصدوا له بالمعارضة ، وكانت موقفة ، ولعل اغلب التوفيق يرجع الى صغر عقل المعارض عليه لا الى كبر عقل المعارض .

واستطاع صاحب الفخامة ، بما عرف عنه من مهارة ، ان يجول جولة واحدة ، ويصول صولتين ، فاذا بالقانون يعبر عن رغبات فكره والطماع نفسه ، حتى قبل ان يفصح هو عنها ، واذا بالنظام يصبح كجبل اعد للاستقاء ، فاستفاد منه قطاع الطريق في شد اكثاف المسلوين •

ودانت الاطراف البعيدة ، بعد محاولة انتقاض ، وذلك بعد ان قتل من قتل وشرذ من شرذ ، وارهب من ارهب ، ثم صار صاحب الفخامة يسمى ناشر الامن في الربوع ، والقاضي على الهدم والتخريب ، وتجاهل صاحب الفخامة كل بشر سوى شخصه ، وحتى بقية افراد وزارته صار لا يحسب لهم حسابا ، فهو القادر على كل شيء • وربما توهم القارئ ان هذا القزم الجبار لا يخشى احدا في الدنيا كلها ، بعد ان اصبح لا يخشى احدا في مملكته ، فالحقيقة انه يخشى اناسا من غير بني ملته ، يخشى اولئك الذين يسمون انفسهم اصدقاء العراق ، والذي يعنون بالصدقة ما عناه رئيس قبيلة زنجية من اكلة لحوم البشر ، لما سئل عن مصير القسيس المبشر الذي طرق دياره ، فأجاب (لقد خفت عليه شدة الحرارة وكثرة حبي له اسكتته في معدتي) •

اجل يخشى صاحب الفخامة هؤلاء الاصدقاء لانه يعلم انه لولاهم ، ولولا رضاهم عنه لما استطاع ان يخطو خطوة واحدة في سبيل الفخامة • اما الذين يحكمهم فلا وجود لهم في حسابه ، ما دام يستطيع ان يؤثر في مصائرهم كما يريد ويفعل بهم ما يريد • واحتاجته الامبراطورية الصديقة التي لا تغرب الشس عن ممتلكاتها ، ليسدد لها جزءا من دين لها في رقبته ، فأرسل صاحب المعالي البريطاني في طلب صاحب الفخامة العراقي ، فنشرت الجرائد ان صاحب الفخامة قد ترأس وفدا ليفاوض في امر انجاز استقلال العراق انجازا تاما ، ويؤمن سيادته فتجمعت الحاشية وراءه وسار الركب على الطائر الميمون •

واستقبلت لندن زائرها الكريم ، كما تستقبل العائلة الانكليزية ديك الهند في يوم عيد الميلاد ، فما تمتاز به السياسة الانكليزية انها تحترم ضحاياها احتراماً فائقاً . او لم تسمع ايها القارئ كيف ان احد الانكليز البس ديك الهند ليلة عيد الميلاد لباس السهرة واجلسه على مائدة الطعام امامه ؟

وتوالى الاجتماعات وكلها اجتماعات انس وسرور ، حتى امتلأ الضيف وسمن قلبه ، وضعفت نفسه وارتيك عقله ، وآن اوان افتراس الغنيمة ، وتحفز صاحب المعالي البريطاني ، وافتتح حديثه وقال « تعلم ايها الزميل ان الروابط بيننا قد اصبحت تقليدية ، وان العالم يغلي ويفور ، وهو على ابواب حرب اخرى وان الشيوعية بالمرصاد ، وهي بالنسبة الى بلادكم على الابواب ، فكلانا يخاف من وبائها ، فعلام لا تتفق اتفاقاً الند للند ، للتخلص من شرها الويل ؟ » فاجاب صاحب الفخامة العراقي « على الامبراطورية ان تحمي باب بلادنا ما دام ضعيفاً ، فهو بابها ايضا والعقبى لاصحاب الدار اذا منع الشر من دخول الباب » فهز صاحب المعالي البريطاني رأسه هزة موافق على هذه الحكمة البليغة وقال « ولكن العصر عصر مساواة وهؤلاء الشيوعيون يخلقون من لا شيء امورا جساما ، واذا لم تكن معاهدتنا الجديدة معاهدة صداقة ، على اساس المساواة ، فأن بعض الدجالين في مملكتكم سيعتبرها قيذا » .

فقال صاحب الفخامة العراقي « فلتكن معاهدة مساواة ولكن كيف تريد ان تكون هذه المساواة ؟ » .

فقال صاحب المعالي البريطاني « الامر بسيط على العراق مثلا ان يشترك في الدفاع عن املاك الامبراطورية البريطانية اذا ما هدهدها مهدد ، وعلى الامبراطورية البريطانية ان تدافع عن مستعمرات العراق اذا ما هدهدها مهدد ، ولاساطيل بريطانيا الجوية والبحرية ان تستخدم اراضي العراق وموانيه

عند الحاجة ، ولاساطيل العراق الجوية والبحرية نفس الحق فيما يتعلق
بارض بريطانيا ومواتها ، واذا ما نزل جيش من جيوشنا في بلادكم فعليكم
اعالته والصرف عليه ، واذا ما نزل جيش من جيوشكم في مملكتنا فعلينا
عين الحق .. » ومضى صاحب المعالي البريطاني يضرب على هذا النغم وهذا
النوع من المساواة الذي قال في مثلها اتاتول فرانس نكته المشهورة « ما
اعدل القانون الفرنسي ، فهو يمنع الغني الذي يسكن القصور ، والمتسول
الذي لا يعزف ابن بيت ليلته ، من افتراش بلاط الجسر ليلا » حتى افتتح
صاحب الفخامة العراقي واعتقد ان مركزه قد اصبح ارفع من منصب
مفاوضه ، فهو صاحب الفخامة وذاك ، صاحب المعالي .

وقبل المفاوض (الصعب) بكل الشروط التي املاها عليه المفاوض
(السهل) وابرم الاثنان لائحة استبعاد شعب باكملة ، بقيود لم تخلق
الدبلوماسية الدولية اكثر منها نقاا وخداعا .

واحتفل المتفاوضان بمناسبة عقد هذا الاتفاق احتفالا فخما ، وبينما
كان المحتفلون يرتشفون كؤوس الكوكتيل نخب (المساواة) اذ قدمت
لصاحب الفخامة العراقي برقية مستعجلة من مملكته ، فافترضها لقرأها وعينا
صاحب المعالي ترقباته ، وبدأ على وجهه ما يشبه البقعة ، ولم يستطيع صاحب
المعالي كتمان قلقه فتساءل « خير ان شاء الله ؟ » فأجاب صاحب الفخامة
« امر منتظر ، لقد حدث بعض الشعب في العراق ، اثر نشر بنود المعاهدة ،
وهذا امر كنا له بالمرصاد ، فالشيوعيون الهدامون الخونة لا يروق لهم هذا
الاتفاق وهو كما تعلم ضد روسيا ، ولكن الاحتياطات المتخذة ستوقف
الامر عند حده ، وقد حسبنا لكل شيء حسابا » واستلم صاحب المعالي
برقية اخرى بعد لحظة ، فافترضها مسرعا وقرأها ، وعينا زميله تراقباته ، وبدأ
على وجهه الزميل قلق وغضب ، ووجه الخطاب الى صاحب الفخامة قائلا
« الامر اخطر مما تتوهم ، فهذه البرقية المستعجلة تفيد بان في العراق ثورة

او شبه ثورة ضدك ، وضد المعاهدة الجديدة » فاجاب صاحب الفخامة
« سأذهب بنفسى لاستدراك ما وقع فيه زملائي من اخطاء . اني آسف لاني
لا استطيع ان اجد وزيرا عنده من الجرأة والادراك والحزم ما يستطيع ان
يشغل به منصبي عند غيابي ، وسترى كيف ان الامر بسيط تافه » .



لم يكذب صاحب الفخامة عندما عاد الى بغداد وقال « هذه ليست
بغداد التي اعرفها » فقد كانت المدينة تغلي وتفور كبركان تفجر بعد همود
طويل .

فالشوارع مملوءة ليلا فهارا بالمتظاهرين يحملون شعارات صريحة
ومطالب واضحة . والشرطة قد تملكها الرعب من تلك المقاومة التي لم
تعهدها قبلا ، لقد اجادوا استعمال بنادقهم ، وبرهنوا على كفاءاتهم في اصابة
الرمى ، فمنهم من كان يصبوب الى الرأس فينشر المخ ، او يصبوب الى القلب
فتنتشق الدماء كالنافورة ، او الى البطن فيبقره ، ولم يظهروا كرما او
تسامحا ، لا مع الهارب ولا مع التائب ، وتساوى عندهم المتفرج والمتظاهر
كل ذلك في سبيل الارهاب ، فاذا بالارهاب ينقلب عليهم ، فهم
المرهبون المنهزمون ، وعجبوا كيف كان يستقبل التلاميذ رصاص البنادق
والرشاشات الحاصدة بحماس واحتقار ، ثم انقلب عجبهم الى خوف ، ثم الى
هزيمة مروعة ، ورعب عظيم ، واضطر ارباب الشرطة ان يستقدموا الفرقة تلو
الفرقة من خارج العاصمة ، ليستعوضوا عن المرتعب بغيره ممن لم يكتو بنار
الهياج العظيم ، ولكن المظاهرة انقلبت الى ثورة جامحة . وانزوى صاحب
الفخامة في ديوانه وحيدا ، يصدر الاوامر والنشرات ، فكان بعمله ذا كيريدان
يطفىء نارا متأججة آكلة باليتروك . وهرب اعوانه اصحاب المعالي وتركوه
يواجه تلك الزوبعة الهائلة بمفرده كانت الهاتفات بسقمه وبطلب اعدائه .

تصل الى اذنيه كل حين ، وكان الرصاص المتطاير في الفضاء يصيب بعض جدران مكتبه الخارجية بين آن و آخر ، وكانت الاهازيج الحماسية التي تصف جبينه ، وسفكه الدماء ، ويبيع البلاد تصل اليه ، مكتوبة او مسموعة ، وحتى الاطفال في لهزمهم ، اصبحوا يشدون القصائد والمقطوعات في ذمة ودخل عليه كبير الشرط وهو في محنته فقال له « لقد عجزت الشرطة عن اخماد الهياج ، ولست مسؤولا عما يحدث بعد ذلك ، واخشى ان ينقلب افراد الشرطة مع الناس علينا » فطلب صاحب القفامة كبير الجيش ، وكان الاخير رجلا حصيفا ، وطلب منه ان يقمع تلك الثورة بقوات جيشه ، فقال كبير الجيش ناصحا « اني ابذل المستحيل الان للحيلولة دون اشتراك افراد الجيش مع الاهالي ضد الحكومة ، وقد حجرت عليهم في الشكنات . فهل تكون انت مسؤولا عن اطلاقهم ، والقيام بهذه الخطوة الرعناء ؟ » .

ولم ير صاحب القفامة اخيرا مناصا من الهرب ، فتسلل تحت ستار الظلام وهو يردد « هذه ليست بغداد » وعاد راجعا الى عاصته الكبرى ملتجئا فلم يستقبله احد ، ولم يهتم بامرهم احد ، فعلم بعد فوات الفرصة : ان الامبراطورية البريطانية قد رمت خرقة اخرى من الخرق التي تسمح بها اقذارها ، في صندوق القمامة . وادرك عند ذلك ان لا عظمة ولا فخامة بعد ذلك اليوم . لقد ادرك اخيرا ان تلك القفامة جوفاء بكل معنى الكلمة ، وان عظمته فارغة فراغا مطلقا . اما صاحب المعالي الامبراطوري فقد بدأ يغزل من جديد ليحولك نسيجا من نوع جديد ، فيستعمله خرقا يسمح بهما افرازات الامبراطورية التي لاتغرب الشمس عن مملكتها ، والتي كثر تنسها في الايام الاخيرة ، وشاعت رائحة المفونة والدمار في اطرافها .

زعيم واتباع

في الساعة العاشرة من مساء يوم قارس البرد ، شديد الريح ، مسررت
بملهى من تلك الملاهي التي زاد عددها في بغداد في الاونة الاخيرة كزيادة
سعر الرغيف ، وكنت قد استعنت على البرد والسأم ببضعة كؤوس ، ويصديق
اديب شاعر ، تعجبه تلك الجولات ، فقلت « له هوذا ملهى ابي ثؤاس فلنر
بماذا خلد القوم ابا ثؤاس » .

فقال لي « حذار يا صاح ، فالخطر في امثالها كامن ، ولا زلت احمل في
راسي آثار جراح لما تندمل ، كسبتها في ملهى يشبه هذا . فقد نشبت معركة
بين طلاب البطولة من رواد الملهى ، وراق لهم ان يوزعوا الضربات توزيعا
ديمقراطيا على الحاضرين ، فكان نصيبي منها ما لم احصه حينذاك ، فقد
شعرت بأن عقلي قد توقف ، وهو يطرق ، عن ابسط نشاطه » فاجبته « انك
تشوقني فكهم في الزوايا من خبايا ، ومثلي ومثلك من يحث وراء هذه الخبايا .
وضمانا لرأسك ، ستختار زاوية بعيدة عن الخطر قريبة من باب الهرب »
ودخلنا وصاحبي يقول « اللهم انقذ رأسي من هراوات الاشقياء ، واذا كان
لابد من العقاب على هذه المعاصي ، فليكن العقاب برأس صاحبي ، فالذنب
ذنبه ، ورأسه اقوى من رأسي على احتمال هراوات عذابك » .

فقلت له وانا ابحث عن محل مناسب قرب المسرح « اني اقبل العوض ،

ولعل رأسي بحاجة الى بضع هراوات تشط الدورة الدموية فيه ، وتطلقه من
تبلده » .

وكان مجلسنا في زاوية تحاذي المسرح ، قرب الاوباش ، وقرب ممر
يؤدي الى الباب ، ومن عادة بعض الاوباش ، ان يرقص مع الراقصات ،
فيضحك الناس عليه ، ويؤنسهم اكثر مما يؤنسهم رقص الراقصات ، وغناء
المغنيات . يتبرع بذلك كرما دون انتظار جزاء .

وقلت لصاحبي « نحن كما ترانا في في موضع لا يلفت النظر ، والمعارك
تشب عادة بين المتنافسين على الفواني ، وهم من الجالسين في الالواج العليا
كما ترى ، او من المترفين المتباعدين عن المسرح ، وقد نحسب من الاوباش
الذين لا يعتدون على احد .

كانت احدى المغنيات المصريات تشنف اذان الاوباش بصوت خون رخم ،
وكان رفاقنا الاوباش طرين ثملين بدون خمرة ، وكان احدهم اذ اشتد به
الطرب اظهر اماراته بأساليب لاحدود لها ولاقيود ، فقد اتصل به شدة الطرب الى
التبرغ على الارض ، او رفع ساقيه في الهواء ، او لطم رأسه او وجهه ، اي
بالطريقة التي يتصورها ابلغ للدلالة على شدة التأثر . وكنت وصاحبي طرين
بأساليب اظهار امارات الطرب ، اكثر مما كنا طرين بالطرب نفسه ، وكان فوقنا
في الطرف المقابل لوج من تلك الالواج المعدة للغزل ، يحتلها المترفون من
ارباب الثراء . كان الجالسون به ستة ، امامهم زجاجة من الوسكي اتفاخر ،
ولفت نظري احدهم ، وكانت له هيئة الغوريلا ، فوجه منتفخ من الوسط
اتشاحا شديدا ، وعيناه صغيرتان تعلوهما جبهة ضيقة يعلوها شعر احمر
براق ، اما فمه فواسع ذو شفتين غليظتين مرتختين يعلوهما انف افطس ، واما
جسمه فيا للهول ، كان مفرط السمنة قصير الرقبة . وكان لباسه بعكس خلقته ،
فاخرا انيقا . وسألت احد الندل عنه فقال معرفا « انه من اغنياء بغداد المعروفين ،

واسمه عبد الملك الزيات ، دخله في اليوم المئاة يصرف منها العشرات ، وكل من تجد حوله تابع من اتباعه الكثيرين المخلصين ، وهم كلهم عالة عليه يستخدمهم متى اراد ، وكيف اراد ، واثنان منهم ضباط ، وواحد محام ، والباقون من مستخدميهم » فقال صاحبي « هذه حكومة كاملة • فيها الامر والحاكم والمنفذ • واني لاشم رائحة الخطر ، فهلا تخليت عن غريزة حب الاستطلاع ولو مؤقتا ؟ فالوقت ليس وقت مزاح او درس ، واعلم ان كل ما عند الدول ، التي تحتمي بها انت ، من قوة لا يحملك من هذه الدولة في اللوج ، لو اعجبها ان تعلن الحرب عليك » فاجبته « لست من المنافسين ولا من الغنائم فلا خطر علينا • وبقي بصري عالقا بذلك الزعيم القردي السحنة ، ورأيت اثنين من الاتباع ينتقلان الى لوج مجاور يحتله ثلاثة من ذوي العقال ، ويظهر انهم من زراع الارز ، الذي بلغ ثمنه حدا لا يطاق ، رابعهم غانية جميلة ، فدخلوا بدون استئذان وسحبوا تلك الغانية من معصمها ، كما تسحب الشاة ، وقال صاحبي « تأخر قليلا خوفا من ضربة كرسي طائر ، فالمعركة ستشب والدولتان متكافئتان • ووثب (الشيوخ) وقد اخذتهم العزة العربية والنخوة القبلية ، وزمجروا وهددوا وكالوا للمعتدين اقبح الشتائم ، فما كان من زعيم اللوج الاول الا ان قذفهم بزجاجته الغالية ، وطلب من النادل ان يأتيه باخرى • وتحولت الاعين الى فوق ، المشهد هناك اكثر اثارا ، وتقافز الاتباع فوق الحاجز بين اللوحتين ، وتطاحنوا ثم تعاجنوا ، وانجلت المعركة عن الشيوخ يسحبون سحبا ، وهم مهشمون » •

وظهر الشرطي بعد انتهاء المعركة ، وطلب من المعتدين بادب مفرط الكف ، ليس الا • فنهض ضابط من الاتباع واطار سدارته بلكمة ، وسقطت السدارة بالقرب مني ، ثم تبعها صاحبها ساقطا فوق ثلاثة من الجالسين ، وقام وقاموا معه متوجعين ، ولم استطع السكوت ، فهنأت الساقط والمسقوط عليه

بالسلامة • وادرك الشرطي اني اسخر ، فقال معذرا « اعلم انه ضابط فماذا بوسعي ان اعمل ؟ » •

وعاد الاستقرار الى نصابه • وتمنى صاحبي ان تكون تلك الحكومة قد ارضت عظمتها تلك الليلة ، واكتفت بتلك المعركة » •

وكان بالقرب منا شاب نحيف البنية رقيق الملامح ، واظنه ، رقيق الشعور ايضا ، كانت نظراته عالقه بالمغنية ، علوقا يلتفت النظر فقال صاحبي بأسلوب الشعراء « تلك نظرة عبادة يا صاح ، وعلينا ان نحترم كل انواع التعبد ، او لسا من انصار حرية الاديان ؟ » •

والتفت الى المغنية لارى رد الفعل عندها ، ولاستطلع درجة استجابتها لتلك الصلاة ، فرأيتها تبسم للعابد ابتسامة رقيقة ذات معنى •

فالتفت الى صاحبي قائلا « ان جارنا الرقيق ذو حظوة على ما يظهر » فاجاب صاحبي « اناله الله مبتغاه ، وتمعه بقليا معبودته ، ونجا الله جيبه ، اذا كان رفيقا كمزاجه ، من اغارة حسناؤه المدمرة » •

ورأى غيرنا ما رأينا ، وكانت عينا الزعيم الصغيرتان قد التقطتا تلك النظرة المتبادلة ، وهمست الحسناء المسبية حديثا في اذنه شيئا ، فاصدر امرا ، ونزل على الاثر احد الاتباع واحتل مقعدا بجانب جارنا ، وافتتح الحديث معه على الفور ، سائلا « ما اسمك ؟ » فاجابه الثاني « سعاد » فقال الاول « لا يعجبني هذا الاسم فهو اسم فتاة » واشفع كلامه بان تناول كأس جارنا المترع وهو يقول « لقد نال بطنك الكفاية ، ومن حق رأسك ان يأخذ الباقي ، لعله يصحو من خيالاته واوهامه السخيفة » قال هذا وهو يسكب الكأس فوق الرأس •

ونفض المسكين متمقا وسمع ضحك الرب والاتباع من عليائهم ، فأدرك على الفور بانه في خطر ، ولم يجب على تلك الالهانة بل اسرع بطلب النجاة فقال صاحبي مستحسنا « حسنا فعل انه عاقل • نجاه الله » ولم يكده يتهمي صاحبي من كلامه حتى استقبل الهارب بشخص سد عليه الطريق ثم كال له

لكمة هائلة سقطت على اثرها ، وقام يريد النجاة مرة اخرى فاستقبلته لكمة اخرى ، فقام مرة ثالثة ، ورأيت وجهه هذه المرة مصبوغا بالدماء ، وشعرت بقشعريرة ، واجسست بيد صاحبي تشد على ذراعي وهو يقول « حذار ان تتحرك اني اعلم ان هذا فوق طاقة الانسان ، وكل ما ارجو ان لا يقتلوه » . ولم ينهض المسكين في المرة الاخيرة ولعل ذلك كان لخيره ، ونهضت مع صاحبي واسرعت بالخروج ورأيت المعتدى عليه محمولا بايدي النذل ، اما (الابطال) فقد رجعوا الى قواعدهم سالمين .

وقلت لصاحبي « ان زيارة قصيرة لمراكز الامن الان تشفي الغليل » فوافق ، وقصدنا مركز الشرطة المختص بتلك المنطقة ، واندفعنا الى غرفة المفوض ، واطلقت اشرح له تفاصيل الحادث فاستوقفني قائلا « لنا علم بكل ما حدث » فسألته « ولكنكم لم تحولوا دون ما حدث » فقال « لا نستطيع . اذ لو فعلنا لاتهمنا باستفزاز الشعب » فقال صاحبي ضاحكا « ليس الشعب هو خصمكم هذه المرة ، بل اناس يعتدون على الشعب » فأجاب « لا فرق لقد فقدت الشرطة اهميتها . ومع ذلك فقد سجلنا الحادث وسنقيم الدعوى على المعتدين » .

ودخل احد الثلاثة الذين اعتدي عليهم اولا فقال للمفوض « اسمع ايها الافندي لم اعتد ان التجيء للشرطة ، فانا من اولئك الذين يعرفون كيف يردون الاعتداء . لا تسجل دعواي ، فان المعتدين لا يعترفون بوجود حكومة ، ولست اقل منهم خطرا ، ولكنهم كانوا اكثرية هذه المرة ، وسنرى لمن ستكون الغلبة في المرة الاخرى » . وخرج لا يلوي فقال صاحبي بعد خروجه « منطق سليم » فاغتاظ المفوض واكهمر « ولماذا تتدخلان ؟ واي شأن لكما في الامر ؟ اذا بقيتما على هذه الوقاحة فسأوقفكما » .

واسرعت مع صاحبي خارجين وانا اردد « تريد الشرطة ان تثبت وجودها الان ، وان تتدخل لصيانة الامن فعلا ، فالهرب الهرب » .

اوامر عسكرية

ليس (الرفش) اسمه الحقيقي اذ ان اسمه الرفيع ابعد ما يكون عن هذه الاسماء الوضيعة ، وهو اسم يتناسب مع رتبته العسكرية العالية •

ولكن شاء خبث الجنود الذين يخافونه خوفا شديدا ، ويكرهونه كرها عظيما ، ان يطلق عليه هذا الاسم المضحك ، وذلك لما بينه وبين هذا الحيوان المائي المؤذي من تشابه في الخلقة والطباع •

والسيد (رفش) ضابط عظيم ، ذو كرش كبير ، ورأس صغير ، ولكنه في الوقت نفسه ذو مركز في الجيش خطير •

وكثيرا ما يسرى همس بين الافراد ، يشير الى ان الرفش عض فلانا على حين غرة ، او غدر بفلان على حين غفلة • ويعنون بذلك ان احد الضباط الصغار ، او الجنود المساكين ، قد حل به عقاب صارم لسبب تافه اتهمه الرفش ليظهر مقدرته على اللدغ والنهش •

(١) كتبت هذه القصة قبل انتهاء الحرب العالمية الماضية ونشرت في مجلة (المجلة) وقد توهم احد امراء الفرق في العراق بأنه هو المقصود بها فأقام دعوى على المؤلف وعلى المسؤولين عن هذه المجلة يطالب فيها بتعويض قدره اربعة الاف دينار وقد استمرت المحاكمة سنة ونصف ثبت في نهايتها ان الضابط المحترم واهم في حده ، قبرات سمعته مما اراد هو ان يلصق بنفسه ، وتخلص المتهمون من دفع هذا المبلغ الجسيم الذين لا يمتلكون منه فلسا واحدا •

ويتقن السيد (رفش) فيما يتقن حديثا ، يعيده بمناسبة وبدون مناسبة ، وسدى هذا الحديث ان الجيش عماد البلاد ومصدر عظمتها ومنبع قوتها ، اما لحمته فوجوب الطاعة العمياء ، وعدم الاعتراض على امر عسكري مهما تنافى هذا الامر مع العقل والمنطق ، اما التفكير في الجيش فحرام ، وبدون هذه المقدمة وهذه النتيجة لا يتم في نظره (النظام والانتظام) •

ولا يتوهمن القارىء ان السيد رفش يعني بالجيش جميع افراده ، وكل ضباطه وقواده ، اذ ان واقع الحال يشير الى انه يعني بالجيش اركانه العليا وضباطه الكبار ، فهو مجموعة من الرتب العسكرية اصغر رتبة فيها رتبته ، اي يشترط ان يكون هو احد افراد هذه الكتلة ، ولا يحتمل ان يكون من هو دونه معه ، وذلك لكي يطبق اوامره العسكرية الصارمة على اكبر ضابط تحت امرته ، ليظهر بطشه امام الاتقار ، وفي ذلك ما فيه من (الهيبة) للجيش •

اما الضباط الصغار والافراد ، فهم اداة ضرورية لهذه الهيبة ، اذ تنصب على رؤوسهم امانات (الرفش) في سبيل (عظمة) الجيش • ولا يتورع الرفش عن الشتم المقدع باحط لغة عندما يريد ان يمجّد (الجيش) ويتناسب سبه مع رتبة المهان العسكرية طبعاً •

اما الاعتداء بالبصق والضرب والرفس فمن مكملات الهيبة العسكرية في نظر (الرفش) •

وبعد كل هذا اظن القارىء قد عرف مقدما ميول (الرفش) السياسية والمبادئ التي يحترمها ، واي مبدأ يمكن ان يعتنقه (الرفش) غير مبدأ (الحق للقوة) (والجيش فوق الجميع) (والطاعة العمياء اسس الحياة والكرامة)؟ وهل تجتمع هذه الاقانيم في غير المبادئ النازية وهل يليق ان ينطق بها سوى زعيم الفارغين (هتلر) ؟ وهل من اللائق ان يعتنقها غير هذا « الرفش » وامثاله ؟

ان السيد رفش يكره اليهود كرها جما ، ويجب المال حبا لما ينتزعه من كل مكان وبكل الطرق ، ولعل هذا سبب كرهه لليهود اذ هو يذكر حين يحمل عليهم ، انهم اقدر الناس على جمع الدراهم واكتناز الذهب فعلتهم في نظره هي احتكارهم جمع الدراهم واختصاصهم في اساليب جمع المال .

يوم اعلن النفير مطاردة اليهود والتكيل بهم ، اصدر الرفش اوامر الى ضباطه وجنوده بأن يحملوا عليهم حملة شعواء ، يسلبون اموالهم ، ويستحيون نساءهم ، وشدد النكير على جنوده بأن لا يمسا شيئا مما ينهبون ، ولا يسرقوا مما يسرقون ، بل عليهم ان يذهبوا بكل ذلك الى بيت المال اي الى « بيته » .

وقد شعر لاول مرة في حياته بفائدة الاوامر العسكرية والدقة في تنفيذها لما رأى بأمره كومة الاسلاب والمنهوبات من فرش واثاث ثينة وحلى قيمة تنصب في داره .

وما كان ينقص السيد رفش الا ان يكون المانيا، لكي تكمل سعادته ويتم هناؤه . فقد شاء سوء حظه ان يولد في امة من تلك الامم الصغيرة التي قدر لها ان تتأرجح ذات اليمين وذات اليسار ، حسب ظروفها السياسية وقوة ما يهب عليها من زوابع المبادئ المتناقضة في الاهداف ، المختلفة في الغايات ، فتندفع مع الريح القوية تارة ، وتكتسحها الزوابع العنيفة المعاكسة تارة اخرى .

وهذا عامل آخر من عوامل قلق « الرفش » فهو يكره الذبذبة ولا يرتاح الى الاوامر المتناقضة اذ يريد ان يصدر الاوامر بدون تدبير او تفكير ، اوامر قاطعة صارمة تقول للشيء كن فيكون .

ومع انه من المستبعد ان يكون « الرفش » يوما رجلا ديمقراطيا ،

وهذه صفاته العقلية والخلقية ، فقد تحقق هذا الامر واضطر « الرفش » ان يكون ديموقراطيا •

وما كان من الهين عليه ان يكون ديموقراطيا ، ولا ان يقبل هذه الصفة حتى ولو كان قبوله اياها صوريا مزيفا ، ولكن ما حيلته والرتبة العسكرية قد اصبحت مهددة ، واذا ما رفعت تلك الرتبة فهو يعلم جيدا انه يصبح عديم القيمة محترقا مهانا ، فقرر الطاعة اذعانا للاقدار ، وحفظا لمركزه وتقبل الامر ، واعلن بانه ديموقراطي ، وادى للاوامر القاضية بذلك تحية عسكرية وقال « سمعا وطاعة لقد اصبحت ديموقراطيا » واليك كيف صار السيد « رفش » يطبق مبادئه الديموقراطية :

يجلس السيد رفش بين مرؤوسيه فيتكلم عن الحرب وعن القسوى الدكتاتورية والديمقراطية ، فيذكر جميع العوامل التي ترجح كفة الدكتاتورية على الديموقراطية وليس له حيلة فيما يقول ، اذ هكذا توجي اليه علومه العسكرية ، فاذا ما انتهى من كلامه اضاف قائلا « وهكذا لابد من انتصار الجبهة الديموقراطية » •

وبعد ان كان يجمع الاصحاب والاصدقاء حواليا فيجلسهم حول خريطة حربية ليشرح لهم وهو ضاحك مستبشر كيف ستتصر المانيا ، وكيف ستغلب ايطاليا وكيف ستزول من الوجود بريطانيا ، اصبح يبكي اسفا عند سقوط كل حصن من حصون الديموقراطية ، كما يبكي الرجل عزيزا عليه حينما يراه طريح الفراش لا يرجى شفاؤه ، ولا يشك في موته •

وحدث مرة ان راجت اشاعة مؤداها ان بعض ضباط السيد « رفش » يتبادلون سرا شعارات فاشتية ، ويحرضون الجنود على اثارة القلاقل والفرار من الجيش لتكوين العصابات المخربة ، ووصلت هذه الاشاعات الى المراجع

العليا ، وهي في دور ديموقراطي ، فقامت لها وقعدت ، وابرت وارعدت ، وطار عقل صاحبنا هلعا ، اذ كيف يحدث كل هذا دون ان يصدر به امرا . وقام يبحث ويفتش ، ومن سوء حظه انه عثر على ما يؤيد الاشاعة ، وكان مرشده في التفتيش ضابط ديموقراطي صادق نشيط غيور قدم لرئيسه تقريرا مفصلا عن كيفية حدوث تلك الدعايات والقلقل ، وابان الطريقة الناجعة لاستئصالها . وكم كان حق « الرفش » عظيما حينما وجد ان معظم الضباط المقربين اليه هم اهم عناصر تلك الدعايات ، وان تقاريره الرسمية عن هؤلاء الضباط ستكون نقمة عليه . اجل حق « الرفش » ولكن لا على هؤلاء الضباط المفسدين ، بل على هذا الضابط الصادق الذي كشف تلك المؤامرات . ويقول الخباء ان « الرفش » عض هذا الضابط عضه لم يعض مثلها في حياته ، اذ ما كان منه الا ان طلب ان يمثل الضابط بين يديه ، ثم القى اليه (امرا عسكريا) بالقاء كل تلك التقارير واستبدالها باخرى تشير الى ان الاشاعة مبالغ فيها ، وانها من صنع بعض الهاربين ، وان الثكنة قد خلت منهم ، وسوف ينالون عقابهم عندما يرجعون قسرا الى حظيرة الجيش ثم اضاف « ان هذه التدابير ضرورية لحفظ سمعة الجيش » .

ففغر الضابط فاه دهشة وفزعا واجاب بدون تردد « ان ذلك في غير صالح الفرقة ، بل هو خيانة للجهة الديمقراطية » .

فوثب « الرفش » وقد احمرت غضبا وانهال على الضابط سببا وضربا وركلا وهو يلفظ اقذع الشتائم ، ويصب اللعنات على الديموقراطية ومن اوجدها واسسها . وبعد ان شفى غليله اصدر (امرا عسكريا) باعتقال الضابط ثم اصدر اوامر اخرى (عسكرية) ايضا لبعض الافراد والجنود بأن يؤدوا شهادة تلصق التهمة التي نحن بصدها بذلك الضابط ، واصدر عقب ذلك (امرا عسكريا) بطرد الضابط من الخدمة .

وقد فعل « الرفش » كل ذلك في سبيل الديمقراطية •
وقد لا يصدق الكثيرون امكان حدوث امثال هذه الحادثة ولكنهم
سيصدقون ذلك حتما ان كانوا « ضباطا » •
اما الذين يستغربون كيف اذهارت دول كبيرة معظمة بين عشية
وضحاها ، فما لهم الا ان يجعلوا السيد « رفش » نموذجا صادقا لضباط
الجيوش في مثل هذه الدول • سيفهمون سبب اذهابها السريع •



مزارع عصري

هذه قصة مزارع عصري ، توفرت لديه الاقائيم الثلاثة الموصلة الى العظمة في فن الزراعة ، وما تجلبه من خير وثروة في هذا الوقت العصيب ، الذي بلغت اسعار الخبز فيه مبلغا يرقص له ارباب الارض ، ويبيكي له العامل والموظف .

يملك هذا الرجل ارضا واسعة ، وثروة ضخمة ، تتوجها شهادة عالية في فن الزراعة ، فهو شخص ممن تحلم الحكومة العراقية دوما بالاكثار من امثاله ، لخلق نهضة زراعية تجلب الرفاه الى هذا القطر وتخلصها من طلاب الوظائف من المتعلمين ، وتغني هذه البلاد التي ليس في الدنيا كلها اخصب من ارضها ، واوفر من مياهها ، وكل ما ينقصها عقل عصري مجهز بالعلم الحديث والخبرة الفنية .

انحدر بطل قصتنا هذه من صلب اب ثري ، يعد من اكبر اقطاعيي العراق . يملك من الاراضي ما يساوي مساحة بلجيكا باجمعها ، يخترقها نهر لاروائها ، يسع باخرة صغيرة وفوق ذلك فالرجل سيد ، يعصب رأسه بعمامة خضراء ، ويقبل الفلاحون يديه تبركا به لا خوفا من عقابه او رجاء نواله .

تزوج السيد ثلاث نساء ، فعد عصريا بين اقرانه الذين يتزوجون المائة

فما فوق • وانجبت له زوجته الصغرى صيبا اشقر ازرقي العينين ، جميل الملامح ، فتولع به ، واهتم بتعليمه ، ولما شب ارسله الى ارقى جامعات امريكا ليدرس فن الزراعة ، مستمعا لنصائح اصدقائه الليكيات المتعلمين ، والعظماء المتنفيذين ، وعاد الشاب يحمل شهادة الدكتوراه في فن الزراعة من ارقى جامعات امريكا ، وسمي بعد قدومه الدكتور السيد حميد •

كان الاب مسرفا متلافا يعشق اللهو والانس ، ولا يعرف في سبيلهما اعتدالا ، فهو يسكر ويعربد دوما ، وله في هذا الميدان اخبار يسير بذكرها الركبان ، وكان اولاده العشرة ، بما فيهم دكتورنا المثقف ، نقض ابيهم • فهم يكرهون اللهو ويحتقرون الطرب ، ويسجنون القلس في جيوبهم سنين كثيرة دون اي ذنب او جريمة • وقد ذهب الغلو في الزهد ببعضهم مبلغا كبيرا ، فهددوا اباهم بالقتل اذا لم يترك مجونه ، غير ملتفتين الى رابطة الدم ، ولا صلة القربى •

ولكن السيد هادي لم يتخل عن مجونه ، برغم شيخوخته ، وحزن في نفسه ان يكون صغيره في صف اخوته في هذا الامر ، رغم شدة حبه له واعرازه ويظهر ان الدكتور اراد ان يحزم على ابيه ما يستحله هو لنفسه خشية ان تبدد الثروة قبل ان تبدد حياة الشيخ الماجن ، ولكنه كان يمزج القسوة باللين رغبة منه في الاستئثار بملك ابيه دون اخوته اذا ادركته الوفاة •

ورمى الدكتور بصره الى جار له لا يقل عن ابيه ثراء ، وهو شيخ ترثه فتاة وحيدة ، فقرر ان يصاخره دون التفات الى العداء المستحکم بينه وبين ابيه ، وناهيك بنماد الشيوخ وعدائهم • ونشب خلاف عظيم بين الاب والابن ، وهاج الاب وماج ، وهدد بأن يتبرأ من ابنه الحبيب اذا اصر على غيه • ولكن الابن اصر وهو تحت تأثير الجشع على ان يجمع

المقاطعتين بعد موت الشيخين ، فجن جنون الاب المستهتر وقرر وهو تحت تأثير نوبة جنونية بان ابنه هذا غير شرعي ، اذ كان قد طلق امه قبل ولادته . فاعمى الغضب الولد ، وبرز مخالفه ، ونسي جزءا من اطماعه . وثارت تأثيرته الموروثة عن ابيه ، فضربه ضربا مبرحا تمرض الاب على اثره ودنا من الموت . فما كان من الابن الاوسط الا ان استرضى الشيخ منتهزا تلك الفرصة الثمينة ، وحاجته الشديدة الى معين . ومات الاب في داره وفاز هذا بالغنيمة دون اخيه .

وفقد مزارعنا العظيم فرصته الاخرى بفقده الاولى ، فقر رأي الجار ان ابنته لا تليق بمن يضرب اباه ، ويفقد مثل تلك القرصة النادرة ، وعاد ساحبنا ، بدلا من خفى حين ، بقطعة من الارض ورثها رغم انف كل سوء حظه ، بحكم القانون وهي قطعة يسمى من يمتلكها في اوربا لوردا او كوتتا او غير ذلك ، فاستقل بارضه وعزم على تطبيق علمه وفنه . ولكنه حاول عشا ان يتناسى خسارته الجسيمة ، ولو استطاع ذلك لكان ربحه فاحشا في موسم الغلاء الفاحش ، وشرع يناصر اخاه الاوسط عداء متأجبا ويؤلب اخوته المحرومين مثله عليه ، وكون معهم جبهة متحدة ضد صاحب الغنيمة الكبرى ، واعلنوا حربا عوانا .

اما الفلاحون فقد انضموا الى الاخ ، صاحب الغنيمة الكبرى ، يدفعهم الى ذلك ثروته وارضه الواسعة وفوق كل ذلك ، معرفته باحوالهم ، واهتمامه بأمور معيشتهم واحترامه لاعتباراتهم ، وعدم التضييق عليهم بعكس صاحبنا الدكتور الذي يعتبرهم بهائم سائبة ، يحقرهم ويشتمهم ويتحداهم في كل حين . ومما زاد الطين بلة شدة بخله فهو يحصى البيض على الدجاج ، ويحسب عدد ارغفة الخبز التي تنتج من حفنة حنطة ، ويتغذى بكأس من اللبن وبيضة ، وبقطعة من خبز الشعير ، وقد اقام الدنيا واقعداها

مرة ، لان فلاحا من فلاحيه سرق البيض المسلوق الذي اعده لغذائه نكابة به ، لا لانه يشتهي البيض ، وكان هذا الدكتور يعتبر نفسه عظيم الاسرة معترزا بعلمه وثقافته المصرية محترقا اخوته الاميين ، وقد ذهب به الغرور الى ان يعامل اخوته كما يعامل فلاحيه فاهارت الجبهة التي اتحدت معه ، واخذت تنضم الى الاخ الفائز شيئا فشيئا ، فقد فتح هذا الثاني صدره لـ اخوته وارضاهم بالقليل من ماله الكثير . واصبح دكتورنا وحيدا في ارضه الواسعة يحيط به الاعداء من كل جانب . وكان حرصه وجهه للمال يدفعه الى ابتكار الحيل الشيطانية والاساليب الجهنمية ، لابتلاع ضرائب الحكومة وحصتها من الانتاج والمحصول ، وكان ضد الرشوة لا لانها مضرة ، بل لانها تسبب خروج بعض المال من جيبه . ولذلك كان يقاسي الامرين من جراء محاولاته تلك . ولما خلت ارضه من فلاحها صعب عليه استغلالها ، فبدأ يترك الزراعة شيئا فشيئا . ويحول ثروته الى املاك وعمارات في مدن العراق المختلفة ، كما استغل قسا من تلك الثروة التي حصل عليها بالتقدير ونهب الفلاح ، وابتزاز ضرائب الحكومة ، بالاضافة الى ما ترك له ابوه ، بالربا الفاحش . اما الفن الذي تعلمه وحاز به على شهادة عالية فلم يخطر له ان يطبقه يوما من الايام وقد يسر القارىء ان يعلم امرا اخر يخص هذا المزارع المصري العظيم اذن فليعلم ان الدكتور الحاذق تشاجر يوما مع فلاح ، فسيبه سبا مقدعا ، واهانه اهانة تعتبر عند الفلاحين امرا لا يفصله الا الدم ، فما كان من الفلاح الا ان كمن له ليلا في جانب طريق يسلكه كل يوم عند تقشيره مزرعته وكان متطيا صهوة جواد ، فرماه بعدة طلقات نارية اصابت في جنبه وفي ساقه ورجله وقتلت فرسه ونجا بأعجوبة اما المعتدي فلم يشهد احد ضده ، لشدة كره الفلاحين لغريمه ، وخرج دكتورنا من تلك المعركة اعرج ، فباع ارضه التي اصبحت خرابا لـ اخيه الاوسط وانتقل الى المدينة بثروته الضخمة ولم يشأ الدكتور ان يبغي عاطلا ما دام يستطيع ان يضيف فلسا

واحدًا إلى ماله فقبل وظيفة صغيرة في دوائر الدولة ، وصار يهرج نحوها كل يوم متوكئًا على عكازه ، يعمل بنشاط ليستحق راتبه الزهيد • أما أرضه فقد ازدهرت على يد أخيه الأمي الذي حافظ على مجد أبيه في الزراعة بعد أن كاد ذلك ينقرض على يد أخيه الدكتور العظيم •



عظمة السيد (افضل)

ان من الناس من ينظر الى العالم من عل ، فيفحص مخلوقات الله من البشر كما يفحص العالم حيوان الاميبا بمجهره ، او كما يدرس حياة النمل واطواره .

اما هؤلاء المتعالون فهم النخبة (المتأزاة) من الناس ، ومن التف حوالهم فكان من حاشيتهم .

ان هؤلاء هم الذين يمتقدون بأن الناس ينتظمون في طبقات بعضها فوق بعض ، او قل بعضها دون بعض . وان هذا النظام ازلي ، فكما ان الحيوانات يختلف بعضها عن بعض ، ويمتاز بعضها على بعض ، فكذلك طبقات البشر ، منها الرفيع والوضيع .

ومن حاشية ذيل هذه الطبقات المتأزاة السيد افضل ، والسيد افضل موظف في ديوان ، له خادم وله اعوان ، وله عقل يتسم بالرجحان ، قد درس وتثقف وتهذب طبعه وتلطف حتى اصبح ممن يشار اليهم بالبنان ، ومن ذوي الكلمة عند الاقران .

وللسيد افضل رأي في كل صغيرة وكبيرة ، وهو يحرص على ان يحتل رأيه محلا بارزا بين الراء ، بحيث يتناسب مع منزلته الرفيعة وقلعته المنيعه .

وقد تعجب المرء من السيد افضل دقة في الادراك ، تحيد به عن الشبهة بما يكون حجة عليه عند الاسياد ، او بما يكون مطعنا في سلوكه نحو الرجال العظام الذين سيكون واحدا منهم في الغد .

والسيد افضل يشكو ، وهو دائما يشكو ، وحاشاه ان يشكو من الجوع والفاقة ، او من العسر والمرض ، فذلك امور لا يشكو منها سوى الصعاليك من مخالقي الله ، اولئك الذين لا ترتفع نفوسهم فوق التراب فيكل شكواهم من هذه المادة الحقيرة ، اما هو فيشكو من المشاكل الروحية والاجتماعية والاخلاقية والانسانية وما اشبه ذلك من امور يدركها العظام وتخفى عن الطعام . فاذا ما تكلم السيد افضل عن احوال البلاد ناح وبكى ، وتآلم وشكى ، شأن العظماء حينما يكون على الاوطان ، ويندبون ما اصابها من تأخر وهوان . وهو يردد متحرقا بين الزفرات « وكيف لا يكون الامر كذلك والشعب جاهل لا يعرف قدر سادته ، ولا يصفى لنصح خاصته ، قد تمرد عوامه ، وفسد شبابه ، حتى غدا كل فرد منهم يحترق الكبير ، ولا يعطف على الصغير . وليس الذنب ذنب السادة والاعيان ، بل هو ذنب الشباب المتعلم المفرور ، والشعب الجاهل الذي يحيد عن الصواب حتى ولو كانت الحقائق امامه كالشمس في رابعة النهار والا فكيف يتجاهل المخلصين ويركض وراء المظلمين والمزمرين ، والمزورين الكاذبين » .

وهو ان تكلم عن المساواة فلا ينسى مطلقا ان يبدأ كلامه بقوله « كل شيء نسبي في الدنيا وهكذا شأن المساواة فاذا ساوينا بين الجاهل والغافل ، او بين الامي والمتقرب نكون كمن إنكر قدر العلم ، وكيف يتعلم الجاهل إذا وجد انه والعالم سيان . والمساواة في الحقوق السياسية بين الاثنين قد تقود الى ان يتولى الصعاليك الامور فيفسدونها بأن يجعلوا اعلى الامور اسفلها » .

وهو ان تكلم عن التعاون راح يتهم كل انسان بالانانية وعسدم

التسامح ، وعدم الاعتراف بعلوم الآخرين وجهودهم ! « فاذا ما سمعوا غيرهم ينطق بالحكم سخفوه غيرة منهم وحسدا . والعقلاء بحكم الطبيعة قلائل ! وهم زمرة تعد على الاصابع ! ولذا فان فضلهم مجهول ، وقيمتهم مضاعة فلا ينتظر ان يمد لهم احد يد المعونة ليساعدهم على نشر فضائلهم » .

ولا يتوهمن القارئ ان السيد افضل رجعي يحقر الرقي والتقدم ، والحضارة والتمدن ، فهو يدعي انه قد اخذ من العلم بافضل نصيب ، وفهم التقدم ومعناه ، والتطور العالمي ومبناه ، كل ذلك لكي يسير مع الزمن اذا ما سار ، ويلبس لكل حالة لبوسها ، فاذا مارجحت كمة الرجعية احتسب بمركزه وبالسادة المحسوب عليهم ، وكلهم عظيم ذو شأن يهاب الرجعيون سطوته ، بل هم في الحقيقة لم يوجدوا الا لخدمته .

واذا ما ارتفع صوت العلم وقدرت الثقافة حق قدرها خرج على الناس بشهادة طويلة عريضة يبرهن بواسطتها على انه صاحب القدرح المثل في كل ماله علاقة بالعلم والمرفان والثقافة . وان قوله هو القول الفصل ، فمن رد عليه فقد انتهك حرمة العلم ، وحط من قيمة الثقافة ، وتناول على العظماء واذا ما هب نسيم الحرية والمساواة ولاح في العالم فجر يوم جديد يتبعده ان يهرول صاحبنا كما يهرول الجمل بين قطيع من الغزلان مدعيا ان من حقه ان يكون في المقدمة . ولا بد ان يشكو من سوء ادب هؤلاء الذين يريدون ان يبقوه .

هكذا يرى القارئ ان السيد افضل قد حمل هموم الدنيا وناء بمسؤوليتها وحده ! ولكن واقع الحال يدل على انه يشكو من مصيبة اعظم وامر من هذه ، تلخص في كون الناس يسمعون فيدركون ، ويرون فيقارنون ويمحصون ، وتذكرون فيحاسبون . وبذلك يرهنون على خبثهم وسوء طويتهم في ظره . واليك جزءا من مصيبة السيد افضل

الاخيرة لترى كم يتحمل هذا الرجل في سبيل (مثله العليا !) من اوصاب وآلام .

فقد حدث كما يعلم الجميع ان هبت على البلاد موجة عنيفة من الدعايات النازية قبل امد ليس بالبعيد ، وصبت كل الافكار والشاريع والاعمال بصبتها ، فاسرع الرجل ليكون في الطليعة كمادته ، فنهض معه العلم وانبرت الثقافة للدفاع عن التفوق العنصري ، واحترم بعض الاجداد الذين لا يستحقون الاحترام ، واحتقار قسم من الاسلاف الذين يستحقون الاكبار ، وسجل في هذا المضمار من الآراء ما افاله وساما .

ثم اتى دور الديمقراطية عقب هذه الموجة فكانت سيدة الموقف فنهض السيد افضل ونهض معه العلم وقامت الثقافة لتؤدي مهمتها في الدور الجديد ولكن لم تصطر على الديمقراطية اذ اخذت تسير من حسن الى احسن فتظهر في كل يوم ان كفة التقدم العلمي تسيل نحو افق جديد لا تقيد في التلق الى مدهانة او نفاق فحار في امره ولم يعلم ما يقول لاسكات اصوات الخرية والازدراء بارائه المهلهلة ، فما كان منه الا ان اطلق حكمة بالفة مكتة ! تربط ما تنافر من اول ارائه باخرها فهتف يقول اجل ايها القوم علينا ان نتوخى نظاما يتفق مع ظروفنا ومصالحنا اجل نريد (قومية مادية روحية اشتراكية ديمقراطية) .

ثم سكت وسكت الناس فحق له ان يعتبر كلامه مسكنا ، فهو مسكت في نظره لانه لا يترك مجالا للسخط اذ يرضى جميع اصحاب المذاهب والمبادئ فهو جامع مانع . ولم يخف على فطنته ان ثمة عددا من الخبشاء مولعين بعرض المتناقضات على الجمهور للسخرية منها ، فضى يستعين بنفوذهم في منع كل رد على ذلك الرأي المضحك ، وهكذا اصبح كلامه مسكنا من الناحية العلمية ايضا .

لقد علم ان هذه العبارة تتفق حقيقة مع مصالحه وظروفه وتقاليده فحسب ، ولكنها لا يمكن ان تتفق مع مصالح الناس كلهم او بعضهم ولا مع تقاليدهم وظروفهم •

ورغم نجاحه في (اسكات) كل صوت صحيح يرتفع ضده (عمليا) فإن السيد افضل لا زال يشكو من سوء ادب الناس وتمردهم اذ تصل الى اذنيه احاديث الناس عنه وتذمرهم مما يسمونها (سخافات) رغم تنازله ومحاولته التوفيق بين آرائهم وآرائه • وكثيرا ما يمس لنفسه « ترى ماذا يحل بي لو تخلى عني كل من يلزم جانبي » او اصبح نقوذ هؤلاء الافاضل هباء ؟ » •

وهنا تقوم نظريات السيد افضل وعلمه وثقافته فتجتمع معا لتقنعه بأن هذا الاحتمال مستحيل ، وان كل محاولة في هذا السبيل مصيرها الفشل ، وذلك بفضل العلم وبفضل وجوده ووجود امثاله •

اما اذا اراد الله ان يفني العالم فلا مرد لمشيئته ، ويقصد السيد افضل بالعالم شخصه طبعاً اذ ما قيمة الاحياء بعد فناء امثاله ؟

وما زال السيد افضل يشكو ، حتى حقق الله ما يتناه ، وازال علل شكواه فقد مضى في درجات سلم العلو في دولته صعوداً ، حتى اصبح وزيراً خطيراً ، فكان الوزير الذي يحق له ان يتباهى على زملائه بسعة اطلاعه ، وتكامل ثقافته ، فهو رئيس الوزراء ثقافة ، رغم انه وزير فحسب منصبا ، وتوهم السيد افضل ان ثقافته الجامعة المانعة هي التي اوصلته الى القمة ، فقرر ان يستند اليها في الاحتفاظ بكرسيه ، اذا ما ذهب الريح بالوزراء الباقين ، فتم له ذلك مرة بل مرارا ، وكاد ان يصبح وزيراً دائماً يحتل وزارة دائمية واصبح يسمى صاحب المعالي السيد افضل • وتواترت وزارات كثيرة فكانت تسقط واحدة وتحل محلها اخرى ، فيودع الساقطين ، ويستقبل

الناجين ، وقررت احدى الوزارات مرة ان تتفاوض مع دولة اجنبية ، فلم تجد مفاوضا يليق بهذه المهمة احسن من معالي السيد افضل ، فأسندت اليه تلك المهمة ، ولم يخف عليه المقصود بتلك المناورة ، ووضع امضاءه على المسودات المقدمة اليه دون قراءتها ، فعل ذلك وهو يعتقد ان افضل سيسند اليه فيما ستنااله حكومته من شرف .

وحدث ما لم يكن في حسبانته ، فقد سقطت تلك الوزارة الاخيرة سقوطا مفاجئا ، وتهاوى زملاؤه من فوق كراسيهم الواحد بعد الآخر ، وتوهم انه سينجو هذه المرة ايضا ، ولكن خاب فأله هذه المرة ، فقد تصدى له التلاميذ والرعاع اي اولئك البداء القصيرو النظر ، الذين لا يفهمون حكمة التلون ولا فلسفة التقلب ، وتمنى ان تكبح الحكومة جباههم وتردهم على اعقابهم خاسئين فخاب فأله ايضا . وتمنى اخيرا ان يغفلوا اسمه ويضعوا اللوم في رقبة رئيسه على الاقل فخاب فأله ايضا واذا بهم ينادون بسقوطه بصورة خاصة ويطلبون ثنقه ، وقال يحدث نفسه « ابعد كل هذه الخدمات ينال المثقف العظيم صاحب المعالي السيد افضل هذا المصير الحقيرق انا لله وانا اليه راجعون » قال هذا وهرب مع الهارين .



عظيم النامية

مدراء النواحي في العراق اصغر الموظفين الاداريين منزلة ، واقلهم راتبا ، ولكنهم اكثر هؤلاء تماسا بآرباب الارض ، وكبار الاقطاعيين ، وذوي الاملاك الواسعة ، والشيوخ المتنفذين ، وهم من جهة الادارة مسيطرون على هؤلاء ، فهم حكامهم الحقيقيون ، بيدهم قانون العشائر والسلطة الادارية الواسعة النطاق وقد ادى هذا التناقض بين الحاكم القليل الالهية ، والمرؤوس الكبير الالهية الى حوادث مضحكة مبكية ، وقصص غريبة مسلية .

روى لي ملاك كبير من ملاكي اراضي الجنوب الواسعة قال عينت متصرفية لوائنا في عهد الاحتلال لناحيتنا مديرا جديدا قد تخرج حديثا من كلية الحقوق . فتهامس الشيوخ والفلاحون شامتين وتوقعوا نوادر كثيرة وحوادث مضحكة مسلية عديدة . فقد ادركوا ان المدير الجديد (قشيم) على حد تعبيرهم اي غشيم . وصل المدير الجديد الى مملكته ، وكان اتيق البزة ملتحم الشعر دقيق الشارب ضئيل الجسم جميل الوجه .

واستقبله افراد الشرطة عند الباب بتحية عسكرية بالبنادق ، وتقدم منه المفوض او مأمور المركز فسماه (بيكا) ثم دخل عليه الشيوخ والملاكون وبعضهم يجالس الميجر فما فوق . وبعضهم يملك من الاراضي ما يدر عليه

ذهبا يعادل اضعاف ما يصيب الخزينة من الضرائب في تلك الناحية وعنده من الاتباع والوكلاء من يساوي دخله دخل متصرف اللواء نفسه من راتبه الحكومي وناداه الجميع بالبيك وشعر البيك لأول وهلة بأنه بيك حقا ، وانه يستطيع بما منح من سلطة قضائية عشائرية ان يهرب هؤلاء كلهم ويخضعهم لسلطانه .

وقدم متصرف الناحية ، اي مأمور المركز ، الى المدير قائمة باسماء جميع الاشخاص ذوي الاهمية في ناحيته واخبره بأنه سيدعى عند هؤلاء جميعا بالتناوب ، في حفلات متسلسلة متتابعة ، قد لا تنتهي حتى ينتقل هو من هذه الناحية . وبدأت تلك السلسلة من الحفلات والولائم ، فذهبت الخراف السميكة ، وعلقت القدور الضخمة ، واستوردت قناني المشروب بصناديقها . واتهم بعضهم تلك المناسبة فدعى معاوني الشرطة ومدراءها القريبين ، وبعضهم دعى متصرف اللواء ايضا والحكام السياسين ضاربا بذلك نرا وغرابا وعصفورا بحجر واحد ، وكانت كل دعوة من تلك الدعوات تزيد البيك غرورا ، وتشمره بخطورة مركزه وعظم قدره .

ودفعته خبرته الضعيفة ، وقلة تجربته الى الاهتمام بمركزه اكثر مما تتطلبه الحكمة الادارية .

وقلت الولائم تدريجيا ، واوشكت ان تنتهي ، فراجع البيك المدير القائمة ، ووضع اشارة بالاحمر تجاه كل من ذاق دسمه وشرب خمرته ، ومتع انظاره براقصاته وراقصيه .

ومن بين كل هؤلاء رأى اسما لشخص لم يتذكر انه زاره او استقبله عند قدومه ، وكان اسمه نعيمور المطر ، فارسل في طلب المفوض . وسأله عن هذا النعيمور ، فضحك المفوض وقال « هو اشرس ملاك في هذه الناحية ، واكثرهم مجونا وسفاهة » . فقال المدير « ولكن يظهر انه بخيل مقتر ، او

فقير معدم» فأجاب المفوض « هو على العكس من ذلك ذو ثروة طائلة ، رغم انه ليس من طبقة الشيوخ ولامن العشائر المهمة ، فهو من فخذ من عشيرة غير مشهورة » . فقال المدير « هل هو صديق لكاتبين او لميجر وهل له سلطة في الحكومة ؟ » فأجاب المفوض « انه يعرف بعض هؤلاء ولكنهم صفار وصداقته بهم موطن ريبة ، وتروى عنه قصص شنيعة ، وهو يحل مشاكله بطرق خاصة ، اذ لديه من الاتباع المسلحين عدد كبير ، وهو بينهم شجاع لا يخشى احدا ولا يستطيع التجاوز على اراضيه اكثر الشيوخ قوذاً واذا اردت ان تتعرف به فهو اليوم مدعو معنا الى الحفل الذي سيقمه الشيخ مدور فهو يلبي الدعوة اذا كان فيها غلمان يرقصون » .

وفي مساء ذلك اليوم حينما التأم عقد المدعوين . ودارت الكؤوس على الجالسين دخل نعيور المطر ، فقام له القوم . الا المدير فقد بقي جالسا يتفحص ذلك الملاق ، فرآه اسود السحنة ، طويل القامة ، عريض الاكتاف كبير البطن ، خفيف الحركة ، متنطقا بالرصاص ، ووراءه عدد من اتباعه . واتبه القادم الى المدير ، الذي لم ينهض عند دخوله . ولم يهتم به . وادرك انه مدير الناحية ، ولكنه اراد ان يتجاهله فأل صاحب الدار « من هذا الافندي الحليو ؟ » فقال صاحب الدعوة « الا تعرف البيك المدير الجديد ؟ » فأجاب نعيور مقهقه « لقد ظننت المدير رجلا عجوزا كالمدير السابق ، ولو كنت اعلم انه فرخ جميل ، لدعوته قبلكم جميعا » . وعندها اجاب المدير « اما انا فما كنت اظنك قليل الادب الى هذا الحد ! » .

ومد نعيور يده الى مسدسه بحركة سريعة انعكاسية ، ولكنه لم يلبث ان ردها وقال مقهقه « عفوا حضرة البيك المدير ، فقد قصدت المدح لا الذم ، وادب المرء لا يظهر عند اول مقابلة ، واوئل ان اريك من ادبي ما يشهد لك بانني لست كما توهمت » .

واسرع صاحب الدعوة حسما للنزاع ، الى فتح مجلس الطرب . ودخل

غلام امرد (فرخ) قد حشى صدره بالقطن ، وبدأ يتقافز على نقرات الدبك ، ويرقص بخفة رقصا مدهشا ، واتشى نعيور بعد ان شرب مقدارا من الخمرة الصرف فهض وقابل الراقص فرقص بخفة لا تقل عن خفة رفيقه ، رغم ثقل جسمه . واراد المدير ان ينتهز تلك الفرصة لتحقيقه فقال . « يظهر ان الشيخ نعيور كان (فرخا) يوم كان صبيا » .

فاجاب نعيور « اجل يا سعادة اليك . من الناس من كان فرخا وهو صغير ، ومنهم من ينقلب فرخا وهو كبير ، والله في خلقه شؤون » .

وفي غداة ذلك اليوم دعى المدير المفوض ، وقال « ان هذا الكلب الوقح يحتاج الى تأديب ، ولدي سلطة عشائرية واسعة ، فخبيري ما هو السبل الى اذاه . فاجاب المفوض اني انصحك بعدم التعرض له ولا يغرنك حلمه البارحة ، فشورره لا حدود لها ، وله في الانتقام قصص مرعبة ، واذا كنت مصرا على مطاردته فهو يرتكب كل يوم ما يستحق عليه السجن ، اذ هو يحل مشاكله بنفسه دون اعتراف بوجود حكومة ، وقد قدم احد جيرانه اليوم اخبارا عنه مدعيا بانه قد تجاوز على ارض اميرية ، يريد هذا المشتكي ان يضع يده عليها قبله . ومع ان هذا الثاني لا حـق له في الامر ، الا انك تستطيع ان تستفيد من هذه الحادثة لتشفي غليلك » .

فسر المدير وقال « هذه فرصة ، فأرسل وراءه بعض افراد الشرطة واستقدمه » . فقال المفوض لو ذهبت اليه ثلة من الشرطة لرجعت فزعة هاربة ، ونحن نعلم مبلغ قوته ، فادعه متلطفا اذا اردت منه القدوم » .

وارسل المدير بطلبه مع رسول ، وجاء صاحبنا ، ولما دخل على المدير رآه مقطباً ، وفاجأه بقوله « لقد اعتديت على الاراضي الاميرية ظانا بان الحكومة لا تستطيع عقابك ، سأسجنك ثلاثة ايام هذه المرة ، واذا عدت الى مثلها حلقت شاربيك » .

فضحك نعيمور ، ونادى خادمه ، واخبره ان يرجع الى اهله فينبئهم بأنه في ضيافة المدير ثلاثة ايام ، ولما خرج الخادم قال للمدير مداعبا وعيناه الصغيرتان تبرقان في وجهه « لو لم اقل لهم ذلك لهجم على دأثرتك مائة فارس مسلح ، ولحدث مالا تحمد عقباه ، وبما اني قد بدأت احبك ، فأني سأسهل لك عملك » . ولان المدير قليلا ، وكان المفوض مشدوها اذا لم يعلم كيف حدث ذلك ، ولما اختلى بالمدير قال « لا تستطيع ان افهم كيف ان هذا النمر الشرس يصبح طيعا كالحمل الوديع » . فاجاب المدير ان الجبن هو الذي يطعم هؤلاء الكلاب » .

وانقضت الايام الثلاثة وكان نعيمور والمفوض والمدير يجتمعون خلالها مرارا فقد زالت الكلفة بين الثلاثة ، ورأى المدير ان الالاحاح على الرجل قد يفقده زمامه مرة اخرى ، وقال نعيمور للمدير في نهاية مدة سجنه « اني ادعوك انت والشرطة والمفوض الى مضيبي اليوم ، لارد لك كرم ضيافتك » . وقبل المدير الدعوة مسرورا واخبر المفوض بأن دور الشخص الاخير في القائمة قد حل » .

وكان مساء حافلا فقد جمع نعيمور كل اتباعه فتقاطروا بأسلحتهم ، وملأوا المكان ، وابدى من الكرم ما لم تسمع به عشيرته قبلا ، وكانت صناديق الوسكي مبدولة ، والخراف المشوية والمطبوخة لا يحصى لها عدد ، فأكل القوم وشربوا ، وحان دور الانس ، فاستقلوا في غرفة فسيحة حيث بدأ رقص الغلمان المعتاد ، وقدم صاحب الدعوة للمدير زجاجة مختومة وقال « هذه خاصة بك وهي من شراب نادر » وهمس شيخ في اذن صاحبه « سيفعلها اللعين مع هذا المسكين » . وشرب المفوض والشرطة وسكروا حتى رأوا الديك حمارا .

اما البيك المدير فما كاد يشرب بضعة كؤوس من تلك الزجاجة الخاصة حتى شعر بتخدر ، ثم اخذ يتهاوى على نفسه ، برغم انه لم يفقد حواسه ،

وعندما انتهى الاحتفال قام مترنحا يريد الانصراف ، فقال نعيمور « الى اين يا بيك ؟ وكيف تستطيع الانصراف وانت بهذا الحال ، او تظن ان كرمي وادبي وحسن ضيافتي تسبحان بذلك ؟ » وما كان المدير بحاجة الى مثل هذه الدعوة ، فقد قبلها شاكرا . واقتاده مضيفه الى غرفة اثيقة صغيرة يفصلها عن اخرى كبيرة نافذة ضيقة وقال « هذه الغرفة خاصة بك اما الاخرى فلحاشيتك » .

واستلقى افراد الشرطة على اسرعتهم وقد انهكهم الافراط في الاكل والشرب ، وما كادوا يشخرون حتى اجابهم المدير بشخير اعلى ، واستيقظ المفوض على صوت حركة غير اعتيادية في غرفة مديره ، فنهض وتطلع من النافذة الضيقة ، فرأى منظرا عجيبا جعله يفتح فاه دهشة فقد كان البيك مع مضيفه يكملان السهرة على طريقة نعيمور الخاصة .

وسكت الراوي ، اي الملاك صاحب القصة ، وهو يقهقه فسألته « لم افهم المغزى من قصتك فماذا رأى المفوض » . فقال « لقد رأهم يضمنان (بهي) » .

فقلت « وما بهي هذه ؟ » فأجاب « انك عظيم البلادة كثير السؤال الم تسمع بقصيدة رؤوف الجبوري التي ورد فيها تفسير هذه الكلمة .

وصنموا به بهي مثلما قد صنع القاضي مع الجحش

ثم مضى الى حال سبيله ، دون ان يترك لي فرصة لسؤال آخر وها انذا اضرب اخماسا بأسداس لأعلم علاقة القاضي بالجحش . اما من يريد جوابا شافيا فما له الا ان يسأل من الاستاذ رؤوف الجبوري عن ما استعصى علي وعليه فهمه .

المجموعة الحادية عشرة

قلوب ظمأى

الأهداء

الى الاحرار الذين يقاسون ما تقشعر من قساوته الابدان وتشيب لهوله
الولدان ، في سبيل الحرية ، وعلى ايدي من يدعون اهم حماة الحرية ،
الى ضحايا اكبر افتراء على الحق ، عرفه او سيعوفه التاريخ عاجزا
لا يملك اكثر من هذا ، في سبيل رفع الظلم والانتصار للحرية والعدالة •
ذو النون ايوب

كلمة لا بد منها

هذا نفس طويل عميق ، بعد انقاس متقطعة خفيفة • فالاقوال تحصى على قائلها ، والاسطر تعد على كاتبها ، ثم يحفظ كل ذلك في اللوح المحفوظ الى يوم الدينونة •

لقد قدر لي ان امر بيوم الدينونة هذا ، وان اقف أمام وكلاء الارباب لاداء الحساب •

كان ذلك يوم انعم الارباب على الناس بالحرية بعد ان هاج الناس اثر سفك الدماء •

كنت من جملة من صدق آنذاك ان الحرية تخلع على الناس كما تخلع الخلع ، ودفعني الغرور الى تجربة جديدة من تلك التجارب التي اخرج منها دائما فاشلا خسران أسفا •

لقد اردت ان اكون نائبا عن الشعب • بعد الاتكال على الله ، وعلى تلك الحرية الموهوبة للشعب حديثا •

وكان بيني وبين النجاح خطوة صغيرة جدا ، وكان الفضل في ذلك يرجع الى طيبة الشعب وشهامته • واني لا اعترف شاكرا بانه قدرني اكثر مما استحق ، كرما منه وبلا • فأزدت به ايمانا فوق ايمان •

استكر ارباب الحل والعقد هذا النجاح ، وارتابوا في مرايمه ، وخافوا

من نتائجه • فقامت القيامة ، ونشر من في القبور ، وحشرت انا وكل من
اتصر لي في السجون ، واخرجت الالواح المحفوظة ، وحل يوم الدينونة ،
وتقدمت لاداء الحساب عن حماقتي الاخيرة •

ونشر امامي سجل جرائمى ، فاذا به لا يحتوى الا على ما نشرت من
كتب ، هي تلك الانفاس القصيرة ، انفاس عقلي الفضولي ، وعواطفى الفجة
الطيبة ، ورغباتى الساذجة في اداء قسط من الخدمات الاجتماعية •

وتضرعت لاولئك الارباب ان يغفروا لي هذه الهفوة ، وتخلت عن تلك
الاطماع ، ففاز بها رجل امي • واتفى الغرض من اداتى ، وما كان قصد
الارباب ان يحاسبوني على انفاسى فاطلق سراحي ، وما كدت احس بأن تلك
اليد الثقيلة ترفع عن عاتقى ، حتى اطلقت ساقى للريح ، ودخلت دارى
واقفلت الباب ، وبقيت طيلة يوم الدينونة خائفا اترقب • فالارباب قد
استطابوا الفتك لا يسألون عما يفعلون ، لعلهم ندموا على اطلاقى
وقرروا التخلص من فضولى نهائيا ، وما عليهم ، لو ارادوا ذلك ، الا ان
يسدوا كلاليتهم ، ويسحبوني ويرموا بي في الدرك الذى يعجبهم من جهنم
الواسعة التى اعدت للمشاغين •

وكتبت انفاسى طيلة يوم الدينونة الرهيب الذى استمر سنة ونصف
السنة ، وما انذا انتفى نفسا عميقا بعد زوال ذلك الكابوس ، نفسا يعوض
ما مضى ، ويسمفنى اذا ما قرر الارباب ان يعيدوا يوم العقاب عن قريب •
واني اعد الارباب ان اجتنب كل ما لا يرضيهم أما هذا الكتاب وامثاله ،
فهو انفاس من يحيا ، واذا ما كتتم الحى انفاسه فقد الحياة ، وانا انا مكره
لا بطل • ولعل هذا يفيدني يوم لا ينفع مال ولا بنون ، الا من اتى الارباب
بقلب فارغ من الحب والكراهة ، وعقل خال من كل ما يسمى به العقل عقلا •
وانا لهم وانا اليهم راجعون •

اسير وأسرة

كانت تغني بصوت شجي ناعم عذب النبرات دون تكلف او جهد ،
وما كانت تشير بطرف العين ، ولا بطرف من اطراف الجسم ، وما كانت
تقوم بما اعتادت الرواقص ان يقمن لاصطياد زبون من الزبائن والسطو
على عقله فجيبه ؛ بل كانت هادئة في حركاتها ، لطيفة في غنائها ثغرها بسام،
وفي نظراتها احلام.

قلت لصاحبي « يندر ان يجد المرء جمالاً ساحراً ، وانوثة في صالات
الرقص هذه . وهذه الراقصة من النوادر انها ودیعة رقيقة ، فأية ظروف
قذفتها فوق المسرح يا ترى ؟ لا اعتقد انها تستطيع ان تباري الراقصات في
صيد الرجال » .

فسمعتة يضحك ، فالتفت اليه ، فأشار الى احد الشبان القريين منا .
كان وجه الشاب شاحباً كوجه تمثال من شمع ، وكانت عيناه ساكنتين
عالتين بوجه المغنية ، كأنهما مقيدتان به تقييداً . كان الفتى وسيماً رقيقاً
تبدو عليه مسكنة مفجوع وذلة مسحوق الفؤاد معذبة .

كان في العقد الثالث من العمر كما يبدو من مظهره ، وفي بلهنية من
العيش ، كما يظهر من هندامه واثاقته . وسمعت صاحبي يضيف هامساً
« هذا واحد من اسرارها ، ولكنه اكثرهم تعاسة وشقاء » .

فسألته « وكيف كان ذلك ؟ »

فأجاب « عندما يتقد جمر الغرام بين جوانح امثاله كما لا يخفى على امثالك ، يطلقون هائجين متمرين يبحثون ، عن فرائسهم بين الفتيات الغريات القليلات الحور ، فيحطون هذه او يستقون تلك في مهاوي الرذيلة او يستبكون مع اخرى في صراع مميت يقع كلاهما فيه سريعاً مهشماً . أما هذا الفتى المسكين فلم تكن لديه الجرأة الكافية لا لتحام مغامرة من هذه المغامرات ، بل قل اذا شئت ان أدبه ورقة عواطفه ونقاء سريره ابعده عن الاساءة الى الغير فأراد ان يطفىء نيران شبابه من ينبوع عام مطروق . واعانه على ذلك مال خلفه له الموروثون ، وان هي الا جولات قلائل في امثال هذا الرقص ، حتى اسرته العدوبة والركة والانوثة الحائلة انتي انت في صدها وحتى انت الذي لا تتأثر بالمظاهر قد خدعت ، فكيف بالغر الذي ترى ؟ والطريق الى التعرف بأمثالها مطروق معلوم له قوانين خاصة في انظمة المراقص - دعوة للراقصة تلبسها طائفة ، وقطرات في الكؤوس ترتشفها باسمة ، ولها دينار عن كل كأس ثمن التكرم بتلبية الدعوة ، تقاسمه مع صاحب المرقص ، وترشف الكأس برمشة عين ثم تطلب آخر وآخر . لقد بلغ حساب الفتى في اول جولة مائة دينار دفعها مغتبطاً فخوراً وهو مشدود مسحور ، وانزلت قدماء في هذا الطريق الموحل فتدحرج فيه وتمرغ ورصيده ينخفض وينخفض حتى لم يبق عنده غير الفتي دينار . واتبه الفتى فوجد انه قد ازداد ظمأً حتى التهب جوانحه ، فرمى بسهم اخير ، او تدري ما فعل ؟ »

فاجته حائراً « لعله قدم لها ما تبقى مرة واحدة ؟ »

فأجاب « هكذ فعل ، ولكنه اشترط عليها الزواج » .

فتساءلت مبغوتا « او فعل ذلك حقاً ؟ يا له من انسان نبيل او لسم تنهز تلك القرصة ؟ ان الغانيات كما اعلم يحلمن بمثل هذه القرص واشدهن

• رغبة في الامر امثال هذه دون شك » •

فقال ساخراً « هكذا تظنون معشر الادباء • ان امثال هاتيك النسوة اللواتي يترامى على اقدامهن الصغير والكبير ، واللواتي يجدن المال متى اردن ، لا يشاركنك في هذا الرأي • لقد رفضت هبته ويده معا » •

فقلت « رفضها يرفعها في نظري » •

فأجاب ساخراً « لقد رفضت ، لانها لم ترغب ان تتقيد بوعده او تلتزم بعقد ، او ان يؤول الامر الى الشكوى ، والا لآخذت الدراهم وقذفت به بعيداً ، فكانت بعملها بعيدة النظر ، وما قيمة الدرهم عندها ما دامت تجده متى ارادت بطرق اكثر امناً واقل شراً ؟ »

كان دور المغنية قد انتهى ، فمرت بنا تبختر مختالة بفروها الثمين ، واوامأت الى صاحبي مسلمة ، فرد تحيتها بأحسن منها •

فقلت له « ادعها ما دمت تعرفها » •

فقال « على ان تكون انت الدافع » •

فقلت « لا بأس ففي جيبي دينار واحد لها » •

واتت فهش صاحبي لها وبش ، وقام بواجب التعارف ، ولاحظت الاسير يستدير في جلسته ليواجهها ، وسررت لاني قربتها منه الى هذا الحد • واتى النادل يحمل كأساً فيه قطرات صفر كدموع سكبتها أعين مقروحة ، وتناولت زجاجة الصودا وصرت اديرها في الكأس جزافاً فاتبته وقالت « لا اشربه ممزوجاً بالصودا » •

فقلت « انت مخطئة فذلك اضمن لسلامتك الغالية » •

فبخ صاحبي بالضحك ، اذ ادرك الخبيث ما ارمي اليه • ولما ارتشفت نصف الكأس دفعة واحدة اسرعت بالحديث خوف فراغه ، واثرت الى الاسير قائلاً « تعرفينه اليس كذلك ؟ انه يعبدك كما ارى » •

فأجابت « اني لا احبه ، فعبادته هذه غل في عتقي ، ولست المسؤولة عن ضعفه » .

فقلت : « وهلا يروك ان تداوله ثم تطلقى سراحه ؟ »
فأجابت بأسمة « لا وقت لدي ، لو فعلت ذلك له ولا مثاله الكثيرين .
لمت جوعاً . انه واجبك معشر الادباء » .

فبغت وسألتها « وما أدراك انني منهم ؟ »
فقهقهت بصوت يشبه خرير جدول وقالت « لقد قرأت لك شيئاً كثيراً » .

وفجأة اخذت تترنم بشعر لعمر بن ابي ربيعة ، فسألتها « ولماذا لا تغنيه ؟ »

فنظرت في وجهي ساخرة وقالت « لمن ؟ هؤلاء ؟ » وأشارت الى من حولها من الرجال بأشمزاز ، ثم عادت تقول « سأغنيها لك ولصديقك اذا اردتما ، ولكن في غير هذا المكان » .

فقلت لها « رويداً ريثما ينتفخ جيبي » .
فقلت : « لا اريد مالك ، بل اكتفي بقلبك ، اذ يعجبني ان تكتب غني مثلاً » .

فصرّ صاحبي وقال « فكرة صائبة ، والاعلان للتاجر مهم في سوق التجارة الحديثة » .

وعند ذلك طلبت الغانية النادل ، واخبرته بأن كأسها لا يخضع لنظام البار ، واضفت الى قولها « اذن فخذ هذا الدينار وقدم به وسكي لا يخضع لنظام البار ، ولا لقوانين حسن الجوار » .
والتفت الى الاسير قائلاً « هلا شاركنا السيد وله علينا المنة ؟ »

فنهض وقد شحب وجهه شحوباً رهيباً وقال بصوت مرتجف :
« لم يبق صاحبك ما تجهله من امري فبارك الله فيها هذه الليلة ،
ونست بحاجة الى ان احذرك » • ومضى لا يلوي •

فقلبت الحساء شفتيها وراءه احتقارا وتمتمت « سخي » ، ثم
التفتت الي وقالت « لقد اخطأت في دعوته • لقد انقلب شريراً في الآونة
الاخيرة ، ولست ادري ما انا صانعة معه • اني لا اخشى امثاله ولكنه يثير
الشحناء حولي » •

وأكينا على الشراب راغبين ، واتشينا ، وسرعان ما تحفزت الحساء
للقيام تلبية لدعوة اخرى فعاجلها صاحبي بقوله « ومتى سسمع قصيدة
ابن ابي ربيعة ؟ »

فقلت : « بعد ما نقرأ قصة صاحبك » •

فقلت « وعد الحر دين

قال صاحبي ونحن تتحضر للقيام « قد قبضت العربون فاشحذ
قريحتك وارجو ان يكون ذلك قريباً » •
فقلت « مادام البحث لا يجر الى الياسة وما يتبعها من أهوال
قالا امر سهل جداً » •

وها انا ذا قد فعلت او تراني قد وقعت ؟ ؟

مكر الله

في بلد من بلاد الله وقعت حوادث هذه القصة بحذاقها دون زيادة
او نقصان . واستيح القاريء عذراً بالتلميح دون التصريح ، فالحوادث
سياسية ، ولست اتوخى السياسة فيما اكتب ، على اني لا اتردد في الغوص
الى اعماق لججها لو رأيت درة بين اصداق بحارها

البلد ديمقراطي في عرف السياسة : لان السياسة شاءت ان تسمى
المملكة التي تضم ذلك البلد ، مملكة ديمقراطية . اما سكان البلد فيجهلون
المعنى السياسي لهذه الكلمة جهلاً تاماً ، فهم غير ديمقراطيين والا لصح ان
نسمي الامي عالماً ، واظن هذه التسمية من قبيل اطلاق الجزء على الكل .

اما هذا الجزء الديمقراطي ، من ذلك الكل غير الديمقراطي ،
فقسمان قسم قد قرأ الكلمة في الكتب ، ودرس اخبارها العالمية في
الصحف ، ولكنه لم يتح له ان يطبقها في الحكم . وقسم قد طبقها في
الحكم ، دون ان يقرأها في بطون الكتب ، ودون ان يهتم بمفاهيمها العالمية،
ولا بأسها العلمية . والثاني اقل من الاول بكثير ، اذ لا يتجاوز افراده
العشرين عدداً ، يتناوبون السلطان ، ويتداولون الاحكام ، يسنون ما
يريدون من قوانين ، ويفرضون ما يشاؤون من أنظمة ، ويطبقون ما
يجبهم من مناهج ، مدعين ان كل ذلك في صالح الشعب الجاهل ، وما دام

الشعب جاهلا ، فلا حق له بمناقشة امر او ابداء رأي في شىء ، وقد يحدث بين هذا النفر القليل خلاف ، فيكون ذلك الخلاف برهانا على ان الديمقراطية قد استكملت شروطها ، وهل ثمة دليل اعظم من وجود المعارضة ؟

وان بجانب هذين القسمين قسما ثالثا ، هو جزء جد قليل من افراد الشعب وسواده ، يصح ان نعتبرهم عصريين ، منهم ادباء غارقون في المثل العليا والاخيلة الجميلة ، ومثقفون قد اوصلتهم الثقافة الى حد التورط في المبادئ الهدامة او الالحاد البغيض ، ومتدينون ورعون لا يؤمنون باصلاح العالم الا بظهور ولي جديد يحيي مآثر دين قديم ، ولا بأس في ان تكون آيته عصرية تعتمد على المسدس والديناميت .

الاکثرية المحكومة كما رأيت لا حول لها ولا قوة ولا سلاح سوى القلم واللسان والبيان . أما الاقلية الحاكمة فلها الحلول والقوة ، بيدها الانظمة والقوانين ، تلعب بها كما تريد ، وتفصرها كيف تشاء ، ومن ورائها جيش لجب من الشرطة والجنود والحكام والجوايس والسجانين .

ونشبت الحرب بين هاتين الكتلتين منذ وجدتا ، ولا زالت هذه الحرب مستمرة ، وستبقى كذلك حتى ينعدم الفرق بين مفاهيم هذه الكلمة الغريبة المحيرة « الديمقراطية »

والحرب كر وفر كما لا يخفى على القاريء ، واتيحت للمحكومين المغلوبين على امرهم فرصة نادرة فاتhezوها وهجموا على اعدائهم هجمة موفقة فقر الحاكمون وكر المحكومون .

وابرز الغالبون اسلحتهم ، فخطبوا وكتبوا ، والبوا الناس حولهم وتظاهروا في الشوارع ، الى غير ذلك مما يسمى فوضى في عرف الحاكمين ، واستطاعوا فوق ذلك ان يفرضوا على الحاكمين بعض مفاهيمهم السياسية ، واضطروهم ان يعترفوا بأن من ينوب عن الناس في المجلس النيابي ، هو

ذلك الذي ينتخبه الناس ، لا الذي تعينه الحكومة ، فاضطر القارون موقتا ، تحت ضغط الكارين موقتا ، ان يسمحوا بتلك القوضى موقتا ، ويطعنوا كارهين ان من حق الناس ان ينتخبوا من يمثلونهم في المجلس النيابي •

وشرع الناس ينتخبون نوابهم فعلا ، واحداثوا من الشعب والهرج والمرج ما كان دليلا بيد الفئة الحاكمة على هذا الاسلوب الذي ادخله الشيوعيون في الديمقراطية للهدم •

وفي وسط معركة الانتخابات ، التي خاضها انصار الطرفين ، انقلبت الآية ، فقر الكاروكر القار ، ووجد انصار مرشحي الشعب انفسهم في قبضة السجون •

اجتمع في سجن البلد اديب مثالي ، وشيوعي هدام وكاتب متفلسف .
زنديق مع عدد من المتقشفين الاتقياء •

ورغم تشابه هؤلاء في الهدف ، وهو كره الحاكم ، فهم مختلفون اختلافا شديداً ، بحيث لا يمكن ان يجتمعوا في غير السجن • وكان الى جانب هؤلاء عدد هائل من المجرمين ، وغير المجرمين ، من سواد الشعب ، قد كبس كبساً في دار ضيقة انتظار يوم المحاكمة الذي قد يتأخر سنة فأكثر ، ولا اهمية للموقوف ، بريئاً كان ام مجرماً •

واضطرت ادارة السجن الى جمع الموقوفين الذين ذكرناهم ، في غرفة واحدة ، وجعلتهم بمعزل عن سواد الشعب خوف انتشار (فسادهم ! !) بين المجرمين والقتلة •

وهكذا اضطر اصحابنا اضطرارا الى السكنى تحت سقف واحد ، يأكلون ويشربون وينامون معاً ، ولا يجد احدهم مناصاً من ان يصغي الى آراء رفيقه ، التي لا تعجبه كارهاً •

كانوا متذمرين ناغمين حاقدين ، مؤمنين بانهم مظلومون معتدى عليهم ،

فلم يتجادلوا في هذا الامر ولم يتناطحوا فيه • وبدأوا يومهم الاول وهم في تعارف وتآلف ، يكرم بعضهم بعضاً ويواسيه ويصبره ، حتى اذا حل موعد الصلاة قام مؤذن بين المصلين ، ولعلع صوته وسط المساجين المتفرجين ، ثم صلى التقة خاشعين ، وختموا صلاتهم بالدعاء على الظالمين « اللهم شت شمل الظالمين • اللهم اجعل دائرة السوء تدور عليهم » •

فأبتم الاديب وبدت على وجهه علامات الاستحسان والرضى ، فالتقت اليه الملحد وقال متسائلاً

« او تؤمن من حقا بأن شمل الظالمين سيتشت ؟ وان دائرة السوء ستدور عليهم بمجرد هذا الدعاء ؟ »

فأجابه الاديب « ما داموا مؤمنين بذلك فهم سعداء • ان الايمان شيء جميل • انه محور حياة الانسان الذي لا يعيش بدونه » •

فأجاب الملحد ساخراً « اذن فكيف تراني اعيش انا ؟ »

فقال الاديب « انت ايضا مؤمن بشيء • انك تؤمن بالعلم ، كما أعلم تؤمن بالاسباب والنتائج ، وايمانك قلق مضطرب لا يمكن ان يصل الى درجة ايمان هؤلاء الاتقياء ، ولذلك تراهم اكثر منك راحةً وهدوءاً وصبراً

ورفع الشيعي عقيرته متباهياً معلناً عن رأيه فقال الدعاء على الظالم سلاح العاجز فمن اراد ان يشت شمل الظالمين فلينبه المظلوم ، ويحرضه على الثورة والعصيان ، ويجعل من الشعب سوطاً من اسواط الله ونقمته ، ولا واسطة لذلك غير الخطابة » •

فرد عليه احد المصلين ساخراً « دونك الشعب خارج هذه الحجرة ، فهلا قست فيه خطيأ ؟ »

فقال الشيعي « ان قانون السجن يمنع ذلك مع الاسف » •

فضحك الاديب وقال « ولكنه لا يمنع الصلاة والدعاء » •

ثم التفت الاديب الى الملحد وقال « هذا انسان آخر لا يؤمن بالله بقدر ما يؤمن بالشعب ، ولعله لو تعمق في ذلك لغدا ايمانه جميلا رائقا » •

وعندها التفت الملحد الى الاديب وقال متحدياً « قد عرفنا كلنا آلهتنا عن طريقك ياسيدي ، فهلا عرفتنا بالهك ، وبما تؤمن به ؟ »

فقال الاديب « اؤمن بالانسان كله • اني اؤمن بكم جميعا وبما تؤمنون به » •

ودأب المصلون على صلواتهم ، يؤدونها بانتظام خاشعين ، ودأبوا على تكرار دعائهم في آخر الصلاة « اللهم فرق شمل الظالمين • اللهم اجعل دائرة السوء تدور عليهم » •

ومال الامد على الموقوفين واستمرت معركة الانتخابات خارج السجن ، وقد رجحت كفة الفئة الحاكمة رجحانا يينا ، وكاد المتوردون ، الذين يبعون التغيير ، يولون الادبار ، وكانت تلك الانباء تصل الى الموقوفين مع الزوار والاصدقاء ونقلة الاخبار • وقال الملحد يوما متفكها اثر سماعه دعاء المؤمنين « أيها الاخوان يلوح لي ان الله لا يتدخل في السياسة ، فلماذا تريدون اقتحامه فيها بمثل هذا الدناء الملح ؟ »

فرد عليه احدهم مصراً « ان الله يتدخل في كل صغيرة وكبيرة وهو على كل شيء قدير • انه هو السميع المجيب ؟ »

واضاف الشيوعي مقبها « اترام سيتدخل في الانتخابات ؟ »

فقال الاديب « من يدري ؟ »

وفي نهاية الاسبوع الثاني دخل السجن خبر غريب ، هاج له الموقوفون وماجوا : وهلل له المصلون وكبروا • وتفصيل الخبر ان المرشحين الاعلى ان ارادوا ان يحتفلوا بانتصارهم على المرشحين الادنين ،

فدعا احدهم رفاقه الى سهرة ممتعة في بستان نضر يشرف على النهر ، تضم راقصات وراقصين ومطربات ومغنين ، فسكروا حتى عربدوا ، وانطلقوا انطلاقاً سبب استياء قسم من الحاضرين وادى الاستياء الى مشادة بين الداعين والمدعويين ، وانهت تلك المشادة بحادثة غريبة ، فقدت راقصة شهيرة من الحاضرات تابعها الامين وخدامها الوفي ، ورجعت بدونه .

وترب الخبر الى اهل المفقود ، والى الناس جميعاً ، ففتوح بعض الصعاليك للبحث عنه في محل الحادث ، وغاصوا باحثين عنه في الشاطيء المجاور لذلك البستان ، واتشلهوه ، ميتاً وعلى جسمه جروح ورضوض .

وارادت السلطة المحلية ان تسدل ستاراً على الحادث ، وتعتبر الوفاة قضاءً وقدرًا ، وان المفقود سكر وسقط دون وعيه من فوق الجرف ، وربما كانت الحقيقة كذلك . ولكن الناس ارادوا غير ذلك ، فنشروا الخبر بسرعة البرق ، وعللوا الحادث تعليلاً قد يكون بعيداً عن الحقيقة بعد السماء عن الارض ، والقوا التهمة في اعناق الاسباد المرشحين ووضعوا تفاصيل الحادث ، فكانت قصة فظيعة ، سداها التشهير ولحمتها الفضيحة . ولم يكتفوا بذلك ، بل نظموا القصائد والاهازيج في وصف الحادث ونشروها ، حتى صار الاطفال يتفنون بها في الشوارع ، واضطرت السلطة الى اعادة التحقيق ، والاهتمام بالامر اهتماماً جدياً ، تطميناً للرأي العام الذي هاج هياجاً اخلاقياً ادبياً لا سياسياً هذه المرة . فوضعت اسماء هؤلاء المرشحين في قائمة التهمين ، واضطرت الى اجراء التحقيق معهم .

ورأت السلطة العليا من الاصلاح عدم استمرار مرشحها في معركة الانتخابات ، واوزت اليهم بالانسحاب ، ورجعت كفة المعارضين وفازوا فوزاً مينا .

وارادت السلطة ان تلهي الرأي العام الهائج فقررت اطلاق سراح الستة .

قال المصلون وهم يودعون رفاقهم بعد ان خرجوا جميعا من السجن
« مكروا ومكر الله والله خير الماكرين » •

فقال الملحد ساخراً « اشكروا خسة طباع اعدائكم فالفضل لها في
الوصول الى هذه النتيجة » •

وقال الشيوعي جادا « ان الشعب هو صاحب الفضل ، فلولا تدخله
بأهازيجه وقصائده ، لما خضع اولو الامر للواقع ولما اضطروا الى
مجاراته » •

فضحك الاديب وصاح بهم موقفاً « كل ما تقولون صحيح • فأنتم
مشفقون رغم اختلافكم ، ولكن يستحيل عليكم ان تدركوا ذلك • كلكم
يكاد يقتله الظمأ الى الحرية فهلا تعلمتم كيف تطفنون هذا الظمأ القاتل ؟ »



سراب

السماء الزرقاء صافية تعكس ظلها واضواءها على صفحة النهر الصقيلة
والنسيم يهب عليلًا رخياً منعشاً والطبيعة حواليه ضاحكة جميلة تبعث
البهجة والفرح الى النفس •

والبدر قد برز بسكونه وجلاله كقرص من الشمع فوق حافة الافق
يبعث في النفس رهبة الاجلال والاعجاب ، ويرسل انواره في الكون ترسم
الظلال ، وتبدي مكامن الجمال ، وتفيض على الوجوه رونقا سحريا •
ها هي الطبيعة قد انقلبت انقلابا عظيما رائعا بعد ان نهض البدر في
الافق ، كانما قد مستها عصى ساحر •

وتنتم وهو غارق في ذلك السحر مفتون بذلك الجمال
« ما ابداع كل هذا وما ابهاء ! »

وهبت نفحة من النسيم فلامست وجهه بخفة ، فشعر بنشوة غريبة
حلوة ، وتذكر على الفور شعرا لا يحفظه عن النسيم حينما يقبل الوجوه ،
وفهم كيف يقبل النسيم الوجوه في تلك اللحظة فقط •

واكتوى قلبه حينذاك بنار الذكرى ، فقد تذكر حبيبة • كم يتمنى
لو تقبل وجهه كما يقبله النسيم ، ولكن هيهات •
ان وجهها يشبه ذلك البدر ، ولها خفة ذلك النسيم وصفاء تلك الليلة

ورقتها • انه يتذكر جيدا ويعرفها جيدا ، ولكنه لم يكلمها ، ويحمل الا يكلمها كل حياته •

هو فتى سمح الخلق ، رضي الطبع ، هاديء النفس ، لا يعرف عنه انه قال كلمة سوء آذى بها انسانا قط ، ولم يتعلم من الحيلة والمكرما يؤهله لان يخدع عذراء من اولئك العذارى اللواتى قال عنهن الشاعر ان قلوبهن هواء ، وما كان الفتى مغرورا ، فظن ان خلو وجهه من قسَمات الجمال ودلائل الخنوثة هو علة اققرار حياته من انثى تعطف عليه ، ويش من الحب وهو في ميعة الشباب •

وكان يوما يحدث رفيقا له ، وكان منبسط النفس يكثر من الضحك ، والتفت وهو ضاحك فرأى نفسه امام وجه فتاة مارة يضحك في وجهه ، وجه كهذا البدر الذي اصبح ابيض منيرا بعد ان كان اصفر شاحبا •
فسهر من ساعته بفصة في قلبه ، وعلق ذلك الوجه بذاكرته •

ورأى ذلك الوجه الذي اثار ليل حياته بقبس من نور بعد ذلك مرارا وكان في كل مرة يرى في العينين نفس تلك النظرة الحاملة الوادعة تخترق شغاف قلبه ، وتنفذ الى اعماق نفسه فتثيرها كما ينير ذلك البدر ، الكون •

ولكنه لم يبادلها كلمة قط • انه ليخشى ان يفجع في حبه وينكسب في هواه ويستيقظ من ذلك الحلم اللذيذ •
انه ليتذكرها كلما رأى شيئا جميلا او قرأ شيئا جميلا او سمع بشيء جميل •

وان لحبيته الجميلة هذه لفضلا عظيما عليه ، فلولاها لكانت حياته مجذبة قاحلة ليس فيها الا رمال محرقة وسموم تلهب الابدان وتلدع الوجوه كالسياط •

انه ليتذكرها في تلك اللحظة كأنها امامه بوجهها الرقيق وعينيها
الشهلاوين الحاليتين الباسمتين ، انه ليتذكر عينيها اكثر من سواهما فيشعر
نحوها بحنين لطيف لا تكدره نار الشهوة العارمة ، ولا حدة الرغبة
الجامحة ، حين هو في حياته المتعبة كدهدة أم رؤم لطفلها المدلل عندما
تريد ان تنيمه •

اما اسمها ، اما حسبها ، اما علاقاتها بغيرها واحوالها العامة والخاصة ،
فلا يهمه منها كلها شيء • انها قد تكون متزوجة او غير متزوجة • انه ليكنفي
منها بتلك النظرة الودية الحاملة ، ولا يريد من دنياه شيئا اخر ، لا يريد
سوى تلك النظرة ، ولتكن صاحبها من تكون •

وتطلع الى البدر المنير ، وارهدف اذنه الى خفيف التسيم ، وفتح نفسه
لجمال الكون وتصور حبيته المعبودة بجانبه على تلك المسطبة العمومية قد
ادنت وجهها المنير من وجه الملتهب ، ونظرت في عينيه الظامئتين بعينيها
الحاليتين ، وادنت شفثيها الرطبتين فلامست وجته المحترقة • فشعر بوخز
ألم الحرمان في لب فؤاده ، وامتلات عيناه بالدموع وتدرجت على خدمه
دمعتان كانتا وانوار البدر تنعكس عنهما كلؤلؤتين وصفت عيناه بمد ان
فرغت من الدمع وعاد الى نفسه بعض الشيء ، فرأى بالقرب منه وجهها منيرا
كالبدر ، وعينين حاليتين كعين طفلة تنظران في وجهه واستنشقا انفاسا عبقة
كنسيم ذلك الليل •

وخفق قلبه بشدة وعنف • اترى المقادير قد غلظت فوضعت حبيته
التي لا يتمنى شيئا في الدنيا بقدر ما يتمنى وجودها في تلك اللحظة بقربه ،
وكيف اتت دون ان يحس بقدموها ؛ لقد كان غارقا في اعراض تلك النوبة
التي اصابتها فلم يشعر بقدموها وجلسها الى جانبه •

اتراها خيالا • ومد يده فأمسك بيدها دون حذر ولا خجل فرآها
تبسم وسمعاها تتكلم فتقول

« رأيتك تبكي فجلست الى جانبك • لعلني لم اضايك • اني اعتقد
ان وجودي بقربك مما يخفف بعض لوعتك » •

فسألها هامساً « ولكن من انت ؟ »

فأجابته « امرأة كما تراني من تلكم النسوة اللواتي لا تكمل السعادة
الا بوجودهن • اني لك هذه الليلة واعتقد انني قد جئتك في وقت الحاجة
تماماً » •

وفاحت رائحة عطر رخيص من ذلك النوع الذي تكثر بنات الهوى
من استعماله فأدرك انها ليست بحييته •

انها سراب •

وانتفض لا يلوي ، وسار في طريقه وقد اشتدت لوعته وازداد ألمه ، انه
ليشمر من نفسه بسراب بقية يحسبه الظمان ماءً



الآلهة الصغرى

هبت نسمة من نسمات الصباح فتلقتها حقول القمح ، الممتدة حتى
الافق ، بحفيف لطيف . وتمايلت السنابل اللدنة على سيقانها الطرية ،
فتولدت منها أمواج هينة ، سرت فوق ذلك البحر الزبرجدي . واشرقت
الشمس في سماء زرقاء لا أثر لندف الغيوم فيها ، كبحر ساكن صامت
صمت الاموات . والتقى البحر العلوي الازرق ، بالبحر السفلي الاخضر ،
عند الافق ، فاختلط لوناهما عند مشرق الشمس .

وارتمت قرية كبيرة على ساحل ذلك البحر ، شهباء اللون ، قد انتشرت،
في غير نظام ، أكواخها الطينية ما بين صغير كحجر الثعلب ، وكبير لا يزيد
كثيراً عن مذاود البهائم . لطخة من القذى على ساحل ذلك البحر الاخضر
البديع . وزهت خضرة القمح تحت تأثير اشعة الشمس الدافئة اشعة شهر
مارس، التي كانت تنفذ الى كل خلية من خلايا النبات ، وتبعث الحياة في
كل ما تقع عليه ، الا سكان تلك الاكواخ ، الذين حالت بينهم وبينها جدران
من الطين لا نوافذ فيها .

يوم جبل رائق بعد يوم عبوس اكفهر خلاله وجه السماء وهاجت
الريح فزجرت ، واومضت البروق ، وقصفت الرعود ، وجادت السماء بغيث
على أفقه مسبل . سيول تدفقت من السماء غير مشوبة ببرد الربيع القاصف

للسنايل فارتوت الارض واتعش النبت ، وارتاح الفلاح من عناء السقي مدة لا تقل عن اسبوعين . لذلك كنت تجد القرية فائمة بعد الشروق ، وليست تلك عادة الفلاح الكدود . فلا تبصر من الاحياء غير القنابر ترسل صغيرها انعاما غذية طويلة ، تأتي من السماء كهمس الملائكة . والسنونو توتوت ثم تنقض على الارض ، وتطير متدانية تحاول ان تجد ارضا مكشوفة تلقف منها طينة لبيتها الجديد .

وعلى بعد ميل من تلك القرية نهض قصر عظيم ، متين البنيان ، عالي الاركان ، لورآه فلاح بابلي ، بعث رفاته بعد ان ظلت ثلاثة آلاف سنة تحت تلك الارض التي عمرها يوما ، لظنه برجاً من ابراج الآلهة الشاهقة ، التي تنصب فيها الاقوات والفلال طيلة ايام السنة .

ذلك القصر المنيف هو منزل الشيخ ، وهو مالك تلك القطعة الواسعة ، واعداداً من امثالها ، ملك تزيد مساحته قليلاً عن مساحة بلجيكا بأسرها . ويملك الشيخ رقاب فلاحها والعاملين فيها جميعاً فالزراع والضرع ، والحيوان والانسان ، وحتى عناصر الطبيعة من شمس ومطر ورياح ، مسخرة لخدمته . او تراه بعد كل هذا يقل جأها او سطوة عن مردخ وانليل واتونابشتم ؟ تلك كانت آلهة وهمية لا يري عبادها منها غير ناصامها . اما هذا فآله حي يأمر وينهى ، ويحيي ويميت ، ويسعد ويشقي ، ولكنه برغم ذلك انسان فان معرض لكل ما يعصف بحياة الانسان .

تتبع الشيخ مغمغم قبيلة كثيرة العدد ، وكان ابوه الشيخ بدير يرهب بها القاصي والداني ، وما كانت مشاريع الري قد اتسعت هذا الاتساع فكان الشيخ الاب وعشيرته تعيش على (الخلوة) والغزو ، وارهاب المحاورين لا يتراز اموالهم . وكان ما يزرع من اراضي القبيلة آنذاك عشر ما يزرع منها الآن .

مات بدير دون ان يشاهد ذلك التطور في اساليب الري ، فخلفه الابن

الأكبر مطر ، وكان صلب العود قاسيا ، رهيب السلطان دوى اسبه خلال الثورة وبعد الاستقلال ، وعانت قاعات الدواوين في الدولة الحديثة من سطوته وقوذه ، فلانت له عن رهبة وملكته ، فازداد سلطانا فوق سلطان ، وطفى وتجبر على قبيلته ، حتى على افراد عائلته ، فساس اخوته بسوط من نار ، وضغط على كواهل اتباعه بيد من حديد ، فقتل وسجن دون ان يجد وازعا أو رقيبا . وعانى منه اخوته ما عانوا ، فلم يجدوا غضاضة في ذلك ، اذ ان شعائرهم القبلية ، وعاداتهم البدوية وتقاليدهم الريفية قد عودتهم ذلة الخنوع واحتمال المساواة . وعدا ذلك ، فقد كانوا صغار السن ، الا مغمغم شبيه اخيه في صفاته وموطن ثقته . و اشار مغمغم على اخيه ان يرسل اخوته واولاده الى المدن القريبة لتلقي العلوم العصرية والتربية الحديثة . فقد رأى ، عن بصرية ، بأن ذلك اضمن لحفظ مركزهم العريق ، واليق بجدهم الباذج .

وقضى مطر نجه ، فظف مغمغم ، وارثا أملاكه الواسعة ، وسيطرته الشديدة ، وقساوته المرعبة ، وزاد عليه غتوا وطفيانا ، حتى صار الفلاحون يهزجون في وصفه :

طمخ لله مغمغم وشالا اشهد بالله ما زليتو

أي ان مغمغم انحنى لله وحمله على كتفيه . اجل قولوا ذلك ولا تخافوا الزلل .

اما اولاد اخيه واخوته ، فقد افسدت حياة المدن فريقا منهم ، ورفع العلوم فريقا . فمن رفعه العلم واستهواه بسحره قنع بالقليل حتى غدت نثارة مغمغم كثيرة عليه . واما من افسدته حياة المدن فقد دفعه التهلك على الخمرة والميسر والتساء الى الاسراف المفرط ، بحيث لو وضعت أملاك آبائه الواسعة تحت تصرفه لما كفته سنة واحدة . وكان عزيز ، أكبر أولاد الشيخ الراحل ، من هذا الفريق الاخير ، وكان جريئا قاسيا متكبرا

كأبيه • ولما آل الملك الى مغمم اوقف عزيزاً عند حده واجبره على الاعتدال • وتمكر الجو بين العم الذي اراد ان يسطو سطوة اخيه ، وابن الاخ الذي يرى نفسه احق بالملك والمشيخة من عمه ، لانه الوارث الشرعي لآبيه • ومما زاد في الطين بلة ، ان مغمم كان عقيماً عقم لا يرجى شفاؤه ، فزاده هذا النقص الذي يعيب الريفي ، شراسة وتمسفا •

بعد ساعة من عمر ذلك النهار الذي افتتحنا قصتنا بوصف روائه خرج من باب القصر فارسان ملثمان ، قد التفتا بمبائتيهما ، واطلقا لجوادهما العنان ، متجهين الى المزرعة • فمرا بالقرية خطفا ، واصوات الفلاحين تحمل اليهما تحيات العبيد ، وسلكا وسط الحقل طريقا قد عبدته اقدام الماشية ، يحاذي جدولا كبيرا يسع قاربا • وكان طافحا بماء المطر • ورفع الجوادان رأسيهما ، وانطلقا غير ملتفتين الى النبات الشهي ، ولا الى الماء العذب ، ولا ريب فلا بد ان يكونا متخمين كصاحبيهما •

التفت عزيز ، وهو احد الفارسين ، الى رفيقه وسأله « بكم تقدر غلة هذا الحقل يا خلف ؟ لقد مرت مواسم كثيرة وانت تعمل سركالاً لنا • ان تقديرك يوثق به » •

فأجاب خلف « درّت هذه القرية وحدها في السنة الماضية ، بموسميها الشتوي والصيفي عشرين الف دينار ، وعلى هذا يكون وارد قراكم العشر مالا يقل عن مئتي الف دينار سنويا » •

فزمجر عزيز بقوله « وهل تعلم كم خصص لي هذا الملعون سنويا ؟ ألفا دينار فقط ، ولولا خوفه من جرأتي لساواني باخوته واولاد اخيه ، وخصص لي الف دينار كالنماذج من اقاربه التي تكفي بالعرف يملأ بطونها • ألفان من مئتي الف هي كلها ملك شرعي لي ، تالله لا قصمن عنقه » • فابتسم خلف وقال « ولكنه قوي واسع الحول ، كثير الانصار » •

فضحك عزيز وقال مستخفاً: « كل ذلك سيكون لي ما ووري التراب •
لم اضع وقتي عبثاً في المدينة • ان اكبر رأس فيها يهز لي ذنباً ، اذا ما لوحث
له بورقة من فئة المائة دينار • سحقاً لعلمي من بخيل » •

ثم فكر ملياً وقال « اسمع يا خلف • لا طاقة لي على احتمال هذا
الوغد اكثر مما فعلت • لقد فاتحتك بامر القضاء عليه مراراً ، فكنت تماطل •
انا لازلنا على اتفاقنا • ان نصيبك من الغنيمة القرية المجاورة ، فأنت زوج
شنونة ابنة عمته ، وبموته ستحرر التركة كلها ، فتتال شنونة حقها او
حقك » •

فأجاب الوكيل « لقد كنت انتظر فرصة مناسبة يا عزيز ، وقد حانت.
الآن • لقد هددني بالطرد من الوكالة فقد ارتاب بعلاقتي بك ، ولم يدر ان
هذا التهديد قد قرب اجله » •

« تقول ان الفرصة قد حانت فما هي خطتك »

تذكر المشادة التي حدثت بين الفلاح عموري وبين عمك قبل ثلاثة
ايام • لقد اشبعه عمك ضرباً بالهراوة حتى كسر ضلعين من اضلاعه ، فهدد
ابن الفلاح بالانتقام على ملا من اهل القرية ، واوصيت عمك بالحدز ، لا رغبة
بسلامته ، بل تأكيداً للشبهة ، ولكنه كاد ييصق في وجهي احتقاراً ، واجابني
بأنه لا يخاف الذباب • وقد اعتزم ان يذهب هذا المساء الى المدينة مليياً دعوة
المتصرف التي اقامها تكريماً لوزير الداخلية • ولما كان سائق سيارته
مريضاً ، فقد اعتزم ان يسوقها بنفسه ، فالمسافة لا تزيد على العشرين ميلاً •
والطريق يمر بتك الاجمة من القصب كما لا يخفي عليك ، ويا له من ممكن
صالح للصيد • لقد ابتعت سرّاً بندينيتين من النوع السريع الطلقات • سنحرقه
حرقاً مع سيارته ، وليذهب الى الجحيم » •

فقال عزيز « مرحى مرحى ، ويا له من احتياط متقن ، ولو اني لا ارى

موجبا لكل هذا الحذر ، فمن سيجراً على اتهامنا للاخذ بثأره أهؤلاء الشرطة الذين يكادون ان يكونوا خدما في الدار ، أم زوجاته اللواتي يكرهن رؤيته ؟ أم الفلاحون الذين يمتقونه اشد المقت ، وليس له ولد ولله الحمد ، اما النماج الساكنة في المدينة فسأضعف لها العطاء » •

فقال عزيز « الاحتياط جميل على كل حال ، وماذا يضيرنا لو ظن الناس ان ابن عسوري هو القاتل ، فلا شاهد له على بقاءه في الكوخ ليلاً غير ابيه ، اما نحن فان ذهابنا الى المدينة بعد قليل سيبعد عنا الشبهة ، وسنعرف طبعاً كيف نسرَق انفسنا من المدينة لاصطياد هذا النمر الشرس » •

وشهدت الليلة التي اعقبت ذلك اليوم الجميل ، وكانت مظلمة لا قمر في سمائها ، جريمة وحشية بشعة ، ولكنها ليست ابشع الجرائم في الريف العراقي •

لقد قتل ابن الاخ عمه ، وما اكثر ما يقتل الاخ اخاه والابن اباه فتمتد بيد العقاب الى الضعفاء والاغبياء فقط • اما الاقوياء ، تلك الآلهة الصغرى ، فهي تقتل كما قتل هابيل قابيل ، وكما تقتل الآلهة بعضها ببعض ، كما جاء في اساطير اجدادهم الاولين •

لقد شبت هذه الآلهة من كل شيء ، ولكنها لما نزل ظمأى الى الدماء •

وجه صبور

أقسم قسما غليظا على ان كل ما في الحياة سخف لا يستحق غير الهزؤ
والسخرية ، اذ ماذا في كل هذه الدنيا الطويلة العريضة غير اللؤم والكذب
والنفاق والحقد والصفينة والحسد والجشع المهلك ، وما يتبع ذلك من
حروب طاحنة ونكبات مروعة ؟ واقسم على انه لم يلاق في كل دنياه ما يستحق
ان يمشي الانسان لاجله ، ولم يعرف حتى الان كيف اصطر كل هذه المدة
الطويلة على هذه الحياة التي يحياها رغم ، انه يأكل ويعمل وينام ويتألم ولا
يهتم بغير ذلك ، وليت شعري بماذا يهتم ؟ وهل في كل هذه الدنيا ما يستحق
التفكير والاهتمام •

ثلاثون سنة قضاها في عمل متواصل ، وآلام مبرحة ، وكد مضم •
وقد شعر بعبء الحياة على عاتقه منذ ان اصبح في امكانه ان يحاور نفسه
ويسألها « لماذا اعيش هذه الحياة المؤلمة المتعبة التي لا يتخللها ولا لحظة
واحدة تشعرني بجمالها وقيمتها ؟ » فلا يجد غير السكوت المحزن • وقد
يشغل به التفكير فيوصله الى نتائج مرعبة ذات عواقب وخيمة •

لقد وقف يوما على حافة قبره بعد نكبة من تلك النكبات التي اعتادت
ان تداهمه بدون انقطاع او امهال ، والتي تحدث وراءها نوبة جنونية من
تلك النوبات الفظيعة التي تصبغ كل ما يقع عليه نظره بلون قاتم • لقد فكر

في تلك اللحظة بالاحتجار لأول مرة ، ولماذا ، ليت شعري ، لا ينهي هذه السلسلة السخيفة من المزعجات والمنغصات والآلام ! ان كان ثمة فرق بينه وبين الحيوان فهو ان الحيوان لا يتألم من الامور المعنوية كما يتألم هو ، فليس في استطاعة الحيوان ان يفكر ، ولكنه يمتاز على الحيوان ، بمقدرته على القضاء على نفسه متى اراد

وقد نجا من شر تلك النوبة ولم ينتحر ، اذ لم يجد في تلك اللحظة آلة تساعد على الوصول الى بغيته .

ثم زارته هذه الفكرة الجنونية في ظروف اخرى كثيرة لا تقل عن هذه سوءا ، فنجأ منها ايضا بطرق لا تقل عن هذه الطريقة غرابة ، وكان ان اخذ يفكر بمعنى الانتحار ومحذوراته وكلام الناس عنه ، وآراء المفكرين فيه ونظرة القانون اليه ، وتحذير الاله من خطيئته ، فلم يجد في كل ذلك ما يمكن ان يسمى رادعا لمن ضاقت به الدنيا وسدت في وجهه سبل الراحة ، وما احتمها فكرة ان يهتم الميت قبل موته بما يمكن ان يقول الناس عنه بعد ان يطويه القبر . اما الله فقد كانت تلك الحياة القاسية التي ذاق مرارتها كفيلا بالقضاء على كل اثر له في نفسه ، او اعتقاد يتعلق به . وان حياة كهذه كفيلا بتحويل الانسان الى وحش ضار فلماذا لا تقضي على دينه وايمانه ، وتوقعه في مهاوي الالحاد ؟

لقد غرست في نفسه بذرة الثورة على اله البشر من يوم ان سأل امه وكان طفلا لم يبلغ الحلم « لماذا يا امي لا أملك ابا ، ولماذا لا استطيع ان أكل كما يأكل جارنا ابن شهاب الدين بيك ، والبس كما يلبس ، والعب بسبل لعبه ؟ » فأجابته امه وعيناها تتألقان بالدموع « لاننا فقراء يا بني ، واشكر الله انك وحيد فلا يصعب علي ان احصل قوتك ، اما ابوك فقد مات وكل ذلك بمشيئة الله » .

فالح في السؤال وقال « ولماذا نحن فقراء ولماذا مات أبي ! »

فأجابته وقد برمت بكثرة الحاجة الذي يلهمها عن غسل ما عندها من الملابس « لقد اراد الله لنا ذلك ولا مرد لمشيئته » •

فترك امه لعلها ومضى يسأل نفسه ويفكر « ماذا اجرم بحق الله حتى يمت أباه ، ويجعله فقيرا ! انه لا يزال صغير السن ، وقد أمات الله أباه قبل ان يتعلم الكلام والشم والكفر فلا مبرر اذن لهذا العقاب الذي لم تبقيه جريمة » •

ولما تعلم واصاب قسطا وافرا من العلم ، غير مقرون ولو بتسط ضيل من الحظ ، وتقم على الدنيا وعلى اساليبها وتسنى لو يستطيع ان يعود الى الايمان بالله ليضع على عاتقه عبء كل هذه الرزايا والآلام ويتخلص نهائيا من التفكير فيها ، ولكن هيهات • اذن فهو ان فكر في الانتحار فلا يسكن ان يردعه عنه خشية الله وطاعته ، اما اولئك الذين يسمون الانتحار جنونا فهم كمن ينهض عن مائدة حافلة بما لذ وطاب من المأكول والمشرب بعد ان ملأ معدته ثم يرى رجلا لم يذق الطعام منذ يومين ينظر الى تلك المائدة بلهفة وجشع وقد تقيدت عيناه بألوانها وصحافها وكؤوسها فيقول عنه مضمنا « ان هذا الرجل شره ممقوت لا يفرق عن الحيوان عندما ينظر الى الطعام » • واما الذين يعتقدون بأن الانتحار جبن فلا يظن انهم يقولون ذلك الا لانهم أجبين كثيرا من ان يفكروا فيه •

كانت هذه الافكار السوداء تملأ رأسه في صباح ذلك اليوم المشرق اكثر من اية مرة سابقة ، ولم يكن ذلك بسبب تلك المشكلة الجديدة في حياته المعقدة فحسب ، بل لان يأسه وبؤسه وذلك الفراغ المريع في حياته اخذ يدفعه شيئا فشيئا وبقربه من نتائج مثل هذه الافكار المريعة •

وعندما ترك الدار للذهاب الى محل عمله سحب الباب وراءه حائقا ، فأحدث الباب دويا مزعجا زاد من هياجه وحدة اعصابه • ولو رايت حينذاك لملت منه رعبا • وجه متقلص شاحب ، وجبين مكفه ، وعينان قويتان

تفاذتان ترميان شرر السخط والكره ، وكأنهما تهددان كل ما تقعان عليه
بالمحق والخراب •

وكان من جملة ما عثرت به هاتان العينان القاسيتان قوام انثى مشوق
كانت تسير بخفة وسهولة ، وكانت رشاقها حرية بأن تلفت انظار كل الناس
الا انظار هذا الانسان المعذب • وقد تمتم لعنة خافقة عندما اضطر ان يطيل
النظر الى ذلك القوام المشني أمامه •

ولم يحدث ان اعجب بامرأة او تعلق بانثى ، فهو ابي النفس يكره ان
يضع نفسه موضعاً لا يشرفه ، ويرمي بها تحت اقدام امرأة لا تحبه ، وليت
شعري كيف تحب امرأة مثل هذا المخلوق المعذب ؟ وهل تعجب امرأة بغير
أولئك الذين يأتون امامها بحركات بهلوانية تثير اهتمامها او تستعري
انتباهها ؟ وهل يمكن ان يصدر مثل ذلك عن هذه النفس الساكنة المظلمة
كالقبر •

واعاد النظر الى ذلك القوام المشوق مرة اخرى رغم انه ، واستوعب
جسم هذه الانثى التي تخطر امامه من رأسها الصغير بجذائله الذهبية التي
تطل من تحت القبة الجميلة ، الى تينك القدمين الصغيرتين وذلك الحذاء ذي
الكعب العالي الذي يتوهم الناظر اليه انه حذاء طفلة اذا مارآه غير محتضن
قدمي صاحبتة • وكانت تسير على بعد ، ووقفت في المحل الذي اعتاد ان يقف
فيه لانتظار سيارة عامة ، ثم التقت الى الوراء •

وعلقت نظراته بذلك الوجه الصبوح فما عادتا تريان شيئاً اخر • يا
للعجب ايمن ان يكون مثل هاتين العينين الزرقاوين الصافيتين المتألفتين
الباسمتين ، وهذه البشرة الوردية ، وهاتين الشفتين القانيتين وذلك الانف
المدبب المستقيم لامرأة حقيقية !

وسرعان ما نسي ذلك القوام الرشيق ذا المكورات التي تنبيء عن صحة

وامتلاء ونضوج اثوي كامل • لقد سره ذلك الوجه الهاديء الوادع الذي،
يشبه وجه طفلة تنظر الى الحياة نظرة ساذجة جميلة • وتمتم رغم انه « يا الهي،
ما اجملها » •

وشعر بشيء من الراحة والهدوء والسلام لم يشعر بها من قبل ، بل .
وما كان ليفهم ما تعنيه مثل تلك الكلمات سابقا • وانبسطت تلك الاسارير .
المتقلصة ، واستقام ذاك الحاجبان المقطبان ، وبدا الارتياح في هاتين العينين .
السوداوين ، واصطبغ ذلك الوجه الاصفر الشاحب باحمرار خفيف ، وشعر
برعشة النشاط والحياة تدب في كيانه • وبقي يقترب ويقترب حتى اصبح
منها على قيد ذراعين وكافت نظرات الفتاة قد عثرت عند التفاتها الى الورا .
بذلك الوجه الغريب ، ولمحت ذلك التوسل الذي تنطق به عيناه السوداوان ،
وشعرت بأن ذلك الوجه يعبر عن شيء هو مزيج من التعاسة والتوسل •

لقد رأت مثل هذه النظرات من كلب جائع رمت له بقطة من الكمك .
مرة فالتهمها ، ثم رفع الكلب رأسه وبقي ينظر في وجهها بصمت ، ولكن .
اساريره كانت تنطق بما يعنيه بتلك النظرات ، فابتسمت للكلب وربت على
رأسه •

وبقي الشاب يطيل التحديق في وجهها كمن اصابه الذهول فجأة فنسي
الذوق والاعتبارات والاداب العامة الاجتماعية بكاملها ، وكانت نظراته رقيقة .
متوسلة • وبقيت هي تطيل النظر في وجهه مستغربة ان يسلك هذا الشاب .
سلوكا شاذا ، فينظر اليها مثل هذه النظرات تستدر الشفقة وتستثير الحنان ،
وعلمت من نظراته الحزينة المتوسلة انه يتعذب ، وانه يتعيث بها ، وتمنت .
من كل قلبها لو تستطيع ان تمسح رأسه او تربت على خده ، ولكنها لم تبخل .
عليه بابتسامة تشجيع تندت لها عيناه بالدموع ، اذ شعر بان تلك الابتسامة .
قد مسحت من سماء حياته كل تلك الغيوم ، والتفت فأراح ظره ليللا على .

الخضرة والاشجار التي رأى فيها بهجة ، ما كان يراها سابقا ، ثم عاد فغمس
ذلك الوجه الرائع بنظرانه مرة أخرى •

وعلمت الاثنى بالعريضة انها اقوى كثيرا من هذا الطفل المسكين المعذب ،
فابتسمت وسألته بلهجة طبيعية رائقة « انك قريبا منا أليس كذلك ؟ » ولم
تمر انها قد اتت امرا قريبا بسؤال رجل غريب مثل هذا السؤال ، ولم تشك
بأن الشاب سيحبها جوابا يرضيها ، وكان عند ظنها ، فأجابها على الفور وقد
شاع الاحمرار في وجنتيه : « اني اسكن في ذلك البيت الحقير الصغير في
نهاية الشارع ، ولكنني لم اتشرف برؤيتك قبل الآن • وارجو الا تكوني
غريبة عن هذه الحارة » •

فاقترع ثمرها عن اسنان لؤلؤية وقالت « لقد لمحتك تمر بدارنا حينما
كنا تنقل اثاثنا اليه ، فلم يظهر عليك انك ترى عملية النقل او تسمع جلبة
الحمالين ، واقسم انك لم تشعر حتى الان بان عائلة جديدة قد احتلت الدار
المجاور لدارك • لقد صاح بك ابي عند مرورك بنا مسلما فلم يبد عليك انك
تسمع او تفهم ، ولكن ابي لم يفتظ من غفلتك بل قال آسفاً « يظهر ان
سعيد افندي في نوبة ألم جديدة • اتنا ندعوه بعدو الحظ ، فحياته مملوءة
بأقسى النكبات ، وامر الآلام » •

فقال « ان أباك على حق ، وان الهم والبؤس ليطاردان بعض الناس
احيانا فلا يتركنهم حتى يقضيا عليهم ، وان امثال هؤلاء تنحرف نظراتهم عن
مبهجات الدنيا الى داخل نفوسهم ، فلا يرون الا ما ينفرهم من الدنيا ، وقد
يصابون لشدة وطأة الهم على نفوسهم بذهول غريب في بعض الاحيان قد
ينسيهم الواجبات التي تقتضيها اللياقة والادب » •

فأجابت مؤاسية « يؤلني حقا ان تكون متشائما الى هذا الحد ، الا
ترى ان في الحياة ما ينسي الانسان اقصى همومه في بعض الاحيان ؟ »
فأجاب « اعترف بذلك الآن وقد علمت ذلك اليوم قط » •

ووقفت سيارة عامة بالقرب منهما فجلسا في محلين متلاصقين وشم اريج
عطر منمش مسكر ، فشمع كأنه في حلم ، وسمعها همس بجانبه « زرننا
عندما يقسو الهم على قوادك ، فانه ليؤلني ان ارى شابا في مقبل العمر مثلك
ينظر الى الدنيا مثل هذه النظرة القاتمة » ♦

فاجابها هاما ايضا « لو لم يكن في الحياة امثالك من ملائكة الرحمة
لترك هذه الدنيا المقفرة نصف ابناءها غير آسفين ، ايتها الآنسة لقد وهبت
حياة جديدة لانسان مسكين ، وذلك برقتك ولطفك وتنازلك لمواساة شقي
مثلي ، بمثل هذه اللهجة الرؤوفة الرحيمة » ♦

واستكان بجانبها ونسي كل شيء ، ولكنه تذكر امه التي فقدتها قبل
اكثر من عشر سنين ، والتي كانت تأخذه بين ذراعيها كلما رأت أمارات
البؤس والألم والشقاء تبدو في عينيه الحاسيتين ، فيكي دون ما سبب ، وهو
يدفن رأسه بين ثدييها ، لماذا تذكر امه الان ؟ لماذا تذكرها ؟ وشعر بعينييه
تغورقان بالدموع ، ونظر في وجه حسائه مرة اخرى فرأى نظراتها تفيض رقة
وحنا وعطفا ♦

وتذكرت الفتاة بجانب صورة الكلب الذي احسنت اليه مرة ، صورة
اخيها الصغير بعد ان ضربته امه مرة جزاء ذنب ارتكبه فمضى يعوي في زاوية
البيت دون ان يجد من يواسيه ، وكان يرفع صوته بالبكاء كأنه يستجدي
هذه المواساة ، حتى اخذتها الشفقة به ، فذهبت اليه ، واخذته بين ذراعيها ،
فمضى يلتصق بها ويدس رأسه بين هديها ، ثم نظر في عينيها نظرة غريبة
تشبه نظرة هذا الرجل ، وكان جسمه يهتز بتلك الشهقات العميقة المتتابة ،
ثم استكان بين ذراعيها ونام نوما عميقا ♦

رسالة غرام

يني وبين السيد عمر صداقة من نوع فريد ، فقد بدأت علاقتي به بشكل غير مألوف ، وانتهت بصورة غير اعتيادية •

كان السيد عمر رئيس قسم في دائرة التحقيقات الجنائية وعمل هذه الدائرة ، كما يعرفه المجرم وغير المجرم ، ينحصر في مطاردة ذوي الميول السياسية غير المرغوب فيها ، وذوي الافكار النابية التي لا يرتاح اليها اولو الشأن ، وهؤلاء المطاردون هم تلك المجموعة التي يطلق عليها اصحاب النفوذ من الساسة ، والصحف اليومية ، وقسم كبير من الناس ، ذات الميول الشاذة والآراء الهدامة •

كنت مدرسا هادئا مسلما ، ولكنني اردت ان اكون كاتباً ايضا فاخذت ادس انفي فيما اجد حولي من مشاكل ، واتطلع الى غير شؤوني ، فانتبهت السلطات الى نشاطي غير الطبيعي ، وتوجست من عنادي واستقلالي برايي شرا ، فتكرمت عليّ بأن فتحت لي سجلا خاصا في دائرة التحقيقات الجنائية، وشرفتي بان اضافتني الى تلك المجموعة من ذوي الآراء الشاذة والميول الهدامة •

تلك كانت البداية بيني وبين السيد عمر • والتقيت به مرة واخرى ثم تعددت المقابلات ، وكانت رسمية جافة ، ثم استحات هينة لطيفة •

حتى انقلبت اخر الامر الى الة فصدقة ، وهذا شاذ غير طبيعي حتى في نظر اولئك الشواذ ، الذين لا يخضعون لقوانين العرف السياسي ، ولا التقاليد الاجتماعية المرعية .

قابلت عمر اول مرة حين اراد التحقيق معي في علاقة مشتبته بوجودها بيني وبين الذين يعملون في الظلام ، فاجبته بصراحة باني لا استطيع ان اعمل في الظلام ، فان لم استطع ان اقول ما اريد جهرًا سكت ، ولم اتكلم حتى مع نفسي . فابتسم واجاب : هذا ما عرفته من اثارك الادبية ، ويعلم الله اني في موقف حرج فيما يتعلق بك ، فواجبي المهني يتطلب مني ان اقدم تقارير عنك تروق جهة خاصة ، ولكني سأخاطر بمركزي واقدم عنك تقارير صادقة . فشكرته وانصرفت .

انقلب هذا المراقب من متتبع للادب حسب مهنته ، الى مولع به ، وصار يطالع ويكثر من المطالعة ، واصبحت له وجهة نظر خاصة في النقد ، ونمت العلاقات بيننا حتى اصبح المشتبه بهم سياسيا ينظرون اليّ بحذر . وآل الامر بالسيد عمر الى ان يغير مسلكه ، ويتنقل الى دائرة اخرى لا تتعارض اعمالها مع التطور الذي اقحم فيه صدفة ، وما زالت ميوله الادبية تنمو وتتقدم حتى صار يكتب ، ومن ثم تعرض للشبه نفسها وسقط في حفرة من الحفر التي اشترك في حفر كثير منها لغيره .

ومصدر قصة هذه الرسالة الغرامية الغريبة هو السيد عمر نفسه . فقد التقيته ذات يوم وطال مجلسنا ، وتشعب حديثنا ، فتناول الادب وفنونه ، والعواطف الانسانية وغرائبها ، واخلاق الشواذ ونواديرهم .

قال السيد عمر « كنت كما تعلم اراقب عددا كبيرا من الشعراء والادباء ، وقد كان من جملة هؤلاء ، شاعر تعرفه ولنسمه (س) . كان هذا الشاعر يتبادل الرسائل مع سيدة ، مثقفة من وسط راق ، وكانت مشتبهًا بها ايضا ، اذ لها آثار ادبية تدل على الجرأة الى حد التهور ، وما كانا يعلمان انها

مراقبان ، فسقطت في يدي رسائل كثيرة ، ابتدأت رقيقة لطيفة ، ثم تدرجت من الرقة الى الخشونة حتى انقلبت صراعا عنيفا بينهما . كانت رسائل شخصية بحثة لا علاقة لها بالسياسة قط ، ولكنها كانت تحمل طابعا ادبيا اغرائي بتسبعها واخذ صور منها ، دون ان يتدخل ضميري ، الذي اعتاد هذا النوع من الفضول ، لردعي . واخر ما سقط في يدي من هذه الرسائل ، الرسالة التي سأطلعك عليها ولست اعلم أكانت خاتمة العلاقة بينهما ام انهما اتنبا الى الرقابة المضروبة عليهما فالتجأ الى واسطة اخرى .

ان هذه الرسالة ، كما ستري ، غريبة شاذة ، ولعلها تدل على اخلاق الادباء ، وانت منهم ، وتكشف عن اعماق ميولهم ونوازعهم ، واخشى الا يكون في ذلك ما يشرفكم اتم اصحاب المذهب الواقعي في الادب ، ثم ضحك وناولني الرسالة .

فأخذتها وقلت « اذا كنت تعني بانها صريحة واقعية ، لا أثر للتصنع والكذب والخيال السخيف فيها ، فهي مما يشرفنا . ومع ذلك فلو كنت قد كشفت اسرار غير اصحاب الرسالة ، بمراقبتهم على طريقتك ، لوجدت ان الادباء اقل شرا من غيرهم ، وابتعد عما يشين ولكن ما حيلتهم اذا كان سوط نقتكم قد سلط عليهم دون سواهم ، وانواركم الفاضحة قد كشفت عوراتهم فقط ؟ ومهما كان الامر فلنقرأ هذه الرسالة الغريبة في نظرك .

كانت الرسالة خالية من الديباجة والعنوان . بتتديء بهذه العبارة الجافة

« لم استلم قائمة الاضرار التي احدثتها زوبعة ثورتي ، كما تدعين ، ويهمني ان اعرف مقدار هذه الاضرار لا دفع لك تعويضا عنها ، اذ لا اريد ان أكون مدينا لك بشيء .

لقد سقطت المروحة الكهربائية باصطدامها بذيل سترتي التي طوحت

بها فوق كثفي بعنف شديد ، كما اتذكر ، وقد دست على شيء اخر لا ادري
ما هيته فتحطم تحت قدمي •

اما هذه الحالة غير الطبيعية التي يهمني جدا ان اتوقى شر امثالها في
المستقبل ، فانت اعلم الناس بسببها • لقد بقيت بعد هذه الحادثة في حالة غير
طبيعية ، مدة يومين ، اشكو من اوجاع في مؤخرة الرأس ، وثورة مستعرة
مستديية ، ورغبة في ايداء كل من اصادفه • تذكرني هذه الحادثة باخرى
وقعت امام عيني قبل بضعة ايام • فقد كان عندنا صبي من الجيران مولع
بمداعبة كلبى الاليف ، فأراد ان يطعمه كعاداته ، فقدم انا فيه طعام ، وبينما
كان الكلب يأكل ، اذ سحب الطفل الاناء من أمامه فجأة ، فعضه الكلب في
يده غصه ما زال يحمل آثارها ، وانت تعلمين مقدار لطافة هذا الكلب
واماتته •

اني اجبرك على امر تكرهينه كما تعلمين ، وسوف لا افعل ذلك مع اي
بشر سواك • اما ان يقدم لي انسان شيئا لذيذاً ويغريني بتذوقه حتى اذا ما
استغفته وارتحت اليه سحبه فجأة ، فأمر لا يقدم عليه حتى اكثر الناس
اجراما وشرا •

لقد حاولت بكل ما لدي من قوة الا اسيء الى هذا الممتدي الذي هو
انت ، وابتلعت غضبي ، وهرب بهذه الثورة التي هي نتيجة طبيعية
لسياستك في علاقتنا التي تعقدت فأصبحت لغزا لا استطيع حله •

لقد نيت ان اعطيك الكتاب الذي اوصيتني بشرائه وانا في غضبي،
واحسست به في جيبى وانا في الطريق ، فرجعت ، وتركته في منزلك ، اذ لم
يكن عليّ ان احرمك منه ، ولست ادري كيف استثنت الكتاب في ذلك
الظرف • وحسنا فملت بعدم الظهور امامي عند رجوعي •

انت تعلمين جيدا بانى لا احب هذه المظاهر المرضية ، وقد وجدت بعد
تفكير عميق انك تستسهلونها ، لانك تريدن الاستفادة منها • فانت لا

تذكرين عند رؤيتي الا استغلال كل ميولي بعد اثاره غرائزي ، اي انك
امرأة تعتمدين على ميزاتك الجنسية فقط ، دون الشخصية والعقل •

كم يضحكني الان ان اتذكر اعتذارك ومماطلتك في اظهار علاقتنا
واصرارك على تأجيل زواجنا • ان هذه الاعذار لا تتجاوز أمك واقاربك ،
مع علمي بأنك لا تقيمين وزنا لرأي غير رأيك ، ولو كان السبب رجلا اخر لهان
الامر ، ولأدركت السبب الصحيح •

اعتقد ان هذه آخر رسالة بيننا وقد اضطرت الى كتابتها • لان ترك
الحادث بدون شرح قد يوهمك بأنني ما زلت صياا احق • واني انصحك
نصيحة قد تفيدك في مستقبل حياتك لا تعتمد على اغرائك الجنسي مع
رجل تحاولين ان توهميه انك تحبينه ، فلك بضاعة من لا بضاعة لها غير
اللحم •

لا اتهمك بانك قد فعلت ما فعلت عبدا ، اذ لا ازال اراك قاصرة الفهم في
كثير من امور الدنيا ، رغم ادعائك بكثرة الخبرة والتحرر والثقافة • من
الغريب ان يكون هذا التصميم البات فجائيا رغم خطورته ، ولو اخبرني
مخبر قبل آخر لقائنا بساعة ، بأنني سأخذ مثل هذا القرار الحاسم ، لسخرت
منه •

عجيب والله ان تمر في حياتنا لحظات مباركة ، نصطدم خلالها بالواقع
اصطداما يهز نفوسنا ، وينثر عنها كل طلاء نحاول به ان نستر الحقائق المؤلمة
في حياتنا ، فاذا بتلك الهزة تنير عقولنا فجأة فنذكر اشياء كنا تتجاهلها رغم
ارادتنا •

لقد كان ارتباطنا مبني على اسس غير معقولة ولا مقبولة وكانت كل
انفصالاتنا مفتعلة مصطنعة ، فلا البعاد ، ولا الافتراق ، ولا التجافي كان
حقيقيا • ان علاقتنا مبنية على التحدي ، والرغبة في المخاطرة ، وحب التغلب .

على الغير ، ولم يكن بيننا سوى عدم الثقة المتبادلة مستورة بالحب العنيف المتبادل ، ولهذا كان كل منا يحصن نفسه ، ويبنى الاسوار ويتسلح ، وكان من نتائج ذلك ان حطمت انا قفوس عدة فتيات غيات ، كان في الامكان ان يتزوجن حميرا على شاكلتهن ويسعدن ، وان جرحت انت قلوب عدة فتيان مساكين ، وتركت في قفوسهم عقداً لا يسهل علاجها . فعل كل منا ذلك انتقاما من صاحبه او لمرض قوته امامه . وكان من نتائج ذلك هذه الريبة القاتلة المتبادلة بيننا ، والقيود المفروضة من قبلك ، والثورات المتفجرة من قبلي .

لو لم اكن ذا ماض حافل بالمخاطر العاطفية لما تشبث بي مثل هذا التشبث ، ولو لم تكوني امرأة اعتقد انها لغز معقد لما بقيت في فكري كل هذه المدة ، ولكن تصوري الى اين وصلنا .

واخيرا ونحن نلعب لعبتنا الجهنمية على حافة هوة سحيقة ، كطفلين احمقين تزل قدم احدها وهو انا فيهوي ، ولكن ذيل ثوبه يتعلق بصخرة ناتئة ، فينجر ويعود فيتسلق حافة وينجو بنفسه . ان من قارب الفناء يعرف قدر الحياة . وقد حدث كل ذلك في آخر لقاء بيننا .

لا أدري كيف حدثت هذه الصدمة تماما ، ولكنني اميل الى الاعتقاد بان التعب الهائل الذي حطم اعصابي بعد موت اخي ، وذلك العويل الرهيب الذي كان يقتحم اعصابي ، فيفتتها تفتتا ، وهربي من كل ذلك اليك للاستريح ، فأرى منك ما ارى ، هو الذي انتج هذا الاثر العميق .

ان هذا القرار لا يفيدني ويفيدك فحسب ، بل يفيد كل من كان ضحية لعبتنا الطائش . وقد يفيد فتاة تعرفينها ، ما زال املها قويا في الزواج بي ، فقد تجد بعلا تسعد معه غيري ، وقد يكون لضحاياك امل في نيل بعض الشيء مما كانوا به يوعدون .

اني اذا اهرب منك ، افعل ذلك ، جينا ويسوءني ان اعترف بذلك . ولكن الصراحة احسن علاج . اني اخاف منك كما يخاف المرء من الجنون

والطاعون ، كمن يخاف من ملاك الموت بعد ان رآه رأي العين ، وقد تظنن انني أبالغ في وصف اثر الحادث في نفسي ، ولكنني اؤكد لك بأن ما ذكرته أقل من الواقع بكثير .

اني اعتقد بان لدي ارادة قوية ، ولكنني اقول صراحة بانني لم استعملها ضدك حتى الآن ، واستعملها لصيانة حياتي ، كما استعملت ارادتك الهائلة لتحقيق الخطط التي تؤمنين بصوابها ، ويحسن كل منا صنعا. اذا لم يتذكر صاحبه بعد الآن والسلام .



لماذا انتحر

ايقظني زفير الرياح المختلط بضجيج الاغصان ، اذ لا يمكن ان تسمى تلك الاصوات خفيفا ، وكانت درفات النوافذ تحتض وترتجف ، كأن طارقا من الجان ينقر عليها ، واختفت الشمس وراء استار متكاثفة من غبار افاخ بكلكله ووصل الليل بالنهار •

فتحت عيني وبني شيء من الكآبة والروع لم ادرك كنهه ، ولا مبعدة وبقيت ساكنا في فراشي محلقا بسقف الغرفة الذي شوته الامطار التي لا يمسكها السقف ، وبقيت مستلقيا على ظهري كمن ينتظر قدرا محتوما سيطبق على مصيره في الدنيا ، وخيل اليّ ان السقف يقترب مني رويدا رويدا ليطبق فوق صدري ويخذمني الانفاس •

وتحركت وما كدت فقد خيل اليّ اني ملوب الحركة معدوم الارادة ، ومددت يدي المتخدرة الى الساعة بجاني ، فألقيت نظرة على عقريها ووجدت الوقت قد جاوز الظهر ، واستجمعت كل ما لدي من قوة ، واخذت الحياة تدب في مفاصلي تدريجيا ، وبدأت حواسي تتلقى احداث ذلك اليوم وتستجيب لها • وشعرت اول ما شعرت بالعثير الدقيق ينسل الى خلايا الانف ، ويتغلغل في اعماق انسجة الرئة ، فسلعت وعطست ، واشتد اهتزاز الدرفات فكادت تنكسر ، واشتد عواء الريح وزئيرها ، واجلت نظرة في محتويات

الغرفة فوجدت ان لون الاثاث قد توحّد بعد ان اكتسى بطبقة كثيفة من الغبار ، ونظرت في مرآة دولاّب الملابس بجانب سريري ، فطالعتني وجه من تراب ، كأنه قد نقض اطباق القبر عنه في التو ، وكان الغبار المعلق في جو الغرفة شبه الضباب في ازدياد وتكاثف ، لا تحول دونه الابواب المطبقة ، ولا النوافذ المقلّطة .

وطرق باب غرفتي طرّقا ادركت من شدته انه طرق انسان لا خضخضة ريح ، فنهضت متاثقلا ورفعت المتراس فطالعتني من ورائه وجه مغبر لا تتحرك فيه غير عيّنين يجول الدمع فيهما ، فسألته « خير يا جابر انشاء الله ؟ » فقال ملّتاعا وهو يسد لي يده برسالة « بل شر مستطير » .

وفضضت الرسالة مرّعا وقرأت المعدادات « لقد قررت ترك الدنيا غير آسف . وليس لي من يهّمه ان يعرف البب غيرك . اني اعلم بانك تحبني فغدا جميلا يا صاحبي على فقدي . هكذا قررت بعد سهرتنا البارحة . اّدام الله حياتك في هذه الدنيا التي لا تحبها مثلي ، ولكنك مستسلم لنقيدها . ووداعا الى الابد » .

نظرت في وجه الخادم ذاهلا وسمعته يتمتم « وجدنا هذه الرسالة لك بعد ان وجدناه فوق سريره ميتا ، وبجانبه اّناء السم . ولو لم يأت موظف من معارفه لزيارته لبقى الامر مجهولا حتى المساء فقد عودنا ألا نكدر عليه صفو نومه ، وقد اعتاد ان ينام اّحيانا يوما وليلة ، كما اعتاد ان يسهر اّياما متوالية كما تعلم »

بقيت حائرا واجما والرسالة في يدي المرتجفة ، وشعرت بذلك الجوّ المترب الخائق وكأنه قد اّحال الكون الى قبر واسع هائل نحن بعض ديدانه .

وعدت الى السرير فهاويت عليه ، ووضعت راسي بين يدي ناسيا الخادم ، وترددت في ذاكرتي ضحكات هذا المتحر الصاخبة في الليلة

المنصرمة . لقد كان يضحك من كل قلبه ، ومن كل شيء حواله ، من نفسه ومن الدنيا جميعا وهو يردد « كل شيء يدعو الى السخرية ، وليس ثمة ما يقيدني بالحياة غير رغبتى في ان اضحك منها ، فاذا تعبت من هذا ايضا ، فما الذي يجبرني على البقاء فيها ؟ »

وقطع عليّ سلسلة ذكرياتي صوت الخادم وهو يدمدم « ان المحقق في انتظارك يا سيدي فهل اذهب قبلك ؟ » فاشرت عليه بالانتظار ونهضت اقض الغبار عني مستعملا كل الوسائل دون جدوى . وارتديت ملابسى على عجل ، وتبعت الخادم الذي استمر يتمتم : « لا يعلم احد من معارفه سبب انتحاره ، حتى ولا اخته ، ولكنهم مجمعون على انك تعرف السبب » . ولم اجب ، فقد كان فكري يستعيد ذكريات حوادث الليلة المنصرمة بالتفصيل .

زرتة في داره عصر اليوم السابق فوجدته قد استيقظ تَوّاً من نوم مريح، ووجدت داره الهادئة الساكنة خالية . كان يحتسي كوباً من الشاي ضاحكاً مستبشراً ، كان انيقاً جميلاً متعشاً كأنه صباح ربيع ندي ، ودعاني الى مشاركته ، فجلست واخذت ارتشف الشاي الذي قدمه لي مستمتعاً بنسيم حديقته البليل الليل ورأيتة يأملني مبتسماً فسألته « أظنك اليوم متفائلاً: على خلاف عادتك ؟ »

فأجاب « لا ، ولكنى ارى عليك امارات الهناء في لحظتك . اني.. اتساءل كيف تستطيع ان تشعر بالهناء ؟ »

فأجبته « في هذه الشمس والارض والاشجار والازهار والهواء ما يريح القلب ويدعو الى الشعور بالسعادة » .

فقال ساخراً « انك ترى ذلك طيلة اربعين سنة دون ان تمل ، ، أما انا فقد مللت كل هذه المناظر من زمن بعيد وبحثت عن اشيء اخرى اكثر لذة.

«واوفر متعة ، حتى ادركت اخيرا ان ذلك مظاهر مختلفة لشيء واحد . ان ما يصلنا بالحياة هو المتع التي تربطنا بها ، وحب الحياة عند الانسان ذي العقل يختلف عن حب البقاء عند الحيوان الاعجم المجبر على البقاء بالفريزة . ان الانسان يستطيع ان يترك هذه الدنيا متى اراد ، اذا وجد ان الحياة قد أصبحت عبأ على عاتقه » .

فقلت مؤنبا « ها قد عدت تضرب على نعمتك المألوفة ، ولست ارى في حياتك ما يدعوك الى هذا التشاؤم المقيت . انك تخيفني احيانا فانت تذكر الموت كما يذكر الانسان اكلة يشتهيها » .

فقال دون مبالاة « لا اراني الا واضعا حدا لحياتي يوما . لقد جربت كل اساليب الحياة ، وذقت حلوها ومرها فلم اجد في كل ذلك ما يعنني على التثبت بها . ان ائمن ما في الحياة هو الانسان ، ولست ارى في هذا الانسان رأيا محترما ، فجله يشبه الحيوان شبهها تاما في طراز معيشته ، وفي اسلوب تشبسه بالدنيا » .

فقلت متوسلا « أما من طريقة تبعذك عن هذه الآراء السوداوية ، يا من تضحك كما يضحك الفناء من البقاء ؟ »

وبعد فليس هذا المتشاؤم من اولئك الذين يدعوهم الى اليأس ضعف في مجال الرزق او معاكسة من الاقدار او فشل في تحقيق امنية غالية ، فلم يجمع في حياته ولم يمر ، وقد احتل في المجتمع مركزا يحسده الكثيرون عليه ، وما كان قبيحا ، ولا مشوها ترغب عنه النساء ، بل كان فيه طراز من الجاذبية تحدث عنها بنات حواء بشيء من الحيرة والغموض ، والخوف في بعض الاحيان ، وكان الى جانب كل ذلك ولوعا بالقراءة ولعاً عظيماً ، للمتعة لا للدراسة او التتبع ، وفوق كل ذلك كان قوي الذهن مصابا بلعنة الانسان العصري ، الا وهي اطلاق الفكر وتحطيم كل حاجز أمامه .

كانت علاقتي به تختلف عن علاقته بكل الناس ، اذ كنت الوحيد الذي

يستطيع ان يكشف نفسه امامه دون خوف من تحقير او استهزاء ، حتى ولو لم اقتنع بوجهة نظره ، وما كان يلح في ايصالي الى نفس ما يصل اليه هو ، وكثيرا ما يقول لي مخلصا « كم أود ان اكون قنوعا راضيا كالآخرين ، ولكن هذه الدودة التي تتخر في عقلي تجعل الامر مستحيلا » .

انتبته من افكاري على صوت باب داره يقرعه خادمه ، وتلفتني اخته دامعة العينين منتحبة تقول « من كان يظن انه يفعل هذه الفعلة بنفسه ؟ » ولولا حزني لضحكت من بلاهة تلك المرأة .

ودخلت غرفة نومه ، وما كانت تلك اول مرة ادخلها ، لقد كانت اكداس الكتب مبعثرة فوق اثائها الانيق ، الزوايا ، وعلى الرفوف ووجدت احداها على فراشه ، فما شككت بانه اغمض عينيه على بعض سطورہ .

تقدمت من الفراش ونظرت الى وجهه الشاحب فرأيت اثر ابتسامة قد ماتت على شفثيه . وشعرت بالالام يعصر قلبي . لقد كنت اركن اليه دون خوف من افكاره المشائمة ، وكم كنت اعجب به اذ اجده يدخل السرور على قلبي ، وقلبه مقفر منه . ومددت يدي بالرسالة الى حاكم التحقيق فقرأها ثم اعطاها الى المفوض .

قال لي الحاكم وهو حائر « هنالك اشياء يجب ان نسألك عنها ، اذ لا بد من التحقيق ما دام في الامر جناية ، والاتحار جناية كما لا يخفى عليك » .

فأجبتہ « سل ما بدالك » .

فقال « اخبرتنا اخته انه وصل الى المنزل متاخرا البارحة فهل كنت معه في الليلة المنصرمة ؟ »

فأجبتہ « اجل ، لقد بقينا سوية حتى مطلع الفجر » .

فسأل « وكيف قضيتاها ؟ »

فأجبت « في اربعة من الملاهي بقي اخرها مفتوحا حتى الصباح » .
فسأل بعد ان اعتذر عن شدة الحاحه « ارجو ان تخبرنا بالتفاصيل
عن غايتكما من ذلك » .

فأجبت « اما غايته فهي استهتار بالحياة واحتقارها ، ومحاولة لايجاد
سبب تافه يجعله يتشبث بها ، واما غايتي فهي محاولة تسليته باغراق افكاره
السوداوية في مختلف المخدرات الاجتماعية » .

فانبري المفوض يقول كمن ينطق بحكمة بليغة « ألا تكفي هذه
الاكداس من الكتب لنفي التشاؤم ؟ ان المثقف لا يسلك مثل هذا الطريق
الوعر » .

فأجبتة ساخراً « انك لم تقرأ هذه الاكداس من الكتب . اني اعتقد ان
قراءة هذه الكتب تحول دون ادراك حكمتك البليغة » .
ابتسم حاكم التحقيق ، اما المفوض فتطلع في وجهي بنظرة ذكرتني
بنظرات ارنب أليف .

وعدت أقول « وها هي التفاصيل ، دخلنا الملهى الاول مبكرين ،
واعترلنا في زاوية منه ، وما كادت تبصرنا اجمل غوانيه حتى هربت الينا ،
فتهاكت تداعبه وتعابته وتعاثبه ، فأسلم لها قياده ، ولكن قلّة الاحتفال
وشرود الذهن لم تفارق سحنته ، واتهزت فرصة ذهابه لقضاء حاجة ،
فهمست في أذنيها « ألا تستطيعين ان تبعديه عن تشاؤمه بلباقة حديثك
وجمال وجهك ؟ »

فأجابت بيأس « لقد أولعت به مرة ، ولكنني لم البث ان وجدته
يختلف كثيرا عن غيره من الرجال . لقد وجدت انني طفلة بجانب جبار ، وان
يبنى وبينه صحراء مترامية من جليد . انه من غير طينتي كما ترى ولا زلت
اعطف عليه ، لاني اجدته وحيدا يائسا . الا توجد امرأة مهذبة من طبقتهم
تستطيع ان تملأ فراغ حياته ؟ »

وتذكرت زوجته التي طلقها دون سبب ، وهي امرأة تفهمه ، ولا تحقد عليه ، ولا زالت تحمل له ودا ، اذ قد فهمت بسعة ادراكها انه لم يقصد اساءة بعمله .

وخطر ببالي ان استعين بها ، وسرعان ما همست له برغبتني في رؤية طفله فوافقني دون اهتمام .

واستقبلتنا السيدة استقبالا جميلا ، واقبل عليّ الطفل اكثر مما اقبل على ابيه .

وقالت السيدة على مسمع منه « ارى صاحبك قد فقد الاهتمام بكل شيء ، وارى انه قد ادرك حد الخطر .

فأجاب هو « لقد ادرك كلانا ما نقولين ، واما ادراكك انت للامر فدليل على شدة الاهتمام ففكرأ جزيلاً » .

فقلت آسفة « كنت ولا زلت اهتم بك كل الاهتمام ، اني احب الحياة ، اما انت ففكرها ، وهذا اختلاف كبير » .

فقال متألماً « وما حياتي ، تالله اني لاود ان اكون كما تريدين ويريد صاحبي هذا ، ولكن يظهر ان لعنة قد طوقتني قبل ان أولد ، اذ اشعر بانني دخيل على هذه الحياة ، لقد اصبحت تواقاً الى القناء ، واريد ان انام نومة طويلة لا تتخللها المزعجات الكثيرة الحقيرة التي يجدها الانسان في كل مكان » .

ونظرت اليّ السيدة مرتاعة متوسلة ، فاستأذنا وخرجنا ، واستقبلتنا في الطريق طلائع هذه العاصفة الهوجاء وهي تتقدم تحمل جبالا من التراب ، فزمجر وقال « ولماذا هذا ايضا ، اترانا كنا راضين بما كان حتى نحتمل هذا العبث الثقيل ؟ »

وأردنا ان نقابل تلك العاصفة بالمثل ، فصرنا نثر الدراهم كما تنثر
الرياح التراب فوق رؤوسنا ، وما زلنا نعبث وتنتقل من ملهى الى آخر ،
حتى شعرت بأنه قد سكر ، فعدنا الى دورنا مع الفجر ، وتركنا صاحبي وانا
مطمئن الى ان الخمرة قد هدمت منطقته المتشائم .

وساد الغرفة سكوت عميق لا يعكره سوى اتحاب الاخت وانين
ال خادم ، وشعرت ان الغبار يخنقني خنقا ، فعبطته لانه استطاع ان يعفي نفسه
من احتمال هذه المزعجات .

واخيراً قطع المفوض جبل السكوت بقوله « ان جنون شبان هذا
العصر فنون ، فمنهم من يعتنق المباديء الهدامة ، ومنهم من يكفر ، ومنهم من
ينتحر ، فما اغرب هذا العصر وما اغرب ابنائه ! ؟ »

فنظرت الى عينيه الارنيتين ، وقهقهت رغم انفي وخرجت .



فَتَاةٌ

كان اول ما لفته نظره بعد ان فتح باب غرفته عدد من الرسائل اعتاد موزع البريد ان يدسها تحت الباب ، ووجد بين تلك الرسائل واحدة اثارته فضوله ، فقد كانت محلية ، مصدرها عين المدينة التي يسكنها ، اذ ليس بين اصدقائه ومعارفه من يجهل محل عمله الذي هو مسكنه ومكتبه ايضا ، وما اعتاد هؤلاء ان يرسلوه مطلقا اذ كانوا يكثر من زيارته وهو في صومعته ، فمن هذه الرسالة يا ترى ؟ ؟

كان الخط انيقا جميلا يختلف تمام الاختلاف عن خطوط اصدقائه المشوشة المشوهة ؛ وهذا ما جعله يصرع في فض الرسالة ويتطلع الى الامضاء فورا ، ولم يجد سوى كلمة « فتاة » مرسومة بذلك الخط الجميل فتمتم مستغربا

« يا لله من هذه الفتاة ومن عساها تكون ؟ »

وامسك عن تلاوة الرسالة وقد خالطه شعور جميل مبهم ، وشعر بشيء من المرح الصياني ، فان كانت هذه رسالة غرام فلا شك انها الاولى من نوعها في حياته . ترى ما شكل هذه الفتاة التي احبت هذا المنبوذ الذي يظنه الناس معتوها ، هذا الذي يتقن كل شيء ، الا ان يجلس الى فتاة ليلقي في اذنيها سلسلة من الاكاذيب عن حسناتها وجمالها واثرها في تحويله الى عبد او حمار او ما شابه ذلك .

واتبه الى الرسالة بين اصابعه فاقبل عليها بلهفة ثم عاد فتلاها مرة اخرى متمتماً محاولاً ان يفك رموزها ويستطلع كنه صاحبها من خطها او كلماتها او طراز تعبيرها .

ولم يتوصل بعد بجيد الى غير المعنى الواضح الذي تدل عليه ، انها تقول في رسالتها بأنها خجلة من عدم ذكر اسمها الصريح ، ومن حقها الا ترى عيياً في ذكر اسمها ، اذ لم تأت شيئاً فرياً ، وكل ما في تلك الرسالة المقتضبة اعجاب عظيم بما الف من كتب ، اعجاب بأدبه وانسانيته وغيرته على صالح مجتمعه ووطنه وثورته على ما يفعل ذلك المجتمع ويميقه عن التقدم من تقاليد بالية واستغلال وحشي مشين . تقول انها معجبة بكفاحه رغبة في نيل صداقته والمساهمة في مجهوده ، وانها تخاف ايضاً ان تكون قد ازعجته بتلك الرسالة؛ فيا للبية النبيلة ؛ لو علمت اي تأثير كان لرسالتها تلك لما ذكرت تلك العبارة في رسالتها ، ويا لها من فتاة غريبة هذه التي تكتب مثل تلك الرسالة الجميلة الرقيقة لتكافيء هذا المنزوي المسكين بعد ان تخلى عنه اهله وصحبه ولتكافئه على نضاله الذي لاقى من جرائه الامرين ، ولكن من هذه الفتاة ؟

ونفض يصول ويجول كأسد متوثب في قفص من حديد ، واختفت حقارة غرفته الصغيرة عن ناظره ، وشعر بأن في نفسه من القوة ما يستطيع بها ان يتحدى العالم اجمع .

سوف لا يخاف مخلوقاً بعد الآن ، ولا يهتم بمحذور عندما يقذف براكين غضبه في وجه الظلمة المستبدين ، فليسجنوه ويعذبوه او فليقتلوه وليجربوا معه كل ما لديهم من شرور وآثام ، انه لا يخشاهم ، لان هناك من يتسم له مشجعاً . هناك فتاة ؟

لقد كان قبل هذه الرسالة على حافة هوة ، فقد اوشك ان يفقد ثقته بنفسه بعد ان احس بوطأة اعدائه وشدة تألبهم عليه . لقد قامت قيامة

الاشرار وضربوا حوله نطاقا من لؤمهم وخبثهم وقرروا ان يضعوا الاصفا
في يديه .

لقد شعر بذلة الانكسار عندما تجاهله وهو في محنته كل اصحابه
وانصاره والمعجبين به . لقد انقضوا من حوله لما شعروا بأن اعجابهم به
يعرضهم لبعض الاذى .

ولما شعر بتخاذلهم كاد ينفذ يده من الدنيا ومن فيها ، ويستجيب لنداء
الشیطان واغرائه ، ويحطم قلبه تحت اقدام اعدائه الذين ما قتلوا يوحون
له بالقيد في يد وبالمال والجاه في الاخرى . اجل ، لقد كاد ان يستلم لولا
انقاذته ، من هذا الاندحار العظيم ، فتاة .

وعاد يضرب اخماساً بأسداس يتساءل من تكون هذه الفتاة ؟ ما لونها
أسمرء هي ام بيضاء ؟ أجميلة أم قبيحة ؟

وعاد يطالع الرسالة من جديد عله يستشف من بين سطورها ما يشفي
غليله . قال لنفسه ، ما دام الخط رشيقاً جميلاً فلا ريب ان صاحبه جميلة
رشيقة ايضاً . أما انها رقيقة مهذبة فأمر لا شك فيه ، والا لما دفعتها الحماسة
الى مواساة انسان منبوذ ، بعد ان علمت اي حياة مقفرة ملوثة بالاشواك
قد القيت على عاتقه ، واي عذاب سيقاسي في دنياء . انها تعرض عليه صداقتها
برقة لا توصف وكرم لا حد له ، ومهما كانت هذه الفتاة فقد الهبت حماسه
ودفعته دفعة قوية الى الامام ؛ لقد أرجعت اليه ثقته بنفسه واعتزازه بشخصيته
واحترامه لعقله فقرر وهو تحت تأثير تلك الموجة الطاغية من الحماسة ان
يناضل حتى النهاية

وقطع عليه سلسلة افكاره دخول شرطي يحمل امرا يحتم عليه ان يقابل
مدير الشرطة في التو واللحظة .

فخف مليا ، وما كان خافيا عليه انه سائر الى حيث يحتم عليه ان يعطي
كلمة نهائية ، فاما الى هؤلاء واما الى هؤلاء .

واستقبله صاحب السعادة وهو يتصنع الاهتمام به ويتكلف مجاملته •
وانباهه بأنه ينتظر منه جوابا نهائيا فيما يخص لهجته فيما يكتب ، فلقد
ارخت له السلطة العنان فاندفع اكثر مما ينبغي ، فاما ان يعلن الخضوع فيترك
الكتابة نهائيا وعلى السلطة ان تتكلف بأمر معاشه بصورة مرضية وتنقذه من
بؤسه ، واما ان تزجه في السجن ، وما اسهل عليها ان تفعل ذلك •

فرفع رأسه مجيبا وعلى شفثيه ظل ابتسامة لطيفة « أيها الرئيس لست
أرضى عن المهمة التي على عاتقي بديلا ، واني لا شعر بعدم وجود من يقوى
على حملها سواي ، وانه من واجبي ان اتحمل المصاعب واقاسي الازوال في
سبيلها ، واني لأرحب بالسجون ، واستهين بكل المصاعب في هذا السبيل ،
هذا كل ما لدي » •

واستغرب الرئيس ذلك الجواب وقال ملاطفا « ولكنك وعدتنا امس
غير ذلك ، وكان يظهر عليك انك قد خفضت جناح الذلة وودعت هذا
الجنون » •

فأجابه : « اني اعتر بهذا الجنون ، ولست استطيع العيش بدونه ،
فلك ان تؤدي واجبك ياسيدي وتنفذ ما ألقى اليك من امر » •

وتطلع المدير الى هذا المعتوة بعينين متلهفتين الى اكتناه سر هذا الانقلاب
الغريب ، ولكنه لم ير غير ابتسامة تثير وجهه وعينه ، وذهب الى الظن بأن
هنالك من حرضه على المقاومة ووعدته بشيء ما ، انه ليمنى بجذع الانف ان
يعرف من هذا الذي غيره ليدق له عنقه ، ولكنه مهما حاول فبهيات ان يخطر
بباله انها فتاة مجهولة •

زهرة في الرغام

عندما رأيتها آخر مرة وجدت انها قد اكتملت ونضجت ، حتى غدت بهجة النظر ، وكدت انكرها من كثرة ما قد طرأ عليها من تغير

عرفتها فيما مضى ، يوم كانت صبية صغيرة ، لطيفة المعشر ، مؤنسة الحديث . كانت كالزهرة النظرة ابان تفتق اكمامها ، وكان مرآها يذهب الكمد ويزيل الهم ، فوجهها الصبوح لا يترك مجالا لما عداه اذا ما وقع البصر عليه ، وحرركاتها الرشيقة البريئة ، وهي في لهوها الصبائي تجبر من يراها على الابتسام مهما كان متشائما مهموما .

وكانت الى ذلك رقيقة الحاشية ولوعة بمن هم اصغر منها من الاطفال تحنو عليهم حنو الام ، وما كانت تعرف شقاوة الصبيان وقساوة بعضهم . عندما يكونون في مثل تلك السن .

أما اليوم ، فهامي ذي فتاة في عنفوان الصبا ، كالزهرة المكتملة الفواحة .

مرت جميلة ، رشيقة الاعطاف ، لينة الحركات ، فعرفتني من وجهها الصبوح عندما مرت ، وانكرت ظل سحابة من الهم تكدر صفو ذلك الوجه المنير ، وظننت لاول وهلة بأن التقدم في السن قد اكسبها تجاربا وحكمة أذهبت عنها بعض مرحها وافقدتها خفة روحها .

فبحت بما جال في خاطري الى رفيق كان معي وآها كمن رأيتها عندما
مرت بنا كالنسيم ، وكان يعرفها كما عرفها ، فقال لي « اجل انها التجارب ،
وقد اكتسبت منها مقدارا يكفي لقصم ظهرها . لقد تزوجت ثم طلقت » .

فدهشت وقلت « أما ان تزوج فامر طبيعي ، اذ ليت شعري من لا
يرغب في مثل هذه الحساء ذات الرواء والجمال ، واما ان تطلق بمثل هذه
السرعة فأمر عجاب ، فليت شعري ما الذي انكره البعل على مثل هذه الحساء
الوديعة » .

فقال صاحبي موضحاً « لقد فتن بها شاب موسر ، ومن يستطيع ان
يقاوم فتنها ؟ فأرادها لنفسه ، واحجم رغم شدة رغبته ، فأنت تعلم ان اهلها
ومن يحيط بها لا يتمتعون بسمعة طيبة ، ولست بموضع القادح او المادح ،
ولكن فلتعلم ان هذه السمعة رغم رداءتها لم تمنع الصبية من رفض كل
رابطة عدا الزواج ، وكان الاهل والاصحاب كلهم في جانبها . ويظهر ان
العائلة اجمعت على الرغبة في صيانة حياة الصبية من التلوث ، فلم يجد الشاب
مفراً من ان يعقد عليها بعقد مسجل ، وبصداق مقدم ومؤجل ، وذلك عندما
جازت درجة حرارة الغرام درجة حرارة العقل فلما خفت حدة الغرام بعد
الزواج بعدة اشهر ، وهبط منسوب فيضانه ، رجع الشاب الى صوابه ، ووجد
ان صوابه لا يقر له ان يصبح مضغة في الافواه ، لانه تزوج من صبية ، يقضي
العرف بأن تحاسب على سلوك جدتها وخلتها وعمتها وام ام ايها ، وكل
اقاربها ، من النساء دون الرجال .

اما انها وديعة كالحمل ، طاهرة كالحمامة ، جميلة كالزهرة ، فأمر لا
محل له من اعراب العرف وبنائه . فطلقها آسفاً ، ولكنه غير نادم ، وهاهي
ذي كما تراها . ولست اعلم كم ستقاوم الراغبين في جمالها دون صيتها ،
وفي جسمها دون اسمها » .

أكانَ طريقانا وطريقَ الفتاة واحدا ، وكانت تسير أمانا فتلتهما انظار المارة على جانبي الطريق ، وتطلع اليها العيون تطلع رغبة تشتاها شوق الظامي ، وهو امام قلة من الماء البارد ، او جائع أمامه قصعة من ثريد . وكانت الرؤوس تدور غير مختارة الى حيث تسير .

وهجس في نفسي ان كل من في المدينة مصاب بجنون خاص ، اذ كلهم جائع ظامي ولكنهم جميعا يرمون طيبات طعامهم في المزابل ، ويريقون ماءهم الفرات في المراحيض ، وهم ينظرون اليه نظرة تكذب تفاقهم ، ولا يزالون يفعلون ذلك حتى يهلكوا جوعا وعطشا .

وكدت اصارح رفيقي بما هجس في نفسي ، فوجدت انه يتدربي قبل ان ابتدره ، وهو يشير الى زهرة جميلة قواحة ملقاة على قارعة الرصيف ، تكاد من شدة نضارتها ان ترسل شعاعا ورديا متوجا ، وتضوع رائحتها جو الطريق الخائق . فحشنا الخطيء لا لتقاطها ، ولما اصبحنا منا قاب قوسين او أدنى سبقنا اليها حذاء ثقيل ، فوطأها قدم احد المارة ، وكان صاحب تلك القدم غير المرتبطة بميني صاحبها ، مشغولا مع رفيق له يسير الى جانبه ، في حديث مسموع ، وعرفنا من تنف شاردة من ذلك الحديث انه كان يدور حول الدراهم والكسب .

ومررنا بالزهرة المداسة فوجدناها قد التصقت بالارض واستحالت خليطاً مشوهاً من ألوان كثيرة ، وغدت قذى من تلك الاقذاء التي تملأ الرصيف .

كانت الشمس ترصع وجه النهر الفائض بألوف من النجوم الفضية
للصغيرة ، يراها الناظر مرصوفة بخط عريض ، غير محدود الجانبين ، يقطع
النهر من شاطيء الى شاطيء ، وكانت الطيور التي تسميها العامة (نعاج الماء)
قد ازدحمت تحت الجسر واخذت تطير تحت اقواسه من طرف الى طرف ،
وهي تخرج اصواتا تشبه النعيب •

كانت مياه النهر الكدرة تكسب النهر لونا يشبه لون الارض الذي
تحده ، وقد تظهر بسبب امتزاج الالوان وانعكاس الاشعة او انكسارها
حمراء قانية بلون الدماء •

كان الصباح جميلاً كغيره من اصباح باكورة الربيع في بغداد ، وما
كنت ارى في مجلسي الذي كنت اشرف منه على شاطيء النهر غير بضع فتيات
فقيرات يفسلن خرقة بالية في مياه النهر الكدرة •

ولفت نظري عدد منهن قد اجتمعن امام كومة كبيرة من الملابس
والخرق ، وظننت انهن عازمات على غسل ما لديهن كبقية رفيقاتهن ، ولكن
احداهن وقفت قرب تيار يمر بالشاطيء ، وصارت ترمي القطع واحدة بعد
اخرى ، فيحملها التيار بعيدا نحو قلب النهر ، وكانت جد حريصة على ان لا
تعود قطعة منها الى الشاطيء ، فتدفعها الفتيات اذا ما دارت بها المياه نحو

الشاطي ، و يرميها بالاحجار والمدر . ومرت قطعة من تلك القطع تحست مجلسي ، وكانت قطعة كبيرة لما تبتل كلها بالماء ، ورأت القسم الاعلى منها فوق الماء ملطخا يقع كبيرة لا اشك بانها دماء جافة ، واصبح عندي في حكم اليقين ان كل تلك الخرق القذرة كانت ملوثة بالدماء . ترى دماء من هذه ؟ ولماذا تحرص القتيات على ابعادها الى وسط النهر ؟ وهل يمكن ان يكون لهذه الخرق سر ؟ وهل هي ذات علاقة بالجرائم العديدة التي ترتكب كل يوم ، فتناقل اخبارها الناس جميعا .

وكان آخر ما سمعت من اخبار هذه الجرائم المتكاثرة الغريبة جريسة شهدها طبيب ، فكادت تذهب بعقله ، ترويه النساء في منازلهن والرجال في كل مكان ، ومؤداه ان طبيا شهيرا مختصا بطب النساء ، قصد يوما في عيادته بعد ان انقضى هزيع من الليل ، وطلب منه باسم الانسانية ان يغث مريضة ، فلبى الطلب . وما كادت السيارة التي اقلته مع زائريه تسير حتى شد وثاقه وكم فوه وطمئن على حياته ، واخبر بان الغاية ليست قتله او سلبه ، بل سيخلى سبيله ، ويعود سالما اذا قام بما يطلب منه .

وسارت السيارة به في طرق مجهولة ، بعد ان عصبت عيناه ثم انزل وادخل دارا وازيلت العصابة عن عينيه فرأى نفسه في حجرة فضة الاثاث ورأى فتاة مروعة يحيط بها رجال ريفيون اشداء تبدو الشراسة في حركاتهم وسكناتهم .

وقال له كبيرهم بصوت اجش « ايها الطبيب امامك فتاة يجب ان تخبرنا بعد ان تقوم بفحصها ، اهي حامل أم لا ؟ يجب ان نخبرنا عن عمر الجنين ، وان حياتك متوقفة على صدقك ، فسنتح بطن الفتاة بعد اعطائك النتيجة في كلتا الحالتين ، فان قلت بانها حامل ولم تكن كذلك ، قتلت انتقاما لها ، وان ظهرت بانها حامل بعد ان تقول بانها ليست كذلك ، قتلت بسبب كذبك وخيانتك ، فحياتك في يديك » .

وقام الطبيب بمهمته والرعب يكاد يقتله ، وقرر بانها حامل ، وما كاد ينطق بحكمه حتى رأى الخناجر تفري بطن الفتاة ، واخرج من بطنها جنين قرر بأن عمره ثلاثة اشهر •

واخرج بعد ذلك من الدار كما ادخل اليها ، واخلي سبيله في بقعة مقفرة يجهلها ، فسار فيها على غير هدى حتى وصل بقعة مطروقة اهتدى من طارقيها الى حيث يقصد ، وعاد يروي للشرطة اغرب حادثة شهدتها عيناه ، وافجع مشهد يمكن ان تقع عليه عين انسان •

واعدت النظر الى النهر فرأته يحمل بين امواجه بقايا تلك الخرق ، وخيل اليّ عندما نظرت الى الفتيات ، وكن ريفيات ، انهن كن يقمن بمهمتهن بكره واشمئزاز ، وخيل اليّ انهن كن يشبعن تلك القطع باللعات •

ثم انكبت احداهن تروي ظمأها ، فخيل اليّ انها تلغ في الدماء •
ترى كم يطوي هذا النهر الاحمر الوقور الذي يسير وييدا بتمتمة خافتة ، من اسرار وعجائب ؟



المجموعة الثانية عشرة

صور شتى

الأهداء

عنا كما تتمخض العقول البشرية عن انظمة تدنيها خطوة من حياة الانسان
لالمثلى وتبعدها خطوة عن الحيوان السفلى ، يظهر من ابناءها اعلام هداة
متسلحون بالعقل والمنطق والجرأة في حربهم على الباطل حتى انهم ليصقون
في وجه الطفافة حماة الباطل وسيف هؤلاء الطفافة مشهر فوق رقابهم ...
قالى هؤلاء في كل عصر وفي كل مصر اهدي هذه المجموعة

ذو النون ايوب

تموز ١٩٥٤

الأدب ومجالان الأديب

مادة الأدب الحياة • والأديب الحق ، هو من يفهم الحياة فهماً صادقاً دقيقاً ويقدرها تقديراً صحيحاً ، ويحبها ، من ثم حباً عميقاً يساعده على العموم فوق لبحجها ، والفوص في اعماقها ، دون ان ترعبه مهالكها ، أو تخفيه تياراتها •

ان هذا الحب هو الذي يدفع الاديب الى الدفاع عن مقومات الحياة ، والتفاني في تصفيتها مما يكرها ، والقضاء على منقصاتها •

الاديب هو ابن الحياة البار ، فلا غرو ان تهبه الحياة من القوة والنشاط ما يساعده على النضال المستمر ، والكفاح الشديد في سبيلها لا يتذمر ولا يتأفف ، صبورا جلدا ، ملتذا بذلك لذة لا يعرفها غير من وهبت الحياة مفاتيح طلاسها ، واذاقته حلاوة أكاسيرها • فاذا شفى الاديب من جراء ادبه ، ففي شقائه هذا سعادته ، وان تعب ، ففي تعب راحته ، واذا ماشاخ ، ففي شيخوخته شبابه • ولا شيء يفزعه غير ما يحول بينه وبين الكتابة والتعبير عما يحول في نفسه من اصداء الحياة •

الاديب يفهم الحياة اكثر مما يفهمها بقية الناس ، لان في يده مفاتيح مغلقاتها ، وهو مؤتمن على ما بيده ، ومهمته فتح هذه الابواب وادخال

أخوانه من البشر الى هياكل الحياة ، واطلاعهم على ما في تلك الهياكل من كنوز ثمينة هي من تراثهم ، وحقهم فيها كحقه .

الحياة ثروة ثمينة ، وان اغلب الناس لا يعرف كيف يستمتع بهذه الثروة ، ان منهم من لا يعرف ماله وما عليه ، فمن واجبات الاديب ان يكون وصيا على أمثال هؤلاء القاصرين ، يحرس لهم كنوزهم ، ويصرهم بقيمة ما بأيديهم ، ويعلمهم كيفية الدفاع عن تراثهم والاستفادة منه .

الاديب لا يخاف الاصنام التي الهتها الخرافات ، ويعلم ان هذه الاصنام ليست الا هولة قد نصبت لمنع مباحج الحياة عن عامة الناس واحتكارها لفئة خاصة .

وهو لا يهاب المسوخ البشرية التي تخلت عن عقولها ، وباعت نفسها للصوص ، وقبلت ذل العبودية لكي تصبح لهؤلاء المحتكرين حراسا وجلاوزة . الاديب لا يرهب الطغاة والسفاكين ، سواء أهددوه شخصا بالسيف والنطع ، أم هددوا البشرية كلها بسلاح الذرة والجراثيم . فهو يعلم ان الانسان هو أثمن جوهرة في تاج الحياة ، ولا يعقل قط ان يباد الانسان بما ابتكره عقله وصنعه يده . ومنطق الحياة لا يقبل الانتحار قط .

كل ما في الحياة يعني الاديب ، وهي من ضمن مجالاته ، فالفنون بألوانها ، والعلوم بأنواعها ، والاعتقادات والتقاليد بمجموعها ، كل ذلك من مجالاته .

أحقق هو من يعتقد ان الاديب لا يضره جهله بالعلوم المادية والاجتماعية ، وليس له ان يتدخل في السياسة ، ان من يريد ان يحمل شرف هذا الاسم ، عليه ان يلم بطرف من كل ما استحدثته البشرية ، ودخل في نطاق حياتها ، وكلما ازداد بذلك عمقا ، ازداد أدبه أهمية ، ولمع نجمه وتألق .

الاديب ، ان عبر بالسلوب النظم في قصيدة أو بالنثر ، في قصة أو مقال ، او بحث فقيمة اتاجه بقدر قيمة ما فيه من خير للحياة •

جرأة الاديب ضرورية في كل عصر ومصر ، جرأة في مصاولة الطغيان ومقارعة الاستبداد ، وتقطيع قيود اسارى ابناء الحياة • وما يضحك ، ان ترى بعض من يدعى شرف حمل هذا الاسم (الأديب) يتهافت خوفا من ناقد جاهل او غر احمق ، يعتبر الادب فنا لا يتعدى تسطير الكلمات الجوفاء ، او ملهاة للنوكة وهو الذي يجب عليه ان لا يخاف السلطان الاكبر اذا ما اشتط وطغى • ان مثل هذا كمثل مارد جبار يخاف من نسلة ، وان هذا الخوف ليفضح زيفه •

قد يتجاهل الاديب بعض الناس احيانا ، وكلهم احيانا اخرى وقد يكون معذورا اذا تجاهله الكل او البعض ، ولكنه لا يعذر قط اذا تجاهل نفسه ، ونسى المهمة المقدسة الملقاة على عاتقه • فركن الى الراحة ، واغرق نفسه بالمخدرات التافهة ، التي تنيه لذة الحياة الكبرى لذة مداعبة اسرار الحياة العليا ، والسباحة في تياراتها العذبة • انه ان فعل ذلك فقد مات وقبر •

فناء الجسر

قالت الأم للأب وهي تحاوره :

« لقد أَرعد الرئيس في بيانه الأخير وأزبد » •

فأجاب الأب « تهديد فارغ ، وماذا يستطيع ان يفعل اكثر من حمل الشرطة على ضرب الشعب بالرصاص ؟ لقد جربها رفيق له من قبل ، فباء بخسران ميين • »

وتوقفت فاتكة عن احتساء كوب الشاي وبدأت على قسماتها الدقيقة ، وهي تصفى صرامة شديدة ، وازافت ساخرة « رصاص الشرطة ! لقد كان الناس يرهبون الرصاص والشرطة ، حتى اطلق الشرطة رصاصهم ، فاذا هو حصباء اطفال • لقد غدا الشرطي يخاف اطلاق رصاصه أكثر مما يخاف الطالب ، وهو يستقبله بصدرة أو برأسه • سريهم اليوم قيمة هذا الرصاص الذي به يهددون » • ونهضت متوثبة كما يتوثب النمر عند رؤية عدوه ، والقت عباءتها فوق رأسها بدون عناية وخرجت •

وابتمس الأب وشاع السرور والحماس في محياه ، وكان يراقب زوجته فيزداد ابتساما كلما ازدادت آثار القلق على وجهها في حركاتها •

ثم قال مداعبا « تخافين عليها ، اليس كذلك ؟ » فاجابت الام وهي

تحاول عبثا ان تخفي آثار القلق « لو لم تكن وحيدتنا لما اهتمت بالامر
مثقال ذرة » .

فقال الاب مازحا « وما رأيك اذا لم اعد انا ايضا ؟ »

فقهقهت الام وقالت « عند ذاك ساجمع نساء الحي واقود مظاهرة
ينفسي » وتبع الاب فتاته .

كانت بغداد قد استيقظت صباح ذلك اليوم لتجيب على بيان صاحب
الفخامة . الاسواق مقلقة ، ووسائل النقل معطلة ، والشوارع والمنعطفات
تموج بالاوالي ، من مختلف الاعمار ، ومختلف الاديان ، فلا ملل ولا نحل
ولا مبادئ سياسية متضاربة متناحرة .

أوما رأيت النمل كيف يسير وينتشر ويعمل . أو لم تلاحظه كيف
يلتقي مع بعضه فتلامس قرونه الدقيقة ، ثم يسير خطوطا ، وعقدا ، وكتلا
متصلا بعضها ببعض ؟ هكذا كان الناس في صباح ذلك اليوم المشرق .

الناس في اتصال دائم في الشوارع والميادين ، وفي الازقة
والمنعطفات ، تسمع لهم همهم ودمدمة كتلك التي تسبق الزلزال ، وما
كان يقطع ذلك الاتصال غير النهر الذي تجري مياهه الحمراء بعظمة
وهدوء .

كان الناس كلهم بحالة نفسية واحدة ، لاثرثرة ولا كلام ، اما النساء
فختطيب في تلك الاعين النجل التي لم تعدد الكحل ، وقساوة في تلك
الاجوه التي لم تطل بالاحمر والايض ، وما كان يزينا من مكملات
الجمال سوى حلاوة التمرد وشراسة التهيؤ للقتال .

واحتشدت الفتيات ، وتجمع الفتيان وسار الكهول والشيوخ ،
وزحفت بينهم جماهير الصبيان والاطفال . جرى ذلك في كل جانب في
جانبى بغداد وتجاذبت الكتلتان العظيمتان حتى اشرقتا على النهر فامتزج
هديرهما بهديره .

لم يكن ثمة خطة مدبرة • وما كان هنالك امر مبيت • فالاعلام،
والشعارات هي ذاتها، والناس هم اولئك الناس الذين اتحدوا في تلك الفترة.
الحرجة دون تحريض او تشويق أو دعاية ، اتخذوا فجأة عند شعورهم.
بالخطر ، اتحادا لم تستطع جهود عشرات السنين ، قضاها المستعمر في خلق.
الفوارق ، ان تحول دونه • وارتفعت الهتافات وتنادت الكتل يشدد بعضها.
بعضا ، بأهازيج ملهبة للدماء •

كانت تلك الرغبة الغريزية في الجمهور عندما يتكثل تعمل على دفع.
المتجهرين في جانبي بغداد على الاتصال ، واقترب الجمعان من رأسي.
الجسر •

وبان الجسر خاليا يلتمع بلاطه تحت اشعة الشمس الدافئة ، وفي.
وسطه المرتفع حيث يتلاقى منحدره رأى الجمهور ذوي الالبسة الخضراء.
ورأى البنادق والرشاشات •

ولعل غريزة التجمع التي دفعت الناس الى الاتصال ، قابلتها غريزة.
التفريق ، فدفعت صاحب الفخامة الى ان يحول دون هذا الاتصال فقطع.
وسط الجسر بشرطته وسلاحه •

وهددت الجماهير عندما رأت من كان يقطع الطريق ، فكان هديرها
كهدير الرعد ، وامتلا رأسا الجسر بكتلتين متراصتين زاحفتين • ولعلعت.
البنادق وصليات المدافع الرشاشة ، فخلا الجسر الا من جث مطروحة على.
بلاطه ، ودماء متدفقة منصبة في النهر الاحمر •

وفي تلك اللحظة وصلت فاتكة الى رأس الجسر ، فابصرت كل شيء،
واحتقن وجهها الاسمر بحمرة قانية • رأت امارات الجراة في وجوه.
الناس ، لا امارات الانهزام • ورأت شابا يحاول ان يغالب الانم ويسد.
الشغرة المفتوحة في صدره يده ، والعلم مرتفع يمينه المرتجفة ، فلم تهمل،

ولم تفكر ، ولم تر غير حمرة النهر وحمرة الدماء على الجسر ، واستحالت
المرئيات في نظرها حمراء قانية . واسرعت فلفت عباؤها حول وسطها
وركضت نحو الشاب ، فتناولت العلم من يده ، فسلمه لها مبتسما
راضيا .

وارتفع العلم بيدها وارتفع معه صوتها « الى الامام وليسقط
«الطغيان»

ولم تلتفت لترى من تبعها . كان هدفها ان تصل منتصف الجسر اما
لذاذا ، أو ما سيعقب ذلك ، فلم يخطر لها ببال .

وشمرت بالهواء يهب في وجهها ويداعب شعرها ، وسمعت دوى
الرصاص متزجا بانين المصايين وزمجرة المهاجمين ، وسمعت صفيرا يعير
اذنيها مرارا واحست بحرارة تكوى طرف جبهتها وبقطرات من سائل
دافئ ، فلم تقف ، ولم تتساءل ، ولم يحاول ذهنها الفارق في قبض ذلك
الحماس الجنوبي أن يستطلع كنه ما تشعر به الحواس ، هان أو عظم .

وبلغت قمة حنية الجسر ، فلم تر شرطة او بندق او سلاحا بل رأت
رأس ذلك اليل المنذفع من طرف الجسر الثاني ، ورأت صفا متراسا من
كتلة بشرية تتقدم منها بسرعة هائلة ، فهتفت هتاف النصر ، واحست
بدموعها تغسل وجهها ، ورأت ذراعين مفتوحتين تتلقاها ، وشمرت
بعضرات الايدي تتلاقف العلم من يدها والقت نفسها بين الذراعين
المفتوحتين لها ، وجسمها يهتز اهتالا ، فيجاذبه جسد تلك العجوز التي
احتضنتها باهتزاز مماثل ، وسمعت نشيج العجوز وهي تقول بخنو
« ويحي لقد جرحوك . ما كان اعظمك وانت. تندفعين كالريح وحدك . »
لم نكد نراك حتى هان الخطر في اعيننا ، ولم نعد نبصر غيرك ، فقد
اندفعنا كلنا لاحتضانك ، وكنت انا اول من اسرع للقائك . يا للمجرمين
لمقد اصابوك . ان الدماء تيل على خدك . »

ومدت فاتكة يدها الى جيبتها وارجمتها مبتلة بالدماء فقالت.
« واعجبي اني لم أشعر بألم » وما كادت تنهي جملتها حتى وخرها ألم
حاد في جبينها »

وشعرت بالمعجوز تنهاوى بين ذراعيها ، فاسندتها الى حاجز الجسر.
الحديدي وقالت بلهجة رحيمة « اخشى ان تكوني قد اصببت انت ايضا.
يا اماء »

فقال المعجوز بصوت مرتجف « لقد شعرت وانا اركض فوق الجسر.
بشيء اعترض قدمي خلطاً فظننتها حجارة عابرة »

ولفت نظر فاتكة فيضان الدماء ينبع من قدم المعجوز ، فأنحنت برقة.
وقالت « لقد اصببت بقدمك » هيا اجلسي واستريحي حتى تأتي عربة
الاسعاف »

ووقفت سيارة الاسعاف حذاءهما ، ونزل شاب وسيم يرتدي.
البياض . ووجه الخطاب الى فاتكة وهو يمد يده الى رأسها بالقطن والضامد
« ان جرحك خفيف يا أختاه . ولكن خير لك ان تأتي معنا الى
المستشفى »

فأشارت فاتكة نحو المعجوز وقالت « هذه اولى بالناية يا دكتور »
وانحنى الدكتور نحو القدم الجريحة ففحصها برفق ثم قال « لقد اخترقت.
الرصاصة القدم واطننا قد استقرت في العظم » هل سقطت بعد الاصابة.
فورا يا اماء ؟ »

فأجاب المعجوز ضاحكة « لقد بقيت اركض حتى التحم الجعمان.
واتصل الناس وذابت تلك العقدة الكريهة المفرقة ، ولو لم تنهني هذه الفتاة.
الشجاعة الى جرحي ، لما عرفت اتني مجروحة »

ونادى الطبيب يطلب نقالة الاسعاف وطلب من حاملها الا يدعو
المعجوز تمشي على قدمها قط .

وسمعت هيفاء ، وهي تعين المعجوز على التمدد فوق النقالة ، الطبيب
يقول « ما اعجب معجزات ثورة الوجدان . ان جرحا كهذا كليل بأن يرمي
المصاب على الارض فوراً ، ولكن هذه المعجوز الجبارة في ثورة عواطفها لم
تشعر به حتى انحلت الازمة . »

ثم تلفت وتساءل « ولكن أين الشرطة التي احدثت هذه المذبحة ؟ »
فاجابة شيخ ادرد وهو يضحك ضحكة خشنه متهمكة « يخيل لي انهم ذابوا
أو انطحنوا بين الجماهير المتحاضة في وسط الجسر ، لم يرههم أحد ولا
يعرف مصيرهم أحد . »

واضاف وهو يشير الى النهر وهز رأسه « لعل هذا النهر الحكيم
الهادر ، الذي يعرف اسرار هذا القطر ، من يوم ان دب فيه البشر ، يعرف
أكثر مما أعرف انا وتعرف انت يا دكتور . »

واعان الدكتور فاتكة على الصعود الى عربة الاسعاف ، ولفت
نظرها الى شاب شاحب الوجه تبدو الرقة والوداعة في ملامحه وحركاته
وكلامه ، وقال « هذا جعفر ، لقد اصيب بجرح قاتل . »

ولم ترض المعجوز ان تبقى متمددة ، بل اعتدلت وحتت على الشاب
حاملة العينين . ومدت فاتكة يدها فاطبقت على يد الجريح الهادي .

فنظر اليها مبتسما شاكرا وقال « اني اشعر بسعادة خارقة ، وبنشوة
غريبة يا اختاه ، لقد كنت وانا وسط المعركة والرصاص يتساقط حولي ،
كمن ثمل بخمرة ازلية انسته الوجود ، واذابت روحه في تلك القوة
الكونية التي لا تفني . لست انسى رعشة السرور التي هزت كيائي ،

وانستنى الم هذا الجرح القاتل • اني اعلم اني سأموت ولكني سعيد جدا
بما حدث » • وانبعث من عينيه الباستين اشعة لطيفة خارقة •
واطلت فاتكة من نافذة سيارة الاسعاف ، فرأت في نظرات الناس
ما يشبه البريق الذي رأته في عيني البطل الجريح •
ودبت في بدننها رعشة •

وتذكرت ما فاه به الجريح العزيز ، وكيف وصف تلك الرعشة •
وشعرت بروحها تسمو فتزداد ارتفاعا • وقطعت عليها تأملاتها صرخة
الجهاهير المدوية كالرعد القاصف » الموت لسفاكي الدماء وخدام
الاستعمار » •



استعد همام للتفكير فجلس الى مكتبه وتناول القلم وهزه في يمينه عدة مرات كما يهز الفارس رمحه قبل ان يغير على خصمه ، وخط السطر الاول ، وهم بالثاني فاذا بقمهقه عالية ترن في الغرفة . وكان عدد اعضاء الجوقة التي اطلقت تلك الضحكة غير الموسيقية سبعة . وكف عن الكتابة ، فقد اسخطته الضحكة واثارته ، وكادت تبعثه الى الغضب ، ولكن ايمانه العميق بوجود مراعاة الاصدقاء والتساهل معهم جعلته يكبت تلك النزوة ، ويلتفت ضاحكا مع الجماعة ، واختلط النصف الاول من ضحكته بالنصف الاخير من تلك القمهقه المشتركة وبعد ان خمدت تلك النغمة الناشزة ، التي كدرت عليه صفاء تفكيره واشغلته عن الكتابة بالتفكير في معنى تلك الضحكة ومبرراتها ومسبباتها ، حضرته فكرة توجب الضحك وتسبب عاصفة اخرى منه ، فرتبها في ذهنه ثم قذفها في اوجه الحاضرين بكل برود وهدوء . وضجت الغرفة مرة اخرى بالضحك ، وانهت العاصفة مرة ثانية ، وانكب همام على الورق يحاول ان يخط بعض السطور ، وكان قد نسي النقطة التي وقف عندها في تفكيره ، وما استطاعت تلك الاسطر القليلة ان تدله على شيء ونظر الى الجماعة مرة اخرى ، وافتحت اذناه لسماع لفظهم وهذرهم ، واخذ يفكر بموضوع اخر ، لا علاقة له بما بين يديه .

يعتقد همام ان على عاتقه مسؤولية الكتابة والارشاد ، ويعتقد همام
ايضا ان عدد من يشعرون بالمسؤولية في مجتمعه قليل ، ويعتقد ان تلك
المهمة التي اخذها على عاتقه صعبة شاقة تحتاج الى الكثير من التضحية ،
ولكنه يعتقد بنفس الوقت بان في بعض الناس شيئا من السخافة ، وفي
البعض غير قليل من الجبن ، وفي قسم منهم غباوة ، وفي آخرين ذكاء
وانانية .

اعتاد همام - وهو محام بارز - ان يكتب في مكتبه بين اوراقه وكتبه
المبعثرة فوق منضدته بدون نظام . ولنزعته الديمقراطية كان مكتبه محل
استراحة المراجعين والاصدقاء والناصرين والمساعدين ، وحتى الخدم ، فهو
لا يرد طارقا ، ولا يغضب زائرا ، ولا يعاكس ناقدا ، وفي ضجيج كل هؤلاء
يكتب ، وقد يستمر في كتابة المقال الواحد اكثر من عدة اسابيع ، وقد
تستغرق معه كتابة السطر الواحد بضع ساعات او عشرة ايام !

وكان الموضوع الذي بين يديه في ذلك اليوم موضوعا مهما ، يتناول
البحث في الطريقة المثلى لاثارة اهتمام الناس فيما يتعلق بشؤونهم ،
وارسالهم وراء التبغ حتى يهتدوا الى صالحهم ويسيروا وراء المخلص
لهم .

وقد همّ - كما رأيت - بكتابة الموضوع فدون منه سطرين ،
وانتقل فكره الى ما يضحك صحبه وزواره ، وكان رضاؤه عن نفسه في
تلك النكته قد اوقفه عن التفكير في موضوعه ، وانتقل به فكره الى ماهية
السعادة والخدمة العامة ، فجالت في ذهنه الخواطر التالية ترى ما هي
السعادة ؟ وهل هؤلاء الحاضرون سعداء ؟ وهل هم في حاجة الى التفكير
في شؤونهم واصلاح نقائصهم ؟ وهل هم راضون عن اسلوب حياتهم
وطراز معيشتهم ؟ لاشك في ذلك والا لما كانت ضحكهم مرحة قوية رنانة ،
واذا كان هؤلاء كذلك فمن قال بان الطبقات الاخرى اسعد منهم حالا

واهدأ بالا ؟ لا شك انهم كذلك . اذن فالتاس يشعرون بالتعاسة متى ما تحولت انظارهم الى من هم ارفع منهم طبقة ، ويكون ذلك بواسطة هو ، وبواسطة امثاله ، فهو اذن يوقد حربا ، ويحرض الناس على خوض غمارها بينما يظهر امامهم بمظهر اللطيف المسالم ، فهو اذن منافق ، وهو يدعو الى الحط من قيمة النفاق والمنافقين ، اذن فهو منافق على حساب النفاق .

وهو من وراء عمله ذاك يثير الحسد في قلوب بعض الناس وحقد البعض الاخر ، فيكثر بذلك اعداءه ، ويثير الشعب ضده وربما اوصله ذلك الى تهلكة او سبب تقمة السلطات عليه ، اذن فيكون عمله حماقة مضرة ، فلماذا يضحي في سبيله براحته ، وبمستقبله ، وبجزء مهم من وقته وماله ؟ اذا كان يقصد الشهرة ونيل مركز اجتماعي مهم بهذه الطريقة فما احببه . سيقضي عدة ساعات في تحرير مقال يصدر باسمه في جريدة تحمل اسمه ، لها سمعة طيبة ، ولكنها كثيرة الاعداء وقد يكون هؤلاء الاعداء محقين في عدائهم ، اذ كيف يتأكد ، وهو يفكر بهذه الطريقة ، ان عمله مفيد ؟ واذا كان الامر كذلك فما فائدة تلك الجريدة ، وما فائدة عمله فيها ؟ وما فائدة الكتابة ؟ وما فائدة الارشاد ؟ وما فائدة تنبيه الناس ؟ وما فائدة كل شيء في الدنيا اذا كان من هذا الطراز ؟

وقطعت عليه سلسلة افكاره ضجة اخرى اشد مما سبقتها ، ضجة لم تسبها نكتة ، فرفع رأسه ،، ليجامل اصحابه ويضحك معهم ولكنه رأى الجو قد تغير ، ورأى علائم الاهتمام الشديد تبدو على وجوه اصحابه ، وما اسرع ما ساد السكون التام .

وهدأت حركة الجمع ، واشترأت اعناقهم ، وانكب احدهم على المذياع يعدل منافجه ، ويضبط أمواج الصوت فيه ، واذا بصوت القاهرة ، يعلو واضحا متباهيا فخورا ، يحمل البشرى بالغاء معاهدة مصر مع غاصبي

حرياتها ، معاهدة الحمل والذئب ، ذلك القيد الذى شل مصر طيلة سنين عديدة . ودوى صوت زعيم مصر ، بعد المذيع يلقي خطابه ، وبين للتاريخ كيف حطم القيد ، لا بالحديد والنار ، ولا بقتال الذرة ، بل بالمنطق والحجة ، والايمان بان للحق قوة هي فوق السلاح الابكم ، لقد آمن الرجل بأن البغي يصرع اهله ، وان الظلم مرتمه وخيم ، ثم اقدم على ما اقدم عليه غير هياب ولا وجل .

تطلع همام في وجوه اصدقائه ، فوجد البغته قد ظهرت عليها ، فكانوا كمن فوجئ بمعجزة خارقة ، فأدرك ان حياة اللهو والهزل ، وعدم الثقة بالنفس قد جعلتهم ابعد من ان يتوقعوا حدثاً خطيراً كهذا ، لقد يسوا من الخلاص منذ أمد طويل ، وايقنوا ان لانجاة من قيود الحاضر المقيت ، لقد فقدوا ايمانهم بحقوقهم ، وبقوة الشعب ودفعهم ذلك الى الاستخفاف بكل المقاييس المنطقية والادبية ، فلا رب ان يهتوا عند سماعهم ذلك النبأ العجيب . فقد كانت دهشتهم كدهشة من يرى ميتا يبعث من رمسه .

وما كاد المذيع ينتهي من اعلان تفاصيل ذلك الخبر حتى صاح احد الصحاب . « مرحى لمصر وابطالها ، والويل للطغيان وزبائنه ، يالها من شجاعة ، وياله من عمل وطني سديد . »

وقال ثان « لا جدال في عظمة هذا العمل ، ولكن الشك كل الشك في نجاحه ، وحتى لو فشلت مصر بعد ذلك في التغلب على القوى الاستعمارية المتحدة ، فإن لها فضل الاولية بين الشعوب المستضعفة المؤمنة بحقها . » فرد عليه الاول « لا تنسى ان امام قوى الطغيان المتحدة ، قوى الحرية المتحدة ، الاولى في تهافت ، والثانية في تكامل ، وان اخوف ما يخافه الطغاة استكمال اتحاد القوى الثانية . »

فأضاف ثالث « اجل ، ويراد منا ان نبذل دماءنا لمقاومة تكامل قوى الحرية ، لكي يخلو الجو لاعدائنا ليعشعشعوا في بلادنا ويبيضوا ويصفروا » .

وقال رابع يبدو القلق في محياه « اراكم متفائلين جدا ، ناسين اننا لا نعدو حفنة من العبيد الضعفاء ، يحكمها عدد من النخاسين تظاهروهم قوى هائلة ، تملك من الاسلحة ما تستطيع ان تبيدنا بها جميعا برمثة عين . ارى ان تأخرنا في مضمار الرقى حتى الآن قد جعلنا كمن حكم عليه بالعبودية الابدية » .

واستمر الحديث ، واحتدم النقاش ، وكان همام ساكتا يتأمل ، فقد جالت في فكره آراء كثيرة . ان هؤلاء المتفائلين يمثلون عقليات الناس في البلاد العربية كلها ، فمنهم من آمن بحقوقه ، وصمم على الدفاع عنها ، حتى الرق الاخير ، ومنهم من رأى ان العيش طيب ، حتى ولو تحت انيار الذل والهوان ، ومنهم من توهم ان العدد والصلاح فوق المنطق . وكثيرون يعتقدون ان العالم لا بد من ان يسوده الطغاة المسلحون ، وانه لا أمل للضعفاء في الخلاص .

لقد تذكر همام ان التاريخ يروى اخبار امم كثيرة ، مرت بمحن كهذه . فكم من امة نهضت من كبوتها ، وهضت عنها تراب الموت ، وحطمت قيوداً اثقل من قيود القرن العشرين . وقاومت قوى اكثر عتواً وبطشاً مما تواجهه الدول المستضعفة اليوم ، وكان ذلك عندما آمنت تلك الامم بحقها في الحياة ، واستشارتها الكرامة ، واستنارت بمصابيح الافكار الهادية ، افكار الاحرار من الكتاب والشعراء والفلاسفة المعاصرين .

وهنا اتبته كما يتبته النائم من غفوة وعاد يحاسب نفسه ويمحص اراءه الاولى . احق اذن ان الكتابة عبث ؟ وان ما يبذله الكاتب من جهد وتضحيات ، نافه لا قيمة له ؟ .

انه يستطيع ان يوجه غيره بقلبه ، ومهما كان عدد من يتأثر به ، فأن عليه مسؤولية ادبية تجاه هذا العدد ، عليه ان يغربل لهم الآراء الشائعة ،

ويجلى ما خفى من الآراء الصائبة ، وينبه الى تهافت الآراء الخاطئة . انه يستطيع ان يقوى المزائم ويثير الهمم . ان ما عرض امامه الآن من آراء اصدقائه المتناقضين يدل على ان ثمة افكاراً تنخر في النفوس والهمم ، نتيجة لفرضيات مغلوطة ، واخطاء قد زينت ليلتها بها . عليه ان ينبه الناس الى ان مغلوطة ، واخطاء قد زينت للناس ليلتها بها . عليه ان ينبه الناس الى ان العالم قد ارتقى ، لا قد تأخر ، وانه لا مجال لاضراب جنكيز خان في فرض جبروتهم وقسوتهم الهمجية من جديد . كلا والف مرة كلا . ان للشعوب اليوم قوتها ، بل ان لها الكلمة العليا ، وان للمظلومين صرخة داوية تغطي على اصوات المدافع والقنابل .

ان على من يريد الحرية ان يؤمن بها قبل كل شيء ، ثم يتعشقا ، وعليه ان يتعلم كيف يطالب بها . وعلى حملة الاقلام واجب التنبيه والارشاد في كل ذلك .

تنفس همام الصعداء ، اذ تبينت له معالم طريق واضح ، وهدف بّين منير . وتبددت شكوك الوهم حول قيمته واهميته ، فمضى قلمه مسرعاً لا يتعثر ولا يتذبذب .

ثورة العبيد

دق جرس الخطر عند السادة ، عندما دوى ناقوس اليقظة عند العبيد .
الاسياد هم اولئك النفر القليل الذين يسيطرون على شؤون العالم ، وفي ايديهم مفاتيح السلاسل التي تتنظم قيود العبيد . هم اولئك الذين جمعوا الالعنة في يد ، وقبضوا على السوط بالآخرى ، ليوجهوا ركب الزمن كما يشاؤون ، ويقرروا للعالم المصير الذي يريدون . ان معاملهم الهائلة ، بعجلاتها الجبارة ما تزال تدور مدوية ، ومظاهر الاحوال لا تشير الى خطر مباشر ، فما زال عرق الكد يسيل من عصارة اجسام الكادحين ، وبفضل تلك الآلات الجهنمية ، ينقلب ذهباً ينصب في خزائن الاسياد فيزيدهم قوة ومنعة .

ولكن ريح التدمير قد بدأت تهب من كل صوب ، تحصل الى آذان الاسياد في علاهم زمجرة العبيد المتذمرين . لقد دخل في روع العبيد بأن الاوان قد آن لان يعلن مسيرو الآلات الفعليون سيادتهم عليها ، ويضعوا بذلك حداً للعبودية بكل اشكالها ، فتتحرر البشرية من اكبر استغلال عرفه تاريخ العالم .

ربض مثل الاسياد ، ومختارهم العمود ، في قصره الالبيض السامق ، وحوله من ثمار الحضارة ما يجعله يبصر ما في الارض قاصيها ودانيها ،

ويسمع ما يخفى وما يظهر من اخبارها ، كالارباب الذين لا تخفى عليهم خافية .

وهناك في ركن بعيد من الارض ، حيث حطم العبيد اغلالهم بالامس ، ثم صهروها وصاغوها ادوات نافعة ، قامت قلعة الفتنة . لقد اتسعت رقعة الفتنة بسرعة ، وانتشرت فوضوها حتى شملت بقعة هائلة من الكرة الارضية ، وها هي ذي اليوم تهدد باكتساح العالم طراً ، والويل للاسياد لو امتد لهيها فشمّل بقية المعمورة ، لقد فعل الاسياد المستحيل لحصر تلك النار الآكلة التي تهدد امتيازاتهم ، ولكنهم كانوا لا يكادون يطفئونها في بقعة ، حتى تشب في اخرى ، حتى اسقط في ايديهم ، وخرج الامر عن نطاق سيطرتهم .

لقد ترمد عليهم العبيد في بقاع مختلفة ، واضطروهم الى حساب الند للند ، على حقوق شرعها الاسياد لانفسهم ، فتشبث بها العبيد تشبث الغريق بحبل النجاة . واستكان الاسياد ظاهراً ، فقدّموا لقسم من هؤلاء انظمة منخوبة ، ولآخرين دساتير مسمومة ، ولل بعض مظاهر كاذبة ، ولكن الخطر لم يجزر مده ، والعبيد لا يققون في مطالبهم عند حد ، لقد برهنوا على ان الخديعة لا تنطلي عليهم ، وان حبل الكذب قصير عندهم ، فاعلنوا انهم لا يرضون الا بالحقوق الكاملة ، والمساواة التامة .

كان الرئيس هذا على موعد مع انتصاره من ذوى الامتيازات الباطلة ، واعوانه الطفيلين العائشين بعرق جبين الآخرين . وما لبث جمعهم ان التأم وشرعوا يتشاورون ويتذاكرون . وصاروا يقلبون الامور على اوجها لتفادي حراجة الموقف وخطورة الحال . واحصوا الخسائر التي منوها بها ، والامتيازات التي فقدوها ، اما طوعا باساليب اللف والدوران ، وتخليص القسم الاكبر بتضحية الجزء الاصغر ، او كرها بقوة السلاح . قال كبير من المجتمعين « من كان يظن باننا سنخسر تلك القارة العظيمة ، تلك

البقرة الحلوب ، طائعين ؟ » و اضاف آخر « اجل . من كان يظن ان الرجل الاسود سيكون سيد نفسه ؟ وانه سيقف امام اسياده البيض موقف الند للند ؟ يقارع الحجة بالحجة ويفرض رأيه في ادارة شؤون العالم فرضا ؟ ولكن هل ثمة حيلة ؟ لو لم تفعل ما فعلنا لكان شأنه شأن الاصفر . وما اجمل ان تتخلص منهم جميعاً كما تخلصنا يوما من الاحمر . »

وانبرى عضو اشيب شيطاني الهيئة قاسي النظرات فقال بصوت خشن كفحيج زحاف فاتك « لماذا لا تؤمن بأن التاريخ يعيد نفسه . لقد قضينا بالبنادق الساذجة على بضعة ملايين من الهنود الحمر . واغتصبنا هذه القارة اغتصاباً ، فلماذا لا نبيد سلاح الذرة بضعة ملايين اخرى من الاسود والاصفر والاسمر فنصبح سادة العالم كما اصبحنا سادة هذه القارة . »

فأعترض عضو آخر موفور الشحم ، مكتنز اللحم ، كخزير معتنى بتربيته بقوله « اتعنى ما تقول فعلاً ؟ ولن ستكون السيادة الفعلية اذا حدث ما تتمناه ، اتكون لكم اصحاب القارة المعنية ، ام تقتسمها الدول التي يمثلها الاعضاء المجتمعون هنا ؟ انك لا تجهل باننا دولة لا تقل عنكم قوة ومجداً ، بل اتم قسم منا انسلختم عنا ، وتحررتم كما يريد بقية العالم ان يتحرر ، فالمنى الحرفي لما تقول يؤدي الى رجوعكم الينا ، ونظرية السيادة المطلقة لا مجال لتطبيقها الا بأخضاع الجميع الى قوة واحدة . فمن سيكون السيد ؟ ومن يرضى بأن يكون عبداً ؟ ان الله واحد ، والمملك واحد ، والا فلا اله ولا ملك . »

وتهاشم الاعضاء فيما بينهم ، وازداد اللفظ ، وقال صغير من المجتمعين « وما شأننا نحن بعد النصر ؟ انحن اسياد تحتاجون الينا ؟ وعبيد بعد تحقيق مآربكم ؟ اى ضمان لنا من شمخرة المنتصر ؟ »

وادرك الرئيس خطر التفرقة ، فقال متلافياً خطأ تابعه « اني اعترض على ما قال صاحبي ، فان خصمنا ، هو الذي سبب هذه الكوارث ، انصع

بشرة منا ، وهو رأس الفتنة ، وهو يملك ما نملك ، وباستطاعته ان يدمر
من بلادنا بقدر ما تدمر من بلاده . والكثرة معه لا معنا ، ولديه من المقدرة
والكفاءة العلمية ما لدينا ، واني لاخشى اننا لو اعلناها حرباً سافرة ، ان
نخسر المعركة ، ونكون نحن البادئين من البائدين . »

واضاف آخر « ويجب ان لاتنسى بأننا ، يوم جئنا هذه القارة ، كنا
مخيرين بين الموت وبين سلوك هذا المسلك الوعر ، ولا شيء يجبر الجماهير
التي تحت سلطاننا الآن على ان تسلك الطريق التي سلكنا . وقد تنقلب
علينا اذا ما ادركت ان لا مصلحة لها في هذه المخاطرة ، ولو آمنت بما يذمه
اعداؤنا ، لرأت ان التخلص منا ، نحن السادة ، يعود بالخير العميم عليها ،
ولا يألوا اعداؤنا جهداً في اثبات هذه النظرية والدعاية لها . »

وسكت الرئيس ملياً ثم عاد يقول « الحيلة اولى ، والرأى قبل
الشجاعة . ان اعداءنا الآن قسمان ، قسم حر من قيودنا ، وهو عنصر
الخطر ، وقسم بين بين ، يملك من الحرية اسمها ، ولا يملك من القوة حتى
ظلمها ، وباستطاعتنا ان نسلح القسم الثاني ، بعد ان نقنعه ، بأن ذلك في
مصلحته ، وان الخطر عليه من القسم الاول كالخطر علينا . ثم ندفعه بعد
ان ندججه بالسلاح لمحاربة العدو الخطر ، ولا يكلفنا ذلك أكثر من بضعة
ملايين نعتاض عنها بخيرات الشعوب المسخرة ، وبضع قتابل ذرية ، فاذا
ما اييدت هذه الملايين بأيدي غيرنا ، نعود بعد ذلك الى التصفية ، فنعيد
الشعوب المتمردة ، بعد نزع سلاحها ، الى سابق وضعها ، ونطرد من رؤوس
ابنائها ، هوس المساواة ، ثم نضع للعالم خطة محكمة دقيقة ، تنجينا من
شروع ما تورطنا به حتى الآن وتبعد عنا امثال هذه المتاعب . »

وقال ممثل صغير عن دولة صغيرة « الاترى معي ايها الرئيس ان
اجتماعنا هذا يشبه اجتماع قبيلة من قبائل التتر القديمة لغزو العالم ، واننا
لا نختلف عنهم الا بنوع السلاح . اتنا توهم باننا ما دمنا اغنى مالا واعز

قراً ، بأن عقولنا ارقى من عقول غيرنا ، اتنا لا نحسب للعقل الانساني حساباً . ان اعداءنا يملكون ما نملك من السلاح ، وهذه الحرب تؤدي الى فناء ونصف الجنس البشري ، اذا لم تقل اغلبه ، ان العقل الذي اوجد هذا السلاح يدرك هوله تمام الادراك . ان العقل الانساني العام يدافع عن نفسه . ان القوة المطلقة والسيادة المطلقة كلها أمور لا يؤمن بها عقل انسان القرن العشرين . لقد ثار عليها فيما مضى ، وشطبها من قاموس المنطق . . » وقوطع هذا المتكلم بدخول الحاجب يحمل برقية مستعجلة وما كاد الرئيس يطلع عليها حتى تجهمت اساريه وقال « كيف جرؤ هؤلاء العلماء على الهرب الى صفوف اعدائنا . انهم لخونة آثمون . ان بضعة اشخاص من علماء القوة الجديدة قد اذاعوا اسرار اسلحتنا الى اعدائنا ، وهرب قسم منهم الى صفوفهم اتنا ما كنا نبخل بشيء من الثروة والجاه والتمجيد فكيف حدث ذلك ؟ »

وهنا عاد المتكلم السابق فقال « ان هؤلاء العلماء المتمردين يمثلون هذا العقل البشري الذي كنت اتحدث عنه . »

فقال الرئيس مقاطعاً « ماذا اسمع ؟ أنعمت العبيد تتردد هنا ؟ ارى ان عقول بعضنا قد افسدها هذا الوباء الجديد . ايها السيد ان افكارك افكار هدامة ، فلا بد ان تكون انت وامثالك لنا او علينا ، ليس للوجهين عندنا قبول . »

وعاد السيد ذو اللحم والشحم يقول « ايها السيد الرئيس ، انك تعلم اتنا نستخدم هذه الكلمات الجوفاء لخداع السذج من العبيد بغية اصطيادهم ، فليس من الحكمة ان نستعملها في احاديثنا الخاصة . يجب ان نعود فنناقش قضية السيادة المطلقة التي رددت هنا قبل برهة . يجب ان نقسيم هذه السيادة ونقيدها وذلك بوضع القوة الجديدة تحت تصرفنا جميعاً لكيلا يكون لاحد منا مجال للسيطرة على الآخر . لان السيطرة لا

تعرف قانوناً ولا حدوداً اذا ما كانت مطلقة ، واني لافضل ان ينال العبيد جميعاً حرياتهم من ان اصبح عبدا مثلهم . »

قتلزل الرئيس واجاب « حذار من التفرقة يا جماعة ، والا فسضعف أمام اتحاد العبيد وتكتلهم . ان الفنائم لما تقع بأيدينا ، لتتنازع على اقتسامها . فأذا ما اتصرنا حق لنا ان نطالب بالقسمة ، ولكم على عهد الله وميثاقه . ان الثقة المتبادلة يجب ان تكون شعارنا . »

ودخل الحاجب كرة اخرى يحمل برقية ثانية فقال الرئيس وهو ينظر الى مهاجمة السمين شامتا بعد ان قرأها « ان دولة صغيرة من اتباع السيد الذي يريد مني المساواة قد اعلنت العصيان التام . متحدية كل ما لديه من قوة ، وهي لا تملك من الاسلحة حتى ولا ابسطها شكلا واقلها مضاء . »

فاجاب المخاطب « اجل لقد علمت بهذا العصيان ، وكنت اترقب يواده ، وانت تعلم دور اتباعك وجواسيسك في تأجيجه والتحريض عليه . لقد اجبرت على اتباع سياسة التسوية والمماطلة حتى يحين الوقت الملئم لتقييد هذه الدولة وامثالها الى الابد . لقد كنت انتظر تصفية المشاكل بيني وبينك ، وارتقب اتفاقنا نهائيا على القسمة العادلة وعلى خطة موحدة لسياسة هؤلاء العبيد . ولكنك كنت تملص دائما وتسوف وتماطل ، واني لاخلشى ان انا استعملت الصرامة في قمع هذا العصيان ، ان تأتي انت من ورائي مستعملا منطق اعدائنا ، وباسم الحرية والمساواة تسترضي هؤلاء المتمردين ، وتدخلهم تحت سلطانك، ولا تزال كذلك حتى تحرر كل ممتلكات دولتنا باسمك لكي تسلكها في سلسلتك ، وتبقى وحدك صاحب السلطان المطلق والحول العظيم . » فاكهر وجه السيد واتفخت اوداجه وصاح بوجه خصمه « ارى انك لا تؤمن بحقيقة اهدافنا ، فتدعى اننا نخادع بعضنا . »

فقهقه الخصم واجاب « الفرق بيني وبينك ايها السيد هو انني حين اصطنع امراً او اقوم بتمثيل دور لا انسى حقيقتي اما انت فلا تلبث ان

تسمى نفسك ، وتتهم بعد ان تكذب على نفسك ان الكذب قد اصبح حقيقة ، فتركض وراء هذه الحقيقة التي خلقتها انت ، جادا ، مع ان بينها وبين واقعك فرق عظيم . فعد الى رشذك . واعلم بأن من تكلمه يفوقك في تاريخ هذه الألعاب مهارة وحذاقاً وما انت في هذه السياسة الا طفل . »

وكان بقية الاعضاء اثنا هذا الجدل يتهايمون وقد بدت الريبة على وجوههم ، ولم يلبثوا ان اعلنوا بلسان واحد قائلين « ايها السيد ان مادامت القضية قضية قوة وضعف فنحن نعلن لكما باننا سوف لا نخوض حرباً ولا نخسر بذلك جندا ولا مالا ، فحاربوا اثم وعبيدكم ، ولتكن الغنائم لكم وسنرغب نحن هذه الحرب عن كذب »

ثم خرجوا تاركين السيدين المتنازعين ، كل ينظر في وجه الاخر ييمض وحتى . وفتح الرئيس جهاز الكلام مع اقطار الارض وطلب ممن وكلائه تقريراً مستعجلاً عن مشاريعه في تجنيد العبيد « وما لبثت التقارير ان توافدت عليه بلسان ذلك الجهاز ، وكل منها يشير الى انتفاضة الشعوب الضعيفة ضد هذا التسلح ومعرفتها لحقيقة نوايا هذين المتآمرين ، واستحالة إخضاعها بالقوة للغرض المطلوب . »

وهنا قال الملحم شامتاً « ارى اثنا وحدنا الذين يجب ان نحارب ، لاعداءنا الاقوياء الذين ينبعث الخطر من ناحيتهم ، بل هؤلاء الضعفاء الذين يترددون علينا في كل مكان . وخذها نصيحة مني ، علينا ان نوجه كل قواتنا لاخضاع اتباعنا ، هذا اذا ما قدرنا على ان نخضعهم لسلطاننا بالقوة ، مع المحافظة على دعوانا الفارغة في الحرية والاخاء والمساواة . »

صيد البشر

المدينة من تلك المدن القلائل في العالم ، من المدن التي تطوى تحت ثراها كنوزا جعلتها مطمع اقطار الشركات الضخمة، ذات الثروة الطائلة ، والقوى الهائلة ، تلك الشركات التي ما تزال تنزول بامثال هذه المدن وتتمشقها بل تضحي بالغالي والنفيس في سبيل نيل رضاها ، حتى تخضعها اخيرا لمشيئها ، وتقيدها بحبالها ، كما يقيد الاخطبوط فريسته باذرعه الثعبانية العديدة . فمن اساليب هذه الشركات الجبارة في نصب حبالها ، اظهار المسكنة والتواضع ، فتراها لا تريد العمار ولا الاشجار ، ولا استعماراً ولا استيطاناً، ولا سطوة ولا سيطرة، بل تريد شيئاً حقيراً قذراً كالتراب، تستخرجه من باطن الارض ، وهي تقول لمن فوق سطح الارض ، « اني اعطيكم ذهباً وهاجا لقاء هذا الشيء الحقير ، الذي ما كنتم ، لولاي ، لتعرفون وجوده في باطن الارض ، ولو عرفتم لما استطعتم لوحدكم استخراجة والاستفادة منه .

وترى هؤلاء الباحثين عن الكنوز (الحقيرة) يظهرون من التسامح وسعة الصدر ما يرضى الساذج ، فهم لا يعتقدون على العادات ، ولا يتحرشون بالتقاليد ، حتى ولا باحطها ، واكثرها ضرراً ، بل تراهم على استعداد للدفاع عن ائقلمها وطأة على النفوس ، واشدها تعويقاً للتقدم والرقى ، وهم يقدسون معتقدات السكان وخرافات القطان ، فتجدهم

متعاونين على نشر الاكاذيب والبدع والخرافات ، وهم فوق ذلك يبنون الممالك ويمنحونها الاستقلال (التام) ، ويحترمون علمها وملكمها ودساتيرها اكثر مما يحترم ذلك السكان . كل ذلك في سبيل هذا الشيء .
التافه الحقير الذي يستخرج من باطن الارض القذرة ، وهم فوق كل ذلك يدعون بأن لهم غاية انسانية نبيلة ، فهم المسؤولون عن رقى الاقطار المتأخرة .
من العالم ، وذات الثروات على الاخص ، فتراهم يجندون ويسلحون الفقراء .
من السكان لقاء جعل بسيط ، موهمينهم ان ذلك للدفاع عن مصالحهم في الداخل والخارج ، ولهم على حد زعمهم ، فضل آخر ، هو انهم قد اوجدوا عملا للعاطلين من السكان ، فصاروا يعلمونهم الحرف العصرية واساليب الصناعة الفنية ، وهم لا يريدون مقابل ذلك جزاء ولا شكوراً ، لا شيء .
سوى احتكار هذا الشيء الحقير واستخراجه . لقد خلقوا طبقة كبيرة من لعمال العصريين الفنيين ودفعتهم غاياتهم (النبيلة) الى وضع الخطط المحكمة لصيانة هؤلاء السكان ، الذين بدأوا يرون انوار المدينة بعد ظلام الهمجية الدامس ، لأول مرة ، من بعض مساوى هذه المدينة ، ومن هذه المساوىء الجشع ، والتطلع الى ما في ايدي الغير ، والتكالب على حطام الدنيا . فبدأوا يحضون الناس على القناعة والرضى بما في ايديهم ، ويشددون عليهم بأن لا يصفوا الى اصوات عمال العالم في بقية انحاء الدنيا ، اولئك الهدامين المتبردين الاشرار ، الذين لا يقف طمعهم عند حد ، ولا يمكن ازالة الحسد الذميم من قوسهم ، هؤلاء الذين يتطلعون دائماً الى ما في ايدي اسيادهم ، وذوى نعمتهم والمحسنين اليهم .

الا انهم (لسوء الحظ) يقاسون صعوبات جمة في مساعهم (النبيل) فالراديو اللعين ، والجرائد الخبيثة ، وكل وسائل المدينة الحديثة . تلك التي قربت البعيد ، قد اتاحت للصغير والكبير والعالم والجاهل والسيد والصلعوك معرفة ما يدور في الدنيا من احداث .

هكذا فسدت الطبقة الحديثة من العمال حين تعلمت مساوىء عمال الغرب . فعملت منهم كثرة الالاح بالمطالبة بزيادة الاجور والتهديد بالاضراب . ولكن ذلك لم يثن عزم انصار (العالم الحر) واليك حادثة واقعية تريك كيف يعمل هؤلاء (النبلاء) مع السلطان المحلي ، متكافلين متضامنين لقمع هذه الشرور .

نحن في هذه المدينة ، في كوخ حقير متواضع من اكواخها ، يضم رجلاً وامراًء وصبياً لا يتجاوز الخامسة من عمره ، عائلة صغيرة من طبقة العمال التي اوجدها هؤلاء المتدينون ، تعمل في استخراج هذا الشيء (الحقيق) للشركة العظيمة (المحسنة) .

الطفل يلهو ويلعب ، والاب يحاور زوجته فيقول لها « لقد بلغت الاسعار في ارتفاعها حدا لا يطاق . اما اجورنا فلم ترتفع الا بمقدار لا يسد ادنى الزيادات في تكاليف المعيشة ، ولو عثرت على عمل خارج الشركة لما ترددت في التحول اليه ، ولكنني اخشى ان اخطر بما في يدي فلا أجد آخر الامر ، الا اني قد اضعت المشيتين ، ولو بقيت عاطلاً لهلكنا جوعاً » .

فتجبه امرأته « ولكنكم تطالبون الشركة الان بحقوقكم ، وقد تألبتم وستضربون عن العمل ، فتشلون سيره ، وتحملون الشركة من الخسارة ما يضطرها الى الاستجابة الى مطالبكم » .

فيقول الزوج « اتنا بعملنا هذا كالغريق يتشبث بقشة ، فنحن نعلم ان السلطات المحلية تظاهر الشركة ، وقد هددتنا الشركة بالعقوبات القاسية اذا ما حاولنا الاضراب ، أو التظاهر ، ولكن اليأس يدفعنا حتماً الى ركوب هذا المركب الوعر ، واذا ما هذت الشرطة ما هددتنا به فتسحقنا سحقاً » .

فاصفر وجه الزوجة وقالت « سنكون معكم لنشد ازركم ، وسنحول بينكم وبين الشرطة ، ولا اظنها تجرؤ على ضرب النساء » .

واتبه الطفل الى الحديث الدائر ، فترك لعبه ، واقترب من امه وقال
« ماذا ستفعلون غدا يا ابا ؟ هل ستجتمعون وترفعون الاعلام ؟ هل
ستهوسون كما فعلتم قبل اسبوع ؟ ستكون اذن فرجة عظيمة ؟ »

وعاد الاب يقول « خير لك ان تأوى الى البيت مع الطفل في هذا اليوم
اذ اني اتوجس شراً ، على الرغم من ان السلطة لم يسبق لها ان تجاوزت
الحدود المعقولة في الارهاب »

فقالت الزوجة « اذا كنتم ستعرضون للخطر ، فلتحمل نحن الاطفال
والنساء بعض هذا الخطر ، فلعلنا نثير في قلوبهم بقايا نخوة فيتركونكم
تصارعون الشركة لا تتراع بعض حقكم في الحياة »

وعاد الصبي فالتهمى عن ابويه بما بين يديه من ألعاب .

وفي اليوم الثاني ، كان يوما قائضاً ، خرج الطفل مبكرا الى الطريق ،
باحثا عن رفاقه ، دون ان يبالى باشعة الشمس المحرقة فالاطفال لا يحسون
بقساوة الجو عندما يلعبون . ومضى بند بصره الى اقاصي الدرب باحثا
عن رفاقه ، وما لبث ان ارهف سمعه فقد التقطت اذناه اصواتا يطرب لها
اصواتا يذكرها جيداً ، ولمح جهوراً كثيفاً مقبلاً من بعيد .

واسرع لاستقبال الحشد حتى لاقاه ، ووجد الجموع تقصد البستان
في ضاحية المدينة ، جادة ، وادرك الصغير بالبدية ان الجموع لا تقصد
البستان للنزهة ، بل لامر جلل ، فالبستان على الرغم من اسمه لا يليق بأن
يكون منتزه ، والطقس الملتهب لا يساعد على النزهة في مثل ذلك الوقت.
من النهار .

وتذكر تنف الحديث التي سمعها امس ، من ذلك الحوار الذي كان يدور بين
ابويه . اذن فالיום هو يوم الفرجة العظيمة ، وقفز عدة قفزات في الهواء
وقد استخفه الطرب . وسار مع الجموع ، ووجد سحن القوم ولهجاتهم

الجادة وحركاتهم المتتدة الثابتة ثقيلة عليه ، فما اعتاد ان يراهم ساكنين في احداث كهذه . ووصلوا البستان ، فتسلق شجرة كثيفة الاغصان وهو يسنى النفس يحدث امر يره . واستقر بين الاغصان ، وكله شوق الى ما سيحدث .

وجد الحشد يتكاتف ، وانبرى من بين الجموع نفر يخطب ، وصفق المحتشدون له مرارا ، ولكن ذلك لم يدخل في وعي الصبي ، ولم يجد فيه ما يعجبه . انهم لا يرقصون ، ولا يفتنون ، ولا يتخاصمون ، ولا يهتفون ، بل يتكلمون عن الحقوق والمطالب ، فعلام هذا الجنون ، تالله ان الكبار غريبو الاطوار .

وبينا الصبي في هذه الهواجس ، اذ لمح جمعا آخر يتقدم من بعيد ، وساعده موقعه المرتفع ، وبصره الحاد ، على معرفة هوية القادمين . كانوا ثلة من الشرطة ، وحدته نفسه ان معركة ستصع بين الطرفين . فرقص قلبه سرورا ، ولكن حافظا لم يدرك ما هيته ، دفعه الى تحذير المتجمهرين ، فصرخ بصوته الحاد (البوليس) . ووجم الحشد ، والتفت صوب القادمين ، وتقدمت الشرطة حتى اصبحت من الجمهور على مرمى حجر من يد الطفل ، وتقدم كبيرهم يأمر الجمهور بالتفرق . وود الصبي من كل قلبه لو لم يطع الحشد الامر . وتكرر الامر مع التهديد باطلاق النار ، واعتقد الصبي ان الامر لا يخلو من تهديد كاذب ، وذهب الجمهور في امر التهديد مذهب الصبي ، حتى بعد ان صوبت البنادق نحوه .

وقفز الصبي دهشة ، قفزة كادت ترميه من على الاغصان حينما دوى صوت البنادق ، ورأى بضعة رجال يرتمون على اوجهم . وهم يترغون في التراب ، وانطلقت سيقان الباقيين تسابق الرصاص . وانطلق قسم من الشرطة وراء الهارين ، وتكرر اطلاق النار ، وازداد عدد الطرائد المتساقطة ، وهي تنقز عندما تصاب ، ثم تنمرغ فوق التراب .

وجم الصبي بين الاغصان ، فقد انقلب الامر انقلاباً لم يخطر له على بال ولما تعالى اثنى الجرحى ، واصطبغت الارض بالنجيع ، جمد رعباً ، وأخذته رجفة الخوف ، حتى كادت يداه تفلت الاغصان ، ورأى وكأنه تحت كايوس مرعب ، شاباً جريحاً يستغيث بأمه فأقبلت عليه تولول ، وما كادت تصل اليه حتى انقلبت فوقه برصاصة اخترقت ظهرها ، وهاله المنظر ، وتبخرت كل أمانيه ، وود لو كان في البيت بين ذراعيّ أمه ، ووجب قلبه الصغير وجيهاً متداركاً ، حتى كاد ان يسمعه ، ونسي نفسه وصرخ باكياً مرتجفاً . وكان بالقرب من الشجرة شرطي مشغول بجمع أسلاب تركها الفارون وراءهم ، او عجز القتلى عن الدفاع عنها ، فالتفت نحو مصدر الصوت ، ولعله ظن الصبي كميناً ، فصوب بندقيته الى الصبي الراقد بين الاغصان ، واطلق النار ، وكان الصبي يرى كل ذلك دون ان يدرك العواقب ، فقد كان حياً من بحران الخوف ، وحتى حينما اظلمت عيناه ، وشعر بألم حاد يكوى قلبه الصغير ولم يدر منه الا ان صرخ « أماه » ، ثم سكنت جثته بين الاغصان .

هكذا تعلم الشركة بالتعاون مع السلطات المحلية ابناء هذه الامة (المتأخرة) اصول (التمدن الحديث) اصولاً نقيه من كل الاوشاب . ومن يذهب غير هذا المذهب فهو شيوعي هدام من اعداء العالم (الحر) وانصاره المختفين وراء الستار الحديدي .

الكابوس

شعر الزعيم بشيء من الصداق يدب في صدغيه ، فصم على ان يسكر في النوم ، وألقى نظرة عابرة على طفليه ، وكان مغرما بالصغير منهما ، واقتربت المربية منه عندما لمحت نظرة الحنان المشعة من عينيه فتناول الزعيم طفله وقبله في وجنتيه وناغاه ، ثم خرج من غرفة الاستراحة قاصدا مخدعه . واستوقفته أبنته في الطريق ، وكانت ذات دالة عليه وقالت له وهي تقف في طريقه « أراك مبكرا بالذهاب الى فراشك ، كنت أود ان أسألك سؤالا » فألقى ذراعه على كتفها وسار بها قائلا « سلى ما بدا لك فقالت « لقد كانت حفلتكم باهرة دون شك ولاريب أنكم خضتم في أحاديث غاية في الاهمية . خبرني ياابا أحقا قد قررتم الدفاع المشترك ؟ » .

فضحك الاب واجاب « السياسة دائما ، ماذا اصابكم شباب اليوم ؟ مالكم تدبرون ظهوركم الى اللعب واللهو وتدسون أنوفكم في المتعبات التي تنوء نحن الشيوخ تحت ثقلها ؟ »

وتولى الابن البكر الجواب ، وكان واقفا في باب مخدعه ، وقد سمع كلام أبيه ، اذ كان ابوه واخته قد اقتربا منه وهما في طريقهما « لاريب يا أبي فلو نشبت الحرب لا سمح الله فنحن الذين سنكتوى بنارها ، أننا على عتبة الحياة وعذرا يا أبي ان قلت انكم قد استوفيتم نصيكم منها .

ان الحياة عزيزة علينا اكثر مما هي عليكم ، هذه هي علة أهتمامنا نحن الشباب بكل ما يدور في مجالس السياسة في مثل هذا الزمن الذي اضطرب أمنه ، وتعددت مفاهيمه ، وشاع الغش والكذب عند أساطين حكوماته • »

فبدأ الجد على وجه الاب وتوقف عند باب مخدع أبنة وقال « لستما طفلين يا ولدي ، واتما أدري بأننا أمة ضعيفة لا تملك من شؤونها ما تستطيع ان تتوجه به حيث تريد ، واذا ما نشبت هذه الحرب لا سمح الله فستكون حربا شاملة ولا خيار لنا في البقاء خارجها وليس ثمة غير جهة واحدة نستطيع الانضمام اليها ، وليس في مقدورنا ان ننظم الى الجهة الاخرى حتى لو اردنا ذلك • »

فقال الفتاة بعناد « لو ابدينا عزيمة واجهنا من يريد اشعال الحرب وهو من اعدائنا في الحقيقة ، برغبتنا في الحياد ، ولو حذت بقية الامم المستضعفة حذونا ، وهي ما تقوم به فعلا الآن ، لفت في عضد آلهة الحرب ولنجت البشرية من الكارثة حتما • »

وأضاف الابن « أن من يرى موقعنا لا يشك بأننا عبيد لا يملكون زمامهم • اتنا لا نحاول حتى نبدي خوفا او تذمرا ، مع العلم بأننا نحن الجنود ، بل نحن الخراف التي ستقدم الى المجزرة الشنيعة المقبلة • لم لا تستفتون الناس يا أبي في أمر يتعلق بحياتهم كلها ؟ لم لا تسمعون للناس بالكلام أو بالاعلان عما في سرائرهم ، ليس في المستطاع ان تكلموا الافواه بقضائكم حتى الابد ، ستحتاجون الى اذرعكم لاعمال اخرى يوم تقع الواقعة ، والويل لكم يومئذ من اتقام هؤلاء المستضعفين • »

ومد الاب يده الى أذن ابنه مداعباً وقال مازحاً ؛ ثائر • انت ثائر • أتجب ان اخبر المحكمة العليا عنك • ستجكم عليك أذن بالجس عشرة أعوام • » فقالت الفتاة « ولكنكم ستحكمون على السكان جميعاً بالاعدام

لو أطلعتم هؤلاء الجلاوزة اذ سيصبح ابناء البلاد جميعاً لهوة في فوهة هذه
الرحى الميدة » .

وتائب الاب وتخلص من فتاته وقال وهو يتوجه صوب مخدعه
« الموضوع عويص جداً يحتاج الى جدل طويل ، وانا الان تعب فلنؤجل
الحديث الى وقت اخر ، واتمنى لكما نوما هنيا » .

أسرع الاب الى خلع ملابسه واندس في فراشه ، وقد شعر بضيق في
صدره . لقد شرب اكثر مما يتحمله من هم في سنه ، لانه كان يداري بذلك
انزعاجه من أحداث سفره الدول القوية . فقد كانوا عندما يطلبون رأيه ،
يلوحون وكأنهم يفرضون عليه الجواب فرضاً . ان منطلق ولديه أقوى من
منطقه . حقا انه ليعلم بأن الحرب وبال وليس من ورائها فائدة لبلاده . بل
فيها الضرر كل الضرر ، فأذا لم يبد السكان جميعاً بالاسلحة الفتاكة
الحديثة ، فيصيبون حتما عبيدا للمتصر وقد مرت اكثر من تجربة واحدة
ظهر في نتيجتها كذب هؤلاء المدعين الصريح . لقد غدت أكاذيبهم لا تنطلي
حتى على الطفل الصغير .

واراد ان يستسلم للنوم وما كاد يضغط الزر الكهربائي ويطفىء
النور حتى اضيئت غرفته ببرق خاطف وسمع بعد فترة هدير الرعد من
بعيد .

واستسلم لسلطان الكرى وراح في سبات عميق . وركبه كابوس
مربع . خيل اليه انه يقظ أتم اليقظة وان الكون تكتنفه ظلمات بعضها فوق
بعض وسكون مريع كسكون القبور . وان هي الا فترة او بعض فترة حتى
انجابت تلك الظلمات بغته بنور وهاج كأنه ينبعث من عشرات من الشمس،
كل منها أسطع من شمس النهار ، وشعر ان الكرة الارضية نفسها قد
انفجرت كما انفجر البركان ، وكان بهر الضوء يعمي الابصار ، وهدير
الانفجارات يصم الاذان . وأبصر ويا لهول ما أبصر رأى عملاقاً جباراً له

وجه شيطان خبيث قد ملأ الافق بجسمه ، وطاول السماء بقامته ، يقذف من فمه حمما منها تنبعث تلك الانوار الباهرة ، وهو يقهقه قهقهة تصم الاذان .
انه يتكلم . اجل يتكلم انه . رعد يتكلم . انه ، يقول شيئا ان ذلك الدوى العظيم كلام ، وها هو يعي الكلام ، سمعه يقول وأنا رب الحرية ، أنا اساس المدينة ، أنا المعمر ، أنا القوى الاعلى ، عليكم ان تنضوا تحت لوائي ، عليكم ان تذوقوا بعض حلوائي » .

وشعر بياصرتي الجبار التي تشبه كل منها شمسا قد اتجهتا اليه ، وأحس بأنه ينصهر بالحرارة المنبعثة منها . وعلت قهقهات الجبار . ولكن ياللهول ان لهذه المارد ملامح يتذكرها ، انها ملامح رئيس حكومة الدولة التي أقيمت الدعوة ذلك اليوم في قاعات سفارتها . انه يهتف باسمه يكلمه « ايها الزعيم الجليل هاك لعبة لطفليك وهاك زوجا لابنتك ، وهاك وساما لابنتك » .

صهرت حرارة جسم الزعيم ، ولكن روحه كانت ترفرف وترى ، ابصر كرة من نار في حجم البيضة تتدحرج تحت اقدام طفليه ثم تدور حولهما وتنفجر فيتحول طفلاه الى بخار ، ورأى ملاك الموت بمنجله الهائل يتقدم وسط عاصفة من النار والدخان نحو ابنته فتدوب فيها كما تدوب حبة من ثلج وسط أتون متقد ، وابصر سهما ناريا كالشهاب الثاقب يندفع بسرعة الضوء فيخترق ابنته وينفذ منه بعد ان صيره كذبابة في تنور .

لقد افنى اطفاله بمثل لمح البصر ، ولكنه يحس بأرواحهم ترفرف حوله ، انه يحس بأطفاله يصرخون في وجهه جميعا قائلين « أبناؤه أو ترى ما فعلت بنا ؟ »

يا للعذاب ، ليت روحه تغنى كما فنى جسمه ، انه ليحس بأن جلده يتبدل كلما فضج . انه عذاب الله في جهنمه وياله من عذاب . كم يتمنى

لو يستطيع ان يتكلم او يصرخ او يبكي لينفس عن كربيه ، ولكنه لا يستطيع ها قد بدأ يشعر بالفناء يدب في روحه نفسها فيحس بالراحة تدب في كيانه الخيالي • مرحى مرحى ، ومرحباً بالفناء •

وفتح عينيه تدريجياً فلم يبصر حواليه سوى ضباب كثيف ما لبث ان أخذ يهتز ويتحرك ثم انجابت بعض أقسامه عن وجوه اليقة عزيزة عليه • رأى أبنته تمسح دموعها ، وأبنه بعض على شفته ليخفي اشعاليه ، وطفليه مروعين على ركبتى زوجته القلقة ، واراد ان يتساءل فوجد ان الكلام لا يخرج من بين شفثيه الا بصعوبة كبيرة ، انه يكاد لا يستطيع تحريك شفثيه ولسانه • وبعد جهد استطاع ان يتمتم « ماذا جرى ؟ »

وعندها رأى صديقه الدكتور يتقدم من سريره مبتهجاً ضاحكاً وهو يقول • « الحمد لله لقد زال الخطر • حذار من كثرة الشرب والاكل في المآدب المقبلة • لقد فات أوان شبابنا يا عزيزي • لقد اصبت بتخمة خطيرة • لقد بقيت غائباً عن وعيك تحت كابوس مرعب ، ولولا بقية من قوة قديمة لازالت تدب في عروقك لما استطعت ان انقذك • »



انسان قادر

« هذا شخص ذو أطوار غريبة ، من أولئك الذين يسرك ان تستطلع
خفايا عقولهم وخبايا قلوبهم »

والثفت الى حيث اشار جليسى ، وابتسمت عندما تعثرت نظراتي
بالشاربين الاسودين الكثرين ، المنسقين على الطريقة الاستالينية ثم سارت
متقلبة من الوجه الاصفر الشاحب ، الى الشعر الجعد المشط بعناية كبيرة ،
الى الثياب القديمة الحائلة الالوان ، التي يظهر منها ان صاحبها قد بذل
جهدا كبيرا في العناية بمظهرها ، من غسل وكي ، لكي تبدو انيقة تشير الى
رفعة ذوق مرتديها واناقتة .

وأجبت « ولكن من أى نوع هو ، من الذي تستهوينى شخصياتهم
كما تقول ؟ »

فأجاب جليسى « انه شاعر مفلس ، مغرور الى حد الجنون ، وهو كما
ترى من مظهره ، لا ينتمي الى تلك الزمرة المعروفة من الفنانين الذين
يتباهون بصعلكتهم ، وتحللهم من التقاليد والاعتبارات الاجتماعية عادين
ذلك شرطا مهما من شروط استكمال الحياة الفنية ووحيا العظيم . بل هو
متكبر متشامخ ، يشعر بالعظمة ويؤمن بالجبروت والطفيان . ولكن مالى
أطيل عليك الكلام ، قم معي لا عرفك به ونجلس في حضرة ولا تتوهمن انه

يتنازل فيأتي اليك ، وعلى ان انهك الى ان تكون على حذر لكيلا تجرحه بكلمة أو اشارة ، ولك ان تعظمه وتمجده بقدر ما تشاء ، هازلا او جادا ، فكل ما يدخل في هذا الباب ، هو في نظره معقول مقبول . »

وجرت بيننا مراسيم التعارف ، ومد يده لي مصافحا دون ان يتحرك من مجلسه ، ثم نظر اليّ مقطباً ، نظرة فيها كثير من الازدراء والتعاطف ، وقال « سبق أن سعت باسمك ، انك تكتب الاقاصيص ، ولكن أدبك رخيص خفيف الوزن ، ويلوح لي انك تستهوى الجماهير المنحطة ، في سبيل شهرتك ، بتسلقها وخدمة ميولها السخيفة ، وحاجاتها المبذلة » .

فأجبت ، بعد ان نظرت الى صاحبي نظرة خاصة ، لاطشنته « ليس في استطاعة كل انسان ان يحلق كما تحلق انت . ان النسر يعلو فوق السحاب بجناحيه القويين ، فهل من حقنا ان نلوم القطة على عدم مجاراته ؟ » .

فبش وهش وقال « ما أحسن ما قلت . ان الموهبة الفنية سلاح قوي . ولن يملك هذه الموهبة حق السيطرة والسيادة . وقد لا تعلم ان عددا عظيما من الناس يرهب قلبي ، ويخشى شدة سطوتي . اني اخيف صفارهم وكبارهم بشعري . ان قصيدة من قصائدي المثلثة تكفي لذلك مجد اعظم سلطانا اذا ما اکتوى بنارها . ولذلك تجد ان كلتي مسموعة في كل الدوائر ، ان المساكين يحتمون بي ، فانعم عليهم بقضاء مصالحهم ، وخصوصا اولئك الذين لا يستطيعون تخطي اعتاب الدوائر . »

وما كاد ينتهي من خطبته تلك ، حتى وثب ، وخرج بعد ان أوماً اليّنا مودعا ، متبخرا متباهيا بشأريه الكئين وقامته القصيرة وملابسه الخلقة .

فقلت لجليسى ساخرا « ان تحفك هذه ليست نادرة كما تقول ، وامثالها كثير ، مستشفى المجانين ، اتراه قد هرب ، او قد اطلق سراحه قبل شفائه ؟ »

فأجاب جادا « انك لم تقدره حق قدره • اقرأ هذه القصيدة قبل ان تحكم عليه • » وناولني صحيفة يومية ، و اشار بأصبعه الى قصيدة قد احتلت عمودا من اعمدة تلك الصحيفة ، فتناولتها منه وشرعت أقرأ •

ما كانت تلك القصيدة هجاء او مديحا كما تصورت ، بل وصفا رائعا لعاطفة ملتهبة ، بين فاسق وعاهرة • كانت من ذلك النوع الذي اغرم به الشبان من شعراء الجيل الجديد : حيث تراهم يصفون حرمانهم المهلك ، وتهافتهم على اللحوم الرخيصة ، تهافت الذباب على المزابل ، ثم ثورتهم الصاخبة على تلك المزابل وعلى انفسهم معا ، حتى تجدهم في النهاية يتقيأون تلك السموم شعرا • نعمة قد تكررت وقلدت الى حد الابتذال • ولكن تلك القصيدة ، كانت ، رغم كل ما قلنا ، تنطق بالروعة الفنية والوصف الواضح البليغ • وكان مما اعجبني فيها زيادة على ذلك ، قدرة الشاعر على استعمال الاستعارات الرمزية استعمالا يدل على حذق ومهارة لا بتلك الطريقة التقليدية التي يمجها الذوق السليم •

وكان جليسي ينظر الي متائلا ، فقلت له « ارى انك على شيء من الصواب ، ولكن بودي ان اسمع مزيدا من آرائه المجنونة ، وما ادراني انه لو نطق باللغو الذي فاه به قبل لحظة شعرا ، لاثّر في نفسي تأثيرا آخر ، لكان رأيي فيه غير ما قلت ؟ »

فأجاب « في استطاعتك ان تراه متى اردت ، وان رغبت ان تستيله ، وتفتح مغاليق نفسه ، فادعه الى شراب ، فالمسكر دينه ومذهبه وكل ما في الدنيا ، في نظره ، وسيلة للشرب غير » •

فقلت « اذن فأنتما مدعوان عندي اليوم مساء ، على زجاجة من العرق الفاخر ، فعليك ان تبحث عنه وتأتي به معك » •

فأجاب صاحبي مسرورا ، وكان ممن يعشقون مجالس الشراب ايضا « ستجدنا انشاء الله من الطائعين • »

وافترقنا بعد أن اتفقنا على الزمان والمكان •

وكان مساء لن انساء ، عوقت فيه على فضولي عقابا كاد ان يتبينني .
توبة صادقة ، لولا ان حافر الفن وشيطانه انسياني بعد مدة طويلة حوادث
ذلك المساء •

أجل لقد لبي الصديق العاقل القديم ، والرفيق المعتوه الجديد ،
دعوتي وأتيا في الموعد المضروب • وأقبلا على الشرب اولا دون كلام ، ثم ما
لبث العاقل ان خاض في الحديث ، وتبسط فيه ، ووجدته يحاول عبثا ان
يجر شاعرنا الى المشاركة في الحديث • ولكنه ، وبعد ان كدنا نأس منه ،
نظر الي فجأة ، شزرا ، وقال « الان فقط استطيع ان اصني اليك ، فسل ما
بدالك » •

فأجبت مبغوتا « الواقع اني احب مجالستك ، وارغب في ان استطلع
آراءك في أمور الحياة المهمة » •

فقال محتدا « بل انت تسخر مني ، وتتهم انني مجنون ، وتحاول
ان تسبر غور نفسي ، وتجلو خفاياها متوها انك تستطيع ان تستغلني .
وتستطلع كنه حقيقتي ، ولم تعلم انك اتيت لتصاد فاصطدت ، اذن فاسمع
رأيي فيك وفي أمثالك - اني اسخر منك ومن مثلك واهدافك ، واحتقر
طريقتك في الكتابة ، واستخف بك واحتقر آراءك ، واستطيع ان اعريك
بشعري ، واظهرك بحقيقتك • اني استطيع ان أعث بأدبك وافضح ضعفه
وتفاهته ، واحطمك ، واحطم اهدافك • اني احتقر كل هؤلاء الجالسين
حوالينا ، اني احتقر الناس جميعها • ان الناس ذئاب كاسرة ، بل حشرات
أدوسها بقدمي متى أردت • انني اسخر منهم حين امدحهم فأكافأ بالمال .
والجاء • انهم يقدمون لي ذلك عن رهبة لا رغبة » •

وما انقطع عن ذلك الهجوم الكاسح ، والاعتداء الصارخ الا لكسي ،
يقبل على الكأس ، فتراه لا يكاد يبلا كأسه حتى يفرغها في جوفه ، وشعرت .

بقلق قريب من الخوف ، فاذا كانت هذه حالته وهو صاحب فكيف به ياترى لو سكر ؟ والتفت الي صاحبي ، فوجدته لا يشاركني في قلقي ، بل وجدته ينظر الي بخبث ، وهو يجاهد ليكنم سخرته . وسرعان ما فرغت الزجاجاة فطلب مني الشاعر المعتوه ، بكل احتقار ، ان أطلب أخرى . فليست طلبه ، وقلت في نفسي « لعل هذا البذل سينسيه بعض جنونه ويجعلني أقرب الى نفسه . ورأيتة يمد لي يده ويقول هات يدك فمددت له متوهما انه يحاول ان يعبر عن وده بطريقة ما وسرعان ما سحبت يدي وانا اشعر بأن اصبعي قد قصفت ، فقد لواها على حين غفلة ، وقال مكشرا اني قوي ايضا ، كما ترى »

وخفت ان تلعب الخمرة بلبه اكثر من ذلك فيرميني بالمضدة وما عليها من نقل وأوان للشراب . فأردت ان الهيه بالحديث ، وبدأت أحاوره حول القصيدة التي قراتها صباح ذلك اليوم ، وابدت اعجابا صادقا ببعض مقاطيعها ، فقال ساخرا « هي من وحي ليلة حمراء مع بغي حقيرة ، ولكن تلك الليلة الحمراء اشرف من ليال تقضونها اتم في النفاق والكذب ، وتلك العاهر اعلى قدرا منك ومن كل من تحترمهم »

فقلت له « ولكنني احترمك انت »

فقال لي محتدا « كذبت . لقد اعلنت رأيك في لصديقك الحبار ، هذا ، وقلت انني معتوه ، وقد قبلت دعوتك ، لا برهن لك على انك انت المعتوه ، اذ سأكل واشرب على حسابك ، ثم اسبك واحترق واعتيدي عليك ، وانت راض ، فلا تصدق ، بعد كل هذا ، بأنني انسان قادر ؟ »

وكانت مفاجأة ليست في الحسابان ، والتفت الي صديقي محتدا ، فوجدت عليه دلائل البغته مثلي ، ولكنني اخذت ما بدا عليه ، مأخذ ممن امسك وهو متلبس بجريمته ، وشعرت بانني مغبون مغلوب على أمره ، مضحوك على ذقته .

نابتست ابتسامة من يضر شرا ، واجبته « لاجتاح على الانسان ان
اخطا في تقدير قيمة غيره ، عند اول مقابلة ، ولكن عليه ان يادر الى اصلاح
ذلك الخطأ على الفور ، والا فهو مستحق لما ذكرت من نعوت . »

ونهضت كأنتي ذاهب لقضاء حاجة . ولما قربت من الباب ، ناديت
النادل ، واخبرته بأن صاحب الدعوة هو احد الجالسين ، واشرت الى
جليسي العاقل الخيث .

ولما اصبحت في الشارع ، شعرت بشيء من الارتياح ، بعد هذا التأثر
الذي أدركته على الفور ، وكنت اعلم ان جيب صاحبي لا يسد حساب تلك
الوليمة ، وضحكت جذلا عندما تصورت مبلغ يأسه وخجله حينما يطالب
بتسديد الحساب .

ولم اكتف بذلك ، بل ذهبت لرؤيته ، في المقهى الذي اعتاد الجلوس
فيه ، مبكرا ورأيت في محله الاثير ، فتقدمت منه ، وسلمت عليه سلام حاقد
متشف ، وقلت له « ما كان اغناك عن تمثيل الدور الذي قمت به البارحة ،
وعن المؤامرة الخبيثة التي دبرتها مع صديقك المعتوه ضدي ؟ »

فنظر الي حائرا كسيرا ، واخذ يؤنبي على ما فعلت به ، وقال بلهجة
صادقة « كان عليك ان تدرك ان معجنونا ذكيا كهذا لا يصعب عليه ان
يكشف حقيقة رأيك فيه وفي امثاله ، وان تعلم بأنه لم يذكر ما ذكر الا
ليستطلع ما تبطنه ، وليتحقق من ريته فيك ، وقد اصاب الرمي ، فانتقم منا
نحن الاثنين ، بضربة واحدة وسخر منا سخرية ما بعدها سخرية ، وارضى ،
في الوقت نفسه ، غروره وايمانه بكفاءته وحدة ذكائه . »

الرسن القائم

« ادخل » . اخترقت هذه الكلمة صياخ اذنيه فكان لها وقع مؤلم كريحه . ونظر امامه ، فوجد بابا حديدا قد انفتح عن فوهة معتمة عفنة ، لا ترى خلالها دركة ، ولا تميز جدارا ، ولا سقفا ، ولا قرارا . قطعة من الظلمات قد استعدت لابتلاعه . واحس بيد الحارس تدفعه الى الامام دفعا هو الى المركز اقرب . فتقدم غير مختار ، ومد قدمه حذرا في الظلام فكاد يكبو بالرغم من احتراسه ، اذ ما كان يرى موطيء قدمه ، ادركة هي أم هوة أم أرض في مستوى الوصيد . واستقر على ارض ، بعد ان اصطدمت قدمه بها اصطداما ، وسمع الباب يصفق وراءه فيحدث دويا وزمجرة ، وعاد يتحسس طريقه مرة اخرى ، وعد ثلاث دركات قبل ان يتأكد بانه قد استوي فوق البلاط وتقدم بحذر ، وما كاد يخطو خطوة واحدة حتى لطمه جدار ، فولى وجهه شطر اليمين وخطى خطوة واحدة فأعترضه جدار ايضا فاستدار الى الراء ، وتقدم فتلقاه جدار آخر ليس ابعد مدى من سابقه . يا للهول ، ازمنة هذه ام قبر ؟ اجل انها قبر ، يستطيع الانسان ان يقف فيه . ولا يستطيع ان يتمدد او يضطجع . وعلل نفسه بإمكان الالقاء او التكور واحسن كأنه يستطيع ان يلمس الظلام الذي يكتنفه لسا ، وانه يتنفسه ، بل انه لينساب في عقله من أذنيه وباصرتيه واقشعر بدنه لما شعر بالرطوبة الثقيلة تتسلل الى عظامه .

اذن فيسقي ليلة بكاملها ، واقفا او مقفيا او متربعا في هذا القبر لكي يحقق معه في الغد . ولكن لم كل هذا؟ وما الذي فعل ليستحق هذا العقاب القاسي الذي اعد له قبل ان يدان لكي يدان ؟

وحاول ان يستعيد بعض تلك النصوص المسطرة في كتب الحقوق الضخمة ، تلك التي يقوم بتدريسها اساتذة يختالون بشهاداتهم الجامعية ، وبما حشروا في اذهانهم من مواد تلك القوانين وشروحا . ان التعذيب لغاية التحقيق وهو ما كان مباحا في عصور الظلام ، يعتبر الان جريمة منكرة . هذا هو منطق قوانينه ؟ اذن فهو مجنى عليه ، ولكن لمن المشتكى ؟

وافلتت من حنجرته قهقهة غير اختيارية ردتها الجدران كأنها تصفعه صفعا . ان الواقع يدحض نصوص قوانينه ، وهو اذ التعذيب للاعتراف ، وهذا هو الاول ، فاذا لم ينفذ في انواع اخرى من حبس المراهض الفائضة ، وتعليق من الاكتاف ، وجر الاظافر بالكلايب ، وكي الجسم بالمكاوي كما تكوي الثياب . اما الضرب والصفع والاهانة ، فلك توابل من التوابل والمشهيات ، لا من الوجبات الاصلية .

ولكن كيف يعترف ، وبم يعترف ؟ انه لم يفعل سوى ان شارك في مظاهرة ، وقد تبرع برفع العلم ، وتحمس اكثر من غيره فقاوم الشرطة مع من قاومها من رفاقه ، ولم ينهزم في اول المعركة ، فالتقطته سيارة الشرطة . وحشرته مع من لم يستطع الهرب من رفاقه ، وجاءت بهم رأسا الى هذا السجن ، ثم الى هذا الحب ... وقطعت عليه مجرى افكاره صرخة حادة. تنطق بالهول والرعب والالام ، اقتنعت عليه زنتاته ، من تلك الكوة الصغيرة في اعلى الباب ، فتصب جبينه عرقا واتابته رعدة اخرى .

وعاد يستعرض نصوص قوانينه ، ودساتير بلاده الديمقراطية . انها تصرخ بحرية التظاهر ، وتنص على حرية ابداء الرأي ، وحرية المعتقد الديني.

والسياسي • ولم يفعل هو وبقيّة رفاقه • غير ان تظاهروا مستنكرين قرارا حكوميا خطيرا وجدوا انه في غير مصلحة بلادهم • هذا كل ما حدث • كان طلاب كلية الحقوق اشد شعورا بخطورة هذا القرار من ناحيته القانونية ، فكانوا اول من استنكر واعلن استنكاره • لقد استعملوا حقاً من حقوقهم الدستورية ، فأين الجرم في كل ذلك ؟

ترى من يريد ان يقنع بمنطقة هذا ؟ أهذه الجدران الصماء التي تكاد تطبق عليه ؟ ام الظلمات الكثيفة المدلّمة ؟ لا ، ولكنه كان يعد العدة الى صباح الغد ، ويحضر ما سيدلي به ، وما سيقدم من حجج واعتراض واستنكار • ولم يعلم بالضبط كيف دهمه النعاس ، وكيف استطاع ان ينام ، وكل ما يتذكره هو انه شعر بصداع شديد ، وتعب قاتل فالتف على الارض التافا ، وتوسد ذراعه ، ثم استغرقه نعاس مزعج ، بل كابوس مرعب • رأى نفسه في داره ، مددا على سريره ، في غرفته الخاصة • كانت الغرفة معتمّة ، ولكنه كان يرى برغم ذلك وجوها كثيرة عزيزة ، ويسمع اجهاشات البكاء واصوات النحيب • هي ذي امه واختاه يندبانه وهن يلطمن الوجوه ويقطعن الشعور • واعتراه رعب هائل ، ويأس قاتل لما راهم يفسلون ويكفنون ويحملونه على الاعناق ، ثم ساروا به الى المقبرة ، ورأى اللحد قد شق له ، وشرع اصدقاؤه يدلون تابوته فيه باكين أسفين • ولما أحس بالتراب يهال فوقه ، استجمع كل قواه ، تحت تأثير نوبة حادة من اليأس والرعب ، واذا بقواه تعود اليه فجأة على اشد ما تكون ، فوثب في التابوت زاعقا بصوت يصم الاذان ، فطمه التابوت ، وورده الى موضعه ، فعاد يصرخ ويضرب التابوت بيديه وبكل جسمه ، وهو يبكي بكاء مرا ، ويصيح « لست ميتا ، لست ميتا ، اني حي ! » واحس بأن التابوت الخشبي قد استحال جدارا صماء ، وبأن غطاءه اصبح حديدا دارنين اخرس • فمضى يصيح ويصيح وقد جن جنونه •

وتميز وسط تلك الضجة التي أحدثها صوت ، مفتاح يدار في قفل ، ثم صرير باب يفتح ، وصوتا اجش يهيب به « هيا اخرج » فمد يديه ناحية الصوت كالاعى حين يتلمس طريقه ، وهو ما يزال يصيح مستغيثا باكيا . واطبقت على كتفيه ايد قوية جرته جرا من ذلك الجب ، ثم شعر بأنه يمشي بين اثنين في ممر طويل فتج في اخره باب . واحس بالنور الساطع يخز عينيه وخزا ، فغطاهما بيديه برهة ، ثم عاد يستقبل النور مترقفا بعينه ، ووجد نفسه في باحة السجن ، وكانت اشعة الشمس الباهرة قد ملأت الاكوان ، وشعر شعور ميت يعود الى الحياة فتقطع حواليه ، مرتجفا مبتهجا ، ووجد ثلاثة من رفاقه يحيطون به مبهورين مبغوتين ، وسأله احدهم « ما الذي جرى لك ؟ ولم تبكي وتصرخ ؟ هل ضربوك ؟ هل عذّبوك ؟ »

واجلسوه بينهم على مسطبة ، واتاه احدهم بماء رش به وجهه ، وجرحه قليلا منه ، فتمالك روعه ، وعاد يملأ عينيه بصورهم ، واجاب معتذرا خجلا « لقد كنت في حلم غريب اختلط باليقظة اختلاطا عجيبا ، ولو لم أركم ، وار نور الشمس ، لما ايقنت بانني استيقظت . هل قضيت ليالكم في ززانة مظلمة كززانتي ؟ »

فهزوا رؤوسهم ايجابا وقال له احدهم « سينادونك للتحقيق معك ، فقد طلبت قبل لحظة ، واعتقد ان والدك قد سعى سعيه لاطلاق سراحك » . وما كان الصديق يفرغ من كلامه حتى صاح احد الشرطة باسمه ، فلبى النداء واقتيد الى غرفة فاخرة ، مؤثثة باثاث فخم وثير ، وراى كبير الشرطة وراء منضدته الفاخرة واباه جالسا على احدى الارائك وبجانبه آخر يحمل ملفا كبيرا ، وهش له الاخير وبش ، واثار له بالجلوس الى جانبه .

قال ابوه « لقد قضيت ليلة ليلاء كما اظن ؟ هذا عقاب مستحب ، جزاء تدخلتك فيما لا يعنيك ، وما كنت اعلم انك من طراز اولئك الذين

يهوون الشغب والفوضى ، والخير فيما حدث اذ صانك من الوقوع في شر اكبر . »

وعقب كبير الشرطة بقوله « ان التقارير التي لدينا تشير الى كثرة اختلاطه بالمشاغبين في مدرسته ، وقد اشترك معهم فعلا في قيادة مظاهرة أمس ، ولكننا نعلم ايضا بانه لم يشترك حتى الان في الحركات السرية ولم يتورط في المبادئ الهدامة . »

ولم يجب بشيء ، فقد شعر بشورة تعصف في رأسه ، وباحتقار ومقت شديد من حوله . كان يريد الخروج مها كلفه الامر . واستمر التحقيق معه نصف ساعة . ولم يخف على المحقق شيئا ، فلم يكن لديه ما يستحق ان يخفي . وخرج مع ابيه بعد انتهاء الاستجواب ، وشيع الاب بالتجلة والاحترام .

وقال لاييه « أترأهم كانوا يطلقون سراحي بمثل هذا اليسر ، لو لم تكن انت ابي ؟ »

فأجاب الاب عابسا « وما الذي يعنيك من أمر غيرك ؟ »

وتلقته امه واختاه بين الاحضان ، وانطلقت بهم السيارة الفارهة نحو الدار الآمنة ، وعطلها زحام احد الميادين العامة ، فتطلع افراد العائلة منها ليتطلعوا مأتاه ، وعلقت انظارهم بمشقة شامخة تطاول السماء بكبرياء وحشية وقد تدلى منها رجل يتأرجح في القضاء ، فقالت كبرى الاختين « لقد شق هذا الرجل لانه اختلف مع السلطة الحاكمة في مدلول الحكم واصوله ليس غير ، بينما نرى الخونة والوراق والمرتشين ، لا تنالهم عقوبة ، بل وان بعضهم ليمتتع بكثير من المجد والجاه . »

فرد عليها اخوها هازئا « يق ول ابي ان علينا الان نهتم بشؤون غيرنا . »

فردت الام مؤنبة « لم تدسون انوفكم في امور لا تعنيكم ولا تفقهون خفاياها ؟ ان هذا مشاغب يريد قلب نظام الحكم . »

فتوئبت الاخت الصغرى وقالت متحمسة « لقد تتبع سير محاكمة هذا المسكين ، فلم اجد دليلا واحدا يثبت ما تقولين ، ولم يقيم بثورة ولا اجج فتنة ، بل كل ما هنالك انه اعلن رأيه في ادارة فاسدة ، ورغبته في تغييرها ، ومن منا لا يشاركه في رايه ؟ فهل نحن ايضا نستحق الشنق ؟ »

فعاد الاخ الى سخريته واجاب « لو كنا من طبقته لشنقنا حتما ، ولكن شكرا للجاه . »

فقال الاب غاضبا كفى هذرا فقد رايت عاقبة الطيش !

فأجاب الابن بابتسامة مرة « اجل يا ابي ، لقد رايت عجا . لقد علمت ان كل ما هو مسطر في الكتب من انظمة وقوانين ما هي الا حبر على ورق . لقد عذبت دون ذنب ، واطلقت لسبب غير وجيه ، وارادت الشكوى فوجدت ان الجدران لا تجيب ، والظلام لا يبصر ، والابواب لا تفهم ، فاقتنعت ، بعد تفكير ، بان من يروم الحرية ، والفكاك من اطباق الرموس ، عليه ان يحطم القيود تحطيا ، والا فليرض بالموت . »

النص والحكم

المحكمة غرفة صغيرة ، قليلة النوافذ ، سيئة المنظر ، تصدرها منضدة يعلوها مكتب جلس وراءه شاب يناهز الثلاثين ، نحيل البنية اسمر الوجه ، براق العينين ، هو الحاكم . وجلس امام المنضدة شاب اخر يناهز العشرين وامامه منضدة صغيرة ، في وجهه الشاحب المصفر ما يشير الى علة مزمنة . ذلك هو الكاتب وامام الكاتب مباشرة قام ققص صغير يشبه ققص الدجاج ، قد وقف فيه المتهم وهو شاب يناهز العشرين ايضا تظهر اثار الحمى في عينيه المحمرتين ، وفي وجهه المغبر الشاحب المرهق ، وما كان في الغرفة عدا هؤلاء غير شرطي ذي رتبة واخر لا رتبة له وعدد من المحامين قد اصطفوا قرب منصة الحاكم مرتدين جيبا سوداء كجبة الحاكم ، فوق ملابسهم . وختل المساطب المعدة لجلوس المتفرجين ومراسلي الصحف اذ كانت الجلسة سرية .

بدأ الحاكم يستجوب المتهم باستئلته المألوفة . ما اسمك ؟ ما اسم ابيك ؟ سنك ... الخ وكان المتهم يجيب بصوت ابح مرتجف . وبعد ان انتهى الحاكم من اسئلة تجمع واستعد ثم قذف التهمة في وجه المتهم ، قذفا شديدا يدل على شدة حقه على امثال تلك التهم « الشيوعية » ولم يكتف بتلك الكلمة المريعة الخطيرة ، بل اضاف اليها ما يفسرها « حمل الافكار الخطرة

على الامن » وما كاد ينتهي من سرد اتهمه حتى بادره المتهم متوتر الاعصاب
« ما تعني سعادتك بكلمة الشيوعية »

فأجاب الحاكم متهجما « ان مدلول الشيوعية معروف لا يحتاج الى
ايضاح واعمالك تنطبق على هذا المدلول » •

فأعترض المتهم « بل مدلولها غير معروف ان المطالبة بتطبيق الدستور
واطلاق حرية الرأي ، وصيانة حرية الاعتقاد ، والمطالبة بتطبيق قانون تحديد
ساعات العمل حسب القوانين ، والدعوة للسلام ومحاربة الاقطاع والدعوة
الى التقدم والرفي ، وكل ما من شأنه مقاومة الاستعمار والمطامع الاجنبية ،
يعني في نظر الحاكم الدعوة للشيوعية •

فأجاب الحاكم محتدا « لا اريد منك ان تلقي علي محاضرة في
السياسة ، لقد قبض عليك وفي جييك منشورا لجمعية سرية • وقد اعترفت
في التحقيقات الاولى بانك على اتصال بالحزب الشيوعي السري ، او تريد
دليلا اقوى من هذا على شيوعيتك ؟ » فسأل المتهم « وهل قرأت ما يحويه
المنشور ؟ »

فأجاب الحاكم « هو ذا بين الاوراق ولست بحاجة الى قراءته • يكفي
ان يحمل منشورك اسم الجمعية التي قامت بطبعه ونشره ليكون دليلا على
الجرم • »

فسأله المتهم ساخرا « لو فرضنا انني حملت منشورا للاعلان عن
حاجة ، وكان عنوان الاعلان (الحزب الشيوعي) فهل يعني ذلك انني متهم
بالشيوعية ؟ »

فصاح به الحاكم « لا تسخر ايها الفتى • ان مضمون هذا المنشور لا
ينطبق على المثل الذي ذكرت • »

فأجاب المتهم « ان المنشور يتهم الحكومة القائمة بتعطيل الدستور

وخرق القوانين • ولا شيء غير ذلك ، ان الجرائد العلنية تنشر ما تضمنه المنشور واكثر منه ، والشئ بمضمونه لا بعنوانه فكيف يعتبر وجوده في جيبى جريمة ؟ ، اما ما ذكرت من امر اعترافي فله قصة اخرى • لقد تعرضت في مركز التوقيف حيث جرى التحقيق الاولى معي الى انواع من الاهانة والعذاب ما كنت اصدق ما يشاع عنها قبل ان ذقتها بنفسى » واسرع المتكلم فنضى عنه الثوب فظهر جسمه يحمل كدوما وجروحا وآثار سياط • واستمر يقول « لقد بقيت تحت اسواط العذاب نحوا من ثلاث ساعات ، اغمى علي خلالها مرتين ، ولا بد انسى كنت اهذى من شدة العذاب • تصور ياسعادة الحاكم ان حول رأسك جبل قد شدتضيق دائرته على جبهتك بعضى تداره فيعصر الجبل دماغك عصرا ، فاذا لم تستسلم لما يراد منك من اعتراف اجباري أو افادة مكتوبة كوي جلدك بمكواة • او سمعت كيف يعلق الانسان من قدميه ويدلي معكوسا فوق مرحاض فانض حتى ليكاد يمس رأسه القذى ؟ تصور ما يعتريك لو بقيت كذلك اكثر من ساعة • ان التعذيب لتحصيل اعتراف من المتهم هو من مخلفات العصور المظلمة ومحاكم التفتيش المرعبة ولكنه يعمل به الان في عصر الحرية والمدنية ، في دول عصرية تنص قوانينها على منع ذلك معنا باتا ، وعلى معاقبة مرتكبيه • فهل تراني احاسب على ما يصدر منى من أقول اثناء التعذيب ؟ وهل تراني قد اغضبتك بما ذكرت وهل ترى في كلامي برهانا جديدا على انى شيوعى خطر على الامن وسلامة الدولة ؟ »

وسكت المتهم وجسمه يتصب عرقا ، وبهت الحاكم فلم يجر جوابا • وبدأ احد المحامين يحتج بينما كان رفيقاه يدونان الملاحظات • وعاد الحاكم بعد برهة فقال « اما التعذيب فيمكنك ان تقدم شكاية رسمية بشأنه ، ولسنا بصدد اتهام الشرطة والمحاكم وانتقاد انواع الحكم • يجب ان نحصر الموضوع في التهمة الموجهة اليك • »

فأعرض احد المحامين قائلا « والاصح ان تقول مساعدتكم ان نحصر المتهم في التهمة الموجهة اليه » . فنظر اليهم الحاكم شررا واجاب المتهم مزحجرا « اني غير متهم بشيء . انني مواطن محترم لا شائبة في سلوكي ، ولا غبار على اخلاقي ، ولم يبق ان سقت للمحاكم . لقد قبضت علي شرطتكم بدون مبرر واعتدت علي بالتعذيب بطريقة وحشية غير قانونية ، وحأكت حولي عددا من الاكاذيب لا ادري كيف لفتتها . فأنا الذي يجب ان اتهمهم في الحقيقة واطلب انزال العقاب لتأديبهم » .

فغضب الحاكم وصاح معنا « ليس هذا مقهى بل محكمة محترمة ولا مجال للنقاش والجدل السخيف . ليس في استطاعتك ان تهذي كما يحلو لك . لقد اطلت لك الجبل كثيرا ، فاذا لم تخفف من غلوائك سجلت ضدك تهمة اهانة المحكمة » .

فاكهمر وجه المتهم وقدحت عيناه شررا واجاب « عندما يقع شخص في ايدي قطاع الطريق يعلم ان لا مناص من خسارة شيء من اثنين ، كيه او حياته ، ولا كيس عندي اذافع عنه ، ولو كان عندي مال لا تمتنع عن الرشاء ، اذن فحريتي او حياتي مهددتان بالخطر . ولكني لا اخاف عندما يعتدى علي ولست ابالي حتى الموت » .

ووثب احد المحامين ليتدارك الورطة التي اوقع المتهم نفسه فيها فقال « ارجو من المحكمة ان تراعي ظروف موكلي الصحية ، وان لا تأخذ اقواله مأخذ الجد فما زال تحت تأثير السهر والتعذيب » .

فلم يعره الحاكم اهتماما بل اوعز الى الكاتب ان يسجل تهما جديدة ضد المتهم قذف المحكمة والشرطة والحكومة .

وقال المتهم للمحامي « ارجو من سيدي المحامي الا يعتذر عني وله شكري على التبرع بالدفاع عني . انتي بكامل قواي ، وانا اعني ما اقول .

ان حضرة الحاكم ملزم باداتي حسب اوامر عليا صدرت اليه ممن هم اعلى منه مقاما ، واكثر سيطرة ، انه يخضع للاوامر لا للقوانين . لقد علت انني مقضي علي من يوم ان اكتشفت انني بطراز تفكيري وكيفية فهمي لمعنى الحرية خطر على مصالح الدول الكبرى التي تحتل هذا الوطن وتكسب منه الملايين .

انني لا الوملك يا حضرة الحاكم فأنت تبيع ضميرك وعقلك في سبيل قوتك وقوت اطفالك ، ولكنني اوصيك بعد ان تصدر احكامك القاسية وتخلو بنفسك ان تفكر مليا فيما سببه لي من اذى فتحاسب نفسك وانت بعيد عن رقابة مستعبديك وملاحقة جواسيسهم .

وقاطعه كبير الشرطة ضاحكا « من الغريب ان هذا المتهم يريد ان يروج لمبادئه حتى في المحكمة . انه يريد ان يستميل سعادتك الى اعتناق مذهبه فياله من دعاية خطر » .

فالتفت اليه المتهم وقال بأحقار « لو كنت اعتقد ان الكلام معك يجدي لحاولت ان اقنعك برأي يفيدك ، ولكنني بعد ان رأيت معاهد التعذيب التي تديرها انت وامثالك ادركت اي نوع من البشر قد اصبحتم وتأكد بان ينكم وبين الانسان السوي هوة لا يمكن اجتيازها . لقد درب الكثيرون من امثالكم قبل الحرب الاخيرة في أوروبا ليقوموا بما تقومون به ، ولكن الحرب الاخيرة اجبرت البشر على ابادتهم ، اذ وجدتهم اعظم شرا من جرائم الاوبئة والحشرات القاتكة » فاحتد الحاكم وقال « ارى انك قد تطاولت على كل من في المحكمة . انك متهم بالشيوعية أولا ، وبأهانة المحكمة والحكومة ثانيا ، وبالاعتداء على الحاكم وكبير الشرطة ثالثا . تؤجل المحاكمة لمدة شهر ، وستبقى في الموقف خلال هذه المدة . »

فرفع المتهم رأسه في قصصه وصاح بأعلى صوته « فليسقط الطغيان

«وليجيا السلم العالمي ، وليسقط الاستعمار ، وليسقط الحكم البوليسي
الارهابي ، وليجيا الشعب وناصره . »

ودفعه الشرطي الى خارج القاعة بعد ان وضع الاغلال في يديه . ولكنه
استمر في هتافاته . ووقف من كان في فناء المحكمة متطلعا باستغراب الى
هذا المتهم الذي لا يخاف قانونا ولا قوة نظامية ، ولعل صوته مرة اخرى
« فليسقط مأجورو الاستعمار واذنابه والمدافعون عن مصالحه . » ولما رأى
الشرطة ، الذين اجتمعوا لاسكاته ، ان الزجر معه لا يكفي ، انهالوا عليه
ضربا بأخماس البنادق وبالايدي حتى اغمى عليه .



عَبْقَرِي زَمَانِهِ

سأحدثك عن عبقري من عباقرة هذا الزمان ، هو اعجوبة من أعاجيب هذا العصر ، عن اديب شاعر ، تاه على اقرانه ، واحتقر كل اصحابه وخلانه ، هو فرد من ابناء هذا الجيل ، ومن سكان هذا القطر العليل . اول صفاته انه يشير الى نفسه بالبنان ، غير ملتفت الى ما قاله الحكماء عن مادم نفسه ، بل ودون ان يدرك ما في ادعائه من مبالغة وبتان . العلماء في نظر عبقرينا هذا سخفاء بلداء والحكماء مجانين رعناء ، ولا محل للعبقرية عند كليهما ، بل محلها في من هم على شاكلته من الادباء والشعراء ، ولا تتوهمن انه راض عن ادباء عصره وشعرائه فهو يهزأ بكل من قال شعرا في بلاده ، ويسخر من كل من خط سطرا في لفته ، فالاديب الحق والشاعر الفذ في نظره ، هو ذلك العبقري الموهوب ، الذي ولدت عبقريته معه ، فهو فوق الدنيا جميعا وهو فوق كل الاعتبارات . وهو في تعريفه ، روح مجنون من حمأ مسنون لا تقف أمامه الحادثات ، ولا تصعب على همته المعجزات . الرصافي في عرفه ، شاعر قد مضى اوانه ، وختم بيانه ، واصبح من سكنة المتاحف وممن طويت عليهم المصاحف . والجواهري ببغاء فصيح ينظم اقوال الناس والجرائد في شعر مليح ، فهو وابن مالك في الفيتة سيان وهما فرسا رهان في هذا الميدان واذا ما حن على اديب او شاعر ، أسماه مصلحا اجتماعيا وما دعاة الاصلاح

في عرفه الا تبايات بشرية منافقة ، فهي تظهر غير ما تبطن ، تحترم
الوضع ، وتساعد الاحق الرقيع .

البشر في اعتقاد عبقرينا طبقتان ، اساياد وعبيد ، فالاساياد هم العباقره
الذين مر وصفهم ، وكل ما عداهم ، على الاطلاق ، عبيد . اجل ان الاساياد
هم هؤلاء العباقره الذين يوحى اليهم ، لا من الله كما يوحى الى الانبياء ،
بل من اعماق نفوسهم وحيا ينطق بالايات البيئات فتراهم يتحدثون عن
الانسان والاكوان ، حديثا ازليا لا يأتيه التغير من بين يديه ولا من خلفه ،
وهكذا العبقري ان نطق في العصر الحجري او في القرن العشرين ، وجدت
منطقه واحدا لا زياده فيه ولا نقصان ولهذا السبب تراه لا يهتم قط بعلوم
عصره ، ولا باداب زمانه ، ولا يرتق صفاء ذهنه العبقري بما قال الاولان ،
واخترع المتأخرون ، فبذرة العبقريه تحوي اصول كل ذلك حتما ما دامت
جزءا من الروح القدوس التي انطوى فيها العالم الاكبر .

هذه هي اهم صفات عبقرينا العظيم ، وحذار ان تظنني امزج واختلق
مثل هذه الصفات اختلافا ، وما عليك ، ان شككت بقولي ، الا ان تصغي الى
ما يدور من الجدل بين عشاق المجد وطلاب الشهرة من الشباب المفلسين من
العلم والدرس ، هؤلاء الذين يريدون الا يظهروا على مسرح الحياه ، حتى
يتلألأ نورهم فتضاءل بجانبه كل الانوار واني اعرف واحدا من هؤلاء
يعلن ما ذكرته واكثر ، فتراه يدلي بالحجة اثر الحجة للبرهنة على صحة
مذهبه دون كلل او ملل فأن سألته ان يدلك على واحد من الذين يستحقون ان
يطلق عليهم هذا اللقب العظيم ، رأيته يكاد يقول لا احد غيري . بل انه
ليقولها فعلا ، ان تأكد بأنك سوف لا تفضحه بالسخرية منه .

ولم اجد من يؤمن بقيمة نفسه ، ومن بين افراد هذه الطغمة مثله ،
وليس في استطاعتك ان تسمى هذا الايمان غرورا ، ولا جنونا ، فهو ايمان
قوي راسخ يدعمه منطق خاص . ولا يضيره الا يتفق غيره معه ، اذ ان

ذلك ينهض دليلا على انه في الفهم الواحد الأوحد والفرد الصمد اما ان وجد من يسير في ركابه ، ويسجد على اعتابه ، فهذا دليل على ان البشرية تشحن فكرها ، وتستجمع قواها ، لمحاولة فهم اسرار حكمته ، وخفايا عبقريته .

هذه هي فلسفة العبقرية ونظرياتها في رأي صاحبنا . أما ما اتحف به البشرية فعلا ، وما جادت به قريحته الصمدية بغية اثارة دهشة البشرية ، لا في سبيل خيرهم وهديمهم ، فشمر عجيب حقا ، ترى فيه الشبائيك تتكلم ، والجدران تتشامخ وتتألم والسطوح تتناطح ، والابواب تتحاور وتتصافح ، والعناصر تتحارب ، والرياح تتجاوب ، والحدثان تناوب ، الى غير ذلك من المظاهرة الازلية التي لا تتغير ولن تتغير ، وما فيها من اسرار لا يفهمها غير عظمتة الربانية ، واذا ما قرأت هذا الشعر كدت لا تفهم حتى مدلول الكلمات ، اذ انها قد اخرجت عن معانيها الى معان الهية ، واغراض هي فوق مستوى العقول البشرية . اما ان حاولت ادراك معاني العبارات رايت نفسك في تيه مظلم ليس فيه بصيص من نور، على انك قد تفهم منه ، ما لا يفهمه غيرك ، او تفهم العبارة الواحدة فهما يختلف باختلاف الظروف والزمان والمكان ، فاذا ما طلبت من الشاعر تفسيراً ، اجابك وهو مسرور مبتهج ، كل ما فهمت صحيح ، وهذا ما قصدت فعلا ، والا كنت كغيري من الزاحفين في التراب .

دفعني الفضول مرة فحاولت ان الفت نظر رب الارباب الى شأن حقير من شؤون العبيد ، لا بغية استدرا عطفه ، واستجداء رحمته بل لكي ارى انا الفضولي ، كيف ينظر العبقرى الاعلى الى شؤون الناس بعينه الربيين ، فقلت له « الا مجال في اياته الى فقرة تستهدف الاشارة الى الاوضاع غير المنطقية في حياة الناس ، لا بغية الانحطاط الى مستوى المصلحين ، ولكن بغية تفسيرها تفسيراً عبقرياً خالداً على حد تعبيره . » فما كان منه الا ان عيرني بجهلي ، وقال « ان ماتراه غير منطقي هو المنطق بعينه ، ولكنك

وامثالك مربوطون الى عجلة الطاحون بجبال من مسد ، هي حبال الثقافة التي تسمونها عصية وهي عبارة عن معلومات تافهة مكتسبة ، قد اعطت للاشياء مدلولاً ثابتاً ومقاييس راسخة . ان من يتجرد من الفلسفة المادية ، ويطل على الانسان من على ، لا يجد المظلوم مظلوماً ، ولا الظالم ظالماً . أما اللطف على المستضعف ، ففكرة دينية قد تحولت الى سياسة ، وكل هذه الامور من شؤون الحمقى الذين لا يرون ابعد من انوفهم ، ولا يستوعبون من الحقائق الا ما يحسب بهم ، فهم شبه دودة تسبح في الطين » . وعندها فهمت بان كل ما قد ينكب البشرية لا يعنيه في كثير او قليل ، فهو قد يرى الطغيان قوة تستحق التمجيد ، وهنا هجس في نفسي خاطر « ترى لو كان الادياء والشعراء والكتاب والفنانون على شاكلة هذا فلفائدة من تكون اعمالهم ؟ » واتى الجواب واضحاً « لا يفيدون الا عادة السيطرة والاستعمار وسفاسكي الدماء وسالبي الخيرات والاقوات . وصارحته بما دار في خلدي ، ففهمته في وجهي وقال « يستحيل على الانسان العادي ان يدرك ما ادرك » .

واخيراً فلا تتوهم بان صاحبنا قد وصل بعلمه وثقافته الى الذروة التي نأ بعد ذروة ، فدرس وتعلم ، وثقف وتهم ، وحاز من الدرجات اعلاها ، ومن الشهادات ارقاها ، فهو لم يكلف نفسه حتى اجتياز ما يستطيع ان يجتازه الاطفال ، امتحانات مدرسية او وزارية لانه كان كما يقول ، ارقى من هذه التوافه الصيانية ، واكبر من ان يحاسب على هذه الامور الاعتيادية .

وما كان في صغره ريب نعمة ، او نشأ في مهود الدلال ، فقد قاسى في صغره ما قاسى من بؤس واضطراب وتشريد . ولكن الادب استهواه وسحره الشعر ، فصب كل جهوده فيه ، ورغب في الشهرة ، واحب الجديد لما فيه من طرافة وذبوع ، فنظم الشعر صغيراً وأجاد في وزن قوافيه ، واقتفى اثر اتباع المذاهب الحديثة في الشعر وخرج من كل ذلك بهذا التكوين الفكري

الذى بسطناه ، هذا الشكل الذى يصعب عليك ان ترجعه الى فلسفة خاصة
أو تربطه ... بمذهب خاص ، وقد يسره أن نجعله مذهباً قائماً
بداته ، فاذا ما سخرت منه ، أو ابدت تعجبا ، سفه رايك بالحجة المعروفة
الا وهي جهلك باخر ما وصل اليه الفن الحديث ، الذى هو رمزه . أما
عسرة فهمه فبسبب تأخر الناس اذا قيس بتقدمه ، ويوم يصلون الى درجته في
التقدم والرقى سيتاح لهم ان يفهموه . واخشى ، بعد ان ذكرت ما ذكرت ان
تظن انها القارىء ، او السامع ، ان صاحبنا هذا ممن يسخر بهم ، او ممن
يرمون بالجنون ، او الرقاعة ، كلا ، فالامر ليس كذلك قط ، بل ان عنده من
المعجيين عدد لا يحتقر ، ولهم من الدعاوة ما لا تتوفر لكثير من زملائه في
هذه الحرفة ، بل واكثر من هذا ، انك تجدهم موضع اهتمام بعض اولي
الامر . وخصوصا اولئك الذين يكرهون المزج بين السياسة والادب ،
فتراهم يجدون امثال عبقرينا هذا ، ويحلونهم منزلة لا يحلوها غيرهم ،
ولعلمهم يحاولون بذلك ان يثبتوا للملا ، ان من يتدخل في شؤون السياسة ،
ويضايقهم بالاتقاد شعرا او ثرا ، لا يستحق ان يسمى شاعرا او اديبا ، لان
ذلك يتعارض مع المذاهب الادبية الحديثة ، وهل ثمة برهان ، اكبر من
وجود هؤلاء العباقر الا فذاذ ؟

فترى من هذا ان حججهم أقوى من ان يسخر بها ، ولا يهمهم قط ان
تكون انت وبعض اصحابك من المتمردين المشاغبين الثائرين ضدهم ،
فتقف لهم بالمرصاد ، وترميهم بتهمة تضليل الناس وابعادهم عن محجة
الصواب .

في احسا ومدينة مريضة

في ليلة سوداء لا قمر يضيء في سماءها فيخفف من حلكة ظلامها
ولا فكر متألق ينير عقول ابنائها ، رقدت المدينة العظيمة رقدة المريض المتالم،
لا رقدة الصحيح الهانيء بنومه واحلامه •

الحياة تجري في شرايينها الهائلة قوية مجنونة صاخبة ، لا تعرف
قانونا ولا نظاما ، ولا عرفا ولا تقاليد ، والرذيلة تتفاعل في احشائها ،
والاخلاق تتفسخ فتتحول الى فعاليات سامة يظهر مفعولها في شبه الممض،
كالنقص الحاد ، يجعل تلك المدينة تتلوى وتتأوه ولا تملك لآلامها دفعا ،
وقد يشتد بها الالم حتى يصل درجة الغثيان والاعماء •

في زاوية من شريان صغير يتفرع من شريان المدينة الاكبر حجارة جميلة
انيقة ، تنيرها اضواء ذات ظلال مريية ، في ترتيب اثائها روح الترف والرخاء،
وفي اسارير ندلها امارات اللطف والبهجة وفي جوها عقب مسكر من شذى
عطر مخدر • شعار الحجيرة خدمة مطلقة لاتعرف حدا لمن ييذل بذلا لايعرف
حدا •

عناصر الحياة في الحجيرة لا تزال ثمانية ، قتيية تشيطة قوية • بعضها
موجب وبعضها سالب ، والموجب منها خمسة شبان مرحلة شعورهم مهندمة
ثياهم ، جميلة ملامحهم ، رائقة نظراتهم ، تشيطة افكارهم مثقلة جيوبهم
بالطاقة على البذل ، تلك الطاقة التي تجمعت عند البعض وانعدمت عند

البعض فجعلت جسم المدينة في حالة خطرة من عدم التوازن . وفي اخلاقهم بقية من مثل جميلة كانت غذاءهم الدسم في دور التزعزع والنشوء ، ذلك الدور البريء براءة دور الطفولة . وثلاثة من تلك العناصر شابات سالبات للالباب ، باللاحظ الفاتكات ، والثغور الباسمات ، والصدور الناهدات ، ولكنهن فارغات الجيوب والالباب .

المائدة عامرة بالاطياب من مأكول ومشروب ، وبذل الدراهم والمواطف قائم على قدم وساق ، وجو الحجيرة يزداد حرارة بما يشع من تلك العناصر من انقاس حارة ، ونظرات ملتبهة ، وعواطف متاججة . وما فتئت العناصر المختلفة تزداد من بعضها اقترابا واندماجا حتى تعادلت الطاقة اذ تسربت شحنات الطاقة الموجبة الى السالبة ، وعقب الجو برائحة الحياة المراقبة تحت الاقدام بأسراف .

كان النشاط في ذلك التفاعل بين هذه العناصر نشاطا غير طبيعي يظهر اثره في التخاذل والخمول البادين على تلك العناصر كلها ، الا واحدا كبيرا واخر اصغر منه . كان ذلك العنصر كالغريب في تلك الحجيرة رغم انه في قلبها ، يلوح وكأنه يطل على بقية العناصر اطلال الغافر المتألم لا اطلال المحترق المنتقم .

وما كادت قناني السوائل المخدرة تفرغ ، وانية الطعام الدسم تخلو حتى اوشكت الجيوب ان تتعادل ، وبانت التخمّة على جميع العناصر الا من ذكرهما .

وانهجر عنصر صغير سالب يسكي وينتجب ، برد فعل قوي ، انتحاب. النادم المتعذب ، وذلك ديدنه كلما اسرف مثل ذلك الاسراف ، ومضى عنصر موجب قوي الجسم خفيف الحلم ، يؤكّد بأنه سينتحر ، وتبلدت العناصر الاخرى وتهافتت على نفسها ثم قذفت ما في اجوافها دون ان تلفظ ما بنفوسها .

وانقلب جو الغرفة مزعجا غفنا لا يطاق ، وانقلب عنصر يعظ رفاقه

كمثل من ذهبت سكرته وانت فكرته فقال « يا حياة مدينتنا العظيمة ما اغربها . كل ما في جوفها دنس عفن ، اما ظاهرها فيتجسس ثقافا من الريح الطاهرة . اتنا تستر بحجيرتنا خوف الفضيحة ، وكل ما في المدينة فضيحة . فنحن نخاف الفضيحة امام الفضيحة . » فاجابه متبلد يتفلسف « جمال الخلوة في سرها ومصدر عظمتها لذتها في غرابتها فاذا ما زال السر وانتقت الغرابة ذهبت اللذة . فاعوذ ذلك ايها العاقل السكران » واردف عنصر سالب « لا اريد الحرية التي بها يترنمون انني احيا هكذا الى الابد ، وما اجمل الحياة اذا كانت رخية سهلة كهذه » فاجاب العنصر الرفيع « يلوح لي انك لا تريد ايها العنصر ان تحيا قط وما احب الفناء لمن الف الفناء » .

وعاد من اعلن رغبته في الانتحار فصرخ باعلى صوته « قلت لكم اريد ان انتحر . الا تصدقون . اني احبها وهي لا تحبني . اني اتخدر لا نساها ولكن رد القعل يعذبني اني لا اطيق الاستمرار اكثر من هذا ويجب ان انتحر . »

وانقلت من الحجرة فتبعه العنصر العاقل . وسخر بعض ، وفزع بعض . وما زالوا في اخذ ورد حتى عاد العنصران والضعيف منهما مبتل الثياب يقذف الماء من جوفه .

وقال المنقذ « لقد اتشله اصحاب القوارب من الماء . لقد كادت المدينة ان تقذفه في جوف العدم ولكنها مريضة اكثر مما يجب فليس في استطاعتها حتى ان تقياً » .

ولفظت الحجيرة محتوياتها بعد موهن من الليل ، والفجر يكاد ينفلق ، وحملت بقايا تلك العناصر بسيارات فارغة مريجة ، الا اثنان منهما يمسا صوب النهر وقد اخذ الصبح يتنفس ، وهبت نسيمات منعشات طاهرات ، من افق الحياة . ودب ديبس الحياة في جسد المدينة النائمة .

كان العنصر الاول جم النشاط كثير التفكير ، والاخر واجم متضايق

متألم ، قد تثبت بالاول تثبت الغريق بحلقة النجاة • وانطلق سيل الحديث متدفقا من بين شفتيه يحمل مر الشكوى وتباريح العذاب « يالها من طريقة مبتذلة للاتحار نسلكتها نحن عناصر الحياة في هذه المدينة • اننا نقذف باقننا وسط التيار بكل جنون ونفوس من اعماق اللجة • فلا نرتفع الا لتنفس ونجذب اخرين معنا ، وما اكثر من يرسل الى القاع بعد اول غطسة • اى صديقي ان التيار لشديد • واللجة مرعبة مزبدة ، والمياه قدرة موحلة فهل من سبيل الى شاطيء الامان ؟ »

فقال العنصر العاقل « لم تفكر بالشاطيء وانت كالسمكة لا تعيش في غير اللجة ، لجة الحياة • ان مجرى الحياة في طبيعته نقي طاهر صاف ، وتيار هادئ قليل الانحدار • ان هذه الحواجز المصطنعة في طريق هذا التيار هي التي تكدر صفو الماء وتدنس مجاريه ، واذا تدنست مياه الحياة تفسد كل ما فيها واستحال موبوءا مر المذاق • ان التيار يجري الى البحر منذ الازل ولا بد ان يصل مقتره رغم الموائق فان رايت قذارة المياه تزعجك ، وسيرها غير المنتظم يعذبك ، فعليك بهذه الحواجز فازلها لكي يعود التيار الى مسيره الطبيعي • واذا ذاك تصفو لجة • وعندها فقط تتطهر هذه المخلوقات المزدهمة فيه من كل ادائها بفضه واحدة » •

وبرزت الشمس في افق منير ، فارسلت اشعتها الصفراء الدافقة فعمرت بها جسم المدينة المستيقظة فامتلات شرايينها بعناصر الحياة وكان اغلب تلك العناصر باهتا بطيء الحركة خامد النشاط ، وقليل منها سريع كالبرق برق في الشرايين مترددا بين اجهزة ضخمة هائلة ليست هي بالاجهزة الضرورية لحياة الجسم ، بل هي خلايا متضخمة قد زحمت غيرها فقتلتها وظهرت بشكل اورام كاورام السرطان •

وتأوهت المدينة عندما اتابتها نوبة من نوبات الالم التي تسببها لها تلك الاورام ، فلم يكن لها من القوة ما ترفع به صوتها وتسمعه للغير •

المجموعة الثالثة عشرة

قصص من فينا

الأنهاء

معالي السيد كامل الجادرجي •

كنت ، ولا أزال ، اكره اساليب الساسة المتتوية وأكاذيبهم المنفضوحة ،
«ونفاقهم المشين» • ولكن رجلا واحدا ، هو انت ، قد برهن لي على ان بين الساسة
من يضع الصدق في القول ، والاخلاص في العمل ، والنزاهة في القصد فوق
كل اعتبار •

فلولاك لما خضت غمار السياسة وبلوت مخاطرها ، فلك الفضل في
زجني في عالم كنت بعيدا عنه ، عالم لا يمت في اساليبه ، خلقا وتفكيراً ،
وعنلا ، الى العصر الحاضر ومدنيته بصلة ، فهو اقرب الى العالم الذي
لم ير غرابة ، ولم يحرك ساكنا ، حينما قدم رأس يوحنا المعمدان على طبق •

فلا عجب ان اراك نزيل زنتانة في سجن ، وليس في وسعي ان اقدم لك
غير هذا الكتيب ، عله يتسبك بعض متاعب حاضرك ، ويلهيك عن السياسة
التي كنت ضحية اعوجاجها ، ذلك لان هذا الكتيب لا يحوى شيئا منها •

« ذو النون »

جديد تحت الشمس

انتصب بجسمه الطويل النحيل وسكن حتى حاكى ما يحيط به من انصاب • وتنفس تنفسا عميقا • كان يستنشق الراحة والهدوء والحرية تلك الامور الحبية التي قضى كل شبابه في البحث عنها • هو ذا الجمال حواليه ، جمال في السماء وجمال في الارض • فيما يحيط به من بشر • جمال فسي الاجسام ، وادب جم ورقة مفرطة في الكلام • ما الذ هذا وما احلاه • وانطلق من جموده يسير الهوينا ، يشبع نظره من كل ما يمر به ، ومر بكوتيه متربعا فوق كرسية ، فتوقف احتراما واجلالا ، ومضى ينعم النظر في وجه الصارم ورأسه الجبار • وكدر عليه صفو صلاته هرير آلات البناء ، وهي تعيد الى الوجود ما افنته قتابل الحرب • كل هذا الجمال ومع ذلك فقد اراد هؤلاء الناس الحرب يوما • واعاد النظر الى وجه كوتيه فخيّل اليه ان الوجه الصخري يتسم استخفافا واحتقارا • وود لو يجد من يتبادل معه الحديث ، ليفسر له هذا التناقض المؤلم • وتذكر انه لا يعرف من الالمانية الا بضع كلمات منها « ايشين اوسلاندر » • أهو غريب كما تعني هذه العبارة ؟ انه ليستكثر ذلك • واطلت عليه من وراء كرسى كوتيه عيان ذهبتان واسعتان ، فيهما تطلع وحيرة • هذا شيء جديد • عيان ذهبتان بين مئات الاعين النجل الزرق ، واكثر من ذلك ، ان في الوجه ملامح عزيزة لا

يسهل عليه نسيانها • ولعل ذلك ما دفعه الى التقدم للحديث غير هياب ولا وجل ، خلافا للمألوف من عاداته • وابتسمت العينان لما اقترب منهما ، وتكلم كأنه يتحدث معها فقط • وبدأ التحية بالانكليزية واثى الجواب ، يا للسما ، ظن انه يسمع نعمة من انعام شراوس بصوت عذب ناعس ، وكانت تلفظ التاء تاء تزيدي في حلاوة ذلك الصوت •

قال « خيريني بحق السماء كيف يستطيع المرء ان يفكر في الحرب وهو وسط هذا الجمال ؟ وقد بلغ من التقدم والرقى مثل هذا المبلغ ؟ »
فاجابت « ومن يريد الحرب ؟ ولكنها تأتي حتما • أمن الممكن القضاء على الحرب ؟ »

فقال « ان الانسان قد بلغ من التقدم ما حقق له كل أسباب الراحة ، فلماذا لا يستطيع ان يبحث عن مسببات الحرب بطرقه العلمية المجيدة فيقضي عليها ؟ »

فابتسم وقالت « أنت انكليزي كما ارى فهل يمكن ان تكون شيوعيا أيضا ؟ » •

ففكر « حتى هنا يشيع مثل هذا الخلط • » ومضى يجيب « لست هذا ولا ذاك • فانا انتسب الى فئة تنشُد الحرية والجمال ولا تعترف بالفروق بين الالوان والاجناس » •

وتساءلت « اتجد ما تشده هنا ؟ » •

فاجاب « انه مبثوث حوالي ، ليس هنا شيئا قبيحا سوى مخلفات الحرب ، ولكن نصف هذا الجمال في عينيك الذهبيتين • »

وبدا المرح في وجهها المشرق ، والتمعت اسنانها البيضاء من وراء شفيتها الملمومتين ، ولاحت في صفحتي خديها غمازتان زادتاها اشراقا ، واهتز جسمها اللدن وهي تضحك مسرورة راضية •

وعاد يقول « ايشين اوسلاندر • واريد ان ارى آثار (فين) وجمالها
الخالد فهل تتكرم الآنسة ، التي لا اعرف اسمها ، على السيد عباس ، اسمي ،
ويضاف اليه (ابو راس الحار) في موطني ان تريه من الجمال ما يبرد هذا
الرأس ؟ » •

وعادت تضحك وتقول « اريد ذلك من كل قلبي ، ولكن اوقات فراغي
القليلة ، اذ انا اعمل لاعيش ، لا تكفي ، ولكن اليوم هو يوم عطلتي ، وساكرس
لك ما تبقى من هذا اليوم ، فمن اين تريد ان نبدأ ؟ الآثار التاريخية ام الفنية
ام الطبيعية ؟ » •

– « بل الآثار الطبيعية الحية • اريد ان ارى المنتزهات والحدائق
انه يوم عطلتك فمن الجرم حرمانك من التمتع به • ايتها الانسة التي لم
اعرف اسمها بعد ؟ »

فقاطعته مستدركة معتذرة « ليلي ومعناه السوسن » •
ومدت له يدها ، فتأبطها راضيا مرتاحا • ولاحت السماء والطبيعة في
نظره اكثر صفاء واشراقا وابلغ فتة •
وتداركت عليه الحوادث حافلة باكثر مما كان يتصور وجوده • لقد
كان يظن بانه قد تذوق كل جديد •

اخذ وجود الفتاة يستحوذ على حواسه وكيانه شيئا فشيئا ، حتى
اصبح لا يعي من الالفاظ التي كانت الفتاة تشرح بها ما يمران به من
اماكن ومراجع ، لا يعي الا موسيقى صوته • وطالت السفرة ، وكان
لا يشعر بمرور الزمن • لقد كانت الفتاة مغلصة في ان تريه الاماكن
الجميلة ، وما كانت تدري انه قد استغنى بوجودها عن كل ما في الطبيعة من
جمال •

وادرك ان المساء قد حل عندما انتقلا الى حافلة جديدة مضت تصعد ،

متسهلة ، جبلا شامخا تغطي سفوحه الغابات • وسمعا تهمس في اذنه
« غابات فينا التي استوحى شتراوس وولزه الشهير منها » •

وها هي ذي قمة « كالميرك » • وبدت المدينة تحت اقدام الجبل بحرا
من نور ترصعه المصاييح المتألقة ، وبان (الدوناو) بين صفين من المصاييح
كأنه قد خط ييد رسام ماهر • ولمس كل ذلك الجمال قلبه فازداد رقة •
ورأى الفتاة تنظر ساهمة ، فحاط كفيها بذراعه ، واحس بها ترتجف •
فلاحظ بقوله « الطقس بارد » •

« لا ولكنها ذكريات مؤلمة • ولا تسألني الان شرحا • اني اتوسل
اليك » •

واراد ان يغير الحديث « ان فينا جميلة رائعة » •

– « ولكنني اكره فينا » •

– « اتركهين أهلك وذويك ؟ » •

– « لست من فينا • انني من رومانيا واني لأحب مراتب طفولتي • لقد
اجبرتنا الحرب على الهرب • لقد تركتها باكية ، ويحزني ألا استطيع العودة
اليها الآن • انها ذكريات مؤلمة • انها تشوه جمال المنظر وتنغص علينا لذة
الموقف » •

وشاع في عينيها شيء – من المرح بعد الاكل • وفعلت سلافة فينا
(نوسبركر) فعلها فتألفت وجنتها ، وصفت عيناها ، ومضت تطيلان التأمل
في عينيها بتحد وجراءة ، وذاب تكلفها الفينوي البالغ في المجاملات وزيادة
اللطف •

وباغته « من انت ؟ وماذا تفعل هنا ؟ » •

– « انسان من بلاد الله ، انشد الراحة والجمال والحرية ، انتقل حيث

أريد ، واكتب عندما يروق لي ، لست غنيا ، ولكنني املك ما أستطيع ان
أحقق به هذه الاحلام في غير اسراف . »

– « وهل ستبقى هنا طويلا ؟ »

– « ازمع التنقل في العالم . اني ابحت عن تجارب جديدة تنعش نفسي
وفكري . قد يروق لي ان اسافر غدا أو لا اسافر قط »

– « اتبقى في (فين) ان طلبت منك ذلك ؟ »

وشعر بالدماء تغلي في عروقه ، وبرجفة تجتاحه . ان هاتين العينين
كفيلتان بان تستعبدها من جديد .

واجاب على الفور « اجل لو اردت ذلك . »

– « اذن فابق من اجلي » .

– « سابقي ما دمت تريدن ذلك »

لماذا تريد ان يتي ؟ ولماذا قبل ؟ وما هو الهدف من وراء ذلك ؟ انه لا
يعلم ، وقد تعلم هي أولا تعلم . انه لا يريد ان يفكر .

ولاحظت اسرافه في الشراب فقالت « لقد اسرفت ، فلنمض » .

وسارا بين صفيين من أدواح القمة . شارع قليل الاضاءة يؤدي الى
شرفة طبيعية . والتفتت اليه فاحتواها بين ذراعيه فجأة . وارتجف جسمه
لما احس بجسمها الصغير يهتز بين ذراعيه ، وشقوه بما لم يتفوه به سابقاً قط ،
في كل حياته العابثة الساخرة العديدة المعنى . لا يعرف بالضبط ما قال اما
مذاق لسانها وشفتيها ، ولملمس ثياب جسمها اللدن فلا اعتقد انه يستطيع
نسيانه بالرغم من ان هذه التجربة ليست الاولى من نوعها في ما مضى من
عمره الطويل .

وخرجت به الى النور ، وتطلعت في وجهه جادة . وقالت « ما زلت

ترتجف . »

فاحتضنها وكأنه كان يخاف ان تفلت منه ، وحتى في الحافلة وهما عائدان . وما كان يظن انه يستطيع ان يتخلص من وقاره الذي كان يثقل عليه بمثل تلك السهولة ، وقد وجد في الحافلة من هم أكثر اغراقا منه في بحران تلك الحمى اللذيذة .

وهمست في اذنيه « لقد اسرفت في الوعود ، وقد يكون ذلك من فعل الشراب ، كم احب ان اراك وانت صاح »
فاجاب « اني جاد كل الجد . لقد فعلت عيناك فعلهما قبل الشراب .
بمدة طويلة فلماذا تبخين قدر جمالك ؟ »

- « ولكن (فين) مملوءة بالحصان . عيون زرق نجل ، وشعور ذهبية
حريرية الملس ، وقامات رشيقة فارهة . ما دمت تبحث عن الجمال فهناك
الكثير منه . »

وهجس في نفسه « ان الخيثة تلهو به »
وأوى الى فراشه بعد موهن من الليل ، ولم يزر الكرى جفنيه الا لما ،
كانت ظلمة ليلة مضاء بمصباحين ذهبيين .

واستيقظ في غده كمن يستيقظ من حلم لذيد . وعاد اليه الكثير من عقله . وتذكر خططه المزمعة ، وفلسفته في الحب . يا للشيطان ، يمكن ان يحدث له كل ذلك ، وفي مثل تلك السن ؟ لقد وعدته الصغيرة ان تعود . وتمنى الا تعود ، سيشفى قليلا ، والشقاء غير غريب ولا بعيد عنه . سيقول حينذاك « انها فتاة لاهية لعوب ، مرت في ظلمات ليل كالعلم المشرق اللذيذ . وعندئذ يعود الى افكاره الحمقاء ، وحياته المجذبة ، وفلسفته اليائسة . وتذكر صوتها العذب الناعس ، ذا المقاطع المبطونة كأنات كمان حالم ، فان فؤاده .

ونظر في ساعته . هو ذا موعد قدومها ، وطرق الباب فارتجف .

واظلت عليه من وراء الباب ثمانان صغيرتان ، وسمع الخريز يوقع
لحنا جديداً « كيف خالك الآن ؟ أو كنت جاداً أمس ؟ »

فسألها بلهجة الحذر الخائف وهو يتقدم نحوها مفتوح الذراعين
« وانت ؟ » •

- « اني اكره الكذب • وما كنت تشوى بالخمر ولكني لا احب ان
آخذ عليك وعداً صدر عنك وانت في نشوة الحب والخمر » •

وعندها تأكد أن زمامه قد افلت من يديه ، وان خطفه قد اصبحت
انقاضاً • وعندما ضبها الى فؤاده شعر بنشوة القيد من جديد ، ولكنه كان
أكثر شدة ، واعظم لذة هذه المرة •



كافيه رايل

« جوني هو الفتى الحبيب »

تلك هي الاغنية المفضلة في (كافيه رايل) تحبها اريكا ، وتحبها مونكا ، ولورا ومارتا ، وكل فتيات كافيه رايل ، وقد تنجها اسطوانة المانية ، واخرى فرنسية ، أو اميركية عن رعاة البقر ، ثم تعود الاسطوانة المفضلة • النغم صاف شاك عذب ، والجهاز كهربائي حديث والسكون كامل شامل في كافيه رايل ، لا ضجة ولا ضوضاء ، كل الزبائن جادون في القراءة ، يقرأون صحفا بمختلف اللغات ، ومجلات وكتب شتى ، بل ان منهم من يكتب ايضا ، وقد تجد تلميذا يدرس ، ذلك لان السكون شامل لا يعكسه الا صوت الجهاز الكهربائي الحديث الذي يردد بين الفينة والفينة « جوني هو الفتى الحبيب • »

المقصف ، ان صح ان نطلق عليه هذا الاسم ، اممي ، يتصده السواح والزوار والاجانب من ابناء الامم المختلفة ، واغلب القاصدين هم من الباحثين عن اللذة الجسدية العابرة الجاهزة المستعجلة ، ذات القيمة الثابتة ، والمصدر المأمون العواقب •

ان اسعار سويغات الفتيات في كافيه رايل غير خاضعة لاسعار البورصة ، ولا لمجرى التغيرات الاقتصادية في العالم • وهي لا تخضع للسوق العامة ولا تتبع مجراها •

والطريق الى المقصف سهل مطروق معروف ، وما على من اضاع السبيل
الا ان يلتجئ الى اول شرطي يصادفه ، فيرشده بكل ادب واحترام ، الى
سواء السبيل •

رن صوت بول روبسن الشجي الشاكي ، فماتت ضحكة في حلق
حسنا ، وتطلعت الاعين النجل الى اجنبي انيق اللباس رشيق الخطى وما ان
يُست من لفت نظره حتى عادت الى ما كانت فيه • اعين تقرأ ، واخرى تبسم
لهذا وذاك ، او ترقب الحاضرين اللاهين بالقراءة والمطالعة • وساد سكون ،
وعادت شقراء لم تتخط الخامسة والعشرين بوجنتين قد زادتا احمرارا ،
وعينين قد خمد بريتهما ، فترنحت نحو الجهاز ، والقت في ثقبه شلنا ، فعادت
النعمة « جوني هو الفتى الحبيب • »

وثار نقاش بين جندي بريطاني ورجل نمساوي
- « اتعرف ايها الجندي ما يقول النمسيون لكم ؟ اذهبوا الى اوطانكم
ايها الجنود • »

- « اتنا ذاهبون حتما ، فعلام التبعجل ايها السيد ؟ »
- « لقد تخلت بريطانيا عن اسرائيل بعد ان كونت دولة وسط اقطار
معادية ، فلم فعلت ذلك ؟ »

- « لا أعرف شيئا عن السياسة ايها السيد ، ولست مسؤولا عن ما
تفعله بريطانيا • اذا اردت ان تشاركني في كأس من الشراب فهلم ، واعفني من
غير ذلك • »

وتقارعت الكؤوس وخمد الجدل وعاد السكون شاملا كما كان •
وتطلعت الاعين النجل كرة اخرى في طارق جديد ، ثم ظهر اليأس فيها
لما ايقنت ان الداخل من المواطنين • وخرجت الشقراء مرة اخرى مع محب
جديد ، فشيعتها الاعين النجل بغيرة وحسد •

وتمتت تونيا في اذن لورا « ترى كيف نستطيع العيش ، ومارتا تصد كل الزبائن عنا ؟ »

- « ليس في استطاعتنا ان نلومها ، خير لنا ان نلعب الورق • »
وخرج الجهاز من صمته هذه المرة بشلن خرج من جيب اجنبي وشذ النغم عن القاعدة ، وعاد الاجنبي الى محله قرب اللاعين ، ودمدت تونيا تشارك الجهاز « ثلاثة دراهم في الينوع • »

وقاطعها الاجنبي

- « اتشاركاني في اللعب ؟ ما طريقتكما في هذا اللعب ؟ »

- « انها طريقة هغارية ايها السيد • »

- « وهل انت هغارية ؟ » •

- « لست الانساوية ، ولكن ابي من هغاريا • ان الفينوي غير خال من دماء هغارية او جيكية ، فاعلم ذلك ايها السيد • • وانت ؟ هل انت اميركي ؟ »

- « لا • انتي انكليزي • »

- « اووه • »

وبان جلياً في اللفظة الخارجة من الشفاه الاربع الكثير من خيبة الامل •
وادرك السيد الانكليزي ذلك ، واراد ان يحسن رايها فيه ، وفي ابناء قومه فقال

- « اقترح ان ادعوكما الى كأسين من الشراب ، فماذا تقولان ، وما الذي تفضلان ؟ »

فأجابت الايطالية

- « فضل ان تصطحب احداً الى الاتيل المجاور ، والسعر مائة شلن ، فذلك اجدى ، والا فلك ان تدعو لنا بكأسين من الكنيك • »

- « الحقيقة اني لا اكره هذه الدعوة ، ولكنني لست لها اليوم ، وعلى كل حال فهاكما المائة شلن ولتحدث قليلا ، ولست اشترى بذلك ولا دقيقة من وقتكما الثمين . »

وضجتا مسرورتين . وقالتا تونيا

- « سيد كريم ، ولا شك ، هل تتكرم بالانتقال الى مائدتنا ولكن بسم تريد ان تحدث ؟ ابلفلسفة ؟ أم بالعلوم السياسية ؟ مقدما اقول لك ايها السيد اني اكره السياسة . »

- « ولست احبها كذلك . . . اظن ان القادم عربي ، انه اعمى كما يبدو لي ما الذي يجب في رايل ؟ »
فاجابت النموية مقهقهة

- « انه يحب مارتا ايضا ، وحتى العميان . ترى ماذا يرى منها ؟ . . ان الشيطانة تعرف كيف ترضيه . لقد اتى للتداوي فسقط في مارتا ، كما يسقط فيها الآخرون . وانت ايها السيد ؟ الم تقع في مارتا بعد ؟ »

- « اتعنين ذات الشعر التبيني والعينين السوداوين ؟ »

- « ها انت ذا تعرفها . . . انت ايضا ؟ شيء جميل . »

- « لقد عرفتها من كثرة الخاطئين ، واني لافضل عليها تلك الصغيرة ذات العينين الزرقاوين ، تلك الرشيقة ذات الوجنات الملتهبة . »

- « ذوقك غريب ايها السيد ، ان الفينوية لا تحب الوجه المحمر ، فالفلاحات هن المحمرات الوجوه . »

وعقبت الايطالية تقول

- « بل ان تلك الرشيقة المنزوية هي اجملنا جميعا ، ولكنها سيئة الحظ » .

وعاد الجهاز يعني « جوني هو الفتى الحبيب » فقال الانكليزي
- « يظهر ان جوني هو حبيب الجميع هنا ؟ »

فمقبت الايطالية

« كان حبيبي اميركيا ، سارجت ، واسمه جوني ، وقد خلف لي طفلا
ومضى لقد ذهب مع ذهاب الحرب ، ان الحرب تخلف اطفالا وتقتل آخرين ،
وليس حظ المتخلفين باحسن من حظ الذاهبين . . يا . . يا تلك هي الدنيا . »
واقترح وقار المكان شبان يكتسون جلوداً لماعة سوداء ، بينهم فتاة
عليها ما عليهم . . راكبو الدراجات البخارية او المتدحرجات كما يسميها
النسويون بحق . وتدحرج الفرسان البخاريون الى اسفل المكان ، وملأوا
القاعة ضجيجا وهم يطلبون شرابا ، وحتى هؤلاء لم يلهوا المطالعين —
المطالعة ، فلم يرفع اليهم احد عينا عن كتاب او مجلة او جريدة ، الا استاذنا
ملتجيا ، رفع نظارته قليلا وحدهج الفاتحين شزرا ثم عاد الى الكتابة .

واحتضن الفارسة فارسان ، وتحرش فارس صغير بالحساء الصغيرة
متأخرة الذكر ، فاقبلت هذه عليهم وشاركتهم على مضض من الفارسة
المكتسية جلدأ لماعا ، وبدا العداء جليا بين الفارستين ، الفارسة البخارية
وفارسة الفرسان ، وتسابقتا كفرسي رهان . ورأت الدخيلة ان الغريمة تتودد
الى الشاب الصغير الذي تحرش بها ، وكان اجمل رفاقه ، فما كان منها الا ان
اقتعدت ركبته واحاطت عنقه بساعديها ، فهتف لها الفرسان معجبن
مشجعين .

وارتفعت الاعين هذه المرة الى قادم جديد ، وكان رشيقا جميلا وقورا ،
وتقدم من احد المشاجب ذات القرون ، فعلق معطفه بقرن والقي بقبعته على
آخر ، ثم اقتعد مجلسا قريبا من حلقة من الحان ، وجالت عيناه الجميلتان
في الاوجه حتى استقرت على واحد ، ووصوصت رفيقة لذات الوجه المرموق
« انه ينظر اليك ، ما اجمله » .

فوصفت المخاطبة مجيبة « وماذا افعل بكل جماله • انه يكتبني بالنظر ، انه ممن يحبون الرائحة وحسب ، لا ادري ماذا يريد مني ، في امكانه ان يدفع المائة شلن وينتهي ؟ • • سأدير له ظهري » •

– « لعله مدله بجبك ؟ »

– « وما يجديني هذا الحب ؟ اترينه يريد ان يتزوجني ؟ »

وضج السرب بالضحك ، ويظهر ان الرجل موضع الحديث سمع شيئاً من الحوار فابتسم •

وعادت مارتا من شوط جديد ، فمدت لها احداهن يدها وقالت آمرة

– « خمسة شلنات للجهاز • »

– « ولماذا خمسة ؟ »

– « ان الدخل يتناسب مع الضريبة ، هيا ادفعي • »

ودفعت راضية •

ونادت التادل حسناء سمراء من الوزن الثقيل ، تمرية الشعر ، خمرية الوجنات فاقبل رشيقا بلباس السهرة الذي كان يجعل منه اوجه من في المقصف منظرا ، وسالته مشيرة الى امرأة قد اشرقت بجليس

– « هل لك ما ماركوس ان تخبرني لم تحب تلك المصون ان تفازل

حبيبها على ملائنا ، وفي هذا المكان بالذات ؟ »

فابتسم ماركوس واجاب :

– « لعل في هذا المحل من الامور الرومانتيكية ما لا تجده في آخر ، أم

لعلها تحب رائحة قمار اللحوم » •

– « اذن فاطلب منها ان تصطحبني الى الاوتيل المعروف وسأريها من

الرومانتيكيات ما لم تحلم به كل حياتها »

وضج السرب بالضحك ، ثم هدأ الا واحدة ظلت تضحك وتضحك ،

حتى نهت الجالسين إليها جميعا فرفعوا ، ابصارهم مستطعين ، واخذت رفيقة لها كانت ملتصقة بها تهزها برق ، وترت على وجتها بلطف ، تطلب منها العودة الى السكون ، ولكنها استمرت كجرس كهربائي اصيب بخلل ، ولم تجد الرفيقة مناصا لاسكاتها الا ان احتضنت رأسها والقت بفمها على الفم الوردي الضاحك فارتشفت ضحكتها ارتشافا .

وابتسم السيد الانكليزي مسرورا وقال

– « انها نشوى » •

فقالت لورا « الحمقاء انها نشوى كما ترى لانها تحب ، انها ما زالت صغيرة ، ستكبر وتنحك عندما يموت قلبها كما ماتت قلوب الاخريات • »
وتنهت تونيا وقالت « اسمح لنا ايها السيد الانكليزي بالخروج الى الشارع ؟ فالصيد في الشارع اسهل ، وما نرجو من هؤلاء الاموات ؟ »
ومرت الايطالية وهي في طريقها بالجهاز ، والقت شلنا فيه ففج صارخا « جوني هو الفتى الحبيب • »



مناجاة

حين عزمت على دراسة اللغة الالمانية ، قررت ان اتبهر كل فرصة تساعدني على تحقيق ما اتتويت ، وكان من جملة هذه الفرص ، التسمع الى احاديث الناس وحوارهم ، لا بدافع الفضول ، او أستكناه الاسرار ، ولكن للتمرن على فهم اللغة سماعا ، واتقان لغة الكلام ، فقد بدالي ، اول وهلة ، الفرق شاسع بين الكلام الدارج واللغة الفصحى فالالاماني عندما يتكلم يتلع مقاطع باكملها ، وقد يختصر جملة بكلمة . وبعد ترن شاق ، وارهاف طويل للسمع ، بدأت افهم الحوار شيئا فشيئا بفهم جزء منه . لهذا السبب صرت اكثر من التردد على كافييه باري فهذا المقصف يزدحم بالناس الى درجة استحالة المرور بين المقاعد ، فيصبح الجلاس حول المناضد الصغيرة وكأنهم مشتركون في جلسة واحدة وقد يتقاربون حتى ليكاد البعض يحتضن البعض .

قصدت هذه المقهى صبيحة يوم احد مبكرا ، وكان المقهى يوشك ان ينعص بالرواد ، واخترت منضدة منزوية ، وبعد ان علقت معطفي الثقيل ، جلست واخرجت كتيب الحوار الذي اعتسدت ان اقضى بعض الوقت باستظهاره ، وما كادت النادلة اركا تلمحني حتى اقبلت باثة مرجة . واركا هذه من اجل النادلات ، فلها وجه صياني وعينان ضاحكتان ، وقامة

رشيقة • ولعل هذه الاركا من جملة ما حجب لي الترد على هذا المقهى ، وقد
الفتني الصبية لطول تردي ، وكنت اتقصد الجلوس في منطقة عملها ؟
فصارت تبادلني التحية وتتوسط في الكلام • وتطلعت في عيني اركا اللتين
يختلط السواد بالزرقة فيها اختلاطا عجيبا ، وابتدرتها مسرورا « كيف انت
اليوم اركا ، انك لتزدادين رشاقة وجمالا يوما بعد يوم ، واني لا خشى
ان اقع في هوائك كغيري من الزبائن •

فاشرق وجهها وزفرقت مجيبة « شكرا جزيلا سيدي ، انك تتقدم في
اللغة • كأس من الجعة اليس كذلك ؟ انك من القلائل الذين يفضلون الجعة
في شتاء فينا القارص »

فاجبتها ضاحكا بيت من الشعر لكوته كنت قد حفظته ذلك اليوم •

النار تجري في عروقي والقلب بالافراح عامر

فانسعت عيناها العجيتان وقالت « كوته ؟ انك لماهر اها الهر
ايوب • »

- « لو كنت ماهرا يا اركا لما اتيت الامور من اعالها ، فانت تريبن
انني احفظ كوته لكي ارتب جملة صحيحة • »

واطلقت اركا تتجول بين الموائد توزع ابتساماتها على الزبائن
دون تفريق ، وسرعان ما اكتظ المقهى بالرواد ، ولمحت شابا ورفيقته يتجولان
حائرين ولقت نظري جمال الشابة فقد كان فيه حقا ما لفت انظار اغلب
الرواد • كان جسمها رشيقا معتدلا معا ، يتوج رأسها شعر ذهبي داكن • اما
العنان فلوزيتان بلون السماء عند الغسق، تحيط بهما اهداب طويلة سوداء تلقي
على ما يحيط بهما ظلا ساحرا ، ولست ادري كيف خبط تقاطيع وجهها بتلك
الندقة العجيبة فجاءت متنامقة تناسقا مدهشنا • وذكرني لون بشرتها بلون
الخزف الصيني النقي الاصيل •

واقتربا من منصتي ، وتمنيت لو شاركانني فيها ، وكأن هذا التمني كان
نداءاً لهما فأقبلا ، وأشار الشاب الى الكرسيين الخاليين حول منصتي
- « اتسمح ايها السيد لنا بالجلوس ؟ »

فاجبته مستبشراً « دون شك تفضلا على الرحب والسعة . »
والقت السيدة نظرة على كتابي ، ويظهر انهما اطمأنا الى جهلي باللغة
الالمانية ، فخاصا في الحديث بكل حرية دون ان يعبتا بوجودي ، واتيحت
لي فرصتان ، التمرن بالسماع ، وفرصة الاستطلاع والفضول ، فقد كان
حديثهما مثيراً شيقاً ، فارهفت اذني ، وسجلت الحديث باختصار وكان خطي
العربي الغريب مصدر دهشتها واطمئنانها معا ، وعلمت ان اسمها هرتا ،
ولا ادري كيف تذكرت بيتا من الشعر يورد شاهدا على بعض شواذ القواعد
في اللغة العربية .

(خذا بطن غرثي او قفاها فانه كلا جانبي غرثي لهن سبيل)

قالت الغانية مفتحة الحديث « انكم معشر الرجال فجرة فاسقون . »
- « الا استثنى من هذا التعميم ياهرتا ؟ »

- « تستثنى ؟ قد تكون في الطليعة . انك كفيرك من الرجال لا ترى
في المرأة الا لعبة تصلح للهو ، يمل منها سريعا فتستبدل باخرى ، غير مبالين
بما يسبه عبثكم الصباني من تعاسة وآلام للمرأة المسكينة . »
- « ولكن تذكرني يا هرتا المثل النموي السائر - للرجل كلمة
واحدة ، أما المرأة فعندها كتاب . »

- « ان هذا لا يصدق في كل الاحوال ، انه يصدق على الشابات
الحديثات اللواتي يذفن اللذة المحرمة قبل سن البلوغ ، واللواتي يدلن
الرجال كما يدلن الملابس ، وحتى هؤلاء لا يلبن بعد ان يتقدمن بالسن
قليلا ان يتقن الى حياة الزيجة والاستقرار ، فيحلمن بالزوج المخلص الطيب ،
والبيت الهادي السعيد . »

- « ولماذا لم تتزوجي حتى الان ياهرتا وانت على هذا المستوى
الرفيع الرائع من الجمال ؟ »

- « ذلك لان الرجال المهذين نادرون في فينا ، والغرباء اكثر منهم ذوقا
وأدبا ، ان الرجل من فينا لا يقدر المرأة حق قدرها ، اما الغريب الاجنبي فهو
ذواقه مهذب . »

- « رأيك صائب الى حد ما ، ولكنك لو زرت البلاد الاجنبية لرأيت
النساء هناك يشتكين مما تشتكين منه انت . »

- « لعل ذلك يرجع الى ان المرأة لا يرى حسنات ما بين يديه . فالانسان
يمل ما الف ، ويعمى عن حسنات ما يملك ، اما الغريب فيرى في الجديد
متعة وفي العرابة لذة . »

- « ها انت ذا ياهرتا تبدين عقلا وحصافة وتنطقين بالاحكام
الصائبة . »

- « لو لم ترقق كلماتك المعسولة بمثل هذه الابتسامة الساخرة
لصدقتك . »

- « ها قد عدنا الى الخصام ياهرتا فكلما ضحكت صحت بوجهي ان
ضحكتك المجنونة تسخر مني . »

- « ذلك لاني اقرأ ما تعني الابتسامة او الضحك والتهقته ، كما افقه ما
تقول العينان حين تنظران ... انظر الى ذلك الرجل الذي ينظر الي بودي
ان اقدف شيئاً في وجهه ، ان نظراته تعني اقبح المعاني واحط المطالب ، كم
يزعجني البعض حين يرمونني بمثل هذه النظرات ؟ »

- « أولا يسرك ذلك ياهرتا ؟ ان النساء قاطبة يتقن الى ذلك ، انهن
يرغبن في ان يشتهين الرجال ، ان هذا الرجل المسكين يتمنى فقط ، او ليس
له الحق حتى في هذا التمني ؟ »

« قد يكون هذا الرجل اهون شراً من سواء فقد ضايقني احدهم مرة بالحاحه حتى الجأني الى ان اعطيه وعدا كاذبا لا تخلص منه ، ولقد شكوت ما اعاني من هؤلاء الرجال الى احدى صديقاتي فقالت الصديقة معللة « ان رجال فينا يحبون الاجسام الرشيقه الممتلئة قليلا ويعزفون عن البدينات أو الهزيلات العجاف »

« ها انت ذا قد ادركت السبب يا هرتا ، ان هؤلاء الرجال يدركون بمجرد النظر ان لك جسما دافئا لذيد الملمس عذب المذاق »

« ما اقبح ما تقول . انك لا تفتأ تردد امثال هذا الكلام البذيء ، اني لا تصورك احيانا افسق رجل في فينا »

« وانت تبدين احيانا ، حين تخشعين القول وتثيرين الشجار ، من أحط نساء فينا . انك حين تشتبين يا هرتا اشك في انك فينوية بالرغم من شكلك وصفات جسمك »

« هل اغضبتك مرة اخرى ؟ ارجو معذرتك ، لست سعيدة كما تعلم، وهذا ما يثيرني احيانا ويجعل حديثي خشنا مرا . اني لأحтар في حقيقة امرك ، فاي نوع من الرجال انت ؟ لقد تشاجرنا كثيرا ، فلم تتركني بالرغم من كثرة شتمي لك ، ولم اتركك بالرغم من انك تثيرني حين تحملق كثيرا في وجوه الحسان »

« لقد زعمت انك تدركين ما تقوله العينان حين تنظران ، فما قالت عينا جليسا الاجنبي حين نظرت الى وجه اركا هيا برهني على انك حصيفة حقا »

« ان النظرة رقيقة بريئة ، وهي اشبه بنظرة فان الى اثر فني »

« أو ليس لي نفس الحق في التلمي بالالوجه الجميلة المعبرة ؟ »

« ولكنك تفعل ذلك بشكل يثير غيوتي ، اني اريد ان تكون نظراتك

لي وحدي »

« انك تدركين ايضا بان اعجابي بالجمال مبعثه الدوافع الفنية والا لما اصطبرت عليّ حتى الان ولما طالت صحبتنا »

« لقد استغربت صديقتي ايلفي ان تطول صحبتنا الى اكثر من شهرين ، وقالت انه يليق بنا ان نتزوج ، فاخبرتها بانك متزوج ، وهي ترى معي بان الزواج لا يعني شيئا اذا كان اسميا ، ولا اعتراض لي على ذلك ، لولا انك رجل قلب ، اني اريد رجلا لي وحدي . لقد بلغت الثلاثين وقد كان الاخرى بي ان اتزوج ، ولعل سوء طالعي هو الذي رمالك في طريقي »

« ولكنك تعيدنين ما اعتادت زوجتي ان تقول ، وتقذفيني بشئ ما تقذفني به »

« قد تكون محقة ، ولعلك قد اذقتها العذاب حتى نقرت منك »

« ها قد عدنا الى التمادي في العدوان يا هرتا »

« معذرة فليس لي الحق في الشكوى . فما انت الا انت من يوم ان رأيتك ، واعترف بانك لم تخف عني شيئا ، ولكنني طمعت ان تكون الرجل الاخير في حياتي ، على كل حال ، ولكن سوء طالعي يرميني دائما في مشاكل انا في غنى عنها »

« اذن فلنغير الموضوع يا هرتا ، حديثني عن مسماك في ايجاد عمل لك بعد هذه السنة من البطالة والاعتماد على مساعدة دائرة الاعمال الزهيدة ؟ »

« لقد تتبعنا الاعلانات في الجرائد ، ووجدت بعض الاعلانات عن طلب موظفين لدوائر تجارية ، ولكنني تبينت بعد المراجعة ان السادة التجار يطلبون عملا مزدوجا ، فهم يطلبون من الموظفة ان تكون خليتهم خارج اوقات الدوام ايضا ، كل ذلك لقاء ذلك الراتب الزهيد ، وخير لي في مثل هذه الحالة ان استحصل اجازة من الشرطة واتسكع في كرابن ، لقد شكوت حالي الى الدكتور يونس ، عضو المجلس البلدي فوعدني خيرا »

- « كم يؤلمني ذلك يا هرتا ، عليّ ان انسيك بعض هذه الهموم ، فاين تريدان ان تفرقي احزانك اليوم ؟ ان الاقية في فينا خير مكان لدفن الاحزان ، اتفضلين او كستينا أم أوروباني أم لملك تشبهين قبو الدومينيكان ؟ »

- « لقد بدأت اخاف من اصطحابك الى مثل هذه الحانات ، فانت حين تنتشي تنقلب رجلا اخر . »

- « ولماذا لا تقولين انك حين تنتشين تصبح عينك كالمجهر في رؤية ما يثير غيرتك ؟ »

- « هات يدك ولنكف عن الشجار »

- « ولكن حذار من ان تنسبي فيها مخالبك الجميلة . ان ذلك من بعض عاداتك السيئة ، فلو كنت تدركين كم تؤلم هذه الاظافر المصبوغة المدببة لتركت هذه العادة السيئة . »

- « أعلم ذلك ، وعادتي السيئة الاخرى هي ان اجبرك على تقبيلي كلما مررنا بسرب من الحسان ، كما تقول ، او ليس من حقي ان اعلن لهن انك محجوز ؟ »

- « او بعبارة اصح محجوز عليه . لقد حجرت على زوجتي قلبك فهربت منها ، فلماذا تفعلين ما يزهديني فيك ويجب الي الهرب . »

- « انها تفعل ذلك لانها زوجتك ، أما انا فلاني احبك وشتان بين الدافعين . »

وانشغل الشاب عن الجواب بدعوة اريكا لاداء الحساب ، ثم تناول معطف رفيقته فالبسها اياه بكل عناية ورفق ، وقبل طرف شعرها الذي اصبح قريبا من وجهه عندما احتواها المعطف ، ولم يسياني عند الذهاب فالتفتا اليّ مبتسمين وقالوا معا « الى اللقاء » فاجبتهما بالمثل « اوفيدسن » .

هم... طويل

« ما اجمل الايام الماضية .. ما اجملها هناك ، حيث تنفتح الزهور ،
وتخضر المروج .. هناك حيث داري وحيث الحبيبة ، هنالك وطني .. فالى
كم ابقى وحيدا .. »

وشذ فكره عن متابعة الاغنية ، وتناول كأس الشراب الكبير فافرغ
نصف ما فيه .. هكذا فلتكن اليوم خمر وغدا امر ، ، واي أمر ؟ ومهما بلغت
خطورة هذا الامر فماذا عساه ان يصنع ؟ أهو الوحيد المشرذ ، المهدد
بالاخطار في عالم اليوم ؟ انه ليحس كما يحس غيره ، ان قوى الشر تتألب ،
وتتكالب ، وانها لتبيت امرا ، وتنوى شرا . وان عددا لا يستهان به من
الضحايا الابرياء يقدم كل يوم على مذبح آلهة هذه القوى الملعونة ، قوى
الغدر والكذب ، انه حقا ليحس كانه بين مخالب قط شرس جائع يتلهى به
قبل ان يفترسه .

وشعر بيد جارته دافئة تتأبط ذراعه ساحبة دافعة ، واهتزت الحلقة
حول الطاولة الكبيرة على النغم .

« اشرب اشرب يا اخيا .. كن خليا ، ودع الهم مليا . »

فرفع صوته مع المنشدين المنتشين بقدر رغبته في تحقيق ما يروم ،
وكانه بالصراخ يريد ان يتغلب على ما يزججه ويقف حائلا بينه وبين تحقيق

ما يروم • واحسن عجزا ، ورفع الكاس مستعينا به • وعندما توقفت الموجة الدافعة الشاذة ، سمع صوت جارتة الحسناء يهمس في اذنه ، فادار رأسه نحوها ورأى جليا مبلغ روعة عينها الدعجاوين الزرقاوين «لماذا لا تستجيب الى ما نغني به ؟ »

- « وكيف استطيع يا صغيرتي ؟ ان همي اطول من ان استطيع تخليفه ورائي في الدار ، انه يتجاوز المسافة بيني وبين داري طولا • »

- « هكذا ! واين دارك يا ترى ؟ »

- « في بغداد يا صغيرتي »

- « هكذا ! أهومك بهذا الطول ؟ وانت بمثل هذا العمر ؟ لا اصدقك ، لعلك تبالغ ، دع التشاؤم ، ان « كرنزك » ليست موطننا لها • ! »

- « ولهذا تريني هنا • لقد هربت منها الى « كرنزك » ولكن « كرنزك » لم تستطع طردها • »

- « هكذا • هكذا • انك تمزح دون ريب • ترى ما تلك الهموم ؟ أحسناء قد خانت عهدك وخيت آمالك ؟ ان الحسان هنا كفيلات بان يعوضنك ما خسرت ، او يلهينك على الاقل • »

ونظر اليها مشفقا ، واحست وهي تستقبل نظراته بأنه كجدها عمرا وقال « اذا كان ذلك لا يؤلمك ويكدر عليك انس الليلة فساظمك على همومي • »

- « سأألم طبعاً ، ولكنني الح عليك ان تقاسمني بعض ما تحمل • ان رفقة الشراب لها آدابها • »

- « اذن فاسمعي • اني طالب مجتهد متقدم ، اتيت للدراسة على ثقة حكومتي تقديرا لقابلياتي ، حتى اذا ما اجتزت نصف مرحلة الدراسة قطعت هذه الحكومة الطريق علي ، وطلبت مني العودة دون ان تخفي علي بان

السجن او الذلة في انتظاري • هذا بعد ان قتلت اخي في مظاهرة عامة • ان أهلي لا يملكون ما يسد الرق • ولولا غيرة بعض اخواني ورفاقي لكنت الآن هالكا او مصفداً بالاغلال • »

فازدادت العيان الزرقاوان اتساعا وتقوس فوقهما الحاجبان ، وتمتم القم الوردي « اني لا افهم ، فما هي جريمتك ؟ »

- « هنا موطن الغرابة • ان في بلادنا جهل يشبه جهلكم قبل خمسة قرون او اكثر ، ونحن لا نريده ، ودولة تحكم بالسجن او الموت على من يتصور بان السيطرة الاجنبية غير ضرورية للبلاد ، ونحن نكره هذه السيطرة ، وعندنا ثروة هائلة تكفي عشرة امثال سكان قطرنا ، ولكن السكان حفاة جهلة مرضى جياح ، ونحن نشور لهذا التناقض وندرك اسبابه • اننا نحن الطلاب أول من يحس ويدرك ويشعر ، وقد تدفعنا حماسة الشباب وبراءة الصبا الى الوقوف • امام الطغاة وجها لوجه • هذه هي جريمتنا الكبرى • افهمت الآن يا صغيرتي ؟ »

وبقيت العيان تتسعان حتى كاد لا يرى زرقتهما الصافية •

وهمس القم الوردي « الواقع اني لم افهم اترك لا تبالغ ! »
وتدخلت الام قائلة « بم تحدثان ؟ »
- « بالسياسة أماء ، بالسياسة • »

- « السياسة ؟ هنا في « كرنك » اننا نكره السياسة ايها الشباب ، ولكن يظهر انكم مولعون بها • انني اقرأ من اخباركم في الصحف انكم تتظاهرون وتثرون وتتحاربون ، فماذا عراكم ؟ لماذا لا تهدأون ؟ »

فأجاب الاب « اتصور انهم يحاولون تحقيق الديمقراطية الاوربية في بلادهم • تذكرني ايها الام ان اوربا جاهدت كثيرا حتى حصلت على حريتها • لقد جاء دورهم ، انهم ينتفضون ويستيقظون • ! »

– « وستقدمون بعد ذلك وربما فاتونا ، وسيحاولون حينئذ استعمارنا ،
هكذا سمعت » •

فاعترض الشاب مبتسما « ان كلمة الاستعمار توشك ان تصبح كلمة
اثرية • »

فرد الاب « ابدا ، ان الاستعمار باق مادام ثمة قوي وضعيف • »

– « واذا لم يبق ضعيف على وجه الارض ؟ ! »

فاجاب الابوان معا « ذلك مستحيل » •

فالتفت الشاب الى جارته متسائلا « وما رأيك انت يا آنستي الجميلة ؟ »

فاجابت مبتسمة « الواقع اني لا أحاول ان افهم شيئا عن السياسة • »

– « ولكن ذلك ضروري لكل فرد متمدن ، ان العالم يكاد ان يصبح

داراً واحدة • »

وانت عدة اصوات من مناضد متباعدة « لا سياسة ، لا ضرورة

للسياسة اشربوا نخب • لا سياسة ، لا سياسة • »

وتوهم الشاب كأن القاعة الواسعة تضج كلها صائحة « لا سياسة ، لا

سياسة • »

فأمسك الشاب وقال لنفسه « لعل هذا كان شعارهم يوم قذف بهم

هتلا الى الهاوية التي كادت ان تبلعهم ، ولعل مجنونا جديدا يترقبهم ضاحكا

في سره ، مادأ يده الجهنمية لجمعهم في قبضته من جديد ، ليرميهم لهوة هينة

في فم طاحون حرب جديدة ، قد تكون القاضية •

ورفع احد الجالسين حول تلك المنضدة الكبيرة كأسه وصاح

« فلنشر نخب « لا سياسة » ولا يهنا ان تكون شيوعيا او سياسيا ، ايها

الشاب خلف همومك في الدار واشرب • »

فشرب الشاب نخب ذلك الشعار ، وما كاد يضع كأسه حتى لمع في

ذهنه بريق رأي غريب •

ان مواطنيه المتأخرين يفهمون مشاكل العالم اكثر مما يفهمها هؤلاء المتقدمون المتحضرون . ان في اوربا اقواما تحاول المحافظة على سيطرتها فلا تجد غير قتل الاحرار وتشريد طلاب المدارس ، وآخرون يحاولون ابادة شعب باكملة بادعائهم انه جزء منهم ، وهؤلاء يلهمون ويتصورون ان السياسية شر فليشربوا ويلهوا فليس في الدنيا ما يستحق ان يفكر به انسان . انهم يسيرون نحو الكارثة كائنات تناق للمجزرة . اهذا ممكن ؟ اتسير اوربا القهقري ؟ وهل ستنام فلا تستفيق الا على رعود القنابل الذرية ؟ اذن فهو وابعاء قومه ارقى من هؤلاء واكثر تقدما . انه اقوى منهم . فابتسم وانبسط اساريره !! فتتمت الصبية الى جانبه « ها قد زال عنك كابوس الهم او رأيت كيف تصنع خمرة » كرنزك ؟ . »

- « اجل يا دميتي . لقد جعلتني ارى نفس جباراً يستطيع ان يقضي على الشر في العالم اجمع انني احلم تحت تأثيرها باننا قادرون على انقاذ العالم من الكارثة المقبلة . اتنا نحن الضعفاء سننقذ العالم من اكبر كارثة ها ها ها . نحن الجهلة الضعفاء المتوحشون سنحميكم ايها السادة . اجل سنحميكم لا نستعمركم ها ها ها . »

فابتسم الجالسون حول طاولته وتهامسوا « ها قد اتشى الشاب ، يا لخمرة » كرنزك . »

وضجت ضحكات السخرية حو اليه .

وارتفعت الكؤوس وتفاعرت نخب البطل الجديد . فجاراهم في سخريتهم ووقف محبياً بين التصفيق والهتاف . وصاح صوت « وما هو ثمن هذا ؟ »

فمد الشاب ذراعه مطوقا عنق الحسناء جارته وقيل وجنتها التي زادتها الخمرة توهجا وقال « هذه هي الحائزة » وتعال الاصوات من كل جهة « برافو . برافو . »

رؤية.. وظلام

ظلام .. ظلام .. ضوء المصاييح يعكس على ركام الثلوج ، وندف الثلج تزيده توهجا ولمعانا ، ولكن الظلمات طاغية على عينيه ، طاغية في رأسه ، ومضى يبحث عن قبس من نور في عيني رفيقته اللامعتين ، واطال التمعن فيهما فلم يقبس شيئا ، واحس بالخوف ممزوجا بالاسى من ذلك التيه الفكري ، ومن تلك الوحدة المريعة • اين المهرب ؟ احس انه يريد ان يهرب من شبح يطارده ، من نفسه ، من الدنيا باجمعها ، وهمس لرفيقته ضارعا « اريد ان اذهب ، اريد الوحدة ، سأذهب لاستريح • »

واجابته مرتاعة « ماذا حدث بحق السماء ؟ اعتذر لك على ما احدثت من ضجة حول تلك الفتاة الانكليزية ، اني شديدة الغيرة كما تعلم انسي نادمة • »

- « ها انت لا تهمينني كالعادة ، لست اهتم بكل بنات العالم ، اني اشهد نسيان تسمي بوسائل حمقاء هي اشبه باعمال المخرفين ، لا تهمني غيرتك قط • »

- « اني احبك • فلم تتصرف تصرف المجانين ؟ »

ووقف يقهقه على الرصيف ، وجمد • لقد خيل اليه ان قهقهته تلك عواء ميت في قبره •

- « انت تغالطين ، انك تخدعين نفسك ، ليس ثمة اي تقارب بيننا
انك دمية ، ليس الا . لك جمال دمية ، وقتل دمية ، لست احب اللعب
بالدمى ، اني اشد عزاء ، اشد نورا ، ان الوحش المتمدن يكشر عن انيابه
ويشخذ سكينه ليذبح ، انك تتكلمين عن الحب بينما الحرب تدق على
الابواب بايد تحمل سموم الذرة ، ان البشر مهدد بالقناء . »

- « فليمح العالم نفسه بالطريقة التي تطلو له ، اريد ان احيا الآن ، ما
علة اهتمامك الشديد بكل هذا العالم ؟ أأنت الوحيد فيه ؟ »

- « هذا وانت اوربية ، يا لغبن المرأة الشرقية ، هل رجعتم الى مرتبة
القروذ ايها المتمدنون ؟ »

- « ها قد عدنا الى السياسة » اللعنة . »

- « الاسحقا » . ومضى الى غير وجهة فسارت وراءه متعلقة بذراعه .
فنفض يدها واسرع الخطى ، وسع صوتها وراءه يحمل رجاء ولوعة وخوفا
« الى اين ؟ الى اين ؟ » وسبقته معترضة طريقه واستوقفته تحت برج
القديس اسطفان العتيق .

- « اظنك تبحث عن سبب واه لتطردني من حياتك . اجل لقد كنت
مرتاحا عند ما كانت الانكليزية تحدثك ؛ لقد تحدثتما عن الاوبرا . لقد
بدت لك ارقى مني . اعتذر عن غيرتي مرة اخرى . ارجوك ، عد لطيفاً كما
كنت ، لست قاسيا كما اعهذك . . »

واحس بالجنون يتابه « اللعنة عليك وعلى الانكليز قاطبة ، انك
تعليمين بانى اكرهم كما اكره الطاعون ، انهم يقتلون ابناء قومي بالمكر
والخدعة بل وبالرصا ص أيضا ، انهم أقدر أنواع القتلة ، وأشد من
الجرائم فتكا ، لقد تجردوا حتى من طلاء المدينة . انتها الحمقاء انك
لا تشعرين حتى ولا بنسمة من عناصر العاصفة الدائرة في كياني وتدعين

مع ذلك انك تحيينني لماذا لاتصرحين بانك تخافين أن تفقدي رجلك ؟
أي رجل ؟ تخافين أن تعودى بلا صديق أو رفيق ، أورية أنت كما أرى ،
مستقلة كما يدعون . ولكنك تهلكين رعباً لو فارقك الفك .. ان هوة
تفصل بيننا . »

واغتم فرصة دهشتها ومضى يركض بكل قوته غير عابئ
بالسائلة المستعربين . وسمع خطاها وهي تركض خلفه ، وادرك انها تركض
بكل قوتها أيضاً ، وسمعها تصيح وراءه بصوت ناشج « قف بحق النساء،
قف لحظة لالكلمك لماذا تهرب ؟ لم أسىء اليك ، قف رجاءً »

ولولا أن رأى الشرطي ينظر اليه مرتاباً وبهم ان يعترض طريقه لما
وقف .

لقد خشي أن يتوهمه قد اختطف شيئاً وهرب . وواجهها ثائراً
معبداً ، ورأى دموعها تسح فتسمر . انه يشد حريته يريد أن يعتزل
ليجتري يأسه وآلامه لوحده كالحيوان النافق ولكن تلك الدمية الرائعة
الجمال لا تريد ذلك ، انها ترفض نفسها عليه فرضاً ، والتجأ الى وسيلة
أخرى فقال . « سأقبل يدك في سبيل ان تطلقى سراحى ! ان صداقتنا
أسخف من هراء مجنون معريد ، »

واجابته باكية « لماذا ، لماذا ؟ ما كنت كذلك ، لقد كنت لطيفاً فما
الذي عراك ؟ انا آسفة لما يساورك من آلام ، ولكن ما ذنبى انا ؟ لماذا
تصب تقيمتك على رأسى ؟ انى أحبك ، أنظر الى دموعى ألا ترانى كيف
أركض وراءك ؟ لو كنت كاذبة أو متوهمة كما تدعى لاتهى ما بيننا منذ
زمن بعيد . »

وقبض على رأسها بكلتا يديه ونظر في وجهها متألاً « قد تكونين
على صواب ولكن ذلك خطأ . ان بيننا عشرين سنة في العمر وقرونا في
التفكير ، فعلى أي أساس تبين هذا الحب الذي تزعمين ؟ »

فلم تجبه بغير النشيج فدنق رأسها في الحائط وقد جن جنونه وصاح
« استيقظي ، عودي الى هسك • انك مضطه • »

فاجابته وقد ازدادت نشيجا ، « لا لست اخادع نفسي ولكنك أعمى
لا ترى ، لا ادري ما الذي يعميك ، انه ليس امرأة أخرى انا أعلم ذلك !
أواه كم ألت رأسي » •

واحس باليأس وبالخجل من نفسه فاقتعد دكة قرب باب • فجلست
بجانبه متشبثة بشابه خوفا من أن يهرب مرة أخرى وأطل في العينين
الزرقاوين الباكيتين • رآها طفلة تثبت به كما يتشبث الطفل بامه خوفا
من أن تتركه في عالم مجهول ، أو درب مقفر ، واحس بالخجل والعار مرة
أخرى ، من هو بحق الساء ليرفع على هذه الفتاة الجميلة المسكينة ؟
وما الذي صنع للدنيا ليتوهم انه أرقى منها ، وأكبر من أن يكون صديقا
مخلضا لها ؟ أيفهم العالم حقا أكثر منها كما يدعي ؟ بم استطاع أن يساعد
العالم الذي يحس بتعاسته أكثر منها ؟ أمجرد الاحساس فضل ؟
ما ذنبها ؟ ما ذنب هذه الدمية الباكية ؟ واحس بندق الثلج تدق
جبهته ورأسه مبكته ، فتخفف من غلوائه • ولاح في عيني دميته برقيق
أمل ، فوضعت خدها على يده متطلعة في وجهه ، فانساب دموع الذلة
والندم من عينيه •

وشعر بشبح يطل عليهما وجه كهلة • بل وجه ضبع يتنظر موت
جريح ليحظى بجيفه ، ضبع من ضباغ (كرابن) واحست الدمية بالدخيلة
المنظفة فلمعت عيناها والغضب يتوهج فيهما • فادرك الضبع بأن الجريح
سوف لا يصبح جيفة •

وتمتم شاكرًا « حسناً فعلت يادمتي الجميلة » فنظرت اليه وقد
أشرق وجهها بإبتسامة رجاء « هل عدت الى وعيك الا تهرب مرة
أخرى ! ؟ »

فمسح خدها وقال « أيتها الحمقاء المسكينة انك تتشبثن بي تشبثاً
غريباً فد يبعث الزهو الى نفسي لو كنت شاباً ، ألا تبصرين نظرات الاعجاب
الكثيرة من شبان في مثل سنك ، وما أجمل الشبان في فينا ؟ ! »
فقالت « لا أفرق بين الضباع ، ذكرا كان أم اثنى اني أكره الضباع
مثلك ! »

ومسحت دموعه بيدها الرقيقة ثم وضعت قبعته على رأسه « وقالت
فلنمض فقد أصبحنا مركز تطلع الفضوليين • ان الثلج ليزداد تساقطاً ،
انك تحتاج الى شيء من الراحة • »

وأحس بالظلام ينقشع بالنور المنعكس على خديها المبللين بالدموع .
وغمره ذلك النور متسللاً الى اعماق نفسه ، فاحتضن دميته وسط الطريق
وامطر وجهها الناعم الدافئ بقبل الشكر والامتنان • لقد همد بركان
ثورته ؟



اِسْتَام فِي عِيدِ الْمِيلَاد

شرع رضا يتأهب مبكراً ، ملياً دعوة رفانة للاحتفال بليلة عيد
الميلاد في دارها ، مع اسرتها ، ولست ابالغ اذا قلت ان مدة هذا التأهب
قد جاوزت الحد المعقول . كان حريصا على أن تكون زينته وألبسته كاملة
ليس فيها ما ينتقد ، وكان شأنه في المبالغة في ذلك الحرص شأن من لدغه
ثعبان فصار يخيفه الجبل . لقد اذاقته هذه الرناتا سابقا ، من انتقاداتها
الامرين وقد وصل الامر بهما يوما الى ما يقرب من القطيعة والتجافي .
وكان ذلك يوم أحد أحبا أن يقضياه في دورنشتاين فبعد أن طافا
في القرية ، صعدا الى الربوة التي تقوم عليها قلعة خربة ، هي كل ما تبقى
من القلعة التي سجن فيها قلب الاسد ، وهو أسير أحد أمراء الاقطاع في
النساء وأشرفا على القرية كلها وما جاورها من وديان وتلال ينساب
الدانوب خلالها انسياب الافعوان في خيلة غناء ، واعجبهما المنظر ، فاقعدا
صخرة وقالت رفانا « انتي جائعة فاين السندويج الذي وعدتي به ؟ »
فاجاب مرحا « سأريك مهارتي في صنع السندويج ، فكلي هنيئا ولا تبخلي
علي بالاطراء والمديح . »

وما كاد يفتح حقيقته ويضعها بين يديها حتى رآها تقطب وتحملق
في وجهه بيحيرتين تصطخب في زرقتهما أمواج من الغيظ ، وبعد أن
ابرت ارعدت تقول « كيف بحق السماء جهلت ان السندويج لا يلف

بورق الجرائد ؟ ان هذا الورق يستخدم في المراحيض انه قدر ، لولا شدة جوعي لما لمست هذا الطعام قط ، ولكن شكراً لله ، فليس ثمة من يرانا ، والا لاصبحنا سخرية ، وهذا للتندر . »

وفارت الدماء في عروقه لقاء هذا الجزاء الذي فوجيء به ، فليس ثمة ما يغيظه اكثر من اثاره الشحنة حول توافه المظاهر ، فاجابها ثائرا « اسمعي ايتها المجنونة التي تثير المنغصات لاتفه الاسباب . لقد رأيت بعيني ان الناس في باريس قليلا ما يلقون الطعام بورق ، وقد رأيت قصابا في فينا يلف اللحم بورق الجرائد ، ولكنك تأبين الا أن تنهزي كل فرصة لتبرهنني على انك أرقى النساء طراً ، وبأنك اورية عالية الذوق سليمة الطبع ، ولعلك تريدن بملكك هذا أن تقولي لي ، أنك شرقي متأخر ، لقد ضقت بك ذرعا . وحق السماء . »

فتحفت وماءت في وجهه كأنها قطعة ديس على ذنبها نحن في فينا ، لا في باريس القذرة ، أما اللحم فيفسل قبل الطبخ فلا ضرر أن يلفه القصاب بورق الجرائد ، فلتعلم أن فينا وسكانها أرقى بلاد اوربا طراً . »

فقهقه ساخرا وأجاب « أجل فينا التي يملأ شوارعها غائط الكلاب ، لقد رأيت مرة سكرانا يبول في الطريق على ملا من الناس ، وطفلا يتغوط على الرصيف في رابعة النهار ، ان اعتدالك هذا لا يقوم على أساس ، انها عجرفة أوربا الكاذبة الخيفة ، انكم قوم أغبياء والا لما ساقكم هتلر كقطع من الغنم الى هوة الخراب . ان كنت زاهدة في صحبتي فابحثي عن شاب من شبان فينا يشبهك في الاعتداد بالنفس والتقيد بالتوافه والسخافات . »

ولم تجب ، فانصرف الى كتاب يداري بتصفحه غيظه . وبعد فترة . سكون نظر نحوها خلسة فرآها تأكل ، وهي تنظر نحوه حذرة ، ولما رأتها يتسم رقت نظراتها ، وأحس بيدها الرقيقة الصغيرة تلمس وجهه كأنها تمسح عنه الغضب مسحاً ، وسرعان ما عاد الصفاء ...

أمثال هذه الحادثة جعلته شديد الحذر ، وثمة شيء آخر ، لقد ظلت رانانا ترفض أن يزورها في منزلها ، وكلما ألح كانت تعتذر بقولها « اخشى أن رأيت داري ألا تعود تراني قط » ترى ماذا تعني ؟ انها ترفض التفسير . والايضاح باصرار • وقد حاصرها يوما بالحاحه « لعل والدك لا يتساهل في خرق الأتيكيت كما تتساهلين • »

فأجابه « لم أر أبي في حياتي فقد هرب من أمي بعد ان سرق مجوهراتها الى حيث لا نعلم ، انه همناري ، لو عاد اليوم لرميته من النافذة ، من علو طابقين • »

هكذا بقت تصر رانانا على تجنب تعريفه بذويها حتى قرب عيد الميلاد ، وكان يتمشى معها ذات مساء في شارع كبلر ، فرأى السوق قائما على خلاف المألوف في أمسيات الآحاد فاستفسر منها فقالت « انه الاحد الاخير قبل عيد الميلاد ، وقد اعتاد الناس أن يستمدوا للعيد في هذا المساء فيبقى السوق الى ما بعد منتصف الليل • »

فقال « أود أن أقدم لك هدية العيد الآن ، مادمت تصرين على عدم زيارتك في دارك ، ولك أن تختاري الهدية بنفسك فليست أريد أن أغضبك من جديد ، فقد ترين ما ينتقص »

فابرت عيناها سرورا وأجابت « اذن فاعطني ثلاثين شلنا لاشتري الهدية بنفسي • »

ولما احتج على قلة المبلغ ، اقنعه بقولها ان الهدية لا تقدر بثمنها ••• وبعد برهة تطلعت في وجهه بعينين صافيتين صفاء البحر في يوم رائق مشمس ثم قالت « ولكن ألا تريد أن تشتري شجرة صغيرة • سأزينا لك بنفسي ؟ »

فقال « وما عساها تفيدني ، مادمت وحيدا ليلة العيد ؟ »

فتماءت « وماذا ستصنع ليلة العيد ؟ »

فاجاب « سأنام مبكراً على الغالب ، لان المدينة ستثقل كما تعلمين ،
وحتى أغلب المقاهي والمقاصف اعتادت أن تثقل ليلة العيد . » وكان يرمي
من وراء قوله الى هدف ، وسر حين علم انه يوشك أن يصيب ما يرمي اليه ،
فقد رآها تقول بعد تردد .

« بودي أن أدعوك لقضاء ليلة العيد معنا ، ولكنني أخشى أن تضايق .
اني موقنة بأن جو منزلنا سوف يرهقك ، وربما هربت منه ، وقد يكون ذلك
الى غير رجعة . . هذا ما يجعلني اتردد في دعوتك . . . ولكنها قوة شديدة
عليك أن تبقى وحيدا ليلة العيد . . . حسنا ، لك أن تأتي مهما كانت
العواقب ، ولكن ليس قبل الساعة مساءً . هل أنت راض الان ، اذن فقبل
وجنتي كما يفعل ذلك الرجل ، واطرك الحياء ، فقد أرضيتك ، واني لأستحق
بعض المكافأة . »

ورأى أنها على حق هذه المرة ، فليس صفحة خدحا المشرق النقي
بشفتيه لسأ خفينا ، وسمعها تقول « ستعلم أية تضحية قدمت لأجبك
الوحدة ليلة العيد . »

مر كل ذلك بخاطره وهو يرتدي معطفه الاسود الثقيل ، ولما استكمل
لباسه نظر في المرأة ، فرأى سيدا نمسويا كاملا من الرأس الى القدم ، لاغبار
على اناقته وذوقه ، لا ينقصه حتى شكل الوجه ولونه . وقال لنفسه « لأبأس
من تقبيل يدها أمام ذويها على الاقل ، وما قيمة ذلك ؟ سيرها الامر بعد
ان يثت من اقناعي بأن اقلد النموسيين في هذه العادة . »

لقد كانت حجته انه يعتبر هذه القبلة علامة الخضوع المناق للجنس ،
وانها تدل على استضعاف الجنس الثاني لا على احترامه ، هكذا يثت رنانا
من اقناعه بقبول أصول المجاملات الاجتماعية المحلية ، وقبلت به على علته ،
ولكي لا تكون مغلوطة ذليلة الكبرياء قالت له مرة عاذرة « انك تختلف

عن الآخرين بنظرتك الى الامور • انك مثقف • ان المثقفين والمتجدين من
شبابنا يتهجون تهجك أيضا ؟ »

ونظر الى ساعته فرأى عقاربها تشير الى السادسة • ان انتظار الترام
وطول الطريق يستغرق هذه الساعة ، والقى نظرة رضى على الهدية التي
سيفاجئها بها ، وكانت سلة جميلة من الخوص تضم زجاجتين من أفخر
الشراب مع كيس منسق من البسكويت وعلبة من الحلوى كانت
المجموعة منسقة تنسيقا جميلا ، بذلك الذوق الذي اشتهرت به مخازن
(ماينل) ، ووضع اصابعه في عروة الكيس الانيق وأقبل باب شقته ، ومضى
غير هياب ولا وجل • »

وصل باب العارة التي تضم شقتها قبل الميعاد بدقيقتين اذن
فسيكون عندها في الموعد المضروب بالضبط ، فهل الاوربي اكثر دقة منه
في حفظ المواعيد ؟

وسمع حركة بعد أن دق الجرس ، وبعد برهة غير وجيزة فتح الباب ،
وأطل من ورائه وجه عجوز باسم هتزي سنة ويسرة كمن يقول بإشارة الرأس
« من أنت ؟ وماذا تريد ؟ » ولما ذكر لها اسمه قالت بصوت مرتجف « أعرف
ذلك ، انك صديق رنانا ، تفضل على الرحب والسعة » •

ولم ينقطع رأسها عن صنع اشارة الاستفهام وظنها الخادم ، ولكنها
أخبرته بانها الام وبقى رأسها يهتز • كان المطبخ في المدخل ، ولم تخف
النظافة فقر محتوياته وراثته ائانه • وفتحت الام بابا في نهاية المطبخ وما أن
دخل الغرفة حتى بهت ، يالله ، اتلك هي رنانا حقا ؟ لقد بدت باناعتها ،
كأنها غريبة عن تلك الدار مثله ، اذن فهذه هي الدار وتلك هي الاسرة
او تستطيع فتاة بمثل تلك الدركة من الفقر المدقع ان تسلك سلوك عليّة
القوم من الإثرياء ؟ أهذه هذه الفتاة التي لا تمر بفقر أو متسول حتى

تتصدق عليه بضعف ما يوجد به الاغنياء ؟ وتأبى الا أن تنفخ الندل والخدم
في المطاعم والمقاهي بما يعادل ربع قيمة ما تأكل أو تشرب ؟!

كانت رنانا جالسة بجانب منضدة متداعية تحمل مذياعا صغيرا قديما ،
وقريبا منها موقد عتيق ثقوبه الكثيرة خلوة من النار ، وفي جوانب الغرفة
قامت ثلاثة سرر حديدية مغطاة باغطية نظيفة ، وفي وسط الغرفة مائدة مغطاة
بقطعة من القماش الابيض حولها أربعة كراس لاتكاد تتماسك ، احتل اثنين
منها صبي وفتاة ، كان جمال الصبين غريبا ايضا عن جو تلك الغرفة . وفي
آخر الغرفة قرب النافذة الخالية من الدرفة الداخلية ، قامت شجرة عيد
الميلاد خضراء ، يانعة مزينة زينة أنيقة لا تقل عن زينة سيدة الدار واناقتها .

ونهضت رنانا لاستقباله ، ولمح في عينيها الجميلتين توسلا ورجاءا ،
وقالت مرحبة « هو ذا أنت في الدار التي كنت تلهف على رؤيتها ، والذنب
ذنبك ، لقد ألححت ، ولقد أردت أن أجنيك هذا الجو الكئيب ، ها انت
ذا ترى كم نحن فقراء . لقد رأيت أمي ، وهذه ابنتي « هيدى » وذلك
« ايرهارت » ولدي ، اني اعتذر لك عن اخفاء حقيقة وجود الطفلين ، فقد
خشيت أن تتركني لو علمت ذلك ، بعد أن اولعت بك » .

كانت تتكلم كأنها تتلو دعاءا أو تتوسل . كانت كلماتها كنصال حادة
تحرز فؤاده وتدمي وحشا كامنا في اعماقه . . وتقدم منها فتناول يدها البضة
الصغيرة ورفعها الى شفثيه بكل احترام واجلال ، وطبع عليها قبلة حارة
طويلة . وبهت ، وابتسمت الام العجوز ورأسها يهتر كأنه يكرر « لماذا
لماذا » .

وقالت رنانا بحيرة « اتسخر مني ؟ من حقك أن تفعل ، فقد اكرت
من التناول والتباهي والكبرياء ، وها قد حان دورك في الانتقام . »
فنظر في عينيها معانبا وقال « لا تكوني قاسية رنانا ، لست وحشا كما

توهمت ، اني قبلت يدك وكأنني أقبل يد تلك العذراء ام الصليب » وأشار الى صورة رخيصة للعذراء معلقة الى جانب صورة المسيح فوق الصليب .

فقلت ، وفي صوتها نبرة رجاء « اذن فانت غير نادم ؟ »

- « نادم ... ايتها الصغيرة المجنونة ، انك الان ادنى الى قلبي واكثر صلة بي ، اني أشعر الان بانك انسانة من نفس العالم الذي أعيش فيه ؟ » وكان رأس الام لا يفتأ يهتز اهتزازا رتيباً .

وجلس بين الطفلين ووجد الطفلة اكثر استجابة لتودده من الصبي ، كان وجه الصبي يحوي أمارات اعتزاز بالنفس وأثمة ، وكانت كل اجزاء وجهه تشير الى أصله الامريكي ، الانف المرتفع الارنبية ، الوجه المثلث المتساوي الاضلاع ، الشعر الاشقر ، وسأل ارهارت « اتساعدني على تعلم الالمانية يا ارهارت ؟ »

فابتسم ولم يجب ، فقالت اخته « انه في الخامسة ، لم يدخل المدرسة بعد ، سأساعدك انا ، اني في السابعة ، وانا في الصف الاول . »

والثفت الى رنانا وفي خاطره سؤال يتردد في البروز وقال « اهذه هي العائلة كلها ؟ »

وبدا عليها انها أدركت السؤال ولكنها لم تجب .

والثفت رنانا الى امها والى الطفلين قائلة « لقد حان موعد ايقاد الشموع واعدادها الهدايا ، فليكما بالخروج الان ، وعندما تعودون سيكون بابا نيكولا في استقبالكم حاملا كيس هداياه . »

وخرج الاطفال مع جدتهم ضاحكين . ولما خلت الغرفة قالت رنانا « لملك تسأل عن الاب . انه أمريكي . من جنود الحملة . لقد أحببته كثيرا ، فظف لي الطفلة أولا ، وقد كاد أن يكرها ، ولكنه اعترف بها في

ساعة ربانية ، وسجل وثيقة ثبت نسبها ، وغاب عني سنة . ولما عاد وجدت اني ما زلت متعلقة به ، وبالرغم من تحذير أهلي واصدقائي سقطت في الغلطة ذاتها ، فرمى ايرهارت في احشائي هذه المرة . لقد كان سكيراً ضعيف الارادة مصدوراً ... ولكن قلب المرأة .. أنت تعلم ان النساء سخيفات أحياناً وقد كنت أسخفهم .. وفي هذه المرة ذهب ولم يعد ، ولعله قضى نحبه .. لا اعرف شيئاً عنه الان .. لقد تلقيت من امه بعض الرسائل أول الامر ، ثم انقطعت كل اخبارهم ، وقد علمت من رسائلهم القليلة انهم قوم أغنياء ، ومع ذلك لم يساعدوا الاطفال حتى ولا بـمليم واحد ، ولكن الله معنا لا يد ان ينال امثال هؤلاء جزاء قسوتهم . »

ولما انتهت قصتها نظرت الى الصليب ورسبت علامته ثم تتت صلاة . وانهمكاً باعداد الهدايا وايقاد الشموع ، ولما رأت اهتمامه بما بين يديه من عمل عادت تقول « لقد ادركت بانك تختلف عن الاميركان والاوربيين ، ان بين جنبيك قلباً رحيماً ، وربما كان ذلك لانك من ايران من الشرق ، من نفس بلد هذا الصليب . نحن أيتام انا واولادي ، وحتى أمي . ان اقرباءها أثرياء ، ولكنها نشأت يتيمة فقيرة ... لقد فضلت بعد أن تركها أبي ، ان تبقى بلا زوج أو صديق لتتصرف الى تشأني ، لقد ظلت تعمل ممرضة في المستشفيات الرسية حتى كسرت ساقها ، واحيلت على المعاش . ان تقاعدنا لايسد رمقنا ، لقد كنا في سعة قبل أن أفقد عملي الاخير لقد بقيت مدة سنة أبحث عن عمل آخر دون جدوى ، وأين أجد العمل ولا واسطة لي ولا سند . »

– « ولكنك جميلة يارافانا . الا يشفع لك هذا الجمال ؟ »

– « بل هو نقمة علي ، ان بعض اصحاب الاعمال لا ينظرون الي نظرة

بريئة ، اني استطيع ان انحط الى هذا الدرك . »

– « ولكن من حَقك ان تطالبي الحكومة الامريكية بنفقة للطفلين على

الاقبل ، ان الامريكان قوم اثرياء وحكومتهم توزع الهدايا على الدول وتتصدق على الامم المتأخرة ، انها تنثر الصدقات ذات اليمين وذات الشمال على العالم الحر ، فهلا قامت بواجبها نحو اولادها الشرعيين وغير الشرعيين ، انكم جزء من العالم الحر ، أستم كذلك ؟ »

— « لقد ذهبت للمطالبة بهذا الحق مرة فقبولت بغلظة ، لقد وجدتهم يوزعون العطايا على اللاجئين من الدول الشيوعية ، لغرض الدعاية ؛ بسخاء ، ولم يلتفتوا لي قط ، فكرهت أن أعيد الكرة ، انني لا أطلب صدقة ، ولو وجدت عمالا لكفيت أولادي شر العوز ، ولما طالبت أحدا بالاتفاق عليهم ، اني أحبهم ، انهم كل عالمي . »

وكانا قد اتفهما من ايقاد الشموع وتزيين الشجرة وكانت أغلب الهدايا من أقارب الامم القليلين . وقال معاتباً « لو كنت أعلم لاشترت بعض الهدايا للاطفال . »

فابتمت واجابت « ولكنك قد فعلت أو نسيت الثلثات الثلاثين ؟ هي ذي هداياك ، وقد كتبت عليها اسمك وبينها هديتي لك وارجو الا تسخر من تفاهتها ، فهي تتناسب مع ضعف جيبتي . ولكنك قد اتيت بكيس من الورق معك . وأظن المفاجأة ، قد انتك اياه ، هو هدية اخرى كما أظن ؟ »

« — طبعاً وأرجو أن تقبلي هذه الهدية التافهة . »

وما كادت تفتح الكيس وترى محتوياته حتى ابرقت اساريرها وهتفت مسرورة « ما اكرمك ان هديتك غريبة في هذا المنزل انها تليق بقوم أثرياء ؟ »

— « بل هي أقل ما يليق بك يا رفاتا . ولكن من سيقوم بدور الاب

يقولوا ؟ سأكون أنا الاب نيقولا • ان الكيس يصلح أن يكون لحية جميلة
منمقة ، فهل لديك رداء أحمر ؟ »

وناولته بطانية حمراء من فوق الفراش فالتفت بها ووضع كيس الورق
في ذقنه ، وصنع من ورقة كبيرة بيضاء طرطورا وضعه فوق رأسه ، ثم نظر
الى رنانا وقال « هل اعجبك الان ؟ »

فهتفت راضية « اب نيقولا لطيف » وصفتت تنادي الاطفال الذين
كانوا ينتظرون بفارغ الصبر ، وكان فرحهم بالاب نيقولا لا يوصف ،
واخذوا يتناولون لعبهم وهداياهم صارخين فرحين ، وما كان فرح الام
المعجوز بهديتها أقل من فرح الاطفال ، وأطال النظر الى رأس الام المهتز وهو
يناولها الهدية ، وادركت رنانا ما يثير اهتمامه فقالت شارحة « أو ترى رأس
أمي كيف يهتز ؟ لقد أصيبت برجة عصبية اثر غارة جوية خلال الحرب
الاخيرة ، انك ترى اتنا في حي تكثر فيه المعامل ، لقد كانت سرايب العمارة
هي الملاجئ الوحيدة ضد الغارات الجوية ، وقد انهار الدار فوق هذه
السرايب فطمرت أمي وبقيت سكان العمارة ، ولم يخرجوا من تحت الانقاض
الا بعد عشر ساعات » فاعترضت الام مصححة « بل اثنتى عشرة ساعة • »

وصاح ايرهارت « ماما كيف ادير هذه الرافعة ؟ »

فاجابت الام ضاحكة « سل الاب نيقولا • »

وتناول المجرفة من يد الصغير وأخذ يشرح له كيف ترفع وتحفظ
وتدار ، فاشرق وجه الطفل • وبدأ الراديو يذيع نشيدا ، ثم ترتلا دينيا
اشتركت معه الام الكبيرة بصوتها المهتز اهتزاز رأسها ، وما لبثت ان التفتت
اليه قائلة « او تقرأون نشيد عيد الميلاد في بلادكم ايها السيد رزا ؟ »

فاجبتها رنانا « ان رضا مسلم من ايران ومع ذلك فهو يحب انشودة
عيد الميلاد كما يبدو »

فقال رضا « اني أحفظ الترتيل باللغة الانكليزية » وقالت الام الكبيرة.
« اتنا كلنا أيتام فهل أنت أيضا يتيم ايها السيد رزا ؟ »

فاجبتها رنانا « اجل فقد اعدم ابوه في ايران بسبب مبادئه الحرة.
وثورته على النفوذ الاجنبي في بلاده . »

فزاد رأس الام اهتزازا ، وقالت مستغربة « وهل في بلادكم من يشبه
هتلرنا الراحل ؟ »

فاجاب مبتسما « ان المصيبة ان اولاد هتلر ، الذين زرعهم في انحاء
العالم بعد انتحاره ، هم أكثر من أيهم وحشية ، ولكنهم يتقنعون بقناع
كان يزدرية ابوهم المجنون ، وبهذا جمعوا الى وحشيته نفاق الثعلب
ومكره . »

وبدا الحزن في عيني الام ، فتمتصت مصلية وهي ترسم علامة الصليب،
واستطرد رضا يقول « لست وحدي اليتيم في ايران ، ان امتي كلها يتيمة.
بعد أن فقدت الاب المشفق ، وانه ليم قاس مريع . »

وقالت رنانا « لقد أعددتا للعشاء سمكا ، انني خجلة ، انك لاتضحك
منا ، أليس كذلك ؟ »

- « ليس ذلك من حقي ، اني أشكر لك هذا الكرم ، فارجو أن تتركي
كثرة الاعتذار ، ، ولتعلمي بانني مسرور جدا بوجودي بينكم . »

- « انك ترى اتنا نأكل في غرفة النوم ، انظر الى رنانا كيف تأكل
بيدها ، ولكن لماذا لا تأكل ؟ ان كبريائي تنهار أمامك . »

- « أرجو أن تكفي عن الاعتذار ، ولتعلمي انك امرأة يحق لها أن.
تحتفظ بكبريائها ، فليس في كل ما تخجلين منه ، ما تلامي عليه . »

- « سوف تكف اذن عن تسميتي باوربا المتعجرفة . »

— « انك في الحقيقة اوربا الصادقة التي تخفي تعاستها تحت ستار من الكبرياء ، وهي لو كشفت القناع عن ذات نفسها لفتح لها الشرق قلبه وسقط من بينهما ستار التكلف . »

وقالت الام العجوز وهي ترفع الصحف وتنظف المائدة « ما اغرب هذا الاجتماع ؟ طفلان اميركيان ، وعجوز نمسوية ، وسيدة هنغارية ، وسيد ايراني من الشرق يحتفلون ببولد السيد العظيم » ونظرت الى صورة المسيح الذي بدأ عديم الحول فوق صليبه ، وصلت بخشوع واحترام .
وانطفأ المصباح الكهربائي الوحيد في الغرفة ، فوصوت الام بصوتها المرتجف « ها قد انقطع التيار مرة اخرى ، ان معدات الدار الكهربائية عتيقة مثله ، هيا يا اطفال لا صلاحه . »

وتقدم رضا من رناتا فرأى عينها تضيئان كشعنتين من شموع الشجرة ، ومدت له ذراعيها ، والتقت الشفاه الاربع . التقى الشرق والغرب التقاء ود صميمي وتقامهم عميق .



عجفاء

في زقاق الصليب الاحمر وفي تلك العمارة عثرت في طابقتها الارضي على ارحص شقة في فينا ، صغر قن استطيع ان اشتره بدرهماي المدودة ، لاقنع نفسي قد غدوت ذا منزل ، في الدنيا الواسعة المملوءة بملايين المنازل .
اجل في هذه الجحر العتيق • رأيت لأول مرة عجفاء •

لقد كانت اول انسان طرق بابي ، بعد ان انتقلت الى ذلك الجحر • كانت تؤدي واجبا ، فهي البوابة ، اي وكيلة صاحب الدار • لقد خيل اليّ وانا انظر اليها ، أول مرة ، انها شبح قد نهض من تحت ركام انقاض العمارة المقابلة ، التي دكتها قنابل الحرب دكا •

قالت وهي تصفر الكلمات من بين شفتين ليس وراءهما استان « أنا البورتيه فراولان اكفا • »

وشددت على القسم الاول فراولان اي انسة ، وكأنها تريدان تقول « أنا آنسة السيد الوحيد » وادركت ما ترمي اليه ، فقلت ضاحكا « تشرفنا يا عجفاء • »

وها انذا اقدم للقاريء نموذجاً غريباً من سكان هذه المدينة الجميلة • هو اغرب شيء بين سكانها الذين لم اجد بينهم شخصا قبيحا ، طيلة عامين مضيتهما في هذا الدار •

عجفاء ! امرأة ، لا من علياء القوم ولا من الدهماء ، كائن حي حساس .
مفكر قائم بذاته له احلامه وآلامه وآماله ، هي مخلوقة وسط خضم هذه
الحياة المضطرب تتشبث بالتافه من الحياة • في سبيل الحياة • وما حياتها ؟
كدمتعب وآمال محطمة وحياة لا ينير ظلماتها نبراس من امل يخفف متاعبها .
المرهقة ، ويرطب جفاف فيافيها المحرقة •

لقد قذف القدر عجفاء ، وسط عاصفة الحياة الهوجاء ، قذفا لا بصيرة .
فيه ولا حكمة ولا معنى • ولكن عجفاء قسها التي تشارك النمسين بشدة .
تمسكهم بالدين ، تقول ان حكمة الله لا تدركها العقول ، فهي تعترض على كل .
ما في الحياة ، ولكنها لا ترضى بأن ينتقد القدرة العليا على ما الحق بها منتقد .

لعجفاء عيان فاذتآن براقتان حادثان ، اذا جردتهما معا مما يحيط بهما
من ملامح الوجه الاخرى بدتا جميلتين فيهما من المعاني ما يفيغ الشعراء .
ويركض وراءه الفنانون والادباء ، ولكن وجودهما في بقية الوجه جنائية .
عليهما •

ولها انف لا غبار عليه ، ولكنه وسط ذلك الوجه فيه كل الغبار المقصود .
بهذا التعبير • وما هذا الوجه الذي شوه ما يقوم عليه ؟ الحق انه ليس .
بالمشوه ولكنه يتكون من بشرة محترقة ، قد جف جلده على عظامه وتفضن .
وخار جانباه لما احتلا فراغا تركته الطواحن والاسنان الجانية ، فانخسفت
الخدان وكأتهما أرادا ان يلتقيا داخل الفم •

ولكن اعد الاسنان الى محلها ، واملاؤ الوجه بشيء من الطراوة ،
واكس عظمه لحما ، ثم أزل تلك البقع المنتشرة في جوانبه بمادة كيميائية
أو اية مادة اخرى تزيل البقع ، عند ذلك ستجد ان للوجه رواء وطراوة ،
وسيستحيل أمامك حتما الى شيء تستجلي النظرة فيه ، وترتاح الى استجلاء .
معانيه •

وبعد فليس الزمن هو الذى فعل كل هذه الافعال بوجه عجفاء • كلا
فلم تصل عجفاء سن الكهولة ولم تدرك دور اليأس •

ان عجفاء ذكية بعض الذكاء وهي ابيه كل الالباء ، وهي ترتاح الى
الخداع والنفاق ، ولا تذلل نفسها لحاجة بل هي تكسب عيشها بكدها فهي
ليست عالة على احد ، تكد لتعيش ، رزقها موفور مضمون على الرغم مما فيه
من متاعب ومنغصات • تكد في العناية بتلك العمارة الضخمة محبوبة لاماتها
ونشاطها غير مرغوب في جمالها اذ لاجمال لها ، فكان ان عافها الذئاب ، وبقيت
عفيفة طاهرة الذيل ، ولكنها ادركت ان النساء امثالها يتيهون عليها بالجمال
وبالمال ، وبالأزواج والاولاد ، فقابلت هذا التيه بمقاطعة الناس والسخرية
منهم فهي تعرف كيف تصورهم تصويرا مضحكا يضحك من يسمعا ، فلا
جمال في نظرها ألا وبه من الدمامة ما يخفي على غيرها ، وهي ماهرة في اظهار
العيوب ، بارعة في تصويرها قاسية في السخرية منها •

مرضت عجفاء يوما ، وكان ذلك يوم كانت شابة فاعطاها الطبيب شرابا
منعشا فيه من الكحول كمية وافرة ، فشفيت بعد ان سكرت ، وطلبت من الطبيب
تكرار الوصفة فدلها عليها ، ونصحها بعدم الاكثار ، وانبأها بحقيقة ما اعجبها
في الدواء ، فاصرت على تناول الدواء بعد الشفاء ، ثم بدأت تشتري الدواء
من الخمارات بدل الصيدليات ، وليس على المريض حرج ، والدواء دواء ما
دامت الغاية من تناوله الشفاء • تشربه ليلا ، ولا تستطيع ان تسميه باسمه
نهارا ، واذا ما قال لها بشر انت تسكرين ثارت وعربدت • وهي تقبع في الليل
في زاوية بحيث لا يراقبها احد تتناول جرعات الدواء حتى تدوخ ، كما تقول ،
ولكنها لا تفقد الوعي ، ولا تسكر كغيرها ، فهي تكفي بالاعتاش دون
الارتعاش وعندها ثرثرة لا تنقطع ، تجود قريحتها بشئ النكات ، فاذا ما
ضحك جلاسها واكثرها من الضحك ثارت غاضبة وانجرت تفرعهم لانهم
يتخذون منها مسلاة واذا ما سكتوا انقلبوا تسمعهم قوارس الزجر والتعنيف

لثقلهم وثقل ظلمهم ، وإذا ما اتاح لها القدر منعت معجب لا يضحك ، بدأت تسرد عليه تاريخ اسرتها ، فتروي تاريخ حياة ابيها وظروف ولادتها العجيبة الغريبة ، تلك الولادة المحفوفة بكل عجب ومدهش غريب ، وتعود فتذكر ما كانت تتمتع به من نعماء في ظل « النيل ابيها » اجل فقد كان ابوها نبلا من نبلاء النساء ، فتذكر الخدم والحشم ، وتشيد بذكر ابيها الورع التقى الذي لا تنقطع له صلاة ولا تقوته فريضة ولا نافلة ، فهو في نظرها لا يشبه ابناء الزمن. الحديث الفاسقين الفاجرين السكيرين المقامرين وتشدد حين تذكر السكر وتقول « ويل لهم من عذاب يوم عظيم » ولا اخالك انك ستحبسها منافقة ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، فهي لم تعتقد قط انها سكرت ، أما ان كمرت او الحدت امامها فالويل لك من تقريهما وتعنيفها ، فهي تتوعدك بالعذاب الهائل وباتقام الآله الجبار .

قالت لها جليسه مشاكسة يوما « لماذا لا يغضب الله على الاثرياء الفسقة فيذهب عنهم نعمتهم وينعم بها على الاتقياء امثالك ؟ »

فثارت قائلة « وما رأيك انه سيفعل ؟ وان لم يفعل فهو ادرى بما يفعل ، وليس من حق امثالك من العييد الضعفاء الجهلة الحمقى ان ينتقدوا خالقهم ، وما هم بالنسبة اليه الا احط من نملة . »

ويظهر ان عجفاء لا تمت الى طغمة المستردين الثائرين بصلة وهي بذلك لا تختلف عن ابناء قومها فهي ، مرتاحة مكتفية ظاهرا تنام كل الليل بعد ان تدوخ ، تأكل طعاما جيدا . وهي راضية عن الله ، والله راض عنها وسيدخلها ، كما تظن . فسيح جناحه حتما ، أما الاوضاع الاجتماعية المتناقضة القلقة سببها في ظنرها فساد الناس وتمردهم على اولياء امورهم ، وهي لا ترغب في القلاقل والاتفاضات والثورات ، وتكره الحروب وتبعاتها ومنغصاتها. كرها عظيما ، لانها أمور تسلب الراحة وتقلق البال ، ولكنها ميالة ابدا الى القاء اللوم عند حدوث امثال هذه النكبات على الضعفاء المعتدى عليهم ، فهي

تساءل « لماذا يكثر هؤلاء الناس من التذمر والشكوى ؛ ولماذا يفضبون الله لينتقم منهم ؟ ولماذا ينظرون الى ما في ايدي غيرهم ؟ ولماذا ينتقدون من هو أعلى قدرا منهم واعظم درجة ؟ فاذا ما فعلوا ذلك وتمردوا على ارادة الله حق عليهم الشقاء ؟ »

يوم لقيت عجفاء ادهشني ما في حياتها من متناقضات أول وهلة ولكني ما لبثت ان ادركت ان هذه المتناقضات طبيعية ، وان عجفاء ليست مادييا ومعنويا في الحقيقة الا ركاما لحطام قد جمعته يد القدر دون روية • تصور قصرا عظيما ملوك كبير قد ترك بعد ان هلك اهله وحجانه منسيا بما فيه من رياض وجواهر ، دون ان يعنى به احد ، ودون ان يعثر عليه سارق او ناهب ، قد دك فاختلطت الانقاض بالجواهر ، والحجر بالتراب ، وضاعت التحف بين الاحجار ، ثم قبرته يد الطبيعة تحت الرمال السافيات ، وهكذا هي عجفاء كومة من انقاض خلقا وخلقاً ، قد ضاعت في زواياها كنوز حياة كاملة ، لم يسخر لها من تعهدها قبل ان تتداعي ، ولا من يتمتع ببعض كنوزها قبل ان تضيع في التراب •

وعلمت من عجفاء ان كل اقربائها قد افنتهم الحرب الاخيرة • فقد دكت قنابلها الاسرة دكا ، فلم يبق من انقاضها غير الآنسة اكفا أو كما سميتها ، تحريفا هو اكثر دلالة على المسمى « عجفاء • »

اللاجئ اللاجئ

خمسة وثلاثون دركة من البرد ، ولكنني كنت منه في حرز واق حذاء
مبطن بالباد ، ومعطف ثقيل •

ودفت يدي بقفازيهما المبطنين ، في اعماق جيبي المعطف ، ومضيت
اتحدى البرد والتلج ، اصغي الى خشخشة ركامه تحت حذائي الثقيل
بسرور ، وانظر ندفة المتراكمة على معطفي الاسود بتحد وازدراء • وكنت
اتعمد الخوض في ركام الثلوج على جانبي الشارع ، لارى كيف يفوص
حذائي في جريش الثلج ، ثم يخرجان نظيفين لا يحملان حتى ولا قطرة من
البلل •

وما كدت اعبر جسر بروماندن الذي يفصل المنطقة الثانية عن الاولى •
واصبح في اول شوارع المنطقة الاولى « الرنك » حتى بدأ الجو يرد على
استخفاي به بردا قاسيا ، تحركت الريح ، وشعرت بلفحها يصفع انفي ووجنتي ،
أمر قد أطيقه واحتمله ، ولكن قرص الآذان شيء فظيع •

وشعرت بالحمى في اذني كأن آلاف من حزم الابر تخزهما وخزا • وما
كنت قد غطيتهما بتروس اللباد الواقية ، كما يفعل الفينويون • واستعنت
بياقة معطفي فاقمتها ففطت وجهي حتى ارنبة الانف ، واخفت قسما من اذني ،
واصبحت انقاسي تستحيل ، على طرف ياقة المعطف راسا الى جليد •

وقررت ان اهرب اخيرا من تلك المباراة المتكافئة لا نقذ اذني من
سكاكين البرد التي كانت تثرمها ثرما .

والتجأت الى اول مقهى صادفته ، كامر شيل كافيه ، وشفت الثلج عن
معطفي بين البابين ، ثم دخلت جنة المقهى هاربا من زمهرير الشارع . وناولت
الخادم معطفي ، وقبعتي ولفاف العنق ، وبدأت استمتع بذلك الدفء اللذيذ
الذي زادته المقاعد الانيقة ، والمناضد البديعة ، راحة واناقة .

وجلست فوق الحشايا الوثيرة مسترخيا . واسرعت الخادم الرشيقة
بخفة ، فحيتني وقالت « بم استطيع خدمة السيد ؟ »

فاجبتها « وهل ثمة ما هو احسن من الشاي والروم ؟ »

فابتسمت واجابت « انت لاجيء الى المقهى هربا من البرد ؟ ان الكامر
شيل مأوى اللاجئين من كل الاصناف ، هو ذا الى جانبك لاجيء هنغاري . »

- « لا ريب فأن « فين » مأوى اللاجئين في عصر اللاجئين . »

ومضت الصبية لاداء واجبها والتفت الى اللاجئ الهنغاري ، فرأته
يتطلع اليّ كمن يبحث عن فرصة ليخوض في الحديث ، فاعتته بسؤاله
« اتكلم الالمانية ؟ »

فاجاب « لا ولكني اتكلم الانكليزية ، فهل تحسنها ؟ »

- « احسنها . »

- « من اين انت ؟ وهل انت لاجيء ايضا ؟ اني لاجيء هنغاري »

- « انا من بغداد عاصمة العراق ، اذا كنت قد سمعت به ، ولست
لاجئا حتى الآن ، والمستقبل مجهول . ان غيوم الاضطرابات السياسية تغطي
سواء العالم ، ولكن لم لجأت ، هلا اوضحت لي شيئا عن حقيقة الثورة في
بلادكم ؟ »

- « انا فكره الشيوعية ، لقد حددت المكاسب ، كنت اربح قبل الحرب ارباحا طائلة في التجارة ، واصبحت خالي الوفاض الآن بعد سيطرة الشيوعيين ، ولولا تدخل الروس لتخلصنا الآن من نير هذه الشيوعية المقيتة . »

- « الرائج في كل مكان ان امريكا هي التي حرصتكم على هذه الثورة، وهي التي مولتكم وسلحتكم ! »

- « واذا لم تكن امريكا زعيمة العالم الحر هي التي تفعل ذلك ؟ فمن تقن اذن يقوم بهذه المساعدة ؟ » ثم اردف مشيرا ناحية المدخل « انظر الى هذين القادمين اظنهما من الشرق مثلك . »

وانتفت الى حيث اشار ، ووجدته قد اصاب الحدس .

ويسم الداخلان صوبي ، وكان احدهما من معارفي ، شاب من الجزائر واستقبلته مرحبا فقدم الي صاحبه .

« السيد ديب من لاجئي فلسطين . »

واعترض ديب « لست لاجئا وحسب بل انا لاجيء لاجيء . اني لاجيء مرتين ، لقد لجأت من فلسطين الى الاردن ، ثم لجأت من الاردن الى النمسا . ووضعت الخادم الشاي والروم امامي في صنية انيقة وتساءلت « اية لغة عجيبة لفتكما هذه . »

فاجبتها « العربية ايها الانسة . »

فقلت بعد ان عرضت على الجديدين خدماتها « لغة غريبة ، اشك جدا في انني استطيع التلطف بكلمة منها . »

وقدمت اللاجئين القادمين الى اللاجيء السابق . وتساءل الهنغاري ، وقد بدا عليه عدم الارتياح « الجزائري غير عربي ، هو فرنسي كما اظن ؟ »

وتحفر الجزائري « ماذا تقول اتستيق هذه الاكذوبة الضخمة ؟
تؤمن بهذه الخرافات ، انك لاجيء مدلل ، واقسم ان جيبك مليء
بالدولارات . لقد اقامت اوربا الدنيا واقعدتها في سبيل قضيتك . وما
قضيتك ؟ ان هي الا امور داخلية لدولة مستقلة . اما نحن الذين يذبحنا
الفرنسيون ذبح النعاج ، نحن الذين نكافح في سبيل استقلالنا اكثر من
ثلاث سنين ، فليس ثمة في اوربا من يرفع صوته للدفاع عنا . »

فأجاب الهنغاري وقد تغير لونه « ذلك لانكم تتعاونون مع الشيوعيين .
انكم ضد الغرب والعالم منقسم الى كتلتين . لو كنتم معنا لنتم حقوقكم . »
كان اللاجي اللاجي ساكتا ، ولكن وجهه كان يزداد احمرارا وما لبث
ان افجر قائلا « اسمع ايها اللاجي الهنغاري . لقد كنا مع الغرب . بل
اكثر مما تتصور ، كنا اتباع الغرب ، وخدمه المطيعين المخلصين ، وكانت نتيجة
هذه التبعية ان اغتصبت اراضي اكثر من مليون منا ، وطردوا من ديارهم
ليموتوا جوعا او عراة يقتلهم البرد ، والانكى من ذلك ان الغرب لم ينكر
حقنا ، ولم يبرر الاعتداء علينا ، وكان اقصى ما فعله لنا ان تصدق علينا
بالاعانات التافهة ، بينما كان يمد يده للمعتدي مصافحا ويهيل عليه المال ،
ويقويه بشتى الطرق . الا فلتعلم ان هذا الغرب يريد مناطاعة النعجة
للقصاب . »

وقال الهنغاري متحفزا « لماذا لا تسالون اليهود . انكم متعصبون انا
يهودي ايضا . انكم تألبون على حكومة اسرائيل لانها تختلف عنكم في
المذهب والدين . »

وتألفت عينا الفلسطيني وقال ، ها قد برح الخفاء . اذن فنحن الذين
اضطهدنا اليهود ، وشردهم من ديارهم ؟ لقد كان هتلر واصحابه ومؤسسو
نظريات التمييز العنصري كلهم عربا ؟ ها ها ها . الا استمعوا يا عالم ، ان
المسيحيين واليهود والاسلام والعرب عاشوا قرونا واجيالا دون ان يفكر

احدهم بالاعتداء على الآخر ، حتى اتى الاستعمار الغربي بمختلف نظرياته
وشتى اساليه . فاذا كان الاوربي قد اضطهد اليهودي وشرده ؟ فلماذا يتحمل
العربي العقاب ؟ اعلم انه لولا هذه الحكومة اليهودية التي تهدد بافناء العرب
واكتساح اراضيهم ، لما فكر العرب بكره اليهود . انكم ايها اليهود اداة شر
بيد طفمة المعتدين . وقد تكون انت ايضا اداة شر بيد هذه الطفمة التي
تحاول الفساد في بلادك ؟ انكم تفقدون عقولكم امام بريق الذهب . اذن
فاتبهوا واعلموا ان هذا الذهب سيقضي عليكم يوما اذا لم تتجنبوا خطره .
ان الدولار الامريكي قد سبب طردي مرتين من بلادي ، وقد كان هو السبب
في طردك من بلادك انت ايضا يخبيء لك ما هو انكى وامر . »

ورأيت الهنغاري غير مصنع الى الفلسطيني بل علق نظره بباب المقهى
وقد أصفر وجهه .

وتقدم شرطي ، ومعه آخر بيزة غير رسمية ، وكانا متوجهين ناحيتنا .
وتملل الهنغاري كمن يريد الهرب ، ولكن الشرطي وضع يده على كتفه .
ثم ضرب على عبه وأخرج حزمة كبيرة من الاوراق المالية . وكانت دولارات
من فئة عالية .

ثم وجه سؤالا لنا « اتعشم ألا تكونوا قد تعاملتم مع اللاجئين هنا
يسوق الدولار السوداء . »

فأجبتهم مبتسما « نحن لا نحب الاسواق السوداء أيها السيد المفتش ،
ولك أن تفتشنا . »

فابتسم مرافقه وقال « نحن لا نخفى علينا خافية فلا حاجة لتفتيشكم . »
ثم التفت الى ديب مبتسما وقال « سوف ندعوك للشهادة . »

ومضى الشرطيان مع اللاجئين .

والتفت الى ديب مستهتما فاجاب متشفيا « سوف يلقي جزاءه . لقد
انتقمت منه ومن الدولار معا اظنك تجهل أن هذا المقهى قد أصبح مركزا

للتعامل بالدولار في السوق السوداء • ان هؤلاء اللاجئين الهنكاريين ،
وجلهم من اليهود ، قد اغرقوا السوق بالدولار • لقد رأيتهم مرارا يتعاملون
به دون خوف • لقد اساءوا الى الامة الطيبة التي آوتهم لقد أعنت
الشرطة عليهم ، أقول ذلك دون حياء ، اذ اني أكره خيانة الدولة التي
آوتني ومنحتني حمايتها وعاملتني كفرد من أبنائها • »

وأنت الخادم شاكية « ابن اللاجيء الهنغاري ؟ انه لما يدفع حسابه • »
فقال الفلسطيني « أما هذا فأدفعه انا ، فلي معه حساب طويل • »
فتساءلت « أنت يهودي أيضا ؟ »

فأجاب مقهتها « بل ابن عمه يا آنسة • »



المنعرة

وثب من فراشه وفي صدره وجيب رهيب وطعنت صفارة الديدبان سمعه طعنا ، وران سكون اقشعر له بدنه ، سكون يمت الى الموت بصلة . وتطلع نحو الفراش الثاني فرأى الاغطية مهملة ساكنة . أنا ، أين أنا ؟ . انها ليست في فراشها ، أين هي اذن ؟ أين هي ؟ قد تكون في غرفة الزينة ، مرحى ، اذن فهي لم تمت . لقد قالت بانها ستتحرر كما اعتادت أن تقول عندما تغضب . لقد اعتادت مثل هذا التهديد . لابد أن تكون الان فوق أريكتها المفضلة . سيذهب اليها سيسخر منها ومن تهديداتها . لقد كان يعجبها أن يخاف من ذلك التهديد ، وترى فيه دليل اهتمامه بها .

وتلمل في الفراش ، وكاد أن يعود الى الاغفاء ولكن قلقه كان شديدا ، فتحامل على نفسه ونهض ، ان في الجو شيئا غير مألوف . لقد سمعها تولول وتئن ، وهو بين النوم واليقظة . لقد رآها حالما ، وقد طعنت نفسها بكبن مزقت أحشاءها تمزيقا ، فاستيقظ مرعوبا ، لقد تجنبها ماء ذلك اليوم ، كان تعباً غاضبا . لقد ضايقته طوال اليوم وأذته ، لقد مزقت كل ما عليه من لباس ، وغرست اظافرها الطويلة المديبة في لحمه ، فثار وأقسم ليطردها ، ولماذا لا يفعل ؟ أهى أكثر من امرأة عاطلة لاجئة الى كنفه ؟ لقد كان يجب أطوارها الشرسة يوم كان مدلها بغرامها ، اما الان فقد وجد ان صبره قد نفذ . لقد أصبح يرتجف فرقا لمجرد احتمال ثوراتها .

وسمع أينا خافتا ، قاقشعر جسمه ، ولكن لا ، تلك هي ميمي قطنها
الاليفة تموء . انها تنعم النظر اليه وتموء ألماً . ووثب مندفعاً الى غرفة
الزينة ، ها هي ذي ممددة على الارىكة ، وقد انحسر ثوبها عن بعض مفاتن
جسدها ، فهذأت اعصابه قليلاً . يا للشقية . حقا لقد اخافته هذه المرة .
ستلتفت اليه ضاحكة ساخرة من خوفه ، يا للدلال الغريب . وجلس
بجانباها ، وانكأ بجسده على فخذيها ، ستدب حرارة جسدها المتقد بعد
قليل في بدنه ، فتقضي على قلقه ، وتريح أفكاره المتعبة ، واعصابه المرهقة ،
ستتحرك فجأة وتنشب مخالباها في لحمه . ولكنها لم تفعل . ومد يده الى
ذقنها فحركه ، ثم الى نهديها فدغدغهما . وجمدت يده على صدرها ،
لاحرارة ولا حركة . وصفعته الحقيقة صفعاً أدارت رأسه . ووثب مترنحا ،
ثم سقط كمن تلقى لكمة من ملاكم مدرب على ذقنه . سقط بعد أن دار
على نفسه وارتمى بالجدار . وعاد اليها يجر يدها وشعرها . لاشك ولا ريب .
وهرب من غرفة الموت يروم النجاة ، واخذ يدور في الدار الخالية
كالمجنون . ثم فتح الباب واندفع صارخا .

أما أنا فقد سعت لفظاً مزوجاً باحلام مزعجة . ثم انتهت مرعوباً
على صوت طرق عنيف على باب شقتي . وبقيت تحت تأثير النعاس أنصوّر
انتي في بغداد لا في فينا ، وليس من يداهم الدور في بغداد ليلاً غير رجال
الشرطة لاسباب مخيفة .

وركضت الى الباب تحت الحاح الطرق العنيف المستمر . وما كدت
أرفع المزلاج حتى اهتج الباب على مصراعيه وسقطت القبضتان على
صدرى فطرقتاه بدل الباب .

وأخافني منظر جاري يوجي فصحت به

— « ما بك ؟ هل جننت ؟ لقد أيقظت الدنيا . »

— « ماتت اثنا . ماتت . لقد قتلت نفسها . »

وركضت وراءه نحو شقته ، غير ملتفت الى احتجاج الجيران
وشتائمهم •

ووقفت أمام الاريكة ارمقها بعينين مروعيتين • خيل الي انها نائمة •
وتمسحت ميمي بساقي وهي تموء •

وتتمت « انها نائمة • »

- « هكذا ظننتها ، أول وهلة • ماذا أفعل يا صاح ؟ ماذا أفعل ؟ »

- « ما يفعله غيرك في مثل هذا الموقف ، خبر الشرطة ، واستدع
سيارة الاسعاف على عجل • »

- « ولكنها ماتت ؟ وماذا يجدي كل ذلك ؟ »

- « أمجنون أنت ؟ ربما كان بها رمق ؟ وانت • انك في موضع اتهام •

يجب أن تكون أمينا صريحا لتفي عنك الشبهة • »

- « لا يهمني شيء في الدنيا بعد أن فقدتها • كم أود اللحاق بها •

ولكنها اجراً مني • »

- « هذا مرعب • سأعمل ما أراه صوابا ، لآخر فيك وأنت تحت

تأثير الضربة • »

ويست شطر التلفون فاخبرت الجهات المسؤولة •

ولما عدت اليه وجدته ينظر الى الجثة مسحورا مرعوبا • وسمعتة

يتمتم « أيمن أن تثوب الى رشدها فتقول كنت أمزح • وتضحك

ضحكتها العذبة ، لو فعلت لسامحتها ، سوف أرضيها بكل الوسائل •

سأصير كلبا أمينا لها • »

وانكب عليها يناديها متوسلا باعذب الاسماء •

- « آتني استيقظي • سأجن يا آني • هذا منك منتهى القسوة • »

وقبضت على ذراعه ، وسحبته من غرفة الميتة قسرا .
« ستجن ايها الاحمق . لماذا لا تتمالك أعصابك قليلا . تعال اجلس
في غرفة الانتظار واحداً . لقد انتهى امرها ، ما كنت أتصور انها قوية الى
هذا الحد . »

– « ماذا تقول ؟ انها مجنونة . كنت أتوقع هذا منها . انذكر كيف
كانت تفقد رزاتها عندما تنور . تذكر كيف طردتني مرة من دارك لما فهمت
يعبارة لم تعجبها ؟ »

– « لقد كنت تكرهها حية ، فكن رحيما بها بعد موتها . لقد كانت
معذبة قلقة ، كانت تعسة يائسة ، ولكنها متكبرة . تلك هي علة شراستها ،
لو كنت اعلم انها جادة في نيتها لبذلت المستحيل لا حول بينها وبين
الالتحار . »

– « لو لم تنتحر عندك لا تحترت عند سواك . كنت اعلم انها لا بد ان
تفعلها يوما . »

وانفجر باكيا دون سابق انذار .

ولم احاول ايقاف نشيجه ، وشعرت بالراء له ، وبالاسف لفقد تلك
الدمية التي حطمت نفسها بمثل هذا اليسر ، وبمثل تلك السهولة .

وبدأت اتذكر اطوارها ، تذكرت الالم الدفين الذي كان يطل من عينيها
غالبا . تذكرت حيرتها وشعورها بالوحدة . كانت جميلة مشتهة ، يتهافت
عليها المعجبون . كانت لا تنقاد اليهم وتستجيب لرغباتهم ، الا بعد ان تفرق
ضميرها وكبرياءها بسيول الخمر ، وكان يوجي آخر اصداقها .

وتذكرت كيف انفجرت مرة باكية ، عندما قلت لها « انك تستحقين يا
أناس حياة افضل من هذه الحياة التي تصطنيعنها ، وتتكلفين القيام بهذا الدور
المقيت فيها . يا لجمالك الضائع ، يا لعزتك المهانة . »

ثم ما لبثت ان كفت عن النشيج بوجهي « لو تدري كم امقتك ، انك تفجر دمايل الاسى في قلبي بمبضع رثائك تفجيرا مؤلما . كن كرفاك الوحوش الذين يقزقزون الفتيات كالنقل ، واعفني من انسانيتك التي لا موضع لها هنا . انني في الثلاثين ، وانني على وشك اليأس ، الرجال ، وحتى المسنون منهم يفضلون العذارى اللواتي لم يتجاوزن العشرين . يفضلونهن في الحب ، وفي العمل ، وفي كل شيء .

يخيل لي ان المرأة يجب ان تنتحر هنا في سن الثلاثين . لقد حاولت ذلك مرارا . سافعلها يوما في الدانوب او الغاز . » وقطعت علي تأملاتي اصوات في الشارع . ضجيج محركات اكثر من سيارة ، واسرعت لفتح الباب الخارجي ، وقدت رجال الشرطة والاسعاف الى جثة القتل .

وانصرفت عن متابعة نقل الجثة ، وتحريات الشرطة ، الى تأملاتي . تذكرت علاقتها بيوجي لقد كان المسكين يحبها ، ولكنه اصبح يتردد على ترفعها عليه . لقد كانت تحب نفسها اعلى منه قدرا ، وارفع منزلة . فتنصب آلامها على رأسه . حتى ضاق ذرعا بها وهددها بالطرد . لقد اكدت لي وله مرارا انها لو فقدت هذا الملجأ الاخير فسوف تنتحر . تقول لها ببرود كمن يقول ساذب الى السوق او الى الحمام ، وربما كان ذلك هو السبب في عدم مبالاة يوجي بتهديداتها .

وانتهت مرة اخرى على صوت الشرطي المحقق يخاطب الحبيب المنجوع ، ويده ورقة يلوح بها .

— « هل قرأت هذه ؟ انها رسالة منها الى المحقق . »

ولم يجب يوجي ، بل بقي ينظر اليه نظرة بلهاء .

واجبت عنه « لقد ضعفته الصدمة ايها المفتش ، فعدا لا يبصر ولا يعي . انا موقن باناه لم يبحث في مخلفاتها ، دعني ارى الخط ، اجل انه خطها . لا ريب في ذلك . »

وعاد الشرطي يقول « لقد اوضحت كل شيء • سأتلو الرسالة عليكما
لقد يئست من دنياي • لست القى لوما على احد ، واني لآسفة على ما سأسبب
ليوجي الطيب من الآم • لست احبه ، ولست استطيع التردد مرة اخرى • ان
المعيشة في كنفه جسيم لي وله • انتي سعيدة بمقدرتي على التخلص من هذا
العالم القذر • لقد تناولت كمية كبيرة من السليمانى كافية لقتلي ، وقتل كل
الجرائم التي لوئت حياتي • سأذهب الى السماء ظاهرة مطهرة • »
وسكت الشرطي مليا ثم عاد يكرر باسى « عالم قذر • » والتفت الى
يوجي مشفقا وقال « لا حاجة الى بقائنا اكثر من هذا • انصح لك ايها السيد
ان تأوي الى فراشك ، وليكن ضميرك مرتاحا • طابت ليلتكما • »



بداء القلب

عزيزتي سوزي

أرى لزما عليّ ان اكتب هذه الرسالة لك ، بعد ان سبقتها الاولى ،
واني لموقن ان ثالثة ورابعة ستعقب هاتين ، سأكتب واكتب حتى يحمد لهيب
هذا القلب •

القصة بسيطة كما تعلمين • لقاء بارد ، واجتماع فاتر تشتد حرارته
شيئاً فشيئاً بالمجاملات والشراب ، حتى يأتي دور القبل ، وأنداك يكون دور
الهزل على وشك الانتهاء ، ودور الجد في البداية •

تكون القبله الاولى كعود يلقي على وقود بعضه يابس وبعضه رطب ،
ولا تلبث نار اليايس ان تجفف الاخضر وتضرم فيه اللهب • وكنت ، وهذه
هي المرة الثانية ، ممن لا يحترق وقوده بنفس سرعة احتراق وقود رفيقته ،
لقد توهج قلبك بسرعة البرق ، ذلك لانه غض طري ، اما قلبي فكان حينذاك
يمتص الحرارة ، وتزداد مدة هذا الامتصاص طويلا يبرود التفكير والتعقل ،
والدرس والتحليل الى غير ذلك من الترهات • حتى اذا ما اوشك قلبك ان
يتحول الى رماد ، كان قلبي في أوج اشتعاله ، ولكن لوحده • او تذكرين
كيف كنت اضيق ذرعا بغيرتك ، وعواطفك المتأججة ؟ واغراقك الشديد في

المجون والغزل ؟ والان يا للجنة السماء ، ها هي الاية تنقلب • اني لا شعر ان كل لهيب في قلبك قد انطفأ • واصبحت لوحدي ، في وحدة في قمر موحش ، بل في ظلام دامس •

أين كانت هاتان العينان الغزلتان ، البراقتان ، اللتان ارى السماء فيها بكل نجومها ، سماء لا جنة لي فيها •

اني لارتجف الآن عند رؤيتها ، اريدك كما كنت قبلا لا كما انت الآن • انك لا تدركين مبلغ ما في ذلك من القسوة على قلبي • ان آلامي قد تغطي حتى تلجئني الى محاولة التغلب عليها ونسيانها ، باحداث الم مادي ، كان اعرض على شفتي ، او انشب اظفاري في لحمي •

لقد صارحتك بذلك مرة ، فوثبت الدموع الى عينيك اشفاقا فزادني ذلك بؤسا ، اذ علمت انك لا تفهمن ، وانك لا تحسن ما احس به •

اني اعلم الان ان كميتي حينا غير متعادلتين فقد هبطت كفك الى الحضيض ، وارتفعت كفتي الى القمة ، ولكن هذه القمة مقفرة • اشعر بانني قد قذفت في فضاء العالم الذي لا نهاية له • ان قلبي ليخفق كالطائر المذبوح • ان الناس هنا ، في (فين) فقط ، يتعلمون ، كيف تخدم الدموع تباريح الآلام •

اعلم انك ستأتين الي ، بعد قراءة هذه الرسالة ، فتبين مستنكرة ما اقول ، ثم تقذفين بجسمك ومقاتته بين احضائي ، وقد يمتد حر لهيبني الى برد رمادك فتلتصق بعض اجزاء منسية منه • ولكن كل ذلك موقت • او ترين اني قد استطعت ان افهمك شيئا ؟ • • اشك في ذلك • اذن فاليك عني بحق السماء • ان مرآك يحدث غصة في صدري قد تقضي علي • توهمت ، اول يوم رأيتك ، ان هذه الجمال المتناسب المتناسق، المخطوط بالمسطرة والفرجار، لا يمكن ان يحوي شعلة ، اذ ما هو الا تمثال من رخام • ولكن براكينه

التأجبة التي ثارت دون انذار قد اكدت لي سخف ما كنت اتوهمه . واذا
بكياي يتقد . ان سبب نكبتى يكمن في الفرق بين حجمي قلوبنا ، قلبك ، او
قلب الاولى ، واستطيع ان اقول قلوبكن جميعا ، تلك القلوب الصغيرة
الحارة قلوب الطير ، وقلبي الضخم البارد كقلب الثور ، اجل الثور الذي
لا يثار بسهولة ولكنه اذا ما ثار لا يسهل السيطرة عليه . انك ستألمين لاني
احقر هذا القلب ، هذا الشيء الذي يسبب لي كل هذه الآلام ، اني احقره
لأنأر لنفسي منه .

هكذا ترين انني لا احقد عليكن جميعا . واني لا اطلب لكن كل
السعادة والهناء . ان الذنب في هذا العذاب الذي اقاويه يكمن في امور لا
سلطان لكن عليها ، فأذهبي ، كما ذهبت رفيقة لك من قبل ، من حياتي .
ودعيني احول هذه الحمم الى سطور على الورق . ان ذلك عزاء لي ، وقد
يكون مصدر لذة سادية لعينة . انني اشعر آنذاك بأنني احيا ، ولا بأس ان
تكون تلك الحياة في جهنم .

هذا ما يجعلني ابحت عنك ، وانت جالسة امامي ، واشتهيكي وانت
بين ذراعي ، وابكي لفراقك ، وانت ملتصقة بي . ولهذا كله لا تستطيعين ان
تفهمي ما اقول . فتذهبين الى ان بي مأ . ان وجودك وعدمه لدى سيان ،
والمهرب الوحيد هو النشوة القاتلة . ان الكير حين يبلغ درجة فقدان
الوعي ، لا يعود يحس بالخمرة تنساب في جوفه ، لا بطعمها ، ولا بتأثيرها ،
فيعود يهذي باقوال تشبه هذه السطور التي اخطأها لك . اني لا تنظر ما
يعقب ذلك ، انتظر مدرار الدموع التي تطفئ بعض الحمم . اني لا تمنى الا
يقدر لكن معشر النسوة ، ان تدفن معشار هذا العذاب ، وانه ليسرني كثيرا
الا تفهمته وتبالين به . ان بعضه لكفيل بان يحيل معدنكن معدن « الدمى »

الى كتلة شوهاء من المادة ، تؤذي اللمس وتكون قذى في العين ، فاحتفظن
بجمالكن متألقا كالشموع ، وان هذه الشموع قد تسبب الحرائق الكبيرة ،
ولكن على ضوء هذه الحرائق يسير العاسون في الليل المظلم •

حبيبك التعس
آرثر فون نيزلي

اعتذر للهر فون نيزلي والسيدة سوزي على نشر هذه الرسالة ، التي
عُثرت عليها صدفة ، لاني اعتقد ان ماورد فيها اهم جدا من ان يكون سرا
بين اثنين •



المجموعة الرابعة عشرة

فَرْقُ اللَّامِثَيْنِ

قَبْلَ الْقُبُورِ وَبَعْدَهُ

تمدد اسماعيل في ظل دوحة باسقة ، تحجب عنه ضوء القمر كانه
النهر الخالد ، نهر التاريخ ، يلتع في ضوء البدر ، وحوله سكون تام ،
لا يكدرها غير نقيق الضفادع وصرير الجنادب ، لا لعلمة طلقات ، ولادوي
انفجارات ، لا من قريب ولا من بعيد .

هدأ اسماعيل واستكان ، عندما هبت نسائم رطبة رحية ، وشعر
بسرور ونشوة ، شعور رجل موفور الصحة متين البنيان . لقد ودع سلمى
قبل اربعة ايام ، بعد ان كانا طيلة ستة اشهر لا يفترقان . كانت تحمل
كلاشكوف مثله ، وترتمي الى جانبه عند الراحة ، وتصغي الى الحان
شبابته التي صنعتها يده من غاب النهر ، ونمقتها اناملها ، وما كان امهره في
العزف . . .

وكانت نصيرة ذات قيمة ، عند المفاجأة . ابصروا يوما سيار دورية
للعُدو عن بعد ، فوضعا خطة محكمة لنفسها ، فقد اسرعت سلمى الى نقطة
بعيدة عنه ، وقدحت بصيصا ، واصطنعت اصواتا لقت انتباه من في السيارة ،
واتجهت اليها انظار من فيها ، وانصب انتباههم كله على الهدف ، مما هيا
لاسماعيل فرصة طيبة لمهاجمتها من الخلف ، وزرع قبيلته في وسطها تماما ،
فنسفها مع من فيها .

التعليم • ويوم عزمنا على الزواج ، حضرا بالكوفية والعقال ، وبكامل اسلحتهما ، وعقد الزواج رئيس الوحدة خالد ، وكان الشهود من الرفاق. الملمشين المدججين بالسلاح ، وكانت الوليمة من تجهيزات الوحدة • وعزف اسماعيل على شبابته مزيجا من الحان مرحة وثائرة • ورقصت الوحدة كلها. احتفاء بزواج فدائي بفدائية • وقال عبدالرحمن :

— ما ابدعه زواجا • على كل فلسطيني ان يتزوج هكذا • ولو كان في عجزوي بقية من قوة السلاح ، ولكنها مسؤولة عن ثلاثة فدائيين صغار • فقال حمدون ولماذا تسمي الصغار فدائيين ؟ ستحرر فلسطين قبل ان يكبروا •

فأجاب خالد يوم حدث تقسيم فلسطين بين الصهاينة، ومملكة الاردن، كنت في العاشرة • ورأيت ابي ثائرا هائجا ، قال لي « يا خالد ، انهم يتوهمون انهم قد مزقوا جثة ضحيتهم شطرين ، شطر لصهيون وشرط لملك عربي • ولكننا لم نمت • لم يفعلوا الا ان بصرونا بالحقيقة ، ووضعونا امام الامر الواقع ، ليس لنا الا ان نحمل السلاح لنحارب الاعداء الابعاد ، والاعداء الاقارب • ومن المحزن ان لبعض رؤساء اقاربنا العرب طبيعة الذئب الذي يأكل اخاه اذا ما جرح وسالت دماؤه • ان الاعداء يحلمون بمحق شعب باكملة ، وماحدث ذلك في كل حقبة التاريخ • تدرب ياخالد منذ اليوم على حمل السلاح » • ولكن امي أجابته وهي بين الخوف والاعتذار « انه صغير ، وقد تتحرر فلسطين قبل ان يكبر ، فما نحن في عهد الفراغة او الاثوريين » • فأجابها ابي بحدة : « قلة بصيرة منك مسا تقولين ، بل قلة عقل • الا فاعلمي يا أم خالد انك لستطيعين ان تعتذري لحفيدك ابن خالد • اتنا نعرف من نحارب ، ولماذا نحارب ، وكيف نحارب • ان المجاهد الحق هو من يعتبر الجهاد حياته منذ الان ، يجب ان يفنى فيه ، هو واولاده ، وربما احفاده ايضا • عليه ان يجعل الصراع لذته في الدنيا ،

لا عملا يؤجر عليه ، واذا لم يكن كذلك ، فسيقبل الذل والاسر . لقد كان
اجدادنا احكم منا ، لقد كانوا يؤمنون بالجنة ، غاية المجاهد ، فاذا ما كنا قد
فقدنا هذا الايمان ، فعلياً ان نختار بين الموت ، وبين حياة هي امر من الموت .
لقد اضحى رجالنا ، والحمد لله ، ممن تسكرهم المعارك . ولكنكن اتين
النساء لما تدركن ذلك » . فثارت امي واجابته « ستحتاجون الينا يوماً ،
وحتى لحمل السلاح ، فما نحن بأقل غيرة ولا جرأة منكم » . فاحتضنها ابي
مبتهجا ، وقبلها امامي ، متخلياً عن وقاره التقليدي ، وهو يقول « حقاً
انك ام خالد ، وسنرى اي بطل ستريين » .

واتت الاوامر الى الوحدة ، وهم في احتفال عرس اسماعيل بأن يتوجهوا
فوراً الى نقطة معينة ، بعد عبور النهر ، لمهاجمة دورية مبتعدة عن قواعدنا ،
بمحاذاة الضفة الغربية ، وكانت الخطة محكمة ، والاوامر واضحة ، وظهر
الوحدة محبى عند الانسحاب . وكانت الغارة موفقة ، افناء قافلة من ثلاث
سيارات ، ودورية قوامها خمسة عشر نفراً مع ضابطها . وفقدت الوحدة
صنديداً من افرادها ، حملته عبر النهر ودفعته في الشاطئ الشرقي ، ابنه خالد ،
وودعته الوحدة بلحن حزين على شابة اسماعيل .

وتفرقت الوحدة للراحة ، واختلى اسماعيل بعروسه سلمى بعد المعركة ،
في متناى تحت شجرة وارفة باتا تحتها ليلة الزفاف .

ها هو ذا تحت ظل الدوحة نفسها ، تلك التي ظللت ليله عرسه ، وكانت
فاتحة حياته في ذلك الكفاح الذي اصبح جزءاً من كيانه . كان ذلك اليوم
اعذب يوم من ايام حياته . ولكنه بعد ستة اشهر ، ويوم لاحظ ان بطن سلمى
قد بدأ ينتفخ فاتحها مؤبناً

– كيف هان عليك ان تكتمي عني الحقيقة يا سلمى ؟

– خشيت العراق يا اسماعيل .

- ولكنك مسؤولة عن حياة فدائي ثالث ، وما دنا قد استبدلنا لاذات الحياة التي يشتهيها المترفون ، بأخرى ، عطرها رائحة البارود ، وموسيقاها لعلعة الرشاخ ، وطبولها هدير المدافع ، فلا يحق لنا ان نفكر براحتنا وبمسرانا الذاتية . ان مجاهدا في طريقه الى النور ، وسيتبعه اخر ، لو بقيت على قيد الحياة . وعلام الخوف من القراق ؟ سأكون قريبا منك . ولا نكران بأنني سأفتقد عونك عند الهجوم ، ولكنك ستكونين معي بروحك وجبك .

هكذا كان الامر ، يوم افترقا مضطرين . وكان اخر اجتماع لهما تحت الشجرة نفسها . واجيزت سلمى ، وظل اسماعيل يأوي الى دارها ، في المدينة القريبة ، عند الراحة من المعارك . وكان لقاءهما لذيذا ، تتخلله عواطف مشبوبة من غرام حار ملتهب ، ولا غرو ، فقد اصبح افتراقهما ، مهما قصرت مدته ، كافيا لشحن بطاريات الشوق في كيانهما ، الى اقصى مداها ، وبقيا سعيدين .

ولكن الحالة قد تغيرت بعد حين ، وفي الجو ما ينذر بحدوث متاعب من طراز جديد ، ومهما قيل عن الحرب ، وجواز كل شيء فيها ، فما خطر بباله ان ينقلب الاخوان على الاخوان . لقد وجهت المدفعية في مدن الاقارب والاخوان الى بيوت امثاله من الفدائيين ، وصاروا يصطادون في الشوارع ، كما تصطاد الذئاب . ذلك نصر للعدو دون شك ، ولكنه شيء مقرف ، مهين لروح النضال والبسالة في الانسان ، ومع انه لم يفاعا بذلك ، الا انه ما كان يتصور ان يصل الخلاف الى حد الشراسة والهمجية في مطاردة الاخوان .

كانت مكتبة سلمى العامرة تليته في اوقات فراغه ، وكانت سلمى اكثر منه دقة في احكامها ، على فهم حقيقة ظروف وطنهما الممزق ، وما اكثر ما خاضا في جدل حول اهم موضوع يشغلها ، ويماذ كل حياتهما ، قالت له سلمى ذات يوم :

- اسماعيل • ارى انا موقوفون في الحاضر ، في كهاننا • وانت ترى
كم تنزل بالعدو من خسائر لو تكامل فضالتنا ، لركع العدو • واستجاب الى سلم
مشرف • كما فعلت فرنسا مع الجزائر • الا اني ارى ان اسرائيل غير
فرنسا ، وفلسطين غير الجزائر • فما رأيك ، مثلا ، بجيش البدو ، الذي
يراقبنا عن كثب • انه يشبه الخنجر بيد حامله • واخشى والله ان يدخل
الخوف في قلب حامل الخنجر من انتصارنا ، ويتذكر ثارا قديما •

- ليس ذلك رأيي فيه • انه محارب شجاع كما ارى ، وسيخوض
الحرب معنا ببسالة ، ويمسح بشجاعته وانتصاراته ، العار القديم •

ولكن سلمى كانت ابعد قلرا منه ، ويا للأسف ، وهكذا قررا ان تهاجر
سلمى الى بلد عربي آخر ، الى دمشق ، ضمانا لحياتها وحياة الطفل القادم •
لقد مر على فراقه لآله مدة تكفي لان يشعر بفصمة عند ذكراها •

واخرج زمماره ، وبعد ان تأكد من سلامة الجو ، اطلق الحانه الشجية ،
«وبث زمماره شكواه •

كان يشكو كل همومه لمزمارة ، وكان يحاوره بالزف اخي لا يحمي
عروسي ، بل قد كشف القاب عن عدو ماكر شرس ، انه يروم مني مقتلا ،
ولكن لا والله • ان همم الرجال فوق المحن • لقد توهم العالم اننا ركنا
فلا والله • ان من لا يعرف قلب القدائي لا يفهم قلب المناضل • ان الضباع
لا تشعر بما يدور في قلب اسد يدافع عن اشباله • فما عرفونا لا والله •

وقطعت عليه شكواه • شبح انسان قادم من بعيد •

فالتصق بالارض ، ومضى يترب متحفزا ، ويده على الزناد • وما لبث
ان سمع صفير التعارف ، فزال حذره ، واتصّب واجاب ، وكان القادم
..خالد ..

— رسالة لك من سلمى •

وفتح الرسالة على الفور ومضى يقرأ • وضحك خالد وقال :

— انك تقرأ على ضوء القمر ، ما اشد شوقك الى اخبارها !

— هكذا عودتنا الحرب يا ابا طارق ، وسلمى واضحة الخط قويته •

هنثني يا ابا طارق ، لقد رأى ابني (وليد) النور ، في دمشق ، لقد ولد
فدائي جديد •

وتعاقب الفدائيان ، وهنأ كل منهما صاحبه • • واضاف خالد

— اخشى ان يكون المولودون اقل من الفانين ، انا نحارب على

جبهتين •

— ولو حاربنا على ثلاثة ، فالمولودون اكثر من المفقودين • لقد اتشرنا

في بقاع الارض ، من عرية وغير عرية • سيولد ابناؤنا وفي فهم مرارة
محركة ، لا تزيلها غير مياه هذا النهر • بل وان لنا انصارا بين اخواننا العرب •
شبابا قد فارت دماؤهم فما عادوا يستطيعون اصطبارا • لقد اقرفتهم
الاجتماعات والمباحكات والمعاهدات والمؤتمرات ، بل وان في العالم من
لا يستطيع ان يفهم المنطق المضحك ، والحقائق المقلوبة ، فيثور وسيتصر •
لنا بأفضل الايمان •

وتمدد خالد بجانب اسماعيل ، وشرع يدندن • وكان من عادته ان

يترنم بما يحفظ من شعر العرب الاقدمين :

تخيرتكم درعا حصينا تدفعوا نبال العدا عني فكنتم نصالها

وصاحبه اسماعيل على شبابه •

العبور ..

تجمعت الوحدة نفسها ، وقد نقص عددها نقصانا ملحوظا . كانت
العصاب افرادها متوترة ، ولم يستطع حتى الرئيس ان يحافظ على هدوئه .
كانت اصوات المدافع والرشاشات ودوي المتفجرات ، من الضفة الشرقية ،
تقترب . واخذ بعضهم يروي اخبارا عن قسوة المطاردين ، فتزيد من هياج
افراد الوحدة . قال قاسم

- ويجهم نحن لا نجهز على جرحى الاعداء ، وهم يسحقون جرحانا
يالذبابات ، بل ويفرسون السناكي في افواه الصرعى .

اسماعيل : اكاد لا اصدق هذه الاخبار ...

محمود : واخبار شقق رفاقنا ، الا تصدقها ايضا ؟

خالد مهما كانت الحال ، فلنعلم اننا في حالة دفاع ضد الاخوان
ايضا .

فؤاد : وما نستطيع ان فعل ؟ انهم يزدادون اقترابا منا ، فهل نعبر
النهر الى العدو ؟ ام نقاوم حتى النهاية ؟ ان الاستسلام للاخوان موت صريح .

اسماعيل الاخوان من الشرق ، والاعداء من الغرب ، والنهر في
الوسط ، وليس لنا والله الا الصبر على البلاء .

خالد : فلنر رأي القيادة . اتصل يا فؤاد بالقيادة .

ومضت دقائق ، واشتد دوي الاسلحة من الشرق ، وجاء الجواب

« عبور النهر ، والاستسلام لاسر العدو » .

وهاج الافراد ، الا اسماعيل ، وتحولت نحوه الانظار ، كانوا يحترمون ثقافته ويشقون بحكمته .

اسماعيل : وعلام الاعتراض ؟ انه قرار حكيم ، انه بصقه في وجه الخيانة ، وابقاء على حياة البقية . وفمن بقي امل في اعادة الكرة ، وليس في الموت امل .

– نحن معك في مشاعرنا ، ولكن علينا الطاعة .

وسمع صليل سلاسل دبابات تقترب ، فأسرت الوحدة فدخلت النهر، وعقد خالد على رشاشه منديلا ابيض ، واشجرت قبلة في نفس الموضع الذي تركوه . وتم العبور ، ووجدوا العدو في الانتظار ، وكأنه كان على موعد . وصاح صوت من صفوف العدو . الايدي فوق الرؤوس . سلموا اسلحتكم . وقام جنديان اسراييليان بتفتيش المستسلمين . اختار كل واحد منهما اربعة . وشعر اسماعيل بالجندي يتحسس جيوبه برفق ، واخرج من احد جيوبه زمماره المحبوب وديوان شعر للوركا ، ثم اعاد ما اخرجه مبتسما ، وخيل لاسماعيل انه قد التقى بهذا الجندي . وبعد ان صعدوا الى سيارتي الجيب ، التفت ذلك الجندي الى الاسرى ، ومد لهم علبة دخان :

– هل فيكم من يدخن ؟

قال اسماعيل انا لا ادخن ، ولكن مهدي يدخن . تناول يامهدي واحدة .

فرد مهدي مشمزا : منه ؟ لا . . . مطلقا .

الجندي (بنفس اللغة واللهجة) : ستأكل عندنا ايضا ، ولا اعتقد انك اتيت لتضرب عن الاكل حتى الموت ، فما فائدة استسلامك اذن ؟

وتناول مهدي لفافة من الملبة ، وقام اسماعيل بالشكر . وقدم الجندي

زجاجة كوكا كولا باردة لاسماعيل - ان كنت ظمأنا ؟ - وجرع اسماعيل جرعة ،
ثم قدم الباقي لرفاقه •

وقال اسماعيل للجندي يخيل لي اني اعرفك ، فهل التقينا من قبل ؟
- غريب ! الا تذكرني ؟ انا من اسعفتي رفيقتك بالماء يوم نسفتم
سيارتنا •

فقال سعيد : نحن لا نجهز على الجرحى •
فقال الجندي : ولانحن ، ولكن اخوانكم يفعلون ذلك •
واحتد مهدي واغترض : تلك اشاعات لا صحة لها •
الجندي : نحن نعرف كل شيء •
وقال فؤاد بالعبرية يخيل اليّ ايها الجندي انك منا ، لفتك ولهجتك ،
وسحتك •

وقهقه الجندي قائلاً انا لا احسن اللغة العبرية • انا من يهود العراق ،
واسمي يوسف زلخا • انا احسن العربية لغتي الام ، والانكليزية التي تعلمتها
في مدارس العراق •

وراق لاسماعيل ان يقدم نفسه ورفاقه معرفا اسماعيل يعقوب من
الفلسطينيين المسلمين • سعيد عيسى من مسيحيي الاردن • مهدي فالح من
دروز لبنان • فؤاد مرعي من بدو الصحراء • ولكن هل لي ان اعلم ايها
السيد يوسف متى هاجرت من العراق ولماذا ؟

- انا لم اهاجر باختيار ، بل نقلت بالطائرة مكتوف اليدين • كان ذلك
قبل ثورة تموز • كنت من زمرة الشيوعيين ، وكنت مناضلا عنيدا ، ماهرا في
التملص من الاتهام ، ولم تجد الحكومة وسيلة للتخلص مني الا بالقائي (رغم
انني) في طائرة ، كانت تقل طائفة من اليهود الذين اسقطت عنهم جنسياتهم
العراقية ، مختارين •

— وهل شيوعيتك تدعوك الى حمل السلاح ، واغتصاب ارض الآخرين ؟
— انا مضطر لحمل السلاح ، ما دمت يهوديا في اسرائيل ، ولا خيار لي
الان • القتال أو الموت •

— الاصح ان تقول ، الفتح واغتصاب بلاد الجيران ، او الموت •
— هذا هو منطقكم • اما منطقنا فهو الانتصار او الابدانة •
— هذا يعني ان تبتلعوا دوما ارضا جديدة ، والا فنيتم ؟
— بل هنالك حل وسط ، وارجو ان تطول مدته ، واعني الهدنة •
فؤاد شكر اياها السيد يوسف ، لقد نورتنا • اذن فنحن نضرب من
الوراء لاطالة مدة الهدنة ؟ وتحسين ظروفها ؟

يوسف (مبتسما) : لكم ان تتصوروا الامور حسب ظروفكم •
وسأل اسماعيل : وهل انت مرتاح وسعيد يا يوسف في ارض الميعاد ؟
وتنهذ يوسف واجاب : ان جتي هي العراق ، حيث دجلة والنجيل •
كان ابي تاجرا موفورا الرزق ، وكنا في بحبوحة من العيش ، حتى لحقتنا لعنة
هتلر في العراق ، ورأى اغلب اليهود العراقيين ، ان لانجاة الا باسرائيل ، اما
المثقفون منا فما كانت الحقائق تخفي عليهم • • كانوا يعلمون ان الاضطهاد
مقصود لاجبار اليهود على الهجرة ، واختارت هذه القلة المتعلمة طريق النضال
السياسي ضد الاضطهاد المحلي ، واحتضنتها الاحزاب الديمقراطية والاشتراكية
والشيوعية ، ولكن تلك الاحزاب صرعت •

فؤاد : وهل تعود الى العراق لو اضطر عقد دولة اسرائيل ؟
— لو كان كل اسرائيلي على شاكليتي لاضطر العقد منذ زمن مديد • انك
لا تجد من امثالي ما يتجاوز الالف عدا • ان الشعار السائد في اسرائيل
« على كل اسرائيلي ، ذكرنا كان ام انثى ، ان يحارب او ينفى » • نحن افراد ،
والسياسة العليا لها القول الفصل •

إسماعيل اعتقد ان من جملة موجهي السياسة العليا والداعين الى الحرب هو الجنرال دايان * ان عقله يستطيع ان يبعث في الحرب ديناميكية مستمرة ، ويفغذي استمرار الدعوة اليها * وهو بذلك خطر على اسرائيل نفسها * كم يعجبني لو اقبله واجادله ، وجها لوجه :

يوسف : اتقبله وتجادله حقا ، لو مهد الامر لك ؟

اسماعيل : بكل تأكيد *

— ربما استطعت ان اهيء لك مقابلته ، ما دمت تبغي ذلك *

— سأكون لك من الشاكرين لو استطعت *

... وبعده

مر على الاستسلام اسبوع ، وكانت الوحدة المتقلصة المأسورة تتمتع بالراحة ، محجوزة في شبه سجن ، تعامل معاملة حسنة ، وقد وفر لها كل شيء ، الا الحرية * وكان ذلك السكون ، بعد حياة عنيفة ملوثة بالمخاطر ، كميلا بأن يولد السأم القاتل في النفوس ، وكان عزائهم وجودهم مجتمعين * كان خالد يخفف السأم بعناباته ، وفؤاد بأغانيه ، واسماعيل بشبابته :

جلس الرفاق بعد الغداء ذات يوم ، وخيم عليهم صمت محزن قطعه فؤاد بعنابة محلية ، وشارك الجمع ، وشبابة اسماعيل ، في كورس غنائي عذب ، ولم ينتبهوا الى وجود الحارس ويوسف ، الا بعد انتهاء القطعة *

قال اسماعيل : مرحبا يوسف ، هل جذبك النغم ؟

— انا من عشاق هذه الالحان * كان يهود العراق طليعة هذا الفن فيه *

ولكني اتيت لاعلمك بأنك مدعو الى مقابلة الجنرال دايان هذا المساء *

خالد : ولكن التحقيق معنا قد انتهى ، وعلمت السلطات كل ما يمكن ان

نبوح به •

اسماعيل شكر يا يوسف ، ايها الاخوان ، لقد كنت اتوق الى حديث مع موسي دايان ، حديث محارب الى محارب ، فهل ثمة اعتراض ؟

– نحن لا نشك فيها ايها الاخ اسماعيل ، وسنعلم ما دار بينكما ، وارجو ان توفق في حرب الكلام ، كما كنت موفقا في حرب السلاح •

كانت المقابلة في صالة مستطيلة واسعة فضمة التأثيث ، تحتل احد ضلعيها الطويلين مكتبة ، وقرأ عناوين ثلاثة كتب مجلدة تجليدا جميلا ، وهو يختطف لمحة الى تلك المكتبة – القرآن والانجيل والتوراة – واحتلت الضلع الصغير خارطة ملأت الجدار ، خارطة البلاد العربية كلها ، لاحت اسرائيل بينها بقعة تافهة • وكان الضلع المقابل للمكتبة من زجاج ، يبدي المنظر الساحر وراءه • المرتفعات الخضراء ، والبساتين ، والبحر • سحر المنظر اسماعيل فتنه ، وابصر دايان في لباس عسكري بسيط ، يمد له يده مصافحا ، وهو يقول بلهجة محلية :

– اهلا اسماعيل ، كيف حالك ؟

– بخير ، وشكرا ايها الجنرال على تكرمك بهذه المقابلة •

– اراك مهتما بالمكتبة ، وما يقابلها من مناظر جميلة •

– لفتت نظري الكتب السماوية الثلاثة بالعربية ، ولاشك انك قرأتها •

ايها الجنرال موسى •

رعايانا يدينون هذه الاديان الثلاثة ، فيتوجب علينا ان ندرس دياناتهم •

ولكن لم تسميني موسى ؟ انا موسي دايان !

– فعلت ذلك على طريقة القرآن • ان الرعية الحقيقية التي تعنيها هم

اليهود ، اما الباقون فهم مستعمرون ، لا حقوق مدنية لهم ، ولو ساوئتم بين

الرعايا لخرجت السلطة من ايديكم • فأتتم ما زلتم أقلية • وخصوصا بمد
النكسة • اما المنظر الساحر فهو من مناظر بلادي الجميلة ، واني لا جها
لهذا السبب •

— انها بلادي ايضا ، فأن شئت الاقامة فاهلا بك •

— انت طارئ • انها الجنرال ، وانا اصيل •

— بل انت الطارئ • ان اسلافي عاشوا هنا منذ الاف السنين •

— لا ياسيدي الجنرال ، ان اجدادك عاشوا في بقاع اوربا المختلفة
الوف السنين ، اما اذا كنت تعني العبرانيين ، او ممن تسموهم الان
بالاسرائيليين ، فالتوراة نفسها تشهد بان اصولهم قدمت من بلاد الرافدين •
لقد كان ابراهيم رئيس قبيلة من الرعاة ، لم تعجها ديانة سكان ما بين
النهرين ، واضطرت الى الهجرة بمواشيها ، الى بقاع اجدادي الكنعانيين ،
كانت قبيلة ابراهيم مسكنة مسالمة وكان اجدادي رحماء ، يرجون
بالضيف • وتكاثرت القبيلة ، وهاجرت الى مصر وطردت منها ، وصارت
لا تستقر ، كل يوم في بلد ، كانت تلك القبائل في حلها وترحالها خاضعة
لتمنعات قبلية تتعصب لها ، وتمنعها من الانصهار في الامم التي تحل بين
ظهرانها • كانت كالبندوب تنبأه بالاجداد ، والاحساب والانساب وبالسيف
والحصان • وكانت انايتها المركزة تثير العداة عليها دائما ، فتنقلت كثيرا ولم
تستقر في بقعة واحدة • لقد سبيت مرارا ، ولم تسكن فلسطين الا عشر
معشار تاريخها •

— ما اختلفنا • لقد نبعا من بلاد عربية ، كما قلت ، وتنقلنا في بقاع
بلاد العرب ، وانت ممن يؤمنون بالوحدة العربية ، كما اظن • اذن فلنا حق
في هذه البلاد •

— افهم من كلامك انها الجنرال انكم ستغزون بقية البلاد العربية ،
المراق ومصر وسوريا ولبنان ، بنفس الحجبة وعين المنطق ؟

- نحن لا نفزو • اتنا نريد ان نعيم ونعيش بسلام • ولكنكم تهددوننا بالافناء • وانت وامثالك تخربون الان ما نعيمه من بلادنا •

- كان ابي يملك بستانا للبرتقال استطيع ان ادلك عليه ، فهل تدلني على بقعة الارض التي خلفها لك ابوك ، بل وجدك الاول ، بل وحتى العاشر ؟ فهل تكون محقا بتسمية الارض بلادك اكثر مني ؟ لقد اغتصبت املاكنا اغتصابا ، لا يخضع لغير قانون الغاب • وطردت العائلة كلها فكيف تريد منا ان نتعامل مع المقتصب •

- حدث ذلك لانكم لم تقبلوا بالتعاون معنا •

- اي تعاون تقصد ؟ لقد تجمعتن من بقاع الارض واتيتن فاغتصبتن ارض اناس عاشوا فيها الوف السنين ، بحجة اسطورية • لقد وطدتم اول قدم لكم بمعونة مستعمر ، وبمعونة سلاح هذا المستعمر ، سميتن انفسكم دولة • اني اناشدكم كرجل مثقف ان تصدقني • اتؤمن حقا بالمنطق الذي جعل لكم حقا في اقامة دولة هنا ؟

- اني اؤمن بهذا الحق • فالارض ارض ميعاد • ارض اليهود الذين اشهدوا في كل بقاع الارض ، خلال حقب التاريخ • لقد ظلوا يحملون بالوطن الضائع ، حتى استطاعوا تحقيق هذا الحلم ، وبذلك نجوا من الاضطهاد الرمدي •

- ولكنكم تغيرتم • لو كان منطقتك صحيحا ، لاصبحتن ملايين كثيرة في العالم ، لا هذا النزر اليسير • ان العالم الذي اتيتن منه قد امتص ا خياركم ، ولم يلفظ الا النز المتعصب ، الذي زاده الاضطهاد تمسكا بخرافة المومياء الاسرائيلية • ان اسرائيل مومياء ايها الجنرال ، ولا يمكن اعادة مومياء الى الحياة •

- يضحكني منطقك • تسمى دولة لا تبلغ عشر معشاركم ، اتصرت عليكم ، عدة مرات ، مومياء ؟

- لقد اتصرتم على افكار موميائية ، لا علينا ، وما حاربتم العربي الاصيل وجها لوجه ، حتى الان • لقد حاربتم سياسات مخدوعة ، كليله النظر • ويوم تقابلون المحارب العربي الحر ، ستجدون للحرب طعما اخر ؟

- ان العربي الذى تصوره ، في عالم الخيال ، اما نحن فحقيقة •

- بل هو حقيقة ، وانا جزء من هذه الحقيقة ، اتحدث اليك بصراحة •

وضحك الجنرال وعاد يقول - لقد استسلم بعضكم ، والبقية في الطريق •

- لم نستسلم ، بل وقفنا في الاسر ، وهذا شيء غير مستكر في الحرب . ان ما استسلم منا قليل ولكن قوتنا الرئيسية لم يعترها وهن ، بل ان عددا في تكاثر ، وصلابتنا تشتد يوما بعد يوم • انك لا تنكر كيف دوخاكم حتى التجأتم الى محاولة ضربنا من الخلف • اتنا سفتح عليكم جبهات في عقر دوركم •

- عربي يتحمس ويتباهى بزيادة العدد - اتساع الجبهات • ذلك يسليني حقا •

- لقد ولد لي طفل سيكون فدائيا ، كما كانت امه ، التي اغائست جنديا جريحا منكم ، واذا قتلت انا فعليها ان تزوج لتنجب فدائيا اخر ، واخر ، سنكاثر في مخيمات اللاجئين ، وفي المدن المحتلة ، وفي البلاد العربية ، بل وفي كل اطراف العالم ، واتنا نلمس مأساتنا لمسا ، والفرق بيننا وبينكم ، هو انكم اسطورة في احلامكم اما نحن فحقيقة واقعة • اتنا سنزداد عددا وفعالية ومجالا ، كلما اغتصبتم ارضا جديدة •

- او ليس من اضطركم الى الاستسلام اليها حقيقة واقعة ؟
 - انه فرد متهافت ، وقد يرجع عن غيه ، والا فسينغرق في بحر الاحتقار ،
 حتى يمتلىء جوفه منه • انه ومن على شاكلته من افراد ، يحاولون النجاة
 بمقدهم ، بالقفز في جوف بركان •
 - انك تعني بركانا من البراكين التي تنفجر كل يوم في البلاد العربية
 ختزلزلها وتفتح لنا طرقا جديدة •
 - ان هذه الانفجارات غير مدمرة لكيان مجتمعاتنا • انها مظهر من
 مظاهر الحياة ، وشدة شعور الجسم بالخطر الكامن • انها وثبات للتقدم
 واستكمال الكفاءة للنضال •
 - تقدمكم هذا هو ارتقاء في احضان الشيوعية • انكم تستعملون
 سموما للشفاء ، بدلا من الدواء الصحيح •
 - نحن لا نرتمي في احضان احد ، لسنا متكلين مثلكم على سلاح اميركا
 ومالها بل ورجالها • ان الاشتراكية احسن علاج للتأخر واسرعه • اتنا نتناول
 دواءنا من صيدلية طلائع العالم • انكم اتم ايضا تلتجئون الى الاشتراكية
 لتوفروا كل طاقاتكم للاعتداء ، واذا كان لنا ان نشكر المعتدي ، فنشكركم
 على ازالة العصابة عن اعيننا ، ودفعنا الى فهم اسباب تأخرنا ، والقضاء على
 التعصب الجاهل ، ضد أحداث الأنظمة العالمية •
 - لست معك في هذا الرأي • انكم ستبقون بدوا في اخلاقكم ونزعاتكم ،
 وفي تعاملكم بعضا لبعض •

- اعتقد ان استخباراتك لا تفشك ايها الجنرال • انك لا تجهل سرعة
 التقدم عندنا • ان الجامعات قد ازدهرت حتى في قلب الصحراء • ان المجلات
 العربية التي اراها على هذه الطاولة تريك ناحية من تقدمنا • اما البدو الذين

عنيتهم فقي تقلص • اما الاعراب الذين هم اشد كفرا وثقا ، كما قال عنهم
القرآن ، فستلهم الحضارات التي تكتسح البلاد العربية ، والتي تنتشر
اتشارا النار في الهشيم •

ودق الجنرال جرسا وقال لاسماعيل
— ما رأيك في تناول بعض السندويجات مع كأس من الويسكي ؟ ام
لعلك تستكف ؟

— شكرا على حسن ضيافتك ، ولست من شعب الله المختار لاستكف •
وطلب الجنرال الوسكي وما يؤكل معه :
— ان قرآنكم قد قال عنكم « انا فضلناكم على العالمين » • ومع ذلك فلا
نرى في قومنا رأى هتلر في قومه •

— لقد اقتبس ذلك منكم ، وحاربكم بنفس سلاحكم ، وها انتم
تناولون السلاح ، بعد ان سقط من يده •

— الا ترى انك تعتدي عليّ بتسيهي هتلر وتشبيها بالنازيين ؟
— لقد كنت اشد اعداء هتلر ، وكنت اتصر لكم يوم اراد ابادتكم • انا
ضد كل معتد •

— انا لا اشك في انك تحتل مرتبة كبيرة بين الفدائيين ، وارى انسي
احادث ندا •

— مطلقا ايها الجنرال • انا نهر من اصغر الفدائيين رتبة •
— انك لا تستطيع خداعي • ادعي ان الفدائيين جميعا على شاكلتك
ثقافة واطلاعا •

— لا ، ولكن بعضهم اوسع مني ثقافة ، ومن هم دوني في ذلك اكفا مني
عند الصدام •

ودخل النادل ومعه ما طلب من وسكي وثلج وسندويجات كثيرة •
وقام الجنرال بالخدمة ، وقدم كأسا لاسماعيل وقال :
- فلشرب نخب نصرينا ، نصري الواقع ونصرك الحلم •
- اذن نخب النصر ، نصرك الذي يلهب نارا ، ونصري الذي ينشر
السلام •

- آه •• السلام بالقضاء على اسرائيل ، ورميها في البحر • خبرني كيف
تستطيعون رمي اكثر من مليوني نفس في البحر ؟
- ليس ثمة مجرفة تستطيع جرف مثل هذا العدد ؟!
- اذن يسرني ان اعلم ما تصنعون بنا لو اتصرتم علينا ؟
- سنترك الحرية لكل فرد ليعود الى وطنه ، اذا اراد ، وسيبقى الآخرون
مواطنين صالحين ، يتمتعون بحكم ديمقراطي ، وحرية ما حلم بها العرب تحت
حكمكم •

- واذا بقي الجميع ؟
- لامانع • سنكون جمهورية فلسطين الديمقراطية • وسيكون لهم
مجال كبير في تطوير البلاد العربية ، وستحقق احلامهم في الرفاه والراحة
والانفتاح •

- ولكن لماذا لا يكون الاسم جمهورية اسرائيل الديمقراطية ؟ لم
التعصب ضد هذه الكلمة ؟

- ولماذا هذا الاصرار على ان تحمل الجمهورية اسما دينيا ، دون العالم
كله ؟ اسما لدين رعاة ابتدائيين يحاولون احياء اساطير بالية ، ولغة منقرضة ؟
ان الكلمة تحمل تعصبا واфанية لا محل لهما في عصر الساحة والحرية ، والحلم
بتوحيد العالم • تذكر يا موسى ماذا فعلتم بعمى ، حين اراد ان يطهور

اليهودية ، فيجعلها ديانة عالمية راقية ، ويخرجها من قوقعة الانانية والسذاجة البدائية . ولكن ما كانت النتيجة ؟ ان مئات الملايين تدين برسائله الان . اما اتم فقد بقيتم كما كنتم حفنة من البشر . اما العبرية فعرية ابتدائية ، تأمل التشابه بين الكلمتين ، فلماذا تعصب للهمجي ضد المتحضر ؟

— لو كنت متعصبا للدين لاغضبني كلامك .

— ذلك لانك لست يهوديا يا جنرال موسى .

— مفاجأة جديدة في حديثك الغريب ، وكيف ذلك ؟

— لو كنتم يهودا حقا لقضى عليكم العرب في هجوم مفاجئ ، يوم السبت .

— ولكن الدين لا يطلب منا الانتحار ، لان السبت مقدس (وفقهه الجنرال مرحا) .

— اني اسألك مخلصا ، اؤمن بتعاليم موسى ؟ ان المسيحي والمسلم لا يخرجان على تعاليم دينهما ، لو اتبعنا قواعد الحياة العصرية ، ولكن اليهودية تتنافى مع العصر اطلاقا ، انت تعلم حكم الزانية عندهم ، وانت لا تجهل كيف تعيش النساء في كبوتزاتكم ، التي هي معامل تفريخ لغرض الحرب . انكم تطلقون على مؤسساتكم اسماء دينية وحسب ، اتخذعوا العالم ، واتخذعوا المتعصبين من اتباع دياتكم .

— اذا سلمنا بما تقول ، فهل اذا اطلقنا على حكومتنا جمهورية فلسطين ، رमितم السلاح وانضمتم اليها ؟

— اما ان تلقي السلاح فنعم ، ونرجع الى اوطاننا ، لنضم اليكم ، ونكون معا جمهورية عربية ، لا عبرية ، ولكم الخيار اذا أصررتهم على احياء هذه اللغة الاثرية ، ولربما كنا معا جزءا من اتحاد فدرالي عربي واسع .

— ونكون اقلية ، وتعودون الى اضطهادنا .

— لم يضطهدكم العرب ، ولا المسلمون قط ، ومكتبتك هذه شهادة على ذلك • لقد كنتم عوناً للعرب في فتوحاتهم ، وخدمتموهم باخلاص ، وما فكرتم بتأسيس إسرائيل الا بسبب اضطهاد اوربا لكم لا العرب • لقد جمعتم اقواما مختلفة ذوي لغات مختلفة ، وادتم تحاولون صهر ذلك في سبيكة واحدة ، كمن يحاول صهر الحديد والقحم معا •

— ان هذا الاضطهاد العالمي هو اقوى رابطة لتكوين هذه السبيكة •
انكم ايها الجنرال تقعون في خطأ اعظم ، فبدلاً من اطفاء نار الاضطهاد في محلها ، اتيتم لتضطهدوا اناساً لم يؤذوكم ، وتكيلوا لهم من العذاب اضعاف ما كيل لكم ، الا ترون انكم تؤججون نار حقد في قلوب ملايين لا تحصى من عرب ومسلمين بسلوكم هذا ؟ الا ترى انكم لو اصررتم على هذا العدوان ، فستعرضون انفسكم لآبادة جماعية ، او لسبي جديد ؟

— هو ذا انت تعود الى المبالغة بالتهديد ، مبالغة البدوي في شعر الحماسة ، تتباهى بالملايين ، وتهدد بالسبي والابادة ، متجاهلاً ان التقنية الحديثة قد اوجدت ميداناً للنمل والحشرات ، وللشجر ايضا •

آه •• عقدة شمشون • انك تلوح بالقنابل النووية « عليّ وعلى اعدائي يارب » اما عليكم جميعاً فنعم ، وسوف لا ينال السقف الا جزءاً يسيراً من اعدائكم يعوضونه بكثرة العدد ، ويتجاوز شروط ضبط النسل لمدة وجيزة •

— انت واسع الخيال ايها القذافي اسماعيل • لقد اقتصرننا على طول الخط ، وسننتصر في المستقبل ايضا ، وكلما ازعمتم حرباً ، كنا البادئين بخطة تفقدكم جزءاً كبيراً من بلادكم ، تضعف معنوياتكم ، وتقلل من احترام العالم لكم •
— لقد علمتنا حروبكم دروساً ايها الجنرال • كان من الخطأ مهادتكم ،

وما فعل العرب ذلك ، بل رؤساء وملوك كانوا يتعاملون معكم ومع انصاركم من وراء ظهورنا . وقد نف هؤلاء .

- وبعد ان نسفوا خسرتم اضعاف ما خسرتم اولاً ، وبمدة اقصر ، لقد كان هؤلاء المنسوفون ، ومن يحميهم ، حمايتكم ضد توسعاتنا ، وبعد زوالهم ، اصبحنا اكثر اقتداراً .

- تعني التكلفة ، اليس كذلك ؟ لا بأس ، لقد كانت غلطة في نظري ان توقف الحرب ، لقد كنتم انتم تريدون ايقافها ، تصور ما يكون موقعكم لو مضى العرب في الحرب ؟

- كنا نمضي فيكم كالسكين الحارة في كتلة من الزبدة .

- والى اين تمضون ؟

- الى دمشق .. الى القاهرة ، الى بغداد ، وربما الى ابعد من ذلك .

- وتكونون قد وقعتم في المصيدة . تصور ايها الجنرال جيش امه لا تتعدى المليونين تفتح اقطاراً تعددها مائة مليون . قد هاج كل فرد فيها حتى اصبح يرى الموت عذبا في الدفاع ، وملايين المسلمين في اقطار العالم ، ترى مناسكها المقدسة قد اهيت اشد الهوان . والدول الاخرى تنبه الى خطر يشبه خطر المغول الذين ما عرفوا نظاماً ولا قانوناً انسانياً ، في الفتح والفتك .

ورأى اسماعيل ، مسروراً ، عين ديان المعصوبة والمفتوحة ، تتحرك بانفعال فعاد يقول

- لن توقف الحرب في المستقبل في اللحظة التي تريدونها ايها الجنرال .

بل انكم لا تريدون الحرب الان . لانكم ما زلتم غاصين باللحمة الكبيرة .

- بل هضمناها ، ووجودك هنا برهان على ذلك . ونحن مستعدون .

للحمة اخرى .

— قد تحشرون في افواهكم لقمة اخرى ، مضطرين ، وتحسبونها نصرا
لكم ، ولكن لا هدنة بعد الان • وحجة العرب واضحة مشروعة •

اما حجتكم فستنسف هباء • لقد ادركت الدنيا كلها انكم تريدون التوسع ،
ولكنكم تستهينون بالعالم كله ومنطقكم القوة ، او نسيتم مصير عدوكم هتلر؟
انكم تتشبثون بمنطق الحدود الامنة ، وستحولون هذه الحدود ، اذا ما
انتصرتم في جولة اخرى ، الى النيل والفرات •

— وارى انا سنتصر •

— لو حدث ذلك لهلكتم • انها مهزلة لم يسبق لها مثيل حتى في عصر
التوحش والهمجية • انه منطق يأباه العقل السليم ، سردية تريد ابتلاع
حوت •

— بل سمكة السيف تطعن هذا الحوت •

— الطعنة لا تقتل الحوت ، سيدخل سيف السمكة في شحم الحوت
السيك فيطبق فيها ، ويمضي الحوت غير عابى بها حتى تموت جوعا ،
وتتغفن وهي معلقة بجلده •

— ان الكثرة ووسعة الرقعة ، لاتعنيان شيئا • لقد احتل الاوريون
الاميركتين وابدوا سكانها تقريبا •

— لا تغالط ايها الجنرال موسى • انك تعلم الفارق • لنا همجنا
كالهنود الحمر ، وحضارتنا السابقة قد لعبت دورا في العالم • ومن اتم ؟
هل اتم اوروبا ؟ لا ، اين مركزكم في حضارة العالم ؟ انكم مومياء متكبرة •
— هل نسيتم ماركس وانشتين وفرويد وغيرهم ، تلك هي حضارتنا •

— ولماذا نسيتم يسوع ، وموشي مانوهيم ، وابنه يهودى الموسيقىار
الكبر وامثالهم ؟ ان من ذكرت وذكرت واضرابهم قد خرج من الشرقة ،

وادرك انه فرد في عالم واسع متسام ، لاذرات في رفات مومياء • لقد ادوا
خدماتهم للعالم كله ، لا لاسرائيل • هم جزء من حضارة متنامية متكاملة •
وما كان انشتين ليهون عليه ترك المانيا لولا حماقات هتلر •

انكم تستطيعون تسخير اصحاب رؤوس الاموال من اليهود ، ذوي
العقول الفارغة ، ولكنكم لا تستطيعون ان تسيطروا على ذوي العقول الجبارة ،
فهم ملك للعالم •

كانت كلمات اسماعيل الاخيرة حادة رفانة شديدة الوقع ، ساد بعدها
سكون • وتلهى الجنرال بأن تناول كأسه ليداري حرجه ، وحث اسماعيل
على ان يجاريه ، وعاد الجنرال فغير الموضوع ، وقال لاسماعيل

— سمعت انك تعزف على القسبة ، الحانا امتدحها الحراس ، فهل يروق
لك ان تعزف نغمة ، هنا واخرج اسماعيل شبابه فوضعها بين شفتيه ، وحرك
اصابعه على الثقوب وعزف مدة تقرب من خمس دقائق • وكان ديان
يصفي معجبا • وقال بعد ذلك :

— احسنت ، ما كنت اعتقد ان قصبة تستطيع اداء قطعة من فديليو
يتمهون •

— انه اللحن الذي يمثل الحببة المتكررة بزي الغلام فديليو حين تزور
حبيبها سجين الظلم •

وقام ديان مختما ذلك اللقاء العجيب ، وهو يقول :

— كم يروق لي ان اطلقك من الاسر ، لترجع الى جباعتك الفدائيين ،
وتستخدم عقلك وثقافتك ، اردعهم عن تخريب ما نعمل ، وتشر السلام بدل
الحرب ، قبل فوات الاوان •

— السلم في ايديكم • انما نحن مدافعون عن بيوتنا وأقواتنا وحياتنا •

فأتم القادرون على نشر السلام ، بكفكم عن الاعتداء ، وارجاع الحق الى نصابه ، وارجو ان تدركوا ذلك قبل فوات الاوان •

هكذا انتهت مقابلة غربية بين فرد فدائي ، واكبر جنرال في اسرائيل •
وقال الجنرال لضابط الحرس بعد ذهاب اسماعيل :

— حذار من ترك الفدائيين المسجونين يختلطون بمواطنينا اليهود ،
وبالعرب منهم بصورة خاصة •



في كهف البالاياثروني

من بين اجدادنا العظام ، يعجبني البالاياثروني ولا تتوهمن ان هذا الجد ، الذي عاش قبل نصف مليون سنة ، كما يقول العلماء ، عظيم في الفكر او الفن ، لا ، انه عظيم العظام ، وحسب ، وهذا ما تعنيه الكلمة العربية اصلا والمهددة على الاستاذ عبدالحق فاضل ، في مغامراته اللغوية .

تعجبني من هذا الجد ، طلبة نييلة متجهمة عبوسة ، عرف من الشعر المنتصب يمتد حتى اسفل الظهر ، والعهد هذه المرة على البروفسور او كستا ، والفنان بوريان ، الجيكوسلوفاكين ، اللذين اخرجا مصورا رائعا عن حياة اجدادنا سكان الغاب ، مما خلفوه من عظام . وانه ليعجبني ان اعاود تصفح هذا المصور ، واقرا نبذة عن مآثر هؤلاء الاجداد ، اكثر مما اتصفح مجلات العريضة الجنسية ، التي تتحفنا بها الشعوب النوردية ، ولا دخل للسفن في هذا الموضوع من فضلك .

وكم احرقني الشوق الى رؤية هذا الجد المحترم في الحلم ، او في السينما ، او في اي مكان اكون فيه بمنجاة من عصاه الطويلة الغليظة ، التي لم تبلغ الهراوة في سنة التطور والارتقاء ، ومن كل الحديد تحت فروته . ان ضربة منه كفيhle بسحق عظامي واسكات فضولي الى الابد . وما حيلتي ؟ ان صانعي الافلام ، يهتمون الان بالعريضة الجنسية (التقديمية) ، اكثر من اهتمامهم

بحياة اجدادنا (التخلية) ، قبل التاريخ وبعدها . واخير اسعفني الحظ ، وعثرت فجأة على حجر البالاياثروبي ، فوقفت امام الباب مسحورا ، وكان سروري به اعظم من سرور اللورد (كارثارفون) يوم اكتشف قبر (توت عنخ آمون) .

في زقاق من ازقة فينا ، انتصب الجد المحترم مع ائناه ، بكل عظمته وجبروته ووحشيته ، وقد تشابكت اذرعهما ، وكشرا عن انياهما المرعبة ، ولعلمهما في ثورة غرام ، وبين ركبهما باب صغير نقش عليه بخط البالاياثروبي (نادي البالاياثروبي) بالسعادة ، هو ذا حرم الجد العظيم ، فكيف الدخول اليه ؟ لا فرصة لمتدن مثلي لدخول حرم الوحشية . لو اقتحمته غصبا ، لمزقت اربا .

بقيت اياما وليالي اضرب اخماسا ياسداس ، واسباعا باثمان ، حتى اهتديت الى حيلة . وشرعت على الفور اعد العدة للقاء الجليل . ولما وجدت ان ادوات النكر ، مما احتفظ به لامثال هذه الغزوات والنزوات ، لا تكفي للغرض الجديد ، قصدت مخازن الازياء الغريبة ، واللمم المعارة العجيبة ، وجمعت خرقا يحمدي عليها كل من ابي زيد السروجي وابي الفتح الاسكندري ، مع قعة من مادة قرنية ، معلقة بسلسلة صدفية عتيقة ، وما كانت اللحية الكثة الطويلة اقل روعة ، وتوجتلمة الرأس بالعرف الطويل الذي ينتهي بصفيرة محترمة تصل الى الكفل ، ماركة الجد المعشوق . ولم انس عصا تشبه عصاه . اهش بها عند الخطر ، ولا دفا ذا حلقات مخرشات ، قد اسحره به ، عند النقر عليه .

واعددت نفسي ذات مساء ، واكملت زيتني بتخشين ما ظهر من جلدي بالصمغ ونشارة الخشب والسخام .

وحل الموعد المختار ، فتناولت ادواتي ، وركبت سيارتي ، وتسملت الى

الزقاق قرب منتصف الليل • ولاح الباب يرمقي بعيون حمراء كالجمر ،
فلبث في سيارتي انتظر خلو الطريق من العذال ، واتهزت اول فرصة ،
وتقدمت بخطوات ثابتة ، ومرقت من باب الجحر متهجما بشراة الجسد
المحجوب ووحشيته ، وكشرت في وجه اول من لقيت ، كان من العهد
المجدليني ، فشدته بشكلي ولباسي وادواتي • وهتف مرحبا -واووو -
فاجبته باحسن منها -واووو- وادركت ان البداية بداية منتصر •

وقفت في منتصف النادي ، فهب الاعضاء دهشين ، وتقدم مني شاب
ما شككت بانه صاحب الحان • كان المسكين متحضرا جدا ، ذكرني وجهه
الوسيم وشعره المرح المسترسل ، ولحيته الشقراء المدببة ، بالبرخت
دورر ، وبالسيد المسيح كما يرسمه في عصرنا المبتدئون ، او عباقرة عصر
النهضة الاقدمون •

حياتي الرئيس رافعا يده •• سلام •• سلام •

فهززت الدف ، وتمايلت تمايل الدراويش حين يتلبسهم الوجسد •
وانشدت

سلام الله على الانعام سلام الله على الانعام

واحاط بي صبايا وشبان ، تمايلوا كما تمايلت ورطنوا بالنغم الذي
انشدت •

ها هي هوها ها هي ها هي هوها ها هي

وكم كانت نشوتي ، حين ادركت بانني قد اصبحت شيخ الحلقة دون
منازع • واقتدت القيثارات بنقرات الدف ، وازداد التمايل وتنوع • لا بد
من استمرار التشيد • واسعفني (مبالدي) الملا عثمان ، حرس الله تماثله من
تقلبات الجو في بلدنا الموصل ، فقد كانت له مواقف تشبه موقفسي هذا ،

وانشدت ترنمة ورع من اناشيده ، اعلك كلماتها علكا ، خوفا من وجود
عربي ، قد استهواه البحر الذي استهواني •

قم فصل الفجر بين اد فرضك لا تدین

لا تقل القبر هین فيه عقرب ثم حیا

وسكرت بما هزلت به ، وحسبتي جادا كل الجد ، فاخذت ارسم
بالعصا دوائر في الهواء ، وصرت اثب بين الراقصين كالمسحور •

يا عبد بالك وبالك من عذاب القبر بالك

لا تقل القبر هین فيه عقرب ثم حیا

واجابتي الشلة وهي تحسب نفسها ترقص احدث الرقصات وابدعها
وامتعها •

ها هي هي هي هي ها هي هي هي هي

واقتربت مني فتاة كثرت ، فكثرت • كان لباسها اصباغا من قوس
قزح ، نقوشا وحلزونات ، وافاع • كان بعض تلك الخطوط الحلزونية
ينتهي بحلمة نديها ، بعد ان يطوف بصدرها ويلفها ظهرا وبطنا ، وافاع تمر
بملتقى ساقها ، زاحفة على فخذها ، او صاعدة لتنام رؤوسها على وجنتها •
وقلت لنفسي ويحي من (رقاش) ، اخذت رقاش تهتز امامي وتختض وترتجف
بسرعة مذهلة ، زادني وجدا على وجد • فاجبتها بمزيد من رقصة البطن ،
واهتزاز حلقات الذكر ، وبخشلة الزنج ، وعوت فعويت ، ودارت حولي ،
فدرت معها ، واقتربت مني والوجد في عينها ، فنهشت كتهي ، فمصصت رأس
ثعبان على وجنتها ، وبلغ الضجيج والعجيج اوجيهما • وعادت رقاش الى
العواء ، وانتشر شعرها الذهبي حولها كمظلة مفتوحة وهي تدور بعكس
اتجاه دوران لحيتي وضفيري •

وفجأة رفعت رقاش يديها ، وصرخت ثم ارتمت تتمرغ على الارض •

ولم يخني الموقف ، فاسرعت ، وتناولت كأس ماء من منضدة البار .
وتمتت فوقه متممة منعمة ، واقبلت على الصغيرة الصرعى ، وبعد ان بصقت في
الكأس ، رفعت رأسها والقمته حافة الكأس ، تماما كما يفعل « بصرعى
الوجد » شيخ حلقة الذكر ، وحل الهدوء والشفاء . وامتدت لي ايد خشنة
وناعمة ، تحمل كؤوس الماء ، فبصقت عليها ، بالجملة والمفرد ، وشرب القوم
هنيئا مريئا .

وجاءني دور فهمس في اذني ، مشيرا الى باب في زاوية الصالة ، يكاد
لا يبين (هشيخ) فحملت في وجهه ، وأتت انة رعب ، خالها انة شوق .
وتبعته وما كدت الج العرين حتى وجدتي امام الجد المقصود وجهها
لوجه . فارتيمت عليه ، وتبادلنا عضا يدي ، وتضامشنا ، وزمجرنا ، وعوينا
متحدثين .

واقبلت رقاش فتبادلت معه مداعبة وغزلا بالاثروبين ، ثم دست لفافة.
دخان بين شفتي ، فمصصت ، وادرت الدخان المسكر في فمي ، واتهزت غفلة.
من القوم فمجبجته ، فما كنت حتى من مدخني البريء ، غير المسكر .

وارتمت علي اثشي مخدرة ، كانت صغيرة لحسن الحظ . وابصرت.
يدها تمتد الى لحيتي ، فصددها بلطف ، واقتعتها بملك ما كان تحت تناول.
فمي ، من لحمها علكا خفيفا لينا ، مخافة الهياج ، وتنف الشعور ثم
الافتضح . وعندما عاودت رقاش التحرش بي ، كشر جدي عن انياب لامعة.
كالنصال ، فادركت ان اوان الهرب قد حان ، ووجدت دورر عند الطلب
ناولني الدف والعصا والقفة ملووة نقدا معدنيا وورقا . وودعني بقوله .
« كم . كم . افردي . مني . مني » فاجبته مثيرا الى السقف بالعصا « كود .
كود . الاله . الاله » .

ومرقت خارجا من الباب ، وتنفس الصعداء . واسرعت الى سيارتي ،
وبالاسوء ما رأيت . شرطيا يترقب . فتصنعت عدم المبالاة وفتحت باب .

«السيارة ، ولكن الشرطي يزني بعدم مبالاته ، حين تقدم مني وحياني باحترام ، وطلب الاطلاع على اوراق السيارة • وهل الومه على شبيهته ؟ ناولته الاوراق ، ولكنه لم يقتنع ، بل طلب اجازة السياقة ، امتياز لا يحظى به الا المشبهون حقوق العادة ، وسألني ساخرا - اهذه صورتك ؟

فتعنتت لحيثي وانتزعتها مع اللمة مرة واحدة ، فضحك واعتذر ، ثم نظر الى النقود في القفة وهمس - ليلة رابحة • فاجبته • « ليس ذلك اجرا • لقد اتت النقود عفوا • شاركني بها رجاءا » فتناول خمسين شلنا وقال - « سأشرب نخب مخاطرتك » •

فرجوته متوسلا - ولكن لا مع الصغار اللاهين •

فضحك واجاب - « لا دون شك • اني لارههم في جرحهم هذا • ترى ماذا يصنعون ؟ » فقلت مدافعا - « انهم يلهون على طريقتهم » •

وعندما همهم محرك السيارة سمعته يقول « ان كنت مراسلا صحفيا • فغافرتك رائعة ناجحة » • فاجبته منطلقا • « شيء من هذا القليل ايها السيد المفقش »

ولم البالاياثروبيون الدرويش مرة ثانية • وكنت احاذر الاقتراب من الجحر ، بعد زوال السكر ، وحلول الفكرة • وانا اردد مع نفسي •

يايت عاتكة الذي اتعزل حذر العدا وبه القواد موكل
اني لامنحك الصدود واتني قسما اليك مع الصدود لأميل

وبعد مدة طويلة هزني الشوق ، واحببت ان التقي على صورة الجسد نظرة اخرى • ولكنني وجدت ، وبالاأسف ان الجحر قد اختفى ، وحل محله دكان بقال • فضربت كما بكف ، والقيت اللوم على الحضارة المتعسفة ، التي لا تسمح لاحفاد الاحفاد ، ان يتمثلوا باجداد الاجداد •

فيثا ١٩٧٤

نصه كيلومتر واحد في شارع متحضر

قال له « قلبك متعب فجد له هواء نقيا غذه كل يوم ، ابحث
عن جو نقي » •

غرفته التي هي مسكنه ، وفيها مطبخه وحمامه ، ومرحاضه ، لاتحوى
وصفة الطيب • وخلال اليوم كله لا تنقطع الضوضاء الصارخة • السيارات
تتزاحم في الشارع ، فترتفع اصواتها ، وتدخل عليه جحره مع هواء قد تشبع
برائحة البنزين المحترق ، وسومه الخطرة •

لا وجود لوصفة الطيب الا في الصباح الباكر ، قبيل طلوع الشمس •
السيارات اقل ، والهواء انقى ، واصبحت الصيف لطيفة ، وخصوصا فسي
الحدائق الصغيرة التي تقع على جوانب الشوارع في فينا ، او تحتل بعض
الميادين • وهكذا اختار الصباح للرياضة العلاجية •

انطلق ذات صباح قبل ان تنهض الشمس بساعة ، ومضى يبحث عن
هواء نقي ، قد يطيل له عمره قليلا ، كثيرا ، من يدري ؟ يمم شطر حديقة
تبعد عن مسكنه كيلو مترا واحدا ، كاد يعثر ، بعد ان قطع مئة متر ، بسجاد
قد فرش على رصيف الشارع ، مزخرف برسم غير حاذق ، لاسطورة
يونانية ، وقف متأملا ورأى علبة سكاير محطمة على جانب ذلك الرسم
المقشوش على الرصيف ، لقد توهم الرسم بساطا ، كان في العلبة شلن واحد ،
وستكثر الشلنات مع تكاثر المارة لتعين فقيرا في محتته ، قد التجأ الى هذه
الوسيلة ربما لاكمال دراسته • انه تلميذ دون شك •

وتحسب جيبه ، و اضاف شلنا اخر الى اللعبة المحطمة •

توقف عند اللوحة ، جذبته بساطة الفن الاغريقي القديم ، قدمه
وسداجته ، ومعانيه الاسطورية ، رأى المارة تتحاشى وطأ اللوحة ، واخرج
من جيبه شلنا ثانياً اضافة الى اللعبة المسحوقة • ورأى شابا اسمر ذا لحية كثة
وشعر طويل ، يقف غير بعيد ، رآه يتسم ، فساله « أهى لك ؟ » فاوماً
برأسه بالايجاب •

« طالب يوناني شرده الاحداث السياسية العنيفة في بلاده ، ادرس
الرسم هنا » •

حياء ثم مضى في طريقه ، ساحبا نفسا طويلا ، لما رأى الشارع يكاد
يخلو من السيارات ، هوذا طريد من طرائد العنف السياسي ، مثله تماما •
هذا العنف لا يعرف جنسية ولا سنا • لا يرحم ولكن ترى من يرحم في هذه
الدنيا ؟ يستوجب ، رأى مخالف ، الحكم على صاحبه بالاعدام ؟ اجل لقد
حكم غايايا بالاعدام في قطر من اقطار امريكا اللاتينية ، ومن حسن حظه انه
كان قد سبق الحكم بالافلات • ترى لو وقع من حكموه في قبضته فهل ينتقم
منهم ؟ يقينا لا • وتلك نقطة الضعف عند امثاله • انهم يشدون الحرية ، حتى
لخصومهم في الرأى • اما خصومهم فيسخونهم من الوجود ، عند اوله
معارضة ، اذ انها في نظرهم تسمى جرماً •

كان فكره يناقش ، وقدماه تتحركان ، يقف مع الواقفين عند انتظار
اشارة المرور ، ثم يسير معهم • عيناه معلقتان في لاشئ • قدماه تبصران
الطريق • يسحب نفسا عميقا ، كلما تذكر نصيحة الطبيب •

وصل الجنية الصغيرة امام المحطة الكبرى ، المحطة الغربية ، واسرع
يحتل كرسيًا حذاء منضدة خالية ، وتمنى ان لا يكدر ، عليه صفو وحدته
آخر •

افرغت المحطة وجبة من القادمين • وما كان يحس بحركات القطر • فقد كانت تسترها واجهة المحطة الضخمة الانيقة غير القريبة ، القادمون سواح ليس منهم لاجئ طبعاً ، فالمحطة هي مرفأ فينا من غرب اوربا •

لقت نظره قادمة طويلة القامة رشيقة الخطى قد كشفت عن ساقها المسمرين الى قرب ملتقاها ، تحمل متاعها على ظهرها ، حقيبة من قماش مدعومة باعواد •

جلست غير بعيدة منه ، على مصطبة ، وارخت سيور حملها ، ومدت ساقها باسترخاء ، فسحب نفساً طويلاً ، دون تنفيذ لنصيحة طبيب •

احس بان شيئاً مضراً بصحة قلبه يكاد يشغله ، اذن فليفعل ما يقيه الضرر • اخرج كتاباً من جيبه ، فافتتح عن اوراق كثيرة ، قد اسود بعضها • شرع يقرأ ويدون الملاحظات • عليه ان يفرغ من نقد الكتاب ، ليستحق الاجر على ذلك العمل ، والاحرم القوت • ولكن الشابة تمكر صفوه ، لا الشابة كلها ، بل هاتان الساقان المسمرتان المتكاملتان خلقة وجمالاً • واحس بها تخرج لفافة تبغ تولمها وتمتص منها نفساً عميقاً ، ثم تنفخه في اتجاهه تماماً ، حتى ليكاد يصل افه • وعندها فقط ادرك جمال ملامحها • قدرها بعشرين سنة • نصف عمره ، وادركت انه يدارى اضطراباً ، فسخرت من محاولته اليائسة لمقاومة فتنها • ورفعت احدى ساقها والقت بقدمها على حافة المصطبة ، فلاحت هالة بيضاء في قاعدة الساق ، وبانت شعيرات سوداء في جانب القاعدة فلث مستشققاً هواء كثيراً • واستسلم •

بقيت عيناه عالقتين في البقعة السمراء والبيضاء مع البت الاسود • وجات في رأسه تصورات • هي ذى حديقة اخرى • ايتها اجمل ؟ الحية المتحركة ذات الالوان الثلاثة ؟ ام الاخرى الثابتة التي يغلب عليها اللون الاخضر تزيته الورود الحمراء والصفراء ••••• ولكن وراء البنتال الكسيح الوائاً اخرى قد تكون اشد احمراراً من الشقائق والورود •

اللغة • لقد اقلت زمام تصوراته • لم يضاجع امرأة طيلة شهر • وضعف القلب لا يعني ضعف الرغبة الجنسية مع الاسف • ذلك خطر بالطبع ، ولكن هل في هذه الحياة ما يستطاب غير ما يرى يلوح له ، ويفر به بالمزيد ، ولماذا لا يموت في حديقة حية ؟ تلك والله مية جميلة •

ولكن اي عصر هذا ؟ لم هذه المنيات التي استولت على الباب القتيات والنساء • بل وحتى المجائز ؟ ان الانسان ليمشي في الشوارع في شبه وصال متواصل ، غير متعب • يثير الحواس ، ويهيج الدماء ، ويطلق انواعا من الهرمونات المنشطة •

لقد اوكلت اليه الجريدة التي يعمل لها ان يكتب حول هذا الموضوع ، فكتب مجبذا منتصرا لهذا النوع من الهوس • وأكد ما قاله كثير من المفكرين ، بان الملابس في طريق الانقراض • وثارت ثائرة تجار الملابس ، وصناع الاقمشة ، وشركات النسيج ، وكان وراءهم رجال الدين ، ليكون الفضيلة والاخلاق ، ويحذرون من التفسخ ، وما يعقبه من انحطاط واجرام ، وبس المصير • ستسطو المودة القادمة على هذه الثقيلة ، دون شك ، وسيكون من معاملها اطالة الملابس الى حد الافراط ، وقد ثور الصبايا على المودة هذه المرة ، ويظهرهن امثاله من الفاجرين • كانت تلك الآراء تدور في رأسه • وبصره عالق بالخيلة (النبي خيلة) وانزلت الصية رجلا ، ورفعت الاخرى ، فافسحت مجالا اكثر لفضوله ، وهياجه والاضرار بقلبه • وحول نظره الى الوجه فراه يتسم • ورأى قادما يجلس بجانبها ، ودفعه الفيظ الى تحويل بصره نحو سحنة المتدخل المتطفل • هو الشاب اليوناني المتسول ، ما الذي دفعه الى ترك لوحته الرصيفية ، وصحن كديته ؟ الا يخاف على دخله ؟ وشعر نحوه بمزيج من الكره والحقد ، والرغبة في الاعتداء عليه • رآه يهمس في اذنها ، ويتمم شيئا • فلم تلتفت اليه ، بل بقيت تبسم له • وعندما ابتسم هو ايضا ، متشفيا باليوناني المتسول • وبدأ الشاب يلح ، وقدم آخر فحاصرها

من الجهة الاخرى ، فهضت وتقدمت من منصدته ، واشغلت الكرسي الوحيد الخالي ، بعد ان استأذنت ، فقرت بلابله . وازدادت ابتسامتها رقة واشراقا ، ولم يتذكر انه كان يتمنى ان لا يعكر عليه صفو الوحدة طارق . واطبق الكتاب على الاوراق ، واعاده الى جيبه . ودخل في الحديث .

« انكليزية كما يبدو لي ؟ »

« طبعا . انت تتكلم الانكليزية ولكنك غير انكليزي » .

« لاجيء من امريكا الجنوبية . اعمل محررا في جريدة » .

ولم يتطبع ان يضيف شيئا اكثر يعلى من قدره ، ولكنه استمر يقول

« لست لاجئا طبعا . وارى انك ما زلت من انصار الميني . وانا من

عشاقه »

« لماذا تلجأ الانكليزية ؟ اني طالبة اسوح في اوربا ، باقل مصرف . اكره ان اتجمع مع آخر او اخرى او اخرين ، والرغبة في التخفف ، وحر الصيف ، هما دافعاي الى الميني . السائح صيفا يجب ان يكون متخففا ، خصوصا اذا ما كان من حاملي اسلاهم على ظهورهم . اني صادقة الحدس ، وهذا ينجيني من كثير من المكاراه ، لقد وصلت توا ، ولما افكر بالماوى . اني خفيفة الظل ، وسوف لا امكث اكثر من اسبوع ، حتى ولو طابت لي الإقامة . هل انت متزوج ؟ او مرافق ؟ »

« لاهذا ولا ذاك . ولكنني احب ذوات الظل الخفيف . وفي غرفتي

الوحيدة مجال لباقة زهر حية » .

« ستضعها في مزهرية . ولكنها سوف لاندبل » .

« ساسقيها وارعاها » .

« ولكنها ستختفي اخيرا » .

« فلتخفف متى شئت • لست من انصار التملك المطلق • انتهي
اشتراكي » •

وشاع السرور في وجه الشاب ، وازافت

« وانا ايضا اشتراكية • وارى انك عشير مثقف وارجو ان نقضي وقتا
طيبا » •

« اذا كنت تعب من السفر فلا مانع عندي من الذهاب الى المسكن » •
« الحقيقة اني تعب جدا • وارجو ان اجد عندك دشا على الاقل ويحسن.
بنا ان تترك الحديقة ، فقد بدأ الشبان يلغطون وعلائم الخيبة والغضب تشتد.
وتقوى ، فلتخفف عنهم » •

وتأبطت ذراعه وعاد قافلا الى مأواه ، سالكا نفس الطريق ، يسحب.
انفاسا طويلة منعشة • وتوقف عند العلة المسحورة وازاد شلنا اخر •

واختفت كل نصائح الطبيب وتحذيراته • بعد ان صار يجز انفسا
عميقة ، مصدرها هياجه ونفاذ صبره • وحتى لو تذكر نصائح الطبيب ، وحتى
لو لم يلتق بهذه المغرية ، التي تفقد الانسان صوابه ، فان الشارع العريض
الطويل كان قد امتلأ بالزحافات ، كبيرة وصغيرة ، ذات اشكال والوان.
مختلفة ، تنفث نارا وسوما قاتلة ، مخلوقات عجيبة من صنع الانسان ، لا من
صنع الواحد القهار • وما يصنع الله اقل خطرا على مخلوقاته ، مما تصنع
مخلوقات على نفسها •

« يظهر انك من ذوى الاحسان » •

« صاحب هذه اللوحة ذو اللحية الذي ضايقتك ، هو يوناني لاجيء ،
اني لا احس نحوه الا بالشفقة ، انا لاجيء مثله » •

« وانا ايضا لاجئة اليك ولكن لمدة مؤقتة لجوءا خفيفا لطيفا » •

« حبذا لو كان من في العالم لاجئ على شاكلتك • انه لجوء لذئذ » •
وتطلع الى عينها العسلتين ، وشفتيها القرمزيتين • لا كحل ولا احمر
شفاء • ياللفاكهة الناضجة • وابتلع كمية جديدة من الهواء •

سيتغلغل في اعماق الحديقة عن قريب ، وسوف لا يكتفي بالنظر بل
سيشم ويتذوق ، ويقطف ثمارا جديدة ذات مذاق عذب ، يشبع جوعا ،
ويروى ضمنا •

وحينما احتوتهما الغرفة ، رآها ترمي خرقها القليلة عن قامتها الهيفاء ،
وادرك اي حديقة مثمرة قد دخل • وبقي ينظر الى ماء الدوش يسيل فوق ماء •
واحس بقلبه يكاد يشب من صدره •

قال لنفسه لعنة الله على الطبيب ، وعلى قلبي العليل ، وسحقا للعالم
اليائسة الياسة ، وتمسا لحياة كلها شقاء ، فانها كلها لا تساوي ساعة سعادة
يقضيها لاجئ سياسي مع لاجئة اجتماعية • ولعل الميزة الوحيدة لمصر اللجوء ،
وجود لاجئات كهذه • واذا ما انفجر قلبي ، ولم يحتمل كل هذه المتعة ،
فليذهب الى سقر •



الشيخ والكاعب

استولت الشاة على لب الشيخ وكل حواسه • ومضت الاشباح على الشاة تقوم بحركاتها المجنونة المنطلقة تمثل ما يفعله كل انسان من افعال لا يشبع منها ، ولعل الشيوخ التهمين الى الاستمتاع بكل ما يمكن الاستمتاع به قبل الموت ، وهم اكثر الناس ولعا ما يراه الشيخ • عمليات جنسية مكشوفة بين نساء ، من اجمل ما يكون النساء ، ورجال في اتم عتفوان الشباب • لا فكرة ، لا موضوع ، لا قصة ، لا هدف ، استغفر الله ، بل ثمة هدف هو اثاره الفرائز الجنسية الى حد الهياج •

كانت صالة العرض نصف مملوءة بشبان قلائل ، وشيوخ وكهول كبار • كان الشبان لا يلبثون ان يتركوا القاعة قبل انتهاء العرض وخصوصا اولئك الذين لا تصاحبهم رفيقات من الجنس الاخر ، يجلسون في معزل ، ويعبثون بسراويلهم ثم يتسللون من القاعة ، كل حسب المدة اللازمة لاشتعال الفتيل ، وحدثوا الاشجار ، اهتجار لا يعاين سوى صاحبه • كان فيل الشيخ اطول من كيلو متر ، ولكنه يحتفظ بشحنه من البارود ، قد لا تفجرها عدة عروض مما يرى • ولكن العرض كان يطلق بقايا هرمونات في جسمه ، تنصب في دماغه ، فتتمارح اقسامه ، ويشدد عمل قلبه ، ويشعر بالقوة تدريجيا ويتذكر صوة الشباب ، ذهنا وجسما •

كان سعيدا وحيدا ، يكاد يشم رائحة اللقاح فيما يرى من عملية تلقيح،
وعلى وجهه المنبسط الاسارير بسمة رضى وقناعة •

لم يحس بالصيبة التي جلست في المقعد المجاور الا بعد ان عبرت رائحة
عطر نفاذة الى انفه ، فكاد يعطس •

وازداد نشوة وهياجا • وادار وجهه قليلا ، فرأى وجها فاتنا يبرق على
الضوء المنعكس من الاشباح على الشاشة المهيجة • ومد بصره في الظلام ،
لا رفيق لصاحبة الوجه المثير ، لا من ذوى الشعور المنفوشة ، ولا اللحى
المفروشة ، ولا ممن رفضوا التقاليع الحديثة •

ومضت التساؤلات تتكاثر في عقله ، وتتصادم وتتضارب ، ثم تتعاقب
وتتحاب ، بل وتتواصل ، كما تفعل اشباح الشاشة • أهى من بنات الشوارع؟
ولكن هؤلاء وقتهن من ذهب ، ولا ارب لهن في صالات سينما البورنو ،
بل وانهن ليعادين هذا النوع من المنافسة التي تنزل بأسعار السوق الى
الحضيض • الشيخ يدرك ذلك • أهى اذن من المتوثبات اللواتي يخطرن ،
حينما تستعر اجسادهن ، في البحث عما يطفىء ضماهن الشديد ؟ وتعطشهن
الى ما يطفىء الحرارة البكر ، المبكرة في اشعال وقودهن السريع الالتهاب ،
الصافي النقي ، الذي هو اشد اشتعالا من اقوى انواع الكحول •

ولكن لم اختارت مجلسا بجانبه ؟ اترها لم تراث السنين على وجهه •
انه يراها جيدا على ضوء ما ينعكس عن الشاشة ، ويدرك مبلغ ما في وجهها
من فتنة ، مع ان بصره اقل حدة من بصرها اضعافا مضاعفة •

واستكان الى حلم لذيذ دفع في رأسه الدماء المتسارعة في شرايينه ،
وما فيها من هرمونات • ثمّة صبايا يهوين الشيوخ • ويخفن من الشبان •
فالشبان يلهبون الشعلة ، وبعد ان يتدفأون بها يطفئونها باقدامهم بكل
شراسة •

اما الشيوخ فيتعبدون لها ويركعون ويسجدون • يحرقونها على مهل ،
فيمدون في الشعلة حياة وتألقا • تذكر صديقه هانز ، وما رواه له وهما يحتسيان
الخمرة في حانة حارتهما المفضلة ، « كيف اولعت به صبية من الحي لما تتجاوز
العشرين ريعا • كيف تأتبه في غفلة من كل الامل والجيران ، اذ هو وحيد
لا زوج ولا اولاد • فتكشف عن مفاتها ، فيقوم لها بواجب العبادة ، من
ركوع وسجود ، وتقبيل ولحن وتلمظ ، حتى ليكاد يغيب ولها وتقى ، حتى
يرضى المعبود ، فيذهب مكتفيا ليعود ، بعد مدة من جديد » •

لعل هذه الصبية من هذا الطراز ؟ واحسن بيد توضع على ساقه • فشعر
بقلبه يثبت في صدره • كان قلبه ، لحسن حظه ، قويا رغم سنه السبعين
والا لأخرج من قاعة العرض محمولا بسدية اسعاف ، ربما الى القبر رأسا •
واشتعل موضع اللبس من ساقه باليد الملامسه • ونسى كل شيء على شاشة
العرض ، ووضع يده فوق اليد المستعرة ، فاستعرت ثلاثة اعضاء متلامسه •
واولع القليل على مهل ، وتلاقت نظرات شيخ خاية ، بنظرات كاعب متألفة ،
وابتسم وجان ، يفصل بينهما نصف قرن •

ولم يعرف كيف انتهى العرض • ولكنه حين وقف تشبث باليد اللدنة ،
تشبث العريق بقشة ، واستجاب له الكاعب ، وخرجا كجد وحفيدة ، وتأبطت
ذراعه في الشارع ، دون ان يستغرب احد ، ومضت تنافيه « كيف الحال
يا جدي ؟ ابك بقية من حياة ؟ » •

« اجل يا عزيزتي عندي بقية اضعها تحت قدميك الالهيتين • فاي مطلب
استطيع ان احقق لك ؟ ابك عطش ام جوع ام ماذا ؟ »

« ان ارتياد حانة غير لائق بجد وحفيدة ، وليس بي من جوع ، ولكن
غرفتي التي اسكنها قريبة • وبني عطش الى مياه الحياة • وانا احب الينابيع
الهادئة ، لا الشلالات المخيفة التي تهدد بالاغراق » •

وتأملها مليا ، فلم ير خبثا ولا طمعا ، بل وجها ملائكيا ، يشع نورا ،
وعظما . فما لبث ان قال مبتهلا .

« اني طوع امرئ ، عبدا تصنعين به ما تشائين »
« اذن هيا بنا تمشى ، فيبتي غير بعيد » .

ولم يعرف الشيخ كيف وصل ، وكيف نهض به المصعد ، وكيف
ادارت الصبية المفتاح في القفل ، وكيف وكيف ؟

اجلسته على اريكة ، واسعفته بكأس من الويسكي . بعد ان نزعت
عنه سترته ، وتوجهت بها نحو خزانة سينة ، فتحتها وعلقت السترة داخلها في
مشجب من مشاجبها . ثم ردت باب الخزانة واحكمت اقلامه ، وعادت تحسني
معه الكأس ، وتطلق ، له شرارات البرق ، وتهدر بضحكاتها المجلجلة .

ثم شرعت تنزع ملابسها قطعة قطعة . ولم يخنه قلبه الشيخ . وتجمعت
في دماثة كل ما تبقى في غدده من هرمونات .

وبدأت مراسيم العبادة . وقام الشيخ بما يدل على تقواه . وقدم اقصى
ما يمكن ان يقدم عابد لخالفه ، واستمرت صلاته اكثر من ساعة ، حتى لم
يبق في طاقته بقية من قوة ، فذاب في وجده ، وانهار مبتهلا ، ودموع الهيام
تنهل من عينيه . ورضى صنمه الحي كل الرضى ، واسبح على العابد ايات قبوله
بما قدم له من قراين .

وعاد تدريجيا الى عالم الواقع ، دون ان يخف وله بما فتنه .

واسرعت الصبية الى الخزانة فاخرجت سترته والبسته بكل احترام ،
واراد ان يمد يده الى جيب سترته ، فوثبت وامسكت بيده ، واقسمت الا
يحاول ان يهينها ، بتقديم مال ، بل وهددت ، فزاد بها اعجابا ووجدا .

وخرج سكران حالما ، يكاد يطير في الهواء ، وهو يمتني نفسه بلقاء

آخر وآخر ، يا للسماء كيف نزلت عليه هذه النعمة . وما فيه يستحق كل ذلك ؟ ولكن للصبايا شذوذا لا يدركه الشيوخ . نعمة على المسنين فسي الدنيا ، قد يستحقونها عاجلا لاعمالهم الصالحات ، لا آجلا في الآخرة ، وما فيها من حور وغلما ن .

واطل في حاته المفضلة فرأى هانز لوحده ، فاسرع اليه مستبشرا ومضيا يحسبان كؤوسهما المفضلة وتبادلان اخبار الاعاجيب ، اعاجيب العصر الحاضر ، عصر الذرة والرقمي ، عصر مجد الشيخوخة .

ودفعت الاريحية ، وليدة الرضى والبهجة ، الشيخ كتر ، ليدفع حسابه مع حساب رفيقه هانز ، ومد يده الى جيب سترته ليخرج محفظة نقوده ، فوقعت يده على خواء . وادرك على الفور كل ما حدث . ولكن كيف فقزت المحفظة من جيبه ، لوحدها في الخزانة ؟

ولم يرق له ان يكدر حلمه ، ويحطم صنمه ، فقال لصديقه معتذرا . « يا لذاكرة الشيوخ الضعيفة . لقد نسيت تقودي في الدار . لقد سحبت اليوم ثلاثين الف شلن من البنك . وفضلت ان اترك المبلغ في البيت ، حذرا من اللصوص والنشالين . ان الشيخ لا يأمن على ماله ، او على نفسه في هذه الايام » .

فقال هانز « فلادفع انا اذن ، وسيكون ، دورك في المرة القادمة » . واقتربا ، وقصد كتر شقته ، ولما اقترب من باب العمارة وجد سيارة طوارئ يدور مصباحها الازرقان ، وقد وقفت حذاء باب العمارة ، وامام السيارة شرطي ، ما لبث ان تقدم منه وقال محييا . « ليلة سعيدة ايها السيد كتر . هل لك ان تصحيني الى المركز ، فلعلك تجد شيئا قد سرق منك ، او قد اضاعته ؟ » . ولم ينبس الشيخ بسوى « تحت امرك يا عزيزي المفتش » .

وجد مأمور المركز وراء منضدته ، ومعبودته جالسة امام المأمور ،
وبجانها موظف البنك الذي اجرى له عملية سحب المبلغ ذلك اليوم . ورأى
محفظته على المنضدة امام مأمور المركز . فاوماً برأسه ، يحيى الفتى والفتاة .
ثم حيا مأمور المركز ، فرد المأمور التحية باحترام ، وطلب منه ان يجلس . ثم
دار الحوار التالي •

المأمور « اتعرف ايها السيد كنتر الفتى والفتاة الجالسين ؟ ولكن لم
السؤال ؟ لقد هجست من التحية بانك تعرفهما • »

واجاب السيد كنتر على الفور •

« الفتى هو السيد كيرهارد موظف في البنك الذي اتعامل معه ، وقد
التقينا اليوم عند سحبي مبلغ ثلاثين الف شلن من البنك » •
وشحب وجه كيرهارد وتابع كنتر حديثه •

« اما الصبية فهي قريبة من بعيد لزوجتي المرحومة هي الانسة
يا لذاكرتي الضعيفة » • وتألق وجه الفتاة ببسمة ارتياح واعاته •

« لقد سألتني عن اسمي ايها السيد كنتر اليوم ثلاث مرات • انا الانسة
جوزفين موتزباخر ، ابنة اخ المرحومة هرمينا كنتر » •

« اجل اجل عذرا يا عزيزتي » •

وبهت الشاب ، وعادت الى وجهه الدماء •

وارتبك مأمور المركز ومضى شارحا •

لقد وجهت شكاية ضد الانسة ، بانها تستدرج الرجال المثقلة جيوبهم
بالمال ، فتسلبهم ما يجيوبهم بطريقة شيطانية ، اذ يختبئ صاحبها في خزانة
كبيرة ، وتعلق ستره زوارها في الخزانة • وبعد ان تخدرهم بالغرام • يخرجون
بعد ان تلبسهم القاتنة سترهم ، بدون محافظ تفقد هذه المرة • لقد قدم

احدهم شكاية حول هذا الموضوع ، لم يستطع اثباتها • وقد تصورنا اننا قد قبضنا على المجرمين متلبسين بالجرم هذه المرة •

وقهقه الشيخ كتر ، ومد يده يداعب خد الفتاة وشعرها وهو يقول •

« اهذه القطيطة تستطيع كل ذلك ؟ اتصور هذا ؟ • اما خطيها الشاب كيرهارد فتقة لا غبار عليها • ماذا فعلت يا جوزفين بمحفظتي التي اودعتها لديك ، وبها ثلاثون الف شلن • اني اخاف ايها المفتش من حمل هذا المبلغ ليلا وخصوصا عندما اقصد الحانة لاتتشي ، اننا الشيوخ في خطر دائما » •

فاجابت الفتاة ، ووجها يطفح بشرا وشكرا ، الى منضدة المأمور •

« هي ذى على منضدة المفتش ، لقد تصور اننا سرقناها منك » •

وتناول المأمور المحفظة السمينة للسيد كتر وهو يقول

« خير لك ان تعد النقود ايها السيد كتر ، لقد عدناها ، وهي ثلاثون

الف شلن كما قلت ، وعذرا للجميع » •

وتناول الشيخ محفظة نقوده • وتناول من داخلها الف شلن قدمها

للفتاة قائلا •

« لا استطيع ان اقدم لك اكثر من هذا الان • وحين تكونين في حاجة الي،

فتعالى الى منزلي ، وحافظي على سمعة خطيبك ، ولا تعرضي للشبهات » •

وعند خروج الثلاثة ، وبعد ان ابتعدوا مسافة • شكت الفتاة رأس

الشيخ ، والقمته فمها بقبلة طويلة حقيقة هذه المرة ، اما الشاب فقد تناول

يده ، ومضى يشبعها تقييلا •

قال مأمور المركز بعد مغادرة الجناة والمجتى عليه ، مخاطبا رفاقه •

« ماذا ترون ؟ اني لا اكاد اصدق حرفا مما قال الثلاثة » •

« اعتقد ان الشيخ كان يهون عليه ان يفقد كل محفظته في سبيل صحة الصية الحسناء » .

« لابد انها قد اذاقته ما يساوي كل ثروته ، الحقيقة انها غير شريرة فهي لا تلجئ الى العنف . اما رفيقها فيكتشف مرة ، ان اصر على هذا الاسلوب في السرقة » .

وقال رابعهم .

« مالنا ولهم . اما الضحية الاولى فله الله . لقد سرق منه مبلغ قليل ، فأقام الدنيا واقعدما ، ولكن اين بيناته . اني لأظنه صادقا . والفتاة حلوة جدا ، اما الشاب فاعتقد انه مبتدىء في فن السطو ، فأما الى صلاح ، واما الى سجن مدى الحياة » .

وانهى الخامس الحوار بقوله

« يا للشيخ . كم يمشق الحياة ويتشبث بها ؟ هل ترانا سنكون من عشاقها بمثل هذه الدرجة ، لو ادركنا سنه ؟ »

فينا ١٩٧٥

* * *

مستقبل التنكه كفا

كلمة قالها كمال فذهبت مثلاً •

ولكن من كمال هذا ؟ افيلسوف ، ام حكيم ؟ ام ماذا ؟ وعلى كل فلقبه ابن الملا • وهذا لقب •

كمال جرم صغير ، اذا قيس بمخالقة الرجال • اسمر الوجه ، اسود العينين يحمل خداه خدشين اسودين ، يقول ان زوجة ابيه هي السبب فيهما ، لما ارادت ان تعالجه من مرض شيطاني • وبهذا المرض الشيطاني يستحق ان يدخل في زمرة عمالقة المشاهير ، كدستوفسكي او يوليوس قيصر • ولكن ثمة من يقول ان ذلك من دلائل النبوة • ومظاهر الوحي • فهو ليس بمرض • ويفرق بين القولين ايمان وكفر • فاذا ما اضفنا حكمته الى مرضه ، شالت كفته •

لقيته لأول مرة في سفارة عربية في فينا ، ولو لم ينهض ، محتفياً بي ، لما كنت عثرت عليه وراء منضدته الضخمة • قال يواسيني « قدرك نعرفه ايها الاستاذ ، منذ عهد المدرسة ، فلا تأس ، يا استاذ ان (مستقبل التنكة كفا) » •

ولم ادر أكان قوله هذا مديحاً أم هجاء • الموضوع يدل على مديح ، اذن فهو يعني بمثله ، ان الخزف الرقيق الغالي ، الذي يحتل الصالونات ويزين

القاعات هو الذي سيتحول الى قحوف ، حين يتحطم • وشكرت كمال •
ونشأت بيني وبينه رابطة ود •

كنت احب الصغار ، وزاد حبي له لما رأيت رفيقته المختارة ، اصفر
حجبا منه ، يحس الانسان انه يستطيع ان يجمعها بكفه ، ويضعها في جيبه ،
على ان يكون كمال في الجيب الآخر •

اما كيف التقى كمال باناليزه ، فهذا ليس من موضوعنا ، ولكن كيف
استطاع ان ينبا عشنا جيلا ، بل عشرين جميلين فهو من موضوعنا •

كمال موظف صغير ، ذو راتب قليل ، واناليزا موظفة صغيرة ذات راتب
كبير ، ذلك لانه عربي وهي نمسوية ، مشرق ومغرب ، ولكنهما التقيتا ،
وتفاهما ، واخذتا ينيان اعشاشا •

انا معجب بالطير الخياط ، هذا المخلوق الصغير الذي يحيك عشه حياكة
عجيبة من الاغصان الصغيرة ، يختارها بعناية ، ثم ينسجها نسجا عجيبا ، ويقول
العلماء انه يفعل كل ذلك غريزة ، بدون اعمال الفكر ، وكمال يعمل على الالة
الطابعة ، بدون اعمال الفكر ، واناليزه تشتغل على الحاسبة الالكترونية
الكومبيوتر اذكى من الانسان في حقله الخاص ، والالة الطابعة تتقن الكتابة ،
احسن من البشر • ولكن هاتين الالتين استتا عشنا في فينا ، وآخر في الريف •

ومضى الحكيم الصغير يتباهى بما أسس مع الحكمة صاحبه ، ورفع
نفسه الى مصاف الكبار ، صار يدعو رؤساءه الى قريته والى بيته ، فاستفادوا
من كرمه وجب التظاهر عنده ، وحسده كثيرون •

احس كمال بالاستقلال ، وهذه بادرة خطيرة ، فقد كانت امثاله الناقدة ،
ولسانه الطويل ، يتناول القاصر والداني ، وكأنه يقول لنفسه « وما عساهم
ان يصنعوا لي • انا هنا في امان ، وعشي مكن » •

كان ساذج التفكير بالسياسة ، وكل انسان يحب ان يكون سياسيا ، ويجب ان ينتقد ، بل ويشتم ، اما هنا في فينا ، فيكاد الناس يقدفون بهذرهم حتى في وجه رئيس جمهوريتهم ، فلا يولد هذرهم غير ابتسامة اشفاق ، اما عند العرب ، فالامر له وجه اخر ، فقد برهنت التجارب على ان الكلمة تصبح جملة ، وتتحول الجملة الى خطاب ، ثم يصبح الخطاب كتابا ، واذا ما كان الكتاب ضد السلطة القائمة ، اية سلطة كانت ، تلقتة الناس بالسر وبالعلن ، ثم تبدأ المظاهرات ، وتحدث الثورات • وينظم الجيش الى قلة من المتظاهرين ، وتحدث الانقلابات ، وتسيل الدماء ويأتي دور التشفي من الاعداء ، واشفاء الغليل من المسيئين •

لذا رأى بعض الرؤساء ان كمال عنصر فتنه •

وزاد في الطين بلة ان شخوصا بارزة ، كانت تلحظ كمالا بعين الرضا ، وتوليه اهتماما ، وتبدى له صداقة • فقد اعانهم يوم شدة ، وقد شعرت انا بهذا ايضا ، في توجهه لي ، حينما شعر بانتي انا ايضا في شدة ، وفي امثالي ممن لقوا عنتا في دنياهم ، ضعف امام هذا النوع من المجاملات • وتلك عادة في كمال لا ادري اهي سيئة ام حسنة ؟ وفي كل بلاد الله ، وفي كل الاحزاب في الدنيا ، تجد اناسا يعيشون على استغلال الخوف والحذر ، في ربحهم ، وفي دفع المخاطر عنهم ، وخصوصا في عهود الارهاب •

وحل رئيس فوق كمال ، محل آخر ، كان الجديد يعرفه ، فاراد ان يوجي اليه ، انه مربوط به ، في خيره وشره ، واراد ان يستغل قوة تقوذه هذا الموظف الصغير الوهمية ، اذ توهم انه ممن يقدمون التقارير السرية ، فاراد ان تكون تلك التقارير في صالحه ، فلم يستجب كمال ، لا كبرياء ، بل لانه كان حقا موظفا صغيرا غير خطير • وشاع العداء بين الكبير والصغير ، وتنبأ كل من يعرف كمال بان التنكس ستتحول الى قحوف • وما كان اشد دهشة المراقبين ، حينما رأوا الخزف الثمين هو الذي تحول الى قحوف •

وقال لكمال كل عارفيه ، لقد حطمت الرئيس ، فما قيمتك الخفية
ياكمال ؟ واجاب كمال وابتسامة سخرية تلوح على وجهه « مستقبل التكنة
كحف » كان يقصد شيئا ، والناس يفهمون شيئا آخر .

واتى رؤساء جدد . فانضم كمال الى صفوفهم ، على الفور ، ومضى
يقدم لهم الخدمات ، ويدعوهم الى عشه ، ويسبح بحمدهم . حتى اهلني
اهمالا مشينا ، مع انه كان يدعي صداقتي . والظاهر انه كان لا يرهب
اضتي ، ولا يخشى من خصومتي ، فمن انا بالنسبة الى رؤسائه ؟

وضحكت ، بل وحمدت الله اذ وجدت ان كمال استطاع ان ينتبه الى
ان زيادة مركزهم الموهوم ، قد يكون وبالا عليه ، اذ انه سينبه رؤسائه الى
خطره ، وكل انسان لا يجب ان يعيش مع مصدر خطر . وما دام كمال يريد
ان يحتفظ بمصفورته وبعيشه ، فليسامحه الله ، وليهأ وليطمئن ، في هذا
العالم المضطرب .

ولكن كمالا كان قد اثار عاصفة من الحذر ، عند اناس آخرين ، عند
اشخاص مهمين . لهم اصوات مسموعة عند الاعلى ، وليس لهم اسم في دائرة
او سفارة ، كانوا يعرفون كمالا ويعرفهم . كان لا يحبهم ولا يحبونه .
لا يحبهم ، لانه كان يعتقد انهم عالة ، وانهم طفيليون ياكلون دون تعب ، بل
ويدمرون غيرهم في سبيل بقائهم . وكانوا لا يحبونه لمعرفة رأيهم فيهم ،
ولظنهم بأنه ذو كلمة تطير الاف الكيلو مترات ، لتقع في اذان المسؤولين ،
الذين هم مصدر رزقهم الخفى واستطاع هؤلاء ان يؤثروا على رؤسائه الجدد ،
بل وان يخيفوهم من كمال ، ويضاعفوا من قيمة خطرة الموهوم بخطره عليهم
وعلى رؤسائه .

وفي هذا المخلوق صفة اخرى ، تضايق رؤسائه ، فهو حاد البصر يرقب
كل تغير يحدث في السفارة التي يعمل فيها . ويحدث احيانا ، حين يأتي

رئيس في عنفوان الرجولة ، فيرى ان يفصل ذكرا ، ليعين محله انثى في عنفوان الشباب والجمال فيفتح كمال عينيه ، ويهز رأسه ، ويقول (مستقبل التنكة كحف) • فتعتبر عبارته تهديدا خطيرا •

وتظافرت الجهود هذه المرة ، على هذا الخطر الموهوم ، واتى الامر بفصل كمال من عمله وارجاعه الى بلده وبلغه رئيسه بالامر وعيناه دامتان ، صدقا او كذبا ، وأسف عليه رفاقه • وحتى اعداؤه الخبيون ، عزوه ، وبأن عزائهم الكاذب حين قال احدهم مازحا « لا بأس يا كمال فمستقبل التنكة كحف » •

وقصدني كمال يبثني شكواه ، وفرحت حين ادركت انه يعتبرني صديقا عند الشدة ، ذلك ذو قيمة بالنسبة لي ، ولو انه يستوجب قيمة الاخرين • وغيظهم ، وقررت ان اساعد هذا المصفور المصروع ، الذي بدأ الصرع يفارقه من يوم ان اسس عشه واوى الى كف عصفوته • والمساعدة بالرأي • أولا • قلت له « هل انت متهم بشيء يا كمال ؟ »

« لا تهمة في امر الفصل ، والحقيقة انهم يقولون ان الامر امر نقل لا فصل ، وسيكون عملي في بلدي ، وقد يساعدوني على الانتقال الى بلد آخر • ولكن اين اجد عصفورة تقبلني ؟ واين استطيع ان اجد عشًا ؟ سيعاودني الصرع بل وسيقتلني • لقد وجدت هنا الشفاء ، بالطب والدواء ، ولا شفاء لي بغير الإقامة هنا » •

« اذن فضع نصب عينيك اضاعة الوظيفة » •

« لقد اضعتها ، ولست بأسف • اني ابحث عن عمل • اي عمل » •

ومضى كمال يبحث عن عمل ، اي عمل • طلبت منه شهادة حسن سلوك ، فرفضت السفارة اعطائه مثل هذه الشهادة قائلين « يجب ان ترجع الى بلدك » • قال لي مرة في ساعة يأس « اذا نئست فسأنتحر • انا لا احب ان اعيش عالة على

امرأة ، والسلطات النمسوية تعتبرني اجنيا ، لا حق لي بالعمل عندها . اني اعرف اعدائي ، وسأقتلهم قبل ان اقضى على نفسي » . وبدأت اخفف عنه ، وامسح السواد من افق عقله الذي لم يشف بعد .

قلت له « اعرف صديقا وقع في ضيق مثلك ، فنزل في سبيل العيش ، الى اوطأ الاعمال . عمل حمالا في سوق الخضروات فكان يربح ما لا يربحه موظف مثلك من وظيفته ، مع اكياس تهدى له ، مما يحصله من صناعة ، يبيع بعضها ، ويأكل الباقي » .

فاستبشر وقال « سأفعلها والله . وارد كيد الحاسدين » .
والتقيت به بعد بضعة ايام . فاجاب تساؤلي بقوله

« قصدت (الناش ماركت) فرأيت العمل قد سيطر عليه شقاة ، يوزعونه على اليوغسلافين وغيرهم من اللاجئين ، مقابل نصف الارباح ، ولاحظت لعربي بين هؤلاء . ورأيتي امرأة ، بل جاموسة سألتني ما خطبي ؟ فشرحت لها محنتي ، فكشرت عن اسنان لماعة ، وسط وجه مدتفخ قد ضاعت معالمه ، وقالت غامزة (هل تصلح للفراش ؟ تعال وسأعطيك ضعف اجرتك مع المسكن والمأكل) فابتعدت خوفا من شرها قائللا (اسهل علي ان يفترشتي اخر من ان افترش امثالك) . فرميتي بقرعة عفنة تجنبتها بالكاد ، وهربت » .

وضحكت معه ، وهونت عليه الامور ، لاجنبه الافكار السوداء . وخطر ببالي ان الهيه حتى يفرجها الله . قلت « لقد تجمع عندي قصص واقاصيص ، وكتب خطها بيدي . فهل تستطيع فك ضلالم خطي ؟ وضرب ذلك على الالة الطابعة ؟ وسأعطيك ضعف اجرة الصحيفة في مثل هذا العمل . ولعلك سوف لاتنتهي منها ، حتى يفرجها الله » . فقبل الرجل شاكرا ، ومضينا نعمل معا ، ونحن نتشاكى الهموم في فترات الراحة . كان الرجل يخاف ان تطول به البطالة ، فيسبب ذلك تمرد عصفورته ، وطرده من جنته .

سألته في فترة من هذه الفترات •

« أليس هنالك من حسدك على هنىء عيشك ؟ فمضى يكيّد لك ليخرب بعشك ؟ »

فاجاب « ضع هذا ايضا في قائمة الاحتمالات » •

وما كان العمل الذي وضعت بين يديه كثيرا • ولو كنت من كبار الكتاب، لأتخذته سكرتيرا ، يضرب خزعلاتي ، على الالة الطابعة ، مقابل اجر مخترم • ولكنني ما ازال اصرف على ما اكتب من جيبى ، هوس أبليت به كما يتلى المدمن على المخدرات او المسكرات • فلا مجال للمساعدة من هذه الناحية •

وبعد • أهذه قصة ؟ ام عريضة شكوى ؟ ام نقد سياسي ؟ فلنترك كل ذلك لفضاحل النقاد • وعباقره الكتاب ، الذين يفكرون بكل شيء ، الا ان يكون الكاتب من المولعين بدفع الظلم ، ودفع الحيف • وتجنب الحكام المخلصين ، الراغبين في خدعة بلادهم حقا ، لا كذبا ، وما اندر هؤلاء ، مثل هذه المزالق ، التي سبها لاشيء ، وهي قيمة ان تؤول الى كل شيء •

واتكن هذه القصة السادسة من مجموعة قصصي الرابعة عشرة ، التي احلم بانى سأشرها ، مستعينا بحسن نواياى وحسن تفهم اولي الامر ، الذي تبسموا لي ، بعد نصف قرن ، من عبوس وتجهم • ولكن ...

همس في اذني احدهم وانا استمتع بفلم تلفزيوني ملون ، ذي موضوع بعيدا جدا عن السياسة ، في الدار العراقية ، في فينا « يشاع عنك انك تعمل مع المطارد كمال في طبع مناشير شيوعية ضد الحكومة » •

فاجبته بمثل همسه « كل عمري وانا اكتب مثل هذه المناشير بيدي • اما دور كمال هنا فهو مساعدتي على اعادة القحوف الى شكلها الاصلي ، بعد ان احال بعضهم التنكه الى قحوف •

سأحمل هذه المناشير الى اولى الامر في العراق ، ولا اتمشم ان تتحول
جسمتي الى قحوف ، فما زلت آمل بوجود خير في هذه الدنيا العجيبة » •
فرد على الهامس « هذا لا يفيدك ، فسيرجع تهم انت مع هذا
القرم ، بتحطيمه ، وسيحطمكم » •
فهمست رادا « ان تحولت التنكة الى قحوف ، فسوف لا ترجع القحوف
الى تنكة ، حتى ولا يمكن ان تصهر لتعاد فتسبك من جديد » •

فينا في ١٥/١٠/١٩٧٥

* * *

